كتاب
المنهاج في شعب الإيمان

تصنيف

الشيخ الإمام الحافظ
أبي عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي
المتوفى سنة ٤٠٣ هـ - ١٠١٢ م

الجزء الأول

تحقيق

حلمي محمد فوده

الطبعـــة الأولى

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

مقدمـــة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله .

من الحسين بن الحسن الحليمي إلى من بلغه كتابه هذا من أهل القبلة ، المشاركين له في الملة ، الراغبين في العلم والحكمة ، الطالبين علم المنهاج والشرعة ، المجعولين لنبي الرحمـة ، المبعوث بالحنيفية السمحة ، محمد خاتم الرسالة ، وصاحب الشفاعة ، والمؤتمن الشهيـد على الجماعة ، صلى الله عليه وسلم ، وخصه بالفضيلة والزلفة والوسيلة .

سلام عليكم ، فاني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله . أما بعد ، أحسن الله توفيقكم ، وسهل إلى ما يرضاه طريقكم ، وقوانا وإياكم على طاعته ما احيانا ، وأجزل حظنا وحظكم من رحمته إذا توفانا ، ونزع من صدورنا كل غل ، وجعل الحق أحب إلينا وإليكم من كل خل .

فالحمد لله الواحد القديم الماجد العظيم ، الواسع العليم الذي خلق الانسـان في أحسن تقويم ، وعلمه أفضل تعليم ، وكرمه على كثير ممن خلق أبين تكريم .

أحمده وأستعينه وأعوذ به من الزلل ، وأستهديه لصالح القول والعمـل ، وأسأله أن يصلي على النبي المصطفى الرسول الكريم المجتبى محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وسلم كثيراً ، ثم ان هذا كتاب جمعت فيه من الكلام في حقيقـة الإيمان ، وبيان ما يشتمل هذا الاسم عليه ويشار به عند الاطلاق إليه . وشرح ما جـاء عن النبي ﷺ انه قال : (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهـادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها اماطة الأذى عن الطريق [1] ، وتفصيل هـذه الشعب واحدة واحدة ، والكلام عليها بما يكشف عن حقيقتها ، ويقف الناظر فيه على جليتها . ما املت أن يعظم نفعه ،

(١) ورد في صحيح البخاري « كتاب الإيمان » باب ٣ وورد في سنن أبي داود كتاب السنة « باب ١٥ » حديث رقم ٤٦٧٦ ، وفي صحيح مسلم كتاب الايمان رقم ٥٧ .

ويكثر فائدته ، ويحسن على متأمليه عائدته . وسميته المنهاج اذا [١] كان ابانة لما نهجه الله – تعالى جده – لنا من الدين ، وهدانا له من الصراط المستقيم،وقال تعالى جده في كتابه: ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾[٢] . وقسمته عشرة أقسام في عشرة أبواب : أولها باب في البيان عن حقيقة الإيمان . وثانيها باب في زيادة الإيمان ونقصانه . وثالثها باب في الاستثناء في الإيمان وما يصح منه أو لا يصح . ورابعها باب في ألفاظ الإيمان وما يصح أو لا يصح . وخامسها باب في إيمان المقلد والمرتاب والتميز بين المقلد وغيره . وسادسها باب فيمن يكون مؤمناً بإيمان غيره أو لا يكون . وسابعها باب فيمن يصح إيمانه أو لا يصح. وثامنها باب فيمن لم تبلغه الدعوة . وتاسعها باب فيمن مات مستدلا[٣]. وعاشرها باب في شعب الإيمان وهذا الباب ينقسم سبعة وسبعين باباً :

أولها باب في الإيمان بالله عز وجل بآياته وبيناته . والثاني باب في الإيمان بالنبي ومن تقدمه من النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين بدلائله وحججه . والثالث باب في الإيمان بالملائكة . والرابع باب في الإيمان بالقرآن وسائر كتب الله تعالى المنزلة . والخامس باب في الإيمان بالقدر وان خيره وشره من الله . والسادس باب في الإيمان باليوم الآخر وتفسيره. والسابع باب في الإيمان بالبعث وكثير من حججه. والثامن باب في الإيمان بالحساب والميزان . والتاسع باب في الإيمان بالجنة والنار وفيه ذكر الصراط . والعاشر باب القول في محبة الله تعالى جده . والحادي عشر باب القول في مخافته والتفكر في وعيده . والثاني عشر باب في رجائه والثقة بوعده ، ودخل في هذا الباب القول في الدعاء وشروطه وآدابه وأوقاته وأحواله . والثالث عشر باب القول في التوكل عليه والاعتصام به ، دخل[٤] فيه القول في التداوي من الأمراض والاسترقاء وما جاء فيها وفي سائر الاحترازات[٥] . والرابع عشر باب حب النبي ﷺ وآله وأصحابه . والخامس عشر باب في تعظيم النبي ﷺ واجلاله وتوقيره. والسادس عشر باب في الشح بالدين.

---

(١) إذ كان . (٢) سورة المائدة – آية ٤٨ .

(٣) فيمن مات مستدلا بالنبي صلى الله عليه وسلم ومن تقدمه من النبيين صلى الله عليه وسلم أجمعين وحججه .

(٤) ودخل فيه القول ... الخ

(٥) الاحترازات : جمع احتراز . واحترز من كذا وتحرز منه أي توقاه . ويسمى التعويذ حرز .

والسابع عشر باب في طلب العلم والثامن عشر باب في نشر العلم . والتاسع عشر باب في تلاوة القرآن وآدابها [1] وغيره من فضولها . والعشرون باب في الطهارات . والحادي والعشرون باب في الصلوات . والثاني والعشرون باب في الصدقات . والثالث والعشرون باب في الصيام . والرابع والعشرون باب في الاعتكاف . والخامس والعشرون باب في المناسك . والسادس والعشرون باب في الجهاد . والسابع والعشرون باب في المرابطة في سبيل الله . والثامن والعشرون باب في الثبات للعدو عند الالتقاء . والتاسع والعشرون باب في أداء خمس المغنم . والثلاثون باب في العتق ووجه التقرب به إلى الله عز وجل . والحادي والثلاثون باب في الكفارات . والثاني والثلاثون باب في الإيفاء بالعهود . والثالث والثلاثون باب في تعديد نعم الله وما يجب من شكرها . والرابع والثلاثون باب في حفظ اللسان . والخامس والثلاثون باب في الامانات وما يجب من أدائها إلى أهلها . والسادس والثلاثون باب في تحريم النفوس والجنايات عليها . والسابع والثلاثون باب في تحريم الفروج وما يجب من التعفف عنها . والثامن والثلاثون باب في تحريم أموال الناس وما يجب من التعفف عنها ودخل فيه القول في السرقة وقطع الطريق . والتاسع والثلاثون باب في المطاعم والمشارب وما يجب من التورع عنه منها . والأربعون باب في الملابس والزين والأواني وما يكره منها . والحادي والأربعون باب في تحريم الملاعب والملاهي . والثاني والأربعون باب في الاقتصاد في النفقة وتحريم أكل المال بالباطل . والثالث والأربعون باب في الحث على ترك الغل والحسد . والرابع والأربعون باب في تحريم اعراض الناس وما يلزم من ترك الرتع فيها . والخامس والأربعون باب في اخلاص العمل لله وتحريم الرياء . والسادس والأربعون باب فيالسرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة . والسابع والأربعون باب في معالجة كل ذنب بالتوبة منه . والثامن والأربعون باب في القرابين والابانة عن معناها وغرضها والتاسع والأربعون باب في طاعة أولي الأمر بفضولها . والخمسون باب في التمسك بما عليه الجماعة . والحادي والخمسون باب في الحكم بين الناس وما يتشعب فيه من الكلام . والثاني والخمسون باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والثالث والخمسون باب في التعاون على البر والتقوى ، ونصرة المظلوم واغاثة اللهفان .

---

(١) باب في تلاوة القرآن وادمانها وغيره من فضولها .

والرابع والخمسون باب في الحيـــاء بفضوله . والخامس والخمسون باب في بر الوالدين . والسادس والخمسون باب في صلة الأرحام . والسابع والخمسون باب في كظم الغيظ وحسن الخلق ولين الجانب والتواضع . والثامن والخمسون باب في الاحسان إلى المماليك . والتاسع والخمسون باب في حق السادة على المماليك . والستون باب في حقوق الأولاد والاهلين على الناس . والحادي والستون باب في مقاربة أهل الدين وموادتهم وافشـــاء السلام فيهم . والثاني والستون باب في رد السلام . والثالث والستون باب في عيادة المريض . والرابـع والستون باب في الصلاة على من مات من أهل القبلة . والخامس والستون باب في تشميت العاطس . والسادس والستون باب في مباعـدة الكفار والمفسدين والغلظـــة عليهم . والسابع والستون باب في إكرام الجـــار . والثامن والستون باب في اكرام الضيف . والتاسع والستون باب في الستر على أصحاب القروف . والسبعون باب في الصـــبر على المصائب . والحادي والسبعون باب في الزهد وقصر الأمل . والثاني والسبعون في الغيرة والمـــذاء . والثالث والسبعون باب في الاعراض عن اللغو . والرابع والسبعون باب في الجود والسخاء . والخامس والسبعون باب في رحم الصغير وتوقـــير الكبير . والسادس والسبعون باب في الاصلاح بين الناس . والسابع والسبعون باب في أن يحب الرجل لأخيه المسلم ما يحب لنفسه ، ويكره ما يكره لنفسه ، ويدخل فيه اماطة الأذى عن الطريق .

ووجدت في القرآن عدة آيات تشمل كل واحدة منها على عدة من هـذه الشعب التي تقدم ذكرها ، وفي الاخبار عن النبي ﷺ مثلها ، وجعلت له باباً مفرداً أفردتها فيـه ، وتكلمت على ما يحتاج منها إلى فضل إيضاح وشرح حتى ظهر وجهـه ، واستبان المراد منه باذن الله تعالى. وقد كان بعض من ألف شعب الإيمان خرجها على تسعة وسبعين باباً ، ووجدته عمد إلى شيء واحد اختلفت العبارة عنه في الروايات[1] ، فأورده في بابـــين وعده شعبتين ، وربما عمـد إلى شيئين لا يتميزان ويجمعهما أصل واحد ، فجعله شعبتين . وأخل مع ذلك ببعض ما أوردناه فلم يذكر أصلاً ، فكتبت باباً مفرداً ذكرت فيـــه السبب الذي دعاني إلى تخريج هذه الشعب على سبعة وسبعين باباً . وبينت أن كل ما يظن

---

(١) في الروايـــة .

غيري انه خارج من هذه الأبواب فهو ملتحق بها وداخل بالحقيقة في جملتها ، واشتملت إلى وجه ذلك وأوضحته ، فصارت جملة أبواب الكتاب اثني عشر ، كل باب منها يجمع ما قصدته ووضع له إلا باب الشعب فإنه ينقسم إلى سبع وسبعين باباً كما تقدم بيانه .

وكان مما حدا بي على تأليف هذا الكتاب ، ورغبتي في جمع ما جمعته فيه ، خوفي على كثير بما ضمنته إياه من دقائق العلم وخباياه ولطائف الشرع وقضاياه بين أن يدثر ويعفو رسمه فلا يذكر لزوال الهم به عن الصدور ، ووقوع الاعراض عنه من الجمهور ، والاشتغال عن العلوم بالجملة بالتبقر في الأهل والمال ، والتهافت في الحرام والحلال ، والتنافس في رتب الدنيا والتغافل عن درج الاخرى ، والانقياد لدواعي الهوى وان قادتهم عناتا[1] الى الردى وتزحزح هيبة الله عز وجل عن القلوب لما ران عليها من ظلم المعاصي والذنوب ، والميل في عامة الأمور إلى الحفظ والدعة ، وانشراح الصدر بالجهل الذي هو أدرك منازل الضعة . وفساد النيات والدخل وفتور العزائم والهمم . فان الحال لما آل إلى ما ذكرت ، وتراجعت للتراجع الذي وصفت ، صارت طاعة الله ـ تعالى جده ـ تقام فيما تدعو اليه الضرورات الحاصلة ، وتترك فيما تحرك عليه المتوقعات الآجلة . وكان الهم بالعلم بقدر الهم بالعمل ، فطلب منه ما يضطر إلى العمل به سبب عاجل ، وهجر منه ما لا يحمل على استعماله في الوقت حامل . ولذلك وقع الاقتصار بعد تقادم العهد وتطاول الايام من امتثال الشريعة على أبواب معدودة منها : استباحة المباحات كالتبسط في المكاسب والتوسع في المطاعم والمشارب ، وانالة النفس هواها من المناكح والملابس ، إذ كانت الاباحة للهوى موافقة ، وللشهوات والمنى مطابقة . ومنها لزوم ما يجري من شرائع الدين مجرى الاعلام حتى لا يكاد المسلمون يتميزون عن غيرهم إلا بها كإقام الصلاة الخمس وصيام شهر رمضان وحج البيت ، فإنهم لو أهملوها لالتحقوا في ظواهر مايبدو للناس[2] من أفعالهم بالذين لا يدينون دينهم ولا يعتقدون ملتهم ، فكان القائم في نفس كل ذي دين ، وراجع من معتقده إلى يقين من الميل إلى اظهار ما عنده ، والكراهة من أن يظن به

---

(١) عناقا الى الروى .

(٢) لالتحقوا في ظواهر احوالهم وما يبدو للناس ... الخ وهو الصواب .

ما يخالف عقده هو الحامـــل لهم على اقامة هذه الطاعات ، والتمسك بهـا من بين أصناف العبادات .

ومنها القيام بمـــا ان اهملوه لم يحتملهم ولاة الأمور عليه ، نحو الزكاة التي تلزمهم في مواشيهم وزرعهم و كرومهم وما يظهر من أموالهم ، فإنهم لو منعوها لأخذت منهم قهراً ، أو[١] انتزعت من أيديهم جبراً ، ونحو اجتناب الكبائر التي بهـا الحدود . فإن السلطان قائم بأمر الله تعالى جده على كل نفس بما كسبت تردعها عن السيئات وتحول بينهما وبـين الموبقات ، فمن واحد يقتله ، وآخر يقطعه ، وثالث يجلده ، ورابع يحبسه ، وخامس ينفيه ويعذبه ، ولولا ذلك لانهمكوا في هذه الجنايات انهاكهم فيما لا حد له [٢] فيـه من أصناف الخطيات ، ولهذا قال بعض السلف : « ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن » ، وقيل : لا بد للناس من وزعه [٣] ، وهم الولاة وعمالهم لأنـــه لولا مكانهم لأكل الناس بعضهم بعضاً ، وعطلت الحقوق وانتهكت الحرمات ، فعم الصلاح بمكانهم واعتدل النظام بحسن قيامهم .

ومنها اعراضهم عن الحرمات[٤] التي لا يشتهونها ولا تميل إليها قلوبهم ، وتنكرهـا نفوسهم كلحم الخنزير والميتـة والدم ونكاح الأم والبنت والأخت فإن كل غرض يكون لأكل لحم الخنزير في أكله فهو حاصل له في غيره ولا فائدة في لذة أو منفعة تكون فيـه إلا ومثلها أو أكثر منها موجود في اللحوم المحللة ، ثم انها على كثرتها واختلاف طعومها تزيح [٥] علة القرم [٦] ، وتقضي شهوة المطعم ، فـلا يبقى معها إلى لحم الخنزير حاجـة ، ولا نفع اليه ضرورة ، واما الميتـة والدم فإنهما لخبثهما ورجاستهما لا يشتهيان ، ولو كانا محللين لكانا يتركان ، فكيف وهما محظوران ومحرمان ! واما نكاح المحارم فان في القلوب النفار منه والكراهة له لما فيه من هتك الحرمـــة ومجانبة [٧] الحياء والشبه بالبهائم .

---

(١) وانتزعت من ايديهم جبرا ...

(٢) وانهاكهم فيما لا حد فيه .

(٣) والقول للحسن بن علي : لا بد للناس من وازع أي من سلطان يكفهم .

(٤) وعن المحرمات . (٥) تزيل . (٦) القرم : شدة شهوة اللحم .

(٧) مجانبه : ابتعاد ، تنحية الحياء بعيداً .

فصارت الشريعة في هذه الأبواب لموافقتها الاهواء مستعملة [١] ، كما صارت في المباحثات لمثل هذا السبب ممثلة ، ولولا ان ذلك كذلك ، لترك من شرب الخمور ما ترك من لحم الخنزير ، ومن الزنا بالأجنبيات ما هجر من نكاح المحارم والقرابات . فعلمنا ان ما اتبع من هذه الشرائع قلما حمل على اتباعها من الدواعي التي بيناها .

ومنها التعامل بالعقود والمحافظة فيها على الحدود ، وذلك أن أحــدهم لا يقضي عن صاحبه فيما يجب له من حق عليه ، ومن اعتدى على آخر في نفس أو مال لم يمسك الآخر عنه ، حتى يرافعه إلى سلطانه أو قاضي بلده ، فأخــذ على يده ، وأنصف المظلوم من ظالمه ، فصاروا لذلــك يتبايعون ويتواهبون ويتكارون ويتعاقدون العقود المشروعة ويذرون الغصب والاختلاس والنهب في الامر الأكثر ، والأعم الأغلب ، لمعرفتهم بمــا يلحقهم فيها من التبعات ، ويؤديهم إليه عقباها من المثلات ، ثم قد يتفق خلال ذلك من ذوي الجهالة والسفالة هنات وزلات يؤتون فيها من الاعتزاز بأنهم عسى لا يلحقون ، ولا يقدر عليهم فيؤاخذون ، فتجترىء على ذلك قلوبهم ، وتقوى في الشر عزائمهم ، واما من غلب الخوف على قلبه وصار الاحتراز من همه ، فما أقل ما تقع منه هذه الأمور ، ولهذا صار الطريق المخوف إذا نقص[٢] بعضه ، أمن الناس فيه مدة ، ولم يعرض المكروه فيــه الا ندره . فلولا الردع من الفساد هو ما يخشى من الانكار الوحي[٣] لاستوت الأحوال ، وما ارتدع في كل وقت الجهال ، ولولا ان ما وصفنا استعمال الناس له من الشرائع بعــد انقراض عصرى النبوة والخلافة ، جاز في [٤] الأصــل الذي ذكرت لهم استعمالهم أبواب الشريعة كلها دقيقها وجليلها ، ولم يشذ عنهم منها إلا ما لم يبلغهم عنه خــبر ، ولم يأتهم ببيانه اثر ، لأن من عمل من أمرين خوطب بهما أحدهما وترك الآخر مع تمكنه منــه ، واقتداره عليه ، فقد أشعر أن عمله لمــا عمل لم يكن لمجرد الامر لكن لداعية (سوء) دعته اليها[٥] ، ولولا ذلك لما كان فعله ما فعل اولى به من فعل ما ترك ، ولا تركه ما ترك أولى به من ترك ما فعل ، وما ينبغي أن يكون هذا بكذا مع تجلي آيات الله تعالى جده

---

(١) لموافقتها لاهواء مستعملة . (٢) اذا نقص نقصة .
(٣) الوحي : الكلام الخفي ، أو السريــع . (٤) اجاز على الاصل .
(٥) لكن لداعية سواه دعته اليها . لكن لداعية سواه عنه اليها .

لبصائر العقلاء ووجوب حقوقه في معارف العلماء ، بل الأمر اللازم والفرض الواجب أن يجعل المؤمن أمانة الله أمامه ، وطاعة الله منهاجه ، فلا يفعل الخير إلا إعظاماً لأمره ، ولا يدع الشر إلا إذعاناً لنهيه . ولقد استقصر كثير من العلماء من يفعل الخير رغبة في الثواب ، ويدع الشر خيفة من العقاب ، وشبهوه بعبد السوء الذي لا يخدم مولاه إلا طمعاً في نعمته وتحرزاً وتخوفاً من سطوته، وبالحمار البليد الذي لا ينساق حيث يساق إلا بالضرب والارهاق ، وإن كانوا لا يختلفون في ان الرجاء والخوف قدما صدق ومنزلتا حق عند الله جل ثناؤه . وانما ذهبوا في ذلك إلى أن الله تعالى جده وان كان أطمع وحذر ووعد وأوعد بأنه تبارك وتعالى لو أمر ونهى ولم يضمم إلى الأمر وعداً ولا إلى النهي وعيداً ، لكانت الطاعة له واجبة ، والمعصية محذورة [1] ، كما قال عمر رضي الله عنه لصهيب : « نعم المرء صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه » . فثبت أن الثواب والعقاب زيادتان واقعتان بعد لزوم الفرض ، العبد بعبودته ، وارتهان حقوق الله تعالى جده لرقبته ، فالأليق به إذاً والألزم له أن يؤدي ما عليه طاعة ، وينتهي عما ليس اليه عبودة ، ثم يكون رجاؤه الثواب إذا أطاع ، وخوفه العقاب إن عصى للبقية [2] بوعد الله ووعيده ، لا لمعنى سواهما فيتباديا منه إيماناً ويكتبا له براً وإحساناً ، لا سبباً حاصلاً على أداء اللوازم ، والانتهاء عن المعاصي والمحارم ، وإذا كان هذا فيمن وصفنا كما بيناه، فكيف بمن لا يخطر بقلبه من وعد الله ووعيده خاطر ، ولا يزجره عن سوئهم به من هيبة الله زاجر ، وإنما أمامه الهوى أو الضرورة أو خوف الاقران أو نهب[3] السلطان أو حذر القيل والقال ، فإذا انتهى إلى ما خلاه الله تعالى فيه وامانته ، ولم ينصب عليه قيما ، ولم يقيض له به مطالبا ، ولم يجعل له فيه مخاصما ، ولم يخش أن يرفع فيه إلى وال أو قاض ، نبذه وراء ظهره وأعرض عنه اعراض من لا يحفل به [4] ، ونسب من يأخذ نفسه به إلى التصنع [5] أو سخر منه كما يسخر من الهازل المتلعب، اما يستحق أن يكون مثله مثل العبد السيىء والحمار السيىء ، كلا انه أسوأ حالاً منهما ، لأن العبد إنما يدري طاعة مثله ، والحمار جاهل بصاحبه لا علم له به وحقه . فاما من تقدم وصفه فإنما يدع طاعة ربه ويضيع حق

---

(١) أ : محدودة . (٢) أ : ان عصى للثقة بوعد الله ووعيده .

(٣) ح : او نهب السلطان . (٤) ح : من لا يحتفل به .. (٥) أ : الى السمع ..

خالقه ، ولعل بعض المنهمكين في المعاصي خير منه في بعض المعاصي ، لأنه ان لم يخف الله تعالى جده لم يخف من دونه ، ومن كانت طاعته من أحد الوجوه التي تقدم ذكرها لا يخاف الله ويخاف من دونه ، ومن لا يقدم أحداً على الله في حذره أمثل حالاً ممن يقدم خلق الله على الله في بره . فاما حال هؤلاء المذكورين في الشغل بعلم الدين فسوف يقرب من حالهم في العمل بشرائعه ، لأنهم إذا خصوا بالعمل اياماً بأعيانها خصوها كذلك بطلب علمها ، واما ما خرج من جملتها مما يدخل في جملة الأبواب التي كتبناها في شعب الإيمان وتوخينا شرح ما فيها مما تيسر من البيان ومما يرجع إلى علم القرآن تفسيره وتأويله ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه ، وعلم السنن مستفيضها وشاذها ، وموصولها ومقطوعها ، ومسندها وموقوفها ، ومختلفها ومتفقها ، وعلم الاجماع والاختلاف ، واللسان الذي نزل به القرآن، وجاءت به السنن والآثار ، فإن الأكثرين عنه معرضون ، ولما قد يستغنى عنه في أغلب الأحوال عليه مؤثرون . قد رضوا في التوحيد لأنفسهم بمحض التقليد وعابوا الذين جاهدوا أعداء الله تعالى جده فيه ، بالكلام الذي يقصر عنه نوافد الهام ، والجدال الذي لا يبلغ شأوه شديد القتال ، حتى أقاموا قناة الدين ، وهدموا بنيان الملحدين ، وبلغوا في نصرة الاسلام وامانة ما نصب الله عليه من الاعلام ما لم تقارب ملي ولا معطل في نصرة قوله مقداره ، ولم يبلغ في تأييده والدفع عنه معشاره ، وما تركوا لمخالفيهم حجة إلا ادحضوها ، ولا علة إلا نقضوها ، ولا شبهة إلا جلوها ، فليس لهم اليوم بحمد الله كلام يروع مؤمناً ، أو يشكل موقناً ، وما يخلفهم عن الدخول في دين الله إلا العناد وحب الفساد . ثم ان هؤلاء الموفقين لنصرة الله ، القائمين بحق هذه الدعوة ما خصموا أضدادهم إلا بالقرآن وبما أودعه الله تعالى من البيان إلا أنهم لم يقنعوا بعلم ما ظهر منه وتجلى دون الاحاطة بما يظن منه واختفى ، ولا بالوقوف على ما يتلى من تنزيله ، دون الوصول إلى ما يدل من تأويله ، فصرفوا عظم هممهم اليه ، وقصروا جل شغلهم عليه حتى أدركوا حقائق ما جاءهم به الرسول ، واستبان لهم من قبلها الصحيح والمعلول ، وجدوا بعد ذلك واجتهدوا وقرروا مما عرفوا لكل شبهة مدفعاً [1] ومن كل معضلة مخرجاً ، فمن فارقهم في علم ما نزل من القرآن ، في هذا العظيم من الشأن ، كان لمعظم القرآن هاجرا ،

---

(١) أ : واجتهدوا ان قدروا مما عرفوا لكل شبهة .

وإن كان بما عـداه يصير خابرا[1] ، لأن آيات الاعـلام في كتاب الله أكثر من آيات الاحكام . وقد ذم الله تعالى وجل ثناؤه ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ، وأقسم ليسألنهم أجمعين : عما كانوا يعملون ﴾[2] ، فكيف يسع[3] عاقـلا أن يحتذى حذو مسؤول في القيامة ملوم ، أو موبخ فيها مذموم . وكما نزل القرآن بالاعلام والاحكام ، فكذلك قد نزل بالآداب ومكارم الاخلاق ، والانابة عن حقائق العبودة التي تلزم المكلفين أن يأخذوا بها أنفسهم فيكونوا لله داخرين . وفصلت السنة ، ولخصت منها ما فصلت من حمـل الاحكام ، ولخصت من جوامع الحلال والحرام ، ونهجت للناس من الآداب المحمودة والسنن المرضية ، في اقامة العبادات ووجوه المعاشرات والمعاملات . وما يحق لكل امرىء أن يحافظ عليه في نفسه ومع غيره مثل ما نهجت لهم من احكام المعاقدات والجنايات والمظالم والخصومات وما شيء من ذلك إلا وإلى القرآن مرجعه ، وإلى بعض معانيه منزعـه . فمن ألحق هذه الأبواب بالزوائد والفصول ، وميزها عن سائر الأركان والفصول ، لم يحصل من علم الدين إلا على القليل ، وتلك منزلة لا يحمدها أهل الحصافة والتحصيل . وإذا كان هذا حال من لا ينظر في هذه الأبواب غفلة واشتغالاً عنهـا بغيرها ، فكيف بمن يسمي الحديث حشوا ، والتفسير قصصا ؟ وإذا سمع شيئاً من محاسن الشريعة قال : هذا متاع المذكرين . فإن نبا عنه فهمه قال : انه كلام المبتدعين . وان جرى عنده علم اللسان قال : هذا علم المؤدبين . فان من كان هذا رأيه في هـذه الأبواب لم يطلب علمها ولم يحم حولها ، لأنه إنمـا يطلب علم الشيء من عرف قدره ومال اليه قلبة . والعلم لا يتعرض لكارهية . ولا يتصدى للزاهدين فيه ، وما الناس وان تمنوه بنائليه ، حتى يطلبوه أجد الطلب ، ويرغبوا فيه أشد الرعب ، وما هو بمعطيهم بعضـه حتى يعطوه كلهم ، وإذا اعطوه كلهم كانوا من اعطائه إياهم البعض على خطر ، فكانت عاقبة هؤلاء الراصنين من علم الدين بأيسره والظانين انهم قد حصلوا على جمهوره أو أكثره ، وان خسروا منـه ووزروا من عظيم الاثم وما وزروا بنبزهم[4] اخوانهم الذين جدوا في طلب الآثار وجمع

---

(١) أ : يصير خائرا .

(٢) سورة الحجر - آية ٩١ - ٩٣ . وقد وردت : « فوربك لنسألنهم أجمعـين ، عما كانوا يعملون . عضين : الكذب ، ويخاطب به المشركين الذين جعلوا القرآن كذباً وسحرا وكهانة وشعرا .

(٣) أ : فكيف يسمع عاقلا .. (٤) نبز : لقب .

السنن والاخبار لقب الحشو ، واطلاقهم ألسنتهم فيهم بالهجر واللغو . وإنما أتى القوم من حيث ظنوا أن تعظيم علم الاحكام الذي يعرف بالفقه لا يتم إلا بالوضع من غيره والازراء بمن يتعاطاه ويشتغل به . وكانوا في ذلك كمن يصنع من قدر سورة ليرفع به من قدر سورة ، أو يزرى بسنة ليعلي به قدر سنه . والانصاف في ذلك أولى بالمسلمين من التشدد في الخلاف ، والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل . ومن نظر وتبين علم : ان الفقه ان كان يستوجب الثناء ويستحق المدح والاطراء لأنه علم اصله وحي. فما وصفناه من اضراب علم الشريعة ، وحي أصله ، تنزيل كله ، وان كان ذلك لما يحتاج اليه فيه من الفهم والفطنة ، فما علم من العلوم إلا ومنه جلي ومنه خفي ، ولا وجه لادراك الخفي إلا الاستدلال بالجلي عليه ، ولا سبيل إلى الاستدلال بالجلي على الخفي إلا بعد إدراك المعاني وتبينها ، وفي ذلك ما يبين ان اسم الفقه علم العلوم ، الشريعة كلها ، اعلاها الذي يتوصل بها إلى معرفة الله تعالى جده ووحدانيته وقدسه وعامة صفاته ومعرفة أنبياء الله ورسله [١] ، والفرق بينهم وبين من يدعي مثل ما ادعوا ، ولا يأتي من البينات بمثل ما أتوا ، وما بعد ذلك من علم العبادات وأحكام الاكتساب والمعاملات ، والحدود والجنايات ، والفصل بين المتنازعين ، وإيصال الحقوق إلى المستحقين ، ومن علم الأحوال والأخلاق والآداب والسيرة الحميدة والعشرة الجميلة ، والمروءة التي هي قرينة العدالة ، وابقاء معاني العبودة على تصرف الأحوال في الجملة . وعلم مع ذلك ، ان التذكير مما أمر الله تعالى جده في كتابه ، والله لا يأمر بالهزل ولا بما يهزأ به ، ولا بما يصنع امتثاله من تمثيله ويحط استعماله من قدر مستعمله ، قال الله عز وجل : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفسع المؤمنين ﴾[٢] ، وقال : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكافر ولا مجنون ﴾[٣]. فيسمي الله تعالى جده ، نبيه – ﷺ – مذكراً ، وسمى تبليغه وتعليمه تذكيرا ، وأمره به ارشادا وتبصيرا . فكيف يعرض لأسباب[٤] الضعة ما جعله الله تعالى من أسباب الرفعة ؟ وكيف يجري في اعداد أهل النقص طائفة : قائدها نبيها وإمامها رسولها ؟ أو كيف يخرج علم

---

(١) الفقرة من (.. جده ووحدانيته وقدسه وعامة صفاته ومعرفة أنبياء الله ورسله) وردت في نسخة حلب فقط .

(٢) سورة الذاريات – آية ٥٥ . (٣) سورة الطور – آية ٢٩ .

(٤) ورد في جميع النسخ : « فكيف يعرض لاسباه الصنعة » ، ولعل هذا الخطأ حاصل من النسخ .

التذكير من جملة الفقه وهو لا يقع إلا من أولي الفطنة والتمييز والخبرة بما يوجبه الحال ويرجى ان ينجع فيمن يذكره المقدار الذي لا يستكثر ، فيمل منه، أو يتضجر، وبالوقت الذي يكون التذكير فيه أنفع ، ومن قلوب السامعين أوقع ، وينبوع الذكر الذي يكون إلى القبول أسرع، وفي القلوب أنجع[1]. وإذا تؤمل هذا المقام وما جرى فيه من الكلام، وجد اشبه المقامات بالقضاء بين المتخاصمين ، والحكم بين المتنازعين التذكير ، لأن المذكر يفصل بين دواعي النفس ، فيميز المردية منها عن المنجية ، ويلخص الموبقة من المعتقة، ويرجح دواعي العقل على دواعي الهوى والطبع ، ويلزم السامعين أن يقفوا عند الحدود المحدودة لهم ولا يتعدوها ، ويلزموا المثل الممثلة لهم ولا يتخطوها ، كما أن القاضي يفصل بين المحق في دعواه والمبطل الراكب هواه . ويميز البينات عن دواحض الشبهات ، ويرجح من أصنافها ما يجب ترجيحه ، ويقدم منها ما يحق تقديمه ، ويلزم المتحاكمين اليه أن ينتهوا إلى ما يوجبه الحكم لهم ، ولا يرضى ببغي ان ظهر له منهم . فإن كان علم القضاء فقها كما يحتاج القاضي اليه من الفهم والفطنة والذكاء والخبرة ، فعلم التذكير مثله ، لأنه في هذا المعنى شكله . وبعد هذا فكيف ينفر الناس عن علم القصص وهو من براهين النبوة واعلام الرسالة ، إذ يقول الله عز وجل : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[2] . هذا وقد سمى الله عز وجل القرآن قصصاً ، فقال : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ [3] . وقال : ﴿ إن هذا لهم القصص الحق ﴾ [4] . وإنما الاقتصاص اذا الخبر على وجهه ، فسواء كان المخبر عنه أنباء الأولين أو الحكام أو أحكام ما شرع للآخرين ، فكل ذلك قصص. والفقه محتاج فيهما اليه لأن به يدرك مقاصد الاقتصاص ، وبادراكها يتميز العام عن الخاص ، وليست بنا من تعظيم اسم الفقه والتنويه باسم الرأي وحسه ، ولا ذاك بالذي يلحقنا منه مساءة ، فانا بحمد الله من أهل ذلك كله ، وانا لنحن احكمنا معاقد الرأي والنظر ، بعد أن أوضحنا معالم النقل والخبر ، فأبينا على من خالفنا القياس ، وأوثقنا منه القواعد والأساس ، وفصلنا أقسامه

---

(١) ح : وفي القلوب أنجع وهو الصواب .   (٢) سورة هود - آية ٤٩ .

(٣) سورة يوسف - آية ٣ .   (٤) سورة آل عمران - آية ٦٢ .

ولخصنا شروطه واعلامه. وإنما يسوءنا أن يخرج من جملة الفقه ما ليس بخارج منها لنتذرع بذلك إلى نبذه وهجره ، والبخس بحقه والازراء بقدره ، ولا ذلك بالذي يتصور به إلا من يراه ، ويركب في استحسانه له هواه . ولكنا من أهل عصر من الاعصار إذا نشأوا عليه ، وحدث قبل انقراضهم من يحتاج إلى الأخذ عنهم ، احتذى حذوهم ولزم نهجهم ، وظن ان لا علم إلا ما حصلوه ، وانهم لو علموا في غيره لأحكموه ، ولو أبصروا فيه نفعاً لم يضيعوه . فلا تزال الاشياء على هـذا تتلاحق ، والآراء منهم تتوافق وتتطابق ، حتى لا يوجد في الناس من يحسن من تفسير القرآن ووجوه الاخبار . وحكم التذكير الذي هو فصل بين السامع وبين هواه ، كما القضاء فصل بـين المدعي وبين من أنكر دعواه . وعلم القصص الذي عظم الله تعالى شأنه ، وأظهر به النبي ﷺ برهانه ، إلا قليلاً فتذهب من علم الشريعة أصوله ، وتعفو منه اعلامه ورسومه ، فذاك الذي دعاني إلى تأليف هذا الكتاب ، وتقسيمه على ما بينت من الأبواب . وقد أثبت فيه بتوفيق الله وعونه جملاً من العلوم المهجورة المجفوة ، بمقدار ما حملته من الأبواب التي كتبتها في شعب الإيمان ، وضمنت كل باب منها من الكلام فيما يلتحق بسمته ، ويدخل في جملته ما يكتفي بـه ويوصل منه إلى غيره . فمن بلغه كتابي هذا فلا يحرمن نفسه جزيل الحظ من الخير الذي سهلته له وسقته اليه بالاعراض عن تدبره ، وترك الوقوف عليه إلى أن يحظى بما جمعته وينعم النظر فيما ألفته ، فإن ذلك ان تيسر له ولم يخنه فهمه ، وحسنت في سعيه نيته ، رجوت أن يبتهج باذن الله تعالى أجمعه ، ولا يرى في شيء منه ان يدفعه ، وبالله التوفيق والتسديد ، والارشاد والقصـد والتأييد ، وهو حسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير .

القســم الأول

باب البيـــان عن حقيقة الإيمـــان

الايمان اسم مشتق من الأمن الذي هو ضد الخوف ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً ، فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾[1]، ومعناه والغرض الذي يراد به عند إطلاقه هو التصديق والتحقيق لأن الخبر هو القول الذي يدخله الصدق والكذب والأمر والنهي كل واحد منهما قول يتردد بين أن يطاع قائله وبين أن يعصى ، فمن سمع خبراً فلم يستشعر في نفسه جواز أن يكون واعتقد أنه حق وصدق، فإنما أمن نفسه باعتقاد ما اعتقد فيما سمع من أن يكون مكذوباً له ملبساً عليه ، ومن سمع أمراً ونهياً واعتقد الطاعة له ،فكأنما أمن نفسه باعتقاد ما اعتقد فيما سمـع من أن يكون مظلوماً أو مستسخراً ، أو محمولاً على ما لا يلزمه قبوله والإنقياد له ، فمن ذهب إلى هذا المعنى أنزل قول القائل : أمنت بكذا ، والمراد نفسي منزلة قولهم ووطنـت نفسي على كذا ، أو حملت نفسي على كذا ، أو رصنت نفسي أو ذللتها ، وصنت نفسي عن كـذا بمعنى أمنت[2] ، أي بدا لي صدق وما سمعت بأذني ، وحق ما أدركته بعقلي، واعتقدته أمناً من الخطأ فيه ، ويكون تركهم ذكر النفس في قولهم : أمنت ، إختصاراً لما قد كثر استعماله كما يقال بسم الله بمعنى بدأت ، أو ابدأ باسم الله ، وحذف ذكر الإبتداء لكثرة الإستعمال . والله أعلم .

وفيه وجه آخر وهو أن يكون معنى أمنت ، أي أمنت مخبري أو الداعـــي لي من التكذيب ، والخلاف بما صرحت له به من التصديق والوفاق ، فإذا قيل : آمنـت بالله ، فالمعنى أمنت الداعي إلى الله من الخلاف والتكذيب بما أظهرت له من الوفاق والتصديـق

---

(١) سورة البقرة — آية ٢٣٩ .

(٢) ح : وصنت نفسي عن كذا بمعنى تصونت ، وقد قال الله جل وعز « قو أنفسكم » أي اتقوا فلا يبعد ان يقال : « امنت نفسي » بمعنى « امنت » ، اي بدا لي الصدق ...

والإيمان بالرسول ، ايمانه في نفسه من الشقاق عليه باظهار التصديق له . والإيمان بالملائكة والكتب إيمان المخبر عنها من الخلاف بإظهار الوفاق .

وقد يجوز أن يكون إيمان من آمن بالله من الملائكة لا عن رسول كان إليه إيمانـه بنفسه بحسن الإعتقاد لما أوجبه استدلاله من أن يكون الذي وقع له وسوسة أو ظنـاً ، ويدخل في هذا إيمان المستدلين من الناس أيضاً ، وذهب بعض الناس إلى أن معنى امنت بالله ، أمنت نفسي من عذاب الله بالإعتراف به والتوحيد له ، وهذا لا يصح لأنه لا سبيل لأحد من المؤمنين إلى القطع بأنه قد أمن عذاب الله ، وقد قال الله تعالى عز وجل: ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ (١) ، ولأن الأمور بعواقبها ولا يدري أحـد بماذا يختم له ، ولأن لفظة الإيمان ليست تستعمل فيما يعقب الذهاب عنه عذاباً فقط ، ولكنـه مستعمل حيث لا يتوهم فيه عذاب ، لأن معنى الإيمان التصديق ، فقـد يجوز أن يقول القائل لصاحبه فيما يحدثه : لا أؤمن بما تقول ، كما يقول : لا أصدق (٢) : ثم لا يكون المعنى لا أؤمن نفسي من العذاب بتصديقك . فبان ان ليس تأويل الآية ما قاله هذاالقائل والله أعلم .

فصـــل

ثم ان الإيمان الذي يراد به التصديق لا يعدو إلى من يضاف إليه ويلصق به الا بصلة وتلك الصلة قد تكون باء وقد تكون لاماً . أما ما جاء بحرف الباء فمنه قول الله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ (٤) ، وقوله جل وعز : ﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾ (٥) ، وأما ما جاء باللام فمنه قوله تعالى في قصة إبراهيم صلوات الله عليه : ﴿ فآمن له لوط ﴾ (٦) ، وقوله حكاية عن نوح صلوات الله عليـه : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ (٧) ، وعن قوم فرعون انهـم قالوا لموسى وهارون

---

(١) سورة الاعراف – آية ٩٩
(٢) ح – لا اصدق به .
(٣) سورة البقرة – آية ٤
(٤) سورة البقرة – آية ٢٨٥
(٥) سورة النساء – آية ١٣٦ ، سورة الحديد – آية ٧
(٦) سورة العنكبوت – آية ٢٦
(٧) سورة الشعراء – آية ١١١

صلوات الله عليهما : ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾ [١] ، وعن أبناء يعقوب صلوات الله عليهم انهم قالوا لأبيهم: ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ [٢]، وعن كفار العرب أنهم قالوا فيما بينهم : ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ [٣] . فمن الناس من قال : ان قولهم « آمنت به » و « آمنت له » لغتان يعبر بهما عن معنى واحد. والصحيح ما خالف هذا ، وهو أن قولهم: « آمنت به » إنما يراد إثباته وتحقيقه والتصديق بكونه ووجوده . وقوله : « آمنت له » إنما يراد اتباعه وموافقته ، . **فالايمان بالله** تعالى جده اثباته والإعتراف بوجوده ، **والايمان له** القبول عنه والطاعة له . والإيمان بالنبي إثباته والإعتراف بنبوته ، والإيمان للنبي موافقته والطاعة له . ويدل على افتراق الصلتين ان احداهما تصلح حيث لا تصلح الأخرى ، فإن بني يعقوب عليه السلام لو قالوا لأبيهم : « وما أنت بمؤمن بنا » لما صلح لذلك . ولو قال كفار العرب : « ولا تؤمنوا إلا بمن اتبع دينكم » لما أدى ذلك لما أرادوه من المعنى . وأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقول للمنافقين : ﴿ لن نؤمن لكم ﴾ [٤] ، أي لن نقبل منكم عذركم ، ولو كان مكانه : « لن نؤمن بكم » ، ما جاز ولا حسن . وقال جل ثناؤه : ﴿ قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ [٥] ، ولو كان مكان ذلك : « ويؤمن بالمؤمنين » لما جاز ولا صلح . فثبت بما اقتصصنا ان الصلتين موضوعان لمعنيين متغايرين لا لمعنى واحد . ويدل على صحة ما ذكرت ان اسم التصديق الذي هو حقيقة الإيمان قد يحتمل صلتين : احداهما الباء والأخرى الهاء . فأما الباء فإنه يليق بالتصديق وبما يتصرف عنه من فعل ونعت. وأما الهاء فإنه يلزم ما ينصرف عنه من فعل ، فإذا جاء النعت جازت اللام مكان الهاء، فيقال: « صدقت فلاناً وصدقت به » ، فمعنى صدقته أثبت قوله وخبره ووثقت بصحته ومعنى صدقت به : أثبت وجوده وكونه . ثم يقال : صدقت به وأنا مصدق. وإذا قيل صدقته، جاز أن يقال : « وأنا مصدقه ومصدق له » ، قال الله تعالى : ﴿ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ﴾ [٦] ، ولا يصلح مكانه ومصدقاً بما بين يديه لأن الغرض ، ان هذا الكتاب

---

(١) سورة المؤمنون ـ آية ٤٧
(٢) سورة يوسف ـ آية ١٧
(٣) سورة آل عمران ـ آية ٧٣
(٤) سورة التوبة ـ آية ٩٤
(٥) سورة التوبة ـ آية ٦١
(٦) سورة المائدة ـ آية ٤٨

مثبت من وحدانية الله تعالى وقدسه ووجوب طاعته وتحسين العدل ، وتقبيح الظلم والشهادة للذين جاؤوا بالكتب المتقدمة ، بأنهم جاؤوا بها من عند الله تعالى ما أثبتته تلك الكتب أنفسها . ولو قيل : « مصدق لما [1] بين يديه من الكتاب » ، لصلح، فعلمان اللام قائمة مقام الهاء في صدقته . ولو قيل : « ومصدقاً بما يديه » ، لم يدلك على أكثر من أنه أثبت أن كتباً كانت قبله ، فثبت بهذا افتراق الصلتين ، وتغاير ما يراد بهما ، الله أعلم .

وما ينبغي لأحد أن يستنكر هذا الفرق ، فإن الوجود منه هو الموافق للصواب والحكمة إذ كان [2] الإعتراف بالله جل جلاله ، لا بد من أن يسبق حتى يصح القبول عنه وطاعته وعبادته من بعد ، والإعتراف بالنبي كذلك لأنه يسبق ، ثم تكون متابعته والقبول عنه، ولو تجردت المتابعة بفعل ما يأمر به ، والإنتهاء عما ينهى عنه عن الإعتراف بالنبوة لما سلمت ، ولا سلمت نفعت [3] ، فكان حقاً أن يعود الأصل من هاتين الخصلتين بإحدى هاتين اللفظتين والتابع منهما بالأخرى . فيكون التصديق بالله إثباته والإعتراف بوجوده ، والتصديق له قبول شرائعه [4] ، واتباع فرائضه على أنها صواب وحكمة وعدل ، والطاعة له فيها لازمة ، والمحافظة على حدوده، والثقة بوعده ووعيده .

وكذلك التصديق بالنبي ، غير التصديق له [5] . فالتصديق به : هو الإعتراف بوجوده وكونه وإثباته نبياً في الجملة . والتصديق له : اتباعه وطاعته وقبول ما جاءعنه، وكذلك الإيمان بالله : هو الإعتراف به وإثباته : والإيمان له : طاعته واتباع أمره. وعلى هذا الإيمان بالله أو بالنبي [6] ، إيمان بالدلائل التي دلت عليه ، لأنه قبول لدلالتها عنها ، وانقياد لموجبها . والإيمان بالكتاب [7] إيمان للدلائل التي دلت على أنه من عند الله [8] .

---

(١) ح : مصدق ما بين يديه .
(٢) أ : ... والحكمة إذاً الاعتراف ...
(٣) هكذا وردت في جميع النسخ ، والمعتقد ان الصواب هو : « ولا سلامة نفعت » .
(٤) أ : والتصديق له وقبول شرائعه .
(٥) أ : غير التصديق ، فالتصديق ..
(٦) الايمان بالله أو بالنبي اذا أردت قبلت ما فيه ونهيه ووفيت بوعده بالدلائل .. وفي نسخة حلب حذفت هذه الفقرة وهو الصواب .
(٧) أ : على انه من عند الله ايمانا .
(٨) ورد في الاصل « مضاف » .

فاما إذا قلت : « آمنت بالكتاب » ، لم تكن دللت على أكثر من أنك أثبته كتابـاً لله تعالى ، والإيمان بالنبي إيمان لله لأنه قبول لدلالته التي أيده بها ، وطاعة له فيما أتى به من عنده ، والإيمان بالله إيمان بالنبي لأنه إجابة لدعوته ومتابعة له على مقالته . وقد يجوز أن يقول : آمنت الكتاب والتزمت العمل بأمره ووعيده . **فان قال قائل:** فما يمنع أن يكون الإيمان بالله إيماناً لله ؟ لأن الإيمان بالله من فرائض الله ، وطاعته فيه إيمان له ، والإيمان بالنبي إيمان للنبي لأنه مؤمن بنفسه كما هو مؤمن بالله ، والإقرار له بذلك متابعة له على ما هو عنده ، فرجع الأمر : إلى أن الإيمان بمن يضاف الإيمان إليـه والإيمان له سواء ، فالفرق بينهما ساقط !

فالجواب: إنا لا ننكر ان يكون هذا هكذا إذا كان أحد هذين المعنيين مضافاً[1] إلى صيغة اللفظ الآخر وإلى تأويله ! وإنما ينكر أن يكون جميعاً مضافين إلى صيغة اللفظ إذا كانت الشواهد التي تقدم ذكرها تشهد بأن كل واحدة من اللفظتين موضوعة لغير ما وضعت له الأخرى . فكانت نفس الصيغة تدل على ذلك ، لأنه إذا قيل : آمنت بكذا، أوجـب ذلك الصاق الايمان بذلك الكذا ، إذ الباء عندهم حرف إلصاق ، فلا يكاد هذا اللفظ يدل على أكثر من التصديق بذات من أضيف الايمان بالله . فإذا قيل : آمنت لكذا ، أوجب ذلك إيماناً غير ملصق بذلك الكذا لكن واقعاً لأجله . فكان قولهم : « آمنت بالله » ، كقولهم « أثبت الله واعترفت به » . وقولهم : « امنت لله »، كقولهم : « خضعت لله ، والخضوع له عز اسمه معنى غير إثباته ، فلو جاز أن يقال : ان أحدهما هو الآخر . مع افتراقهما من حيث ذكرت ، لجاز أن يقال : ان اسم الصلاة لصيغته موضوع لطاعته ، إذ كانت الصلاة لله طاعة له ، والصيام[2] وكل عبادة مثلها ، فتكون الصلاة صياماً لأنها طاعة مثله ، أو الصيام صلاة لأنه طاعة مثلها ، وكل واحد منهما مستعملاً حيث تستعمل الطاعة، إذ كان كل واحد منهما طاعة . فإذا لم يجز أن يقـال ذلك لافتراق الاسمين فيما صيـغ كل واحد من اللفظين له من المعنى ، فكذلك الايمان بالله والايمان لله ، هذه منزلتهما .

ويدل على صحة ذلك ان اسم الاسلام يصلح مكان اسم الايمان عند وصله باللام ، ولا

(١) أ - واقفا لأجلـه .

(٢) لم ترد الفقرة من .. « والصيام وكل عبادة ... اذ الصيام » في نسخة استنبول .

يصلح مكانه عند وصله بالباء . إذ قد يجوز أن يقال : « آمنت لله وأسلمت لله »، ولا يجوز أن يقال : « أسلمت بالله » كما يقال : « آمنت بالله » . فثبت بهذا ثبوتاً ظاهراً إن الإيمان لله غير الإيمان بالله ، وان الإيمان بالله إثباته والإعتراف به . فلما لم يكن من قولهم أسلمت بالله ، هذا المعنى ، لم يجز إستعماله وان الإيمان لله هو الطواعية له باتباع أوامره بعد الإعتراف به ، إذ كان اتباع الأمر مع الجحود لا يتحقق ، فلما كان ذلك إسلاماً للنفس وتسليماً لأمر الله ، صح أن يقال: « أسلمت لله »، فبان عما (١) قلنا ان من قال: « آمنت بالله » ، كان الإثبات والإعتراف به هو المعنى المضاف إلى صيغة اللفظ ، وأما ما فيه من معنى الطاعة فهو من تأويل اللفظ لا من حكم صيغته . وأما من قال (٢) : « آمنت لله » ، كان الإذعان والطواعية له بقبول أوامره وسائر ما جاء من عنده ، هو المعنى المضاف إلى صيغة اللفظ . فأما ما فيه من معنى الاثبات له والاعتراف به ، من حيث ان اتباع الأمر والنهي لا يكون إلا مع الاعتراف ، فهو من تأويل اللفظ لا من حكم صيغته ، والله أعلم .

فصل

ومن هذا الوجه الذي بيناه أوجبنا أن تكون الطاعات كلها، فرائضها ونوافلها إيماناً، ولم نوجب أن تكون المعاصي الواقعة من المؤمنين كفراً . وذلك أن الكفر بالله أو برسوله مقابل الايمان به . فإذا كان الايمان بالله أو برسوله الاعتراف به والاثبات له ، كان الكفر به جحوده والنفي له والتكذيب به . فأما الأعمال فإنها إيمان لله ولرسوله بعد وجود الايمان به . والمراد به اقام الطاعة على شرط الاعتراف المتقدم ، فكان الذي يقابله هو الشقاق والعصيان دون الكفر، فلذلك قلنا أن تارك الاتباع مع الثبات على التصديق فاسق وليس بكافر . وكان هذا هو الذي يوجبه اللسان إلى أن يحقق المعاني وينظر فيما يوجبه ، والله أعلم .

---

(١) أ : فبان لما قلنا ..

(٢) ح : ومن قال : آمنت ...

فصـــل

ثم ان التصديق الذي هو معنى الايمان بالله وبرسوله ينقسم : فيكون منه مــا يخفى وينكتم ، ويكون منه ما يتجلى ويظهر ، وأما الذي يخفى فهو الواقع منه بالقلب ويسمى اعتقاداً ، وأما الذي يظهر فهو الواقع باللسان ويسمى إقراراً ويسمــى شهادة . وكذلك الايمان لله ولرسوله ينقسم : إلى جلي وخفي . فالخفي منه هو النيات والعزائم التي لا تجوز العبادات إلا بها . واعتقاد الواجب واجباً والمباح مباحاً والرخصة رخصــة والمحظور محظوراً والعبادة عبادة والحد حداً ونحو ذلك. والجلي ما يقام بالجوارح إقامة ظاهرةوهو عدة أمور : منها الطهارة ومنها الصلاة ومنها الحج ومنها العمرة ومنها الزكاةومنها الصيام ومنها الجهاد في سبيل الله ، وأمور سواها ستذكر في مواضعها . وكل ذلك إيمان وإسلام وطاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ إلا أنه إيمان لله بمعنى أنه عبادة له ، وإيمان للرسول بمعنى أنه قبول عنه دون أن يكون عبادة له ، إذ العبادة لا تحق لأحد عز وجل .

فصـــل

ونقول : الخلاف في هذا الأصل الذي تقدم من قبل اللسان تمهيده كثير ، ولكن القصد في هذا الكتاب ، الكلام على فريقين:

احدهما : الذين يقولون ان التصديق بالقلب كاف لاثبات الايمان ومزايلة الكفــر ، وان الاقرار باللسان وإن كان فرضاً ، فليس ان الكفر لا ينتفي إلا به ، وإنما هو كالصلاة والزكاة وغيرهما من أركان الاسلام . وهي وإن كانت فرضاً ، فالكفر ينتفي من دونها ، فكذلك الاقرار .

والآخر : الذين يقولون ان التصديق بالقلب واللسان معاً هما الايمان ، فمن اعتقـد بقلبه وأقر بلسانه فقد استكمل الايمان ، وأمــا سائر الطاعات والعبادات فإسم الايمان لا يلحقها ، وإنما يقال أنها حقوق الايمان أو شرائع الايمان ، فأما الايمان نفسه الاعتقــاد والاقرار . وأما نحن فنقول : ان إسم الطاعات (١) كلها فرائضها ونوافلهـا . فالاعتقاد

(١) أ : ان اسم الايمان للطاعات كلها فرائضها ... الخ

ايمان ، وكل عبادة من صلاة أو زكاة أو صيام أو حج أو جهاد أو غيرها فهي إيمان . ثم في تسميتها إيماناً وجهان :

احدهما : ان كلها إيمان بالله عز وجل وبرسوله ﷺ .

والآخر : ان الاعتقاد والاقرار إيمان بالله وبرسوله ، وسائـــر الطاعات والعبادات إيمان لله ولرسوله . وسنتكلم على كل واحد من الوجهين عند الحاجة إليه إن شـاء الله .

والدليل على أن التصديق بالقلب لا ينفك عن الكفر دون أن ينضـــم إليه الاقرار باللسان إذا كان مقدوراً عليه – إن الله عز وجل أمر بالقول فقال : ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحـق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (١) . ثم قال عز وجل: ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا . وإن تولوا فإنما هم في شقاق ﴾ (٢) . فأمر المؤمنين أن يقولوا : « آمنا » ثم أخبر – بقوله تعالى : فإن آمنوا بمثـل ما آمنتم به – إن ذلك القول منهم إيمان ، وسمي قولهم مثل ذلك ان قالوه وإيماناً ، إذ لا معنى لقوله : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ﴾ الا فان آمنوا بأن قالوا : « مثل ما قلتم » ، فكانوا مؤمنين كما آمنتم . فصح أنالقول إيمان ، وبأن قوله تعالى : ﴿ فان آمنوا بمثل ما آمنتم فقد اهتدوا وان تولوا فإنما هم في شقاق ﴾ بعد ما ثبت ان تقديره ما وصفنا ان المعنى . فإن قالوا مثل ما قلتم فقد اهتدوا وان تولوا وأبوا وامتنعوا فإنما هم في شقاق ، ومشاقة الله تعالى كفر ، فصح ان القول باللسان محتاج إليه لنفي الكفر ، والله أعلم .

وقال عز وجل في آية أخرى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنـا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ (٣) . ان ذلك القول لم ينقلهم عن الكفر ، لأنه كان بعد رؤية البأس ، فثبت أنه لو كان قبلها ، لنفعهم بأن كان ينقلهم عن الكفر إلى الإيمان .

ودلت السنة على مثل ما جاء به القرآن ، فروي أن النبي ﷺ قـــال : (أمرت أن

---

(١) سورة آل عمران ـ آية ٨٤ (٢) سورة البقرة ـ اية ١٣٧

(٣) سورة غافر ـ اية ٨٤ ، ٨٥

أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها) (١) . ومعلوم أن الايمان هو الواجب للعصمة ، فلما أخبر النبي ﷺ : ان العصمة المزايلة (٢) بالكفر تثبت بالقول ، صح أن القول إيمان ، وان الحاجة إليه كالحاجة إلى الاعتقاد لانتفاء الكفر ، والنظر يدل على صحة هذا القول ، لأن اللسان محل التوحيد كالقلب ، فان القاصد إلى الايمان كما يخطر بقلبه أن لا إله إلا الله ، ويوطن نفسه على أن ذلك كذلك ، فيكون موحداً بقلبه . فكذلك يجري لسانه بمثل ما كسب قلبه ويعبر عما في ضميره فيقول : لا إله إلا الله ، فيكون موحداً بلسانه ، فبان بذلك ان كل واحد من القلب واللسان محل التوحيد ، ووجب إذا كان اعتقاد التوحيد أمراً لا ينتفي الكفر بدونه أن يكون القول باللسان في هذا مثله ، وأن لا يقضي بزوال الكفر مع خلو محل التوحيد وبالله التوفيق .

ووجه آخر : وهو أن الكفر لما كان يقوم بالعقد وحده وبالقول وحده ، لأن من تكلم بكلمة الكفر مختار عالماً بمعناها غير حاك لها عن غيره كفر ، وان ما كان لا يعتقد ان ما تنبي عنه الكلمة صحيح ، كما ان من اعتقد ضرباً من ضروب الكفر كفر ، وإن لم يعبر عنه بلسانه . دل ذلك على أنه لا ينتفي إلا باجتماع العقد والقول على نفيه ، لأنه لما احتيج إلى عقد القلب لنفي الكفر لم تكن العلة فيه ، إلا أن فساد العقد مثبت للكفر ، وهذا المعنى موجود في القول لأن فساده موجب للكفر ، فصح أنه محتاج إليه لنفي الكفر كالعقد ، فوجب أن لا يثبت الايمان إلا بالجمع بين الاعتقاد الصحيح والاقرار الصريح وبالله التوفيق .

ووجه آخر : وهو ان الاجماع قد حصل على أن الاقرار فرض ، وان كان مختلف في أن البراءة من الكفر تقع من دونه أو لا تقع ، فلا يخلو وجوبه من أوجه ثلاثة.

أما أن يكون لشغل جاز حق التوحيد للجمع بذلك بين ظاهر الايمان وباطنه ، أو

---

(١) ورد في صحيح البخاري « كتاب الايمان » باب ، وفي صحيح مسلم « كتاب الايمان » حديث ٣٨ ، ٣: ٠ وفي صحيح الترمذي « كتاب الايمان » باب ١ ، رقم الحديث ٢٦٠٦ ٠ وفي سنن ابن ماجه « كتاب الفتن » باب ١ ، حديث ٣٩٢٧ ، ٣٩٢٨ ٠

(٢) المزايلة : المفارقه ، ح : ان العصمه الزائلة بالكفر .

ليعلم المقر غيره انه قد اعتقد التوحيد وترك ما يخالفه ، او لا لهذا ولا لذلك . ولكنه فرض كسائر الفروض التي هي الصلاة والزكاة والصيام، فبطل أن يكون وجوب الاقرار ليعلم المقر غيره حال نفسه في الايمان ، فإن المنفرد بنفسه حيث لا بأس عنده ولا أحد معه يلزمه من الاقرار والتشهد بشهادة الحق ، ما يلزم التارك بين الجماعة ومعلوم أنه إذا كان خالياً بنفسه ، فليس يحتاج أن يعلم غيره إيمانه بل لا غير فيعلمه ، فثبت أن وجود الاقرار ليس للاعلام ، ودل على ذلك أيضاً انه لو أقر من حيث لا يسمع إلا لنفسه لسقط عنه فرض الاقرار، فعلم أن وجوبه ليس لأعلام الغير، وبطل أن يكون وجوبه كوجوب الصلاة والزكاة لأنه أخف كلفة وأقل شغلاً من الصلاة والزكاة والصيام ، ثم لا يتكرر تكرراً متدايناً ولا يبكر امتزاجياً ، فلو كان وجوبه على أنه من فروع الايمان لتكرر كما يتكرر ما هو أشق وأثقل منه ، فإن قال : (١) فإن الاقرار يتكرر في الصلوات ، قيل : أول ما يجب الاقرار فإنما يجب في غير الصلاة فتكرره يجب مرة بعد أخرى في غير الصلاة ليكون مقصوداً بنفسه ، وأما إذا وجب في الصلاة فإنما يجب لتكميلها ، وليس ذلك من وجوبها لنفسها(٢) بسبيل . ألا ترى أن عامة ما يجب على الصائم الامساك عنه ، يجب على المصلي الامساك عنه ؟ ثم لا يكون تكرر صيام لأنه شروط غيره وليس بمقصود في نفسه ! فكذلك الاقرار والله أعلم . ولما بطل هذان الوجهان صح الثالث وهو ان الاقرار انما يلزم لينضم إلى الاعتقاد ويعاونه على نفي الكفر (٣) والله أعلم .

ووجه آخر : يدل على ان الاقرار إنما يجب وجوب الاعتقاد ، انه يلزم العاقل البالغ معجلا مضيقاً (٤) كما يلزمه الاعتقاد معجلا مضيقاً ، فبان انه للجمع بين ظاهر الايمان وباطنه لا لدلالة الغير على استحداث الايمان ، فإن الغرض من الاقرار لو كان تعريف الحال لجاز أن يتأخر إلى أن تقع الحاجة إلى التعريف ، ولما لم يجز تأخيره بعد حصول المعرفة كما لا يجوز تأخير الاعتقاد دل على ذلك على أنه لما قلنا من الجمع بين ظاهر الأمر وباطنه والله أعلم .

---

(١) أ : فان قال : فان الاقرار يتكرر لانه يتكرر في الصلوات .
(٢) أ : وجودها لنفسها .
(٣) أ : الكرم ، وهو من خطأ النساخ .
(٤) في الاصل مضيفا .

ووجه آخر : وهو أن الكافر إذا اعتقد وأقر كان مؤمناً ، ثم لا يلزمـــه في غير أحوال الصلاة أن يتكلم بشهادة الحق ، وان اعترضت في أمره شبهه فاحتاج إلى إزالتهـا للدفع عن نفسه كفاه أن يقول : إني مسلم أو قد أسلمت من وقت كذا ، ولم يلزمه أن يأتي بالشهادة على وجهها (١) . فبان ان ذلك للجمع بين ظاهر الايمان وباطنه لا لمعنى سواه، إذ لو كان الدلالة على حال نفسه للزمه في كل حال من أحوال الأشكال الواقع في أمره أن يأتي بالشهادة على وجهها . وإذا لم يلزمه في ذلك ما يلزم في بدىء أمره ، صـــح ان مجموع الاعتقاد والاقرار هو الايمان وبالله التوفيق .

فان قال قائل : فما أنكرتم أن الإيمان هو التصديق بالقلب وحده ، لأن الله عز وجل أمر بالايمان بقوله : ﴿ آمنوا ﴾ والتصديق بالقلب إيمان في اللسان ، فمن جاء بذلكفقد وفى الأمر حقه وخرج عن عهدته:

فالجواب أن التصديق المطلق قول القائل : صدقت ، بقول العرب : ان صدقـــت فصدقني ، وإن أصبت فصوبني ، وإن أخطأت فخطئني ، وإن أسأت فسؤني ، على ان قيل لي : صدقت، أصبت ، أخطأت، أسأت . وقال الله عز وجل : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانـاً وتسليماً ﴾ (٢) . فسمى قوله : ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ بعد تقديم الايمان زيادة إيمان. فثبت أن الإيمان ليس التصديق بالقلب دون القول به ، وأيضاً فإن هذه الآية لم تتجردعن سائر الآيات والسنة التي فيها اشتراط القول لثبوت الايمان ، فوجب أن يكون محمولاً على الايمان ومضمومه إليها . وأيضاً فان لا خلاف بيننا وبين قائل هذا القول في أن الاقرار إيمان لأنه يقول الطاعات كلها إيمان ، والاقرار طاعة ، فهو إذن إيمان . فإن كان قوله عز وجل : آمنوا ، محمولاً على الايمان الجامع لجميع شعبه ، فالاقرار منها بل هـــو رأسها . وإن كان محمولاً على كل شيء يلحقه اسم الايمان فلا ينبغي أن يكون التصديق بالقلب أندر إليه من التصديق باللسان ، ولا التصديق باللسان أندر إليـه من التصديق بالقلـــب .

---

(١) ح : على وجهها ، ويلزمه في أول الأمر اذا أسلم اعتقاده ان يأتي بالشهادة على وجهها .
(٢) سورة الاحزاب ـ آية ٢٢ .

فان قال قائل : (١) ما أنكرتم أن الايمان هو التصديق بالقلب وحدة لقول الله عز وجل : ﴿ قالت الاعراب آمنا ، قل : لن تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم ﴾ . فاخبر أن القول ليس بإيمان وأن ما في القلب هو الايمان .

فالجواب : ان الآية ان كانت توجب أن لا يكون القول إيماناً ، فإنما ذلك في القول العاري عن الاعتقاد ، ولسنا نخالف ذلك ، بل نقول به ، فــإن قال : فإن في الآية أن التصديق بالقلب إيمان ، وانــه لو كان في قلوبهم ، لكانوا مؤمنين . **قيل** : لو كان في قلوبهم لكانوا مؤمنين لجمعهم بين التصديق بالقلب والقول باللسان لا التصديق بالقلب وحده ، لأن الله تعالى وصفهم بالقول ، لانه سلب ذلك القول اسم الإيمان ليعرى القلب عن حقيقته ، فدل على أن حقيقته إذا كانت موجودة في القلب كان وجود الإيمان بالقلب واللسان معاً لا باحدهما دون الآخر . **فان قال** : ما أنكرتم أن الإعتقاد وحده إيمان ، لأن من سلب البيان يصح منه الإيمان بقلبه ، ومن سلب العقل لم يصح الإيمان منه بلسانه . فعلم أن مدار الإيمان على القلب لا على اللسان ! فالجواب ان من سلب البيان صحت منه الصلاة بلا كلام ، ومن سلب العقل لم تصح له صلاة (٢) أصلاً ، ولا يدل ذلك على أن الجمع بين العقل والقول غير محتاج إليه في وجود حقيقة الصلاة عند القدرة على الجمع بينهما ، فكذلك ما ذكرتم ، ثم لا يدل على أن الجمع بين العقل والقول غير محتاج إليه في وجود حقيقة الإيمان عند القدرة على الجمع بينهما . وأيضاً فان من سلب العقل ، كما لا يصح منه الإيمان بلسانه فكذلك لا يصح منه الكفر بلسانه ، وذلك لا يدل على أن الكفر النافي للإيمان لا يقــع باللسان ، فلذلك امتناع صحة الإيمان من المجنون لا يدل على أن نفــي الكفر لا يقـع باللسان ، والله أعلم .

فان قال : لما كان المكره على الكفر يحفظ الإيمان على نفسة بالثبات على اعتقاده مــع اجرائه الكفر على لسانه ، دل ذلك على أن الإعتماد في الإيمان على القلب .

فالجواب : ان المكره ليس يحفظ الإيمان على نفسه ، بمجرد الإعتقاد ، لكن بــه وبالإقرار السابق الذي قدمه ثم لم يتبعه ما ينقصه ، وذلك أن القول الذي أكره عليه ،

(١) أ : فان قال : ما انكرتم .
(٢) أ : لم تصح له اصلا .

لا يكمل لنقص الإقرار السابق إذ كان المكره لا يتكلم به لما تحته من المعنى، وإنما يتكلم به لأنه محمول عليه بعينه، فلا يخلص نفسه إلا به. فأوجب ذلك اهدار (١) كلامه حتى إذا هدر كان دوام الإيمان بالإعتقاد وبما تقدم من الاقرار الذى سلم عما ينقصه ويرفعه لا بالإعتقاد وحده، والله أعلم.

فان قال: الإقرار عمل باحدى الجوارح الظاهرة، فهو كالصلاة والصيام والحج والجهاد. ومعلوم أن كافراً لو أسلم وقت صلاة أو قبل الفجر من ليلة من ليالي رمضان، أو في وقت قد وقع النفير، لم يتوقف إنتقاله عن الكفر وبراءته منه، على فعل ما قد وجب من هذه الأعمال. فكذلك الاقرار شبيه بها، فكان حكمه حكمها!

فالجواب: ان الإعتقاد يتوقف على الإقرار لأن المقدمه هو المعتقد، والذي يجري على اللسان من الإيمان هو الذي يخطر على القلب ويعقد عليه. وإنما يفرق بين الأمرين الأدلة والوصف، فان أحدهما يفعل باللسان، والآخر بالقلب. واحدهما يظهر والآخر لايظهر. وأما العمل نفسه، فإنه متفق غير مختلف ولا ممنوع فيوقف الاعتقاد على الاقرار للجمع بين ظاهر الايمان وباطنه. وأما سائر الأعمال، فإنها غير المعتقد بالقلب، والمعبر عنه باللسان، وكلها تزد من الاعتقاد والإقرار منزلة الإمارات من الصحيح، لأن كل واحد بين الإعتقاد والإقرار صريح تصديق، ولا يمكن أن يكون فوقهما أشد صراحة منهما. وأما الأعمال الأخر، فإنها امارات التصديق يعني أنه إذا كان عاقلا لا يخضع بالتقرب إلى من ينكر وجوده، ولا يتحمل الجهد والمشقة الغليظة في تكلف الأعمال وهو لا يثبته. وإن كان يثبته لا يرى (٢) أنه موضع رغبة إليه أو رهبة منه، كانت إقامة العبادات المشروعة ممن يقيمها تصديقاً بصانعه، وثقة بوعده ووعيده، وتصديقاً لمن أدى إليه عنه، انه مريد منه ما هو فاعله ومتعرف عليه. فأما أن يكون ذلك صريح تصديق، فلا! فلم تجز إذا وجد الصريح منه أن يتوقف الحكم به على وجود ما هو امارة. لأن التوقف عن الحكم بأقوى الدلالتين إنتظاراً لوجود أضعفها، لا معنى له، والله أعلم.

ودل على ما قلنا: ان رجلا لو أقر لرجل بمال ادعاه عليه، لاخذ بدفعه إليه، ولم

---

(١) اهدر كلامه: ابطله.

(٢) أ: لأدى.

يتوقف الإقرار على الدفع حتى لا يكون صحيحاً إلا به ان كان الدفع - إذا وجد - تصديقاً للمدعي كما كان قوله باللسان تصديقاً . وما ذاك إلا لأن القول صريح ، والدفع امارته . فلم يجز أن يتوقف صحة الصريح على وجود الإمارة . فكذلك هذا في الإيمان والله أعلم .

ووجه آخر: وهو أن الإعتقاد والإقرار معاً إيمان بالله عز وجل ونزلا منزلةواحدة. وأما الأعمال فإنها إيمان لله عز وجل ولرسوله ﷺ ، والإيمانان جميعاً واجبان، غير أنهما متغايران في الحد والحقيقة ، فلم يتوقف أحدهما على الآخر لذلك ، ولا تغاير بين الإعتقاد والإقرار في حقيقتهما،فاحتيج إلى وجودهما معاً ليقع به الجمع بين ظاهر الإيمان وباطنه والله أعلم .

فان قيل : إن كانت الأعمال إيماناً لله عز وجل ، فهل وجدتم في كتاب أو سنة إيجابها بهذا الإسم ؟ فإن كنتم لم تجدوه ، فليس علينا أن نقبله منكم بلا برهان.

فالجواب : إنا وجدنا ذلك لأن الله عز وجل، أخبر عن قوم نوح عليه للسلام:﴿أنؤمن لك ، واتبعك الأرذلون ﴾ (١) قدمهم بذلك ، فدل ذلك على أن نوحاً عليه السلام كان يدعوهم إلى أن يؤمنوا له فيمتنعون ولولا ذلك لما جادلوه بأن يقولوا له : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ ، ولا ذم الله تعالى ذلك منهم إذ قالوه . وهكذا قوم موسى عليه السلام : ﴿ فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ (٢) فدل ذلك على أن موسى وهارون عليهما السلام كانا يأمرانهم أن يؤمنوا لهما . وإذا ثبت هذا في غير شريعتنا ، وكانت الشرائع كلها متفقة على أنها أعمال وقع التعبد بها ، صح انا من حيث أمرنا بها مأمورون بالإيمان لنبينا ﷺ . فصح لنا ما قلناه من هذا الوجه .

فان قيل : : ما أنكرتم ان معنى قولهم : « أنؤمن لك ، أنؤمن بك ، وكذلك معنى أنؤمن لبشرين مثلنا ، أنؤمن ببشرين مثلنا !

قيل : ليس كذلك ! لأن قوم نوح لما قالوا : « أنؤمن لك ، وصلوا ذلك بقولهم :

---

(١) سورة الشعراء - آية ١١١

(٢) سورة المؤمنون - آية ٤٧ وقد وردت : « فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون » .

« واتبعك الأرذلون » ، فدل على أنهم أرادوا بقولهم ، أنؤمن لك . أنقبل عنك ونتابعك ولا نرى أحداً اتبعك إلا الأرذلون لنكون أسوة الأراذل ، وإنما نحن أماثل . وكذلك قوم موسى لما قالوا: «أنؤمن لبشرين مثلنا»وصلوا ذلك بقولهم﴿وقومهما لنا عابدون﴾(١)، فدل ذلك على أنهم أرادوا : نلتزم طاعتهما فنكون قد عبدنا أنفسنا لهما وقومهما لنا عابدون. فنحول الذلة عن قومهما إلى أنفسنا ، والعز والرفعة عن أنفسنا إليهما وإلى قومهما . ولو كان المراد نفس التصديق لم يلق أن نعتذر من التأخر عنه بما حكى الله (٢) عنهم ، أنهم قالوا : لا في الطباع والعادات ولا في قياس النظر ، لأن أتباع الأراذل رجلا لا يجعل أن يكون صادقاً في قوله ، ولا العبودة تجعل أن يكون العبد صادقاً في قوله. فأما الإعتذار من ترك الطاعة والإنقياد بمثل ما ذكر فلائق بما في الطباع ، وإن كانت الشرائع لا تسوغه . فيثبت أن المراد بالاثنين ما قلنا ، وفي ذلك ثبوت ما وصفنا . وبالله التوفيق .

وجواب آخر : وهو انا وجدنا في الكتاب والسنة إيجاب العمل والندب إلى أعمال. ووجدنا في اللسان ان اتباع الأمر إيمان للأمر . فعلمنا بذلك أن الأعمال التي أمر الله جل وعز بها طاعة له ، والفرق بين الإيمانين قد مضى ذكره وتقريبه والله أعلم ، وبه العصمة والتوفيق .

ذكر الكلام مع الفريق الآخر : وأما الدليل على أن الطاعات كلها إيمان . فهو ان الإيمان عند العرب التصديق ، وكل طاعة تصديق ، لأن أحداً لا يطيع من لا يثبته، أو لا يثبت أمره ولا يعتد به ، وإذا كانت الطاعة لا تقع إلا لأمر آمر علمنا أن فعل الطاعة تصديق بالأمر وللآمر ، فكذلك قلنا أنه إيمان .

ووجه آخر : وهو أن الدوام على الإيمان إيمان ،وهو منزلة بعد الإنتقال عن الكفر، وإنما كان ذلك إيماناً لأنه طاعة ، فكل طاعة فهو إيمان قياساً عليه .

ووجه آخر : وهو أن كل مستحق بفعله ثواب وبتركه عقاب ، فهو إيمان قياساً على الإقرار والإعتقاد .

---

(١) المؤمنون : ٤٧ .   (٢) ح : بما حكى الله تعالى عنهم.

ووجه آخر : وهو أنه ما لا يلائم الكفر ولا(١) يكون معه براً وقربة فهو إيمان كالإقرار .

ووجه آخر : وهو أن الله عز وجل وصف المؤمنين في كتابه فقال: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ (٢) ، فلما أخبر عز وجل : ان المؤمنين هم الذين جمعوا هذه الأعمال ، دلل ذلك على أنها من جوامع الإيمان.

فان قيل : هذا حجة عليكم ! لأن الله جل وعز أثبت أن هؤلاء مؤمنون حقاً. وأنتم تقولون : ان هؤلاء الموصوفين ان لم يحجوا ، ولم يجاهدوا من غير وقوع الكفاية بغيرهم ، أو دعي أحدهم إلى شهادة قد تحملها فأبى ، أو جحد وديعة عنده ، أو كذب ، أو قتل ، أو زنا ، أو سرق ، أو شرب خمراً ، فليسوا المؤمنين حقاً ، لأن إيمانهم إيمان ناقص ، فالآية توجب أن يكونوا مؤمنين حقاً . فهي إذا حجة عليكم !

فالجواب : ان هذه معارضة ساقطة عنا ، لأن الآية فيمن إذا تليت عليه آيات الله زادته إيماناً ، وليس المتخلف عن الفرائض ، والقعود عن الواجبات اللوازم ، من زيادة الإيمان بسبيل . فالآية فيمن إذا ذكر الله وجل قلبه ، وليس ارتكاب المعاصي ومخالفة الأوامر من إمارات الوجل . فصح ان الذين بيننا : ان يكونوا مؤمنين حقاً أو حسبنا أن يكونوا ناقصي الإيمان ، غير داخلين في الآية . وأيضاً فإنه إذا ثبت ان الموصوفين في الآية ، إذا كانوا بها استوجبوا إسم المؤمنين حقاً لمكان الأعمال التي وصفهم الله بها ، ولم تكن الأعمال المتعبد بها هذه وحدها ، صح ان المراد بذكرها هي وما في معناها من الأعمال المفروضة أو المندوب إليها ، والصلاة إشارة إلى الطاعات التي تقام بالأبدان خاصة ، والانفاق مما رزق الله عز وجل إلى الطاعات التي تقام بالأموال ، ووجل القلوب إشارة إلى الإستقامة من كل وجه . ويدخل فيها اقام الطاعات والإبتعاد عن المعاصي . وأيضاً فإن الله عز وجل وصف الصلاة : انها تنهى عن الفحشاء والمنكر . فبان بذلك ، ان المحافظ على الصلوات ، المقيم بها كما شرعت ، الموفي حقها من الإستكانة والتباؤس والخشوع لا

---

(١) ورد في الاصل لا تحيل ان يكون .. ولعله من خطأ النساخ . (٢) الانفال: الآيات ٢ — ٤ .

يكون إلا منتهياً عن الفحشاء والمنكر ، فخلصت الآية إذا في الممتنعين من الفواحش التي وقعت بها المعارضة ، والله أعلم.

فان قيل في الآية ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ والوجــل أمر يجده المؤمن مجتلباً ، لأن من اعتقد من وحدانية الله وعظمته وقدرته والثقة بوعده ووعيده، مايحق ويلزم ، ثم عكف على التفكر والتدبر ، ولم يعرف عنه إلى شهوات الدنيا بقلبه ، أورث في قلبه الخشيه . وكلما استجد لله تعالى ذكراً استجد منه خشية ، فيكون ما يجده منها في قلبه من جلب اكسابه . فلذلك يصح أن يضاف إليه ويسمى إيماناً ، ويمـدح به ويثني عليه به والله أعلم .

ووجه آخر : وهو أن الله جل وعز وصف الإيمان في هذه الآية بالزيادة . ومعلوم أن الإقرار والإعتقاد اذا كانا هما الإيمان ، فزيادة الإيمان تأكيد الإعتقاد ، وتكرير الإقرار فثبت أن تكرير التوحيد إيمان . فإذا ثبت ذلك بلغ أن الصلاة وما معها من أعمال الإيمان إيمان ، إذ يستحيل أن يكون التوحيد المنتقل به إيماناً، والصلاة المفروضة وما يجري من الشهادة المفروضة فيها غير إيمان ، وبالله التوفيق .

فان قيل : ما أنكرتم أن زيادة الإيمان تأكيد الإعتقاد ، فإن الإعتقاد قد يكون في أول درجاته يدنو من الشك ، وقد يكون آكد ومن الشك أبعد . ولهذا صار المعتقــد يوصف بقلبه الرأى مرة ، وبالإحاطة واليقين أخرى ، وكل واحد منهما منزله وراء الشك. فإذا جاز أن يزول الشك إلى غلبة الرأي ، ثم يزداد حتى يصير يقيناً ، جاز أن يزداد حتى يقارب الضرورة أو يكون بمثلها . فهذا زيادة الإيمان ولهذا قال النبي ﷺ : (يخرج من النار من كان في قلبه مثقال شعرة من إيمان) (١) ، وأنه ﷺ أشــار بذلك إلى زيادة الإعتقاد ونقصانه ، وقربه من الضرورة وبعده . وإلى هذا أشار الله عـز وجل بقوله: ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين

---

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة ، انمـا هناك حديث مشابه ورد في صحيح مسلم « كتاب الايمان رقم ١٤٧ ، ١٤٨ » وفي سنن الترمذي « كتاب البر والصلة ، رقم ١٩٩٨ ، ١٩٩٩ » على النحو التالي : (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من ايمان » .

آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ﴾ (١) . فإن سياق الآية يدل على أن المراد بزيادة الإيمان زيادة اليقين .

فالجواب : ان هذا السؤال غير ملائم أصل السائل ، لأنه يأبى أن يكون الإعتقاد وحده إيماناً في مبتدئه ولا في دوامه . فلا يصح أن يقول : إن الزيادة التي تخص الإعتقاد زيادة إيمان ، بل ينبغي له أن يقول : ان الإعتقاد إذا تزايد وتأكد الإقرار معه بالتكرير أو بذكر شبهه ، فذاك ازدياد إيمان . وإذا قال ذلك ، فقد أوجب أن يكون ذكر الله ومدحه والثناء عليه ، الذي دعا تأكداً لاعتقاد إليه إيماناً . وإذا دخل في هذا ، لم يجد بدأ من أن يقول : وإذا بعثه ما تأكد من إيمانه على أن لا يدع طاعة إلا أتاها، ولامعصية إلا اتقاها ، كان ذلك منه إيماناً .

فان قيل : اني كنت لا أقول أن الإعتقاد وحده إيمان ثابت ، لا نقـــول أن الصلاة وحدها إيمان ، ثم لم يمتنع من أن يقول : ان أقام الصلاة زيادة إيمان ، فلم أمتنع علي أن أقول تأكداً لاعتقادي (٢) زيادة إيمان ؟ وقيل له : ليسا سواء ، لأن زيادة الإعتقـــاد والإقرار بالصلاة عندي كزيادة المال بانضمام مستقاد منه مستقاد،اتفق الجنس أواختلف، وكل شيء من ذلك حدث ، فلا يقتضي صحة وصفه بالزيادة معي سوى سلامـة الحادث قبله . فكذلك هذا ، وأما أنت فإنك تجعل الاعتقاد الماضي بما حدث من تأكده أقوى ، وتلك القوة الحادثة محض الاعتقاد ولا تتعداه إلى الاقرار وإذا كان عنـدك ، ان مجموع الاعتقاد والاقرار هو الايمان ؟ لم يكن لك أن تقول : ان تأكد الاعتقاد وحـــده وقوته زيادة إيمان . واما أنا فإني أجعـــل سابغ الأعمال زوائد إيمان من طرق كثيرة الأجزاء والعدد . فكلما أحدث منها حادث ، وصادفه ما تقدمه ثابتا ، صـح لي أن أقول زيادة إيمان ، لأنه من طريق العدد . فكثر بمـــا تقدمه ، والذي تقدمه يكثر به . وهذا فرق ما بيننا .

وجواب آخر : عن أصل الكلام وهو الذي يسلمه ، من أن تأكد الاعتقـاد زيادة إيمان ، حجة عليه . لأن أدنى اليقين كاف للنقل عن الكفر إلى الإيمان . ثم كان ما جاوزه

---

(١) المدثر : آية ٣١ . (٢) أ – لاعتقاده زيادة الايمان .

مما يدني المتيقن من المضطر زيادة إيمان باتفاق ، ولم تكن العلة فيه إلا أنه زيادة تصديق . فكذلك كل حادث من طاعة فهو فصل تصديق ، لأن الطاعة لا تكون إلا لأمر مرغوب اليه مرغوب إياه . فإذا وجدت من أحد كان وجودها تصديقاً بالمعبود والموعود . فوجب أن يكون ذلك إيماناً ، وحدوثه حدوث إيمان .

فان قال : التصديق الواقع بالفعل هذا الذي سبق وقوعه بالاعتقاد . وإنما الفعل اظهار لذلك التصديق ! **قيل** : هذا لا يمنع من أن يكون الفعل تصديقاً سوى التصديق الواقع بالاعتقاد . فيكون انضمامه اليه زيادة تصديق حادث ، كما ان الاقرار اظهار للمعتقد أيضاً ثم لا يمنع ذلك من أن يكون تصديقاً سوى التصديق الواقع بالاعتقاد ، ويكون انضمامه اليه زيادة تصديق حادث والله أعلم .

وأما قول الله عز وجل : ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾[1] . فليس المراد به : ان المؤمنين يزدادون يقيناً ، وإنما هو : ويصدق المؤمنون بالله ورسوله . فهذا الخبر غير شاكين فيه ، فيزداد إيمانهم بانضمام شعبة منه إلى شعبة تقدمتها ، وهذا يوجب أن يكون تصديق حادث زيادة إيمان . وما من طاعة تحدث الا وهي تصديق حادث كما بينت ، فوجب أن يكون إيماناً .

ووجه آخر للمسألة : وهو أن الله عز وجل سمى الصلاة إيماناً ، فقال في كتابه نصاً : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾[2] . وأجمع المفسرون على أنه أراد صلاتكم إلى بيت المقدس . فثبت أن الصلاة إيمان . وإذا ثبت ذلك ، فكل طاعة إيمان ، إذ لم أعلم فارقاً فرق في هذه التسمية[3] بين الصلاة وسائر الطاعات .

ووجه آخر يدل على أن الطاعات كلها إيمان . وهو أن المؤمن إذا طرى الإيمان في الوقت بعد الوقت . فجدد الاعتقاد وكرر الاقرار ، كان ذلك إيماناً منه ، وإنما كان كذلك ، لأنه بر وقربة ، فكذلك كل طاعة فهي بر وقربة وعبادة فإن أنكروا ما قلناه ثبتناه عليهم بالدليل وقلنا لهم : لما كان الاعتقاد والاقرار إيماناً[4] وجب إذا كرروا

---

(١) المدثر : ٣١ .　　　(٢) البقرة : ١٤٣ .

(٣) أ – فرق في هذه القسمة ..

(٤) الفقرة من (.. فان انكروا ... ايمانا) غير واردة في نسخة استانبول .

تكريرهما بر باتفاق ان يكون حكم الاعادة حكم الابتداء ، حتى إذا كان المبتدأ إيماناً كان المعاد إيماناً ، ألا ترى أن الصلاة إذا أعيدت – وكانت اعادتها برا – كانت صلاة كالاولى. والوضوء إذا جـــدد ، كان الثاني وضوءاً كالأول . والحج إذا كرر كان حجاً كالأول . وكذلك الاعتقاد والاقرار إذا أعيدا وكانت إعادتهما براً ، وجب أن يكون المعاد إيماناً كالأول . **فان قالوا** : كيف يكون المعاد إيماناً كالأول وهو لا يزيل كفراً ؟ قيل : كما كان الوضوء المجدد وضوءاً ولا يزيل حدثاً،وكما كانت الصلاة الثانية صلاة وليست تسقط فرضاً ، والحج الثاني حجاً وليس يرفع واجباً ، كذلك الاعتقاد والاقرار إذا أعيدا كانا إيماناً ، وإذ لم يرفعا كفراً ، والله أعلم .

ووجه آخر : وهو أن كل عبادة كان التكذيب بها كفراً ، كان فعلها مـع الإخلاص جزءاً من أجزاء الإيمان كالإقرار . وانه لما كان التكذيب بوجوبه كفراً ، كان الاتيان به مع الاخلاص من أجزاء الإيمان . وكذلك كل عبادة . ومما يقرر هـــذا ، ان التصديق بالشرائع لما كان إيماناً ، لم يجز أن لا يكون فعلها وأداؤها إيماناً ، كما أن التصديق بوجوب الاقرار لما كان إيماناً ، لم يجز أن يكون فعلها مع الإخلاص إيماناً . والله أعلم . فقد بان أن ما كان اعتقاد حكم العبادة فيه إيماناً فلا يخلو فعله وأداؤه مـع الاخلاص من[1] أن يكون إيماناً ، والله أعلم .

فان قيل : ان الاعتقاد الذي هو أول جزء من أجزاء الإيمان يتقدمه العلم بوجوبه ، ويتقدم ذلك العلم الاستدلال المؤدي اليه إلى علم التوحيد ، ثم اعتقـــاد وجوب ما ظهر بالدليل ، وعقد القلب عليه دون التغافل عنه ، إيمان .

قيل : هذا يختلف ! فإن كان رجل سمع التوحيد والنبوة فقبلهما واعتقدهما واعترف بهما تصديقاً لمن أخبره بهما ، ثم أراد أن يعلم ذلك بالدليل . واستدل غير شاك عنـــد استدلاله ، في ان ما اعتقد حق، وان صحته ان لم تظهر له باستدلاله . فلتقصيره واخطائه جهته ، كان هذا الاستدلال منه إيماناً . وإذا ظهر له نية مطلوبة ، واعتقد ان الاستسلام لما قال الدليل عليه واجب[2]، وان اغفاله وتضييقه حرام ، كان هذا الاعتقاد إيماناً منه .

---

(١) أ – مع الاخلاص مع ان يكون ايماناً .
(٢) أ – واعتقد ان الاستسلام لما قام الدليل ..

فاما ان كان رجل خطر بقلبه النظر في حال العالم فلم يعتقد فيه شيئاً حتى استدل فكان عنده ان الاستدلال قد يؤدي إلى حدث العالم ، وقد يؤدي إلى قدمه . لم يكن هذا الاستدلال منه إيماناً بعد ان كانت حقيقة الإيمان ما ثبت في صدر هذا الكتاب وبالله التوفيق .

ووجه آخر : وهو ان الاستكبار على الله عز وجل بترك الطاعة له فيما أقر به كفر ، فدل على ان الاستجداء له بالطاعة إنما يدل على ذلك ان الاستكبار على الله تبارك وتعالى الاقرار به لما كان كفراً كان الاذعان له بالاقرار بربوبيته ووحدانيته إيماناً . فكان كل طاعة في هذا مثله .

ووجه آخر : وهو ان الله عز وجل قال : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا . فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾ [1] . فلا يخلو قوله عز وجل هذا من أحد معنيين :

اما ان يكون المراد به فزادتهم ثقة بنبوة النبي ﷺ لما فيها من اطلاعه على أسرار المنافقين ، إذ كان لا يمكن أن يكون وقف عليها إلا من قبل الوحي .

أو يكون المراد ، أيكم رغبته هذه السورة في جهاد المشركين ، ودعته إلى بذل النفس والمال فيه . فإن كان المراد هو الأول ، فقد بان ان احداث تصديق النبي ﷺ بامتثال أمر من أوامره ، واقام عبادة لله على حده هو الذي دعا اليها ونبه عليها زيادة إيمان . وإن كان المراد هو الثاني فقد ثبت ان الجهاد إيمان ، فوجب على قياسه أن تكون كل عبادة إيماناً . وهكذا قوله عز وجل : ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ [2] ، لا يخلو من أن يكون المراد به ليثقوا بصدق النبي ﷺ فيما أخبرهم به من الفتح الكائن ، فتعجل السرور به ، ولا يحزنوا بما وقع عليهم من الصد عن البيت ، أو يكون المراد به ليطيعوه بالدخول في الصلح الذي يأمرهم به ، وإن كان شديدا [3] عليهم أن يخلوا من أخرامهم ويرجعوا وراءهم . فإن كان المراد هو الوجه الأول لزم أن تكون الثقة بصدقه لذي كل عزمة على طاعة بتنفيذها وفعلها ، وكل عزمة على

---

(١) التوبة : ١٢٤ . (٢) الفتح : ٤ .

(٣) أ : وان كان عليهم .

معصية بتركها والامساك عنها ، زيادة إيمان . لأنها تصديق حادث في أمر حادث ، إذ لا فرق بين أن يكونوا صدقوه في بدء الأمر جملة ، ثم يعودوا فيصدقوه في نبأ من أنباء الغيب ، ويثقوا بوعده فيه وبين أن يكونوا صدقوه في جملة ما جاء به من عند الله تعالى جميعه، ولم يصدقوه بفعل ما أمرهم به ، وترك ما نهاهم عنه ثقة بموعوده من الجزاء عليه . وان كان المراد هو الوجه الثاني، فقد بان أو صح بيان ان كل ما وقع بأمر الشرع طاعة له وتسليما فهو إيمان ، وبالله التوفيق .

ووجه آخر : وهو ان الله عز وجل قال : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ [1] ، فقابل عز وجل بين ما حببه الينا وبين ما كره الينا ، ثم أفرد الايمان بالذكر فيما حبب ، وقابله بالكفر والفسوق فيما كره ، فدل ذلك على ان للايمان ضدين [2] ، أو ان من الايمان ما نقيضه الكفر ، ومن الايمان ما نقيضه الفسوق ، وفي ذلك ما أبان ان الطاعات كلها إيمان ، ولولا ذلك لم يكن الفسوق ترك إيمان ، والله أعلم .

ووجه : وهو ان النبي ﷺ قال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[3]، ولا يخلو أن يكون أراد بذلك : ان تعاطي هذه الفواحش ترفع الإيمان ، وأما ما أراد من ذلك ، فإن كنا لا نقول بالأول فقد ثبت ان التعفف [4] عن الفواحش إيمان .

فصـــل

ذكر الأسئله والاعتراضات : فإن قيل ما أنكرتم ان الأعمال كلها ما خلا الاعتقاد والاقرار ليست بإيمان ، وبينها في كتابه فقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾[5] فثبت بذلك ان الاعمال ليست بايمان .

---

(١) الحجرات : ٧ . (٢) أ : على ان الايمان ضدان .

(٣) ورد في سنن ابن ماجـه « كتاب الفتن » باب ٣ ، حديث رقم ٣٩٣٦ ، ولم يرد في باقي كتب الحديث . (٤) وردت (المتعفف) في الاصل .

(٥) سورة البقرة : آية ٢٧٧ ، وفي سورة يونس : آية ٩ ، وفي سور أخرى كثيرة .

فالجواب : ان الله عز وجـــل كما قال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ، فلذلك قال : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ (١) ، ولم يدل ذلك على ان التواصي بالحق وبالصبر ليس من الأعمال الصالحـــة ، فكذلك قوله عز وجل : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ لا يدلل على ان عمل الصالحات ليس بإيمان، وقد قال عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾(٢) ، فأثبت لهم الإيمان مطلقا أولا ، وناداهم باسمه ثم أمرهم بالإيمان بالرسل والكتب ، ولم يدلل ذلك على أن الإيمان بالرســل والكتب ليس بالإيمان الذي لا تمام الإيمان بالله إلا به ، فكذلك قوله عز وجل : ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؛ لا يدل على ان عمل الصالحات ليس بالإيمــان الذي لا كمال للاعتقاد والاقرار إلا به . وقد قال عز وجل : ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾(٣). ولم بذلك فضله بينهما وبين الملائكة في الذكر ، على أنهما ليسا بملكين ، فكذلك لا بـــد فضله عز وجل بين عمل الصالحات وبين الإيمــان ، على أن العمل الصالح ليس بإيمــان ، ثم المعنى في ذلك ، والله أعلم ، ان الذين آمنوا أقل الإيمان وهو الناقــل عن الكفر والمخرج منه ، ثم لم يقتصروا عليه ، ولكنهم ضموا اليه الصالحات فعملوها ، حتى ارتقى إيمانهم من درجة الأقل إلى الأكمل ، كما يقال : ان من صلى وأطال القنوت والقراءة واستكثر من الذكر فله كذا ، فيراد بمن يصلي : من حصل الاركان التي لا أقل منها ، وبمــا وراء ذلك ، من ضم إليها من نوافل الخير ما يقع منه مع غيره صلاة فيكثر ذلك الخير بهـــا ، ويفضل ويشرف . أو يقول : ان المراد بالذين آمنوا ، الإيمـــان بالله وبعمل الصالحات ، الإيمان لله ، والإيمانان متغايران ، فلذلك سميا باسمين ليدل بالتفريق بينهما ، والاسم على تغايرهما . وقد مضى بيان هذا المعنى .

فان قيل : فإن الله عز وجل قد قال في انه اجزى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربـــك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبـــل أو كسبت في إيمانها خـيراً ﴾(٤) ،

---

(١) العصر : ٣ . (٢) النساء : ١٣٦ .

(٣) البقرة : ٩٨ ، وقد وردت في النص : (من كان يؤمن بالله وملائكته ..) وهذا خطأ .

(٤) الانعـــام : ١٥٨ .

فدل ذلك على ان الاكساب الصالحة معترضة في الايمان ، لا انهـــا بنفسها ايمان .

فالجواب : انه لا يمتنع ان يقال لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، فيكون قد حاز أقل الايمان إلى أفضله ، إذ كسب الخير في الايمان ايمان . كما لا يمنع أن يقال : لمن صلى إذا دخل الوقت ، أو قرأ في صلاته فضل قراءة ، أو سبح فيها أو كبر ، فيكون المعنى ـ أو فعل ما ذكرنا ـ فيكون قــد كسب لصلاته كمالاً ، إذ القراءة والتسبيح والتكبير في الصلاة صلاة .

ويدل على أن كسب الخير في الإيمان إيمان ، قول الله عز وجل في أجزائه الظهار الذي هو منكر من القول ، وزور بعد إيجاب الكفارة : ﴿ ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ (١) وإنما أراد ذلك ليمتنعوا من الظهار ، الذي هو منكر من القول وزور طاعـــة لله الذي حرمه عليكم ، فسميت الطاعة لله بترك الظهار ايماناً ، فثبت ان كل طاعة ايمان،وان معنى الآيات المتقدمة ما وصفت والله أعلم .

فان قيل : روينا (ان رسول الله ﷺ برز للناس يوماً ، فجاءه رجل فقال : يارسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان . قال : يا رسول الله ، ما الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) (٢) . فبان بهذا الحديث:ان الإيمـــان غير الإسلام ، وأن هذه الشرائع إن كانت إسلاماً فالإسلام إيمان .

قال الله عز وجل : ﴿ فـــلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾(٣) . فأخبر انهم لا يؤمنون حتى يسلموا الأمر رسول الله،وإذا كان التسليم لأمر رسول الله ، إنما كان التسليم لأمر الله إيماناً.

والإسلام والتسليم كالتكريم والإكرام ، والتعظيم والاعظام ، والتكبير والاكبار ، والطاعات كلها تسليم وإسلام لله عز وجل . فثبت انها إيمان ، ويدل على صحة هـــذا ان الله عز وجل قال : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (٤) . وقال: ﴿ قولوا آمنا بالله ﴾(٥)،

---

(١) المجادلة : ٤ . (٢) ورد في سنن ابن ماجـــه « المقدمة » حديث رقم ٦٤ . وفي صحيح البخاري « كتاب الايمان » باب ٣٧ ، وفي صحيح مسلم « كتاب الايمان » رقم ٥٧ .

(٣) النساء : ٦٥ . (٤) آل عمران : ١٩ . (٥) البقرة : ١٣٦ .

فصح ان قولنا : آمنا بالله ، اسلام . وحكي عن إبراهيم عليه السلام انه قال له : ﴿ أسلم ! قال : أسلمت لرب العالمين ﴾ (١) ، فبان ان الاسلام إيمان . وقال في آية أخرى من قصة لوط عليه السلام : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ (٢) ، فسماهم مرة مؤمنين ومرة مسلمين ، وهو لا يريد لواحدة من التسميتين إلا تمييزهم من غيرهم بأديانهم .

فصح ان الإسلام والإيمان إسمان لدين واحد ، وإن كانت حقيقة الإسلام التسليم ، وحقيقة الإيمان التصديق ، وان اختلاف الحقيقة فيهما لا يمنع أن يجعلا اسماً لدين واحد ، كالغيث والمطر هما اسمان لمسمى واحد، وان كانت حقيقة الغيث في اللسان غير حقيقة المطر . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لي خمسة أسماء ، أنا محمد وأحمد والماحي والحاشر ، والعاقب » (٣) ، ومعلوم أن لكل اسم من هذه الأسماء الخمسة معنى وحقيقة سوى الذي هو فيها لغيره . ثم لم يمنع ذلك من أن يكون اسماً لمسمى واحد . فكذلك الاسلام والإيمان . ثم بين ان بين حقيقة اسم الإيمان وحقيقة اسم الاسلام من التناسب ما ليس بين حقائق هذه الأسامي التي وقع الاستشهاد بها ، لأن الإيمان إذا كان هو التصديق بالله ، والتصديق بالله يقتضي الإيمان له بالطاعة ، وذاك هو الإسلام . والاسلام له لا يكون إلا مع التصديق . فاما التكذيب فإنه من موانع الإسلام دون حواليه . فصح ان الاسلام إيمان ، والإيمان إسلام .

فان قيل : فان كان هذا هكذا ! فلم فصل في الحديث بين الإسلام والإيمان ؟ .

قيل : وقد فصل بينهما وبين الإحسان . أفيدل ذلك على أن الإيمان والإسلام ليسا باحسان ؟ وقد قيل في أول درجات الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً . ليدل ذلك على ان اخلاص العبادة لله ومجانبة الشرك والرياء ليس بإيمان . فإن كان لا يدل على ذلك ، فلذلك لا يدل على ذلك ! كذلك لا يدل على ان اقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليسا بإيمان ، وإنما فصل بينهما ـ والله أعلم ـ لأنه أريد بالحديث : الإيمان الناقل عن الكفر ،

---

(١) البقرة : ١٣١ . (٢) الذاريات : ٣٥ ـ ٣٦ .

(٣) ورد في صحيح البخارى « المناقب » باب ١٧ ، وفي صحيح مسلم « كتاب الفضائل » حديث رقم ١٢٤ ، ١٢٥ .

والإيمان التابع له . فسمي أسبق الإيمانين إيماناً بالاطلاق ، أو أحدهما إسلاماً . أو بقول فصل بين صريح التصديق وبين اماراته ، فسمي صريحه إيماناً وسميت اماراته اسلامـا . أو بقول فصل بين ما هو إيمان بالله ، وما هو إيمان لله . فسمي الإيمان بالله إيماناً بالاطلاق ، وسمي الإيمان لله إسلاماً . وإلا فالإسمان موضوعان لدين واحد ، والله أعلم .

وجواب آخر : ان يقول اختلفت الروايات في ذكر الإيمان والاسلام . فقيـل في بعضها : (قال : ما الإيمان ؟ قال : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبعث بعد الموت . فقال : ما الاسلام ؟ قال : اقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت والغسل من الجنابة) [1] . وهذا يومىء إلى أن يكون الإيمان هو الخصال الناقلة عن الكفر ، والاسلام هو الطاعات التي تصح وراء الانتفاء عن الكفر ، وهي شرائع الإيمان .

وقيل في بعض الروايات : (ما الاسلام ؟ قال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، إلى آخره . قال : ما الايمـان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) [2] . وهذا يوجب أن يكون الايمان هو الاعتقاد بالقلب ، وأن يكون الاقرار مع سائر الطاعات من جملة الاســـلام ، ويكون الاسلام غير الايمان . وهذا يلتحق بالمقالة التي بدأت بالكلام عليها ، إلا أن فيه على أهل هذا القول ـ الذي نتكلم عليهم ـ حجة ، وهي انه لا خـــلاف بيننا وبينهم ان الشهادة إيمان كالاعتقاد ، وقد سميت في هذا الحديث إسلاماً ، وألحقت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . فقد وجب بذلك أن يكون الإيمان والإسلام اسمين لدين واحد ، وأن تكون الطـاعات كلها إيماناً . غير ان الإيمان ما بطن والاسلام ما ظهر ، ثم هما جميعاً إيمان ، لأنه لا صحـة للباطن إلا بالظاهر ، ولا بالظاهر إلا بالباطن . وهما جميعاً إسلام ، لأن كل واحـد من تقويم الظاهر والباطن إذعان لله وخضوع ، ولا يكون ذلك إلا مـع التصديق . وبالله التوفيق .

ويدل على صحة هذا خبر ثالث ، وهو ما روي ان النبي ﷺ قال لوفد عبد القيس :

---

(١) ورد في صحيح البخارى « كتاب الايمان » باب ٣٧ .

(٢) ورد في سنن ابن ماجه « المقدمة » حديث رقم ٦٣ .

(هل تدرون ما الايمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله ! قال : شهادة أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ، واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان ، وان تعطوا من المغانم الخمس) (١) . فسمى الشهادة وهذه الاعمال إيماناً ، كما سماها في الرواية التي قبل هذه اسلاماً فبان ان كل واحد من الاعتقاد والاقرار والطاعات كلها إيمان ، وكل واحد منها إسلام .

ثم جاءت رواية رابعة تؤكد هذا كله ، وهو أن النبي ﷺ قال لرجل من أهل الشام: (أسلم تسلم ! قال : وما الاسلام ؟ قال : أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك . قال : فأي الاسلام أفضل؟ قال : الايمان . وقال : وما الإيمان ؟ قال : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت ، قال : وأي الإيمان أفضل ؟ قال : الهجرة . قال : وما الهجرة ؟ قال : ان تهجر السوء . قال : فأي الهجرة أفضل ؟ قال : الجهاد . قال : وما الجهاد ؟ قال : ان تقاتل الكفار إذا لقيتهم لا تغل ولا تجبن) ، ثم قال النبي ﷺ باصبعيه (هما من أفضل الأعمال : حجة مبرورة وعمرة) (٢) .

فأبان هذا الحديث ان الاسلام الذي أخبر الله عز وجل انه هو الذي عنده بقوله : ﴿ ان الدين عندالله الاسلام ﴾ ، وقوله: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾[٣] . وقوله عز وجل : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾[٤] ، ينتظم الاعتقاد والأعمال الظاهرة . لأن قوله : (الاسلام ان تسلم قلبك لله) اشارة إلى تصحيح الاعتقاد . وقوله[٥] (ويسلم المؤمنون من لسانك ويدك) اشارة إلى تصحيح المعاملات الظاهرة . ثم صرح بذلك فأخبر ان الايمان أفضل الاسلام ، وفسره : بأنه الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث . أراد ان الايمان بالغيب أفضل من الايمان بما يشاهد ويرى . وهذا موافق لقول الله عز وجل : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾[٦] مدحاً لهم وثناء عليهم .

---

(١) ورد في صحيح البخاري «كتاب الايمان » باب ٤٠ ، وفي سنن أبي داود «كتاب سنه» باب ١٥ .
(٢) لم يرد الا في مسند الامام احمد بن حنبل ، ج ٤ ، ص ١٢٩ ، ١٦٤ .
(٣) آل عمران : ٨٥ . (٤) المائدة : ٣ .
(٥) يعني قول الرسول صلى الله عليه وسلم . (٦) البقرة : ١٣ .

ثم أبان الاعتقاد وعامة الأعمال إيمان ، فقال : (أفضل الايمـان الهجرة) ثم فرع الهجرة ، فدل ذلك على أن الطاعات كلها إيمان كما هي إسلام . وان الاسلام الاذعان لله جل وعز ، سواء وقـع بأمر ظاهر أو بأمر باطن ، بعد أن يكون الأمر مما رضي الله لعباده أن يتقربوا به اليه .

ثم جاء نصاً عن النبي ﷺ انـه قال : (أتدرون أي عرى الايمان أوثق ؟ قالوا : الصلاة ! قال : ان الصلاة لحسنة ، وما هي بـه . قالوا : الحج ! قال : ان الحج لحسن ، وما هو به ، قالوا : الصيام ! قال : ان الصيام لحسن، وما هو به . قالوا : الجهاد ! قال: ان الجهاد لحسن ، وما هو به فلما رآهم يذكرون شرائع الاسلام ولا يصيبون ، قال لهم: (أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله) (١) لا ينكر عليهم ان ما عددوا عرى الايمان ، ولكنه أخبر أن الأوثق الذي سألهم عنه غيرهـا . وزاد ذلك بياناً في حديث آخر فقال : (من أعطى لله ، ومنـع لله ، وأنكح لله ، ونكح لله ، وأحب في الله وأبغض في الله ، فقد استكمل الايمان) (٢) . فصرح بأن هذه الخصال إيمان . وابان بأن أوثق عرى الايمان الاخلاص .

وجاء عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ انه قال : (ان الايمان بني على خمس : تعبد الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتحج البيت ، وتصوم رمضان) ، كذلك حدثنا رسول الله ﷺ . وجاء عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ في رواية أنه قال قال رسول الله ﷺ : (بني الاسلام على خمس ..) (٣) فذكر هذه الأعمال ، فبان بذلك أن الايمان والاسلام اسمان لدين واحد ينتظم أعمالاً كثيرة ، ويتصف أوصافاً مختلفة ، وان واحداً من هذين الاسمين ليس لشيء منها دون شيء ، والله أعلم .

ثم الذي يشمل جميع ما ذكرنا وبينا قول النبي ﷺ : (الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق) (٤) . ومعلوم ان هذه

---

(١) لم يرد الا في مسند الامام احمد بن حنبل ، جـ ٤ ، ص ٢٨٦ .

(٢) لم يرد الا في سنن الترمذى « كتاب صفة القيامة » باب ٦٠ حديث رقم ٢٥٢١ .

(٣) ورد في صحيح البخارى « كتاب الايمان » باب ١ ، ٣ . وفي صحيح مسلم « كتاب الايمـان » رقم الحديث ١٩ — ٢٢ .

(٤) ورد في صحيح البخارى «كتاب الايمان » باب ٣ ، وفي صحيح مسلم «كتاب الايمان » رقم ٥٧ .

الشعب هي الأعمال والشرائع . وقد جاءت الاخبار بالنص عليها أو على أكثرها ، ودل الكتاب عليها . فثبت ان اسم الايمان شامل لها ، وستذكر في بابها إن شاء الله تعالى .

فان قال قائل : لو كانت الطاعات كلها إيماناً أوجب أن يكون تركها كفراً ، فإنكم شبهتم كل طاعة بالاقرار ، وترك الاقرار كفر ، فلذلك كان فعله إيماناً . وترك الصلاة ليس بكفر فصح ان فعلها ليس بإيمان .

فالجواب ـ وبالله التوفيق ـ ان الطاعات كلها إيمان بشرط أن تكون موجودة في الايمان ، والطاعة في الايمان ، والطاعة في الايمان إيمان ، ومتى جعلنا فعل الطاعة بشرط التمسك بالايمان المتقدم إيماناً ، لم يلزمنا ان نجعل تركها وحدها كفرا . لأن تركها وحدها ليس بضد(١) لمجموع الفعل وقرينه ، فإن هو ترك الفعل وقرينه بأن جحد وجوبه أو جحد الامر به أو المبلغ له لم ينكر أن يكون ذلك كفراً منه .

فان قيل : هذا جواب غير شديد لأن الاقرار إنما يصح إذا صادف الاعتقاد ، ولا يدل ذلك على أن المتكلم بالكفر مع الاختيار لا ينفك عن الايمان إلا مع تبديل الاعتقاد ، ولكنه ينقله وان كان الاعتقاد سليما بحاله ، فقد كان ينبغي أن يقولوا : ان ترك الصلاة ينفك عن الايمان وان لم يكن معه تبديل الاعتقاد ، ان كان فعلها ايماناً .

فالجواب : ان التكلم بالكفر ينسخ الاقرار ، فمن تكلم به ولم يبدل الاعتقاد كان كمن اعتقد في أول أمره ولم يعترف . وليس في مجرد ترك الصلاة فسخ اقرار ولا تبديل اعتقاد فافترقا .

فان قيل : الطاعة في الايمان ان كانت تكون إيماناً ، فذاك لا يمنع من أن يزول الايمان بالمعصية ، كما ان الركوع في عقد الصلاة يكون صلاة ، ثم ان تركه في موضعه رفع عقد الصلاة .

قيل : لا يشتبهان ، لأن كل عمل من أعمال الصلاة تقتضي صحته إيصال ما بعده به ، فإذا انفرد لم يكن بنفسه صلاة. وكل شعبة من شعب الايمان عندي لا تقتضي صحتها اتصال امثالها بها ، لكن ما أتى به منها صحيح في نفسه وان لم يلحق به غيره . فلهذا

---

(١) أ : ليس يصل .

لم يكن ترك الصلاة مثلا رافعاً لعقد الايمان ، كما كان ترك الركوع مثلا في موضعه من الصلاة رافعاً عقد الصلاة . وقد نجد أيام شهر رمضان مجتمعة فيما يجب من صيامها ، ثم ان صيام كل يوم إذا لحق الشهر لمصادفته إياه ووقوعه فيه ، والفطر فيه لا يوجب هتك حرمة الشهر أصلا حتى تفسد به صيام ما مضى قبله . فلا ينكر أن تكون كل طاعة إيماناً لوقوعها في الايمان ، والمعصية لا توجب حل رباط الايمان أصلاً حتى تحبط ما قدم منه والله أعلم .

وجواب آخر : عن أصل السؤال وهو أن الأعمال تترك من الاعتقاد والاقرار منزلة الامارات من البيان الصحيح الصريح ، وقد تقدم هذا المعنى . فكما أن كافراً لو أسلم في وقت صلاة يصبح إسلامه بالاعتقاد والاقرار ، ولم يتوقفا على أن يقيم الصلاة ، لأن وقف البيان الصريح على وجود الامارة لا معنى له ، وإنما توقف الشيء على وجود شيء مثله أو ما هو أقوى منه . فاما وقفه على امارات نفسه فلا يجوز ، وكذلك من وجبت عليه من المؤمنين طاعة فتركها لم يكفر ، لأن ترك الطاعات تنزل من صريح الكفر منزلة الطاعة من صريح الايمان في انه امارة من امارات الكفر ، فلا يجوز أن يستعمل الأمارة ويلغي ما قد حصل من صريح الايمان . فقدم الامارة على البيان كما لم يجز في الابتداء أن يتوقف عن الحكم بالايمان بعد وجود الاعتقاد والاقرار انتظار الامارات ، والله أعلم .

وجواب ثالث : وهو ان الايمان ضربان : إيمان بالله ورسوله ، وإيمان لله ورسوله ﷺ . فالايمان بالله ضده الكفر ، لان ضد التصديق بالله تعالى هو التكذيب به ، وذلك كفر . وضد التصديق بنبوة النبي ﷺ التكذيب به ، وذلك كفر . وإنما الايمان لله تعالى ولرسوله ﷺ ، فضده النفاق والخلاف والفسوق والعصيان ، إذ الايمان له هو الطاعة والاتباع ، وليس ضد التكذيب الكفر ، وقد قلنا بذلك وأثبتناه فلم يلزمنا ان نثبت وراءه ما ليس بضد لهذا الضرب من الايمان ، ولا مناقض إياه ، والله أعلم .

فان قال قائل : فما انكرت ان الاعمال ليست بايمان ، لأن فعل ما يجب منها لا ينفك عن كفره ، وتركه لا يوقع في كفره . فالواجبات من هذا الوجه كالمباحات فلما لم يكن فعل المباح إيماناً ، لم يكن فعل الواجب إيماناً .

فالجواب : ان فعل المباح إرادة لوجه الله إيمان ، وذلك كالكسب الذي يراد به إعانة العاجز ، والتسحر لصيام الغد ، واتيان الأهل من غير حاجة اليه نظراً لها ، أو توقعاً لولد يعبد الله ويوحده ، وكالافطار عند مجيء الليل تحرراً من شبه الوصال . وليس شيء من الطاعات إلا ويراد به وجه الله تعالى ، فإذا قلنا : إن المباح الذي يراد به وجه الله تعالى، ففعله إيمان . فقد سوينا بين الطاعات وبين ما يشبهها من المباحات ، وسقط السؤال عنا لأنه لا يبقى وراء هذا الصنف من المباح إلا ما يراد به وجه الله ، وليس ذلك لصفة الطاعات ، فلا يلزمنا ان نسوي بينهما مع اختلافهما وتباينهما في المعنى والله أعلم .

وجواب آخر : وهو ان هذا الإعتلال لا يقوم به حجة ، لان معنانا في ان كل طاعة ايمان ، إن الإيمان هو التصديق ، والطاعة تصديق بالأمر وأمره ووعده ووعيده فكانت إيماناً ،فهذا مالا يتهيأ جحده ولا نفيه بالمقايسات ، لان كل ما ينصب منها ، لنفى ان تكون كل طاعة إيماناً ، فإنما يرجع إلى نفي ان تكون كل طاعة تصديقاً ، وما كان تصديقاً ضرورة ، فنفي ان يكون تصديقاً بالمقايسة لا معنى لها . وهو كمن ينفي أن يكون خبر يذكره خبراً بعلة يعتل فلا يقبل منه ، لأنه إذا كان الخبر مما يدخله الصدق والكذب ، وكان ما يذكره قولاً يدخله الصدق والكذب ، فقد وجب أن يكون خبراً، وكل علة نفى بها أن يكون خبراً فإنما ينفي أن يكون محتملا للصدق والكذب ، وذلك وصف ثابت له ضرورة فلا يلتفت إلى نفيها بالمقايسة ،فلذلك هذا الاعتلال،وبالله التوفيق.

فصـــل

ان قال قائل : اخبرنا عن قولكم : إن الطاعات من الإيمان ، ما الذي تستفيدون به **إذا ثبت لكم** ، **وأنتم لا تقولون** ان ترك العمل الواجب كفر ، ولا ان الفسوق خروج من الإيمان ، وليس بدخول في الكفر ، فما الذي يفيده ثبوت هذا الأصل على قولكم ؟ وما الذي يجب به من الحكم عندكم ؟

قيل : ـ وبالله التوفيق ـ أول ما في هذا ان كل أصل وقع البحث عن حقيقته ، فإنما ذلك لادراكه على ما هو عليه ، لا لما يرى انه يتوصل منه اليه . وقد أمرنا بالإيمان ،

ووجدنا الإيمان شعباً منسوبة اليه ، فلما نظرنا في ان تلك الشعب كلها إيمان ، أو بعضها إيمان ، وبعضها حقوق الإيمان من غير أن تكون إيماناً نفسها . تبين لنا بالدليل ان كلها إيمان، فوصفناها بذلك لنكون مخبرين عن الإيمان ما هو عليه ، ومعتقدين إياه على وجهه وحقيقته ثم سواء استفدنا وراء ذلك فائدة أخرى أم لم نستفد ، فقد أثرنا (١) بالنظر اعتقاد الشيء على ما هو عليه ، وحصلنا به على الغرض المطلوب ، وبالله التوفيق . ثم ان هذا الأصل إذا ثبت تفرغ عنه ان الكفار مخاطبون بالشرائع كلها ، ومخاطبون بالاعتقاد و الإقرار . لان الطاعات كلها إذا كانت إيماناً لم يجز ان يخاطبوا بشيء منها دون شيء مع اتساعهم لجميعها. ولا يخرج على قول من لا يثبت الطاعات كلها إيماناً ، ان يكونوا مخاطبين بالأعمال إلا بعد أن يصح لهم الاعتقاد والإقرار ، كما لا يطالب أحد بحق عقد من العقود ـ ما كان ـ إلا بعد أن يصح منه أصله ، والله أعلم .

وقد جاء في هذا الفصل خاصة ان رجلاً قال : يا رسول الله ! أيؤاخذ الله أحداً بما عمل في الجاهلية ؟ فقال : من أحسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية (ومن أساء في في الإسلام أخذ بالأول والآخر) (٢) وهذا على ان الطاعات في الإيمان إيمان، والمعاصي في الكفر كفر . فإذا أسلم الكافر أحبط إسلامه كفره ، فإن أحسن في الإسلام أحبطت طاعاته تلك المعاصي التي قدمها في حال كفره ، وإن لم يحسن في الإسلام بقيت تلك المعاصي بحالها إذا لم يجد ما يحبطها ، فأخذ باساءته في الاسلام وفيما قبله . ومما يؤكد هذا إن المعاصي قد توجد من المسلم في إسلامه فلم يلزم أن يحبط ما وجد منها في الكفر بالإسلام الحادث . وبان بهذا أن قول الله عز وجل ﴿ قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ (٣) معناه يغفر لهم كفرهم فيما خلا من اعمارهم ، فإن كان عاما للكفر والذنوب فهو مغفور بشرط الانتهاء . وفي ذلك بيان انهم ان لم ينتهوا عن المعاصي التي كانوا عليها لم يغفر لهم ، كما انهم ما لم ينتهوا عن الكفر لم يغفر لهم .

---

(١) ح : اعرنا .

(٢) ورد الحديث ناقصاً في النسخة (أ) وقد ورد في صحيح البخاري (كتاب المرتدين) حديث رقم ٤ على النحو التالي : (يا رسول الله ، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟ قال : من احسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن اساء في الاسلام اخذ بالاول والآخر) . كما ورد في صحيح مسلم (ايمان) رقم ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٣) الأنفال : ٣٨ .

فان قيل : فالزموهم قضاء ما سلف من صلاة أو صوم !

قيل : لا يلزمنا هذا ، لأنهم ان صلوا وصاموا بعدما أسلموا ، سقط عنهم ما تركوا في الكفر بدلالة الحديث ، وان لم يصلوا أو لم يصوموا ، أمروا بالصلاة والصيام ، وحملهم على ذلك حملهم على ما إذا فعلوه سقط ما مضى عنهم ، فلم يلزمنا أن نأمرهم بتجديد القضاء لما تركوا .

فان قيل : فما بال المسلم التارك للصلوات ، إذا تاب واستقبل فأقام الصلاة لا يسقط ذلك عنه ما مضى منها .

قيل : لأن ترك المسلم الصلاة لا يستند إلى أصل معفو عنه ، فكان شرط يؤتيه قضاء ما ترك منها ، وترك الكافر الصلاة مستند بعد الاسلام إلى أصل قد عفي عنه وهو الكفر. ثم ان ذلك العفو عن ماضيه انما وقع لا بتدارك ـ كان له من الأصل إذ ذاك ـ غير ممكن، لكن باستقبال خلافها والله أعلم .

ومما يتفرع عن هذا الأصل أن الفاسق ينبغي أن يكون مردوداً لشهادة غير معتمد القضاء بين الناس ، ولا لولاية التزويج ولا لولاية أموال الغير ، لأنه ناقص الدين ، ونقصان الدين يحول عن الترقي إلى مراتب أهل الفضل والكمال في الدين . فإن قضى قاض لم يجز قضاؤه ، كما لو أفضى شهادة كافر لم ينعقد قضاؤه ومن لم ينسبه إلى نقصان الدين ردت شهادته للتهمة ، فأداه ذلك إلى أن يقول ان الحاكم ان ظن به خيراً أو قبل شهادته كان قضاؤه جائزاً ، لأن الأصل انه برىء من الكذب غير مفارق له حتى يثبت خلافه ، وأجاز الوصاية اليه ، واثبت له الولاية على أطفاله ، ونحن لا نقول ذلك والله أعلم .

ومما يتفرع عن هذا الأصل ، ان الأعمال إذا كانت إيماناً كان بكاملها تكامل الإيمان ، وتناقصها تناقص الإيمان . وكان المؤمنون متفاضلين في إيمانهم ، كما هم متفاضلون في أعمالهم . وحرم أن يقول قائل : (إيماني وإيمان الملائكة والنبيين واحد) لأن الطاعات كلها إذا كانت إيماناً ! فمن أكثر طاعة كان أكثر إيماناً ، ومن كان أفضل طاعة كان أفضل إيماناً ، ومن خلط الطاعات بالمعاصي كان أنقص إيماناً ممن أخلص الطاعات ، والله أعلم .

ويتبع هذا الأصل ان المعاصي إذا كانت تنقص الإيمان جاز ان يكون فيها ما يوجب

القتل ، لأن الإيمان هو العاصم للنفس فلا يجوز أن تزول العصمة وهو باق بحاله . وعلى كماله الذي كان له حين أوجب العصمة . وفي هـــذا ما أبان ان قتل القاتل والزاني المُحْصِن وتارك الصلاة لا يخرج إلا على أن تكون هذه الجنايات مؤثرة في سبب العصمة، ناقصة من درجاته ، مخففة لوزنه . ولولا ذلك لما جاز أن يستحل بها الدم . فإن قيـل : فيقولوا ان كل معصية فهي تبيـــح الدم ! قيل : لا يلزمنا أن نقول ذلك ، لأن سبب العصمة إذا كان إيماناً لا ثلمة فيه . فحديث فيه ثلمة احتمل أن يقال : ان العصمة تزول ، واحتمل أن يفصل الثلم ويقال فيها عظم منها انها تزيل العصمة ، وفيما صغر منها انهـــا لا تزيلها . كما يقال : ان العمل الكثير الذي ليس من جنس الصلاة يفسد الصلاة، والعمل القليل لا يفسدها . وقـد قالوا : إذا زاد في صلاته أقل من ركعة لم يفسدها ، وإن زاد فيها ركعة أفسدها . وأما الصوم فإن قليل الأكل فيـه والشرب وكثيره سواء . ولكن مهما كان سبب العصمة في الأصل إيماناً لا ثلمة فيه لم يجز أن يكون هـــذا السبب قائماً بكماله والعصمة زائلة . فبان بهذا ان قيل : أحد من المسلمين عمل معصية تكون منه ، لا تخرج إلا على أن تكون الطاعات إيماناً ، والمعاصي ثلماً في الإيمان ، والله أعلم .

القســـم الثـاني

باب القول في زيادة الايمان ونقصانه

قال الله عز وجل : ﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ [١] . وقال : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ [٢] ، وقال : ﴿ وإذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ﴾ . [٣] وقال : والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ [٤] .

فثبت بهذه الآيات ان الإيمان قابل للزيادة .

فإن قال قائل : ما أنكرتم ان زيادة الإيمان زيادة العلم والمعرفة ، فإن للعلم منازل أولها غالب الظن ثم اليقين ثم الضرورة .

فالجواب : أن يقال له : أخبرنا عن اليقين الواقع للمؤمن ، أهو إيمان ؟ فإذا قال : نعم ! قيل له : فزيادة اليقين الواقعة له إيمان . فان قال : لا ! قل له : فكيف يزداد الأيمان بما ليس بايمان ؟ وإن قال : هي إيمان ! قيل : فقد زاد الإيمان بكل حال ، ووجب إذا كان الناس متفاضلين في يقينهم ، فكان منهم من هو كالمضطر إلى العلم في انه لا يتهيأ تشكيله في الدين بشدة سكون قلبه الى معتقدة ، ومنهم من يكون دونه حتى لا يؤمن عليه التشكيل إن دخلت عليه شبهة ، وجب ان يكونوا متفاضلين في إيمانهم وبطل ان يكونوا في الأيمان سواء ، فضلاً في أن يكونوا والملائكة والنبيين ـ صلوات الله عليهم ـ وغيرهم فيه سواء . ويقال : أرأيت زيادة اليقين؟ هل يقع الا عن دلالة تقوم وتظهر فيسلم لها ويوثق بمدلولها ؟ فإذا قال : بلى ! قيل له : فالاستسلام لها والتصديق بمدلولها طاعة زائدة بعد حصول حقيقة الإيمان ، فما جاز أن يزيد الإيمان بها .فماانكرت انه يزيد بكل طاعة ؟

---

(١) الفتح : ٤ .

(٢) الانفال : ٢ .

(٣) التوبة : ١٢٤ .

(٤) محمد : ١٧ .

فإن قال : إنما زاد الإيمان بقبول الدلالة الزائدة في اليقين لأن قيامها انما كان على نفس ما سبق اعتقاده من الإيمان ، فكان قبولها قبول الإيمان ، وليس كذلك الصلاة مثلاً وإن كانت طاعه . ولا الصيام، ولا الصدقة، لأنه غير الإيمان الذي تقدم اعتقاده، والإقرار به .

قيل له : إن الدلالة الثانية ، إن كانت قائمة على نفس المعتقد الأول ، فليس المعتقد هو الإيمان . إنما الإعتقاد الذي هو فعل العبد ، هو الإيمان . فاما المعتقد لثبوت الباريء من أنه الباريء ، ووحدانيته ، ونبوة النبي ﷺ ، فذاك مؤمن به وهو نفسه موجود ثابت صدق به أو كذب . فإذا كان كذلك ، فالدلالة الثانية إذا أدت من قامت له إلى الأعتقاد مثل الأول – حتى لو لم يكن الأول لكان بالثاني مؤمناً، فازداد بالمعتقد بصيرة وسكون قلب اليه وثقة به ـ كان إيمانه زائداً بزيادة اعتقاد حادث . وذلك الإعتقاد ليس إلا التصديق . فكذلك إذا صلى بعد إيمانه [1] أو صام فقد زاد تصديقاً لأن من لا يصدق بالله لا يصوم ولا يصلي « كما ان من لا يصدق بالله لا يشهد له بالوجود والوحدانية والخلق والأمر ، فقد صار اتباع الصلاة والصيام الإيمان كاتباع الإعتقاد الاعتقاد . فإذا كان كذلك زيادة إيمان وجب أن تكون الصلاة زيادة إيمان .

وقال قائل : معنى زيادة الإيمان المذكورة في هذه الآيات اعادة لفظ الإيمان وتكرره، ويسمى الإزدياد من ألفاظ الإيمان ازدياد مجازاً ، ويدل على ذلك أنه لم يقل ليزيد إيمانهم وإنما قال : ﴿ ليزدادوا إيماناً ﴾ ليستكثروا منه بان يعيدوه ويكبروه .

فالجواب : بأنه لا فرق بين قول القائل : ازددت إيمانا وبين قوله : زاد إيماني ، كما لا فرق بين قوله : ازددت مالاً ، وبين قوله : زاد مالي ، ولا بين قوله ، ازددت أولاداً ، وبين قوله : زاد أولادي ، فإذا كان كذلك ، لم يحصل هذا السائل من فرقة بين العبادتين على عوض [2] صحيح . ثم الذي قال حجة عليه ، لأنا نسأله عن تكرير الإيمان : إيمان هو أم لا ؟ .

فإن قال : ليس بإيمان ! **قيل له** : فكيف يزداد المكرر إيماناً بأن تلفظ بما ليس بإيمان ! أرأيت لو روى خبر أو أنشد شعر أكان يكون مرداد إيمان ، فكيف صار يتكرر لفظ الإيمان مرداداً إيمان ، إن لم يكن ما لفظ به إيماناً ؟ .

---

(١) أ : فكذلك ايمانه اذا صلى او صام .   (٢) أ : على عوج صحيح .

فان قال : هو إيمان . قيل له : أرأيت لو حكاه عن غيره ، أو قرأه من كتاب يريد أن يبثه لغيره ، كان يكون مرداد إيمان . فإذا قال : لا ! قيل له : فهلا علمت انه أراد التقرب بتكريره ، إنه إنما كان ذلك إيماناً منه ، يكون به مرداد إيمان ، لأنه قربة منه وبر ، وكل بر وقربة فواجب أن يكون إيماناً ، وفاعله مرداداً من ايمان ، ومما يدل على ان الإيمان قابل للزيادة ، اجماعهم على أن المولود من المسلمين مؤمن ، فإذا بلغ عاقلاً فأحدث اعتقاداً وإقرار كانا منه إيمانا ، وهذا زيادة إيمان كانت منه . فثبت ان المؤمن قد يؤمن فيزداد إيمانه المتقدم بانضمام المتأخر اليه .

فإن قال: إنما كان هذا ايماناً منه لأنه لو لم يفعله لكان كافراً . وهل في سائر الطاعات مفقود ، **قيل:** ليس كذلك ! لأنه لو بلغ ولم يخطر بقلبه انه يحتاج إلى تحديد الإيمان ، أو كان بلوغه الستين فلم يعلم أنه قد بلغ ، فاحدث اعتقاداً للحق ، ويشهد به للعادة لكان ذلك منه إيمانا ، ولو لم يوجد ذلك منه ما كان كافراً ، إنما يكفر إذا أبى وامتنع بعد البلوغ .

فأما إذا كان تركه تحديد الاعتقاد والشهادة ، لأن ذلك لم يخطر بقلبه ، وكان ذا هلا عنه ، أو لأنه لم يعلم أنه قد بلغ فليس ذلك بكفر ، ومع هذا لو شهد لكان مؤمناً ، فعلمنا أن ذلك لم يكف إيمانا لأن تركه كفر ، ولكن لأنه طاعة في نفسه ، فوجب ان تكون كل طاعة إيماناً . وهكذا الأخرس من علة يؤمن باعتقاده وإشارته ، فيكون مؤمناً فإذا برأ وزال عنه العلة وجب أن يتشهد فكان تشهده إيمانا على إيمان . وإذا ثبت ما قلناه ، فقد ظهر إن المؤمن قد يؤمن فيكون بإيمانه الثاني مرداداً من الإيمان ، والله أعلم .

دليل آخر : وهو إجماعهم ان الناس لما آمنوا بالله تعالى وبالنبي ﷺ كانوا مؤمنين . فلما جاءهم بالصلاة فقبلوها كان ذلك إيماناً منهم ، فلما جاءهم بالزكاة فقبلوها كان ذلك إيماناً منهم . وكلما جاءهم بطاعة فقبلوها كان ذلك إيماناً منهم ، وهم في كل ذلك من قبله مؤمنون . فصح ان المؤمن قد يؤمن فيزداد ما تقدم من إيمانه بما تأخر .

فإن أعادوا سؤالهم وقالوا : إنما كان يكون قولهم كل ما جاء به إيماناً ، لأنهم لو امتنعوا كانوا كفاراً ، ولسنا ننكر ان ما كان تركه كفراً كان فعله إيماناً ، وإنما نخالفكم فيما لا يكون تركه كفراً .

قيل لهم : إن قبولهم الشيء بعد الشيء ، مما كان يشرع لهم إذا كان لا يحتاج اليه لرفع كفر واقع موجود ، وإنما يخشى أن يعودوا كفاراً إن لم يقتلوا ، فهم فيما بين حدوث العلم لهم بما قد شرع وبين قبوله ، وفي حال القبول مؤمنون ثم القبول زيادة إيمان منهم . فثبت بهذا جواز أن يكون للايمان امداد إذا تلاحقت زاد الايمان بها . وعلى انهم انما احتاجوا إلى القبول لئلا يكفروا بالرد ، كان القبول منهم طاعة ، كما لو ردوا فكفروا كان ذلك منهم معصية ، فبأن ان قبولهم إنما كان إيماناً لأنه كان طاعة ، فوجب أن تكون كل طاعة في إيمان إيماناً.

وجواب آخر : وهو ان قبول ما يتجدد شرعه في زمان الشرع إذا كان إيماناً ، لأن لأن تركه كفر ورفع لما تقدم من عقد الإيمان بالقلب واللسان . فوجب أن يكون التعفف عن كل كبيرة وتركها لوجه الله تعالى إيمانا ، لأن تركه إلى خلافه جرح للايمان . والجرح في مناقضه المجروح كالفسخ في مناقضة المفسوخ .

ألا ترى ان محظورات الاحرام كلها مضادة للاحرام ، وإن كان أحدهما مختصا بالافساد لأنها إن كانت لا تفسده فلا يخلو من أن يجرحه . والجرح كالإفساد وان اختلفا في ان الإفساد يرفع الاحرام كله ، والجرح ينقضه ولا ينقضه فكان يرفع بعضه . فلذلك كل ما يجرح الايمان فهو في مناقضه كالمفسد له . فاذا كان القبول لما تجدد شرعه إيمانا لأن خلافه رافع للايمان ، وجب أن تكون الصلاة في وقتها إيمانا ، لان تركها ، حتى يخرج وقتها من غير عذر ، خارج للايمان . ألا ترى ان الامساك في الاحرام إذا كان احراما لان الاقدام عليها رافع له كان الامساك عن الحلق ، وقيل الصيد وتقليم الظفر احرما ، لأن الاقدام عليها خارج للاحرام . والله أعلم .

فان قيل : ومن سلم لكم ان ترك الفرض جارح للايمان !

قيل : اجمعت الأمة على تسمية الفسق جرحا . ومعلوم ان ذلك ليس جرحا لبدنه ، إنما هو جرح لدينه .

فان قيل : أرادوا بذلك جرح عرضه . **قيل** : وليس تحت جرح العرض الا لصاق شين وسبة به ، ولو لم يكن ما ينسب اليه من الفسق ناقصا من دينه شيئا لم يكن شيئا ولا

سبه ، فصح ان عرضه انما يصير مجروحا بالفسق لئلا يلتصق عن ذلك به من نقصان الدين والله أعلم .

وجواب اخر : وهو أن يقال لمن سأل هذا السؤال : أخبرنا عن اليهودي المشبه الذي يزعم أن عزيرا ابن الله ، والنصراني الذي زعم ان المسيح ابن الله . إذا قال اليهودي لم يكن المسيح نبيا ، أيكون هذا كفرا منه ؟ أو النصراني إذا قال مثل ذلك لنبينا ﷺ ، أيكون كفراً منه ؟ فإذا قال : نعم ! قيل له : أرأيت لو قال اليهودي : كان المسيح ومحمد نبيين ، ولكنه لم ينزع [1] عن قوله عزير ابن الله ، أو قال النصراني : محمد رسول الله ولم ينزع عن قوله «المسيح ابن الله» ، أيكونان مؤمنين ؟ فإذا قال : لا ! قيل له : فإذا جاز أن يكون كل واحد منهما مرداداً من الكفر بشيء ، لو تركاه لم يكن تركهما له إيمانا . فلم لا أجزت أن يكون المؤمن مرداداً من الايمان بشيء ، لو تركه كفراً ! وما الفرق ؟

وجواب اخر وهو ان الفرض والنفل [2] مجتمعان ، في ان فعلهما طـاعة وبر ، ثم يختلفـان ، فيكون ترك الفرض معصية ، ولا يكون ترك النفل معصية ، ولا يستدل بافتراقهما في ذلك على افتراقهما [3] في أن يكون فعلوا طاعة فلذلك قبول الفرض بعد الفرض عن النبي ﷺ ، وفعـل الفرض بعد الفرض يجتمعـان في ان يكونا إيمانا ، ويفترقـان في أن يكون ترك القبول كفراً ، ولا يكون ترك الفعل كفراً . ولا يجب على افتراقهما في ذلك ، افتراقهما في أن يكون فعلهما جميعا ايمانا .

وجواب اخر : وهو ان مفارقة الفعل القبول ، في ان ترك القبول كفر ، وترك الفعل ليس بكفر ، لا يوجب الفرق بينهما في أن يكون كل واحد منهما إيمانا . فان الله عز وجل قال : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام اخر ﴾ [4] فالزم الصحيح المقيم أن يصوم ، والزم وجعل للمريض والمسافر أن يصوم ، كان الشهر عدة من أيام أخر . فالصحيح المقيم ان لم يصم عصى وفسق ، والمريض والمسافر إذا لم يصم ، لم يعص ولم يفسق ولم يمنع افتراقهما ـ من هذا الوجه ـ أن يتفقا في ان كل واحد منهما إذا

---

(١) لم ينزع عن : لم ينته عن . (٢) النفل : عطية التطوع ومنه نافلة الصلاة .
(٣) أ : ولا يستدل بافراقهما في ذلك على افراقهما في ان يكون فعلهما طاعة .
(٤) البقرة : ١٨٥ .

صام كان باراً مطيعا مؤديا فريضة الشهر . ولم يجز أن يقال : إن الصحيح المقيم إذاصام مطيع ، لأنه لو لم يصم كان عاصيا . والمريض والمسافر إذا صاما فليسا بمطيعين ، لأنهما لو لم يصوما لم يكونا عاصيين . فكذلك القابل للفرض والفاعل له ، مطيعان مؤمنان ،هذا بقبوله وذك بفعله ، ولو كان القابل لو لم يقبل « لم » يكفر ،والفاعل لو لم يفعل لم يكفر .

فان قيل : المريض انما لم يعص بالفطر لأنه خير بين الصوم وبين الفطر . **قيل** : اليس التخيير غير حكم فطره ولم يغير حكم صومه ، فلا تنكروا أن الدليل قد غير حكم ترك الطاعات ومنع من أن يكون ذلك كفراً ، ولا يغير حكم فعلها ، ولا يمنع من أن يكون إيمانا ، وبالله التوفيق .

فان قال قائل : القبول لكل ما تجدد شرطه بمنزلة عادة الايمان المتقدم ، لأن الايمان المتقدم اشتمل على القبول لما جاء به النبي ﷺ فسواء كان قد جاء بما بعث به جملة ، أو جاء به شيئا فشيئا .

فالجواب : انه لو كان اعاده بالتقدم لم يحتج اليه ، وقد جـــاء عن النبي ﷺ انه لما بعث معاذ إلى اليمن قيل له :(ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وإني رسول الله ،فإن هم أجابوك إلى ذلك ، فاعلمهم ان عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم)[1]، فلو كان الاعتراف بالله ورسوله قبولاً لكل ما يؤديه الرسول عن الله تعالى . قال لهم : فان هم أجابوك إلى رسول الله فاعلمهم ان عليهم الصلاة والزكاة . ولما لم يقل ذلك بل علق كل أمر من ذلك باجابة اليه جديدة ، صح ان التصديق المتقدم على سبيل الأعمال لا يعني عن القبول عند التفصيل . وأكد هذا وأوضحه ان قبول الفرض إنما يجب ويصح بعدالفرض ويستحيل أن يقع القبول لما لم يفرض .

فثبت بهذا أن القابل للفرض عند الدخول في الايمان ، ليس قبول ما لم يفرض ،لكنه التزام لقبول ما يعرض ، فإذا وقع الفرض وجب القبول والوفاء بما تقدم من التزامه ، لا انه يقع ملتزما مقبولاً ، ألا ترى ان الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام ، وسمعوا منهما البشارة بالنبى ﷺ ، والتزموا الايمان به ان لحقوا أيامه وأدركوا بعثه ، فلو بعث

---

(١) ورد في سنن ابن ماجه « الزكاة » باب ١ حديث رقم ١٧٨٣ .
وفي صحيح البخاري « الزكاة » باب ١ ، ٦٣ . وفي سنن النسائي « ألزكاة » باب ١ .

وهم أو بعضهم أحياء ، لم يكونوا بمجرد تصديقهم المبشرين به بعينه ، حتى يحدثوا إيمانا به وتصديقا له .

فكذلك المصدق بالنبي ﷺ ، وإن التزم قبول ما يأتي به فذلك لا يجعله عندما يأتي به قابلاً له ملتزما اياه. حتى يحدث له قبولاً . فثبت انه إذا قبل ، كان ذلك القبول منه إيمانا حادثا وراء ما قدم من الايمان ، وانضمام الايمان الى الايمان ، فوجب ازدياد السابق باللاحق . فصح ان الايمان قابل الزيادة ، والله أعلم .

ودل الكتاب على ما وصفت ، قال الله عز وجل : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ (١)

وقال ﴿ والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ (٢) . فبأن ان شرح الصدر بالحكم الحادث والتسليم له محتاج اليه ، وإن كان التزام الإيمان بكل من يبعثه الله تعالى وبرسله قد تقدم ، والله أعلم .

وأيضاً فإنه إذا ثبت احداث القبول لما يحدث فرضه إيمانا ، وكان القبول في هذا الوقت تنفيذ الملتزم منه الفرض ، وجب أن يكون تنفيذ كل ملتزم إيمانا مثله ، إذ لا فرق بين التزام قبول الصلاة ان شرعت ، ثم قبولها عندما تشرع ، وبين قبولها إذا شرعت ثم فعلها إذا دخل وقتها ، والله أعلم .

ومما يدل على زيادة الايمان ونقصانه قول النبي ﷺ : (اكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً) (٣) . فدل هذا القول على ان حسن الخلق إيمان ، وان عدمه نقصان إيمان ، وإن المؤمنين متفاوتون في إيمانهم . فبعضهم اكمل إيمانا من بعض .

فان قال قائل : هذا من أخبار الآحاد ، وكتاب الله عز وجل أولى منه ، والله عز وجل يقول: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ (٤) وليس بعد الكمال شيء ! فثبت ان دين الله تعالى محدود ولا يحتمل زيادة عليه ، ولا نقصانا منه .

---

(١) النساء : ٦٥ (٢) البقرة : ٢٨٥ .

(٣) ورد في سنن ابي داود « كتاب السنة » باب ١٤ ، وفي سنن الدارمي «كتاب الرقائق» باب ٧٤ ، ص ٣٢٣ . وفي مسند الامام احمد بن حنبل – ج ٤ – صفحة ٢٥٠ ، ٤٧٢ .

(٤) المائدة : ٣ .

فالجواب : ان معنى قول الله عز وجل : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ أي أكملت لكم وضعه ، فلا أفرض عليكم من بعد ، ما لم أفرضه إلى اليوم . ولا أضع عنكم بعد اليوم ما قد فرضته قبل اليوم ، ولا تغليظ من الآن ولا تخفيف ، ولا نسخ ولا تبديل . وليس معناه انه اكمل لنا ديننا من قبل العلم لنا ، لان ذلك لو كان كذلك لسقط عن المخاطبين بالآية الدوام على الايمان . لان الدين قد كمل وليس بعد الكمال شيء وإذا كان الدوام على الايمان مستقبلا وهو إيمان ، فكذلك الطاعات الباقية التي تجب شيئاً فشيئاً كلها إيمان . والكمال راجع إلى كمال الشرع والوضع لا إلى كمال اداء المؤدين له وقيام القائمين به والله أعلم .

ثم ان في الجواب مايشتق منه العلم بزيادة الايمان ، لأن الايمان فرض دائم . ولكنه لما لم يكن في الوضع استدامة عقده بالقلب والاعراب عنه باللسان ، جعل مايقع من ذلك على "صحة كالمكرر على الدوام في كل وقت ما لم يتعقب بالنقص والافساد . وإذا كان الدوام على الايمان بمعنى التحديد في كل زمان ، صح ان للمؤمنين في كل وقت إيمانا وذلك يوجب أن يكون كل متقدم منه مردداً بما يحث بعده ، كما انه إذا كانت في كل وقت صلاة ، وجب أن يكون ما تقدم من صلاته مردداً بما يعقبها والله أعلم .

وان قال قائل : الزيادة على الايمان لا تتحقق إلا وراء الايمان ، كما ان الزيادة على المكتوبات الخمس لا تكون إلا خارجة منها ؛ والزيادة على الصيام لا تكون إلا وراء إيمانه والزيادة على الدين لا تكون إلا بعد إيفائه بتمامه فكذلك الزيادة على الايمان ، إن كانت فينبغي أن تكون بعد إيفاء الايمان بتمامه وانتهائه إلى غايته ، ثم الزيادة عليه . وإذا كان من قولكم ان ايمان المؤمن انما ينتهي بتناهي عمره ! فاني يتوهم الزيادة عليه ؟

فالجواب : ان الزيادة على الصلوات الخمس كما لا تكون الا خارجة منها ، والزيادة على الصيام المفروض لا تكون إلا خارجة منها ، فكذلك الزيادة على الايمان الذي هو بضع وسبعون شعبة ، لو كانت ، لم تكن إلا خارجة منها . ولكن الايمان الذي يتشعب هذه (الشعب) ، ينبغي أن تكون كل شعبة منها ايمانا . كما ان فرض الصلاة إذا انقسمت إلى خمس صلوات في خمسة أوقات ، ثم انقسمت كل صلاة منها إلى ركعات ، وجب أن تكون كل شعبة من هذه الشعب صلاة .

وكما ان فرض الصيام اذا انقسم إلى أيام الشهر ، كان صوم كل يوم صوماً بالحقيقة وركناً .

كما ان الزيــادة على الدين ، وإن لم تكن الا وراء الدين ، فان كل جزء من أجزاء الدين دين . فلذلك لما ثبت بالحديث : (ان الإيمان بضع وسبعون شعبة) وجب أن تكون كل شعبة منها إيمانا . وإذا وجب ذلك لزم أن تكون كل شعبة مما تقدمت تزداد بما يتبعها من شعبة مثلها . فيكون الآتي بجميع هذه الشعب كامل الايمان ، والآتي ببعضها ناقص الايمان والله أعلم .

فان قال قائل : لو كانت هذه الشعب كلها إيمانا لاستحال أن يكون من يعرفها مؤمناً!

فالجواب : إن هذه دعوى لا برهان عليها لأنه لا خلاف في ان الايمان بانبياء الله يصح على غير معرفة بعددهم وصفاتهم وأسمائهم . فكذلك الايمان بكتب الله تعالى يصح من غير علم بما فيها ، وقبول ما جاء به نبينا ﷺ يصح من غير علم به . وقبول فرض الصلاة يصح ويكون إيمانا . وكذلك قبول الزكاة من غير علم باركانها وشروطها . فكذلك الايمان ممن لا يعلم في الحال شعبه وأبوابه والله أعلم .

ومما يدل على أن الايمان يزيد وينقص قول النبي ﷺ للنساء (انكن ناقصات عقل ودين ، فقلن يا رسول الله : ما نقصان عقلنا وديننا ؟ قال : أما نقصان دينكن ، فهو ان الواحدة منكن تجلس نصف دهرها لا تصلي . وأما نقصان عقلكن فهو ان شهادة اثنتين منكن عدلت شهادة واحد) [1].

فإذا كانت المرأة لنقصان صلاتها عن صلاة الرجال تكون أنقص دينا منهم ، مع انها غير جانية بترك ما تترك من الصلاة ، أفلا يكون الجاني بترك الصلوات انقص دينا من المقيم بها المواظب ؟؟ وفي هذا ما ابان خطأ من يقول (إيماني وإيمــان الملائكة واحد) مع اخبار الله عز وجل بانهم ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾[2]. ومعنى التسابيح الصلاة لقوله عز وجل : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾[3]. وبقوله ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ [4] . وكقوله عز وجل : ﴿ سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ [5].

---

(١) ورد في صحيح البخاري «كتاب الحيض» باب رقم ٦ ، وفي مسند الامام احمد بن حنبل ، ج ٢ ، رقم ٣٧٤ .
(٢) الأنبياء : ٢٠
(٣) الصافات : ١٤٣
(٤) طــه : ١٣٠
(٥) الروم : ١٧

فاذا كانت المرأة من أجل انها انقص صلوات من الرجل انقص ديناً منه ، فينبغي أن يكون البشر لذين يصلون كل يوم وليلة خمس صلوات انقص دينا من الملائكة الذين يصلون الليل والنهار لا يفترون . ثم وجب ان المستويين في مقدار الصلاة إذا كان أحدهما أكمل صلاة كان اكمل إيمانا . والملائكة أكمل صلاة من البشر لأن صلاتهم تخلص عن الانكار التي لا يليق بها فربما انسيت مرضاً أو حدثت سهواً ، وصلاة البشر لا تخلو من أمثالهافصح انهم اكمل صلوات من البشر ، فوجب أن يكونوا اكمل إيماناً .

ودليل آخر : وهو ان المعطل وان كان كافراً بتعطيله ، فـــان نصرته للتعطيل ودعوته اليه وذبه عنه كفر ، والمشبه وإن كان كافراً فانه كلما احدث تشبيها كان قد أحدث كفراً مثبت ان المسلم كلما وحد الله وذكره واثنى عليه وقدسه وسبحه كان بذلك المستحدث إيمانا ، قياساً على التعطيل إذا كان في أصله كفراً كان الاثبات في أصله إيمانا ، وإذا كان التشبه والتشبيه كفراً ، كان التوحيد والتقديس إيمانا . وفي هذا مـــا ابان ان الزيادة في التوحيد والذكر زيادة إيمان . والله أعلم .

فصـــل

وإذا ثبت ان الايمان يزيد وينقص ، فتبين انه كيف يزيد و كيف ينقص وبالله التوفيق ان الايمان ينقسم إلى أصل وفرع ، فاصله : الاعتقاد والاقرار . والفروع هي الطاعات كلها . وإنما كانت إيمانا لان الايمان هو التصديق . والتصديق الواقع بالقلب واللسان هو الذي يحرك على سائر الطاعات ويدعو اليها . وانما يقع من المؤمن قصداً إلى تحقيق القول بالفعل وتسوية الظاهر بالباطن ، ولأن الطـاعة لا تكون إلا لأمر ، كما ان الاعتراف لا يكون إلا لذي حق واجب . فلما كان الاعتراف إيمانا لما فيه من إشارة التعرف له والتصديق به ، وجب ان تكون الطاعات لأوامره إيماناً لما فيها من إثباته والتصديق به . وإنما قصد بالطاعة المبايعة للاعتراف ، فجعلها فروعاً .

ان الاعتقاد والاعتراف باللسان يصح وجودهما في انفسهما عاريين عما وراءهما ، فإذا وجدا بعثا وحركا على غيرهما من العبادات ، ولا يكون وجود الصلاة مثلا أو الصيام أو

الحج من أحد مع جحد الباري جل ثناؤه ، أو جحد الرسول الجائي لهذه الفرائض،حتى إذا وجدت حركت وبعثت بعد الاعتقاد والاعتراف . فعلمنا ان الاعتقاد والاعتراف هما الاصل اذ كانا يصحان بانفسهما . ثم لا يصح أن يقال هذا لأن الموجود من المقر هو المعتقد، وإذا صحا استتبعا غيرهما وان نما وراءهما . وفروع إذا كانت تحتاج إلى معنى آخر يثبت قبلها ويستتبعها ، ولم يجب عليها أن يصح بانفسها ثم تستتبع غيرها ، والله أعلم .

فإن قيل : فالاعتقاد هو المحرك على الاقرار . فقل : ان الاقرار فرع وليس باصل . قيل : لا يصح ان يقال هذا لأن الموجود من المقر هو المعتقد والموجود من المعتقد هو المقر به ، وهما جميعاً التوحيد الصريح . لان الاقرار توحيد صريح ، فلما كان أحدهما هو الآخر وإنما يختلفان في الآلة لا في أنفسهما ، لأن أحد الفعلين باللسان والآخر بالقلب ، لم يجزان ينقسما إلى أصل وفرع . لأن الانقسام إنما يليق بعملين ، وقد بينا ان الاعتقاد والاقرار عمل واحد . وأما سائر الطاعات فاتباع لهذين لانهما اللذان يحركان عليها ويدعوان اليها كما تقدم وصفها ، فلاق لها ان تكون فروعاً لهما والله أعلم .

وإذا ثبت ان الطاعات إيمان ، فإن اصل الايمان إذا حصل اثم تبعته طاعة زاد الايمان المتقدم بها ، لأنه ايمان انضم اليه ايمان كما يقتضيه ، ثم إذا تبعت تلك الطاعة طاعة اخرى ازداد الاصل المتقدم بها لأنه إيمان انضم اليه ايمان والطاعة التي تلته بها ، لأن الأصل كان يقتضي هذه من طريق انه كان تحرك عليها لما فيها من تحقيق القول بالعمل ، وتعديل الباطن بالظاهر والطاعة بالأولى كانت تقضيها أيضاً لاشتراكهما في أمر الآمر بهما، فلا جائز أن يفرق بينهما في الفعل بعدما جمعهما الامر الذي لاجله كان ما وجد منهما ،ثم على هذا إلى ان نكمل شعب الايمان هذه احدى العلتين ، والعلة الاخرى ان الطاعات لما كانت لا تكون إلا لامر كانت إذا وجدت اثباتا له وتصديقاً به كالاقرار. فاذا كان الايمان هو التصديق فكلما انضم تصديق إلى تصديق فواجب ان يزداد الاول بالثاني ويتكثر به ، فيقال قد زاد الايمان ، والله أعلم .

وأما نقصان الايمان فقد اختلف فيه ، فقيل ان الايمان يزيد ولا ينقص ، وقيل : بل ينقص كما يزيد ! ومن قال هذا فللنقصان عنده تأويلان : أحدهما : ان نقصان

الايمان انفراد أصله عن فروعه ، او انفراد أصله وبعض فروعه عما نفي منها مما اشتمل عليه الخطاب والتكليف . لان النقصان خلاف الزيادة ، فكلما وصفت به الزيادة وجدت، وجب أن يكون خلافه هو النقصان. فاذا قيل لمن آمن وصلى زاد ايمانه ، وجب أن يقال لمن آمن ووجبت عليه الصلاة فلم يصل انه ناقص الايمان ! .

وإذا قلنا لمن آمن ووجبت عليه الصلاة فصلى، ولما وجبت عليه الزكاة منعها، انه ناقص الايمان ! فمعنى ذلك انه عدم منه فعل مأمور به ، ولو وجد منه كان إيمانا في نفسه وزاد به متقدم ايمانه . فلما لم يكن أوجب ذلك انفراد ايمانه المتقدم عما كان من مقتضاه ومعناه في الحقيقة معناه كان ذلك نقصانا .

والتأويل الثاني : ان نقصان الايمان قد يكون من هذا الوجه ، وقد يكون نقصانا يلحقه بارتفاع شعبة شعبة ، كانت موجودة فبطلت عليه وارتفعت ، فنقص إيمانه . يعني ان الزيادة التي كانت لايمانه لاجل تلك الشعبة ، فلما عدمت فحل النقص محلها وأخذ مكانها . وذلك عند قائل هذا القول أن يأتي الرجل بفرع أو أكثر من فروع الايمان ، لم يرتكب معصية وذلك أن هذه المعصية تحبط ما تقدمها من الطاعات بقدرها، فيصير ذلك القدر من الطاعة كأن لم يكن منه ، وذلك إيمان كان حاصلا له ، فلما حبط كان جزءاً من إيمانه نقص .

واحتج بصاحب هذه المقالة : ان المعاصي خلاف الطاعات ، كما ان الكفر خلاف أصل الايمان ، فلما كانت الطاعات فروع الايمان وجب أن تكون المعاصي فروع الكفر. ثم إذا وجب ذلك ، وكان الكفر محبطاً لاصل الايمان إذا طرأ عليه ، وجب أن تكون المعاصي التي هي فروعه محبطة بقدرها من الطاعات التي هي فروع الايمان إذا طرأت عليها . فاذا قيل لهؤلاء إذا اجزتم ان تحبط المعصية قدرها من الطاعة، أتقولون ان المعاصي اذا تتابعت وكثبت ، وقلت الطاعات فاحبطتها المعاصي ، ولم يبق إلا أصل الايمان ، ان ما بقي من المعاصي يحبط من أصل الايمان سبباً ؟ .

وما تقولون في كافر أسلم . فكان أول عمل استقبله بعد إسلامه معصية واقعها انتقص تلك المعصية ! من قالوا : كلا ، الفرع لا يعترض على الاصل ، وإنما يعترض الفرع على فرع مثله ، وعلى الاصل أصل مثله ، فيكون حاصل قول هؤلاء في نقص المعصية الايمان . وانها تنقص ما زاد على الاصل . فأما الاصل فغير محتمل للنقصان . والاصل محتمل الزيادة

فجعلوا محل النقصان غير محل الزيادة ، ودخلوا في معنى من يقول : الايمان يزيد ولا ينقص وهم يشعرون . واحتج هؤلاء لقولهم بقول الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ [1] . وانما أراد بذلك ان رفع الصوت فوق صوته يوقع معصية ، فيخرج إيمان الرافع ويحبط بعض عمله . وإنما قال : ﴿ أعمالكم ﴾ لان الخطاب للجماعة ، فاذا أحبط لكل واحد منهم بعض عمله فانما هي أعمال احبطت ، والله أعلم .

واحتجوا بقول الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنو لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ [2] . قالوا : ابان الله تعالى بهذه ان العبادة قد تحبط مع بقاء الايمان بجناية تكون من صاحبها ، وقد روي عن سفيان بن عيينه انه سئل عن الايمان : هل يزيد ؟ فقال : نعم . فقيل : أينقص ؟ قال : نعم ، وقد أخاف أن ينقص حتى يذهب كله . وفي رواية أخرى انه قال : ينقص حتى لا يبقى معك مثل هذا ، وقلل اصابعه . وهذا ليس فيه الاحتراز الذي حكيته عن أصل القول الأول . وقد علم ان سفيان لم يكن ممن يكفر أهل القبلة بالذنوب ، فانما يخرج جوابه على هذا : ان المعاصي تحبط الطاعات .بل يحترز عن هذه العبادة فلا يطلق أصلا ، لأن عصاة المؤمنين يأملون من الله العفو اما ابتداء أو تفضلا أو بشفاعة النبي ﷺ . ومعلوم ان الله تعالى إذا عفا عنهم وضع السيئات وأثابهم على الحسنات ، فلو كانت حبطت لم يكن للشفاعة ولا للعفو معنى ! الا ترى ان الكفر اذا احبط الايمان لم يكن فيما حبط منه شفاعة وكذلك لو حبط فروعه بالمعاصي لم يكن فيما حبط منها بشفاعة ثم بسنة ، والله أعلم .

أن تكون العبادة عن رأي سفيان ان حسنات المؤمن تصير مرتهنة بتبعات سيئاته ، فان عفا الله تبارك وتعالى عنه وزادت حسناته على سيئاته ، وضع من ثواب حسناته بقدر ما يوازن الحسنات منها قصاصاً بها ، واستحق بما وراءها النار ، وأصل الايمان وفروعه في ذلك سوى ، فيكون نقصان الايمان من قوله نقصان ثوابه ، ولعل ذلك يرجع إلى أنه ينقص من ميزانه ، فلا يثقل به . ويكون وجه هذا ان حسنات المؤمن إذا صارت وقاية له من النار ، فأولاها بذلك أصل الايمان لأنه أقوى ، فهو بالوقاية أولى .

---

(١) الحجرات : ٢

(٢) البقرة : ٢٦٤ .

وأيضاً فإنه قد ثبت ان ثواب الايمان قد ينقص سيئات المؤمن ، وذلك أن الله جل وعز إذا لم يعف عن المؤمن المسيء فادخله النار، وعذبه فيها مدة من المدد قد علم أن نقصاً قد لحقه في ثواب إيمانه ، لأن ثواب إيمانه — لولا سيئاته — كان يكون أن يدخل الجنة مع الداخلين ثم يبقى خالدا ولما وافى القيمة مسيئاً تخلف عنهم ، ففاته التنعم بالجنة مدة كونه في النار . وإذا كان هذا جائزاً ، لم يصح ان يجعل الأصل في الباب إلا التسوية بين أصل الايمان وفروعه ، في أن السيئة توجب ارتهان الحسنات بتبعاتها ، إن كانت أحاطت بها ابطلت الثواب كله ! وان لم تحط بها أبطلت من الثواب بقدر نفسها .

فان قيل لقائل هذا القول : فبما تقول فيمن استوت حسناته وسيئاته ، فلم يكن من ثواب أصلها وفروعه شيء يعبد بعدما أجرت أن يكون هذا ، ولا دار إلا الجنة أو النار ! أين يكون مأواه ؟ فان قلت : النار ! فقد اخلفت لأنه ليس بكافر . وإن قلت : الجنة ! فقد أحلت ، لأنه إن كان مؤمناً فالجنة جزاء الايمان ، فمن لا جزاء له عند الله فاني يستحق الجنة ! فقد يشبه أن يكون جوابه في هذا الموضع : ان من كان بهذه الصفة، فان الله تبارك وتعالى اما يمن عليه بالعفو عن سيئاته كلها أو بعضها ، أو يشفع له النبي ﷺ فيعفو الله عنه السيئات أو بعضها ، فان غفر له كلها أدخله الجنة بالعفو كما كانت مرتهنة من سيئاته والله أعلم .

واحتج لهذا القول بأن النبي ﷺ قال : « من اقتنى كلباً ليس كلب صيد أو ماشية، نقص كل يوم من أجره قيراط »[1] . فقد ابان أن المعصية تعترض على أجر الحسنات ، ولم يقل أنها تحبطها أو شيئاً منها ، ولم يفصل — مع ذلك — من أجر عمل وأجر عمل سواه ، فكانت أجور الأعمال كلها في ذلك بمنزلة واحدة .

ومما يحتج به للقولين جميعاً ما روي عن النبي ﷺ انه قال : (ما تعدون المفلس منكم ؟ فقالوا : من لا درهم له ولا دينار ! فقال ان المفلس من يأتي يوم القيامة وقد ظلم هذا، وأخذ مال هذا ، فيؤخذ من حسناته فيدفع إلى الآخر فإذا لم يبق له حسنات ، أخذت سيئات

---

(١) لم يرد الا في سنن ابن ماجه « الصيد » باب ٢ . حديث رقم ٣٢٠٤ ، وفي سنن الدارمي « الصيد » باب ٢ ، ص ٩٠

هذا ، فحملت عليه ، ثم قذف في النار) [١] ، فابان رسول الله ﷺ أن الظالم لا يقذف في النار ما لم يتبع بظلمه في حسناته لكن البداءة تقع بسلب الحسنات ، فإذا نفذت عدل به إلى النار . فدل ذلك على أن كل عاص فهذا سبيله ، ثم ذلك في القول الأول : ان تحبط سيئاته حسناته ما عدا أصل الإيمان . فإذا لم يبق له حسنة سوى أصل الإيمان تحبط سيئة عذب على سيئته بالنار والله أعلم ، وفروعه سواء ، فإذا لم يبق له ثواب وكانت له سيئة عذب عليها بالنار والله أعلم .

وفي القول الثاني أن تحريم ثواب حسناتة وأصل الإيمان وفروعه سواء ، فإذا لم يبق له ثواب وكانت له سيئة عذب عليها بالنار والله أعلم . ومن ذهب إلى أن الإيمان يزيد ولا ينقص فإنه يقول : أصل الإيمان يتكثر بفروعه، وفروعه تتكثربعضها ببعض، والمعاصي لا تحبط الطاعات ، وإذا لم تحبطها فلا نقصان يلحق الإيمان . والدليل على صحة ذلك أن فروع الإيمان متأبدة بأصلها ، فما لا يحبط أصلها لا يحبطها ، لأن الفروع لا تتميز عن أصلها ، فإذا لم يجز وجود الكفر مع الإيمان ، لم يجز وجود فروعه مع الإيمان ، ولأن طاعات المؤمن إنما كانت فروع الإيمان لوجودها في الإيمان المحرك عليها ، ولأن طاعات المؤمن إنما كانت فروع الإيمان لوجودها في الإيمان المحرك عليها . كذلك معاصي الكافر فروع للكفر لأن كفره هو المحرك له عليها . وقد علمنا أن الأفعال الحسنة في أنفسها إذا وجدت من الكافر لم تكن فروع الإيمان ، ولأن طاعات المؤمن لما كانت فروع الإيمان كانت إيمانا . فلو كانت سيئاته فروع الكفر فلتكن كفراً.

فان قال : حسنات الكافر فروع الإيمان كما أن سيئات المؤمن فروع الكفر . قيل : ذلك محال ! لأن الفرع يقتضي أصلاً يصدر عنه ، فاذا لم يكن في المؤمن كفراً استحال أن تكون منه فروع الكفر . وإذا لم يكن من الكافر إيمان استحال أن يكون منه فروع إيمان.

فان قال : لو بطل أن تكون سيئات المؤمن من فروع الكفر لبطل أن تكون حسنات الكافر من فروع الإيمان ، فبطل أن تكون سيئات المؤمن معاصي لبطلان أن تكون حسنات الكافر طاعات .

---

(١) لم يرد الا في صحيح مسلم « كتاب بر الوالدين » حديث رقم ٦٠ ، وفي مسند الامام احمد بن حنبل ، ج ٢ ، رقم ٣٠٣ .

قيل : من لا يلزم هذا لأن الطاعة والمعصية لا تكونا إلا لأمر . ولأن الطاعة موافقة للأمر وامتثاله ، فمن لا يثبت الامر لا يمكن أن تؤخذ منه طاعة . والعصيان مفارقة الأمر ، فمن أثبت الامر أمكن وجود مفارقته منه،والمؤمنيثبت له فيصح وجودالعصيان منه وبالله التوفيق .

فان قيل : فان لم تكن معاصي المؤمن من فروع الكفر ، فما هي ؟

قيل : ليس بواجب أن تكون المعصية إلا فرع للكفر ، لان العصيان كما ذكرنا مفارقة الأمر ، وليس الداعي إلى مفارقة الأمر الكفر وحده، ولو كان كذلك لاستحال وجود معصية من المؤمن . ولكن الهوى وحب الشهوات داع إلى المعصية ، كما أن الكفر داع إليها . وإنما توجد المعصية من المؤمن إجابة منه للهوى ، ومثلا منه إلى قضاء شهوته، وليست تقع منه قصداً إلى خلاف الباري جل ثناؤه. ولو وقعت لهذا لكانت كفراً. فأما الطاعة فلا داعي إليها إلا تعظيم الأمر وابتغاء مرضاته ولهذا لم يصح وجودهما من الكافر ، فلهذا كانت طاعة المؤمن كلها فروعاً لإيمانه ، ولم تكن معاصيه كفراً ولا من فروع الكفر ، وبالله التوفيق .

وإذا كان الأمر على ما وصفت كان الجواب عن قول القائل : إن لم تكن معصية المؤمن من فروع الكفر: فما هي؟ ان يقال:هي من فروع هواه ووقوع شهواته . والكفر أيضاً من فروع هواه وشهواته ، والكفر والمعاصي من ينبوع واحد . فاما أن تكون معاصي المؤمن فروعاً لكفر غير موجود منه ، فذلك محال ! وإذا استحال هذا لم يجز أن يقال : انها تحبط حسناته وطاعاته . لأن الإيمان كما لا يبطل إلا بالكفر ، فكذلك فروعه لا تبطل إلا بالكفر ، اذ الطاعات ايمان ولا ضد للايمان الا الكفر والله أعلم.

ومما يدل على فساد هذا القول أيضاً أنه يؤدي الى المحال ، لأن قائله يقول:ان السيئات تحبط الحسنات ما وجدتها ، فيتخلص المسيء بما يخطر من حسناته من عذاب النار،حتى إذا لم يبق أصل الايمان فعمل سيئة هلك وحقت عليه النار ، وهذا محال.لأن الحسنة إنما كانت تقي صاحبها النار، فأولى بذلك حسنة الإيمان نفسه، لانه أصل، ولا أصل أقوى. فينبغي أن يكون أحصن وأوفى. فأماان يكون ما دونه يكمل لدفع النار عن صاحبه ، والأصل لا يكمل لذلك فهذا لا يبين له وجه . وبالله التوفيق .

فان قال صاحب هذا القول : إني لا أقول ما يؤدي إلى المحال الذي ذكرت ، ولكني أقول : ان كل معصية فهي تحبط من الطاعة المتقدمة بقدرها ، فاذا أحاطت المعاصي بالطاعات التي دون الإيمان أحبطتها ، والعذاب مع ذلك واجب على صاحبها إلا أن يعفو الله تعالى عنه ، فلا أقول ان بطلان الطاعة عذاب المعصية دون النار ، بل هو كما أجمع المسلمون عليه من أن المسلم إذا ارتد حبط ما مضى من إيمانه ، ثم لا يكون ما يبطل من ثواب إيمانه جزاء كفره حتى لا يدخل النار ، بل النار جزاؤه لاحباطه إيمانه. فكذلك معصية المؤمن إذا احبطت طاعاته إلى دون الإيمان ، كان جزاء إحباطه إياها النار . وإذا كان هذا هكذا : وكانت الطاعة إيماناً ، فحبطت بالمعصية ، فقد تحقق نقصان الايمان بالمعصية .

قيل له : إن الذى ظننته لا يصح لأن ثواب الطاعة إذا بطل لأجل المعصية فقد سلب فائدة الطاعة . فوجب أن يسقط بذلك ضرر المعصية . ولو جاز أن يحرم ثواب الطاعة – ومع ذلك يعذب بالنار على المعصية – جاز أن يعذب مرتين . فأما المرتد فليس له عند الله ثواب . فمن وافاها كافرا فلا وعد له منه .

فان قال قائل : إنما وعد ثواب الطاعة من يوافي بها يوم القيامة ، ولم يواف بها من أحبطت معاصيه طاعته .

قيل : لو لم يواف بها لم تنفعه الشفاعة كما لا تنفع المرتد ، ولما نفعته صح ان قد وافى بها . وأيضاً فان من الفروق بينهما ان المرتد ناقض الإسلام بالكفر ، والنقض حرام عليه. فاذا وجد منه حبط إسلامه بنقضه إياه ، واستحق العذاب على النقض . واما المحسن باقام الصلوات وإيتاء الزكوات ، إذا زنا أو سرق أو شرب ، فليس ينقض شيئاً من ذلك ماقدم من طاعاته ، لان الزنا ليس ضد الصلاة ، فيصير ناقضاً له بها . ألا ترى ان هذا هكذا يكون في أحكام الدنيا . فان المرتد يكلف إعادة عقد الايمان ، والزاني بعد صلاته لا يكلف إعادة الصلاة ، والسارق بعد صيامه وزكاته لا يكلف إعادة صومه وزكاة ماله. وإذا كان هذا هكذا ، صح أن الزنا ان أحبط الصلاة أو شيئاً منها ، فليس يمكن أن يكون ذلك إلا على وجه معاقبة الزاني على الزنا بحرمان ثواب الصلاة عنه . فان كان ذلك واقعاً فلا ينبغي أن يعذب مع ذلك بالنار ، فيكون كمن عذب مرتين ، وبالله التوفيق .

وأما قول الله عز وجل : ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ [١] . قد يخرج على غير ما قاله المحتج به ، وهو أن يكون المعنى : لا تحملنكم أيها المهاجرون هجرتكم معه ، ولا أيها الأنصار إيواؤكم إياه على أن تضيعوا حرمته وترفعوا أصواتكم فوق صوته . فتكونوا بذلك صارفين ما تقدم منكم من الهجرة أو الإيواء أو النصرة ، فمن إبتغاء وجه الله به إلى عرض غيره ووجه سواه ، فلا تستوجبوا مع ذلك أجراً.

ويخرج على وجه آخر وهو أن يقال : لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض، فان ذلك قد يبلغ حد الازراء به والاستخفاف له ، فتكفروا وتحبط أعمالكم ، إلا أن تتوبوا أو تسلموا . وكذلك قول الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى ﴾ [٢] . فليس على : أن المن يحبط الصدقة . فيجب على قياس ذلك : ان ضرب المتصدق عليه - ظالماً له - حبطت صدقته ، وانما وجهه : ان الصدقة ينبغي بها وجه الله ، وهو المأمول منه ثوابها . فإذا منّ المتصدق على السائل واذاه بالتعيير ، فقد صرفها عن ابتغاء وجه الله بها إلى ما يؤذي به السائل ، فحبط اجره عند الله تعالى ، لهذا وصل عند المتصدق عليه مع ذلك لانه ان كان حباه فقد آذاه ، وإن أعطاه لقد أجزاه . ولو كان ذلك على معنى إفساد الطاعة بالمعصية ، لم تختص بالبطلان صدقته ويحبط من جملة طاعاته جزء غير معلوم للعباد ، فإن الرجل لو أعتق عبداً ثم قتله ، أو قطع من أطرافه طرفاً ، لم يحبط ـ عند قائل هذا القول ـ عتقه بعينه ، وإنما يزعم انه من يحبط من طاعاته شيء غير معلوم عندنا . وهكذا لو تصدق على محتاج بصدقة ، ثم ضربه أو جرحه ، لم يقل ان صدقته بعينها هي التي تحبط فلما أحبط الله عز وجل الصدقة الماضية بالمن والأذى ، علمنا ان وجه إبطالها ما ذكرنا ، والله أعلم . فهذا ما يدخل هذا ، وأما الوجه الآخر : وهو ان الحسنات يرتهن بتبعة السيئات فيخرج المخرج من ثواب احسانه ما يوازي تبعة سيئته ، وقد يمكن أن تحبط السيئات بالحسنات أصلها وفرعها فلا يبقى للمؤمن عند الله ثواب . فان من الطعن على هذا القول ما يشمله والذي يقدمه وهو ان سيئات المؤمن متناهية الجزاء ، وحسناته ليست بمتناهية ، لأن مع ثوابها الخلود في الجنة ، وما دام خالداً فيها فلا

(١) الحجرات : ٢ (٢) البقرة : ٢٦٤ .

يخلو من التنعم بها والتقلب في نعيمها ، وإنما يكون الجـــزاء بالحسنة عشراً أو اكثر ، من طريق انه يكون له في نفسه مقدار مقدر ، الا ان ذلك المقدار يكون دائماً لا يسلم اليه جملة وقتاً واحـــداً ، ثم لا يعـــاد له ، كضيف تقدر له في اليوم والليلة أشياء معلومة إلا انه تكون له جارية ما دام نازلاً من أضيافة ، وإذا كان كذلك لم تبلغ السيئات ـ وان كثرت ـ ان تحبط بثواب حسنة واحدة من حسنات المؤمن ، فضلا عن أن تحبط بجميعها، لأن الخلود لا غاية له ، فلا يتوهم ان تكون البيعة المتناهية التي يستحقها المؤمن بسيئته تأتي على ثواب حسنة لا نهاية له ،فيصح ان هذا من القولين، في أنفسهما باطلان ، فلا احباط حسنة فضلاً عن حسنات جائز بسيئة أو بسيئات ،ولا أخذ ثوابها كله عن بيعه سيئة أو سيئات يقبل أو يستقيم . فصح ان الايمان لا ينقص من طريق احباط الحسنة بالسيئة ، ولا ينقص من ميزان المؤمن أصلا بذهاب جميع ثوابها منه . والله أعلم .

فأما قول النبي ﷺ : (من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان) [1] ، لأن المعنى لو كان غير هذا لم يظهر مقدار المنقوص ولو يعلم ان القيراطين كم ينقصان ، وإذا كان المعنى ما ذكرت ، فإنما هو محرم لأجل هذه السيئة بعض ثواب عمله .

ولسنا ننكر جواز ان يحرم الله تعـالى المؤمن بعض أجزاء عمله ، ويقلل ثوابه لأجل سيئة أو سيئات تكون منه ، وإنما أنكرنا قول من يقول : ان السيئة تحبط الطاعة أو توجب أبطال ثوابها أصلا ، وذلك لم يأت به من الله تعالى ولا من رسوله ﷺ خبر ، ولا يمكن أن تكون ماء شرب الخلود للمؤمنين في الجنة والله أعلم .

فإن قال قائل : فما تقول في المؤمن إذا خلط عملا صالحا وآخر سيئاً !

قيل : امره إلى الله تعالى ان شاء عفا عنه وإن شاء ادخله النار وعذبه بسيئته ، ثم أخرجه إلى الجنة فأثابه بايمانه والصالح من عمله ، وإن شاء حرمه من جملة ثواب الصالح من عمله ، ما يكون كفء للعقاب الذي استحقه ، فكان ذلك جزاءه ، ووقاه به عذاب النار ، وليس يمكن أن يقطع من هذه الوجوه بشيء ، وبالله التوفيق .

وبان ما ذكرنا ان الايمان لاينقص بالاطلاق من هذين الوجهين ، وان نقصان الايمان ان

(١) لم يرد الا في سنن الدارمي «باب الصيد» ج ٢ ص ٩٠

يتجرد عن الاعمال التي يقتضيها وفيها تحقيقة ، ولو وجدت لكان زائداً متكثراً بها ، فهو نقصان إضافة تجرده عن فروعه إلى حال إيصال فروعه به ، وهو نقصان باضافة الايمان ، من كان هذا صفاته إلى الايمان من اتصلت فروع ايمانه به، وقد أخبر النبي ﷺ: (ان المرأة تكون ناقصة من أنها تجلس نصف دهرها لا تصلي) وذلك على معنى انصلاتها تنقص في العدد عن صلاة الرجل ، فعلمنا ان نقصان الدين ونقصان الايمان انما يكون بتكامل عدد شعبها وتناقصه ، إذا كانت سيئاته الكثيرة لا توازي تبعاتها ثواب حسنة واحدة من حسناته ، لم يكن ميزانه إلا ثقيلاً ، ولم تكن حسناته إلا أكثر بكثرة ثوابها وارbابه على تبعات سيئاته ، فلا معنى للوزن إذاً !

فالجواب : ان الميزان الثقيل الذي وصفه الله تبارك وتعالى هو ميزان المؤمن الذي يوافي القيمة بلا كبائر ، أو تائباً من الكبائر ان كانت له ، فهذا الذي قابل الله تبارك وتعالى بينه وبين الكافر ، فميزان الكافر يخف ، لأنه إذا وضع كفره وفروع كفره في كفه ، لم توجد له حسنة توضع في [1] الكفة الأخرى ، فيقع الارتفاع . وميزان المؤمن الذي وصفناه يثقل لأنه إذا وضع إيمانه وفروع إيمانه في كفة ، لم توجد كبيرة توضع في الكفة الأخرى ، فيثقل بالخير ميزانه . كما خلا من الخير للكافر ميزانه .

ألا ترى انه جل وعز لما وصف المؤمن بهذه الصفة كيف قطع بأنه يفلح ، وأنه في عيشة راضية ، فبان بذلك انه اراد بالمؤمن المطلق الذي لم يواف القيمة مع إيمانه بكبيرة، وذلك لا يرفع ان يكون في المؤمنين من يكون حاله غير هذا ، الا انه لم يذكر ، لأن الموازنة كانت بين الكافر وبين المؤمن . فاقضى ذلك ان يكون من المؤمنين من يخالف الكافر بالاطلاق ، وإنما توازن اعمال المؤمن الذي ذكرنا لاظهار فضله ، كما توزن أعمال الكافر لخزيه وذله ، فان أعماله توزن بمكياله [2] على فراغه ، وخلوه من كل خير ، وكذلك توزن أعمال المؤمن التقي تحسناً لحاله واشادة بخلوه من كل شر ، وتبريئاً لأمره على رؤوس الاشهاد .

وأما المؤمن الذي يوافي القيامة بكبيرة أو كبائر ، فان لميزانه حالاً أخرى ـ سوى حال المؤمن التقي ، وحال الكافر المخزي ـ وهو أن تكون كفتا ميزانه ثقيلتين ، لأن في كل واحد منها ما يحتمل الوزن ، غير ان كفة الحسنات تكون أثقل لأن مع الحسنات أصلها

---

(١) ح: فوضغ .　　　　(٢) أ : بنكاله .

وهو الإيمان ، وليس مع السيئات أصلها وهو الكفر ، ولأن الحسنات أريد بها وجه الله تعالى ، والسيئات لم يرد بها مخالفة الله تعالى ، فإذا ظهر بالوزن قدر السيئات صارت بذلك المقدار معارضة للحسنات ان كان ثقلها كنصف ثقل الحسنات أو كثلثه، أو كربعه جرى أمره على ما ذكرنا قبل هذا ، وهو ان الله تعالى اما ان يعفو عن سيئاته، واما أن يعذبه عليها بالنار ، واما ان ينقص عن [1] ثواب حسناته بقدر جزاء السيئات ، فيفوته بعض ثواب طاعاته ويبقى له بعضه ، والله أعلم .

فأما قول السائل : لو كانت سيئات المؤمن لا توازي تبعاتها ثواب حسنة من حسناته ، فلم توزن أعماله ؟

فجوابه : ان ثواب الحسنة وإن كان دائماً لا ينقطع ، فان الاعمال هي الموزونه لا جزاؤها ، إلا ان الأمر إذا آلت [2] إلى الجزاء فغير ممكن أن تحبط سيئته أو سيئات حسنة ، لأن جزاء السيئة مثلها إلى وقت معلوم . وجزاء الحسنة أمثالها دائماً لا إلى وقت مخصوص . فلئن أبطل ثواب الحسنة كله لاجل السيئة ،فانما يبطل إلى [3] مثل الوقت الذي كان يمتد اليه عذابه بالسيئة لو عذب ، أو إلى وقت ما في الجملة ، ولا بد من أن يكون الثواب فيما بعد ذلك واصلاً اليه . فلا يصح مع هذا احباط الحسنة بالسيئة ولا بالسيئات ولا الاشتغال بتفريع ان السيئات إذا احبطت الحسنات كلها فلم يبق إلا الإيمان . فهل يمكن أن يخلص الاحباط أو لا يمكن ؟ ، ولا الحاجة تدعو إلى الاحتراز من اسم الاحباط بالعدول إلى اسم ارتهان الحسنات بتبعة السيئات والله أعلم .

فصل

وهذا الذي ذهبنا اليه في الايمان هو المروي عن النبي ﷺ .

روى علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي عليهم السلام عن النبي ﷺ انه قال : (الايمان معرفة بالقلب واقرار

---

(١) أ : ان ينقص من .　(٢) أ : اذا آل الى الجزاء .　(٣) فانما يبطل لمثل

باللسان وعمل بالاركان) [١] ، ومن قبل هذا فقد اخبر الله تعالى عن ابراهيم خليله صلوات الله عليه انه قال : ﴿ رب ارني كيف تحيي الموتى ! قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [٢] .

ومعلوم أن طمأنينة القلب بصدق وعد الله ، أو بقدرته على ما خبر انه فاعله ، ايمان فإنما يسأل الله تعالى ما يزيده إيماناً على إيمان ، فثبت بذلك ان الايمان قابل للزيادة ،

فان قيل : انما سأل الله تعالى أن يضطره إلى العلم باجابة الموتى والتصديق بما وقع العلم به ضرورة ، ولا يكون عبادة [٣] .

قيل : لم يسأل الله تعالى أن يضطره إلى العلم باحيائه الموتى للقيمة ، ولا الله تعالى فعل ذلك به ، وإنما سأله أن يريه كيف يحيي الأجساد بعد موتها وتقطعها ، فاراه ذلك عياناً في أربعة من الطير ، وليس ذلك باضطرار إلى أن الناس يحيون بعد موتهم ، لكنه أكد لليقين المتقدم بأن الله تعالى قادراً على احياء ما امات وجمع ما يفرق ، ثم ما ينشأ عن المشاهدة من ذلك في الطير . من العلم بان الذي قدر على ذلك لا يعجزه مثله في الناس استدلال لا ضرورة ، وهو فصل الايمان في المؤمن يعرض للزيادة والله أعلم .

ومما جاء عن النبي ﷺ في هذا الباب قوله : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان) [٤] .

فبان بهذا الحديث ان الطاعات إيمان ، ولولا ذلك لم يكن الانكار بالقلب إيماناً أضعف من الانكار باللسان واليد ، والله أعلم . وفي الباب مما جاء عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين . فمما جاء عن الصحابة ما يروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال : لو وزن إيمان أبي بكر بايمان أهل الأرض لرجح بهم . وعنه : أنه كان يخرج إلى الخلق فيقول : تعالوا نزدد إيمانا !

ومنه ما جاء عن علي رضي الله عنه ، ان رجلا سأله عن الايمان فقال : الايمان على

---

(١) لم يرد هذا الحديث الا في سنن ابن ماجه « المقدمة » باب ١٠ ، رقم ٦٥ . وقد جاء في هذه السنن : ان اسناد هذا الحديث ضعيف لاتفاقهم على ضعف ابي الصلت (الراوى) ج ١ ، ص ٢٦ .

(٢) البقرة : ٢٦٠

(٣) أ : ولا يكون عماده ..

(٤) ورد في سنن النسائي « الايمان » باب ١٧ ، وفي صحيح مسلم « الايمان » رقم ٧٨ .

أربع دعائم : على الصبر واليقين والعدل والجهاد . وعنه أنه قال : الايمان يبدو لمظـة في القلب ، كلما ازداد الايمان ازدادت اللمظة . وقيل ما حده في اللمظة التي هي الذوقة وهو أن يلمظ الانسان بلسانه أو الدابة شيئاً يسيراً ، أي يذوقه . فكذلك القلب يدخله من الايمان شيء يسير ، ثم يشيع فيه فيكثر . وعنه أنه قال : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له ، وعنه : لا يبلغ حقيقة الايمان حتى يدع المراء وهو محق ، وحتى يدع الكذب في الممازحة . وعنه أنه قال : الطهور نصف الايمان . وعنه : من لم يصل فهو كافر ، وعنه : من ترك صلاة واحدة متعمداً فقد بريء من الله ، وبريء الله منه.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه : لن يصيب رجل حقيقة الإيمان حتى يترك المراء ، وهو يعلم أنه صادق ، ويترك المزاحة في الكذب.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال لأصحابه : إجلسوا بنا نؤمن ساعة .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه انه قال : من لم يصل فلا دين له . وعنه :الصبر نصف الإيمان . وعنه : أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون منه الصلاة ، وسيصلي قوم ولا دين لهم ، وعنه : لا ينفع قول إلا بعمل ، ولا ينفع قول وعمل إلا بنية ، ولا ينفع قول وعمل ونية إلا بما وافق السنة .

وعنه : ثلاث من كن فيه فهو منافق : كذوب إذا حدث ، مخلاف إذا وعد ، خائن إذا اؤتمن ، فمن كانت منهن فيه خصلة من النفاق حتى يدعها . وعنه : ينتهي الايمان إلى الورع ، ومن أفضل الدين أن لا تنال [1] مالاً ، فكل من ذكر الله .

وعنه : لا يجد الرجل حلاوة الايمان حتى يحل بذروته ، حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى ، وحتى يكون التواضع أحب إليه من الشرف ، وحتى يكون حامده وذامه سواء . وفسره أصحاب عبد الله : حتى يكون الفقر في الحلال أحب إليه من الغنى في الحرام ، وحتى يكون التواضع في طاعة أحب إليه من الشرف في معصية الله ، وحتى يكون حامده وذامه عنده في الحق سواء.

---

(١) أ : ان لا تزال مالا ، وهو خطأ .

وعنه أنه كان يقول : اللهم زدني إيمانا ويقيناً، وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: ثلاثة من كن فيه فقد استكمل الايمان : الانفاق من الاقتار ، وانصاف الناس من نفسك ، وبذل السلام للعالم . وعنه قال : ثلاث من جمعهن فقد جمع الايمان : الانفاق من الاقتار ، ان تنفق وأنت مقل ، تعلم ان الله سيخلف لك ، والانصاف من نفسك إذا كان بينك وبين أحد شيء فلا تمش به إلى سلطان ، فإنك إذا مشيت به إلى السلطان فلم تترك ، وبذل السلام للعالم .

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : الاسلام ثمانية أسهم : فالاسلام سهم ، والصلاة سهم ، والزكاة سهم ، وصوم رمضان سهم ، وحج البيت سهم، والجهاد في سبيل الله سهم، والأمر بالمعروف سهم ، والنهي عن المنكر سهم ، وقد خاب من لا سهم له .

وسئل حذيفة رضي الله عنه : من المنافق ؟ فقال : الذي يصف الايمان ولا يعمل به . وعنه انه قال : اني لاعرف أهل دينين في النار : قوماً يقولون أن الايمان كلام وان قتل الرجل أباه وأمه وعمل المعاصي ، وقوماً يقولون : ما بال أولاء يقولون خمس صلوات وإنما أمرنا أن نصلي أول النهار وآخره!. وعنه قال: يخرج من النار من كان في قلبه دون شعيرة من الايمان ، ومن كان في قلبه حبة من خردل من إيمان . وعنه : قال : أول ما تفقدون من دينكم التخشع وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة .

وعن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أنه كان يأخذ بيد النفر من أصحابه فيقول : تعالوا فلنؤمن ساعة ، فلنذكر الله ونزداد إيماناً . تعالوا لنذكر الله بطاعته لعله يذكرنا بمغفرته ، فهش القوم للذكر واشتاقوا ، فقالوا : اللهم لو نعلم الذي هو أحب إلينا لفعلنا . فأنزل الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون. إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾[1]. وقال أبو الدرداء : كان عبد الله بن رواحه إذا لقيني مقبلاً ضرب بين يدي ، وإذا لقيني مدبراً ضرب بين كتفي . ثم يقول : عويمر اجلس بي نؤمن ساعة . فنجلس نذكر الله ، ثم يقول : عويمر هذه مجالس الايمان .

---

(١) الصف : ٢ - ٤ .

وعن أبي الدرداء وابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم أنهم قالوا : الايمان يزيد وينقص ، ولا يخرج هذا إلا على أن يكون قولاً وعملاً .

وعن ابن عباس في قول الله عز وجل : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه [1] . قال : والعمل الصالح يرفع الكلام الطيب .

وعن عمرو بن حبيب ، وكان بائع رسول الله ﷺ قال : ان الايمان زيادة ونقصان . قيل : ما زيادته ونقصانه ؟ قال : إذا ذكرنا الله وحمدناه وخشيناه فذلك زيادة ، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا فذلك نقصانه .

وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : (كنا غلمانا جزاوره مع رسول الله ﷺ ، فيعلمنا الايمان قبل القرآن ، ثم يعلمنا القرآن . فازددنا به إيماناً . وانكم اليوم تعلمون القرآن قبل الايمان) .

وأما التابعون ومن دونهم فإنه جاء عن عروة بن الزهري رضي الله عنه أنه قال : ما نقصت أمانة عبد إلا نقص إيمانه . وأما عطاء بن أبي رباح ، فإن معقل بن عبد الله قال : قلت لعطاء بن أبي رباح أن ناساً يقولون : انه ليست في الايمان زيادة . فقال : أرأيت حين يقول الله عز وجل : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ [2] . فما هذا الذي زادهم [3] لعمري ان في الايمان لزيادة . قال : قلت انهم يقولون أن الصلاة والزكاة عمل وليسا من الايمان . قال : أفرأيت حين يقول الله : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ، حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ [4] فما هذا إذاً ؟ قال : قلت قد يحلل هذا إثنا عشر شيخاً ، قال : يحيى بن سعيد : عمر بن در وأصحابه . قال: لا ، والله الذي لا إله إلا هو ما كان من هذا قط. قال: فذكرته للزهري ، فقال : سبحان الله ، قال رسول الله ﷺ : « لا يسرق السارق وهو مؤمن ، ولا يزني الزاني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر وهو مؤمن ، ولا ينهب نهبه والناس يرمونه بالحدق وهو مؤمن » [5] . قلت : فأين المنتهب ؟ قال بيده ، الغزو [6] .

---

(١) فاطر: ١٠ (٢) محمد: ١٧ (٣) أ : الذى اداهم . (٤) البينة : ٥ .

(٥) لم يرد الا في سنن ابن ماجه « كتاب الفتن » باب ٣ ، حديث رقم ٣٩٣٦ ، وقد حمل هذا الحديث على كمال الايمان . (٦) أ : بيده الغز .

وقال عبد الله بن معقل : سألت الزهري وعطاء بن أبي رباح وميمون بن مهران عمن يزعم أن الصلاة والزكاة ليستا من الايمان . فكلهم قال : هما من الايمان .

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : ست خصال من فعلهن فقد استكمل الايمان . قتل أعداء الله بالصف ، والصيام في شدة أيام الصيف ، وتعجيل الصلاة يوم الغيم ، واكمال الوضوء في اليوم الشاتي ، والصبر على المعصية ، وترك الجدال وأنت تعلم أنك صادقاً .

وعن الحسن بن أبي الحسين قال: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾[1] قال : الكلام الطيب يرفعه العمل الصالح . يعرض القول على العمل ، فان وافق القول العمل والا رد . وعنه رحمه الله قال : ليس الايمان بالتمني ولا بالتجلي ولكنه ما وقر في القلب وصدقة العمل[2] . وعنه قال : الايمان قول وعمل . وعنه قال : لو شاء الله لجعل هذا الدين قولاً لا عمل فيه ، ولكن جعل دينه قولاً وعملاً ، وعملاً وقولاً ، فمن قال قولاً حسناً وعمل سيئاً رد قوله عليه عمله ، ومن عمل صالحاً رفع قوله عمله .

وعن الأوزاعي رضي الله عنه قال : أدركت الناس وهم يقولون : الايمان كلام ولا يفرقون بين الايمان والعمل . وعنه قال : لا يستقيم القول إلا بالعمل ، ولا يستقيم العمل إلا بنية موافقة للسنة ، وكان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الايمان والعمل ، والعمل من الايمان ، والايمان من العمل، وإنما الايمان إسم يجمع كما تجمع هذه الأديان اسمها ويصدقه العمل . فمن آمن بلسانه وعرف بقلبه وصدق ذلك بعمله، فتلك العروة الوثقى لا انفصام لها ، ومن قال بلسانه ولم يعرف بقلبه ولم يصدقه بعمله لم يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

وعنه قال في كلام ذكره : ويقولون ان فرائض الله على عباده ليست من الايمان ، وان الناس لا يتفاضلون في إيمانهم ، وان برهم وفاجرهم في الايمان سواء . وما هكذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ ، بلغنا أنه قال : (الايمان بضع وسبعون باباً أولها شهادة أن لا إله إلا الله ، وادناها اماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الايمان)[3] . وقال:

---

(١) فاطر : ١٠ (٢) ورد في الاصل : وصدقة الايمان .

(٣) ورد في صحيح البخارى « الايمان » باب ٣ ، وفي صحيح مسلم « الايمان » حديث رقم ٥٧ ، وفي سنن ابي داود « السنة » باب ١٥ ، حديث رقم ٤٦٧٦ .

وقال الله جل ثناؤه : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك . وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيمو الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ والدين هو التصديق وهو الإيمان .

وصف الله تعالى الدين قولاً وعملاً فقال : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾ (١) . فالتوبة من الشرك هي الإيمان والصلاة والزكاة عمل .

وعن عبيدالله بن عمر قال: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن الايمان قول يعقل ، وعمل يعمل . وعنه قال : من صدق الإيمان وبره أن يخلو الرجل بالمرأة الجميلة فيدعها ، لا يدعها إلا لله ، ومن صدق الايمان وبره اسباغ الوضوء في المكاره وعد أموراً سواه .

وعن مجاهد قال : الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كتب إلى عدي بن عدي : أن للإيمان سنناً وفرائض وشرائع وحدوداً ، من استكملها استكمل الايمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان ، وان اعش بنتهما لكم (٢) . وإن أمت فوالله ما أنا على صحبتكم بحريص .

وعن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : الايمان يشبه الماء ، البحر ماء ، والغدير ماء، والماء في القدح ماء ، والماء في المحارة ، فتفاضل الايمان مثل البحر والمحارة . وعنه أن رجلاً قال له : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ! وليس مفتاح إلا وله أسنان . فمن أتي الباب بأسنانه فتح له ، ومن لم يأته بأسنانه لم يفتح له .

وعنه قال : الايمان قائد والعمل سائق والنفس حرون بينهما . فإذا قاد القائد ولم يسق السائق لم يغن شيئاً ، فإذا ساق السائق ولم يقد القائد لم يغن شيئاً وإذا قاد القائد وساق السائق تبعتها النفس طوعاً أو كرهاً .

وعن بكر بن عبد الله المزني أنه قال : انتهيت إلى هذا المسجد وهو غاص باهله مفعم بالرجال ، قيل لي : أي هؤلاء خير ؟ قلت لسائلي : أتعرف أنصحهم لهم، فان عرفه عرف أنه خيرهم ، ولو انتهيت إلى هذا المسجد وهو غاص بأهله مفعم من الرجال . فقيل لي : أي هؤلاء شرهم ؟ فقلت لسائلي : أتعرف أغشهم لهم ، فإن عرفه عرفت أنه شرهم ، انه منافق بريء من الايمان ، لو شهد عليه بذلك لشهدت أنه في النار ، ولكني أخاف على

---

(١) التوبة : ١١ .

(٢) أ : وان اعش بينتها لكم .

خيرهم وأرجو لشرهم ، فإذا خفت على خيرهم فكيف خوفي على شرهم ، وإذا رجوت لشرهم ، فكيف رجائي لخيرهم ، هكذا السنة .

وعنه قال : فقد الحواريون نبيهم ، فخرجوا يطلبونه فوجدوه يمشي على الماء . فقال له رجل منهم : يا نبي الله ! قال : تعال . فذهب يضع رجله ، فإذا هو قد انغمر . فقال: هات يدك يا فقير الايمان .

وعن ابطأه بن المنكور قال : الايمان قول وعمل لا يفرق بينهما ، وأما الضحاك بن مزاحم فان له في هذا الباب رسالة بليغة وهي .

ان أحق ما بدأ [١] به العبد من الكلام أن يحمد الله ويثني عليه . والحمد لله نحمده ونثني عليه بما اصطنع عندنا إذ هدانا للاسلام، وعلمنا القرآن، ومن علينا بنبينا محمد ﷺ ، وان دين الله الذي بعث به نبيه ﷺ هو الايمان ، والايمان هو الاسلام ، وبه أرسل المرسلين قبله فقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [٢]. وهو الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، والتصديق والاقرار بما جاء به من عند الله . والتسليم لقضاء الله ، والرضى بقدره . من كان مؤمناً يحرم دمه وماله . ووجب له ما يجب للمسلمين من الحقوق ، ووجب عليه ما يجب على المسلمين من الأحكام ، ولكن لا يستوجب ثوابه ، ولا ينال الكرامة إلا بالعمل به، والعمل به اتباع طاعة الله ، واتباع طاعة الله أداء الفرائض واجتناب المحارم والاقتداء بالصالحين وإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، والمحافظة على إتيان الجمعة ، والجهاد في سبيل الله ، والاغتسال من الجنابة ، واسباغ الطهر ، وحسن الوضوء للصلاة ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم ، وصلة ما أمر الله به أن يوصل ، وحسن الخلق إلى الخلطاء ، ومعرفة حق كل ذي حق من والد ووالده ، ومن قرابة ويتيم ومسكين وابن السبيل وسائل وغارم ومكاتب وجار وما ملكت اليمين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحب في الله والبغض فيه ، وموالاة أولياء الله ، ومعاداة أعداء الله ، والحكم بما أنزل الله ، وطاعة أولى الأمر في الكره والرضى ، والوفاء بالعهد ، والصدق في الحديث ، وإنجاز الوعود ، والوفاء بالنذر ، وحفظ الأمانة من كتمان السر

(١) ما يبدأ به العبد . (٢) الانبياء : ٢٥ .

والمال ، وأداء الأمانة إلى أهلها ، وكتاب الدين المؤجل بشهادة ذوي العدل ، والاشهاد على المبايعة ، وإجابة الداعي للشهادة على الدين وكتابه بالعدل كما علمه الله ، وإقامة الشهادة على وجهها بالقسط ، ولو على النفس أو الوالدين والأقربين ، وإيفاء الكيل والميزان بالقسط ، وذكر الله عند عزائم الأمور ، وذكر الله على كل حال ، وحفظ النفس ، وغض البصر ، وحفظ الفرج ، وحفظ الأركان كلها ، وكظم الغيظ ، ودفع السيئة بالحسنة ، والصبر على المصيبات ، والقصد في الرضا والغضب ، والاقتصاد في الشيء ، بالقول والعمل ، والتوبة إلى الله من قريب ، والاستغفار للذنوب ، ومعرفة الحق لأهله ، ومعرفة العدل إذا رأى عامله ، ومعرفة الجور إذا رأى عامله ، والمحافظة على حدود الله ، ورد ما اختلف فيه من حكم ، وغيره إلى الله ، ورد ما يتنازع فيه من شيء إلى أولى الأمر الذين يستنبطونه ، وترك ما يريب . والاستئذان في البيوت ، فلا يدخل البيوت حتى يستأذن ويسلم على أهلها من قبل أن ينظر في البيت أو يستمع فيه ، فان لم يجد أحداً فلا يدخل بغير إذن أهلها ، فان قيل ارجعوا ، فالرجوع أولى ، فان اذنوا فقد حل الدخول ، وأما البيوت التي ليس فيها سكان وفيها منافع لعابري السبيل أو غيرهم يسكن فيها أو يتمتع بها ، فليس فيها استئذان . والاستئذان لما ملكت اليمين من صغير وكبير ، ومن لم يبلغ الحلم من خدمة أهل البيت ، ثلاثة أحيان من الليل والنهار : من آخر الليل قبل صلاة الفجر ، وعند القيلولة إذا خلا رب البيت بأهله ، ومن بعد صلاة العشاء إذا آوى رب البيت وأهله إلى مضاجعهم. فاذا بلغ الأطفال من خدمة اهل البيت الحلم فقد وجب عليهم الاستئذان كل الأحيان . واجتناب قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، واجتناب أكل أموال الناس بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، واجتناب أكل مال اليتيم ظلماً ، واجتناب شرب الخمر ، واجتناب الحرام من الأشربة والطعام. واجتناب كسب المال بغير الحق ، واجتناب التبذير في غير حق ، واجتناب التطفيف في الكيل والوزن. واجتناب نكث البيعة وخلع الأئمة ، واجتناب الغدر والمعصية ، واجتناب اليمين الآثمة ، واجتناب بر اليمين بالمعصية ، واجتناب الكذب والتزيد في الحديث. واجتناب الشهادة بالزور ، واجتناب قول البهتان ، واجتناب قذف المحصن والمحصنة ، واجتناب الهمز واللمز والتنابز بالألقاب ، واجتناب النميمة والاغتياب ، واجتناب التجسس وسوء الظن بالصالحين والصالحات ، واتقاء الاصرار

على الذنب ، والتهاون به ، واتقاء منع الماعون ، والامساك عن الحق ، والتمادى في الغي ، والتقصير عن الرشد ، والكبر والفخر والخيلاء والفجور ، والمبادرة بالشر ، والاعجاب بالنفس والفرح والمزح ، والتنزة من لفظ السوء ، والفحش والخناء وسوء الخلق والنول والقذر ، كل هذا صفة دين الله وهذا الايمان وما شرع فيه من الاقرار بما جاء من عنده ، وبين فيه من حلاله وحرامه ، وسننه وفرائضه ،وقد سمى لكم ما ينتفع به ذوو الألباب، وفوق كل ذي علم عليم . ويجمع ذلك كله التقوى ، فاتقوا الله واعتصموا بحبله ولا قوة إلا بالله ، أسأل الله أن يوفقنا وإياكم لما يبلغ به رضوان الله والجنة ، والحمد لله وصلى الله على محمد كلما ذكر .

وقال مالك بن أنس وسفيان الثوري ابن عيينة وهشام الدستواني ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان[١] وابن جريج ومحمد بن مسلم الطائفي وفضيل بن عياض ومعمر وشريك وأبو بكر بن عياش وعبد العزيز بن أبي سلمة وحماد بن سلمة ، وحماد بن زيد وعبد الكريم الجرزي وأيوب وحفص ويحيى بن سليم ووكيع وجرير والفزاري الكبير وعبد الله بن المبارك : الايمان قول وعمل ، وقال مسعر : يزيد وينقص . وقال سفيان الثوري : لا يستقيم قول إلا بعمل ولا عمل إلا بقول ، ولا قول وعمل إلا بنية ، ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة .

وقال ابراهيم بن شماس : سألت رجل سفيان بن عيينة وأنا عنده عن الايمان فقال : الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، يزيد ما شاء الله، وينقص حتى لا يبقى معك إلا مثل هذا ، وقلل أصابعه. قال : فكيف يصنع بقوم يزعمون أن الايمان قول بلا عمل ؟ فقال: يا ابن أخي ، إن الله تعالى بعث محمداً إلى الخلق كافة أن يقولوا : لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فإذا قالوها حقنوا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقها ففعلوا ، ثم أمره أن يأمرهم بالصلاة ، فأمرهم ففعلوا ! فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الاقرار الأول ، ولا صلاتهم رلا هجرتهم إلى المدينة . ولما علم الله صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يردهم إلى مكة يقاتلون آباءهم وأبناءهم حتى يقولوا قولهم ويصلوا صلاتهم ويهاجروا هجرتهم ، ففعلوا ، حتى أتى أحدهم برأس أبيه فقال : يا رسول الله هذا رأس الشيخ الكافر ! فلو لم يفعلوا ما

---

(١) أ : محمد بن عبد الله بن عمر وابن عثمان .

نفعهم الاقرار ولا صلاتهم ولا هجرتهم إلى المدينة . فلما علم الله صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، فأمرهم ففعلوا ، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الاقرار الأول ولا هجرتهم ولا قتلهم آباءهم . فلما علم الله صدق ذلك من قلوبهم أمرهم أن يطوفوا بالبيت العتيق تذللاً ويحلقوا رؤوسهم تعبداً ، فأمرهم ففعلوا . فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الاقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتلهم آباءهم ، فلما علم الله صدق ذلك من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الايمان وحدوده قال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾ (١) . هكذا السنة يا ابن أخي فابلغها عني من سألك من الناس .

وقال فضيل (٢) بن عياض اصل الايمان وفروعه بعد أداء الشهادة بالتوحيد، والشهادة للنبي ﷺ بالبلاغ ، وأداء الفرائض صدق الحديث وحفظ الامانة ، وترك الخيانة ، والوفاء بالعهد ، وصلة الرحم ، والنصيحة لجميع المسلمين والرحمة للعامة أو للناس . فقيل له : هذا من رأيك أو سمعته ؟ فقال : بل سمعناه وتعلمناه ، ولو لم آخذه من أهل الفقه والفضل لم أتكلم به .

فصــــل

وقد دعا قوماً قولهم إن الإيمان هو المعرفة والإقرار وليست الأعمال من الإيمان، الى أن قالوا : كل مؤمن وإن عمل ما عمل من المعاصي فايمانه كايمان أكثر الناس طاعة وأشدهم اجتهاداً في العبادة . ومنهم من اجترأ ولم يأب ان يقول : إيماني وإيمان جبريل وميكائيل على السواء . واستعظم السلف هذا القول . فروى عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما كان رسول الله ﷺ يبوح به ، إن إيمانه على إيمان جبريل وميكائيل (٤) .

وذكر لابن أبي مليكة ايمان ، فقال : أترون إيمانا مثل إيمان جبريل وميكائيل ، وبهذا كان رجلا صاحب شراب .

---

(١) المائدة : ٣ . (٢) أ : فضل بن عياض .

(٣) أ : وان عمل ما عمل من المعاصي فإيمانه . (٤) ح : على ايمان وجبريل وميكائيل .

وقال جويبر : كان الضحاك بن مزاحم يعجب ممن يقول: إيمانه كايمان جبريل. وانكر ذلك عطاء بن أبي رباح وميمون بن مهران أشد ، وقد كان ينبغي لمن يترك زيادة الإيمان بانضمام فروعه اليه ولا ينكر زيادته من قبل زيادة اليقين وفروعه أن لا يقول : إيماني كايمان الملائكة والنبيين صلوات الله عليهم لأنه اعلم بالله تعالى، ومن كان أعلم به كان يقينه فوق يقين من يقصر علمه من علمهم وبالله التوفيق .

وقد يبرأ أحد الذين ينسب هذا القول منه ، فقال : لا نقول هذا ، ولكننا نقول دين الله واحد وعباده فيما شرع لهم منه سواء . فيقال لم نتكلم عنه ، ومن قال لكم : إن الله تعالى أديانا وعبادة منها أوزاع ؟ إنما نقول : دين الله واحد ، وهو الاسلام الذي وصفه فقال : ﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾ [١] وقال : ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ﴾ [٢] . وسمى الدائنين بهذا الدين مسلمين ومؤمنين . وسمى النبي ﷺ هذا الدين الاسلام مرة ، ودعاه باسم الايمان اخرى . فهما اسمان لدين واحد . إلا ان هذا الدين له شعب فمن استكملها كان مستكمل الايمان ، ومن لم يستكملها لم يكن مستكمل الايمان وهذا لا يوجب أن يكون دين الله أكثر من واحد ، وإن يكون لقوم دين ، وآخر دين . ولو وجب إذا قلنا : إن الطاعات كلها إيمان ، أن نكون اثبتنا لله تعالى أديانا ، لوجب على الجميع إذا قالوا : الاقرار والاعتقاد معاً إيمان ، وهما خصلتان ، أن يكونوا أثبتوا لله تعالى دينين ، وإن كان وصفهم عملين ، فإنهما إيمان لا يوجب أن يكون دين الله اثنين. فكذلك وصفنا أعمالاً كثيرة بأنها إيمان لا يوجب أن يكون لله تعالى أديان كثيرة .

وأيضاً فإن الصلاة عبادة واحدة لكنها تنقسم إلى خمس صلوات [٣] في كل يوم وليلة، فمن أقامها جميعاً كان مستكملا لها ، وإن أقام بعضاً وترك بعضاً ، لم يكن مستكملا لها ذلك لا يخرج فرض الصلاة من أن يكون متفقاً في نفسه ، وإن يكون شرعة للناس واحداً فان الناس إنما يوفون في التخالف من قبل افعالهم التي يباشرونها ، وإلا فالذي أمروا به غير مختلف في نفسه . والقول في كل صلاة وما ينقسم اليه من قول أو فعال هكذا أيضاً . وكذلك صيام رمضان فرض واحد ، ولكنه ينقسم إلى أيام ، فمن صامها جميعاً كان

---

(١) آل عمران : ١٩ (٢) آل عمران : ٨٥ (٣) أ : فعلات .

مستكملاً فرض الشهر ، ومن ترك بعضهـــا لم يكن مستكملا له ، وذلك لا يجعل الفرض مختلفاً في نفسه لكنه متفق ، وإنما الاختلاف في أفعال الناس دونه .

كذلك دين الله تعالى واحد . ولكن اقامة ذلك الدين من الناس مختلف ، فمنهم أقل أفعالا ، ومنهم أكثر أفعالاً ، وذلك لا يجعل الدين اديانا ، والله أعلم .

وقال القائل : دعا الله تعالى عباده إلى الإقرار به ، وتوحيده ، وتصديق نبيه . فكان من أجاب الى ذلك مؤمناً ، ومن لم يجب اليه كافراً . ثم شرع الشرائع من بعد فرض الفرائض وحد الحدود ، فثبت بذلك انها ليست من الايمان، إذا كان ثبوت الايمان للناس سابقاً لها.

فيقال له : أرأيت نبينا محمداً ﷺ قبل أن أوحى الله اليه إذا كان يمضي التعبد إلى حراء [1] فلا يهتدي إلى شيء سوى متابعـــة السجود لله تعالى ، أكان مؤمنـــاً بالله ؟ وخليل الله ابراهيم صلوات الله عليه حين قال لقومه : ﴿ إني برىء ممـــا تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا ومـا أنا من المشركين ﴾ [2] ، أكان مؤمنا بالله تعالى ؟ فلا بد من نعم ! **فيقال له** : أكان ذلك التصديق والاقرار منه إيمانا ؟ فلا بد من نعم ! فيقال : كيف وقد جرى عليه حكم الايمان قبل ذلك ؟ وإذا اخترت أن يكون منه إيمان على إيمان . فما انكرت ان الايمان وان تقدم على ما وصفته شرعت [3] الشرائع ، فإن عامة هذه الشرائع إيمان ، وفعلها فعل إيمان .

فان قال : انما كان المتقدم إيمانا لله تعالى ، والحادث إيمان بالنبوة !

قيل : وكذلك ما تقدم وسبق شرع الشرائع إيمان بالله تعالى وبالنبي، والحادث صلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد ، فما بين الأمرين من فرق ؟ ويقال له : أرأيت إذا فرض الله الصلاة ركعتين ثم زاد في الحضر، أكانت الزيادة زيادة الصلاة في الظهر والعصر والعشاء أولاً ؟ فإذا كانت زيادة صلاة فيها ، **قيل له** : اليس قد صحت للناس هذه الصلوات من قبل أن تكون هذه الزيادة ، فلم لا علمت بذلك ، ان هذه الزيادة لا ظهر ولا عصر ولا عشاء كما قلت ان الشرائع لما شرعت ، وقد صح للناس إيمانهم ، دل ذلك على انها ليست إيمان .

ويقال له : أرأيت الايمان إذا تقدم كما وصفت ثم شرعت الشرائع لم يلزم قبولها إذا شرعت ؟

---

(١) وهو غار حراء قرب مكة المكرمة .   (٢) الانعام : ٧٩ .   (٣) أ : شرعة .

فان قال : لان الايمان بالله والنبي وصول لامرهما .

قيل له : أو يسبق القبول الأمر ، فان قال : نعم ! قيل له : أرأيت رجلاً اعتقد في زمان النبي ﷺ قبل أن تأتيه الرسالة ، انه ان نبيء سمع له فنبي وأطاع . استغنى بالعقد الذي تقدم منه على الايمان به بعد ان جاءته الرسالة . فلا بد من لا ، فيقال له؟ماانكرت ان تصديق النبي ﷺ بعد ما نبي ، والاقرار به لا يغني عن قبول ما يشرع على لسانه إذا شرع .

ثم يقال له : فإذا احتاج إلى القبول ! فقيل : أما ان يكون ذلك إيمانا منه ، فإذا قال ذلك ، يكون إيمانا منه . قيل له : كيف وقد سبق الايمان قبل أن يكون هذا الشرع ، وإذا أجزت ان يكون الايمان بائنا موجودا ثم يشرع ما يكون قبوله ايمانا ، فيكون ذلك إيمانا على إيمان ، فلم لا أجزت أن يشرع ما يكون العمل به إيمانا ، فيكون إيمانا على إيمان ، وبالله التوفيق .

قال هذا القائل : وإنما ميز الله تعالى بين الايمان والعمل ، ليتقدم الايمان متجرداً عن كل عمل إلى ان شرعت الأعمال وانزلت الفرائض والحدود ، فقال ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [1] ففرق بين الايمان والأعمال الصالحة ! فيقال له : أرأيت إن لم تكن الاعمال الصالحة إيمانا ! اتقول : إن الايمان من الأعمال الصالحة ؟ فلا بد من نعم؟ فيقال له: فقد ميز الله بينهما، فان أجاز مع هذا التمييز أن يكون الايمان من الأعمال الصالحة ،فلم لا جاز أن تكون الأعمال الصالحة من الايمان ؟

ويقال له : ما أنكرت ان معنى الآية : ان الذين آمنوا بالسنتهم ، وعملوا سائر الطاعات بعامة جوارحهم فكانوا مؤمنين مستكملي الايمان ، وإنما أفرد الايمان من الصالحات لأنه أراه [2] الايمان باللسان بعد رسوخه في القلب ولو أراد الايمان المطلق لكان في ذكر الايمان كفاية عن ذكر الصالحات ، وإذا كان هذا مما تحتمله الآية وجب حملها عليه للدليل الذي سبق ذكره والله أعلم .

قال هذا القائل : ويدل على اختلاف الايمان والأعمال ، انك تجد الناس متفاضلين في الأعمال، ولا تجدهم متقاربين في الايمان، وتفاضل في الدين ، وقد بين النبي ﷺ ذلك نصا ،

---

(١) البقرة : ٢٧٧ .

(٢) أ : اراد الايمان .

حيث أخبر ان جلوس المرأة نصف دهرها لا تصلي نقصان ، فكيف يجوز مع هذا أن يقال : الناس يتفاضلون في العمل ، ليسوا بمتفاضلين في الدين ؟

قال القائل : فان الله عز وجل شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا : ﴿ والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه ﴾[1]. فكان الدين يستوي فيه المتقدمون والمتأخرون والملائكة والنبيون والأنس والجان ، وهو التوحيد . ثم كانت شرائع الأنبياء عليهم السلام من الاختلاف بحيث لا يخفى ، فدل ذلك على انها شرائع الدين . وأما الدين فهو ما لم يختلفوا فيه .

فيقال له : أخبرنا عن قبول الشرائع إذا شرعت أهو إيمان ؟ فإذا قال : نعم ! . قيل له : فهل كان على الانبياء أن يقبل بعضهم شرع بعض مع تفرق ازمانهم وتباعد اعصارهم[2] فلا بد من لا ، فيقال له : فان جاز أن يتباينوا وأممهم ، فما يلزمهم من قبول الشرائع ، ولا يلزم كل واحد ان لا يقبل على نفسه إلا ما شرع له إذا كان نبياً ، أو ما شرع لنبيه ان كان من إحدى الأمم ، ثم يكون القبول إيمانا ودينا ، لم لا جاز ان يتباينوا وأممهم في الإيمان التي هي الشرائع ، وتكون الشرائع إيمانا ودينا . فان قال : إن شرائعهم – وإن اختلفت – فقبول الشريعة معنى واحد ، وليست بمعان في الكثرة والاختلاف . فإن كانا ففي المقبول لا في القبول !

قيل له : فما انكرت ان العمل بالشريعة معنى واحد وليس بمعان ، فالكثرة والاختلاف إن كانا ففي المعمول لا في العمل ! ويقال له : أخبرنا عن تصديق الأنبياء ، ايمان أو غير إيمان ؟ فإذا قال ذلك قيل له : أليس على كل متأخر من الأنبياء أن يؤمن بالأنبياء الذين تقدموه ، فاما المتقدمون فليس عليهم من المتأخرين فرض إيمان إلا أن يكون أحدهم أخبر أن نبياً كان بعده ، فيكون عليه الايمان بأنه نبي ، فأما الايمان بأنه نبي فأنكر إذا كان هذا هكذا ، فقد اختلف حالهم في ذلك فكان على بعضهم من الفرض فيه مالم يكن على غيره وذلك لا يدل على ان الشرائع ليست من الايمان والدين .

ويقال له : ما انكرت ان الدين هو الطاعة ، ومعنى الآية : شرع لكم من الزامكم الطاعة

---

(١) الشورى : ١٣

(٢) هكذا وردت في الأصل والصواب : عصورهم .

ما شرع لنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبيكم ﷺ وعليهم ، أي انه لم يرض من أحد من عباده أن يعصيه في أوامره ونواهيه ، بل أخذ الأنبياء عامة وأممهم بطاعته واتباع أوامره ، فلذلك الزمهم طاعته ،لم يرخص لهم في خلافها ، وليس بقابل منكم غيرها ،فأقيموا الطلق أي الطاعة فلا تتفرقوا ، وليس في هذا ما يوجب اختلافاً بين المتقدمين والمتأخرين في الدين ، لأن وجوب الطاعة بشملهم ، وإن كان ما تجب الطاعة فيه متفرقاً ، والأعمال لم تكن إيماناً عندنا لاعيانها ، حتى إذا كانت مختلفة أوجب ذلك اختلاف الايمان وتفرق الدين وإنما كانت إيماناً لأنها طاعات ، فإذا كان معنى الطاعة تجمعها ، فقد وجد الاتفاق في دين الجميع والله أعلم .

ثم ان قوله عز وجل: ﴿ولا تتفرقوا فيه﴾[1] يدخل في جملته أن لا تتفرقوا في الدين، فيكون من بعضهم الطاعة ومن بعضهم خلافها. فأما إقامة الطاعة ممن يقيمها لا ينفع إلا نفسه دون من وجد منهم خلافاً ، ويدخل فيه أن لا يختلفوا فيه . فيقول بعضهم لشيء من الطاعات هذا خارج من الدين الذي تعبدنا به ، فإن الدين هو الطاعة ، فإذا شرع والله أعلم .

قال القائل: وقد يكون في الناس من لا علم له بالفرائض وهو مع ذلك يسمى مؤمناً، ولو لم يعلم ما يلزمه الاقرار به لم يكن مؤمناً ، وإنما في هذا مـا يبين اختلاف الاقرار والعمل . فيقال له : وفي الناس من لا علم له بالتوحيد ، وأنت تسميه مؤمناً مثل الصبي المولود بين المسلمين ، والمجنون ـ صغيراً كان أو كبيراً ـ إذا كان مولوداً بين المسلمين ، ولا يدل ذلك على أن التوحيد ليس بايمان ، فكذلك الصغير المؤمن إذا بلغ ولم يعلم بلوغ نفسه أو لم يخطر وجود التوحيد في قلبه فهو مؤمن ، ولا يدل على ان التوحيد ليس بايمان .

ويقال : كل من كان عليه فرض يؤاخذه الله بتركه ، فلم يطلب علمه مع امكان طلبه ، وأخل بفعله لجهله ، فليس بمؤمن مطلق ايمان ، لكنه ناقص الايمان من وجهين: أحدهما ترك طلب العلم والآخر الاخلال بالعمل ، فكلامك غير لازم .

ويقال له : أخبرنا عن تعظيم النبي ﷺ في حياته ، أكان إيماناً ؟ فإذا قال نعم ! قيل له : فمن آمن به ولم يره اليس كان يصح إيمانه ؟ فإذا قال : بلى ! قيل له فاذا لم يكن رآه لم يعلمه بعينه فيعظمه ، أيـدل هذا على ان تعظيمه اياه ليس بايمان ؟ فإذا قال : لا !

---

(١) الشورى : ١٣ .

قيل له : فما انكرت ان ما يعلم الفرائض باعيانها فيعمل بها ، يكون مؤمناً فلا يدل ذلك على انه إذا علمها فعمل بها لم يكن عمله بها إيماناً ، وبالله التوفيق .

وقال القائل : ولو كان العمل من الايمان لكان المنافقون مؤمنين ، لأنهم يعملون ما يعمله غيرهم . فيقال له : أرأيت ان قال لك قائل : ان الاقرار ليس بايمان لان المنافقين كانوا يقرون ، فلو كان الاقرار إيماناً لكان المنافقون مؤمنين ، فان قال كان إقرارهم فاسداً لأنهم كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون . قيل : فكذلك أعمالهم فاسدة ، لأنهم كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون ، وشرط الاعمال الاخلاص . فمن لا اخلاص له لا عمل له والله أعلم وبالله التوفيق .

وهذه مسألة وجدتها في هذا الباب لبعض المغرورين ، فنقصها عليه وإن كنت لم أعرفه ، وزعم : ان الايمان هو التصديق والاعتقاد دون سائر العبادات ، لأن الله تعالى سمى من صدق بما جاء به مؤمناً بقوله : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ [1] ، وهذه عبارة عن الاعتقاد دون غيره من الأفعال .

فيقال له : ليس في هذه الآية الا ان الله تبارك وتعالى شهد لرسوله وللمؤمنين الذين كانوا معه ، بانهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله . ولسنا ننكر بانهم فعلوا ذلك واستوجبوا هذا الوصف ، وليس من مدحهم والثناء عليهم بانهم آمنوا ما يبين حد الايمان وحقيقته ، لأن وصف الواحد بالإيمان مطلقاً لا ينبي عما كان منه من عقد أو قول أو فعل ، فكان به ولاجله مؤمناً .

ألا ترى ان الله عز وجل قال فيما مدح به قوماً : ﴿ الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسحار ﴾ [2] .

فلم يتسع ذلك لايمانه حد الصبر أو الصدق أو القنوت والاستغفار ، ولا حقيقته ، ولم يكن فيه إلا ان فاعلي هذه الأفعال مستحقون للثناء والمدح ، وكان علم حقائقهما وحدودها مطلوباً من غير هذه الآية .

وهكذا لما قال : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون

---

(١) البقرة : ٢٨٥ . (٢) آل عمران : ١٧ .

الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ﴾[1] علم به ان المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم هم الذين يجـاهدون في سبيله فيقتلون ويقتلون. وهم بهذه الصفات ، ثم لا يعلم بهذا حد[2] واحدة من هذه الخصال ولا حقيقتها .

وهكذا كل من سماه الله عز وجل في كتابه باسم مشتق من فعل أو حكي عنه فعلا بالاسم الموضوع لتعريفه ، فان ذلك يدل على وجود ذلك الفعل منه ، ولكنه إذا احتج إلى علم حقيقه ذلك الفعل وحده ، لم يستفد من قبل تلك القسمة ، ولا من جهة تلك الحكاية .

ولذلك إذا أخبرنا الله عز وجـل أو الرسول ان المؤمنين كلهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، علم بخبره ان الايمان حقاً قد كان منهم ، ولكن ذلك لا يكشف عن حقيقة الايمان وحده ، ولا ينبي عن انهم ماذا قالوا له فعلوا ، فاصرف[3] اخبـار الله تعالى عنهم بالايمان اليه ، وإذا آل الأمر إلى التحديد ، فانما يحده بما قـام الدليل عليه عنده ، ثم لا يضاف من ذلك إلى هذه الآية شيء . فقد بان لك انك الفراء من هذه الآية .

ويقال له : ما أنكرت ان هذه الآية إلى ان تكون حجة عليك اقرب منها إلى أن تكون حجة لك ! لأن الله عز وجل كما نعت المؤمنين بانهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، فكذلك نعتهم بانهم قالوا : سمعنا وأطعنا ولم يكن يمدحهم بكذب قالوه ، فصح انهم لم يقولوا ، وأطعنا ، إلا ان الطاعة لما سمعوا قد وجدت منهم . وهم لم يكونوا سمعوا فرض الاعتراف في هذه الآية دون الشرائع من الأوامر والنواهي ،فعلمنا ان الطاعة لما سمعوا قد وجدت منهم ، وثم لم يكونوا في عامة هذه المسموعات ، كانت قد وجدت منهم . فانما أخبر الله تعالى عنهم بالايمان ، وسماهم مؤمنين بهذه الخصال ، فهذه الخصال كلها لا لشيء منها دون شيء ، بان بذلك ان الطاعات كلها إيمان والله أعلم .

ويقال : اليس قد أخبر الله عز وجل عن الرسول وعن المؤمنين انهم قالوا : ﴿ سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير . ربنا لا تؤآخذنا إن نسينا أوأخطأنا ﴾[4] كما أخبر عنهم انهم آمنوا به وبملائكته وكتبه ورسله ، فما انكرت ان هذه الأقوال والدعوات كلها إيمان منهم إذ كان انما سماهم مؤمنين لما أخبر عنهم بانه كان منهم ، وقد أخبر عن

---

(١) التوبة : ١١٢ (٢) أ : ثم لا يعلم حد واحدة .

(٣) ح : فانصرف اخبار الله تعالى . (٤) البقرة : ٢٨٥ – ٢٨٦ .

كون هذه الدعوات منهم كما أخبر عنهم عن كون الاعتراف بالله وبملائكته وكتبه ورسله منهم . فثبت ان كل ذلك إيمان ، لأنه لو لم يكن إيماناً لم يكن الذي وجد منهم لأجله مؤمنين . وقد أوجبت الآية انهم كانوا مؤمنين لوجود ذلك كله منهم ، وبالله التوفيق .

ويقال له : زعمت أن هذه الآية عبارة عن الإعتقاد ، وذلك يلزمك أن يخرج الاقرار من جملة الايمان ، لأن الله جل وعز جعلهم بزعمك مؤمنين بالاعتقاد ، فإن جاز مع ذلك أن يضم الاقرار إلى الإعتقاد – وليس ذلك بزعمك في الآية – لم لا جاز لغيرك ان تضم العبارات إلى الإعتقاد ، وان لم يكن في الآية على أن معنى الآية : والمؤمنون كلهم قالوا آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله . والدليل على ذلك أنه وصل بهذا قوله ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ [1] . وهذا لا يليق إلا أن [2] يكون كلام المؤمنين ولو لم يكن تقدير قوله جل وعز : ﴿ كل آمن بالله وملائكته ورسله ﴾ [3] . ولم يفرقوا بين أحد من رسله . فلما قيل : ﴿ لا نفرق ﴾ ذلك على أن تقدير الحكاية ما وضعت ، وفي ذلك ما يوجب أن يكون إختصاص الإقرار بالآية أشبه من اختصاص الإعتقاد ، وبالله التوفيق .

قال الرجل : وأمرهم بعد صحة الإعتقاد أن يشهدوا لأنفسهم بالإيمان والإسلام ، لقوله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾ إلى قوله : ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ [4] فمدح من شهد بذلك لنفسه ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ [5] . فأخبر بأنهم يصيرون بهذا مؤمنين ، لقوله تعالى : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾ .

وهذا كله راجع إلى التصديق دون غيره من الأفعال ، فثبت أنه الايمان لا غير ، فقال له في قوله « امرهم بعد صحة الاعتقاد أن يشهدوا لأنفسهم بالايمان » من أين قلت هذا ؟ فان ادعى أنه قاله ، إن هذه الآية مرتبة على الآية التي بدأ بذكرها ، وان تلك في الاعتقاد ، وهذه في الاقرار ، طولب بالحجة في ما تدعيه من ذلك ، ولن تجد إليه سبيلاً ، وإن لج [6] في إثبات ان الاقرار يترتب على الاعتقاد ، بدليل آخر ، قبل في ذلك منه .

---

(١) البقرة : ٢٨٥
(٢) أ : الا انه يكون .
(٣) البقرة : ٢٨٥
(٤) البقرة : ١٣٦
(٥) آل عمران : ١٩٣
(٦) أ : وان لحا .

وقيل لهم : ان الله تعالى يأمرهم أن يشهدوا لأنفسهم بالايمان ، فان الايمــان فرض لله تعالى على عباده، فإذا التزموه فإنما يشهدون به على أنفسهم ، كما قال جل وعز : ﴿ كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم ﴾ [1] ولا يشهدون به لأنفسهم ، بل لله تعالى ينبغي أن يشهد به لهم ، ليعلموا أنه قد يقبل منهم . وإذا بطل هذا ، فالجواب : — وبالله التوفيق — انه أمرهم أن يصفوا إيمانهم لخصومهم ، وهم اليهود والنصارى ، ويعلموهم أن إيمانهم : محمد ﷺ قصد إلى شقاقهم وخلافهم ، لكن لأنه نبي ، والتفريق بين أنبيـاء الله ورسله في الإيمان بهم غير جائز ، فانهم قد آمنوا بعيسى وموسى ولم يمنعهم من الايمان بهما ، إنهم لا يؤمنون بنبيهم ، فلو كان القصد إلى الشقاق دون التدوين لم يكن منهم هذا .

ثم قال : ﴿ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾ [2] أي فان آمنوا بنبيكم وبعامة الأنبياء ولم يفرقوا بينهم كما لم يفرقوا ، فقد اهتدوا ، وان أبوا الا التفريق فهـم الناكبون عن التدبر إلى الشقاق ، فسيكفيهم الله وهو السميع العليم . فهذا معنى الآية ، وليس فيها بيان ان الايمان الذي أمروا به أن يصفوا به أنفسهم ، فاذا كان وما حده ؟ وما حقيقته ؟ وإذا كانت هذه الآية خطاباً لقوم قد اعتقدوا الحق وأقروا بـه ، وصلوا وصاموا وعبدوا الله تعالى بضروب من العبادات ، وقابلوا أوامره ونواهيه بالطاعة ، فهم إذا قالوا آمنا بالله وما أنزل إلينا اشتمل ذلك عندنا على كل طاعة وجدت منهـم إلى ذلك الوقت .

فان خالفنا الرجل في ذلك وقال : انه لا يشتمل إلا على الاقرار والاعتقاد ، فلهم على قوله دليل ، فانا له فيما قال مخالفون ، وله بالدلالة عليه مطالبون .

فان قال القائل على ذلك ، لانه جل وعز قال : ﴿ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقـد اهتدوا ﴾ . ومعلوم انهم لو شهدوا شهادتي الحق لكانوا مؤمنين مهتدين ، فظهـر بذلك انه لم يدخل في قوله عز وجل : ﴿ قولوا آمنا بالله ﴾ [3] إلا شهادة الحق .

قيل لهم : إنما يكونوا مهتـدين إذا أدوا ما عليهم، إلا أنهم ان شهدوا شهادتي الحق، لم يتراكم عليهم في ذلك الفوز الفرائض كلها ، وإنما تجب شيئاً فشيئاً . فإذا أدوا في اول

---

(١) النساء : ١٣٥ (٢) البقرة : ١٣٧ (٣) البقرة : ١٣٦

أوقات دخولهم في زمن الحق ما عليهم في ذلك الفوز ، فقد اهتدوا ، كما أن المؤمنين الذين أمروا أن يقولوا آمنا لما كانوا مؤدين ما عليهم كانوا مهتدين ، وصح منهم أن يقولوا بالاطلاق آمنا ، والله أعلم .

وجواب آخر : وهو انا لو سلمنا له أن قول الله جل وعز : ﴿ قولوا آمنا ﴾ إشارة إلى اعتقادهم وإقرارهم ، فليس في ذلك ما يقيم له حجة ، لأنا لم ننكر أن يكون ذلك إيمانا ، فنتكلف إقامة الدليل عليه . وانما أنكرنا أن لا يكون ما عداه إيماناً ، فإنما ينبغي أن يقيم الدليل على ما تنفيه ونثبته ، لا على ما نثبته جميعاً ولا ننكره ، وكل ما قلنا في هذه الآية فهو في قوله عز وجل : ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ [1] مثله . لأن فيه مدحاً للذين يقولون بهذا القول ، وليس فيه تحديد الايمان الذي أخبروا أنهم سمعوا منادياً ينادي إلى عبادة الله التي تنقسم أقساماً ووجوهاً كثيرة . غير أن أعلاها وأثبتها التوحيد ، فدخلت العبادات كلها في الايمان الذي نادى به ، ودخل في قول المجيبين ، فآمنا ، ووصفهم أنفسهم بذلك إقامتهم كل ما دعاهم إليه المنادي.

فان قال الرجل : لم يكن ذلك كذلك ، وإنما المراد من النداء الاجابة إلى التوحيد ، فإنما كان إلى الايمان ، والاجابة إن كانت إليه فإنما كانت إلى الايمان ، ولسنا ننكر ذلك الايمان . وإنما الخلاف في الطاعات سواه ، وليس إذا كان التوحيد إيماناً ، أو امتنع أن تكون سائر الطاعات إيماناً ، فما دليله على أنها ليست إيمان . فإن المختلف فيه أحق باقامة الدليل عليه من المتفق عليه والله أعلم وبه التوفيق .

ويقال له : أرأيت لو قال لك قائل أن تصديق النبي ﷺ ليس بايمان ، فانما الايمان هو التصديق بالله تعالى . لأن الله تعالى أثنى على ذلك : ﴿ قالوا ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ﴾ [2] ، ولم يذكر الايمان بالرسول ، فاذا كنت تقول له : فان فرغ إلى أن ذلك لما قام الدليل عليه لا في هذه الآية . قيل له : وكذلك الطاعات كلها ، قد قام الدليل على انها إيمان ، لا في هذه الآية ، فما أنكرت أن الرجوع إليها أولى من الرجوع إلى ما لا دلالة له فيه على موضع الخلاف وبالله التوفيق .

(١و٢) آل عمران : ١٩٣

(٣) أ : الى ان ذلك بما قام الدليل عليه .

قال الرجل : وقد فرق الله تعالى بين الايمان وبين سائر الخيرات بقوله : ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾[1] .

فيقال له : ما في هذه الآية ما يدل على أن اكتساب الخير في الايمان ليس بايمان .

فان قال : لأن ذلك لو كان كذلك ، لكان كأنه قال : أو كسبت في إيمانها إيماناً.

قيل : وما الذي يمنع أن يقال ذلك وما فيه من المعاني التي يفسد بمثلها الكلام فأقم الدلالة على صحة ما تدعيه ان كانت عندك ، فانا لما تقولوه رادون ، ولك بحجة مؤاخذون .

فان قال : انه لما قال : ﴿ أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ دل ذلك على أن المكسوب غير المكسوب فيه ، بلى كذلك لا تكون دوائر الايمان المبتدأ غير ما يقام فيه من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد ، وان كان كل ذلك إيماناً ، كما أن دوام عقد الصلاة وحرمتها غير ما يؤتى به فيها من ركوع وسجود وغيرها ، وان كان كل ذلك صلاة . فلم قلت : ان الخير المكسوب في الايمان لا يكون إيماناً ؟

ويقال له : ما أنكرت أن تقدير قول الله عز وجل: ﴿ أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ أو كسبت لايمانها ، كما لا تفعل الخيرات التي هي إيمان ، والاستكثار منها ، ونظيره قول الناس : افاد فلان علي في علمه تقدماً ، أو في صناعته نفاداً ، أي استفاد كمالاً في علمه وكمالا في صناعته . لأن التقدم في العلم علم ، والنفاد في الصناعة صناعة .

قال الرجل : وقال عز وجل : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً ﴾[2] وقال : ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴾[3] ، فلا يجوز أن تكون الأعمال الصالحة هي الايمان ، فيكون شرط صحة الشيء وسبب قيامه هو الشيء نفسه . فدل ذلك على أن الايمان غيرها .

فيقال له : ما أنكرت أن معنى قول الله عز وجل : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً ﴾ أي فيكون إيمانه بالله تاماً كاملاً إذ العمل الصالح إيمان . وهو كقول القائل : من صلى وأحسن الركوع والسجود فله كذا ، فيكون المعنى . من صلى وأحسن الركوع والسجود

---

(١) الانعام: ١٥٨ (٢) التغابن : ٩ والطلاق : ١١ (٣) الأنبياء : ٩٤

فكانت صلاته بذلك تامة لا نقص فيها ولا خلل ، إذ الركوع والسجود صلاة، وإحسانهما إحسان صلاة ، وقال عز وجل : ﴿ ومن تقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً ﴾ لا يدل على أن العمل الصالح ليس من جملة القنوت لله ورسوله . فكذلك قوله عز وجل : ﴿ ومن يؤمن بالله ورسوله ﴾ لا يدل على أن العمل الصالح ليس من الايمان . وأما قوله عز وجل . ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴾ يعملها لأنه قد يعمل العمل الصالح في نفسه من لا يكون بفعله إياه مؤمناً ، وان اعتاق العبد والصدقة على الفقير عملان صالحان بانفسهما ، لأن الكافر إذا عملها لم يكن بفعله إياها مؤمناً . وهذا كما يقال : من يركع ويسجد وهو مصل فله كذا ، فيراد به أن يكون ركوعه وسجوده صلاة ، ويكون المعنى : وهو مصلي بفعلهما ، فكذلك هذا والله أعلم .

فأما قوله: لا يجوز أن يكون شرط صحة الشيء هوالشيءنفسه ! فجوابه أن يقال له: إن كان كذلك ، لا يجوز ! فأنت القائل بما لا يجوز والداخل في معناه، كان الايمان شرط لصحة الصالحات . ولا خلاف في انه بنفسه من الصالحات فقد صار شرط صحة الشيء نفسه باتفاق !

فان قال : لا ! قيل له : فقل : إن الإيمان ليس من الأعمال الصالحة كما قلت ان الأعمال الصالحات ليست من الإيمان . وإن جاز ذلك أن يقول : إن الإيمان من الصالحات ، وإن كانت الآية واردة بلفظ يوجب ظاهرها ، ان يكون الايمان شرط الصالحات، فيكون ما شرط من الإيمان لصحة الصالحات من الايمان . فتجعل الصالحات وما شرط لصحتها من الايمان شيئاً واحداً ، ولا فصل بين القولين .

ويقال له على كلامه في هذه الآيات كلها: انكرت ان جميعها واردة في الإيمان بالله ورسوله. ولسنا ننكر ان الايمان بالله ورسوله ما ذكرت . ولكن وراء ذلك إيمانا لله ورسوله ، ووجوب أحد الايمانيين لا يمنع وجوب الآخر . وكذلك استحقاق أحدهما اسم الايمان لا يمنع استحقاق الآخر اسمه . فما انكرت ان الطاعات كلها تستوجب اسم الايمان لله ولرسوله، وإن كانت لا تستوجب اسم الايمان بالله . فان معنى قول الله عز وجل : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً[1] ﴾ أي ومن يؤمن بالله ويؤمن له . ومعنى ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو

---

(١) التغابن : ٩

مؤمن ﴾ (١) . أي فهو مؤمن لله ، وقد قدم الإيمان به . ومعنى : ﴿ لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ (٢) . ذلك إيمانا لله ورسوله . ويكون الدليل على ذلك ماتقدم بحقيقة من هذا المعنى في الباب الأول والله أعلم .

ويقال له : هل يجوز أن يكتسب الكافر من كفره شراً يكون ذلك زيادة كفر منه مثل : أن يكون كافراً بنبي فيجحد نبوة نبي آخر! ويكون جاحداً للنبوات فيحدث شبهاً لله بخلقه ! فإذا قال : يجوز . **قيل** : لم لا جاز ان يكتسب المؤمن في إيمانه خيراً يكون ذلك إيمانا فيزداد بذلك إيمانه ، وما الفرق ؟

ويقال: أليس أصحابك قد حملوا ماجاء من القرآن في زيادة الايمان على أحد معنيين: اما زيادة اليقين ، واما تكرير الاقرار . فبما تقول فيمن كان له في إيمانه فضل استدلال على صحة دينه ، وقوى بذلك يقينه أو كرر الاقرار ؟ ليس كل واحد من الامرين خير كسبه في إيمانه ، وهو في نفسه إيمان . فبما انكرت أن يكون ذلك الخير الذي أراده الله تعالى بقوله :﴿أو كسبت في إيمانها خيراً﴾(٣) إيمانا إذ قد ظهر ان تسمية الله تعالى الفعل الواقع في الإيمان خيراً مكتسباً في الإيمان ، لا ينفي أن يكون ذلك الخير إيمانا ، وهذا كقبول الشرع بعد الشرع في زمن النبي ﷺ بعد صحة الإيمان به كان كسب خير في الإيمان ، وكان بنفسه إيمانا ، فلا ينكر أن تكون كل عبادة وطاعة كذلك ، والله أعلم .

قال الرجل : والأشياء تعرف باضدادها ، والكفر الذي هو ضد الاسم التصديق لا غير ! **فيقال له** : ان هذه العبادة ليست من كلام أهل التحقيق وهي خطأ ، لأن الأشياء تعرف اما ضرورة ، واما بالدلائل الدالة عليها . فاما ان يقال : إن كل شيء فإنما يعرف بضده ، فهذا يوافق إلى ان لا يعرف شيء من المتضادات قط ، لأن الايمان إذا كان يعرف بالكفر ، ويجب أن تسبق المعرفة بالكفر ، وتتأخر المعرفة بالايمان ، إلى أن يقابل بالكفر فينظر ما الذي تنتجه تلك المقابلة ، فيعتقد ، وفي هذا ما ابان سقوط هذا الكلام ، إذ كان ذلك يؤدي إلى أن لا يعرف إيمان ولا كفر أبداً وبالله التوفيق .

ويقال له : زعمت ان الكفر لما كان الجحود ، ووجب أن يكون الإيمان الذي هو ضد

---

(١) الأنبياء : ٩٤ (٢و٣) الانعام : ١٥٨

الكفر التصديق ، وهذا مسلم لك وزيادة ، لانا نقول : الايمان كله التصديق ، والطاعات كلها تصديق ، لأن من لا يصدق بالباري عز وجل ولا يصدق برسوله ، لا يظمــأ نهاره بالصوم ولا يسهر ليله بالقيام ، ولا يتعب جوارحه وأعضاءه بالصلاة ، ولا ينقص مـــاله بالزكوات ، ولا يجهد نفسه بالحج ، ولا يتعرض للقتل بالجهاد ، ولا يبكي من خوف الجحيم ، وإذا كانت الطاعات كلها تصديقاً ، وجب أن تكون كلها إيمانا ، وما كان منها ضداً للكفر وكان ضد الفسق فسواء ، والله أعلم .

ويقال له : الكفر والإيمان في انقسامها إلى الأصل والفرع سببان عندنا ، لأن الجحود أصل الكفر ، والمعاصي كلها فروعه . إذ الجروح صريح والمعاصي امـارات وكذلك الاقرار الذي ينشأ عن الاعتقاد صريح الايمان ، والطاعات امارات ، وامارات الكفر في الكفر كفر ، وامارات الايمان في الإيمان إيمان . والامارة مقصر بها عن رتبة الصريح في الأمرين و فاذا كانت الأشياء تعرف باضدادها ، فما أنكرت أن هذا وجـه معرفة الكفر والايمان وبالله التوفيق .

قال الرجل : ويـدل على ان سوى التصديق من العبادات ليس بايمان ، ان الكفار لم يفرعوا عند مبايعتهم بأس الله إلى غير التصديق ، كفرعون لما أدركه الغرق قال: ﴿آمنت انـــه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل﴾[1] ، وقوله : ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾[2] . وقوله : ﴿قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم﴾[3]. وقوله : ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها﴾[4] . فانما فرعت الكفر عند الضرورة إلى ما عرفوه حقيقة الايمان وهو التصديق دون شيء من العبادات ، فثبت ان الايمان غير التصديق .

فيقال له : ان الكفار يفرعون عند رؤية البأس إلى أصل الايمان ، وهو صريحه الذي يضـــاد صريح الكفر وأصله ، وليس ذلك إلا الاعتقاد والاقرار ولا يفرعون إلى فروع الايمان لأن مزايلة أصل الكفر لا يقع بها لكن ذلك لا يمنع من أن يكونوا بعد الدخول في دين الحق محتاجين اليها ، لتكمل درجات الايمان وشعبه ، ولئلا يعصوا بترك الفرائض

---

(١) يونس : ٩٠ .
(٢) غافر : ٨٤ .
(٣) السجدة : ٢٩ .
(٤) الانعام : ١٥٨ .

فيكونوا قد ضموا إلى أصل الايمان المعاصي التي هي فروع الإيمان وإمارات التصديق ، فيكمل بذلك إيمانهم .

وهذا كما ان من أراد الصلاة كفاه في الانتقال من الصلاة إلى الصلاة أن ينوي ويكبر وليس إذا صار بمجرد التكبير داخلا في الصلاة وجب أن لا تكون الصلاة كلها التكبير، وامتنع أن تكون بعضه فرائض يحتاج إلى الإيمان بها شيئاً فشيئاً لا لتتمة الانتقال، ولكن لتتمة ما وقع الانتقال به .

وهكذا من يريد الحج ولا يحتاج إلى الإنتقال من الاحلال إلى الاحرام إلى أكثره من عقد الاحرام ، وأراد به تقلبه ولا يدل ذلك على ان هذا هو الحج دون غيره ، بل وراء ذلك أعمال يحتاج إلى الاتيان بها لا لتتمة الانتقال لكن لتتمة ما وقع الانتقال به ، فانه أمر بالاحرام ليقف بعرفه محرما ، ويطوف ويسعى محرما .

فكذلك الكافر إذا عزم على الإيمان كفاه في الانتقال من الكفر إلى الإيمان الاعتقاد والإقرار وذلك لا يدل على ان هذا هو الإيمان ، بل وراء ذلك فرائض تتابع ، فكلما وجب منها احتاج منها إلى الإيمان به ، إذ هو لم يؤمن بالانتقال وحده ، وإنما أمر به ، وبأن يصلي في إيمانه ، ويزكي ويصوم ويحج ويجاهد ، فلا يكمل إيمانه إلا باداء واجباته كما لا يكمل حجه الذي صار داخلا فيه ، الا بأداء واجباته ، ولا صلاته إذا صار داخلاً فيها بتكبيرة إلا بأداء واجباته ، والله أعلم .

ويقال له في قوله : ان الكفار لم يفرعوا عند معاينة البأس إلا إلى التصديق بدليل كذا وكذا ، فثبت أن الإيمان غير التصديق ، وهل سمعت أحداً من أصحابنا يقول : إن ما ليس بتصديق فهو بايمان ؟ قلنا : ما عرفنا أحداً يقول ذلك . والإيمان عندنا هو التصديق ، وما ليس بتصديق فليس بايمان ، إلا ان الطاعات عندنا كلها تصديق من الوجه الذي تقدم بيانه . وإذا كان تصديقاً وكان الإيمان التصديق ، لم يكن تصديق بأن يكون إيمانا أحق من تصديق ، وبالله التوفيق .

قال الرجل : ويدل على ذلك انه لا تخلوا كل عبادة من أن تكون إيماناً بنفسها على الانفراد ، أو يكون الايمان اسما لجميع الخيرات ، فان كانت كل عبادة إيمانا على الانفراد ودينا وإسلاما فهي إذا اديان ، ويكون مع الواحد عشرة أديان أو عشرون ديناً ، ومع

آخر أقل من ذلك ، أو أكثر فيبطل أن يفهم من الأمر بالإيمان والاسلام مراد ، ويكون من ترك عبادة من العبادات تارك من أديان الإسلام ، ويجب وصفه بالانتقال من دين إلى دين وإيمان إلى إيمان ، كما يقال ذلك في العبادات ، ويجب إذا أفسد عبادة أن يقال : قد أفسد ديناً وخرج منه .

ويبطل القول بزيادة الإيمان لأنه لا يعرف ما يوصف بزيادة الطاعة ، لأن المقصود منهما مجهول ، وكذلك القول بالكمال إلا أن يشار إلى عبادة بعينها ، فثبت انه لا يجوز أن تكون كل طاعة إيماناً على الانفراد ، وان كان الإيمان عندهم اسماً لاجتماع جميع الطاعات وهو دين واحد ، وإيمان واحد ، فالقول بزيادة الإيمان لا معنى له لأنه لا أحد يبلغ في فعل العبادات والطاعات نهايته ، فهو أبداً في جمع الإيمان وتحصيله غير مستكمل له ، ولا بالغ غايته ، فبطل أيضاً اعتبار هذا الوجه ، فدل أن غير التصديق من الخيرات ليس بإيمان.

ويقال له : قولك ان غير التصديق من الخيرات ليس بايمان كلام متناقض لأن فعل الخير كله تصديق كما مضى بيانه وتقديره ، فإذا كان الايمان التصديق ، فكان فعل الخير تصديقاً وجب أن يكون إيماناً . ويقال له : ان الطاعات كلها إيمان ، وكل واحد منها ايمان إذا صحت وسلمت ، ولا يلزم على ذلك ان يكون من جاء بعشرين طاعة جاء بعشرين إيماناً كما ان عندك ان الاعتقاد والإقرار إيمان ، ثم لا يقول ان من جمعها كان جامعاً بين دينيين ، أو بين إيمانيين .

فان قال : التصديق يجمعها . قيل : والطاعة تجمعها ، وما يتبع من الفرائض والنوافل عشرين كانت أو ثلاثين أو مائة ، ولا يكون بذلك أدياناً ولا عدة أديان . وأيضاً كان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والبعث والحساب والجنة والنار والقدر واجب ، والتصديق بكل ذلك إيمان . ثم لا يقال : انها عدة أديان وإيمان ، فكذلك الطاعات إذا عدت من الايمان لم يلزم أن يكون الإيمان أعداداً كثيرة ، والاسلام اديانا اجمعه لا دينا واحد ، وهكذا يقبل كل ما كان بشرع ، واحدا بعد واحد . ويقبل ما قد شرع إيمان ومعلوم انه إذا كان لكل شريعة تقبل ، كثير التقبل ، ثم لا يصير الدين بذلك أديانا ، ولا الإيمان يصير معدوداً ، فكذلك العمل وإن كثر ، فكذلك لا يلحق الإيمان عدداً ، ولا يجعل الدين أديانا ، والله أعلم.

وأما جواز أن يقال لمن انتقل من صلاة إلى صلاة ، أو من حج إلى عمرة ، فلا يلزمنا أن نقوله. لأنا قد بينا أن الدين واحد وان كثر. والطاعات لاتنحه علينا مع ذلك هذا الكلام.

وأيضاً فإن الناس كانوا يقبلون فرض صيام الليل وفرض الصدقة عند التخوف وفرض النيات من الواحد للعشرة ، فكان يقبل ذلك إيمانا منهم ، فلما نسخ ووضع عنهم سقط ذلك الثقيل ، وخرجوا منه إلى اعتقاد أن شيئاً من ذلك لا يلزم ، فكان هذا الإعتقاد هو الإيمان . وما كان يجوز أن يقال : انهم خرجوا من دين إلى دين ، لأنهم خرجوا من تقبل فرض إلى تقبل سقوطه ، وإن كان ذلك الثقيل دينا فلا ينكر أن تكون الصلوات إيماناً وديناً ، ومع ذلك لا يجوز أن يقال للخارج من صلاة إلى صلاة خارج من دين إلى دين ، وأيضاً فإن الإيمان عندك الإعتقاد والإقرار ، فمن اعتقد واعترف فقد آمن.

ثم لا يقول : إذا تم اعتقاده واعترافه وانقطع كلامه فقد انقطع دينه وانقضى إيمانه ، ولا إذا أمسك عن الإعتراف أنه يمسك عن الإيمان أو يمسك عن الدين، فكذلك لا يلزمني إذا قامت الصلاة دين ، أن أقول لمن خرج من صلاة إلى صلاة ، انه خرج من دين إلى دين، وأما ان كل طاعة إذا كانت ديناً لم يصح القول بزيادة الإيمان ، لأنه لا يدري ما الذي يوصف بالزيادة ، فإنه يعارض عليه بأن النبي ﷺ لما دعا الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فلو أجابوه لكانوا مؤمنين ! فإذا قال : نعم ! قيل له؟ فان أمرهم بعد ذلك بالصلاة فقبلوا لكان يكون منزلهم إياها زيادة إيمان . فلا بد من نعم. فيقال له: فإذا كانت الشرائع لم تكمل ! فعلى ماذا كانت الزيادة ؟ وإن قال : كانت الزيادة على ما نص ، قيل : فكذلك كل طاعة يستجدها العبد فهي زيادة إيمان على ما مضى من طاعته، لا على نهاية الطاعات التي لم توجد .

ويقال له : أرأيت لو بعث الله جل ثناؤه في زمن النبوة نبياً ، فدعا الناس إلى الله تعالى ، فآمنوا وصدقوا ، ثم بعث نبياً آخر ، فاخبرهم النبي ﷺ الأول، بأن الثاني نبي، أو جاء بمعجزة تدل على صدقة ، كان يلزم أن يؤمنوا به ، فلا بد من نعم ! فيقال له : صلي فإذا آمنوا به ، أيكون ذلك زيادة إيمان منهم ؟ فلا بد من نعم ! فيقال له : فعلى ماذا تكون الزيادة والنبوة لما بيناه ، والأنبياء لم يتكاملوا ؟ فإن قال : تكون زيادة إيمان على ما تقدم من الإيمان بالرسل المبعوثين . قيل : فقل في الطاعة بعد الطاعة مثل ذلك ، وبالله التوفيق .

وأما قوله : وكذلك الكمال . **فجوابه** : ان وصف الايمان بالكمال يصح لأن له شعباً معلومة ، فمن استكملها فهو كامل الإيمان في حق ما مضى من أيامه ، وإنما يبقى أن يستقبل مثل ما قدم ان بقي [١] ، فإن فعل ذلك إلى آخره عمره ما يكامل الإيمان ، وهو كما يقول فيمن صدق بقلبه ولسانه انه كامل الإيمان ، لكن في حق الحال وهو محتاج إلى الثبات عليه فيما يستقبل ، ووقوع الحاجة إلى الاستدامة في المستقبل ، لم يمنعك من وصف الوجود في الحال ما جلبته به من الكمال . فقولي في الطاعات كقولك في الدوام والله أعلم .

وأما قوله : ان الايمان ، ان كان جميع الطاعات ، والمؤمن إذا بدأ في جمع الايمان وتحصيله ، فمتى تثبت له الزيادة ؟

فجوابه : إنما لا يثبت الزيادة من حيث قدر العبادة ، وإنما تثبت الزيادة في فعل المؤمن على معنى انه إذا عمل طاعة فكانت له إيماناً ثم عمل طاعة أخرى كانت له زيادة إيمان. ومعنى الزيادة انها زيادة على ما مضى ، لا انها زيادة على كل ما يمكن أن يتقرب به إلى الله تعالى لأن ما في قدر العباد من ذلك إنما ينقضي بانقضائهم . وهذا كما أن من صلى ثم صلى ، كانت الثانية له زيادة صلاة . ولا يقال : كيف تكون زيادة وما في قدرة العبد من الصلاة غير محدود ؟ فلذلك كل طاعة تحدث فهي زيادة إيمان ، وإن لم تكن الطاعات التي قدر العبادة محدودة عندهم ولا معلومة لهم والله أعلم .

قال الرجل : والانتهاء عن الكفر لا يكون إلا بالايمان . لقوله تبارك وتعالى :

﴿ قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ [٢] . ولو كان الايمان إسماً لجميع الطاعات لم يصر منتهياً عن الكفر حتى يأتي بها كلها ، فلما كان التصديق انتهى عن الكفر وبه تجب المغفرة ثبت أن الايمان سواه .

يقال له : لسنا ننكر أن الانتهاء عن الكفر لا يمكن إلا بالايمان ، وإنما ننكر أن لا يكون سوى ما ينتهي به عن أصل الكفر ، ويقال : ان ما ينتهي به عن الكفر إيمان . وما يحتذر به من الفسق أو ينتهي به عنه إيمان . وكل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من

---

(١) أ : مثل ما قدم ان يبقى .

(٢) الانفال : ٣٨ .

شرائعه ، فهو إيمان . فينبغي أن يدل على أشياء من ذلك ليس بايمان، لا على أن ما ينتهي به عن الكفر إيمان ، وعلى أن جوابنا في الكافر إذا كان جمع بين أصل الكفر وفروعه من السيئات والمعاصي ، ان أنهاه[1] عن أصل الكفر يكون باصل الايمان ، وعن فروعه بفروع الايمان .

وقد جاء أن رجلاً قال : (يا رسول الله ! أيؤاخذ الله أحداً بما عمل في الجاهلية ؟ فقال : من أحسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الاسلام أخذ بالأول والآخر)[2] . وقد مضى شرح معنى هذا الحديث فيما تقدم وفي هذا بيان ان ما قدره من أن الايمان الا ما ينتهي به عن أصل الكفر غير ثابت له ، والله أعلم .

ويقال له : ان الكافر اذا أسلم لم تزدحم عليه العبادات كلها فور إسلامه . فإن كان اعتقاد إقراره إيمانا كافياً في ذلك ، فلأنه لا أمر متوجه عليه فيه . وقد يؤمن الأخرس بالاعتقاد وحده لأن فرض الاقرار لا يتوجه عليه ، ثم لا يدل ذلك على أن لسانه لو أطلق لم يلزمه الاقرار ، ولم يكن منه إيماناً . فكذلك الجامع بين الاعتقاد والاقرار يكون مؤمناً بهما ، وذلك لا يدل على أن وقت الصلاة إذا دخل فصلى لم يكن ذلك منه إيماناً والله أعلم .

قال الرجل : فإن احتجوا بما روى عن النبي ﷺ أنه قال : « الايمان بضع وسبعون شعبة »[3] قبل الاحتجاج بهذا الخبر . لأن في نفس الخبر ما يمنع من قبوله ، وهو أنه قال : « الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة » ولا يحتمل أن يشك رسول الله ﷺ في عدد شعب الايمان . فهو في الراوي ، ولا يجوز إثبات دين الاسلام بخبر شك الراوي في متنه ، وإن صح الخبر لم يكن لهم فيه حجة من وجوه :

أحدها : ان الخبر سمى كل شيء شعبة الايمان ، وهم يسمون كل شيء منها إيمانا ، ويدعون على كتاب الله انه جاء بتسمية الصلاة إيماناً بزعمهم ، ورسوله صيرها شعبة إيمان ،

---

(١) أ : ان انتهاءه عن اصل الكفر .

(٢) ورد في صحيح البخاري « كتاب المرتدين » رقم ٤ ، كما ورد في صحيح مسلم « ايمان » رقم ١٨٩ - ١٩٠

(٣) ورد في صحيح البخاري « كتاب الايمان » باب ٣ ،

فهو خلاف . والله تعالى يقول : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ [1] . فلا يجوز أن نخالف الرسول ولا نغير عليه . قال : والخبر جعل شهادة الاخلاص شعبة من الايمان ، وجعل غيرها أحوالها ، وهم جعلوا هذه الشهادة وغيرها أغياراً لها . والخبر جعل الايمان إسماً لبضع وسبعون، فلا يجوز تسمية الواحد من السبعين باسم الايمان والصلاة واحدة من تلك الجملة، ولا يجوز أن يطلق عليها إسم الايمان. فبطل الاحتجاج بالخبر .

فيقال له :ان النبي ﷺ لا يشك في شعب ولا يخفى عليه عددها ، وما روى عنه ﷺ أحد أنه قال : « الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة » وإنما هذا يشكل من بعض الرواة، ولئن كان أحدهم شك ، فقد روى غيره قطعاً من غير شك أنه قال : « الايمان بضع وسبعون باباً » وأكثر الروايات على هذا فلا يجوز تعطيلها والاعراض عنها لشك عرض لغيرهم وفيها ، ولو أن رجلاً أقام شهوداً على رجل بمال . فقال أحدهم : له عليه ألفان أو ألف درهم ،وقطع الآخرون بأخذ العددين لم ترد شهادة القاطعين لشك الذي شك من بينهم ، فلم تقطع بما قطعوا به ، فكذلك هذا .

وأما قوله : ان الخبر سمى الطاعات شعب الايمان ، وأنتم تزعمون أن كل شعبة منها إيمان .

فجوابه : ان شعبة الايمان إيمان ، كما أن شعبة العبادة عبادة، وشعبة الطاعة طاعة، ولو قال قائل : العبادة كذا كذا شعبة ، فعدد الصلاة والطهارة والزكاة والصيام والحج والجهاد وسائر ما يعبد الله به خلقه مائة مائة حتى أتى على آخرها . ثم قال هذه شعب العبادة لم يمنعه ذلك من أن يقول لكل واحد منهما : انها عبادة . ولو قال : هذه شعب الطاعة ، لم يمنعه ذلك من ان يقول لكل واحدة منها انها طاعة . ولو قال : هذه شعب الشريعة لم يمنعه ذلك من أن يقول لكل واحدة منها انها شريعة . أو قال: هذه أحكام الله وأوامره ونواهيه،لم يمنعه ذلك من أن يقول لكل شيء بعينه أنه حكم الله،أوأمره، أو نهيه . فلذلك إذا قال : انها شعب الايمان لم يمنعه ذلك من أن يقول لكل واحدة انها إيمان . وقد يقول القائل : الصلاة خمس ، فعد الظهر والعصر والمغرب والعشاء

(١) الحاقة : ٤٤ - ٤٦ .

والفجـــر ،ثم يسمي كل واحدة منها صلاة ، فلا يناقض ذلك قوله : « الايمان بضـع وسبعون شعبة » .

وأما قوله : الخبر جعل شهادة الاخلاص من شعب الايمان ، وجعل غيرها أجزاءلها ، وهم جعلوا هذه الشهادة إيماناً وغيرها أغياراً لها فبهتت ، لأن النبي ﷺ قال : « الايمان بضع وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله،وأدناها اماطة الأذى عن الطريق»[1]. فجعل شعب الايمان المتشعب بضعاً وسبعين شعبة لا لشهادة أن لا إله إلا الله .

ومن المحال أن يكون الصيام والصلاة والزكاة والحج أجزاء للشهادة ، والنبي ﷺ لا يتكلم بالمحال .وأما نحن فلم يقل : ان الشهادة إيمان ، بمعنى أنها جميع الايمان ، لكن على أنها أصل الايمان . ولم يقل : أن سائر الشعب غير الايمان ، كما يقول : انها غير الشهادةأو غير أصل الايمان كمالاً . يقول : ان كل واحد من الاعتقـاد والاقرار غير الايمان . وان كنا نقول : ان الاعتقاد غير الاقرار ، والاقرار غـير الاعتقاد ،والله أعلم .

وأما قوله : ان الخبر جعل الايمان إسماً لبضع وسبعين ، فلا يجوز أن يسمي أحدها إيمانـــاً .

فجوابه : ان أحد هذه البضع والسبعين شهادة أن لا إله إلا الله وهي إيمان باتفاق ، فكذلك كل واحدة من سائر الشعـب إيمان ، وإن كان الايمان في الأصل إسماً لبضع وسبعين شعبة ، وبالله التوفيق .

قال الرجل : فإن احتجوا بما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « يخرج من النـــار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان »[2] . قيل لهم : ان صح هذا الخبر لم يجـز حمله على الظاهر ، لأنه لا يجوز أن يوزن توحيد الرب بمثقال ذرة من خردل ، بل لوزن بالدنيـــا والآخرة لرجحها ، وقد جعل الله عقوبة عدم الايمان عذاب الأبـد ، فلا يجور أن يكون كل شيء يزن مثقال حبة من خردل يجعل عقوبة عدمه الخلود في النار .

---

(١) ورد في صحيح البخارى «كتاب الايمان» باب رقم ٣

(٢) لم اجد هذا الحديث في الكتب التسعة ، انما هناك حديث مشابه ورد في سنن الترمذى « كتاب البر والصلة » رقم ١٩٩٨ ، ١٩٩٩ ، وقد ورد على النحو التالي : (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من ايمان) .

– وكان في النسخة بعد هذا الكلام غلط وقع فيه الناسخ فلم يوقف منه على غرض –
ويقال له : ان الاحتجاج بهذا الحديث لا يكون لاثبات أن الطاعات كلها إيمان ، فان كنت أضفت إلينا لهذا ، فقد غلطت ، وان كنت انتقلت عن الفصل الذي ابتدأت به إلى فصل آخر، وهو أن الايمان هل يزيد وينقص، وأردت بما حكيته عنا: انا ان احتججنا بهذا الحديث لاثبات أن الايمان قد ينقص حتى لا يكون في قلب إلا وزن خردلة ، ثم قد يكون في قلب آخر وزن شعيرة ، وفي قلب ثالث وزن بره ، كما وردت به الأخبار ، وهذا يدل على تفاوت الناس في إيمانهم ، ثم جعلت جوابنا عن هذا ما ذكرت ، فلقد أسأت الجواب. لأنك زعمت أن التوحيد لا يجوز أن يكون خردلة،بل لو وزن السموات والأرض لرجحها ، وان التوحيد فعل المتوحد كما أن سائر العبادات فعل المتعبد ، وما كان فعل العبد يجوز أن يقع هذا ناقصاً خفيفاً . وإن كان المقصود بذلك الفعل هو الله جل ثناؤه .

ألا ترى أن الصلاة عبادة الرجل لله جل ثناؤه ، كما أن الايمان توحيد ، وقد يصلي الرجل صلاة يوفيها حقوقها فتكون ثقيلة في ميزانه ، وقد يصليها مقتصرة على أقل ما تحوي ، ويؤديها غافلا عنها تاركا الخشوع فيها مستعجلاً بالفراغ منها ، فلا يكون لها ذلك الوزن بل يكون يترك الأول بدرجات كثيرة ، فكذلك لا ينكر أن يكون إيمان بعض المؤمنين كاملاً بتكامل شعبه وحقوقه ، ويضرب له المثل بالحسد وما يشبهه . وإيمان بعضهم خفيفاً ناقصاً ، فيضرب له المثل بوزن الذرة ووزن الخردل ، وليس في ذلك شيء يرجع إلى الله تعالى .

ألا ترى أن توحيد الرب قد يعدم في بعض العباد وهم المشركون ، فلا يكون لهم ما يوزن أصلاً . فمن أين استحال منه إذا وجد الناقص الخفيف الذي لا يوزن إلا الشيء اليسير ، من نحو ما ضرب له مثلاً ، والله أعلم .

فان قيل : فكيف يكون ذلك قبل أن يكون في قلب واحد توحيد ليس معه خوف غالب على القلب فيردع، ولا رجاء حاضر له فيطمع، بل يكون صاحبه ساهياً قد اذهلته الدنيا عن الآخرة فإنه إذا كان بهذه الصفة انفرد التوحيد بها إذا كانت كلها تصديقاً ،

والتصديق من وجه واحد أضعف من التصديق من وجوه كثيرة ، فإذا كان كذلك خف وزنه ، وإذا تتابعت شهادته ثقل وزنه .

وله وجه آخر: وهو أن يكون إيماناً واحداً عن أشياء باستدلال قوي ونظر كامل، وإيماناً آخر واقعاً عن الخبر والركون إلى المخبر به . فيكون الأول أثقل وزناً والثاني أخف وزناً . **فأما قوله** : ان شيئاً يكون خردلة ، فلا يجوز أن يستحق الخلود في النار بعدمه ، فكلام فارغ لأنه وإن كان خفيف الوزن فهو إيمان إذا عدم وجد مكانه الكفر، وعليه يكون التعذيب بالنار ، فلا ينظر مع هذا إلى أن الايمان المعدوم كان خفيف الوزن أو ثقيله . وإنما ينظر إلى أن الموجود بدلاً منه وهذا الكفر ، والكفر أغلظ الجنايات ، فحقه أن يقابل بأغلظ العقوبات والله أعلم .

وأما من ولي من أصحابنا من أن الإيمان قد ينقص حتى لا يبقى منه شيء ، بمعنى ان المعاصي تحبط ثواب الطاعة بعد الطاعة حتى يخلص الأمر إلى ثواب الايمان ، فلا يزال ينقص منه شيء بعد شيء حتى لا يبقى مما يحبط ثوابه منه إلا قدر برة أو قدر شعيرة أو قدر خردلة أو قدر ذرة ، فانه يقول : المراد بالحديث (يخرج من النار من كان في قلبه ذرة من الايمان) [1] . أو شيء لم تحبط المعاصي ثوابه ، وإن كان ذلك بقدر ذرة أو خردلة ، ولا يخلد في النار من كان بهذه الصفة . وفي هذا دلالة على ان الطاعات من الايمان وان المعاصي تحبط ثوابها إذ كان الحديث لا يخرج إلا على هذا المعنى .

فان قيل : أرأيت ان كانت المعاصي أحبطت ثواب جميع إيمانه ، أيخلد في النار ، **قيل** : لا ، وليس تخصيص الذي بقي في قلبه قدر ذرة وخردلة من الايمان بالذكر ، ما يمنع من ان يكون الذي لم يبق في قلبه ايمان الا وقد احبط المعاصي ثوابه غير مخلد في النار ولكن هذا إذا لم يخلد في النار ادخل الجنة بالشفاعة ، فيكون ذلك إحساناً يبتدأ به لا ثواباً . والذي في قلبه شيء من إيمان لم يبطل ثوابه إذا لم يخلد في النار ادخل الجنة لثبات بإيمانه والشفاعة ان وقعت به قليلا ، يعذب أو لينقص عذابه ، فهو فرق ما بينهما والله أعلم .

---

(١) انظر الحديث السابق .

قال الرجل : وقد يجوز أن يكون معنى الحديث ان من أتى بمثقال حبة من خردل من خير بعد الإيمان ، ولم يكن خير غير ذلك اخرج من النار بالشفاعة ، وإذا لم يكن له خير قط . فالله تعالى يتفضل عليه بالعفو ولا يجعل لأحد فيه شفاعة . لأن التوحيد اعتقاد فيما بينه وبين ربه فهو الذي يتفضل عليه بالاخراج من النار . فيقال له : انك قد أتيت الخير بعد التوحيد إيمانا ، ولا تشعر لأن الحديث خائضا في مثقال ذرة من الايمان . فقلت معناه : خير كسبه بعد التوحيد ، فأوجبت بذلك أن يكون الخير بعد التوحيد إيماناً ، ومع هذا فكلامك غير صحيح ، لأن الحديث اقتضى الإيمان الذي يكون بالقلب فعلم انها غير مرادة بالحديث وقوفك بين من يعفى عنه بلا شفاعة . وبين من لا يعفى عنه إلا بشفاعة ، نادر غريب . لأنك جعلت احوج الرجلين إلى الشفاعة و أبعدها من استحقاق الفضل خارجاً من أن تكون له الشفاعة لاحقـــاً بمن يبدأ بالفضل والإحسان بلا مسألة ، وأدناها إلى الفضل أبعدها منه ، وأولاها بان لا ينال خيراً إلا بالشفاعة ، وهكذا يكون حال من يبغي ما ليس له ، والله أعلم .

قال الرجل : فان احتجوا بما ذكر في القرآن من زيادات الايمان ، قيل لهم : لا حجة لكم فيها لأن الإيمان عندكم اسم لجميع الطاعات ولا سبيل إلى استجماعها . فالايمان على قولكم ناقص أبداً غير كامل ، فكيف يجوز أن يوصف بالزيادة عليه ؟

فيقال له : إن الايمان اسم لجميع الطاعات ، ولكل واحدة منها . فمن أداها جميعاً كان كامل الايمان ، وأما في حال الاداء ، فان من أدى منها شيئاً واجب زاد به ما تقدم من أدائه ، فإن وجب شيء آخر بعده فاداه ، زاد به ما مضى قبله . ولا يكون ناقص الايمان بأن لا يكون قد حل عليه واجب بفعله إلا بالاضافة له ، إلى من حل ذلك عليه ففعله ، إنما ينقص إيمانه حقا إذا وجب عليه شيء فلم يفعله فبطل . بهذا قولكم ان الايمان عندكم ناقص أبداً ، وقولك لا سبيل إلى استجماع الطاعات كلها بحـــال ، لأنها قد اجتمعت في الشرع ولو لم يكن إلى الجمع بينها في الفعل ، ما جمع بينها في الشرع ولا نظمت في التكليف والله أعلم .

قال الرجل : والآية سمت الزيادات إيمانا لقوله تعالى : ﴿ زادتهم إيمانا ﴾ [1] وعندكم

---

(١) الأنفـــال : ٢

انها أجزاء الايمان ، وبعض جـــزء الشيء لا يستحق اسم الشيء نفسه ، وفي هذه الآية تحقيق اسم الايمان لكل جزء منها . فثبت ان القول يجعل كل طاعة جزءاً من الايمان ، قول فاسد وبراعة ان هذا الرجل آما أن يكون في نهاية الغفلة أو في نهاية الاعجاب بنفسه لأنه يقول بالشيء ثم ينقضه في الحال نفسه ويحب بما فيه كثير قوله وهو لا يشعر قلبه بدأ كلامه لأن الآية سمت الزيادات إيمانا ، فيقال له : مـــا هذه الزيادات أولاً فانك قدأثبتها، وفي جوابك الأول احلتها ، فهل هي إلا الطاعات التي يترادف ، فكلما وجد منها شيء ازداد ما قبله ، ثم قال: وعندكم انها أجزاء الإيمان وبعض التي لا يستحق اسم الشيء ثم ينقص هذا على نفسه . فقال : وفي الآية تحقيق اسم الإيمان لكل جزء من أجزاء الإيمان . فما عذرك في رفع اسم الإيمان عن شيء حققته الآية ؟ ثم رجع في هذا وقـال : فثبت ان القول يجعل كل طاعة جزءاً من الإيمان فاسد .

فيقال له : أليس زعمت ان الآية حققت اسم الايمان لكل جزء من أجزائه ،فاثبت تجزأ الإيمان ، واثبت اسم الإيمان لكل واحد من الأجزاء . فيكون القول بما حققته الآية فاسداً ، وفي هذا ما أبان غفلته . ويقال له : إن بعض أجزاء الشيء قد يستحق اسم الشيء نفسه لأن كل القرآن قرآن ، وكل سورة منها وكل كلمة وكل آية قرآن. فالطاعة طاعة وكل نوع منها طاعة ، والعبادة عبادة وكل صنف منها عبادة . والسماء سماء وكل جزء منها سماء ، والماء ماء وكل جزء منها ماء ، والأرض أرض وكل جزء منها أرض . فمن أي استحـــال أن تكون شعب الإيمان إيمانا ، وكل شعبة منها إيمانا ، فتكون زيادة الطاعات زيادة إيمان .

قال الرجل : والايمان عندهم اسم لاجتماع جميع الخيرات ، وماجعل اسماً للكل استحال وصفه بالزيادة ، لأنه ليس وراء الكل شيء يتصل به ، فيكون زيادة عليه

فيقال : إن الايمان اسم لجميع الخيرات : فرائضها ونوافلها وأنواعهـــا منه . وليست بخارجـــة من الشعب البضع والسبعين ولا زيادة عليهـا ، لأن الحدود في الشريعـة لا سبيل لأحد إلى الزيـــادة عليه ، ولكن هذا التوفيق يلحق هذه الشعب من قبل الوضع والشرع ، فأما أفعالنا وأعمالنا وأداؤنا هذه الشعب فانها قد تقل وتكثر ، كما انها قد توجد وقد تعدم، والشرع بحالة لا يتغير ، فإذا جـــاز أن تكون هذه الشعب من حيث الشرع

موجودة ، ولا يوجد من بعض الناس فعل شيء منها جاز أن يكون من حيث الشرع محدودة ويوجد من الناس التفاوت فيها ، فمن جامع بينها وبين مفرق ، فمن جمع فقد كمل إيمانه، ومن فرق نقص إيمانه . ألا ترى أن الصلاة المفروضة محدودة في الشريعة ، ثم قد توجد في أفعال المؤدين لها بالزيادة والنقصان ، فمن أقامها كان كامل الايمان ومن أقام بعضها وترك بعضها كان ناقص الصلاة وأجزاؤه كالصلاة واعدادها والله أعلم .

قال الرجل : فتأويل الآية يخرج على وجوه :

أحدها : أن يكون المراد بها الزيادة في فضل الإيمان ودرجته ، وحسنه وجماله ، لا في أجزائه وأبعاضه ، كما سميت صلاة واحدة بمكة بالف صلاة ، وأريد بذلك الزيادة في الفضل والدرجة لا في العدد . والآخر ان ما كان زيادة في نفس الشيء وأجزائه فان ارتفاعه يوجب نقصانا فيه ، وترك الطاعات لا يوجب نقصانا في نفس الايمان . فدل ذلك على انه ارتد به الفضل والدرجة ، وهكذا يقول : ان الايمان يزيد في الفضل والدرجة والحسن والجمال ، ومن تعاطى المعاصي كان إيمانه في الفضل والمنزلة ، ومن الايمان من يتعاطى أفعال الطاعات .

فيقال له : ان الآية لا تحتمل ما ذكرت لأن الله عز وجل قال : ﴿ وإذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾.[1] ومعلوم ان نزول السورة لا يزيد المؤمنين فضل درجاتهم في إيمانهم ، ولكنها قد تزيدهم إيماناً من حيث يعتقدونها ويعملون بها ، فتكثر بذلك طاعاتهم . فصح ان المعنى هذا دون ما قاله .

فان قال : وما يمنع من أن يقال أنها تزيدهم إيماناً من حيث يعتقدونها ويعملون بها فتكثر ، فتزداد بذلك درجات إيمانهم . قيل : يمنع من هذا ان الايمان عندك إنما هو الاعتقاد والاقرار فقط . ومجموع هذين لا ينبغي ان يزداد تفضلا في درجات الثواب بطاعة تقام وخير يكسب بعده ان لم يكن ذلك إيماناً ، لأن ثواب الايمان لا يزداد ودرجاته لا تتضاعف بما ليس بايمان .

---

(١) التوبة : ١٢٤ .

ألا ترى أن درجات الصلاة عندك لا تزداد بالصيام ولا درجات الصيام بالحج،فكذلك يلزمك أن تقول : ان فضل شهادة الحق ودرجاته لا تزداد بخير ، سواها يؤتى به بعدها ان لم يكن إيماناً مثلها . فان قلت : بل يزداد ، لزمك أن تقول : ان كل خير يكتسب بعدها من دوامها فهو إيمان ، وانما يزداد فضل الشهادة بها لانضمام اشتباهها ، كما يزداد فضل الصيام واجتماع حقوقها وشروعها والله أعلم . وكل ما قلته في هذه الآية فهو في غيرها مثله وبالله التوفيق .

وأما استشهادك بالصلاة بمكة فغير صحيح . لأن تضعيفها لا يتعلق بزيادة فعل يكون من المصلي سوى ما يكون منه لا بمكة فمثلها ان المراد به تضعيف الثواب فقط ، وأمـــا زيادة الايمان فلا تحدث الا بفعل يحدثه المؤمن زائداً على ما تقدم منه ، فان لم يكن ذلك الفعل إيماناً ، لم يجز أن يزيد في درجات الشهادة المقدمة ، إذ لو جاز ذلك لجاز أن يكون فعل المباحات يزيد في درجات ، ولما لم يجز ذلك وزادت الطاعات عنده في درجات الشهادة صح انها إيمان مثلها،فاذا انضمت اليه يثوب بها، فازداد بذلك ثوابها،والله أعلم .

وأما استدلاله على ان المراد بزيادة الايمان زيـــادة درجاته ونقصان ثوابه ، بل كان زيادة في نفس الشيء ، فان ارتفاعه يوجب نقصانا فيه ، وترك الطاعات يوجب نقصاناً في الايمان،ومع ذلك يحتج عليه بقول نفسه فلا يبالي وكأنه لا غرض له الا أن يسود بياضا.

أو يقال : قد قال : وليس هذا من الآية بسبيل ، فان سئل عن نقصان الايمان ترك الطاعات . قيل له : أقل ذلك ان صح يكن له طاعة ، إلا شهادة الحق صار صريح إيمانه معارضاً بامارات الكفر ، لا ان المعاصي كلها فروع الكفر ، وهي إذا عارضته أو هنته كما لو صاحبته الطاعات التي هي امارات التصديق لقوته . ولهذا سمى المسلمون الفسق جرحاً وخلافه عدالة . فقلت : إن ترك الطاعات ناقص من الايمان ، وإن الأمر في ذلك بخلاف ما قدر والله أعلم .

وأما من قال : إن المعاصي تحبط الثواب ، وقد تخلص إلى ثواب الشهادة إذا أحبطت ثواب ما دونها ، فانه يقول : ان المعاصي تنقص الشهادة لأنه يجعلها لا ثواب لهـــا ،وإذا جعلها كذلك فقد نقص قدرها وحط رتبتها .

فان قال الرجل : أرأيت من قال من أصحابك هذا، لم يقل ان زيادة الايمان زيادة ثوابه، كما قال ان نقصان الايمان نقصان ثوابه .

قيل : بل يلزمه عند هذا ، وهو ان الايمان إذا كان لا ينقص ثوابه الا بفعل ضده وهي المعصية التي هي من فروع الكفر ، لم يرد إلا بفعل مثله وهو الطاعة ، التي هي من فروع التصديق ، فتزداد الطاعة المتقدمة بالطاعة المتأخرة ، ويتضاعف الثواب . فاما أن يزداد ثواب الايمان لا بايمان يحدث بعده ، فذلك محال ، كما ان نقصانه لا بخلاف إيمان يحدث بعده محال ، والله أعلم وبالله التوفيق .

واما من قال : إن نقصان الايمان إنما يزداد به نقصانه عن حد الكمال المبين له أو نقصانه ، بالاضافة إلى ما هو أكمل منه ، وانه لا يقول : المعاصي تنقص الشهادة . لأن معنى نقصان الايمان عنده انقطاع اضداده عنه ، فيقال : المعاصي نقصت إيمانه فعل ما تركه إلى ضده لكان ذلك إيماناً منه ، ولكثرت به اجزاء ايمانه . فلما كان خلاف ذلك منه انه وعالجوا الموجود من الايمان ، فكان إيمانه ناقصاً بالاضافة إلى ما كان يكون لو لم ينفرد بالاضافة إلى إيمان غيره ممن لم يجن مثل جنايته [1] ، ونقصان الايمان من هذا القول كنقصان المال ، وزيادته كزيادة المال ، أو نقصانه كنقصان بعض الأعضاء وزيادته لتكامل الأعضاء ، أو نقصانه كنقصان المال وزيادته كزيادة على مقداره .

قال الرجل ايضاً : فان الزيادة في الايمان إنما ذكرت عند زيادة الايمان والسور ، فمعناها الثبات على الايمان والقرار عليه والصلابة فيه ، لأن الآيات تظهر الحجج ، وتزيل الشبهة فيزداد المؤمن بذلك قوة وثباتاً على الايمان . والدليل على صحة هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا ﴾ [2] .

فالذي وصفه بالزيادة في تلك الآيات وصفه بالتثبت في هذه الآية ، فدل ان معناها القرآن ، والقرآن عليه وكذلك ضرب الله تعالى مثل الايمان بشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء وصفه بالثبات والقرار عليه، ووصف الكفر بضد ذلك فقال: ﴿ اجتثت من فوق الارض مالها من قرار ﴾ [3] . فيقال له : ان الايمان الزائد للمؤمنين بنزول السور : هو ان

---

(١) لم يجن مثل جنائه .　　(٢) النحل : ١٠٢　　(٣) ابراهيم : ٢٦

يؤمنوا بالتأويل أولا ، فيعتقدوا انه من عند الله تعالى ، ثم ان يعملوا ان كان فيه فرض سبيله أن ينفذ . فان السورة التي قيل فيها : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ﴾ (١) . هي التي قيل فيها : ﴿ وإذا انزلت سورة ان آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا : ذرنا نكن مع القاعدين ﴾ . (٢) فعلمنا ان قوله عز وجل : (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا) إنما أريد به انها إذا أنزلت بالجهاد مع رسول الله ﷺ جاهدوا ولم يتحققوا عنه مستأذنين ولا غير مستأذنين .

ألا ترى انه قال : ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا على رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ (٣) . إنما أراد به أهل الطول من المنافقين الذين لا يكون لهم عذر مقعدهم ومع ذلك يقولون للنبي ﷺ : ﴿ ذرنا نكن مع القاعدين ﴾ (٤) كل ذلك فعل يحدثونه فيحدث لهم به زيادة ايمان أو زيادة رجس ، فصح ان المراد بالآية ما قلنا والله أعلم .

واما قوله : ان المراد بالآية ان الآيات إذا انزلت أظهرت الحجج وأزالت الشبهة ، فيزاد المؤمن بذلك قوة في الايمان !

فجوابه : ان تلك القوة ليست إلا فضل تصديق ما كان يحدث منه زيادة إيمان، فقد بينا ان كل طاعة تصديق ، فليكن حدوثها زيادة ايمان ، هذا ومن قوله : ﴿ أن ما كان قبل نزول الآية فهو ايمان تام ولا معنى للزيادة على التمام ثم ينقصه على نفسه ، ويزعم ان فضل التصديق الواقع بنزول آيات يتضمن على الحق دلالات زيادة حادثة على ما تقدم من الايمان .

فيقال له : اما أن لا يكون الأول تاماً بالاطلاق فيكون ، تعوض الزيادة ، أو ان كان تاماً فقد يكون تمام فوق تمام. فلا ينكر أن يرد عليه من الطاعات ما يزيده تماماً وبالله التوفيق .

وكذلك ما قاله في الثبات على الإيمان لأنه ان كان أراد أن السور إذا أنزلت اراد بها نفيهم حتى يصير ذلك سبباً للثبات لولاه لكان لا يقع منهم ، فهو تأويله الأول ، وإذا

---

(١) التوبة : ١٢٤
(٢) التوبة : ٨٦
(٣) التوبة : ١٢٥
(٤) التوبة : ٨٦

كان كذلك ، فكل طاعة تحدث فهو تصديق حادث ، فوجب أن تكون زيادة إيمان وبالله التوفيق .

قال الرجل : ووجه آخر يحتمل أن يكون المراد بالإيمان نوره في القلوب ، وضياؤه فيها ، لا نفسه ، لأن الله تعالى وصف الإيمان بالنور والضياء لقوله تعالى : ﴿ ويخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾[1] . وقوله : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ﴾[2] . وقال : ﴿ كأنها كوكب دري توقد من شجرة مباركة ﴾[3] . وقد سمى هو الشمس شمساً ، ونور القمر قمراً ، فلذلك يجوز أن يسمي الإيمان نوراً ، فالنور لا نور له ، وإنما النور البين وعندك أن الله عز وجل سمى الإيمان نوراً ، فإذا لم يكن للنور نور ، لم يكن لك أن تحمل الوارد بزيادة إيمان على النور .

فإن زعم أن الإيمان نور وأن له نوراً ، لم يمكنه أن يرجع في إثبات ذلك إلى هذه الآيات ، ويسأل عن نور الايمان : الايمان ما هو ؟ فلا يمكنه أن يشير إلى معنى سوى أنه يدعو إلى الطاعات ويحول عليها ، ويزجر عن المعاصي والميل إليها .

وذلك نفس قولنا ، لأن كل ما حول عليه إيمان فهو إيمان ، فان بدء[4] الايمان الاعتقاد بالقلب فلما كان ايماناً كان ما يحول عليه من الإقرار إيماناً . ولما كان الإقرار إيماناً . كان ما يحول الإقرار عليه من قبول الشرائع إيماناً . كذلك قبول الطاعات إيمان . فوجب أن يكون ما يحول للقبول من الأفعال إيماناً قبول الايمان هو أن اعتقاده يهدي إلى الاقرار ويقبل الأمر والنهي ، والتقبل يهدي ولا يعقل له معنى سوى هذا وبالله التوفيق .

قال الرجل : وروى عن بعض السلف في تأويل الآيات ، ان معناها : انهم كانوا آمنوا بالله ورسله وبجميع ما يأتي من الله ، فإذا أتى فرض بعد فرض ازداد ايمانهم بالتفسير مع إيمانه بالجملة . وقال أهل التفسير بأجمعهم في تأويلها : انه التصديق أي زادهم تصديقاً إلى تصديقهم ، ويقيناً إلى يقينهم ، ولا أحد منهم صرف تأويلها إلى الصلاة والزكاة ، ولا إلى شيء من القرب ، فمن صرفه إليها فقد خالف أهل التفسير .

---

(١) المائدة : ١٦ .
(٢) التوبة : ٣٢
(٣) النور : ٣٥
(٤) أ : فان بذور الايمان .

فيقال له : ان الذي حكيته عن بعض السلف صحيح ، ولكن ليس إذا كان ذلك زيادة إيمان امتنع أن يكون غيره وهو العمل بذلك المتقبل إيماناً ، فقبول ما يحدث بعينه إيمان ، لأنه طاعة ، فكذلك ينبغي أن يكون العمل به إيماناً لأنه طاعة ويثبت بزيادة الايمان بكل حال .

وأما المفسرون في إجماعهم على تأويل الآية : هو التصديق. فمرحبا بهم. ومن خالفهم فإنه لا يخالفهم ، ويقول كما قالوا : ان زيادة الإيمان ليست إلا زيادة التصديق ، لكن كل طاعة تصديق ، فحدوثها كحدوث فضل اليقين أو الثبات وبالله التوفيق .

قال الرجل : واحتجوا بما روى عن بعض الصحابة : ان القبلة لما حولت خشي كثير من الصحابة على من مات منهم ضياع صلاتهم ، فنزل: ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾[1]. يعني صلاتكم إلى بيت المقدس .

قيل لهم : ان هذا الخبر لا يصح عن الصحابة لأنه لا يجوز أن يسبق إلى فهم أحد ان الله تبارك وتعالى يضيع عملاً عمل بأمر رسول الله ﷺ . ولأن ذلك يوجب شكاً في خبر رسول الله ﷺ ، ولو كان ذلك كما ذكروا ، لكان خوف الصحابة على أنفسهم من ذلك أوجب من الخوف على من مات منهم ، والسؤال عن إعادة تلك الصلوات الزم لهم من غيرهم ، ولم يرو عنهم في ذلك شيء . فدل أن هذا التأويل باطل، ولأن الآية جاءت بذكر من بقي من الصحابة دون من مات منهم لقوله : ﴿ وما كان الله ليضيع ايمانكم ﴾ ولم يقل إيمانهم . واذا بطلت القصة التي هي دلالة تسميتهم الصلاة إيماناً بطل التأويل.

فيقال له : الذي ذكرت أنه لم يرو وقد روى ، وجاء أن هذه الآية كما نزلت سألوا رسول الله ﷺ عن صلاتهم إلى بيت المقدس، ومعنى هذا أنهم سألوا: أهل عليهم اعادتها؟ وروى أنهم سألوا عن اخوانهم الذين قتلوا قبل تحويل القبلة . ومعنى هذا أنهم لما سألوا عن أنفسهم فأخبروا ان لا إعادة عليهم ، ظنوا أن سقوط الاعادة عنهم إنما هو لأنهم أدركوا القبلة الجديدة ، فلما صلوا إليها لم يتبعوا فيما صلوا قبلها إلى غيرها .

وأما اخوانهم الذين ماتوا من قبل فعسى أن تضيع صلواتهم فسألوا عنهم . وهذا كما روى : انه لما نزل تحريم الخمر ، قالوا : كيف فمن مات وهو يشربها ؟ فأنزل الله عز

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

وجل : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾[1] . وأخبروا أن الأحياء الذين شربوا قبل التحريم والذي سبق موتهم نزول التحريم سواء في سقوط التبعة عنهم في ذلك . فكذلك أخبروا بقوله : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾[2] ان الأحياء من المصلين إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة والأموات سواء ، في صلواتهم محتسبة .

وقد يجوز أن يكون السائلون عن هذا قوماً سوى فقهاء الصحابة ، فكان لا يحضرهم عند هذا السؤال ذكر قول الله عز وجل : ﴿ إني لا أضيع عمل عامل منكم ﴾[3] ولأن العمل إذا أدى بأمر الله وأمر رسوله ﷺ يبطل على عامله وان لحقه بعد ذلك نهي عنه وتبديل له . هذا وقد كان الزمان زمان الشرع ، وقد كان يمكن أن ينوبهم فقهاؤهم ان كانوا هم السائلين .

ان العمل إذا نسخ بطل ووجبت إعادته على منهاجه المستأنف دون ما مضى ، فإن هذا مما كان يجوز أن يشرع ثم كان يكون ، فنزل الله عز وجل : ﴿ إني لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ محمولاً على العمل إذا أسلم . وتكون إحدى شرائطه سلامته ، أن لا يلحقه نسخ ولا تبديل . وإذا كان هذا جائزاً ومتوهماً مظنوناً ، لم ينكر أن يصير سبباً للسؤال عن الصلوات المقدمة ، فجابوا عنها بما أجيبوا به ، ولم يجز أن يتسرع إلى إنكار رواية لا تعدلها في الشهرة والاستقاصة رواية ، وما خلا منها كتاب مفسر ولا أحد تكلم في معاني القرآن ، والله أعلم .

قال الرجل : تأويل الآية عندنا خرج على وجهين :

احدهما : أن تكون الصلاة مضمرة عند الايمان كأنه قال : وما كان الله ليضيع إيمانكم بالصلاة إلى بيت المقدس ، وإنما سألوا عن الصلاة نفسها . فدل ذلك على أنها في الايمان المذكور في الآية . ألا ترى انه لما نزل تحريم الخمر لم يسألوا عن إيمان من شربها مستحلاً لها ، وإنما سألوا عن الشرب نفسه .

ويقال له : ان كانت الصلاة سميت ايماناً لأنه سببها ، فهو سبب كل طاعة فليسم ايماناً ، وهذا مما ذكرنا من نقصه في بعض الأوقات على نفسه .

---

(١) المائدة : ٩٣ (٢) البقرة : ١٤٣ (٣) آل عمران : ١٩٥

قال الرجل : احتجوا بقول الله عز وجل : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾[1] قيل لهم : لا يصح هذا التأويل ، لأنه يوجب وصف الدين بالنقصان ، ولا يجوز أن يقال أن الدين غير كامل في وقت من الأوقات. لأنه يوجب أن يكون جميع من مات من المهاجرين والأنصار والذين شهدوا بدراً وبايعوا رسول الله ﷺ البيعتين جميعاً ، وبذلوا أنفسهم لله مع عظيم ما حل بهم من أنواع المحن . على دين ناقص ، وكذلك كان رسول الله ﷺ في ذلك ، وكان يدعو الناس إلى دين ناقص . ومعلوم أن النقص عيب دين الله فيتم . كما قال: ﴿ ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ﴾[2] ولو كانت الآية على ما توهموا من أن الدين كان غير كامل لقوله عز وجل : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ لوجب أن يكون قوله : ﴿ ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾[3] يدل على أنه كان لا يرضى به بعد ذلك .

فيقال له : لم قلت أن كل نقصان فهو عيب ؟ وما دليلك على هذا ؟ فانا لدعواك جاحدون . ثم يقال له : أرأيت نقصان الشهر ! هل يكون عيباً له ؟ ونقصان صلاة المسافر ، أهو عيب لها ؟ ونقصان العمر الذي أراده الله بقوله : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره ﴾[4] أهو عيب له بكل حال؟ ونقصان أيام الحيض عن المعهود، ونقصان أيام الحمل أهو عيب ؟ ونقصان المال بسرقة أو حريق أو غريق ، إذا لم يفتقر به صاحبه أهو عيب له ؟

فإذا كانت هذه الوجوه من النقصان وما يشبهها غير عيب ! فما أنكرت أن نقصان أجزاء الدين في زمان الشرع قبل أن يلحق بها الأجزاء الباقية في علم الله تعالى ليس بشين ولا عيب . ولا أنكرت أن معنى قول الله عز وجل : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ يخرج على وجهين :

احدهما أن يكون المراد بلغته أقصى الحد الذي كان له عندي فيما قضيته وقدرته ، وذلك لا يوجب أن يكون ما قبل ذلك ناقصاً نقصان عيب، لكنه يوصف بنقصان مقيد. فيقال له : انه كان ناقصاً عما كان عند الله ، انه ملحقه به وضامه إليه ، كالرجل يبلغه الله مائة سنة . فيقال : اكمل الله عمره ، ولا يجب عن ذلك أن يكون عمره حين كان من

---

(١) المائدة : ٣ .
(٢) الانعام : ١٦١
(٣) المائدة : ٣ .
(٤) فاطر : ١١

سنين ، كان ناقصاً نقص قصور وخلل . فإن النبي ﷺ قال : « من عمره الله ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر »[1] . ولكنه يجوز أن يوصف بنقصان مقيد ، فيقال : كان ناقصاً عما كان عند الله ، انه مبلغه إياه معمره إليه ، وقد بلغ الله ، فالظهر والعصر والعشاء أربع ركعات . فلو قيل عند ذلك أكملها لكان الكلام صحيحاً ، ولا يجب عن ذلك انها كانت – حين كانت ركعتين – ناقصة بعض قصور وخلل .

ولو قيل : كانت ناقصة عمل عبد الله انه ضامه إليها ، وزائدة عليها لكان ذلك صحيحاً ، فهذا هكذا في شرائع الاسلام ، وما كان شرع منها شيئاً فشيئاً إلى أن أنهى الله تعالى : ان الدين منتهاه الذي كان له عنده ، والله أعلم .

والوجه الآخر : انه أراد بقوله : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ انه وفقهم للحج الذي لم يكن بقي عليهم من أركان الدين غيره . فاستجمع لهم الدين أداء لأركانه ، وقياماً بفرائضه . فانه ﷺ يقول : « بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، واقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت »[2] .

وقد كانوا شهدوا وصلوا وزكوا وصاموا وجاهدوا واعتمروا ولم يكونوا حجوا ، فلما حجوا ذلك اليوم مع النبي ﷺ ، أنزل الله تعالى وهم بالموقف عشية عرفه : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾[3] فإنما أرادبه انه اكمل وضعه لهم ، وفي ذلك دلالة على أن أعمال البر كلها دين وإيمان وإسلام. ومن قال بالوجه الأول ذهب إلى أنه أكمل الدين وصفاً ، واحتج بما روى من أن هذه الآية لما نزلت استقرت الفرائض فما غير منها شيء إلى أن قبض رسول الله ﷺ ، وفي ذلك دليل على أن الطاعات كلها دين كما الاعتقاد والاقرار دين والله أعلم .

وأما قول الله عز وجل : ﴿ ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾[4] فإنما معناه ورضيت إسلامكم الذي أنتم عليه اليوم ديناً لكم إلى آخر الأبد . فلا أغير شيئاً منه ولا أزيد

---

(١) لم يرد الا في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ، ص ٣٢٠ ، ٤١٧ .

(٢) ورد في صحيح البخارى « كتاب الايمان » باب ١ ، ٢ . وفي صحيح مسلم « الايمان » حديث رقم ١٩ – ٢١

(٣و٤) المائدة : ٣

ولا أنقص ، فاما من قبل ذلك فانه كان يرضى شيئاً من دينهم لهم وقتاً ثم لا يرضاه لهم بل رضي خلافه فلما أكمل الدين أخبر أنه قد رضي لهم جميع ما هم عليه لهم ديناً فلا يغيره أبداً . فهذا معنى الآية وهو بعيد مما ظنه الرجل وبالله التوفيق .

قال الرجل : وعلى انه لا سبيل إلى إكمال الدين على مذهبهم ، لأن الدين عندهم اسم لا حد له من الخيرات ، ولا يقدر أحد على القيام بانفاقه ، فلا تمام للدين على هذا المذهب ويبطل امتنان الله على العباد باكمال الدين .

فيقال له : ان الخيرات لا حد لها من ناحية العباد وأفعالهم ، وإلا فشعب الايمان محدودة معلومة ، فما دخل في جملتها فايمان وجماعها جماع إيمان . وهذا كما ان الصلاة عبادة محدودة معلومة ، ولكن لا حد لما يفعله الناس منها ولا مقدارا . والمأكول والمشروب بين معلوم ، ولكن أكل الناس وشربهم لا حد لها ولا مقدار . فهكذا الإيمان محدود في حكم الله تعالى معلوم ، ولكن فعل العباد له عوداً على بدء لا حد لها ، وإنما وصف الله تعالى بالاكمال وضعه وشرعه لا أفعالهم والله أعلم .

قال الرجل : ويحتمل أن يكون معنى الآية ، أظهرت دينكم فقدرتم على إعلانه في كل موضع ، ويئس عدوكم من أين يتركون دينكم لقوله عز وجل : ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ﴾ [(١)] وكما قال : ﴿ والله متم نوره ﴾ [(٢)] ليس ان نوره كان غير تام حتى يتمه ، وإنما أراد إظهاره الخلق . ألا ترى أنه قال : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله ﴾ [(٣)] فلو كان نوره ناقصاً ، فدل انه كان تاماً .

فيقال له : ان الإظهار لا يسمى اكمالا ، وقد يكون الشيء كاملا غير ظاهر ، وظاهراً غير كامل . ولا يجوز مع هذا أن يكون بالإكمال في الآية الإظهار ، وأيضاً فإنه لم يقع يوم نزلت هذه الآية للدين اظهار لم يكن من قبل ، وعلى تأويلنا قد وقع له كمال لم يكن من قبل . فنحن إذا أجريناها على ظاهرها اعتدل لنا ظاهرها .

وأنت إذا تأولتها امتنع عليك ما ينحلها فسيان ما القولان . وأيضاً فكيف يجوز أن يكون المراد اظهـــار الدين الذي وعده بقوله عز وجل : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ [(٤)] .

---

(١) المائدة : ٣ (٢و٣) الصف : ٨ (٤) الصف : ٩

وقد كان ما بقي من مشارق الأرض ومغاربها غير مفتوح أكثر من المفتوح ، وفي ذلك مـا يبين ان المراد بالآية مــا قلنا وبه وردت الآثار فلا معك عنها إلى الهواجس التي تشبه الوساوس .

وأما قوله عز وجل : ﴿ والله متم نوره ﴾ فالمراد به دينه الذي هدى به عباده ، وإنما أتمه شيئاً فشيئاً ثم أكمله ، فقال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ ومن ظن أن الله عز وجل نوراً سوى هدايته فهو إلى الايمان أحوج منه إلى الكلام في الايمان .

ويقال له : أحسبت ان الدين في كل وقــت كان كاملا ، فما الذي منع من أن يكون الكمال درجات ، فيكون كامل أكمل من كامل . وقد قال الله عز وجل : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ [1] فقلت : هـذا كمال ، ووراءه ما هو أبلغ منه وهو ثلاثون شهراً . وقال النبي ﷺ : (من وقف بعرفه فقد تم حجه) [2] . وأجمعنا على أن وراءه تماماً آخر . فلم أحلت أن يكون للدين في الكمال متأول ، ثم يكون لها آخر إذا انتهى اليه قبل بالاطلاق ، وقد كمل الدين وبالله التوفيق .

قال الرجل : فإن احتجوا بقول الله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا ﴾ [3] . قيل لهم : ان المراد بالجهاد مجاهدة نفسه .

فيقال له : قد ثبت ان جهاد المسلم نفسه إيمانا ، وأنت لا تقول ذلك ، فسواء خالفت الآية بانكار أن يكون هذا الجهاد إيمانا ، وإنكار أن يكون جهاد المشركين إيمانا ، وعلى أنه قيل في الآية : ﴿ باموالهم وأنفسهم ﴾ [4] فصح ان المراد بها جهاد الكفار والله أعلم .

قال الرجل : وإن كان المراد جهاد الكفرة ، فالمراد هو القبول دون الفعل ، لأن الفعل لو كان شرط الايمان ، لكان سائر ما ذكر من صفات المؤمنين ، مثل قوله : ﴿ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ [5] ومثل قوله : ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾ [6] ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ [7] شرطاً في الايمان . فبطل أن يكون على وجه الأرض مؤمنـاً ، فسقط الخطاب الذي جاء المؤمنين . فثبت ان المراد هو القبول ، فيقال : ان الله عز وجل لما

---

(١) البقرة : ٢٣٣
(٢) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .
(٣و٤) الحجرات : ١٥
(٥) التوبة : ٧١
(٦) البلد : ١٧
(٧) العصر : ٣

قال : ﴿ وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله ﴾ [1] علمنـــا ان المراد هو الفعل لأن القبول لا يكون بالمال . فانه من فرائض الايمان .

ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ [2] أي المحققون قولهم بفعلهم ، والصدق لا يظهر في القبول وإنما يظهر الفعل ، والذي يقول ولا يفعل ليس بصادق . فبان ان الآية في الفعل ، وكل ما عداه من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر والتواصي بالصبر والمرحمة والحق فكله إيمان ، والقول فيه وفي الجهاد واحد من الفعله أن يتكلف الرجل هذه الفصول كلها لينفي ان تكون الطاعات إيماناً كما قلنا ، ثم يذهب عليه ان هذه الأمور كلها طاعات والقول فيها كالقول في غيرها . وما أشبهه أن يكون معجباً فيغفله اعجابه ، أو لم يجاوز في هذا الباب أحداً ، وإنما تكلم على ما وجده في بعض الكتب والله حسبه .

واما قوله : لو كان كذلك لم يكن على وجه الأرض مؤمن ، **فجوابه** : انه ان لم يكن على وجه الأرض من يستوفي شعب الايمان ، فلم يكن كذلك في الأرض مؤمن كامل الايمان ، لم يلزمنا لأجل ذلك أن ينقص من شعب الايمان . أو يقول : انها ليست شعب الايمان ، كما انه لو لم يكن في الأرض من يزيد على التوحيد شيئاً ويأبى الاقرار بالنبوة والرسالة والملائكة واليوم الآخر ، لم يلزمنا أن نقول : إن مجرد التوحيد إيمان ، لأنا ان لم نقل ذلك لم يكن في الأرض مؤمن . وأما بطلان الحساب الذي قصد به المؤمنون ، فلا يكون وإن لم يكن في الأرض كامل الايمان ، لأن المقدار الحاصل من الايمان الموجود من تعبدهم اسم المؤمنين ولا سيما إذا كان صريح الايمان فقد وجد منهم ، وإنما نقول ما يفوتهم من الامارات والفروع وبالله التوفيق .

قال الرجل : وكذلك الجواب لمن يحتج ، فمنهم بالخبر الذي روى عن رسول الله ﷺ انه قال : (الدين النصيحة ! فسئل: لمن ؟ فقال : لله ولرسوله ولجماعة المؤمنين قالوا : فما لله ؟ قال : التوحيد واتباع ما أمر . قالوا : وما لرسوله ؟ قال: طاعته فيما جاء به . قالوا وما لجماعة المؤمنين ؟ قال : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) [3] . فإن المراد بذلك

(١ و ٢) الحجرات : ١٥

(٣) ورد في صحيح البخاري « الايمان » باب ٢ ؛ ، وفي صحيح مسلم « الايمان » رقم ٩٥

كله التصديق والقبول دون الفعل لما تقدم ذكره من الدليل ، لأن الاعتقاد لو وجدولم يدرك من أوقات الفعل شيئاً كان مؤمناً .

فيقال له : ان هذه الأمور كلها مبنية على التوحيد . ومعلوم ان المراد به اقامته لا يقبله ، فكذلك ما بعده ذكر من اتباع أمر الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمراد به الفعل التقبل . وأيضاً فانه لا خير للمسلمين ولا فائدة في أن يتقبل بعضهم أمر بعض بالمعروف ، ونهيه عن المنكر ، ولا ذلك إلى التقبل يصح ، وإنما النصح فعل ذلك وإقامته ، فصح انه هو المراد بالحديث ، هو الفعل لا القبول وحده والله أعلـــم .

واما قوله : إن الاعتقاد لو وجد ولم يدرك من أوقـــات الفعل شيئاً لكان مؤمناً .
فجوابه : ان الاعتقاد لو وجد ولم يدرك من أوقـات الفعل شيئاً لم يكن فاسقاً بل كان عدلاً . أفيدل ذلك على أنه لو أدرك وقت الفعل المأمور به فلم يفعل كان عدلاً ولم يكن به فاسقا ؟ فإذا قال : لا ! قيل له : وكذلك إذا لم يدرك من وقت الفعل شيئـــا كان من غير الفعل الذي لم يدرك وقته مؤمنا ولا يدل ذلك على انه لو أدركه وهو مأمور به ففعله ، ثم لم يكن ذلك إيمانا منه ، ولم يكن به مؤمنا . فالقول في إيمانه عندي كالقول في عدالته عندك .
ويقال له : الايمان فعل الطاعة المأمور بها ومن لا يدرك وقت الطاعة فهو غير مأمور بها ، فان فاته فعلها فلم يفته إيمان ، وإذا أمر بها وأدرك وقتها ، فان فعلها كانت منه إيمانا وإن لم يفعلها فسق ، وكان ذلك جرحا لايمانه ، فانما المعول على الأمـــر ، والأمر الا على مجرد الفعل ، ولا فعل ، والله أعلم .

القسم الثالث

باب الاستثناء في الايمـــان

روى عن قوم من السلف انهم كانوا إذا سئلوا عن إيمانهم يقول : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ولا يقول : أنا مؤمن . وروى عن آخرين انهم كانوا يقطعون بانهم :قد آمنوا . وذهب قوم من المتأخرين إلى أن يستثنوا ، فيقول أحدهم : أنا مؤمن ان شاء الله، وإذا سئل عن معنى استثنائه قال : لا شك في اني آمنت ، ولكن لا أدري ما الذي يختم به لي ، فإذا كان في علم الله اني أفارق الدنيا متمسكا بما أنا عليه الآن ، فله الحمد ، وإن لم يكن للاخرى فان الايمان الذي أنا عليه الآن يحبط ويصير كان لم يكن فإنما استثني ، فاني لا أعلم أيسلم إيماني أو لا يسلم ، فأما اعتقاد الحق والاعتراف به فلست أشك في أنهما قد كانا مني ، واني متمسك به الآن .

ومنهم من يقول : لا أريد بالاستثناء حالتي التي أنا فيها ، وإنما أريد المستقبل.فأقول أنا مؤمن في المستقبل إن شاء الله كما اني الآن مؤمن حقا ، وكنت بالامس حقا بلا شك ولا ارتياب .

وهذا الكلام وإن كان ذا وجه يوجه فليس جوابا لمن يسأل . فيقال له : هل أنت مؤمن ، لأن هذا السؤال يقع على الحال ، وإذا لم يجب عنها شيء ،فافرد بالخبرعنه المستقبل لم يكن مجيبا ، وكان مبدأ كلام من غير ما وقع السؤال عنه . فأما من روى عنه ان كان يرى أن يقول : أنا مؤمن ، فاولهم وصدرهم عبد الله بن مسعود

روى ابراهيم بن علقمة قال كنا مع عبد الله بن سعد فلقينا قومـا فسلموا . فقلنا : من القوم ؟ قالوا : نحن المؤمنون ! قال : فلم نجبهم شيئا ولم ندر ما نرد عليهم ، حتى لقينا عبد الله ، فأخبرناه بما قالوا ، فقال : ما رددتم عليهم ؟ فقلنا : لم نرد عليهم شيئا . قال : قولاً ، قلتم أمن أهل الجنة أنتم ؟ إن المؤمنين من أهل الجنة .

وقال أبو وائل كان عبد الله يقول : من شهد انه مؤمن ، فليشهد انه في الجنة .

وقال علقمة : قال رجل عند عبد الله اني مؤمن ! فقال عبد الله : قل اني في الجنـة ، كلنا يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله .

وعن الحسن أن رجلاً قال عند ابن مسعود : اني مؤمن ! فقال : ما تقول ؟ فقالوا : يا أبا عبد الرحمن يقول اني مؤمن . قال : فسلوه أفي الجنة هو ؟ فسألوه فقـــال : الله أعلم . فقال : هلا وكلت الأولى إلى الله كما وكلت الآخرة .

وعن إبراهيم [١] قال : قال رجل لعلقمة : ألست مؤمناً ؟ قال : أرجو إن شاء الله . وعن ابراهيم : إذا سئلت ، أمؤمن أنت ؟ فقل : أرجو أو عن محل. قال : ذكرنا لإبراهيم ناساً كانوا يأتونا فيؤذوننا فيقولون : أمؤمن أنت ؟ قال : فإن أتاكم منهم أحد فقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب .

وأما من قطع القول بأنه مؤمن ولم يستثن ، فمنهم عبد الله بن عمر . روى أنـه أخرج شاة ليذبحها ، فقال له رجل : اذبحها ، فرآه سيء الهيأة ، فقال له : أمسلم أنت ؟ فقال : إن شاء الله . فقال ابن عمر : ما أنت بذابح لنا اليوم شيئاً .

وروى عمر بن در أنه قال : لعطاء بن أبي رباح : ان بعصرنا قومـاً شكاكاً يقولون : لا ندري أمؤمنون نحن أولا ؟ فقال عطاء : سموا أنفسكم مؤمنين ، ولا تقولوا نحن من أهـل الجنة . فإنه ليس أحد يلقى الله إلا وله الحجة عليه نبي أو ملك، أما نبي فقد أذنب ذنباً، أو ملك أنعم الله عليه بالطاعة فلم يبلغ شكرها .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي : إذا سئلت ، أمؤمن أنت، فلا تقل إن شاء الله. وروى أهل هذا القول عن النبي ﷺ : (أقروا بالايمان ، وسموا أنفسكم مؤمنين، والذي نفسي بيده ، كما لا يخرج العبد المشرك العمل الصالح من كفر به ، كذلك لا يخرج الذنوب العبد المؤمن من ايمانه) [٢] .

وقد ذهب ذاهب إلى أنه يجوز أن يقول المؤمن : أنا مؤمن عند الله ، ولا يجوز أن يقول : إني مؤمن في علم الله ، واعتل بأن (عند) تتغير ، والعلم لا يتغير وسئل عن الفرق بين (عند) و (علم) [٣] من قبل التفسير ، قبـــل أن يفرق بينهما في الحكم ، فانا لا نعلم

---

(١) ويقصد ابراهيم بن علقمة . (٢) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

(٣) أ : وسئل عن الفرق بين عند علم من قبل التفسير .

لقول القائل : عندي أن فلان ابن فلان معي ، الا ان الذي أعلمه من نسبته انه ابن فلان . ولا يقول القائل :عندي أن هذا حلال إلا أن الذي أعلمه من حكمه أنه حلال . ولايقول القائل : عندي أن هذا الجاني زيد ، إلا أن الذي أعلمه منه أنه زيد ، وكل ما يليق به علم وعند ، فمعنى احدهما فيه معنى للآخر .

ثم قال له : ما تريد بقولك عند تتغير ! فإن ذلك أريد به أنه يجوز أن يكون زيد عنده اليوم مؤمناً ، اما بعلمه مؤمناً فلا بد من نعم . فيقال له : ما الفرق بين علم وعند ؟ ويقال له: ان كان العلم لا يتغير ، فعند لا تتغير ! فإن قال : كيف لا يتغير ويكون الشيء عنده على وجه ، وهو بعينه في وجه آخر عنده على غير ذلك الوجه . قيل: فكذلك يعلم الشيء وقتاً على صفه ، ويعلمه في وقت آخر على خلاف تلك الصفة . فان قال : علمه لا يتغير ، وإنما يغير المعلوم قبل ، فقل إن عندكم تتغير وإنما تغير ما عنده وليس بينهما فرق .

فصل

والعدل بين هذه المذاهب أن المؤمن لا ينبغي له أن يمتنع من تسمية نفسه مؤمناً في الحال ، لأجل ما يخشاه من سوء العاقبة نعوذ بالله منه . لأن ذلك وإن وقع وحبط ما تقدم من إيمانه ، فليس ينقلب الموجود منه معدوماً من أصله ، وإنما يحبط آخره ويبطل ثوابه . وذلك الذي لا يحبط لا يخلو من أن يكون قبل أن يحبط موجوداً لفقد كان مؤمناً إذا قبل أن يزيد ، وإن حبط بالرقة إيمانه فلا معنى لاستثنائه ، ولو كان سوء العاقبة وما يخش منه معتبراً في هذا الباب لم يعلم أحد من من الذي خاطبهم الله تعالى باسم الإيمان ، فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾[1] و ﴿ يا أيها المؤمنون ﴾ أو يخبر عنهم فيقول : ﴿ إن المؤمنون والمؤمنات ﴾ أو ﴿ إن الذين آمنوا ﴾[2] ولم يوقف على أنه مراد بخطابه لدحره، لأن كل واحد منها إذا كان معلقاً باسم الايمان ، وكان إسم الإيمان بين أن يثبت أو يزول مما دام إمكان الأمرين فيه قائماً فلا سبيل إلى القطع بواحد منها .

---

(١) البقرة : ١٥٣ (٢) البقرة : ٦٢ .

وفي تعذر إزالة الحكم أو الخبر المعلق به عن كل فرد من أفراد المؤمنين ، فوجب أن يكون القول في الكافر كالقول في المؤمن ، ففي هذا إبطال خطاب الله تعالى من أصله ، لأنه : اما للمؤمنين واما للكافرين . فاذا لم يكن أن يعرف المؤمن ولا الكافر لأن المؤمن يعرض أن يكفر فيحبط ما مضى من إيمانه ، ويتبين انه لم يكن مؤمناً إذ قد حبط إيمانه من أصله . والكافر يعرض أن يؤمن فيحبط ما مضى من كفره ، ويتبين أنه لم يكن كافراً ، إذ قد حبط كفره من أصله ، فليس في الدنيا مؤمن يعرف بعينه ، ولا كافر يعرف بعينه ، وتعطيل خطاب الله تعالى بواحده ، وما أدى إلى هذا فبين أنه فاسد لأجل القول به .

ويقال لقائل هذا القول : أرأيت من سئل فقيل له : إنسان أنت ، هل يجوز أن يقول : لا ؟ لأنه يستيقن أنه صائر تراباً ، والتراب لا يكون إنساناً ! فإن كان المؤمن لا ينبغي أن يسمي نفسه مؤمناً بالإطلاق لأنه يشك في عاقبة أمره ، ويخشى أن يصير فيها إلى غير الإيمان ، فالإنسان الذي يستيقن أنه صائر تراباً أولى أن لا يطلق إسم الانسان عليه.

فان قال : انه وإن صار غداً تراباً ، فلا يخلو اليوم من أن يكون إنسانا .

قيل : والمؤمن إن صار غداً كافراً فلا يخلو اليوم من أن يكون إنسانا، **قيل**: والمؤمن إن صار غداً كافراً فلا يخلو اليوم من أن يكون مؤمناً ، ولولا أنه مؤمن اليوم ما أمكن أن يزيد عنه إذا كان مؤمناً أصلياً ، فكيف يزيد عنه وهو ليس فيه ؟ فثبت إذا أنه مؤمن في الحال .

فان قال : إن ذلك الإيمان يحبط إذا ردفه الكفر ، **قيل** : ينبغي إذا كان الرجل مؤمناً أصلياً ان لا تثبت ردته ، لأن كل ما أدى إثباته إلى ابطاله فإنه لا يثبت ، ويعلم أن ردته ، إذا ثبت وقيل أنها أحبطت الإيمان من أصله ، فوجب إذا أنزل انه لم يكن مؤمناً قط ، ان لا يثبت منه الإنتقال عن الإنسان إلى الكفر وإذا لم يثبت هذا ، فالردة إذا لم تكن ، وفي إجماع المسلمين على ثبوت الإيمان قبله . فبان بهذا أن الكفر إذا طرأ على الإنسان قطعه من حين وجد ، إلا أن ما مضى يحبط آخره لا ان عنه يحبط فيصير كأن لم يكن ، وينقلب الموجود منه بالحقيقة معدوماً ، وإذا كان كذلك لم يصح الإستثناء

حذراً من سوء العاقبة . فإن الردة وإن عرضت لم تخرج المرتد إن كان مؤمناً حين سئل عن دينه فقال : إني مؤمن ، والله أعلم .

فأما من أنكر من السلف إطلاق إسم الايمان ، فالموضع الذي يليق به ما قال : ان يقول : أنا مؤمن وأعيش مؤمناً وأموت مؤمناً أو ألقى ربي مؤمناً ولا يستثنى. وكذلك قال عبد الله ، ويقال له : أفي الجنة أنت ؟ لأن من مات مؤمناً كان في الجنة ، وليس كل من كان مؤمناً ساعة من عمره أو يوماً أو سنة كان في الجنة . فعلمنا أن عبد الله إذا قال هذا لمن اتكل على ان لم يجد في قلبه إلا حب الإيمان والركون إليه ، والنبو عن الكفر والبغض له ، فقطع لذلك أنه مؤمن مطلق في عامة أحواله وأوقاته ، فلا يعيش إلا مؤمناً ولا يموت إلا مؤمناً ولم يكل أمره إلى الله تعالى بذاك .

وأما قول المؤمن : أنا الآن مؤمن ، فليس مما ينكر ، وهو نظير قوله ان كان قائماً : أنا قائم ، وإن كان قاعداً أنا قاعد . وليس هذا بالذي ينكر ، بل هو الذي لا يجوزغيره والله أعلم .

وأما الذي يصح من هذا ومن الاستثناء فهو أن يكون الخير في المستقبل خاصة فيكون [١] المؤمن أرجو أن يمن الله علي بالتثبت ولا يستثنى هدايته بعد إيمانه . وحديث علقمة وإبراهيم موضوع في هذا الموضع . والإستثناء موضع آخر يصح فيه ويحسن وهو أن يرد على كمال الإيمان لا على أصله [٢] وأشد ، كما نفى أن رجلاً سأل قتادة : أمؤمن أنت! يقال : آمنا ، أنا مؤمن بالله وبكتبه ورسله والبعث بعد الموت وبالقدر خيره وشره من الله .

وأما الصفة التي قال الله عز وجل : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ [٣] . فلا أدرى أنا منهم أم لا ! فقد أبان قتادة أنه قد آمن الايمان الذي يبعده عن الكفر ، ولكنه لا يدري استكمل الأوصاف التي حكى الله تعالى قوماً من المؤمنين ،

---

(١) هكذا وردت في الاصل والارجح انها فيقول المؤمن .

(٢) وردت في الاصل (اهله) (٣) الانفال : ٢ — ٤

فأوجب لهم بها المغفرة والدرجات،فكان ذلك تشكيكاً منه في الاستكمال الذي يوجب الدرجات لا في مجانبة الكفر الذي سقط عنه العذاب .

فمن وضع الاستثناء في أحد هذين الموضعين فليس من الشكاك ولا يصير منهم بأن تسمية غيره شاكاً أو يلعن الشكاك وإنما يكون كما قال النبي ﷺ في قريش : « أنظروا كيف يدفع الله عني ، سموني مذمماً وأنا محمد »[٢] .

كذلك يدفع الله بلطفه عن هؤلاء المستثنين بأن يسب غيرهم الشكاك ويلعن الشكاك، وإنما هؤلاء موقنون[٣] وما أرى أنه تنازعا في المقالة التي لحظناها منازع أو يخالفنا فيها مخالف والله أعلم .

★ ★ ★

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب القسمة .

(٢) أ : مؤمنون .

القسم الرابع

باب في ألفاظ الإيمان

قال الله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ فإن حاجوك فقل : أسلمت وجهي لله ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ (٣) .

وقال . ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال : أسلمت لرب العالمين ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ يا قوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » (٦) .

وقال النبي ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » ، فكان القول الذي قبله الله تعالى من الكفار إذا أسلموا أو استفاض وانتشر فصار علم الايمان ، وأشركت العامة والخاصة في معرفة قول : ﴿ لا إله إلا الله ﴾ .

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : « إن لله تسعة وتسعين إسماً من أحصاها دخل

---

(١) البقرة : ١٣٦ . (٢) غافر : ٨٤ ، ٨٥ (٣) آل عمران : ٢٠

(٤) الزخرف : ٢٦ — ٢٨ ، والشورى : ١٥ . (٥) البقرة : ١٣١

(٦) الانعام : ٧٩

الجنة »[1] . ولا أعلم من أهل الفتيا خلافاً في أن الايمان قد ينعقد بغير القول المعروف فدل ذلك على أن معنى قول رسول الله ﷺ « حتى يقولوا لا إله إلا الله » أي يقولوها وما يؤدي معناها ، ودل[2] الكتاب على ذلك أيضاً لأن الله عز وجل أخبر أن إبراهيم صلوات الله عليه قال لأبيه وقومه : ﴿ إني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني ﴾ ثم قال : ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ وليست هذه الكلمة بعينها موجودة في عقبه إنما الموجود فيهم قول : « لا إله إلا الله » فثبت أنه لا فرق بين هذا القول وبين ما يؤدي معناه والله أعلم .

التفريع إذا قال الكافر : آمنت بالله ولم يكن يدين من قبل دينا صار مؤمناً بالله ، وان كان ممن يشرك بالله غيره لم يكن بهذا القول مؤمناً حتى يقول : آمنت بالله وحده وكفرت بما أشرك به .

قال الله عز وجل: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين، فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ﴾[3] فأخبر أن ذلك إيمان منهم ، الا أنهم لم ينفعهم لأجل الحال والوقت . فدل ذلك على أنهم لو قالوه في غير ذلك الوقت أو في غير تلك الحالة لكان مقبولاً منهم، وكان أنزل لا إله إلا الله وإن كان كفره من قبل جحده نبوءة نبينا ﷺ فقال :

« آمنت بالنبي محمد ومحمد النبي » ، كان ذلك كقوله محمد رسول الله كما يكونقوله: « آمنت بالله ، كقوله : الله ربي ، وان قال أسلمت لرب العالمين ، ولأن الله عز وجل قال : ﴿ ان الدين عند الله الاسلام ﴾[4] فمن قال : أسلمت لله ، فقد دخل في الاسلام ، الذي هو الدين عند الله تعالى وتقبله . فإن قال : أسلمت وجهي لله ، فهو كقوله : أسلمت لله .

قال الله عز وجل لنبيه صلوات الله عليه : ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله﴾[5] . وقال : ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ﴾[6]

---

(١) ورد في صحيح البخاري « الايمان » باب ١٧ ، ٢٨ . وفي صحيح مسلم « كتاب الايمان » حديث رقم ٣٢ ، ٣٦

(٢) وردت في الاصل (وكذلك) وهذا خطأ . (٣) غافر : ٨٤ ، ٨٥

(٤) آل عمران : ١٩ (٥و٦) آل عمران : ٢٠

وظاهر هذا انهم لما قالوا : أسلمنا لله ، أو ، أسلمنا وجوهنا لله لكانوا مسلمين ويحتمل ان الكافر اذا قيل له : أسلم لله ، أو آمن بالله ، فقال : أسلمت أو آمنت ، كان مؤمناً، وكان ذلك جواباً صحيحاً ، وهذا ظاهر الآية .

وإن قال : أو من بالله ، أو قال : أسلم لله ، بهذا ابان ، كما ان قول الرجل: أقسم بالله يمين ، ولا يحمل على الوعد أن يريده ، فان ادعى انه أراده ، كان القول قوله .فإذا قال الكافر : الله ربي ؛ أو قال : الله خالقي ، فان كان من قبل لا يدين دينا فهذا منه إيمان وان كان من الذين يقولون بقدم أشياء مع الله – تعالى عما يقولون علوا كثيراً – لم يكن مؤمنا حتى يقول : لا قديم إلا الله ، وإن قال من فكر : بان لا خالق إلا الله ، لم يكن مؤمنا . لأنهم يقولون : الله خالق ما خلق لكن من أصل قديم .

فإذا قال اليهود المشبه ، ويقول : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [1] ، وإن قال مع ذلك محمد رسول الله ، فان كان يعلم أن محمداً ﷺ جاء بابطال التشبيه كان مؤمنا ، وإن كان لا يعلم ذلك لم يكن إيمانه بالله حتى يتبرأ من التشبيه ، وكذلك الذين يقولون بقدم أشياء مع الله جل ثناؤه ، وإن علم أن محمداً ﷺ جاء بابطال ذلك فقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، كان ذلك إيمانا منه ، وإن كان لا يعلم ذلك ، لم يكن مؤمنا بالله ، نازعا عن كفره به حتى يعترف بأنه لا قديم الا الله .

وإن قال النصراني لا إله إلا الله وكان يعتقد من قبل ان عيسى هو الله لم يكن هذا منه إيماناً بالله عز وجل ، وهكذا ان كان يعتقد ان عيسى ابن الله حتى يتبرأ من دينه الأول ، فان قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فهو يعلم أن محمدا ﷺ جاء بأن الله لم يلد ولم يولد ، وان عيسى عبد الله ورسوله كان إيمانا تاما صحيحا ، وإن كان لا يعلم ذلك لم يكن نازعا عن كفره حتى يتبرأ من قوله .

فان قال قائل : إذا كان من يدخل في الإسلام لا يحتاج في صحة إيمانه محمد ﷺ إلى أن يعلم ما الذي جاء به من الشرائع ، فلم احتاج إلى أن يعلم انه جاء بابطال التشبيه ، وبأن لا شيء دون الله قديما حتى يصح إيمانه به !

قيل : الشرائع لا طريق إلى معرفتها إلا السمع وهو يعرض التبديل . فمن صدق بنبوة

---

(١) الشورى : ١١

نبي فقد الزم أن يقبل شرائعه عنه ، وأما توحيد الله تعالى جده وتنزيهه عن الأشياء فليس ادراكه مختصا بالسمع،ولكنه مما يدل بالعقول ، وما ثبت من ذلك فليس بممكن أن يتبدل ويتغير . فمن اعتقد ان شيئا سوى الله قديم وان الله تعالى يشبه شيئا من خلقه فانما زل عن المعقول ، ونحل العقل مالا جواز له فيه ، واعتقد أنه لا يمكن أن يكون الحق غيره. ومن كان بهذه الصفة فأي شيء من الأشياء فانما يؤمن به على أن يقبل عنه مـــا لا يعرف إلا بالسمع ، وما يمكن أن يكون قد يدل على لسانه من شريعة غيره ، ولا يظن به انه يـأتي بخلاف ما هو المعقول عنده ، فدخل في جملة إيمانه به تقبل شرائعه ولم يدخل فيهـا نفي التشبيه وابطال أن يكون قديم سوى الله إلا أن يكون علم انه اتى بهما ، فاتبعه على ذلك وآمن به والله أعلم .

كذلك النصراني إذا كان يزعم أن عيسى أخبرهم انه اله ، أو ابن اله وابن الاله ، فهو يرى ان هذا لا يتبدل ولا يجوز أن يصح خبر بخلافه ، فلم يكن ذلك كالشرائع التي تعلم انها تعرض التبديل ، ولم يصح إيمانه بنبينا محمد ﷺ حتى نعلم انه جاء : بأن عيسى عبد الله وان الله لم يلد لم يولد ، وان عيسى لم يكن يحيي الموتى ، ولا يبرىء ذوي العاهات ، ولا يجعل الطين بنفخة طائراً ، وإنما كان يفعل ذلك كله ربه الذي خلقه ، ويتبعه على ذلك ويؤمن به فيكون بذلك راجعاً عن مقالته والله أعلم .

وإذ قال الثنوى [1] : (لا إله إلا الله) لم يكن مؤمناً حتى يتبرأ بقدم النور والظلمة ، وإن قال : لا قديم إلا الله كان مؤمناً .

وإذا قال الوثني : (لا إله إلا الله) ، فان كان من قبل يثبت الباري جل جلاله ويزعم ان الوثن شريكه صار مؤمناً . وإن كان يرى ان الله هو الخالق ، ويعظم الوثن يتقرب اليه ، كما حكى الله عز وجل عن بعضهم انهم قالوا : ﴿ ما نعبــدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[2]. فلم يكن مؤمناً حتى يتبرأ من عبادة الوثن .

وإن كان يهودي يقـول : (لا إله إلا الله) ، إلا انه يشبهه بخلقه ، فتبرأ من التشبيه فقال : ليس كمثله شيء ، صحت بذلك كلمته ، وانما يبقى أن يؤمن بمحمد وعيسى صلوات

---

(١) نسبة الى التنويه : التي تزعم ان النور والظلمة ازليان قديمان بخلاف المجوس الذين قالوا بحـدوث الظلام – الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ١ ص ٢٤٤

(٢) الزمر : ٣

الله عليهما . فان الله عز وجل لا يقبل الايمان ممن آمن به حتى يؤمن برسله ولا يفرق بين أحد منهم، فان فعل تم إيمانه ، وهكذا ان كان نصراني يقول : لا اله إلا الله غير انه يزعم : ان عيسى ابن الله فتبرأ من قوله ، وقال : المسيح عبد الله ورسوله صحت بذلك كلمته ، وإنما ينبغي ان يؤمن بمحمد ﷺ ، فان فعل تم إيمانه .

وإن كان نصراني يقول : لا إله إلا الله ، ويزعم مع ذلك ان عيسى هو الله ، ثم يرجع وقال : عيسى خلق الله وليس هو الله صحت بذلك كلمته ، فان آمن يتبع ذلك نبينا صلوات الله عليه ، كمل إيمانه .

وإذا قال أحد البراهمة الذين يؤمنون بالله ويوحدونه ، ولا كفر منهم إلا جحد الرسول محمد رسول الله ، صار مؤمناً لأن كفره لم يكن إلا جحد النبوة ، فإذا قبلها زال الكفر . ولو قال : إبراهيم رسول الله أو أقر بذلك النبي قبل محمد ﷺ لم يكن مؤمناً لأن إقراره بنبوة من قبله اقرار بنبوة بعض الأنبياء ، وإقراره بنبوة جميع الأنبياء لأنه صدقهم وشهد لهم .

وإذا قال اليهودي الذي لا يشبه أو النصراني الذي يقر بأن عيسى عبد الله ورسوله محمد ﷺ ، فان كان من الذين يزعمون ان محمداً رسول الله ، ولكن إلى العرب خاصة ، أو انه لم يبعث ، لم يكن مؤمناً حتى يتبرأ من قوله الذي هو ضلالة و كفر، وإن كان يرى من قبل ان محمداً ليس برسول ولا نبي بعد موسى أو عيسى صار بما أقر به مؤمناً . وإن قال الكافر: محمد رسول الله، ولا اله إلا الله، أو محمد رسول الله الذى لا إله غيره أو إلا هو ، كان هذا كله كفر . لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وإن قال المعطل : محمد رسول الله ، فقد قيل : يكون مؤمناً لأنه أثبت الرسول والرسل معاً ، وليس في انه ينفي بلفظه أن يكون لله شريك ما يفسد إيمانه لأن كفره انما كان من قبل التعطيل لا من قبل التشريك . وإذا قال الكافر لا اله الا الذي آمنت به المسلمون كان حراً مؤمناً ، أخبر الله تعالى عن فرعون انه لما ادركه الغرق قال: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾[1] فرد ايمانه لأجل الحال . وقيل له : الآن يدل ذلك على انه لو قال في غير تلك الحالة لقبل منه .

---

(١) يونس : ٩٠

أو قال الكافر آمنت بالذي لا إله غيره لم يكن مؤمناً لأنا لا ندري من يريد ولعله يريد عظيم قومه أو الوثن حتى يقول آمنت بالله الذي لا إله غيره فان قال : آمنت بالله وبمحمد لم يكن مؤمناً بمحمد وكان مؤمناً بالله لأنه أثبت الاله بهذا القول واثباته اياه إيمان به ، وقد أثبت محمداً أيضاً الا ان اثباته إياه في نفسه ، ليس باثباته نبياً ، فلا يؤمن به حتى يقول : آمنت بمحمد رسول الله ، ولو قال آمنت بمحمد الرسول لم يكن ذلك لقوله آمنت بمحمد النبي ، لأن النبي لا يكون الا لله والرسول قد يكون لغير الله .

واذا قال الكافر لا اله الا المحيي المميت ، فإن لم يكن من القائلين بالطبائع كان مؤمناً ، وإن كان منهم لم يكن مؤمنا لأنهم ينسبون الحياة والموت الى الطبيعة حتى يقول لا اله الا الله أو الباري ، أو يأتي بلفظ لا اشكال فيه ولا شبهة .

وإن قال يهودي : لا إله الا الله لم أجعله بهذا مؤمنا لأني لا آمن أن يكون افاد ملك قومه ، وقد قال فرعون : ﴿ يا أيها الملأ أعلمت لكم من اله غيري ﴾ [1] وقد كان ملكهم . وهكذا ان قال لا اله الا الرازق أو الرزاق ، لأنه قد يريد بذلك ملك الجند الذي يقيم لهم العطايا ، ولو قال لا ملك الا الله أو لا رازق الا الله جعلته مؤمنا ، لأنه ان كان أراد ملك قومه فانما نفي عنه الملك فأضافها الى الله عز وجل وهو في ذلك محق .

وعلى هذا قول القائل : لا اله الا الله العزيز ، وقوله : لا عزيز الا الله . ولا اله الا العظيم ، ولا عظيم الا الله . ولا اله الا الحليم ولا حليم الا الله . ولا اله الا الكريم ولا كريم الا الله . واذا قال : لا اله الا الملك الذي في السماء أو الا ملك السماء ، كان مؤمناً .

وقد قال الله عز وجل : ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ [2] وهو يريد نفسه وليس ذلك على انه محصور فيها ، لكن بمعنى ان أمره ونهيه انما جاء من قبل السماء ، وان قال : لا خالق الا الله ، كان مؤمناً ، وقد تقدم القول فيه . فان قال : لا اله الا الخالق ، فهو كذلك ، لأن من أثبت مع الله أصلا قديماً للموجودات ، لم يقل : ان ذلك الأصل اله ، ويزعم ان الله خلق ما خلق من ذلك الأصل ، ولا يكون قوله : لا اله الا الخالق توحيداً ، حتى يعترف بأن لا قديم سوى الله .

وان قال الكافر : لا اله الا الرحمن أو لا رحمن الا الله ، أو لا إله إلا الباري ، أو لا باري الا

---

(١) القصص : ٣٨ (٢) الملك : ١٦

الله ، كان هذا كقوله : لا إله الا الله . وان قال : لا إله الا بديع السموات والارض أو الا خالق السموات والأرض أو الا فاطر السموات والأرض ، فهذا مثل ان يقول لا اله الا الخالق ، وقد تقدم القول فيه .

وان قال : لا رحيم الا الله أولا جبار الا الله ، كان هذا مثل ان يقول : لا إله الا الله .

وان قال الدهري : لا إله الا الرحيم ، ولا إله الا الجبار ، لم يكن مؤمناً لأنه يمكن أن يكون اراد ملكهم الذي يرحمهم بالإحسان إليهم ، أو يجبر أحوالهم ، أو يجبرهم على ما يريده منهم .

واذا قال الكافر : لا إله الا ساكن السماء ، لم يكن مؤمنا ، لأن سكان السماء هم الملائكة وان قال : لا اله الا الله ساكن السماء كان هذا زيادة كفر منه ، لأن السكن غير جائز على الله تعالى واحتظار الأمكنة ليس من صفاته ، وان قال : لا اله ما خلا الله أو لا اله سوى الله ، أو لا اله غير الله ، أو لا اله ما عدا الله ، أو لا اله حاش الله ، فهذا كله بمنزلة أن يقول : لا اله الا الله ، وهكذا ان قال : من اله الا الله ، أو ما في اله الا اله واحد .

وان قال : لا اله الا الله ، أو لا اله الا الله فهما سواء . وان قال : لا اله الا صاحب العرش ، أو لا اله الا رب العرش . فان كان من قبل دهريا معطلاً لم يكن مؤمنا ، لأني لا آمن ان يريد بذلك ملك قومه ، ويريد بالعرش سرير ملكه ، وقد قيل : البلقيس ولها عرش عظيم .

وقال سليمان صلوات الله عليه : ﴿ أيكم يأتيني بعرشها ﴾ [1] ، واذا قال رجل من معطلة الفلاسفة أو نظارهم : أشهد أن الباري علة الموجودات أو سبب الموجودات أو مبدأ الموجودات لم يكن ذلك ايمانا حتى يعترف بأنه مخترع كل ما سواه من الاشياء مبدعه ومحدثه بعد ان لم يكن .

وان قال الكافر : آمنت بالله ان شاء ، لم يكن مؤمنا ، لأن مثل هذا انما يحمل على معنى ان قال شئت ، ألا ترى ان رجلا لو قال لامرأته : أنت طالق ان شئت ، لم يقع الطلاق حتى تقول : شئت . ومن قال : ان مشيئة الله تعالى للاشياء قديمة ، فان هذا الكلام فاسد ، لأنه تعليق الايمان بشرط مشيئة يحدثها الله ، ويستحيل على مشيئة الله

---

(١) النمل : ٣٨

تعالى أن تحدث ، كما يستحيل على علمه أن يحدث . وإن قال : ان كان الله شائيا ايماني به فقد آمنت ، لم يكن مؤمنا ، لأن نفس الشرط تشكيل في المشترط اذا كـــان سبيل معرفته ، فأوقع ذلك شكا في الايمان المعلق به ، والشاك في الايمان لا ايمان له . هذا جواب ينبغي أن لا يختلف فيه .

واذا قال الكافر : لا اله الا الله، أحمد رسول الله، فذلك وقوله محمد رسول الله سواء، قال الله عز وجل: ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾[1] وتأويل اللفظية واحد . لأن أحمد هو الاحق بالحمد ، ومحمد هو البليغ فيما يحمد ، وانما يكون الاحق بالحمد البليغ فيما يحمد ، والبليغ في الحمد أحق بالحمد من المقصر فيه ، فلا فرق بين أحمد ومحمد ، وان قال : أبو القاسم رسول الله فكذلك والله أعلم .

فصـــل

وإذا قال اليهودي : أنا بريء من اليهودية ، أو قال النصراني: أنا بريء من النصرانية وحدها ، حتى إذا تبرأ منهما صار داخلاً في الاسلام ، ولكن له أضداد كثيرة فكل ملة تخالفه فهي له ضد . والتعطيل إبتداء الأضداد ، فلو تبرأ من كل ملة تخالف الاسلام كفر التعطيل الذي هو ضد وليس بملة ، ولم يمكن أن يجعل مؤمناً حتى يتبرأ منه ، فان قال: أنا بريء من كل ما يخالف دين الاسلام من دين ورأي وهوى ، كان مسلماً لأنه لم يمكن تبرئته من عامة ما يخالف الاسلام الآن بأن يجعل مسلماً ، فانه لا يمكن أن يجعل مسلماً ، فانه لا يمكن أن لا يجعل مسلماً ولا مخالفاً للإسلام .

فإن قال : الإسلام حق ، لم يكن مسلماً فإنه لا يمكن أن لا يجعل مسلماً ولا مخالفـــاً للإسلام . فان قال : الإسلام حق لم يكن مسلماً لأن الإقرار بالحق غير إعظامه ، وقـــد تقلقامه من يحبسه ولا يرقبه ويؤخذ في هذا وفي قوله « أنا بريء من اليهودية أو النصرانية » بأن يسلم ، فإن أسلم وإلا قتل ، وإن كان كافراً : أسلمت أو آمنت ولم يزد على هذا لم يكن مسلماً ولا مؤمناً كرجل يقول : خلقت أو أقسمت فلا يكون خالياً ، فإن قيـــل

---

(١) الصف : ٦

لملي : أسلم ! فقال : أنا مسلم ، لم يكن بهذا إقرار بالإسلام ، لأنه يسمي دينه الذي هو فيه إسلاماً ، ولم يزل الاسلام إسماً للمثبت الموحد .

قال الله عز وجل: ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت،إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ [1] .

وقال : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾ [2] .

وقال : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ [3] أن يكونوا . والآن إذ كنتم معنى قوله : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ [4] ، فإن كان هذا هكذا ، فقد سمى نفسه أيضاً مسلماً وجميع ذريته الموحدين مسلمين ، فإن قال آخر من أولاده المتمسكين بملة من الملل المتقدمة : إني مسلم ، فلذلك محمول منه على أنه سمى دينه اسلاماً ، لا على أنه انتقل من غير الإسلام إلى الإسلام .

وإن قيل لمعطل أسلم ، فقال : أنا مسلم ، وانا من المسلمين ، كان هذا منه إقراراً بالاسلام ، لأن الاسلام إسم الدين وإذا أقر به فقد أقر بالدين بعد ان لم يكن له دين أصلاً ، إذ المسلم إسم لمتدين معلوم ، والمسلمون إسم لمتدينين معروفين . فإذا أقر بأنه منهم أخذ باقراره .

وأما إذا قال : أسلمت ولم يقل لله ، فإن كان ذلك في موضع العقد لم يكن مسلماً حتى يقول : أسلمت لله . وإن كان على وجه الاقرار اجراه قبل منه كما أن رجلاً لو قيل له : ما فعلت بابنتك ؟ فقال : زوجتها . أو : ما فعلت بأمتك ؟ قال : بعتها ، كان هذا جارياً في هذا الموضع ولا يجري في موضع العقد . وهكذا ان قال المعطل : انا من المسلمين ، وهو يريد العقد لا الخبر لم يتم إسلامه إلا بأن يقول لله ، والعقد مقارن للخبر كما يتنبه .

فان قيل فقد قال الله عز وجل : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً

---

(١) البقرة : ١٣٣ .
(٢) المائدة : ٤٤
(٣) الحج : ٧٨
(٤) البقرة : ١٢٨

وقال إنني من المسلمين ﴾ (١) مقام قول : لا إله إلا الله ، فثبت بذلك ان كل واحد من الكلامين صالح للعقد .

فالجواب : ان هذا ان كان هكذا ، فيقول المؤذن في اذانه : لا إله إلا الله ، ليس من العقد وإنما هو تأكيد للعقد الذي سبق بتطوع منه ، ولو أجيز له أن يقول مكانه : إني من المسلمين ، فقال : لم يكن منه الاحتراز أو ليثاً ، أو ينكر أن يكون هـذا القول في موضع الخبر كافياً .

وجواب آخر : وهو ان الله عز وجل ان كان جعل المؤذن بقوله : لا إله إلا الله قائلاً إني من المسلمين ، فقد جعله بقوله : حي على الصلاة داعياً إلى الله فليقم قول القائـل : أنا أدعوكم إلى الله ، مقام قوله : حي على الصلاة .

وجواب ثالث : وهو أن المسلمين أجمعوا على أن المؤذن ان ابدل قوله : لا إله إلا الله بقوله : اني من المسلمين ، لم يقم ذلك مقامه مع ما ان الآية فيه ، فكيف يستقى منها ان الكافر إذا أراد الاسلام فقال : اني من المسلمين ، قام ذلك مقـام قول « لا إله إلا الله » ويدل على مفارقة العقد الخبر ان الكافر إذا قال : أسلمت لله ، قام هذا مقام شهادة الحق ولم يتم ايمانه حتى يشهد بنبوة ﷺ . ولو توهمنا قولنا : أسلمت ، كافياً ما قام ذلك إلا مقام شهادة الحق وحدها .

ومعلوم أنه إذا سئل عن دينه فقال : أنا من المسلمين ، كان هذا إقرار بديـن ، فلم يدخل فيه التوحيد ، والاقرار بنبوة النبي ﷺ وقبول جميع ما جاء به من عند الله ، وهكذا لو قال : أسلمت وهو يريد أخبر اني قد صرت من المسلمين ، فعلم بهذا ان صلاح كل واحد من هذين اللفظين لما صلح له من معنى الخبر لا يوجب صلاحـه للعقد والله أعلم .

فإذا قيل لـه أسلم ، فقال : طال ما أنا مسلم مثلك ، أو طالمـا أنا مسلم مثلكم ، أو طالما أنا مسلم منكم ، كان هذا إقرار بالايمان يوجد به . وان كان كافياً في قوله لم يكن بين الله تعالى وبينه مسلماً ، كرجل طلق امرأته ثم قال لرجل غيره : طلق امرأتك فقد طالما أنا مطلق مثلك . أو أعتق عبده ، فقال لرجل : اعتق عبدك ! فقال : طالما أنا معتق مثلك ، أو حلف بالله ثم قال لغيره : احلف ، فقال : طالما أنا حالف مثلك كان هـذا

---

(١) فصلت : ٣٣

اقرار بما يقول ، فان كان كذباً وارده بما قال التلبيس عليه ، لم يكن عليـــه فيما بين الله تعالى وبينه شيء مما قال ، والله أعلم .

فصـــل

وان قال مسلم لمسلم : يا كافر ، فهذا على وجهين : ان أراد ان الدين الذي يعتقـده كفر ، كفر بذلك ، وان أراد به كافراً في الباطن ولكنه يظهر الايمان نفاقاً ، لم يكفر ، وان لم يرد شيئاً لم يكفر لأن ظاهره انه رماه بما لم يعلم في نفسه مثلـه ، ولأن الاسلام ثابت له باليقين فلا يخرج منه بالشك ، وإذا تمنى مسلم كفـر مسلم ، فهذا على وجهين :

احدهما : أن يتمناه كما يتمنى الصديق لصديقه الشيء سيحسنه ، فيجب أن يكون له فيه نصيب ، فهذا كفر لأن استحسان الكفر كفر .

والآخر : ان يتمناه له كما يتمنى العدو لعدوه الشيء يستقطعه ، فيجب أن يقـع فيه ، فهذا ليس بكفر . تمنى موسى صلوات الله عليه بعد أن أجـهده فرعون ، أن لا يؤمن فرعون وملأه ليحق عليهم العذاب ، وزاد على ذلك ان دعا الله تبارك وتعالى فقال : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [1] . فلم ينكر الله تعالى ذلك عليه لعلمه ان شدته على فرعون وغلظـه عليه لما رآه من عتوه وتجبره هي التي حملته على ذلك ، فمن كان في معناه فله حكمه .

فصـــل

وإذا نوى مسلم أن يكفر ان كان كذا ، وإذا جاء وقت كذا ، كفر بالحال . وان نوى كافر أن يسلم ان كان كذا له إذا جاء وقت كذا ، لم يكن بذلـك مسلماً ، لأن كافرا لو قال أسلمت لم يكن بهذا القول مسلماً ، فأولى أن لا يكون مسلماً. أو نوى أن يقول ذلك لوقت مستقبل ولما نقله ، ولأن الاسلام فرض دائم ولا يصح إلا مع الاخلاص ، فاذا نوى مسلم أن يكفر غداً فقد أفسد الاخلاص بما أحدث من عزيمة الكفر ففســد

---

(١) يونس : ٨٨

إسلامه بزوال شرطه وصد الاسلام الكفر ، فإذا عدم عدم إليه .

والكافر إذا نوى أن يخلص غدا فلا إخلاص منه لأنه متشبث في الحال بالكفر ، فلم يكن له إسلام في الحال ، ولا إذا جاء عدواً أيضاً . فانه إذا نوى أن يكفر غداً ، فقد استحسن الكفر فصار بذلك رافضاً للإسلام ، لأن استحسان الكفر استقباح الاسلام . واذا نوى أن يسلم غداً فهو للكفر مستحسن في الحال، واستحسانه إياه استقباح للاسلام في الحال ، فلماذا كفر ؟ قيل لأن فرض الاسلام فرض دائم لا يجوز تعريفه ولا تقطيعه ، فلم ينعقد إستحسانه الاسلام في الحال ، إذا كان لا يستحسنه فيما بعد الحال ، والله أعلم.

* * *

القسم الخامس

باب في إيمان المقلد والمرتاب

المقلد من يدين ما يدين لأنه ين آبائه وقرابته وعشيرته وأهل بلده ومشايخ قومه وليس عنده وراء ذلك حجة يأوي إليها ، وإذا سئل عما يدعوه إلى اختيار ما هو فيه على خلافه ، ضجر واختلط ولم يكن عنده إلا أن يقول : ديني ودين آبائي وعليه وجدت الشيوخ وهو الطريق المستقيم ، ومن خالف هذا لم يكلم إلا بالسيف .

والمرتاب من يقول : اعتقدت الاسلام وتألفت أهله إحتياطاً لنفسي ، فان يكن حقاً وكان بعد الموت بعث وحساب وجنة ونار ، فقد فزت وأفلحت ، وإن لم يكن من ذلك شيء لم يضرني ، وكنت في حرثي [1] محموداً آمناً في نفسي وأهلي ومالي ، وواحد من هذين – أعني المقلد والمرتاب – ليس بمسلم . أما المقلد فلأنه أراد بدينه موافقة قوم ، وإنما ينبغي أن يراد بالدين إقامة الحق وأداء الواجب وليس يعرف الحق حقاً ولا الواجب واجبا بقول الآباء والعشائر وشيوخ البلد. فان المبطلين لهم آباء كآباء المحقين وعشائر كعشائرهم، وشيوخ كشيوخهم ، فمن عرف الحق حقاً والواجب واجباً من مثل هذا الوجه فلم يعرفه الحقيقة ، واعتقاد الدين من غير معرفة بصحته لا يصح والله أعلم .

وأما المرتاب فلا اعتقاد له لأنه شاك لا يدري الاسلام وما يقوله المسلمون حق أوغير حق . والاعتقاد توطين النفس على أحد ، فيسمى المنقسم أو أقسامه إذا كانت متباينة باثباتة ونفي ما سواه . فاذا كان الاسلام هو الاعتقاد ، والاعتقاد ما وصفت وهو غير موجود من المرتاب ، ثبت أنه ليس بمسلم . وأيضاً فان ما ضاد العلم بالله ضاد الايمان به ، والشك فيه مضاد للعلم به ، كما الجهل به مضاد له . فلما استحال وجود الايمان به مع جحده والجهل به استحال وجوده مع الشك فيه والارتياب به والله أعلم .

فإن سأل سائل عن المؤمن : هل يكون مقلداً ؟ أو يصح إيمانه ؟ ومن هو ؟ ومن المؤمن غير المقلد ؟

---

(١) الحرث كسب المال ، وفي الحديث : (احرث لدنياك كأنك تعيش ابدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) .

قيل له : أما المؤمن غير المقلد فرجلان : **أحدهما** الذي عرف الله تعالى جده بالدلائل والحجج الدالة على صدقه ، ثم اعترف بالله ورسوله، فقبل عن رسوله جميع ما جاء به من عنده ، وأسلم نفسه لله بالطاعه فيما أمره به ونهاه عنه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ .

والآخر : من يؤمن بالله اجابة لدعوة نبيه بعد قيـام الحجة على نبوته ، وهذا فصل يضطرب فيـه كثير من النـاس ويقولون : كيف يعرف رسول الله من لا يعرف الله ، وكيف تثبت نبوة واحد عند من لا يعرف بالباري جل جلاله حتى إذا ثبت اجاب دعوته ، ولكن الأمر ليس على ما ظنه هؤلاء ، وسنبين ذلك بيـانا شافياً باذن الله تعالى فنقول — وبالله التوفيق — :

قد علمنا ان الله تبارك وتعالى ، بعث الرسل إلى ان ختمهم بنبينا محمد ﷺ ، إلى طبقات الكفار مع اختلاف آرائهم وتشتت مـذاهبهم ، فما أحد منهم آمن إلا وثبت إيمانه ومن السنن الذي يخفى ان لقائل الذين آمنوا لم يكونوا كلهم يكلمون الاستدلال على الباري جل ثناؤه ووحدانيته ، ولا ان كان منهم من يستدل ثم يؤمن بل كانوا يجتنبون لمـا يرونه من معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم ، ويكتفون بها ولا يطلبون معها دلالة سواها ، وكان أسبقهم إيمانا وأعجبهم اسلاماً خيرهم وأحقهم بالتقديم وأفضلهم .

فثبت بذلك ان الإيمان بالله إذا وقع إجابة لدعوة من قد ثبتت نبوته ، كان صحيحاً ، سواء كان المؤمن من أهل الاستدلال بوجه آخر ولم يكن تم بنظر . فـان كان المؤمن قبل ان آمن يثبت الله تعالى ، إلا انه ملحد في اسمائه وصفاته كان إيمانه الحادث تركا لذلك الالحاد لما يقوله النبي ويدعوه اليه . وإن كان قبل ذلك لا يدين ديناً .

ويروى ان لا صانع للعالم فانه لم يزل على ما هو عليه الآن ، فوجه ايمانه بالله لدعوة نبيه هو ان النبي ذكر ان للعالم الها واحداً لم يزل ولا يزال ، لا يشبه شيئاً ، قادراً لا يعجزه شيء ، عالماً حكيما ، كان ولا شيء غيره ، فأبدع كل موجود سواه ، واخترعه اختراعا لا من أصل ، وانه أرسله إلى الناس ليعرفه اليهم ، وينبههم على آثار خلقه التي يرونها ويعقلون عنها ، ويدعوهم إلى طاعته وعبادته ، وان دلالته على صدقه هي ما أمده من كذا مما لا يستطيع الناس وإن تظاهروا أن يأتوا بمثله ، وانه إذا كان واحد من الناس تجمعه وإياهم البشرية ثم تجمعه وأهل بلده الهواء والأرض والماء ، وكان ما عدا هذا الذي يذكر انه أمد بـه ليكون دلالة على صدقه ، لا يباين فيه أحـداً من الناس ، ويحتـاج إلى الطعام

والشراب إلى مثل ما يحتاجون اليـــه ، ولا يقدر من الأشياء المعتادة إلا على مثل ما يقدرون عليه ، ويعجز عما يعجزون عنه ، وجب أن تحكموا بانه من فعل هذا الذي اختص به مما هو خارج عن قضية العادات عاجز مثلهم ، وإنه إذا كان عاجزا عنه ، وقد وجد به وظهر على يده حق انه ليس من صنعه ، ولكنه من صنع غيره ، ولا جائزاً أن يكون ذلك الغير من جنسه أو مثله ، أو في القدرة تكاثره إذ لو كان كذلك لاستحال وجوده من غيره كما استحال وجوده منه .

وفي ذلك ما يوجب أن يكون من صنع صانع ، لا يفعل الا شيئا بمثل القوة والقدرة التي بهما يصنع الصناع المشاهدون . وانه كما لم يشبه صنعه صنعهم فكذلك هو غير مشبه إياهم ، ولا جائز عليه من معاني النقص ما هو جائز عليهم ، فانتظمت حجة هذه اثبات الصانع على من يجهله ولا يعترف به ، واثبات رسالته من عنده ، فمن استسلم لحجته وصدقه في جميع قوله ، وآمن بجملة دعوته كان اثبات الرسول والمرسل منه معاً في مقام واحد ، ولم يكن اثبات الرسول ، قبل معرفة المرسل ، فهذا وجه الايمان بالله اجابة لدعوة رسوله اليه ، وهذا ما أجابه بحجه .

ومن هذا الوجه كان إيمان عامة المستجيبين للأنبياء والرسل صلوات الله عليهم ، ثم قد كان فيهم من تنبه بعد ، فرأى وبحث ونظر ، فبصره الله تعالى من الدلائل ما شد بها ازره ، وعصم دينه ، وقوى نفسه . فطلب من هذا العلم ما ينصر به الدين ويجادل بـــه أعداءه ، وينتصر به للتدافع عنه .

فأما أهل الايمان فما أقل من خرج إيمانه عن الطريقة التي ذكرتها إذا كـان الذين شاهدوا الرسول ﷺ ، وسمعوا دعوته ، وعاينوا حججه ، آمنوا به استبصاراً بها ، ولم يحتاجوا معها إلى دلالة يستشيرونها بآرائهم من شواهد عقولهم .

فكذلك الذين لم يدركوا عصره ولم يشاهدوه ، إذا بلغهم خبره ، وخبر المشاهدين له بلاغا — لايمكن أن يكون كذبا ولا غلطا — صاروا كالمشاهدين في وقوع العلم لهم ضرورة بكل ما بلغهم .

فاذا اذعنوا لدعوته من غير حجة جديدة يبغونها كانت منزلتهم في ذلك منزلة الأولين وكان ايمانهم سالما صحيحا ، ثم كذلك كلما بلغ ذلك الخبر أهل عصر بلاغا ، فوقع لهم العلم فآمنوا كانوا كالمشاهدين ، وكان إيمانهم حجة لا تغير ، وكل مؤمن اليوم فأصل ايمانه هذا البلاغ ، ثم في المؤمنين من يوسع في النظر ، واستكثر من وجوه الحجج لحاجته اليها

في الدفع والجدل، فقويت بذلك بصيرته،واشتدت من الدين مريرته ، وحسن في الاسلام بلاؤه ، وظهر جده وعناؤه . فأما الأصل فلم يكن الا ما ذكرنا والله أعلم .

فان قيل : أرأيت الذي يؤمن اليوم ولا يخطر بقلبه من حقيقة دعوة رسول الله ﷺ وحجته شيء مما ذكرت ، ولو أريد اسماعه لذلك لم يسمعه ، ولو سمعه لم يدركه ، ولو فهمه لم يفهمه ، أيقال انه مؤمن ؟

قيل : هذا لا يخلو من أن يكون سمع ان النبي ﷺ ظهر على المشركين بالحجة ، فإذا اعتمد هذا البلاغ ولأجله آمن ، كان نظير الذين آمنوا واقفين على حجته ، وإن لم يعرف هذا عين الحجة ، وهذا الذي يدخل في إيمانه شيء من التقليد ، ولا يضره لأنه لا يتسع لأكثر منه ، وبالله التوفيق .

فان قيل : أرأيتم من بلغه على ألسنة المؤمنين ما وصفهم ، وبلغه على ألسنة الكافرين خلافه ، فبماذا يرجح عنده خبر المؤمنين حتى إذا قبله وآمن به صح إيمانه ، وإن كان فيه من الحقيقة ما يرجحه . فهو إذا كان غافلا عنه وإن لم يكن في غفلة ما يوصله إلى معرفته ، فماذا يعني ذلك عنه ؟

قيل : إن البلاغ الواقع من قبل المؤمنين رجحانا وهو ان الكفار لا يتهيأ لهم أن يجحدوا ان النبي ﷺ ، قد جاء بآيات واعلام كثيرة ، وانها قد نقلت نقل اليهود اعلام موسى ونقل النصارى اعلام عيسى صلوات الله عليهما فهم مضطرون إلى الإعتراف باثباته منها ، بما يذكره المسلمون. وإذا ثبت ذلك ولم يتهيأ لهم تحقيق شيء فيما يتكلمون فيها ، كانوا بترك الايمان به معاندين ، ولم يكن في شيء مما يبلغ مزيد الايمان عنهم ما يقف موقف ما يبلغه عن المؤمنين،فلا يؤثر خلافهم أثراً،ولا أوقع فيما عند المسلمين من أمر دينهم خللا وبالله التوفيق .

فأما من يبلغه الخبران ، ولم يكن ممن يدرك الراجحان ، فانه إذا كان لا يدرك أمور الكلامين وأبينهما فبالحرى ان لا يدرك ابهمها وأظلمها وهو ما يعارض به الكفار من شبههم وزخاريف أقوالهم ، وإذا لم يدركها وسلم البلاغ الذي وصفناه عن النبي ﷺ في صدره خلص من الشك إيمانه وصح والله أعلم .

وأيضاً فان تلك الاعلام وإن كان لا يحصل منها اليوم إلا على الخبر ، فالقرآن قائم بين أظهرنا ونحن ندعي ان الأنس والجن لا يقدرون على الاتيان بمثله ، فيدل عجزهم اليوم

كما كان سلفهم عنه عـــاجزين في الزمان الأول على صدق البلاغ الواقع من قبل المسلمين ، وكذب البلاغ الواقع من قبل المخالفين .

وإن سأل سائل عمن آمن وصح إيمانه إذا سمع من بعض الكفار طعناً في دلائل التوحيد ولم يكن من أهل النظر يهتدي إلى جوابه ، ماذا يصنع ؟

قيل له : ان هذا لا يخلو عند سماعه معارضة المخالفين من أن يفهمها ويشغل بها قلبه ، ولا يفهمها ولا يشتغل بها قلبه . فان لم يفهمها ولا اشتغل بها قلبه فليس عليه منها شيء ، وإن فهمها واشتغل بها قلبه لزمه أن يسأل عنها من يكشفها عن قلبه ، فان قدر على ذلك ولم يسأل وشرح بالشك صدراً كفر ، وإن لم يشرح بالشك صدراً ولكنه اعتقد فيما سمع انه شبهه وان نارها ما يحلها وعلم ذلك موجود عند أهله كفـاه ذلك ، لأنه إذا جاز أن يثبت له الايمان لو لم يسمع من المخالفين معارضة اتكالا على النبي ﷺ ، قد جاء بالحجة الباهرة التي لا يذهب عنها إلا المعاند ، ولأجلها آمن به من آمن .

وإن كان لا يعرفها بعينها جاز أن يدوم بعد سمـاع المعارضة ، اتكالا على ان تلك الحجة لا تخلو من أن يكون فيها الدفع عن نفسها — وإن كان لا يعلم وجه ذلك الدفع ، أو على : ان عند القائلين بها من الانفصال عن الشبهة الواردة عليها ما تزاح به العلة ، ولا يخلو ذلك من أن يكون وجد في الناس من يعلمه أو لم يوجد .

وكان هذا الذي وصفنا كفره بهذا الاعتقاد داخلا في الذين مدحهم الله بقوله : ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ (١) لأنه استكمل الايمان بالحجة التي أوردها رسول الله ﷺ ، حتى بلغ من سكونه اليها وثقته بها ان لم يعدل عنها ولم يشكك فيها عند توجه الطعن والمعارضة عليه وعجزه عن الجواب . لكنه وثق بان ما أورده عليه شبهه وان بازائها ما يدحضها ، فلم يكن هذا مما يتخلف عن اثبات الجنة والنار والبعث والحساب بحشر الرسول ﷺ ، وكان الدخول في الآية التي ذكرتها واستحباب الثناء أولى وأحق والله أعلم .

ولما ذكرناه في أصل هذا الباب من وقوع الاكتفاء معجزات الرسل صلوات الله عليهم نهى من نهى عن السلف عن الخوض في مسائل الكلام ، وذلك انهم رأوا : انه لا يحتاج اليه ليبين صحة هذا الدين في أصله إذا كان رسول الله ﷺ انما بعث مؤيداً بالحجج فكانت مشاهدتها

---

(١) البقرة : ٣ .

للذين شاهدوا ، وبلاغها المستفيض لمن بلغه ، كافياً في إثبات التوحيد والنبوة معاً عن غيرها ، ولم يأمنوا أن يوسع الناس في علم الكلام ، أن يكون فيهم من لا يكمل عقله ويضعف برأيه ، فيرتبك في بعض ضلالات الضالين وشبه الملحدين ، فلا يستطيع منها مخرجاً ، كالرجل الضعيف غير الماهر بالسباحة إذا وقع في ما غامر قوي لم يؤمن أن يغرق فيه ولا يقدر على التخلص منه ، ولم ينهوا عن علم الكلام لأن عينه مذموم أو غير مفيد .

وكيف يكون العلم الذي يتخلص به إلى معرفة الله تعالى وعلم صفاته ومعرفة رسله والفرق بين النبي والمصادق عليه ، وبين المتنبي الكاذب عليه ، مذموماً أو مرغوباً عنه ، ولكنهم لاشفاقهم على الضعفة أن لا يبلغوا ما يريدون منه فيصلوا بهوا ، وكثيراً من الخاصة كذلك كان الاحتياط للبعض في أن يحصلوا منه ما يقدرون به على جدال المخالفين ان هموا أن يغالبوا بالحجة ، ويوهموا المسلمين ان دينهم تقليد وانهم ان فحصوا عنه تثبيت لهم آثار ذلك فيه : بانه ليس على أحد من في سرية مطمئن بين أهله وولده أن يشتري السلاح ويجمع ويستغل فعل من قد أحس بعدو يقصده ، وبلغه خبر عن أحد يريده ، ولكن ذلك ان وقع وتحقق فحدث عليه خوف ، وتغير له حال لزمه أن يغير تدبيره ويحكم أمره ويستعد للدفع ان قصد ، ويتأهب للدفع ان حضر ، ولا يغفل عمن ليس عنه بغافل ، ولا يهمل من ليس بمهمل .

هذا وقد يحضر المسلم من الكفار من يقول : إني لا أعرف حجة دينكم ، ولا أعلم فيما تدعون اليه برهانا ، فان اقمتم على حجة أذعنت لها ! فان هو لم يقدر على ايراد الحجة عليه أصلا ، أو قدر من ذلك على ما هو أصل لدعوة لما يثبت فلما ادخل الكافر عليه شبهة أو أحدث له معارضة ، انقطع وبقي حائراً عاجزاً لا مزيد عنده على ما كان سمعه ، قام الكافر من عنده وهو في كفره أرسخ منه ، أرجاه وابتدأ مكالمته ولم يتعد أن يكون المسلم قد جهل حال نفسه وظن ان القصور في الدعوة دون علمه ، والخلل في الحجة لا في معرفته ، فاذا الرجلان قد تفرقا عن اتفاق على الكفر بعد ان كان يرجى ان يتفرقا عن إيمان .

فينبغي للمسلم أن لا يعطل هذا العلم ، ولا يغفل عنه أصلا ، بل يعد منه للخصام والجدال مثل ما يعده المقاتل للقتال ، والله أعلم .

القسم السادس

باب القول فيمن يكون مؤمناً بإيمان غيره ولا يكون

نقول – وبالله التوفيق – ان ما ولد بين أبوين مسلمين فهو في عامة الأحكام مسلم . وإن كان أبواه كافرين فهو في عامة الأحكام كافر مثلهما ، فإن أسلما أو أسلم أحدهما وهو صغير، صار مسلماً . وان أسلم الجد فقد قبل إسلامه كإسلام الأب – وقيل : يفارقه . فإذا سبي الصغير من دار الحرب مع أبويه فدينه دينهما، وكذلك ان سبي ومعه أحدهما فدينه دينه، وان لم يكن معه واحد من أبويه ، فدينه دين سابيه .

وما يقال من هذا في الصغير ، والقول في الكبير المعتوه مثله ، ثم نذكر وجوه هذه الفصول باذن الله وتوفيقه فنقول : اما اتباع ولد المسلمين أباهما فلأن الأمل في طلب النسل انه طريق إلى استبقاء الجنس ، والغرض من استبقاء الجنس اكبار المؤمنين بالله، والعابدين له ، إذ كان الله عز وجل إنما خلق الجن والانس ليعبدوه .

وقال النبي ﷺ : « تناكحوا تكثروا ، فاني أباهي بكم الأمم »[1] . وإذا كان هذا هكذا ، صح وقوع الاذن من الله عز وجل في طلب النسل ، فحكم الولد بحكمهما في الدين أيضاً ، لأنهما إلى غرضهما من الزيادة في عدد المؤمنين به ، ولم يتأخر ذلك إلى أن يبلغ المولود فتوجد حقيقة الايمان والعبادة منه اذا كان يمكن أن يخترم قبل البلوغ ، ويمكن ان بلغ أن يخالف الأبوين ، فحكم له بحكمهما عادلاً لما ذكرت والله أعلم .

وإنما ولد الكافر فإنما اتبعهما لأن غرضهما أيضاً من طلب النسل إكبار أهل الدين، إلا ان الدين عندهما فإنهما عليه فألحق بهما ، كما يقر أهل الكتاب على ما هم عليه بالجزية،لأن عندهم : ان ما هم عليه هو الحق وإن كان الأمر بخلافه والله أعلم .

وأيضاً فان الأبوين المسلمين إذا اكتسبا الايمان وفشا ، فأدامه الله تعالى لهما بعد في سائر الأوقات وان كان الايمان لا يخطر بقلوبهما ما لم يحدثا بالكفر كذلك عداه عنهما إلى

---

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

الولد الذي هو جزء منهما ، فكان الولد مؤمناً من غير سبب إيمان ، كما كان الأبوان طول عمرهما مؤمنين من غير كسب منهما في جميعه .

والكافر أيضاً إنما اكتسب الكفر وقتاً ، فأدام الله حكمه لها بعد، في سائر الأوقات، وإن كان ذلك لا يخطر بقلوبهما ما لم يحدثا إيماناً كذلك عداه فيهما إلى الولد الذي هو جزء منهما . فكان الولد كافراً من غير كسب الكفر كما كان للأبوان طول عمرهما كافرين من غير كسب يكون منهما في جميعه والله أعلم .

وجاء في هذا الباب عن النبي ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » [1] وقد اختلف في معنى هذا الحديث ، فقيل : ان المراد بالفطرة الدين الذي شرعه الله للخلق الأول الذي هو أصل هذا النسل ، هو أبونا آدم عليه السلام . وهو التوحيد الذي لا تشريك فيه ولا تشبيه ، وإنما قيل على الفطرة لأنه أريد على الدين الذي كان عند ابتداء الفطرة وهي الخلقة والبنيه .

وقيل : ان المعنى – ان كل مولود يولد خالياً من كل دين لكنه لا يترك كذلك بل يتبع أبويه ، فيكونان البساه دين أنفسهما وأدخلاه فيه .

فمن ذهب إلى الوجه الأول احتج بحجج احدها قول الله عز وجل : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها ﴾ [2] . قال فقد أخبر عز وجل أنه فطر الناس كلهم على الدين فثبت أن معنى قول النبي ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة » هو أنه يولد على الحق حتى يكون أبواه هما اللذان يرفعانه عنه ، ويمثلان به إلى الباطل.

ودل على صحة هذا أنه لم يقل:حتى يكون أبواه يسلمانه، كماقال يهودانهوينصرانه . فلو كان معنى يولد على الفطرة فيولد خالياً من كل دين ، ومعنى يهودانه أن يجعل تابعاً لأبويه في الدين إذ لم يكن له في نفسه دين لذكر الاسلام كما ذكرت أصناف الكفر . ولما لم يذكر ، بان ان معنى الفطرة الدين الأول الذي شرع لأول فطور من البشر .

والحجة الثانية : ان الله عز وجل قال في كتابه : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم

---

(١) ورد في صحيح البخاري « الجنائز » باب ٨٠ ، ٩٣ ، وفي مسند الامام أحمد بن حنبل جـ ٢ ص ٢٣٣ ، ٢٧٥ .

(٢) الروم : ٣٠

القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل و كنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾[1] .

ووردت الأخبار بأن الله عز وجل لما خلق آدم صلوات الله عليه اخرج كل من علم انه كائن من صلبه امثال الذر ، فأخذ عليهم الميثاق ما لم يحدث خلافه .

فان قيل : قال الناس لا يذكر أحد منهم انه أعطى من نفسه هذا الميثاق لا حقيقة ولا ظنا ، ولئن كان هذا مما أخذ عليهم فهم في هذه الدار أخذ عهدان منهم في الدار الآخرة ، فكيف لا يذكرونه في أقرب الأوقات من وقت هذه الكائنة ، ويذكرونه في أبعدها ؟

قيل : ان هذا الميثاق لما أخذ عليهم مخرجين من صلب آدم ، لا شك أنه أخذ وقد ركب فيهم الحركة والنطق والعقل ، فلما أعيدوا إلى صلب آدم بطل ما كانوا ، فردوا به من هذه المعاني فزال العلم الذي كان متعلقاً بها ، ولما عادوا يخرجون من صلبه واحداً بعد واحد على سبيل التوالد ، انسوا ذلك الميثاق لأن الدار كانت دار ابتلاء وامتحان وتعبد، فلو ذكر كل واحد ما كان فيه فيها خلال حقه وصدقه يجرى الايمان مجرى الضرورات، وارتفعت المحنة واقتضت الحكمة انساءهم اياه، وابتداءهم بالخطاب والتكليف مقرونين بارسال الرسل وتأييدهم بالأعلام بعد تركيب العقل فيهم وتمكينهم من التمييز بين الحق والباطل ليكون منهم ما يكون ، حتى إذا كان يوم القيامة ذكروا من ذلك ما كانوا نسوه ، للاحتجاج به عليهم مع ما أمدوا به على ألسنة الرسل من التنبيه والوعظ والوعد والوعيد وبالله التوفيق .

والحجة الثالثة : ما روى عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله عز وجل خلقت عبادي حنفاء فأحالتهم الشياطين عن دينهم »[1] . وهذا يدل على أن أصل الناس في دينهم الايمان وانهم في ذلك بمنزلة الماء والثوب والأرض التي أصلها الطهارة ما لم يرد عليها راد ينجسها .

ومن قال بالقول الآخر دفع هذه المقالة ، فإن الدين كسب لا حيلة ، لأن الله تبارك

---

(١) الاعراف : ١٢٧ .

(٢) ورد في صحيح مسلم «كتاب الجنة» رقم ٦٣ . وفي مسند الامام احمد بن حنبل - ج ٤ ، ص ١٦٢ .

وتعالى يثيب ما حسن منه ويعاقب على ما قبح منه ، ويأمر بالحسن وينهى عن القبيح ، وما كان بابه باب الجبلة ، فانه لا ثواب ولا عقاب لأحد عليه ، فان الله تعالى لا يثيب البصير على بصره ولا يعاقب الأعمى على عماه ، وكذلك كل من جرى مجراه . وهو يثيب المسلم باسلامه ، ويعاقب المبطلين على باطلهم ، فثبت بذلك : ان الدين من باب الإكتساب لا من باب الجبلة والبنيه [١] ، وإذا كان كذلك ، والمولود بين الكافرين لم يكسب دين الحق ولم يكسبه له أبواه فانى كان مسلماً !

وأيضاً فان الله عز وجل لو خلقه مسلماً ، لم يرع اتباعه الأبوين الكافرين في كفرهما لوجهين : احدهما لأنه ليس من دينه أن يقبل من أحد كفراً بعد الايمان . والآخر ان كل من اتبع غيره في شيء فانما يتبع فيما لا يكون له بنفسه ، فيكون محتاجاً ، فلو كان له بنفسه دين لم يتبع في الدين أبويه .

فأما قول الله عز وجل : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ﴾ [٢] فطرة الله التي فطر الناس عليها الاسلام ، لكن ما يتوصل به إلى الاسلام هو الحق من دلالة العقل ، وهي التي لا يتهيأ لأحد تبديلها ، فان ذهب عنها ذاهب كانت هي بحالها حجة عليه وداعية له إلى الصراط المستقيم ، وبالله التوفيق.

وأما النبي ﷺ لما لم يقل حتى يكون أبواه يسلمانه ، دل على ان المراد بالفطرة الاسلام ، فلا دلالة له فيه لأنه انما أراد أن يبين أن فساد الدين ضرر يلحق الأولاد من قبل آبائهم وأمهاتهم . فذكر الأديان الفاسدة ، ولم يذكر الدين الصحيح ولأن بنوته للولد بابويه نفع وصلاح له وتأس من الضرر ، فانما سكت عنه لهذا : لا لأن ثبوت الدين الحق لهمن قبل الخلقه -فانا قد بينا أن الدين لا يجري مجرى الخلق- ولكنه من باب الاكتساب. وفي ذلك ما يمنع أن يكون المراد بالفطرة الدين .

وأما قول الله عز وجل : ﴿ وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ، ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ﴾ [٣] فانما معناه انه أخرجهم من أصلاب آبائهم عقلاء مذ ركب فيهم من آلة التمييز ما يعلمون به ان لهم خالقاً، فأشهدهم بما في عقولهم المركبة في أبدانهم

---

(١) البنية : الجبلة ، الفطرة (٢) الروم : ٣٠ (٣) الاعراف : ١٧٢

على أنفسهم ، لأنه لو خاطبهم وأمرهم ، ونهاهم من غير أن يعطيهم عقلاً يدركون بـــه مراده لم يكن عليهم سؤال ولا عيب ، وإذا أعطاهم آلة التمييز والمعرفة توجـه عليهم العيب والسؤال ، ولم يكن لهم أن يقولوا كنا عما يلزمنا غافلين ، ولا توجه لاختلافهم أن يجبلوا على إسلامهم .

فالميثاق إذاً هو العقل لا غيره ، وتبين فساد تعلق من خالف هـذا بالآية ان الله تعالى لم يقل : وإذ أخذ ربك من ظهر آدم ذريته ، وإنما قال: ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ﴾ فظاهر ذلك أنه أراد توكيد بعضهم من بعض على ممـر الأزمان ، وباشهادهم على أنفسهم ، أعطاهم عقلا يدلهم على صانعهم ووحدانيته وقدمه والله أعلم .

وأيضاً فانه ان كان أخرج من صلب آدم صلوات الله عليه جميع ذريته وسألهم عن نفسه ، فاعترفوا بأنه ربهم ، ولا شك في أنه ركب فيهم الخبرة والعقل والنطق وسألهم ، لأن ما لا يدري مالا يقال له فلا معنى لسؤاله ، وان كان فعل ذلك بهم فلا يخلو من أن يكون قولهم « بلى شهدنا » اضطراراً واستدلالاً ، فما بالهم لم تتفرق بهـــم السبل ، ولم تضطرب آراؤهم ، وكان كأمثال الذر وحبوبهم ومعارفهم ، وقواهم بحسب أبدانهم أن تكون على الاصابة بعد ما أكمل خلقهم ، وأغرزت عقولهم وقويت معاني الخير فيهم أقدر وله أخلق . وإن كان ذلك وقع منهم اضطراباً فلهم من الحجة يوم القيامة أن يقولوا : لا نكث لعهد منا ولا نقص لميثاق ، لأنا شهدنا اضطراراً ، فلما زال علم الضرورة عنا ، وكلنا إلى آرائنا ، كان منا من أصاب ومنا من أخطأ. كما كان ذلك يكون المجلون وآراؤهم في كل شيء .

وهكذا ان قال قائل : كان إقرارهم عن استدلالهم ولكنهم عصموا عنده من الخطأ ووفقوا للاصابة .

قيل لهم : فلهم اذا كان يوم القيمة أن يقولوا : أيدنا يوم شهدنا على أنفسنا بتوفيـــق وعصمة حرمناها من بعد ، ولو أمددنا بها أبداً لكانت شهادتنا في كل وقت وحال كشهادتنا في أول الأمر ، ولم يختلف . فقد بان المقصود الذي يدعيه أهل هذا القول ، ولا يحصـل بالأهل الذي يصفونه ، وأيضاً فان الله تعالى يقول: ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ [1] .

---

(١) الاعراف : ١٧٢ (٢) النساء : ١٦٥

فلو كان الناس قد أخذ عليهم بالايمان ميثاق كما يقولونه ـ الذي جلينا قولهم ـ لما كانت لهم على الله حجة وان لم يرسل اليهم الرسل، وقد أخبر الله عز وجل : أنها كانت تكون ، فثبت أن أخذ الميثاق عليهم من الوجه الذي يقولونه ، لم يكن ، والله أعلم .

فلو قيل : لو امتنع أن يكون المراد بالآية : أعطاهم العقول ، لنفس هذه الآية أيضاً، قيل : ولا سواء ، لأن ما وضع في العقل من المعارف فهو مختلف : فمنه ما ليس فيه الا وجه واحد ، ومنه ما له وجهان أو أكثر ، ومنه ما يدرك البديهة ، وفيه ما يدرك بالاستدلال والناس في العقول وسائر القوى مختلفون : فمنهم التام عقله ، الساكن نفسه ، الجيد طبعه ، ومنهم : الناقص عقله ، المضطرب نفسه ، الركيك طبعه . ومنهم : ذو الشغل الواحد ، فهمه مقصور عليه . وفيهم ذو الأشغال الكثيرة ، فهمه متوزع بينها ، منقسم عليها . مختلف استدل المستدلين بحسب اختلاف أحوالهم ، فيكمل من واحد وينقص من آخر ، ويضعف رأي واحد ، ويقوى رأي آخر . فاحتاجوا لذلك إلى الامداد بالرسل ليقووا عزائمهم ويحدوا سرائرهم ، فيأمنوا مكانهم الوقوع في الغلط والخطأ ، وإنما الاقرار وان كان وقع عن الجماعة فشيء قد مضى ، ولا يتغير عن حاله ـ كان بعده رسول أو لم يكن ـ وأكثر ما يمكن أن ينسوه أو ينكروه عند أهل هذا القول انهم غير معذورين بما عرض لهم فيه ، وان الاقرار محتج به عليهم يوم القيامة ، فلا حاجة مع هذا إلى الرسل إذا ! وإذا أخبر الله عز وجل انه أرسل الرسل لقطع الحجة صح ان هذا الاقرار الذي يصفونه على الوجه الذي يذكرونه غير واقع من الجماعة والله أعلم .

وأما ما يروى عن النبي ﷺ من قوله : (يقول الله عز وجل : خلقت عبادي حنفاء فاحالتهم الشياطين عن دينهم) [1] ، انه خلق آدم وحواء صلوات الله عليهما ، وجعلهما مسلمين وذرآ أولادهم الأولين على الاسلام ، فكذلك كانوا إلى أن ألقى الشيطان فيهم حدث الكفر ، فحال به عن ذلك حال عما كان عليه الأصل ، وليس المعني أن كل مولود فانه يكون مسلماً ، ثم يكفر منهم من يكفر .

ويقال : لمن زعم أن أصل الناس الإسلام كما أن أصل الماء والتراب والثياب الطهارة:

---

(١) ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ ٤ ، ص ١٦٢ .

قد علمنا أن كل شيء من هذا ، حكم بأنه طاهر في أصله ، فإن تلك الطهارة تظهر عليها ما بانها ، وللاسلام في أهله آيات . فما انه الاسلام في أولاد المشركين وهم كما يتفضلون عن أمهاتهم يمكن لها بحكم المشركين أو حين يكونون اجنة في بطون أمهاتهم كذلك أيضاً ، وإذا لم يكن للاسلام فيهم انه قط علم ان الإسلام فيهم وانه لا دين لهم من قبل أنفسهم إذا الدين كسب ولا كسب لهم فهم كذلك يتبعون آباءهم وأمهاتهم ويجعل ما كسباه من الدين ككسبه لعلة الحرونة والله أعلم .

فصـــــل

ثم القول في الأطفال وما هم صائرون إليه من الجنة والنار ، يتبع الأصل الذي سبق ذكره وتقديره . **فمن قال** : ان كل مولود فإنما يولد على الحق ، حتى يكون أبواه ينقلانه إلى الباطل. **قال**: ان الطفل المولود بين مشركين إذا مات ولم يبلغ مبلغ الاختبار، فيختار الدين الحق أو الذي عليه أبواه ، زالت عنه ولاية أبويه فزال ما كان فيهما من تغيير دينه، فرجع إلى أصل أمره ، فكان بذلك من أهل الجنة .

ومن قال : بالقول الآخر قال لا يقطع في أمرهم بشيء ، وقد يجوز أن يكون مع آبائهم وأمهاتهم في النار ، لأن الله عز وجل قد اتبعهم إياهم في الدنيا ، فيمكن أن يتبعهم إياهم في الآخرة . **قال**:قد يجوز أن يوردوا النار وان لم يدينوا ، لأن من أورد النار، فلانه خلق لها ، ومن أدخل الجنة ، فلأنه خلق لها . واحتج بقول الله عز وجل : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس ﴾[1] . ويجوز أن يصاروا إلى الجنة في هذا القول .

فيدل ذلك على أنهم خلقوا لها وان لم يكونوا كسبوا في الدنيا خيراً . وقد قيل : انهم يصاروا إلى الجنة ليكونوا خدام أهلها ، لا لتكون الجنة ثواباً لهم . فإن الثواب يقابل الطاعة ، وهم لا طاعة لهم . فيكونون لأهل الجنة في الجنة كخدام الملوك في قصورهم وبساتينهم . ومعلوم انهم بان ينعموا بها يلبسوا فيها كسادتهم .

فكذلك هؤلاء الأطفال وان ينعموا بالجنة فليسوا فيها كالذين جعلت الجنة ثواباً لهم ،

(١) الاعراف : ١٧٩

والله أعلم . وقد قيل : ان كل من علم الله منه انه ان بلغه الكبر آمن به وعده أدخله الجنة ، وكل من علم منه انه بلغه كفر وفخر ، أدخله النار . ومن ذهب إلى هذا احتج بما روى أن النبي ﷺ ، سئل عن أطفال المشركين . فقال : (الله أعلم بما كانوا عاملين) [١] ، وقد يحتمل أن يكون المراد بهذا الخبر غير هذا المعنى ، وهو أن الله أعلم بما هم صائرون إليه ، وما هو كائن من أمرهم . ويجوز أن يكون سئل عن هذا قبل أن يتبين له ما بهم ، فقد كان ﷺ بمكة قبل ما كتب بدعاء الرسل ، وما أدرى ما يفعل بي ولابكم ، ولم يكشف له عن عاقبة أمره وأمر المشركين ، ثم أنزل عليه : ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ [٢] . ثم أنزل عليه : ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، أنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ [٣] ، وأنزل عليه ، ﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾ [٤] .

فاعلم ان الذي يفعل به أن يظهره عليهم ، والذي يفعل بهم أن يقهروا أو يذلوا ، الا أن يدخلوا في دين الحق ، وكذلك يجوز أن يكون لم يعلم خبر الأطفال عند حدوث هذا السؤال فيوقف ، وقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين ، أيدخلون الجنة آمنين أم يكونوا في النار معذبين » .

ولم يرد بذلك ان كل واحد منهم يعامل في الآخرة بما علم الله انه لو خلاه في الدنيا لفعله ، لأن ذلك لو كان جزاء ، فالجزاء لا يكون بما لو وجد ليجزي إليه سبيلا لفعله أو إذا يكون بما قد فعل ، ألا ترى أن أحداً من العصاة لا يعذب على معصية كانت تقع منه لو أمهل وترك في الدنيا ، أكثر مما كان بها واحداً من الفقراء لا يعذب على منع زكاة كان يكون منه ، لو أولي مالا ، فالأطفال الذين هم أضعف منه وأقل قوة أولى أن لا يعاملوا بمثل هذه المعاملة وبالله التوفيق .

وقد قيل أن أمرهم يجري على ما ورد به الخبر عن النبي ﷺ : « من انه تؤجج لهم نار يوم القيامة ، ويؤمرون بدخولها ، فمن هم اصرف بها إلى الجنة ، ومن أبي أمر به إلى

---

(١) ورد في صحيح البخاري « كتاب القدر » باب ٣ ، وفي صحيح مسلم « القدر » حديث رقم ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ .

(٢) التوبة : ٣٣

(٣) الصافات : ١٧١

(٤) الصف : ١٣

النار ، وقال الله عز وجل : إياي عصيتم ، فكيف لو رسلي بالغيب أتتكم »[1] . وليس هذا الحديث ثابت ، وهو مخالف لأصول المسلمين ، لأن الآخرة ليست بدار إمتحان . فإن المعرفة بالله فيها تكون ضرورة ، ولا محنة مع الضرورة ، لأن الأطفال هناك لا لهول من أن يكونوا عقلاء أو غير عقلاء . فإن كانوا عقلاء كانوا مضطرين إلى المعرفة ، فلا يليق باحوالهم المحنة . وإن كانوا غير عقلاء ، فهم من المحنة أبعد .

فان قيل : ولم ، اذا كانوا مضطرين إلى المعرفة لم يجز أن يكونوا ممتحنين ما وراء المعرفة .

قيل : لأن سائر الطاعات تقع بالمعرفة ، فإذا وقع الإمتحان وقع ما وراءها ، وإذا سقط الإمتحان بها لم يثبت فيما وراءها . ولو لا ان هذا هكذا لجاز أن يؤمر الكفار إلى الآخرة بامر ، بعد أن عرفوا الله ضرورة واعترفوا به ، فإذا انتهوا إليه ادخلوا الجنة . وأن يمتحن الفقراء بأن يؤتوا في الآخرة مالا ، ثم يؤمر قوم ان سلوهم منه شيئاً ، فمن أعطى أدخل الجنة ، ومن أبى أدخل النار وعذب عذاب مانع الزكاة . فاذا لم يجز هذا لم يجز مثله ، وعليه ان مرجع هذا الحديث إلى انهم يقدمون على كفر ، لو كفروا في الدنيا لكان يقع منهم . وقد بينا أن التعذيب على مثله لا يكون. وأيضاً فان دلائل الشرع قد استقرت على أن التخليد في النار لا يكون إلا على الشرك ، وامتناع الصغار في الآخرة من دخول النار المؤججة ليس بشرك ، فكيف يجوز أن يخلدوا لأجله نار جهنم .

فان قيل إذاً لا يخلد المسلم بمعاصيه لأنه مؤمن ، فهؤلاء لا إيمان لهم مكتسباً . **قيل** : والكفار إنما يخلدون لكفرهم ، وهؤلاء لا كفر منهم أصلا . فثبت بهذا كله ان هذا الحديث مخالف لأصول المسلمين ، ولا يجوز إثباته ، وبالله التوفيق .

فصل

وأما ولدان المسلمين ، فقد توقف فيهم من توقف في ولدان المشركين ، فقال : إذا كان كل منهم معامل بما علم الله تعالى منه انه فاعله لو بلغه ، فكذلك ولدان المسلمين .

---

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

واحتج بما روى ان صبياً مات لرجل من المسلمين فقالت عائشـــة رضي الله عنها : (يا رسول الله، طوباه، عصفور من عصافير الجنة لم يدرك شراً، ولم يعمل به. فقال النبي ﷺ أو غير ذلك يا عائشة! ان الله تعالى خلق للجنة أهلا، خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم. وخلق للنار أهلا، وجعلها لهم وهم في أصلاب آبائهم) [1].

فيما مضى ان ما يروى عن قول النبي ﷺ في أطفال المشركين : (الله أعلم بمـا كانوا عاملين) [2] يحتمل أن يكون معناه غير ما يقول المحتج به.

وأما هذا الحديث الآخر، فيحتمل أن يكون انكار النبي ﷺ على التي قطعت : إن الصبي في الجنة، لأن القطع في ذلك بايمان أبويها، وقد كان يحتمل أن يكونا منافقين، فيكون الصبي ابن كافر. فيخرج هذا على قـــول من يقول : قد يجوز أن يكون ولدان المشركين في النار، وقد يحتمل أن يكون انكر ذلك لأنه لم يكن أنزل عليه في ولدان المسلمين شيء، ثم أنزل قوله عز وجل : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم ﴾[3]. فأخبر عز وجل : ان الذين آمنوا في الحياة الدنيا وجعل ذرياتهم اتباعاً لهم في الإيمان، فانه يلحق بهم ذرياتهم في الآخرة. فثبت بذلك ان ذراري المسلمين في الجنة.

جاء عن النبي ﷺ انه قال : (سألت ربي عز وجل أن يريني أهل الجنة وأهل النار، فجاءني جبريل وميكائيل في اليوم فقالا : انطلق يا أبا القاسم، وذكر الحديث إلى أن قال : وأنا أسمع لغط الصبيان، فقلت : من هؤلاء يا جبريل؟ فقال : هم ذرية أهل الاسلام الذين يموتون قبل آبائهم، تكفل بهم ابراهيم صلوات الله عليه حتى يلحق بهم آباؤهم) [4]. ففي هذا الحديث أيضاً بيان انهم في الجنة، والله أعلم.

فصـــــل

وإذا سبي الصبي من دار الحرب ومعه أبواه أو أحدهما، فدينه دين من معه من أبويه لأنهما يبقيان على كفرهما بعد السبي، فكان في ذلك تابعاً لهما كما كان عند الولادة تابعاً لهما

---

(١) ورد في سنن ابن ماجه « المقدمة » باب ١٠، حديث رقم ٨٢. وفي صحيح مسلم « القدر » باب ٣١.

(٢) ورد في صحيح البخاري « كتاب القدر » باب ٣.

(٣) الطور : ٢١

(٤) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة.

والله أعلم ، فان سبي وحده فدينه دين السابي لأنه وليه الذي لا أولى به منه كفالة وحمل مؤونة وغيرهما . فقام في دينه مقام أبويه كما قام في الولاية والكفالة مقامهما والله أعلم .

وإذا أسلم أبو الطفل أو أحدهما كان الطفل مسلماً ، فأما إذا أسلم الأبوان معاًفلان دينه دين الأبوين وكذلك كان في حال كفرهما كافراً ، فوجب أن يكون في حال اسلامهما مسلماً ، وبأن أسلم أحدهما صار مسلماً ، لأن الجمع بين الاسلام والكفر له غير ممكن . فكان الاسلام أغلب لأنه أحق والكفر باطل ولن يغلب الباطل حقاً . قال الله تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ .

وإن أسلم الجد فقد قيل: يكون الولد مسلماً وقيل: لا يكون ، والأولى ان اب الصغير إن لم يكن حياً ، وكان جده يكفله ، فاسلامه له إسلام ، وإن لم يكن الجد عليه ولاية ، فليس إسلامه باسلام ، لأن المعتبر هو الولاية والكفالة ، ألا ترى انه لو سبي دون أبويه لكان دينه دين السابي دون الابوين ، وكذلك إذا صادف الولاية للجد بموت الأب أو عتقه أو رقه ، وجب ان يكون إسلامه كاسلام الأب ، وإذا كان الأب حياً ، والولاية له ، فاسلام الجد غير معتبر كما لا يعتبر اسلام السابي إذا كان مع الصغير أبواه أو أحدهما ، والله أعلم .

فان قيل : ان كان دين الصغير دين وليه ، فينبغي أن يكون دينه دين السابي ، وإن كان معه أبواه ، لأنه لا ولاية لهما عليه وإنما هي للسابي . وينبغي إذا أسلم الأبوان وهما رقيقان أو أحدهما أن لا يصير بذلك مسلماً .

فالجواب: ان الأصل في هذا الباب ان الولد تابع في الدين لأبويه ، فاذا ولد بين كافرين كان كافراً بكفرهما ، لأنه جزء منهما ، على السياق الذي تقدم تقريره في الباب الأول. وإذا سبوا جميعاً كان حكمه حكمهما ، لأن السبي لم يوجب تغير دين الأبوين ، فكان الولد تابعاً لهما في أن يبقى على دينه لبقائهما ، وأمكن بهذا الاتباع بعد ان كان سبي الواحد قد ضمهم فكانوا في الإجماع بعد السبي كما كانوا قبله .

وأما إذا سبي وحده فهذا المعنى غير موجود لأنه لا سبي في الأبوين ، فيقال : إن سبيهما إذا لم يوجب تغيير دينهما ، كان الولد في ذلك بمنزلتهما ، وإذا لم يتهيأ اتباعه إياهما

---

(١) الأنبياء : ١٨

وكانت ولايته وكفالته قد صارت إلى السابي ، ولم يكن للصغير بد من دين ، كان السابي أولى بان يجعل دين الصغير دينه ، فكانت الولاية لترجح السابي بها على غيره بعد أن فات اتباع الصغير أبويه ، وذلك لا يوجب أن يكون دينه دين السابي مع وجود أبويه .

فإن قيل : فلم لا تركتموه تبعاً لوالديه في دينها ، وإن كان منفرداً عنهما ، وما أنكرتم انه إذا سبي معها كان تابعاً لهما في دينهما لأنه صغير ، فكذلك يتبعهما . وإن سبي وحده لأنه صغير وليس سبيه وحده أكثر من موت أبويه ، ولو ماتا لم ينقطع بذلك اتباعه اياهما في الدين ، فلم لا كان سبيه وحده كذلك ؟

قيل : ان السبي إذا كان يقطع حقوق المسبي ولم يغير دينه إذا كان بالغا عاقلا صار ذلك اقراراً مبتدأ له على دينه ، فنزل ذلك منزلة عقد الذمة ، ألا ترى ان المسبي لا يقبل على الكفر الذي كان يقبل عليه حين كان حزبياً ، كما لا يقبل الذمي على الكفر الذي كان عليه حين كان حزبياً ، ومعلوم ان الصغير يتبع في الذمة اباه ، وكذلك يتبع ولد المسبي أبويه .

واذا كان هذا هكذا لم يجز إذا أسبي وحده ومات الأبوين هذا المعني أن يثبت الولد فيعود أصلا في كفره بعد ما كان تابعاً ، وإذا لم يثبت ذلك له وهو لا يحل قبله ولا يمكن إجباره على تغيير الدين فليس إلا أن يسلب كفر أبويه ويجعل دينه دين غيره . ثم كان السابي أولى الناس به فجعل تابعاً له في دينه ، وكان هذا هو الذي يقتضيه صغره ، وإلا أبقاه على كفر أبويه والله أعلم . وأما إذا مات أبواه وهو صغير ، فان الكفر استقر منهما بالموت ، واستحال أن يوجب ذلك زواله عنه ، وهو تابع لهما فيه .

فان قيل : فلم لا يستقر فيه تابع . **قيل**: لم يستقر حكماً ، ان المستقر لعجزهما بعد الموت عن تعبير الدين ، ولو كان الاستقرار حكماً لتبعهما فيه والله أعلم .

فأما إذا سبي أبواه فالسبي أيضاً لم يضمهم حتى إذا صار أبواه مقرين على كفرهما صار مقراً مثلهما ، فبقي في الكفر اسوة باهل داره كما لو سبي وحده لكان في الدين اسوة بسابيه والله أعلم .

وأما إذا أسلم أبو الصغير وهما عبدان ، فانهما ان كانا سبيا معه ثم أسلما عند السابي أو عند من باعه السابي اياهما أو وهبهما له ، كان بذلك مسلماً . وإن سبي الصغير دونهما ثم أسبيا ، سواء سبيناهما من سبي الصغير أو غيره ، ثم أسلما لم يصر الصغير مسلماً باسلامهما ،

لان السبي إذا جرى عليهم معاً ، فقد حدث لهما اقرار على كفرهما بالسبي ، ولست أعني بالاقرار في هذا الموضع أكثر من ان دينهما لم يتبدل بالسبي كما تبدل ذهابهما فأوجب ذلك أن يكون الصغير تابعاً لهما في التقاء على ذلك الكفر ، كما كان تابعاً لهما في نفس الكفر حين حدث بينهما .

وأما إذا سبي وحده ، ثم سبي الابوان ، فان انفراده بالسبي قد أوجب تغيير دينه ، فلا يعود تابعاً لهما بسبي يحدث عليهما ، لان حال الاتباع حال يحقق الولد مع أبويه كالعلوق الذي هو حال يحدث له مع أبويه ، والسبي الذي هو حال له مع أبويه . فإذا فات امكان الاتباع لانفراده بوقوع السبي عليه ، لم يعد هذا الحكم ،بل يسبي أبواه بعده فيجتمع معهما قياساً على ان الميراث إذا كان يستحق باتفاق الدينين عند الموت ، فان كان ذلك إذا فات عند الموت لم يعد باسلام يحدثه الولد الكافر بعد موت الاب ، وكذلك هذا ، وإذا لم يعد تابعاً لابويه — إذا سبيا بعده — في الدين، فسبوا ، أأسلمابعد ذلك أو لم يسلما .

وأيضاً فانه إذاسبي وحده لم يخل سابيه من أن يكون مسلماً أو كافراً : فان كان مسلماً فمن المحال أن يعود الصغير الذي صار مسلماً باسلام سابيه إلى الكفر ، إذا لحق به أبواه ، لأن الله عز وجل لا يقبل الكفر بعد الإسلام ولا يقر أحداً عليه ، وإذا كان كفراً غير كفر الابوين ، والإنتقال من كفر إلى كفر غير مقبول من أحد أيضاً ان كان كفره كفر الصغير وأبويه والعلة فيما ذكرت بها ، وهي تجمع الاحوال كلها من أن حال الاتباع حال يتجدد للولد مع أبويه ، فلما فات امكان الاتباع إلى الحال التي تحدث وهي السبي دون أبويه ، لم يعد هذا الحكم بأن يلحق به أبواه من بعد فيجتمعوا ، وإذا كان الامر على ما وصفنا لم يصير مسلماً باسلام أبويه لان كفره لم يكن من قبلهما ، فيزول بزواله عنهما والله أعلم.

فصل

وإذا حكمنا للمولود بين كافرين بأنه كافر ، فان غاية هذا الحكم أن يبلغ الصغير ، فاذا بلغ فله حكم نفسه . فان اختار دين أبويه ، كافراً من ذلك الوقت بكفر نفسه ،

وإن مات على ذلك لم يدخل الجنة أبداً . وان اختار الإسلام كان مسلماً ، فان قتله قاتل قبل أن يمكنه اختيار دين أبويه ، والاسلام ضمنه لانه على جملة الدين المتقدم إلى أن يختار تركه فيسلم ، وان عمل قبله وهو كافر عليه القصاص ، وإن أمكنه الإختيار فلم يفعل ولم يسلم بذلك كان مختاراً لدين أبويه وترك ، فان قتله قاتل في هذه الحالة ضمنه .

وإذا أسلم أبواه أو أحدهما وهو صغير كان مسلماً فان بلغ بقلبه أن يجدد الإسلام ، فان غفل عن ذلك ولم يعلمه أصلاً فهو على حكم الدين المقدم إلى أن يمكنه الإسلام أو غيره ، ولا إمكان مع الجهل ولا مع السهو والغفلة ، فان قتله على ذلك قاتل عمداً فعليه القصاص إلا أن يكون مسلماً ، فلا يقبض منه للشبهة ، وهي انه بالغ ، لم تثبت له حكم الإسلام بنفسه ، وان امكنه الاختبار فأسلم ، كان كسائر المسلمين، وان كفروابالاسلام فان اختار كفراً سوى دين ابويه الذي كان له لم يترك، وإن اراد الرجوع إلى دين ابويه قبل ان يسلما ، فقد قيل : يترك ، لانه وان كان كافراً بكفرهما في بدء امره ، ثم ازيل الكفر عنه بما عدم من اتفاق ابويه على الكفر ، فلما صار له علم نفسه زال حكم الاتباع عنه ، فان عاد إلى ذلك الكفر فكان ما بينهما لم يكن .

وقيل : لا يقر عليه لانه كفر بعد إيمان وهذا اولي. والاول مبني على انه صار مسلماً تبعاً لابويه لما اسلما . والثاني مبني على انه كافر بكفرهما تبعاً لهما ، فلما اسلما وهو صغير زالت عليه كفره ، فلم يجز ان يكون كافراً مع زوال علة الكفر .

وكل كافر زال كفره فلا يزول إلا إلى الإسلام ، لانه لا ضد له سواه . وان كان المولود بين المسلمين فهو مسلم ما دام صغيراً ، فاذا بلغ كان عليه ان يجدد الايمان ، فان غفل عنه ولم يعلم ذلك اصلاً فهو على حكم الاسلام ، وإذا علم ان عليه التجديد فلم يجدد الاسلام وهو يمكنه ، فلا يقر على كفره ، بل يكون كسائر المرتدين والله اعلم .

القسم السابع

باب القول فيمن يصح إيمانه ولا يصح

أجمع المسلمون على أن البالغ العاقل من الكفار إذا أسلم طائعاً صح إسلامه . وأجمعوا على أن الطفل إذا لقن شهادة الحق فقالها متلقناً وهو لا يميزها ولا يعرف ما يراد بها لم يكن ذلك منه إسلاماً .

فأما المراهق الذي يدري ويميز ويعرف من كلمة الاخلاص لفظها وتفسيرها أو يعلم في الجملة انها شهادة الحق ، فقد اختلفوا فيه : إذا تكلم بها مريداً للاسلام فكان أشبه قول المختلفين عندنا ان إسلامه لا يصح لأنه غير مخاطب في كتاب ولا سنة ، فكان كالمعتوه لأن الإسلام شهادة أو اقرار والصبي ليس من أهل واحد منهما ، فثبت انه ليس من أهل الإسلام بنفسه ، ولأنه لو أسلم أبواه وأمه صار مسلماً باسلامه ، ومن ثبت له ذلك الإسلام بغيره لا يثبت له بنفسه كالطفل الصغير إذا لقن والمعتوه ، ولأنه لم يسلم لم تجب النار عليه ما لم يكفر وهو بالغ . فدل على أنه لا يصح إسلامه بنفسه كالطفل لأنه ليس عليه جهاد المشركين في ماله لصغره، فدل ذلك على أن الإسلام له بنفسه كالطفل، ولأن عقد الإسلام عقد لازم ، والصبي ليس من أهل العقود اللازمة بنفسه كالبيع والنكاح والطلاق . ولأن الإسلام ضمان ، وضمان الصبي لا يصح كما لو ضمن دين رجل ، ولأن ردته ليست بردة ، فكذلك إسلامه ليس باسلام .

والدليل على أن ردته ليست بردة انه لا يعاقب عقوبة المرتدين وهو صغير ، وكل قول لم يؤخذ الصبي بعقوبته لصغره ، فإن ذلك القول موضوع عنه أصلاً وهو في حكم الساكت عنه كالقذف . وإذا كان كذلك ثبت أن ردته موضوعة عنه ، ولان من لا ردة له لا إسلام له كالمجنون . ولأن الموجب لكفره كفر وليبه وكافليه ، أعني أبويه ، وإسلامه لا يزيل كفرهما . فاستحال ان لا يثبت له الإسلام ، فان الحكم لا يرتفع مع بقاء علته .

فان قيل : بل العلة في كفره ، عدم الاسلام منه بعد وقوع المعرفة له به . قيل : هذا باطل ، لأنه لو كان بين أبوين مسلمين لم يكن قبل البلوغ كافراً . إذا لم يعقد الإسلام بنفسه بعد وقوع المعرفة له به ، فثبت أنه إذا كان بين أبوين كافرين ، فإنما ألحقه حكم الكفر من قبل أبويه لا لما وصفت والله أعلم .

فان قال قائل : ليس اذا كان الصبي كافراً لكفر أبويه ، وكان إسلامه لا يزيل كفرهما ، وجب أن لا يصح إسلامه . فإن الصبي المسبي إنما يكون كافراً لكفر أبويه ، وإذا سباه مسلم دونهما ، صار مسلماً ، وان كان سبيه إياه لا يزيل كفر أبويه .

فالجواب : ان إسلام السابي يجعله مسلماً إذا سباه وحده دون أبويه ، فانه نزل منه منزلة أبويه . لما يقل حق الولاية والكفالة عنها إليه ، فصار كان أسلما ، ولو أسلما لصار مسلما باسلامهما . فكذلك إذا سباه مسلم وحده صار مسلماً باسلامه .

فان قيل : فقولوا انه يصير مسلماً إذا سباه مع أبويه، لأنه وإن كان سباه مع أبويه، فإن حق الولاية يكون له عليه وعلى أبويه جميعاً .

قيل : وان سباه مع أبويه فإن حق الولاية والكفالة يحتاج إليها الصغير في تربيته ، وتنشئته تكون لأبويه . ولا يكون للسابي أن يحول بينهما ولا بينه ، ولا يجوز بيعه إياه دونهما ولا بيعهما دونه ، وإن كانت أمه ترضعه لم يكن له أن يحول بينهما وبين ارضاعه ، وللأب فيه من حق الكفالة التي يتبع لها الرجال مباشرة ، وإشارة بها على الأم ما كان يكون له من قبل،فلذلك كان تابعاً لهما في الدين. واما إذا سبي وحده فقد بطل عليهما ما كان لهما فيه من ولاية وكفالة ، وصار للسابي ، فلذلك صار دينه دينه والله أعلم .

فان قيل : أليس ولد الأمة يكون رقيقاً لرق أمه ، ثم قد يعتق وأمه رقيق بحالها فيعتق ، ولا يدفع عن الحرية لأجل ان رقه كان حكماً لرق الأم ورقها دائم . فكذلك الشاة إذا ماتت نجس جلدها لموتها ، ثم يدمغ فيطهر والموت قائم فيه ، ولم يرتفع بالدفاع عنه . فلم لا اجزتم أن يكون الصغير كافراً بكفر أبويه ، فاذا عقل وميز واسلم صح إسلامه . فان كان الكفر في أبيه فإنما **الجواب** : أن رق الأم بشرائطه علة لعلوق الولد رقيقاً ، فأما دوام رقه فليس معلولاً برق الأم .

وكذلك الموت بشرائطه علة لتنجيس الجلد ، فأما دوام نجاسته فليس معلولاً بالموت ،

لكن علة دوام الرق تمسك المولي بحقه منه ، وعله دوام النجاسة إهمال الجلد وإخلاؤه من الدباغة ، وأما علة كفر الصغير في حال العلوق وبعدها فكفر الوالدين اللذين هما وليـاه وكافلاه بانفسها لا غير ، وذلك لا يرتفع باسلامه ، فلم يجز أن يكون مسلماً مع بقاء مـا يوجب كفره .

فان قال : فاني أقول علوق الولد كافراً لكفر أبويه ودوام كفره إنما هو لتمسكه به وامتناعه من الاسلام .

قيل : لو كان كذلك لم يصير مسلماً باسلام أبويه ، كما لا يعتق الولد المنفصل بعتـق أمه ، وفي وقوع الإجماع على أنه يصير مسلماً ما دل على أن كفره من قبل أبويه . وأيضاً فالمولود بين مسلمين يلزمه إذا بلغ أن يتشهد شهادة الحق ويجدد الايمان ولا يلزمه ذلك قبل البلوغ وإن كان يدري ويميز لزوماً لو تركه لكفر ، فكذلك المولود بين كافرين كـان يلزمه الايمان إذا بلغ فلا يلزمه قبل البلوغ ، لزوماً إذا تركه كفر . فصح ان كفره من قبل أبويه اللذين هما ولياه وكافلاه بانفسها والله أعلم .

قالوا : روينا أن علياً رضي الله عنه أسلم وهو صغير لم يبلغ وان حكمه ، فدل ذلك على صحة الصغير .

فالجواب: ان الخبر ورد بأن النبي ﷺ دعاه يومئذ إلى الإسلام والصلاة فاسلم وصلى، فصح إسلامه وصحت صلاته . وانت تقول : لا صلاة للصغر، فالحديث حجة عليك. وأما أنا فأقول إنما أمره رسول الله ﷺ بالإسلام والصلاة ، فهو أحد شيئين : امـا أن يكون خصه بالخطاب لما صار من أهل التمييز والمعرفة دون سائر الصغار ، ليكون ذلك كرامة له ومنقبة ، فلما توجه عليه الخطاب والدعوة فلا يصح منهم الإسلام .

أو يكون خطاب النبي ﷺ إياه بالدعاء الى الإسلام والصلاة يومئذ على انه بالغ عنده، لأن البلوغ بالسنين ليس مما شرع في أول الإسلام ، بل ليس يحفظ قبل قصة ابن عمـر في أحد والخندق في ذلك شيء . فالظاهر أن الناس كانوا يجرون في ذلك على رأيهم ومـا تعارفوه وتوارثوه : من أن الصبي من لا يمكن أن يولد له ، والرجل من يمكن أن يولد له. وكان علي ابن عشر سنين لما أسلم . وظاهر من قال : انه ابن عشر انـه استكمل عشراً ودخل في الحادي عشر ، ومن بلغ هذا السن فقد يمكن أن يولد له ، ولهذا قلنا ان امرأة

ابن العشر إذا جاءت بولد كان لاحقاً به حتى يبلغ ، فينفيه باللعان .

وان كان هذا هكذا فلا شبه أن علياً رضي الله عنه كان في حكم يومئذ بالغاً ، فلذلك صح إسلامه ، وتوجه الخطاب عليه . فلما شرع البلوغ بعد ذلك بالسنين ، ونظر إلى السن الذي كل من بلغها جاز ان يولد له دون السن الذي يندر ممن بلغها للإيلاد، كان من قصرت سنوه عن ذلك الحد صغيراً في الحكم ، ولم يجب أن يصح إسلامه ، وهذا أولى ما يقال في هذه القصة والله أعلم .

قال القائل : الايمان من موجبات العقول ، فاذا عقل الصبي الايمان الزمه عقله أن يؤمن فاذا آمن وجب يعتد بايمانه لأنه فعل ما التزمته الحجة بفعله .

فالجواب : ان الذين يذهبون إلى أن الوجوب والسقوط يدر كان في بعض الأشياء بالعقل ، وان الإيمان بالله جل ثناؤه حسن لعينه ، والكفر به قبيح لعينه ، لا يزيدون في الإيمان على ما أصف ، وهو أن العاقل إذا استدل فعرف أن يعتقد – ومعنى يعتقد أن يوطن القلب على أن ما ظهر له صحيح ، ثم ان يحدث بما عرف فأخبر عنه صدق ولم يكذب . فاما أن يكون عليه في قضية العقل أن يخبره عما اعتقده ، ويتحدث به فلا ، وليس ما يلزمه أن يصدق أو يحدث خاصاً لما عرفه من الله تعالى ، ولكنه عام لكل ما عرفه وأدركه .

وأجمعنا على أن الإيمان لا يتم بمجرد الإعتقاد ولكنه يحتاج معه إلى الإقرار باللسان، وإذا لم يمكن إضافة وجوب الإقرار إلى العقل لم يجز أن يقال : ان اقرار الصبي إيمان لأجل انة يعقل والإيمان من موجبات العقول . ويدل على ما قلنا ان العقلاء اختلفوا في ان الاقرار من كمال الايمان حتى لا يتبقى الكفر إلا به ، أو هو من شرائعه وفروعه ، وليس من شرطه كماله ، ولم يختلفوا في وجوب الإعتقاد بعد حصول المعرفة ، فلو كان الإقرار من موجبات العقول لم يختلفوا في وجوبه كما لم يختلفوا في الاعتقاد ، وكما لم يختلفوا في انه ان قصد الاخبار عن معتقده كان عليه أن يصدق ويخبر بالحق والله أعلم .

وأيضاً فان الإيمان الذي يضاف وجوبه إلى العقل ، هو الإيمان بعد المعرفة الناشئة عن الإستدلال ، والصبي لا يكمل لمثل هذه المعرفة ، فلم يكمل لوجوب الإيمان عليه بالعقل. ويدل على ما قلنا ان الكفار الذين تقع لهم معرفة الباري جل جلاله لما يرون ان الإيمان به

واجب ، وإن كانوا بأنفسهم عقلاء مميزين ، بل كان ذلك عندهم داخلاً في أبواب المحال .

وإنما رأى أن الإيمان واجب بالعقل من حصلت له المعرفة ، فثبت ان الإيمان الناشىء عن المعرفة هو الذي يضاف وجوبه إلى العقل والمعرفة في قصة العقل له أن يكون اضطرار ، وليس ذلك قولنا . واما أن يكون استدلالاً - وهو قولنا - والصبي لا يتكمل الإستدلال المؤدي إلى المعرفة فلم يمكن أن يضاف وجوب الإيمان عليه إلى العقل والله أعلم .

وأيضاً فان الايمان بالله لا يتجرد على الايمان بالنبي ﷺ ، ووجوب الإيمان بالنبي ﷺ يقع لدعوته ، ودعوته خطاب يذيع بالسمع ، فلما لم يكن الصبي حط في الخطاب المسمعي ، دل ذلك على أن حجة النبوة ، إنما تقوم عليه ، فتلزمه إذا بلغ ، وفي ذلك دليل على انه لا يكون مسلماً - وان آمن بالله - ما لم يبلغ مؤمن برسوله ﷺ .

فان قيل : أرأيت ان قلنا ان المقدار الذي يلزمه بالعقل من الإيمان يصح منه إلى أن يصير من أهل الزيادة عليه .

قيل : ليس لك أن تقول هذا ، لأنك تقبل منة الإيمان بالله ورسوله ، وتنزله في غاية الأحكام الشرعية منزلة الكبير . فلو كنت صححت منة ما يوجبه العقل دون غيره ، لوجب أن لا يلبسه الإيمان كله ، وهو انما يلبس ببعضه .

وأما من يخالف هذا الرأي فانه يقول : العقل يدرك به الحسن حسناً والقبح قبيحاً ، أو المتحسن والمقبح غيره . كما أن البصر يدرك به الأسود أسود والأبيض أبيض، والمسود والمبيض غيره .

والدلائل على الباري جل ثناؤه ووحدانيته وقدسيته قائمة ظاهرة متجلية للعقول . فاما ان ذلك المعروف المدل يجب اعتقاده ، ويقبح أغفاله ، ويجب الاقرار به ويقبح كتمانه ، فهذا من فرائض الأمر والنهي المسموعين ، وليس واحد منهما حسناً لعينه ولا قبيحاً لعينة . وكذلك الصدق والكذب والعلم والعدل وشكر المنعم وكفرانه .

ولولا أن هذا هكذا لوجب إذا بلغ الصبي حد من يعقل ويميز ، واستدل بأدنى ما يقدر عليه أو بما ينبهه عليه غيره ، فحدثت له عنه المعرفة ، فعرف واعتقد وأخبر عن النبي ﷺ اعلامه ، ووجد ذلك متتابعاً في الناس فحدثت له المعرفة به واعتقده أن

يكون مؤمناً ثم يلزمه إذا قررت عنده الشرائع العامة المتوارثة ، ووقعت له المعرفة بها أن يؤديها ، لأن إفادة العقل صاحبه ، المعرفة بما يوجبه الاخبار العامة لا يتأخر لأجل أن الصبيان غير مخاطبين ، وإذا وقعت المعرفة وجب الإعتقاد ، ثم إذا كان المتقد أمراً فطاعة الله واجبة بالعقل عندهم . فينبغي أن يجب التقيد فلا يبقى شيء من الشرائع سوى ما جاءت به الأخبار الخاصة ، الا يلزم الصبي العاقل ، وفي هذا بعض الشرع المتفق عليه وإزالته عن سنته ، فصح وثبت أن المعول في الفرائض كلها على الأمر ، والأمر غيرمتوجه على الصبي ، فلم يكن له بنفسه إيمان ولا كفر والله أعلم .

فان قال : لا يلزم ما ذكرت لأن الصبي وإن أفاده عقله : المعرفة بما توجبه الأخبار العامة عن أمر ونهي ، فإن تلك الأوامر والنواهي إنما هي على البالغين ، فلا يلزم الصبي بتنفيذها ، لأن معرفة الواحد فرض على غيره ، لا يلزمه تنفيذه بنفسه .

قيل له : أما علمت أن أهل هذا القول يقولون : وكذلك الصبي وان عرف ربه بعقله ، فلا يعرف أن فرضا عليه توحيده والإيمان به ، وإنما يعرف ذلك بالأمر ، وهو ان عرف ان أمراً بذلك واقع من الله تعالى لم يلزمه امتثاله ، لأن الأمر للبالغ دونه ، وليس عليه بتنفيذ ما أمر به غيره ، والإيمان والشرائع في قولهم سواء والله أعلم .

وأيضاً فلو كان في العقل وجوب شيء وحسنه وسقوطه ضده وقبحه ، لم يجز أن يتأخر عن الصبي العاقل الخطاب الشرعي ، لأن المعرفة بما يخاطب تقع له المعرفة بما تركت في عقله ، فإذا صار محجوباً بموجب العقل وجب أن يصير محجوباً بموجب السمع ، لأن الخطاب يقرع سمعه ، كما المعقول يخطر بقلبه ، وصغره لا يدفعه عن المعرفة بواحد من الأمرين .

ولما كان من قول الأمة انه غير محجوج بخطاب سمعي دل ذلك على انه غير محجوج بدليل عقلي ، ولو كان في العقل الدليل الذي يقولون ، لم يجز إلا أن يكون محجوباً به . ولو جاز أن ما يحدث له من العلم بالمعقول فلماأجمعوا على أن حجة لا يقوم عليه بالسمع وهو صغير ، دل على انها لا تقوم عليه بالعقل. فيثبت انه ليس فيالعقلهذه الدلالة التي يدعونها ، وانما فيه احداث الحسن حسناً والقبيح قبيحاً ، فاما أن يكون حسن لعينه أو قبيحلعينه

ولا يكون ، وإنما يحسن ما ينبغي فعليه الأمر به ، ويصح مالا ينبغي فعليه بالنهي عنه وبالله التوفيق .

ويقال لهذا القائل : قال الله عز وجل : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها ﴾ (١) ومعلوم ان العقول لا تعدم حينئذ ولكن تكون بحالها دالة على ما كانت تدل عليه من قبل ، ولكن خطاب السمع لما زال ، لم تعتد بعد ذلك بايمان أحد ولا بتوبته ، وكذلك الكفار في القيامة تكون عقولهم معهم لا يعدمون منها شيئاً ، ولكن خطاب البعيد لما كان زائلاً عنهم لم يعتد بايمانهم ، وأحسنوا أن الصبي المراهق عاقل مميز لحب الإيمان في عقله حسنا والكفر قبيحاً ، أليس خطاب البعيد غير متوجه عليه ! فما أنكرتم أنه لا إيمان له وبالله التوفيق.

وقال قائل : في الإعتراض على ما استشهدت به من العقول : ليس إذا كان الصبي لا يعقد النكاح والطلاق على نفسه ، بطل أن يعقد الإنسان على نفسه ، فإن أمه لا تعقدالنكاح والطلاق عليه ، ثم لا يدل ذلك على أنها لا تعقد الإسلام عليه لعقده على نفسها .

فالجواب : ان الصبي لا يعقد شيئاً من العقود من نفسه ، فلذلك لا يعقد الإسلام الذي هو أشرف العقود وأعلاها ، وجواز أن تعقد الأم عليه الإسلاملعقده على نفسها مععجزها عن عقد سائر العقود عليه ، لا يدل على جواز أن يعقد بنفسه الإسلام على نفسه ، مع عجزه عن سائر العقود على نفسه ، لأنه تابع في الدين لغيره في الجملة ، والتابع يتبع أصلامرة وأصلاً سواه أخرى ، وذلك لا يوجب أن يستقل بنفسه فلا يتبع أصلاً . ألا ترى أن الولد يتبع في الحرية والرق امه مرة وأباه أخرى ، ولا يمكن أن يكون أصلاً في واحد منها ، فيعلق جزءاً وأبواه مملوكان ، لا غرور بينهما أو رقيقاً وأبواه حران . فكذلك الصغير قد يتبع في الإسلام أمه مرة وأباه أخرى ، ولا يمكن أن يكون أصلا في الدين فيسلم فيكون مسلماً وأبواه كافران .

وأيضاً فإن هذه المعارضة غير صحيحة لأن المرأة لا تلي على ولدها الصغير نكاحاً

---

(١) الأنعام : ١٥٨

ولا طلاقاً ، لا تلي عليه إسلاماً وإنما يسلم بنفسها فيصير الولد في الحكم مسلماً ، فلم يظهر بين الإسلام والنكاح والطلاق من الوجه الذي أراده السائل فرق ، والله أعلم وبه التوفيق للصواب .

فصل

وإذا أسر الحزبي وهو من المعطلة أو عبدة الأوثان فقيل له : لتسلم أو لنقتلنك، فاسلم ، صح إسلامه في ظاهر الحكم . فان لم يؤمن من قلبه فهو عند الله تعالى منافق ، وإنما كان إسلامه صحيحاً في الظاهر ، لأن إكراهه عليه كان حقاً إذا لم يكن بدين الله تعالى ديناً ، فان الله تبارك وتعالى لا يرضى من قادر على التدين والتعطل ، ولا يسوغ أحداً أن يشرك به شيئاً إذا كان لا الاكراه لحق لم يكن هو المكره والمختار فرق في الحكم كمن أكره على طلاق لحق ، أو تفسير اقرار محمل ، فان طلاق ذلك وتفسير هذا كالواقع من المختار .

فان قيل : ولم يكره أحد على الإيمان ، والإيمان لا يصح إلا بالإعتقاد ، والإكراه على الإعتقاد لا يتأتى لأنه معيب .

قيل له : لأنه ليس وراء الإكراه إلا الإمساك والتجافي عنه مكان الإكراه أعدل ، لأنه قد ينتبه على الإكراه على قبح الكفر وضيعته ، فيحدث له ميل إلى الإسلام ورغبة فيه فيكون إيمانه إيمان مختار ، ولو ترك لتمادى في كفره ، فيكون الإكراه أشبه باستفتاح الكفر واستحبابه من الإمساك والله أعلم .

وأيضاً فإن الكافر إذا كان قد سمع دين الإسلام ودعوة النبي ﷺ وبعض ما جاء به من الاعلام ، فالأغلب ان امتناعه من الإسلام عناد وليس عن شبهة واقعة له. فإذا حمل على الإسلام بالوعد فاسلم ، فالظاهر ان إسلامه لتبين الحق له ، وان كان أخره إلى أن يوعد عليه ، وإنما الإكراه إنما أثر في إزالة عناده لا في تقرير صحة الإسلام .

كما ان المريض الذي يعرض عليه الدواء فيمتنع من شربه إذا حمل عليه بوعيد فتناوله لم يخل من أن يكون مستشفياً بالدواء وان كان آخر تناوله إلى أن يوعد عليه ، وكان

اثر الاكراه إزالة الإمتناع لا تحقيق شفعة الدواء عنده . فلهذا جعل مسلماً في ظاهر الحكم وان كان إسلامه عن إكراه والله أعلم .

مسأله وأما الذمي إذا استكرهه المسلمون على الاسلام فأسلم ، لم يلزمه الاسلام إلا بأن يقر بأن رأيه تغير وأسلم مختاراً لأنه لم يكن لهم ان يستكرهوه بعد ثبوت الذمة له، فكان ذلك كاستكراه الكفار المسلم على الكفر . ومعلوم انه ان تكلم بالكفر غـــير مختـــار لم يكفر . فكذلك الذمي إذا استكره على الاسلام فكلم بالحق غير مختار لم يسلم .

فان قيل : الاكراه على الاسلام اكراه على حق فلم لا كان إسلام المكره كاسلام المختار .

قيل : الاكراه على الحق ينبغي أن يكون بحق حتى يصير المكره كالمختار . فاما إذا كان ما يقع الإكراه عليه حقاً في نفسه ، الا أن الاكراه عليه غير مملوك ، للمكره فيه حكم المختار .

ألا ترى أن رجلاً من عرض [1] الناس لو استكره رجلاً على بيع شيء من ماله في دين عليه في بلد فيه سلطان أو قاض لم يلزمه ذلك البيع . ولو استكرهه عليه الحاكم فباع لزمه ، وما افترقا إلا لأن الحاكم يملك والأجنبي لا يملكه ، والبيع إذا لم يوصل إلى البعد إلا به حق في الحالين ، فكذلك إكراه الذمي على الاسلام غير مملوك للمسلم ، وان كان الاسلام حقاً ، فواجب أن لا يكون المكره عليه كالمختار والله أعلم .

فان قيل : لم لا قلتم ان المسلمين إذا استكرهوا الذمي ساروا بذلك ناقضين عهده ، فإذا أسلم كان ذلك كإسلام من لا عهد له .

قيل : عهده لا ينتفض ، فنقض من ينقضه من المسلمين من غير جناية يحدثها أو اختلاف شرط أن يكون منه ، وليس نقضهم عهده كنقضه ، لأن العهد له وهو المحتاج إليه ، فإذا نقضه انتقض ، لأنه لا يضر بذلك إلا نفسه ، وإذا نقضه المسلمون من غير عذر لم ينتقض لأنه إنما عقد له دفعاً لما يخشاه من الضرر من جنايتهم ، فلو لـم يلزمهم و كان ينتقض أو ينقضوه لم يكن فيه فائدة واستوى وجوده وعدمه والله أعلم .

---

(١) من عرض الناس : اى من عامة الناس .

فصـــل

وإذا ارتد المسلم عن دينه وهو سكران أخذ به ، لأنه فيها عليه بمنزلـة الصاحي الا ترى انـــه لو أقر بدين أو طلق امرأته أو أعتق عبده لزمه ، وهو في وجوب الصلاة بدخول الوقت كالصاحي . فكذلك الردة عليه ، فكان فيها كالصاحي . فان رجع إلى الاسلام وهو سكران صح إسلامه لأنه إقرار وعدل ويلزم نفسه به حقوقاً. فهو كنكاحه وطلاقه وعتاقه واقراره بالديون والجنايات، فلما كان تلك يلزمة فالاسلام أولى أن يلزمه والله أعلم .

* * *

القسم الثامن

باب القول فيمن لم تبلغه الدعوة

إن كان في ناحية من الأرض قوم لم تبلغهم الدعوة فالقول فيهم : أن من كان منهم عاقلا مميزاً متمكناً من الرأي والنظر ، إلا انه لا يدين ديناً ، ولا يعرف لنفسه خالقاً ولا يعتقد رأيا من الآراء ، وإنما يعيش عيش البهائم ، فهو كافر ، إن قتله قاتل فلا شيء عليه . وإن كان يعتقد ديناً نظر فان كان يعتقد ديناً مستقيما في أصله كالنصرانية قبل أن يبدل الا أنه لم يتحول عنه لأن دعوة نبينا ﷺ لم تبلغه ، فهذا مسلم ، إن قتله قاتل فعليه دية مسلم .

وسمعت بعض أصحابنا يقول : عليه القود [1] ، فان كان يعتقد ديناً كان مستقيما في الأصل الا أنه يدل عن سببه بما خلط من الباطل فليس بمسلم وينظر فان كان ذلك نصرانية أو يهودية مبدأه ففيه ثلث دية المسلم ، وإن كان مجوسياً ففيه ديه أهل دينه ، وإن كانوا عبدة أوثان أو معطلين فهم كفار لا حرمة لهم ، ولا شيء على من قتلهم .

وإنما قلنا ان كان منهم عاقل مميز ، إذا رأى ونظر إلا انه لا يعتقد ديناً فهو كافر ، لانه وإن لم يكن يسمع دعوة نبينا ﷺ ، فلا شك انه سمع دعوة أحد الأنبياء الذين كانوا قبله صلوات الله عليهم على كثرتهم ، وتطاول أزمان دعوتهم ، ووفور عدد الذين آمنوا بهم واتبعوهم ، والذين كفروا بهم ، وخالفوهم فإن الخبر قد يبلغ على لسان الموافق ، وإذا سمع أية دعوة كانت إلى الله فترك أن يستدل بعقله على صحتها ، وهو من أهل الاستدلال والنظر كان بذلك معرضاً عن الدعوة فكفر والله أعلم .

وإن أمكن أن يكون لم يسمع قط بدين ولا دعوة نبي ، ولا عرف ان في العالم من يثبت إلهاً ، ولا يرى ان ذلك يكون فاذ كان ، فأمره على الاختلاف : فمن ذهب إلى ان للعقول أحكاماً من نحو القطع ، فحسن الشيء أو قبحه أو سقوطه ، فانه يقول : ان على هذا أن

---

(١) القود : القصاص .

ينظر في حال نفسه ويتكمر في أن وجوده على أي وجه كان أو يقسم ذلك ثوابه وفهمه ثم يستدل على الصواب منها بالدلائل الواضحة اللائحة بالحق المستنير بالصدق، وإذا كان ذلك واجباً عليـــه فاغفله وأعـرض عنه كان حكمه حكم المعرض عن الدعوة بعد أن بلغته والله أعلم .

وأما من لا يرى هذا الرأي فانه يقول : العقل وإن كان طريقاً إلى المعرفة، فينبغي أن يأتي الأمر بالاستدلال فيلزم، أو يرد الأمر بالإيمان فيجب . وإنما امكان معرفة الله تعالى بالعقل كامكان معرفة ما وعد الله به، وامكان سائر الأعمال التي تصلح لها الأعضـــاء والجوارح، وإذا كان شيء من ذلك لا يلزم إلا بامر، فكذلك هذه المعرفة . وإذا كان كذلك - وقد أخبر الله تعالى : ﴿ انه لا يرضى لعباده الكفر ﴾[1] - صح ان لا يؤخر عنهم الأمر بالايمان، فلا يمكن إذا وجود من لم تبلغهم الدعوة إلى الإيمان، ولا معنى لوضع هذه المسألة فيه، والبحث انه كافر أو مؤمن، والله أعلم .

فصـــل

وأما من كان منهم متمسكاً بدين مستقيم كان حقا في وقت لم يبلغه الخبر عن غيره فهو مسلم، لانه لا يصير محجوجاً بغيره ما لم يبلغه خبره . ألا ترى أن أهل قباء لم تلزمهم الحجة بتحويل القبلة إلى الكعبة ما لم يبلغهم الخبر، ولذلك استداروا فبنوا ولم يستأنفوا، وقد قال الله عز وجل : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾[2] بمعنى الرسول للتبليـغ، فمن (لم) تبلغه دعوة الرسل فكمن لم يرسل اليه .

ألا ترى أن الرسول إذا أوحي اليه وهو في بيته لم يصد قومه محجوجين بما أنزل عليه قبل أن يبلغهم، فكذلك البعداء منه هذا حكمهم . وروى أن النبي ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن أمره أن يدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله، وكـان اذا بعث سرية يقول لأميرهم : اذا لقيت العدو فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وإني رسول الله . فلما لم يأمر بالقتال إلا بعد الدعوة علمنا ان الحجة لا تلزم من لم يسمع الدعوة إلا بأن

---

(١) ورد في سورة الزمر - آية ٧ : « ولا يرضى لعباده الكفر »

(٢) الإسراء : ١٥

يبلغها أمام القتال ، وهذا هو الذي لا يجوز غيره ، لأن القتال إنما هو على الدين فيستحيل أن يتقدم الاعلام بالدين لمن ينبغي أن يتقدم الدعوة والاعلام. فان وفقت الاجابة وإلا كان القتال بعد الإصرار والله أعلم .

وإذا كان الامر على ماوصفت، وجب إذا قيل من ذكرت أن يكون فيه ديته مسلم لأنه مسلم هذا ما قاله فيه غيري، وقائل هذا القول - وإن كان من أهل الفتيا - فيحتمل أن يكون غير ما قال : وهو أن يكون نصف الدية لانه ناقص الايمان ، والنبي ﷺ لما وصف المرأة بنقصان الدين ، من حيث انه لم يسمع بمحمد ﷺ ، فرسول خاتم النبيين وسيد المرسلين أول من يكمل دينه ، وإنه ان كان غير آثم وخرج لقصور الدعوة عنه ، فالمرأة أيضاً بما تدعه من الصلوات غير آثمة ولا حرجة ، ولم يمنع ذلك من حط ديتها عن دية الرجل.

ثم إذا لم تكمل الدية ، وجب نصفها قياساً على المرأة ، لانه لا أصل له يرد اليه غيرها، ولا يقصر عن الثلث قياساً على أن أهل الذمة لانه لا إيمان لهم وهـذا مؤمن إلا انه ناقص الإيمان كالمرأة .

وفي هذا القول لا قود على قاتله ، وإن كان الرجل يقبل بالمرأة لان النقصان في أصل إيمانه ، ونقصان دين المرأة في أحد فروع الإيمان لا في أصله ، فلما تساوى المسلم والمسلمة في أصل الإيمان ، وكان التباين بينهما في بعض الفروع ، تساوياً في القصاص الذي هو أصل فاصل ، وتبايناً في الدية التي هي بدل وفرع . وأما من لم تبلغه الدعوة فانه لم يساو المسلم في أصل الايمان ولا في فروعه ، فوجب أن لا يساويه في النفس ولا في الدية والله أعلم.

فان قيل : أو كل من ينقص دينه تنقص ديته ؟

قيل : لا ! ولكن الصلاة تأتي الايمان التام ، والإيمان بالرسول يأتي الإيمان بالله ،فمن كان مسلماً بمجرد إيمانه بالله ، وكان ناقص الدين من حيث لم تبلغه دعوة رسول الله ﷺ فيؤمن به ، كان كالتي تم إيمانها بالله ورسوله أو كانت ناقصة الدين من حيث انها تحيض شطر أيامها في الاغلب ، فلا يمكنها أن تصلي ، والله أعلم .

وأما من كان متمسكاً بدين مبدل ، فحكمه حكم أهله في الضمان ومقدار الدية. لان ضمان الكتابي إنما يسقط بمناصبة المسلمين ، الا ترى أنه إذا اعتصم بذمة أو امان ضمن،

والذي لم تبلغه الدعوة ليس بمناصب ولا مخالف ، فوجب أن يكون مضمونا .

فان قيل: بل ضمان الجاني إنما يجب إذا اعتصم بذمة أو أمان! ألا ترى ان الناصب منهم لا يضمن ، والذي لم تبلغه الدعوة ليس معتصما بواحد منهما ، فوجب ان لا يضمن .

قيل له : ان الذي قلناه اولى ، لان اصل الكتابيين من حسن ، كانوا مقرين على اديانهم الضمان ، وسقوط الضمان حادث بحدوث الخلاف والمناصبة ، والخلاف لا يظهر إلا بعد وجود الدعوة ، فمن لم تبلغه الدعوة فلا خلاف منه ، فوجب ان يكون مردوداً إلى اصل امره ، والله اعلم بالصواب .

القسم التاسع

باب فيمن مات مستدلاً بقول

– وبالله التوفيق – من بلغ عاقلا مميزاً ، او عرف الدعوة وسمع بعض اعلام النبي ﷺ بالبلاغ المطبق الذي لا يمكن ان يكون كذبا ولا غلطـــاً ، فلم يذعن له ، ودافع بالايمان ليستدل وينظر ، فهو كافر ، وإن مات مستدلا مات كافراً ، لان اعلام الانبياء صلوات الله عليهم باهرة للعقول ، فكما ان من شاهدها ولم يؤمن بها ، وشكك فيها نفسه وزعم انه يستدل وينظر لم يكن معذوراً .

فكذلك من بلغه خبر هذا البلاغ الذي وصفت ، فلم يؤمن لم يكن معذوراً .فأمامن كان في طرف من الارض بعيد ، لا يبلغه إلا الافراد في الافراط ، فسمع خبر النبي ﷺ وبعض اعلامه ، فتوقف عن الايمان به لينظر : ايصدق الخبر به او يكذب ؟ واعتقد ان الاخبار ان تظاهرت بمثل ذلك ، آمن الا انه لم يبرح من موضعه ليخشى الاخبـــار ، والبراح يمكنه فهو كافر ، لأنـه رضي لنفسه بالشك بدلاً من اليقين ، وغرر مـــع ذلك بالدين ، وإن كان البراح لا يمكنه ولم يكن عنده إلا خبر من يمكن الكذب منه ، لم يكن محجوجاً به .

ولا يشبه هذا ، الواحد كان يبعثه رسول الله ﷺ إلى أحد الملوك بكتابه ليدعوه إلى الاسلام لأنه لم يغفل ذلك الا بعد إنتشار خبره وتطاير الركبان بذكره ، وما غافص[1] أحداً برسول أو كتاب ، فكان يخلص كتابه إذا ورد على المكتوب اليه للدعوة دون التعريف ، فلذلك كان من ورد عليه الكتاب على يد واحد ، محجوجاً بدعوته والله أعلم .

وإذا سمع سامع بدعوته ولم يسمع بشيء من اعلامه لم يكن محجوجاً بمـــا سمع ، الا

(١) ما غافص احدا : ما اخذ احداً على حين غرة .

انه ينبغي له أن يتوقف ، فان سارع إلى تكذيبه كفر ، وإن لم يسمع بشيء من اعلام نبوته إلا القرآن ، وقوله : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ وكان من عليه أهل البلاغة ، وأخذ يمتحن نفسه لينظر : هل يتهيأ له بمعارضته ، وهو يعتقد انها لم تستوله [1] واعتاصت عليه آمن به وانقضت مدة لو كانت المعارضة مؤاتيه في ممكنته لواته فيها وأمكنته ، فلم يقدر على شيء وآخر الإيمان به كفر . فـــان قبل أن يمكنه معرفـة حاله وهو يراود نفسه فربما طمع ، وربما يئس ، ولم يظهر له من حال نفسه ما يمكنه القطع به . وكان من قبل هذا البلاغ متمسكاً بدين حتى مات مؤمناً بايمانه المتقدم .

فان قيل : لم كفرتموه إذا يئس من امكان المعارضة ، وهو يقول : الست أنا الناس كلهم ؟ ولعل غيري يقدر على ما عجزت عنه ، وأما أنا واحد من الجمع !

قيل : لأن مباينة القرآن ســائر الكلام المنظوم ، إنما هي من قبل خروج نظمه عن معارف الناس ، فإنه ليست له طريقة تدرك فيحافظ عليها ، كما للشعر الذي إذا أجاب طبع الواحد اليه والأقدر على تعلمه والتوصل اليه باسبابه ، وإذا كان كذلك ، فكـــل من كان من أهـــل البلاغة والنظم وجاهد نفسه في معــارضه سورة من القرآن فلم يقدر عليها ، لأن معرفته لم تحط بنظمه ولم تقف له على هيئة مطردة وطريقة منسقة صار محجوباً لعجزه . وكان علمه بما ظهر له من حاله علماً بأحوال من كان في مثل معناه .

ألا ترى انه لو بلغه فمكان القرآن انه يقول الدلالة على نبوتي ، ولزوم ان احداً لا يسمع كلامي وقولي الا وينسينا اسمه ، فلا يذكره ولا غيره إلا ان اذكره ، فنسي هذا المبلغ اسمه عند هذا البلاغ ونسبه مبلغه وجهد جهده في تذكره ولم يذكر لصار محجوجاً بما بلغه . وإن لم يكن له أن يتوقف عن الايمان معتلا بأن يقول : ان كنت نسيت اسمي ولم أذكره فلعل غيري لا ينساه أو يذكره ، لأنه لم ينس اسمه لعارض من العوارض التي تحدث للطبـــاع فينسى ويغفل . فقال : لعل الناس يتباينون في ذلك ، فعسى أن يعرض لواحد ولا يعرض لغيره ، وانما نسي لأمر خارج من الطباع فهو وغيره فيه ســـواء ، وليس إلا التصديق والتسليم ، فكذلك هذا في العجز عن معارضة القرآن والله أعلم .

فان سأل سائل : عن امرأة ولدت ولداً على رأس جبل إلى ان يعيش وحده ، ماتت أمه

---

(١) أ : لم تسبق لــه .

وبقي وحده فكبر وعقل ولم ير انسانا قط ، ولا سمع خبراً الا انه يفكر في أمره أول ما اتسع للرأي والنظر ليعلم ما هو وما هذه المحسوسات التي يراها وهل يجب أن يكون لها فاعل ؟ أو هي قديمة ؟ فلم يزل ينظر ويستدل ولا يغفل عن النظر وقتاً إلى وقت تدفعه عنه ضرورة ، فمات قبل أن ينتهي استدلاله ، فيظهر له ما يطلب ، أيموت كافراً أو يموت مسلما ؟

قيل له : هذا ينبغي أن ينظر فيه من أصول سبق ذكرها :

أحدها : القول بالميثاق . فمن اثبته زعم أن الناس كلهم مولودون على حكم الميثاق المأخوذ عليهم . فمن نقصه بالكفر زال عنه حكمه ، ومن لم ينقصه بحدث يحدثه ثبت له حكمه . فقال في هذا الذي مات مستدلاً انه مات مؤمناً ومآبه الجنة .

وهكذا من لم يقل بالميثاق ويزعم ان الله تعالى جعل أصل الناس الاستقامة ، كما جعل أصل الماء الطهارة ، فكذلك يقول ايضاً . ومن قال : أصل الناس انه لا دين لأحد منهم بنفسه ، ولكن يجعل في صغره تابعاً لأبويه ، وإذا بلغ كان له حكم نفسه ، قال ان الذي وقع السؤال عنه لا يمكن أن يكن لأنه لو كان ، لا يمكن أن يقطع بأنه يموت كافراً ، ولا بأنه يموت مسلما .

وقد قسم الله عباده قسمين ، فقال : ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾(١) ولما قسمهم في الآخرة جعلهم بين وعد ووعيد ، فقال : ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾(٢) وقال : ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾(٣) فثبت أن أحداً لا يخرج من هذين القسمين. وصح ان المسألة بنفسها فاسدة ، وجوابها ان المولود الذي سئل عنه ان كان بلغ حد الاستدلال . فان الله تعالى يمهله إلى ينهي استدلاله حقاً فيصيب ، أو ينهيه وعند نفسه باطلا فيخطيء فيحق له الوعد أو يحق عليه الوعيد ولا يعاجله بالإحترام قبل أحد هذين والله أعلم .

فان قيل : أرأيتم إذا استدل أو عرف الحق فآمن بالله كان إيمانه ذلك فرضاً أداه ، وكان استدلاله وإيمانه حسنين عند الله تعالى أولاً . **فان قلتم** : لم يكونا حسنين لزمكم أن تقولوا كانا قبيحين . **وإن قلتم** : كانا حسنين فقد اعترفتم بأن الإيمان حسن لعينه ، وإن

---

(١) التغابن : ٢ (٢) هود : ١٠٥ (٣) الشورى : ٧

ذلك مدرك بالعقل من حلمه ، وليس يحتاج في تحسينه إلى أمر يرد به .

فالجواب : ان من قال ان من الأشياء أشياء حسنة لاعيانها ، وأشياء قبيحة لأعيانها ، والعقل فارق بين الصنفين ، فانه يقول : كان إيمانه واستدلاله حسنين واجبين ، وتركهما – لو تركهما – قبيحين محظورين . ومن خالف هذا الرأي قال : السؤال محال ! لان الله تعالى اخبر انه لا يرضى لعباده الكفر ، وإذا لم يرضه لهم نهاهم عنه وأمرهم بضده ، فلا يمكن أحد المتسعين لادراك الامر ومعرفته يحكى عن الأمر بالإيمان ، فيحتاج إلى أن يتكلم عليه إذا خلا عنه واستدل بعقله على الإيمان . واعتقده ، كان ذلك منه حسناً أوغير حسن وواجباً له غير واجب ويعتبر هذه المسائل بعد معرفة الاصل لا وجه له لأن ذلك انما يراد به المغالطة وليست من فعل أهل الدين انما فعلهم النصح للمسلمين ، وبالله التوفيق .

القسم العاشر

باب القول في شعب الايمان

أولها : باب في الإيمان بالله تعالى .

جاء عن النبي ﷺ انــه قال : ﴿ الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها اماطة الاذى عن الطريق ﴾ (١) . وهذه الشهادة فرض تجمع الاعتقاد بالقلب والاعتراف باللسان ، والاعتقاد والاقرار وإن كانا عملين يعملان بجارحتين مختلفتين فان نوع العمل واحد ، وما مثلها إلا مثل من قال شيئـــاً وكتبه ، فانه وإن عمل عملين بجارحتين مختلفتين فان نوع العمل واحد ، وهو الابانة عما حصل مبيناً باليد واللسان من قرآن أو شعر أو حديث أو مثل أو قصص أو ما كان من أصناف الكلام أو مثل من مد يديه ورجله إلى شيء فحركه ، فانه وإن كان عمل عملين بجارحتين مختلفتين ، فان نوع العمل واحد وهو تحريك شيء بعينه .

فكذلك الاعتقاد بالقلب والاقرار باللسان عملان يعملان بجارحتين ، إلا أن نوع العمل واحد ، والمنسوب إلى القلب منـــه هو المنسوب إلى اللسان والمنسوب إلى اللسان هو المنسوب إلى القلب ، كما ان المكتوب مما جمـع بين كتبه وقوله هو المنقول ، والمنقول هو المكتوب .

فان قيل: فما العمل للحاصل بالاعتقاد والإقرار ؟ **قيل** : بمجموع عدة أشياء : **أحدها** : اثبات الباري عز وجل جلاله ليقع به مفارقة التعطيل . **والثاني** : اثبات وحدانيته ليقع به البراءة من الشرك . والثالث : إثبـــات انه ليس بجوهر ولا عرض لتقع به البراءة من التشبيه . والرابـع : ان وجود كل ما سواه كان من قبل ابداعه واختراعه اياه لتقع بــه

---

(١) ورد في صحيح البخاري « الايمان » باب ٣ ، وفي صحيح مسلم « الايمان » باب ٧٥

من قول يقول بالصلة والمعلول . والخامس : اثبات انه مدبر ما ابدع ومصرفه على ما شاء لتقع به البراءة من قول القائلين بالطبائع أو تدبير الكواكب أو تدبير الملائكة .

فأما البراءة بإثبات الباري عز وجل والإعتراف له بالوجود من معاني التعطيل ، فإن قوماً ضلوا عن معرفة الله عز وجل وكفروا وألحدوا وزعموا أنه لا فاعل لهـذا العالم ، وانه لم يزل على ما عليه ، ولا موجود إلا المحسوسات، وليس وراءها شيء، وان الكوائن والحوادث إنما تكون تحدث من قبل الطبائع التي في العناصر وهي الماء والنار والهـوى والأرض ، ولا مدبر للعالم يكون ما يكون باختياره وصنعه . فإذا أثبت المثبت للعالم إلهاً ونسب الفعل والصنع إليه ، فقد فارق الإلحاد والتعطيل ، وهذا أحسن مذاهب الملحدين والعاملين يسميهم غيرهم من أهل الالحاد الفرقة المتجاهلة وقد يدعونهم غير الفلاسفة .

وأما البراءة من الشرك إثبات الوحدانية ، فلأن قوماً ادعوا فاعلين ، وزعموا أن أحدهما يفعل الخير والآخر يفعل الشر ، وزعم قوم أن بدء الخلق كان من النفس ، إلاأنه كان يقع منها لا على سبيل السداد والحكمة ، وأخذ الباري على يدها ، وعمد إلى مـادة تدعمـه كانت موجودة معه لا تزل ، فركب منها هذا العالم على مـا هو عليه من السداد والحكمة ، وإذا ثبت المثبت أن لا إله إلا الله واحد ، وأن لا خالق سـواه ، ولا قديم غيره ، فقد انتفى عن قوله الشريك الذي هو في البطلان ، ووجوب إسم الكفـر لقائله كالالحاد والتعطيل .

وأما البراءة من التشبيه باثبات انه ليس بجوهر ولا عرض ، فلأن قومـاً زاغوا عن الحـق فوصفوا الباري جل ثناؤه ببعض صفات المحدثين ، فمنهم من قال : انه جوهر ، ومنهم من قال : انه جسم، ومنهم من أجاز أن يكون على العرش كما يكون الملك على سريره ، وكان ذلك في وجوب إسم الكفر لقائله كالتعطيل والتشريك .

فاذا أثبت المثبت انه ليس كمثله شيء،وجماع ذلك انه ليس بجوهر ولا عرض فقد انتفى التشبيه لأنه لو كان جوهراً أو عرضاً لجاز عليه ما يجوز على سائر الجواهـر والاعراض ، ولأنه إذا لم يكن جوهراً ولا عرضاً لم يجز عليه ما يجوز على الجواهر من حيث أنها جواهر كالتآلف والتجسم وشغل الأمكنة والحركة والسكون ، ولا مـا يجوز على الاعراض من حيث انها أعراض كالحدوث وعدم البقاء .

وأما البراءة من التعليل باثبات انه مبدع كل سواه ، فلأن قوماً من الأوائل خالفوا المعطلة ثم خذلوا عن بلوغ الحق فقالوا : ان الباري موجود، غير انه علة لسائر الموجودات وسبب لها ، بمعنى أن وجوده اقتضى وجودها شيئاً فشيئاً على ترتيب لهم يذكرونه ، وان المعلول إذا كان لا يفارق العلة ، فواجب إذا كان الباري لم يزل أن يكون مادة هذا العالم لم يزل به ، فمن أثبت له المبدع الموجود المحدث لكل ما سواه من جوهر وعرض باختياره وإرادته المخترع لها لا من الأصل فقد انتفى عن قوله التعليل الذي هو في وجوب الكفر لقائله كالتعطيل .

وأما البراءة من التشريك في التدبير باثبات انه لا مدبر لشيء من الموجودات إلا الله ، فلان قوماً زعموا أن الملائكة تدبر العالم وسموها آلهة . وزعم قوم أن الكواكب تدبرما تحتها وان كل كائنة وحادثة في الأرض، فانما هي من آثار حركات الكواكب واحتراقها، واتصالها وانفصالها وغير ذلك من أحوالها .

فمن أثبت أن الله عزوجل هو المدبر لما أبدع ولا مدبر سواه ، فقد انتفى عن قوله التشريك في التدبير الذي هو في وجوب إسم الكفر لقائله ، كالتشريك في القدم أو في الخلق ، وكان معنى من هذه المعاني معتقده ، ولهذا لم يكن الإعتقاد إحدى شعب الإيمان أو الاعتراف شعبة ثانية ، بل كانا معاً شعبة واحدة إذا كان المحصل بعقد القلب هو المحصل بلفظ اللسان .

فصل

ثم ان الله جل ثناؤه ضمن هذه المعاني كلها كلمة واحدة وهي لا اله إلا الله ، وأمر المأمورين بالإيمان أن يعتقدوها ويقولها ، فقال عز وجل : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ [١] وقال فيما ذم به مستكبري العرب : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون : « أأنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » ﴾ [٢] والمعنى انهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله استكبروا ولم يقولوا ، بل قالوا مكانها أأنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون .

ووصف الله تعالى نفسه بما في هذه الكلمة في غير موضع من كتابه فقال : ﴿ الله لا

(١) محمد : ١٩ (٢) الصافات : ٣٦

إله إلا هو الحي القيوم ﴾[1] . وقال : ﴿ هو الحي لا إله إلا هو ﴾[2] . وأضاف هذه الكلمة في بعض الآيات إلى إبراهيم الخليل صلوات الله عليه فقال بعد أن أخبر عنه انه قال لابنه وقومه : ﴿ إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فانه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾[3] .

وقيل : الكلمة لا إله إلا الله ، ومجاز قوله : إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني إلا الله . فيحتمل أن يكون أولاده المؤمنون أخذوا هذه الكلمة عنه ، فكانوا يقولون : لا إله إلا الله .

ثم ان الله عز وجل جددها بعدد رسوها بالنبي ﷺ إذ بعثه لأنه كان من ذرية إبراهيم صل الله عليهما ، وورثة من هذه الكلمة ما ورثه البيت والمقام وزمزم والصفا والمروة وعرفه والمشعر ومنا والكلمات التي ابتلاه بها فأتمها والقربان . فقال النبي ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم إلا بحقها »[4] . في هذا بيان أن هذه الكلمة يكفي الاسلام بها من جميع أصناف الكفر بالله عز وجل .

وإذا تأملناها وجدناها بالحقيقة كذلك . لأن من قال : لا إله إلا الله ، فقد أثبت الله ونفى غيره، فخرج باثبات ما أثبت من التعطيل، وبما ضم إليه من نفي غيره عن التشريك وأثبت باسم الاله الابداع والتدبير معاً اذا كانت الالهية لا تصير مثبتة له تعالى باضافة الموجودات إليه على ومعنى انه سبب لوجودها دون أن يكون فعلا وصنعاً ، ويكون لوجودها بارادته واختياره تعلق ، وباضافته فعل يكون منه فيها سوى الابداع إليه مثل التركيب والنظم والتأليف . فان الأبوين قد يكونان سبباً للولد على بعض الوجوه ، ثم لا يستحق واحد منهما إسم الاله .

والنجار والصانع ومن يجري مجراهما ، كل واحد منهم يركب ويهيىء ولا يستحق إسم الاله ، فعلم بهذا أن إسم الاله لا يجب الا للمبدع ، وإذا وقع الإعتراف بالابداع، فقد وقع بالتدبير ، لأن الايجاد تدبير ولأن تدبير الموجود إنما يكون باثباته أو باحداث

---

(١) البقرة : ٢٥٥ (٢) غافر : ٦٥ (٣) الزخرف : ٢٦

(٤) ورد في صحيح البخاري «الايمان» باب١٧ ، وفي صحيح مسلم « الايمان » حديث رقم ٣٤ - ٣٦ .

أعراض فيه أو إعدامه بعد إيجاده ، وكل ذلك ان كان فهو إبداع وإحداث ، وفي ذلك انه لا معنى لفصل التدبير عن الابداع وتميزه عنه، وان الاعتراف بالابداع ينتظم وجميع وجوهه زعامة ما دخل في بابه . هذا هو الأمر الجاري على سنن النظر ما لم يناقض قوله مناقض ، فيسلم أمراً ويجحد مثله ، أو يعطي أصلاً ويمنع فرعه .

فاما التشبيه فان هذه الكلمة أيضاً تأتي على نفيه ، لأن إسم الاله إذا ثبت بكل وصف يعود عليه بالابطال وجب أن يكون متيقناً بثبوته ، والتشبيه من هذه الجملة لأنه إذا كان له من خلقه شبيه ، وجب أن يجوز عليه من ذلك الوجه ما يجوز على شبهه ، وإذا جاز ذلك عليه لم يستحق إسم الأله كما لا يستحقه خلقه الذي شبهه به ، فتبين بهذا ان اسم الاله والتشبيه لا يجتمعان كما ان إسم الاله ونفي الابداع عنه لا يأتلفان وبالله التوفيق .

فمن أراد التدين بدين الحق وأطلق لسانه بهذه الكلمة قد استجمعت له هذه المعاني التي سبق شرحها وتلخيصها ما لم يخطر بقلبه عند التفصيل شيء يخالف الجملة ، فانخطر احتاج إلى أن يعتقد الحق فيه مفصلاً ، ولم ينفعه الاجمال مع دخول الشبهة عليه في التفصيل . ثم إذا انضم إلى ما ذكرته من شهادة الحق ما يذكر في باب الشعبة الثانية من شعب الايمان من اعتقاد نبوة النبي ﷺ ، والاعتراف بها ، فصل الايمان بعامة أسماء الله وصفاته لاقتضاء العقائد التي سبق وصفها وتعديدها بمعانيها ، واثبات الرسول ﷺ بالالفاظ الدالر عليها ، فان تصديقه في الرسالة تأتي على قبولها منه وتسمية الله جل ثناؤه بها . وبالله التوفيق .

فصل

ثم ان أسماء الله تعالى التي ورد بها الكتاب والسنة وأجمع العلماء على تسميته بها مقسمة بين العقائد الخمس التي سبق ذكرها وتعديدها . فيلتحق بكل واحد منها بعضها وقد يكون منها ما يلتحق بمعنيين ويدخل في ما بين ، أو أكثر ثم تنتظمها جميعاً شهادة أن لا إله إلا الله ، وهذا شرح ذلك وتفصيله :

١ – ذكر الأسماء التي تتبع إثبات الباري جل ثناؤه والاعتراف بوجوده منها القديم:
وذلك مما يؤثر عن النبي ﷺ ولم يأت به الكتاب نصاً، وإن كان قد جاء فيما تقتضيه.
ومعناه : الموجود الذي ليس لوجوده إبتداء ، والموجود الذي لم يزل في أصل القديم في الناس السابق ، لان القديم هو القادم . قال الله عز وجل فيما أخبر به عن فرعون : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة ﴾[١] . فقيل لله عز وجل قديم بمعنى أنه سابق للموجودات . ولم يجز إذا كان كذلك أن يكون لوجوده إبتداء . لانه لو كان لوجوده إبتداء لاقتضى ذلك أن يكون غير له أو جده ، ويوجب أن يكون ذلك الغير موجوداً قبله . فكان لا يصح حينئذ أن يكون هو سابقاً للموجودات . فبان انا إذا وصفناه بأنه سابق للموجودات فقد أوجبنا أن لا يكون لوجوده ابتداء ، وكان القديم في وصفه جل ثناؤه عبارة عن هذا المعنى وبالله التوفيق .

ومنها الاول ومنها الآخر : وقد ورد القرآن بهذين الاسمين .
والاول : هو الذي لا قبل له . والآخر : هو الذي لا بعد له ، قبل وبعد[٢] نهايتان ، فتقبل نهاية الوجود من قبل ابتدائه ، وبعد غايته من قبل انتهائه ، فاذا لم يكن له ابتداء ولا انتهاء لم يكن للوجود قبل ولا بعد ، فكان هو الاول والآخر .

ومنها الباقي : قال الله عز وجل : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾[٣] . وهذا أيضاً من لواحق قولنا : قديم ، لانه إذا كان موجوداً لا عن أول ولا لسبب ، لم يجز عليه الانقطاع بسبب وجوده ، فلما لم يكن لوجود القديم سبب ، يتوهم ان ذلك السبب ان ارتفع عدم ، علمنا انه لا انقطاع له .

ومنها الحق : قال الله عز وجل : ﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[٤] . والحق مالا يسع افكاره ويلزم اثباته والاعتراف به ، ووجود الباري تعالى أولى ما يجب الاعتراف به ، ولا يسع جحده . إذ لا مثبت يتظاهر عليه من الدلائل البينة الظاهرة ما تظاهرت على وجود الباري جل جلاله .

---

(١) هود : ٩٨
(٢) هكذا وردت في الاصل والاصح (قبل وبعد)
(٣) الرحمن : ٢٧
(٤) النور : ٢٥

ومنها **المبين** : وهو الذي لا يخفى ولا يتكتم . والباري جل ثناؤه ليس بخاف ولا منكتم ، لان له من الافعال الدالة عليه ما يستحيل معها أن يخفى ، فلا يوقف عليه ولا يدري .

ومنها **الظاهر** : ومعناه البادي بافعاله وهو جل ثناؤه بهذه الصفة ، فلا يمكن معها أن يجحد وجوده وينكر ثبوته .

ومنها **الوارث** : لأن معناه الباقي بعد ذهاب غيره ، وربنا جل ثناؤه بهذه الصفة لانه يبقى بعد ذهاب الملاك الذي امتعهم في هذه الدنيا بما أتاهم ، لان وجودهم وجود الاملاك كان به ووجوده ليس بغيره . وهذا الاسم مما يؤثر عن النبي ﷺ وليس له في الكتاب ذكر والله أعلم .

٢ – ذكر الأسماء التي تتبع اثبات وحدانيته عن اسمه :

اولها الواحد : فهو واحد من حيث انه ليس له شريك ، فيجري عليه لاجله حكم العدد ، وتبطل به وحدانيته . والآخر : انه واحد ، هي ان ذاته ذات لا يجوز عليه التكثر لغيره ، والاشارة فيه إلى انه ليس بجوهر ولا عرض ، لا قوام له إلا بغير يحله ، والقديم فرد لا يجوز عليه حاجة إلى غيره ، ولا يكثر بغيره ، ولا هذا لو قيل ان معنى الواحد انه القائم بنفسه لكان ذلك صحيحاً ولرجع المعنى إلى انه ليس بجوهر ولا عرض ، لان قيام الجوهر بفاعله ومثبته ، وقيام العرض بجوهر يحله .

والثالث : ان معنى الواحد : القديم . فاذا قلنا الواحد ، فانما يريد به الذي لا يمكن انه يكون اكثر من واحد ، والذي لا يمكن ان يكون أكثر من واحد هو القديم ، لان القديم بالإطلاق السابق للموجودات ، ومهما كان قديماً كان كل واحد منهما غير سابق بالاطلاق ، لانه ان سبق غير صاحبه فليس بسابق لصاحبه وهو موجود لوجوده ، فيكون إذا قديما من وجه غير قديم من وجه ، ويكون القدم وصفاً لهما معاً ، ولا يكون وصفاً لهما معاً ، ولا يكون وصفاً لكل واحد منهما . فثبت ان القديم بالاطلاق لا يكون إلا واحداً . فالواحد إذا هو القديم الذي لا يمكن أن يكون إلا واحداً .

فان قال : إذا كان القديم هو السابق للموجودات ، والبادي إذا لم يستحق هذا الإسم

إلا بعد وجود الموجودات ، لأنه من قبل وجودها لم يكن موصوفاً بسبقها .

قيل : ان الموجودات لما كانت بايجاده وابداعه كان سابقاً لها بوجوده القديم ، فان وجوده لا يكون عرضاً ، وإذا كان وجوده بعدما أبدع هذا الوجود الذي كان موصوفاً به قبل الإبداع ، فهو إذا استحق به الوصف بالسبق استحقه استحقاقاً قديماً لا استحقاقاً حادثـــاً .

كما ان القدرة وان كانت لا تكون إلا على مقدور ، فانه إذا استحق بـــه الوصف بالقدرة استحقه استحقاقاً قديماً لا استحقاقاً قديماً حادثاً ، لأنه إنما يوجـد المقدور بالقدرة التي كانت له قبل أن يوجده ، وليست قدرته عرضية ، فتكون قدرته الآن غير قدرته قبل الآن ، فكذلك الوجود والله أعلم . وقد ورد الكتاب بهذا الإسم ، قال الله عزوجل لنبيه ﷺ : ﴿ قل إنما إنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار ﴾ .

ومنها الوتر : لأنه إذا لم (يكن) قديم سواه ، لا إله ولا غير إله ، لم ينبغـــي لشيء من الموجودات أن يضم إليه فيعد معه ، فيكون والمعدود معه شفعاً ، لكنه واحد فرد وتر .

ومنها الكافي : لأنه إذا لم يكن له في الألوهية شريك، صح ان الكفايات كلها واقعة به وحده فلا ينبغي أن تكون العبادة إلا له ، ولا الرغبة إلا إليه ، ولا الرجاء إلا منـــه . وقد ورد الكتاب بهذا أيضاً ، قال الله عز وجل : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ [1] ، وجاء ذلك أيضاً عن رسول الله ﷺ .

ومنها العلي : قال الله عز وجل : ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ [2] ومعناه الذي ليس فوقه مما يجب له من معاني الجلال احد ، ولا معه من يكون العلو مشتركاً بينه وبينه ، لكنـــه العلي بالاطلاق ، والرفيع في هذا المعنى . قال الله عز وجل : « رفيع الدرجات ﴾ [3] . ومعناه هو الذي لا أرفع قدراً منه ، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء ، وهو اصنافها وأبوابها لا يستحق لها غيره .

٣ ـ ذكر الاسماء التي تتبع اثبات الابتداع والاختراع له .

أولها : الله ، ومعناه إله ، وهذا أكثر الأسماء واجمعها للمعاني ، والأشبه انـــه كاسماء

---

(١) المزمر : ٣٦ (٢) البقرة : ٢٥٥ والشورى : ٤ (٣) غافر : ١٥

الاعلام موضوع غير مشتق ، ومعناه القديم التام القدرة ، فانه إذا كان سابقاً لعامة الموجودات كان وجودها به ، وإذا كان تام القدرة أو جد المعدوم ، وصرف ما يوجده على ما يزيده ، واختص لذلك باسم الاله .

ولهذا لا يجوز أن يسمي هذا الاسم أحد سواه بوجه من الوجوه،وتأويل من التأويلات وهو الذي أراده الله جل ثناؤه بقوله : ﴿ رب السموات والأرض ومـا بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ﴾ [١] . أي هل تعلم من يستحق إسم الاله غيره . ومن قال : الا انه هو المستحق للعبادة ، فقد يرجع قوله : إلى أن الاله إذا كان هو القديم التام القدرة ، فكان كل موجود سراً صنعا له ، والمصنوع إذا علم صانعه كان حقاً عليه أن يستحذي له في الطاعة ، ويذل له بالعبودية لأن هذا المعنى تفسير هذا الاسم .

ومنها الحي : قال الله عز وجل : ﴿ هو الحي لا إله إلا هو ﴾ [٢] وإنما يقال دلك لأن الفعل على سبيل الاختيار لا يوجد إلا مزجي ، وأفعال الله عز وجل كلها صادرة عنه باختياره إذا أثبتنا انه حي .

ومنها العالم : قال الله عز وجل : « عالم الغيب والشهادة ﴾ [٣] ومعناه انـه يدرك الاشياء على ما هي به ، وإنما وجب أن يوصف عز اسمه بالعالم، لأنه قد ثبت ان ما عداه من الموجودات فعل له وانه لا يمكن أن يكون فعل إلا باختيار وارادة ، والفعل على هذا الوجه لا يظهر إلا من عالم ، كما لا يظهر إلا من حي .

ومنها القادر : قال الله عز وجل : ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ [٤] . وقال : ﴿ بلى ، إنه على كل شيء قدير ﴾ [٥] وهذا يدل على معنى انه لا يعجزه شيء بل تيسر له ما يريد على ما يريد ، لأن أفعاله قد ظهرت ، ولا يظهر الفعل اختيـاراً إلا من قادر غير عاجز ، كما لا يظهر إلا من حي عالم .

ومنها الحكيم : قال الله تعالى : ﴿ إنه حكيم عليم ﴾ [٦] ومعنـاه الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب وإنما ينبغي أن يوصف بذلك لأن أفعاله سديدة ، وصنعه متقن ، ولا

---

(١) مريم : ٦٥ .
(٢) غافر : ٦٥
(٣) الزمر : ٤٦
(٤) القيامة : ٤٠
(٥) الاحقاف : ٣٣
(٦) الحجر : ٢٥

يظهر الفعل المتقن السديد إلا من حكيم ، كما لا يظهر الفعل على وجه الاختيار إلا من حي عالم قدير .

ومنها السيد : وهو إسم لم يأت به الكتاب ، ولكنه مأثور عن النبي ﷺ فانه روي عنه أنه قال لوفد بني عامر : (لا تقولوا السيد فان الله هو السيد) [1] . ومعناه المحتاج إليه الاطلاق ، فان سيد الناس إنما هو رأسهم الذي إليه يرجعون وبأمره يعملون، وعن رأيه يصدرون ، ومن قوته يستمدون .

فاذا كانت الملائكة والأنس والجن خلقاً للباري جل ثناؤه لم يكن بهم غيبة في يدي أمرهم وهو الموجود ، إذ لو لم يوجدهم لم يوجدوا ولا في الابقاء بعد الايجاد ، ولا في العوارض أثناء البقاء كان حقاً له جل ثناؤه وأن يكون سيداً، وكان حقاً عليه أن يدعوه بهذا الاسم .

ومنها الجليل : وذلك أيضاً مما ورد به الاثر عن رسول الله ﷺ ، وفي الكتاب : ﴿ ذو الجلال ﴾ [2] ومعناه المستحق للأمر والنهي ، فان جلال الواحد فيما بين الناس إنما يظهر بان يكون له غيره أمر نافذ ولا تحد من طاعته فيه يد ، وإذا كان من حق الباري جل ثناؤه على من أبدعه أن يكون أمره عليه نافذاً وطاعته له لازمة وجب له اسم الجليل حقاً ، وكان لمن عرفه أن يدعوه بهذا الاسم ، وبما يجري مجراه ويؤدي معناه .

ومنها البديع : ومعناه المبتدع وهو يحدث ما لم يكن مثله قط . قال الله عز وجل: ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ [3] أي مبدعها . والمبدع من له إبداع ، فلما ثبت وجود الابداع من الله تعالى لعامة الجواهر والاعراض استحق أن يسمى بديعاً ومبدعاً .

ومنها الباري : قال الله عز وجل : ﴿ الباري المصور ﴾ [4] وهذا الاسم يحتمل معنيين : أحدهما : الموجد لما كان في معلومه من أصناف الخلائق ، وهذا هو الذي يشير إليه قوله عز وجل : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ [5] ، ولا شك ان إثبات الابداع والاعتراف به للباري عز وجل ليس يكون على أنه أبدع بغتة من غير علم سبق له بما هو مبدعه ، لكن على انه كان عالماً بما

---

(١) ورد في سنن أبي داود « كتاب الادب » باب ٨ .
(٢) الرحمن : ٢٧
(٣) البقرة : ١١٦
(٤) الحشر : ٢٤
(٥) الحديد : ٢٢

أبدع قبل أن يبدع ، فكما وجب عند الابداع اسم البديع ، وجب له إسم الباري .

والآخر : ان المراد بالباري فالبر الاعيان ، أي انه أبدع الماء والتراب والنار والهواء لا من شيء ، ثم خلق منها الأجسام المختلفة ، كما قال عز وجل : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ [١] . وقال : ﴿ إني خالق بشراً من طين ﴾ [٢] وقال : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ﴾ [٣] وقال : ﴿ خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾[٤] وقال: ﴿ خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار ﴾ [٥] .

وقال : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾[٦] فيكون هذا من قولهم: برأ القواس القوس إذا صنعها من موادها التي كانت لها فجاءت منها لا كهيئتها، والاعتراف لله عز وجل بالابداع يقتضي الاعتراف له بالبرء ، وكان المعترف يعلم من نفسه انه منقول من حال إلى حال إلى أن صار ممن يقدر على الاعتقاد والاعتراف .

ومنها الذارىء : ومعناه المنشىء ، والمعنى قال الله عز وجل : ﴿ جعـــل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ﴾ [٧] أي جعلكم أزواجاً وذكوراً واناثاً لينشئكم ويكثركم وينميكم ، فظهر بذلك أن الذرء ما قلنا ، وصار الاعتراف بالابداع يلزم من الاعتراف بالذرء ما يلزم من الاعتراف بالبرء .

ومنها الخالق: قال الله عز وجل: ﴿ هل من خالق غير الله ﴾(٨) ومعناه الذي صنف المبدعات وجعل لكل صنف منها قدراً ، فوجد فيها الصغير والكبير والطويل والقصير والانسان والبهيم والدابة والطائر والحيوان والموات ، ولا شـــك أن الاعتراف بالابداع يقتضي الاعتراف بالخلق إذ كان الخلق هيئة الابداع فلا يغني أحدهما عن الآخر .

ومنها الخلاق : قال الله عز وجل : ﴿ بلى وهو الخلاق العليم ﴾ [٩] ومعنـــاه الخالق خلقاً من بعد خلق .

---

(١) الانبياء : ٣٠ — (٢) ص : ٧١ — (٣) الروم : ٢٠
(٤) النحل : ٤ — (٥) الرحمن : ١٤ ، ١٥ — (٦) المؤمنون : ١٢ ، ١٣ ، ١٤
(٧) الشورى : ١١ — (٨) فاطر : ٣ — (٩) يس : ٨١

ومنها الصانع : ومعناه المركب والمهيىء، قال الله عز وجل: ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ [1] وقد يكون الصانع الفاعل ، ويدخل فيه الاختراع والتركيب معاً .

ومنها الفاطر : ومعناه فاتق المرتتق من السماء والأرض . قال الله عز وجل: ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ [2] فقد يكون المعنى كانت السماء دخاناً فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، [3] وكانت الأرض غير مدحوة فدحاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، [4] ومن قال هذا قال: ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض ﴾ [5] ومعناه . ألم يعلموا وقد يكون المعنى ما روي عن بعض الآثار : فتقنا السماء بالمطر والأرض بالنبات . وقال ابن عباس رضي الله عنه : كنت لا أدري ما معنى فاطر حتى سمعت اعرابيين يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي حفرتها وسففت عن الماء فيه فنبع وظهر ، والاعتراف بالابداع يقتضي هذا المعنى ويأتي عليه .

ومنها المقتدر : قال الله عز وجل : ﴿ فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ [6] وهوالمظهر قدرته بفعل ما يقدر عليه ، وقد كان ذلك من الله تعالى فيما أمضاه وإن كان يقدر على أشياء كثيرة لم يفعلها ولو شاء لفعلها ، فاستحق بذلك أن يسمى مقتدراً .

ومنها الملك والمليك في معناه . قال عز وجل : ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ [7] . وقال : ﴿ عند مليك مقتدر ﴾ [8] وذلك مما يقتضيه الابداع لان الابداع هو المخترع للشيء من العدم إلى الوجود ، فلا يتوهم أن يكون أحد أحق بما أبدع منه ، ولا أولى بالتصرف فيه منه ، وهذا هو الملك .

وأما المليك فهو استحقاق السياسة وذلك فيما بيننا قد يصغر ويكبر بحسب قدر المسوس وقدر السائس في نفسه ومعانيه . وأما ملك الباري عز اسمه : فهو الذي لايتوهم ملك يدانيه فضلاً على أن يفوته ، لأنه إنما استحقه بابداعه مما يسوسه ، وإيجاده اياه بعد ان لم يكن ،ولا يخش أن ينزع منه ، أو يدفع عنه فهو الملك حقاً وملك من سواه مجاز .

---

(١) النمل : ٨٨ — (٢) الانبياء : ٣٠ — (٣) النازعات : ٢٩

(٤) النازعات : ٣١ — (٥) الانبياء : ٣٠ — (٦) القمر : ٤٢

(٧) طه : ١١٤ — (٨) القمر : ٥٥

ومنها الجبار : في قـــول من يجعله من الجبر الذي هو نظير الكره ، لأنه يدخل فيه احداث الشيء عن عدم ، فانه إذا أراد وجوده كان ولم يتخلف كونه عن حال ارادته ولم يكن فيه غير ذلك ، فيكون فعله له كالجبر ، إذ الجبر طريق إلى دفع الامتناع عن المراد ، فإذا كان ما يريده الباري جل ثناؤه لا يمتنع عليه فذلك في الصورة جبر . وقد قال الله عز وجل : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ [١] فهذا الباب [٢] لم يميزه عن الابداع وجعل الاعتراف له ، فانه بديع اعترافاً له بأنه جبار .

٤ ــ ذكر الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده :

منها الأحد : وهو الذي لا شبيه له ولا نظير ، كما ان الواحد هو الذي لا شريك له ولا عديل ، ولهذا سمى الله عز وجل نفسه بهذا الاسم لما وصف نفسه بانه ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ وكان قوله عز وجل : ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ [٣] من تفسير قوله : ﴿ أحد ﴾ والمعنى لم يتفرع هو عن شيء ، ولا تفرع هو عن شيء كما تفرع الولد عن أبيه وأمه ويتفرع عنهما الولد ، فاذا كان كذلك فما يدعوه المشركون الهاً من دونه لا يجوز أن يكون الهاً إذا كانت امارات الحدوث من التجزيء والتناهي قائمة فيه ولازمة له ، والباري لا يتجزأ ولا يتناهى فهو إذا غير مشبه إياه ، ولا مشارك له في صفته .

ومنها العظيم : ومعناه الذي لا يمكن الامتناع عليه بالاطلاق لان عظيم القوم انما يكون مالك أمورهم الذي لا يقدرون على مقاومته ومخالفة أموره الا انه وان كان كذلك ، فقد تلحقه العجز بآفات تدخل عليه فيما بيده فتوهنه وتضعفه ، حتى يستطاع مقـــاومته بل قهره وابطاله ، والله جل ثناؤه قادر لا يعجزه شيء ، ولا يمكن ان يعصى كرهاً ، أو يخالف أمره قهراً ، فهو العظيم إذا حقا وصدقاً ، وكان هذا الاسم لمن دونه مجازاً .

ومنها العزيز : ومعناه الذي لا يوصل اليه ولا يمكن ادخال مكـــروه عليه . فان العزيز في لسان العرب هو من العزة والصلابة ، وقيل للحديد الصلب غرور لشدته وتعذر كسره ، وخلافه الذليل الذي هو في اللسان من الذلة وهو اللين والطواعية . وقيل للمركوب

---

(١) فصلت : ١١

(٢) ورد في كتاب الاسماء والصفات : « فمن الحقه بهــذا الباب لم يميزه .. » وهو الصواب .

(٣) الاخلاص : ٢

المطواع ذلول للينة وسلاسته . فإذا قيل لله عزيز ، فإنما يراد به الاعتراف له بالقدم الذي لا يتهيأ معه تغييره عما لم يزل عليه من القدرة والقوة ، وذلك عائد إلى تنزيهه عما يجوز على المصنوعين لاعتراضهم بالحدوث في أنفسهم للحوادث أن تصيبهم وتغيرهم .

ومنها المتعال : ومعنــاه المرتفع عن أن يجوز عليه ما يجوز على المحدثين من الأزواج والأولاد والجوارح والأعضاء ، واتخاذ السرير للجلوس عليه والاحتجاب بالستور عن أن تنفذ الأبصار اليه ، والانتقال من مكان إلى مكان ونحو ذلك . فان اثبات بعض هذه الاشياء توجب النهاية ، وبعضها يوجب الحاجة ، وبعضها يوجب التغير والاستحالة ، وشيء من ذلك غير لائق بالقديم ولا جائز عليه .

ومنها الباطن : وهو الذي لا يحس وإنما يدرك بآثاره وأفعاله .

ومنها الكبير : ومعناه المعروف عباده على مايريده منهم من غير أن يروه .

وكبير القوم هو الذي يستغني عن التبذل لهم ، ولا يحتاج في بعض الناس وفي بعض الأمور إلى الاستظهار على المأمور بابداء نفسه ومخاطبته كفاحاً لخشيته أن لا يطيعه إذا سمع أمره من غـــيره . والله عز وجل لا يحتاج إلى شيء ولا يعجزه شيء .

ومنها السلام : لأن معناه السالم من المصائب ، إذ هي غير جائزة عليه وإن جوازها على المصنوعات ، لأنها احداث وبدائع . فكما جاز أن يوجدوا بعد ان لم يكونوا موجودين جاز أن يعدموا بعد (ما) وجدوا ، وجاز أن تتبدل أعراضهم وتتناقض أو تتزايد أجزاؤهم ، والقديم لا علة لوجوده[1] ، فلا يجوز التغير عليه . ولا يمكن أن يعارضه نقص أو شين ، أو تكون له صفة تخالف الفضل والكمال .

ومنها الغني . ومعناه الكامل بماله وعنده ، فلا يحتاج معه إلى غيره ، وربنا جـــل ثناؤه بهذه الصفة لأن الحاجة نقص ، والمحتاج عاجز عما يحتاج اليه إلى أن يبلغه ويدركه ، والمحتاج اليه فضل ، فوجد ما ليس عند المحتاج . والنقص منفي عن القديم بكل حال ، والعجز غير جائز عليه ، ولا يمكن لأحد (أن يكون) عليه فضل ، إذ كل شيء سواه خلق له وبدع أبدعه ولا يملك من أمره شيئاً ، وإنما يكون كما يريده الله عز وجل ويدبره فلا يتوهم أن يكون له مع هذا اتساع لفضله عليه .

---

(١) لقد وردت في الاصل : والقدم لا تحلة لوجوده .

ومنها السبوح : ومعناه المنزه عن المصائب والصفات التي تعتور المحدثين من ناحية الحدث ، والتسبيح التنزيه .

ومنها القدوس : ومعناه الممدوح بالفضائل والمحاسن ، والتقديس مضمن في صريح التسبيح ، والتسبيح مضمن في صريح التقديس ، لأن نفي المذام إثبات للمدائح ، كقولنا لا شريك له ولا شبيه له . إثبات أنه واحد أحد . وكقولنا لا يعجزه شيء إثبات أنه قادر قوي . وكقولنا : انه لا يظلم أحداً إثبات أنه عدل في حكمه . وإثبات المدائح له نفي للمذام عنه ، كقولنا : انه عالم نفي للجهل عنه ، وكقولنا : انه قادر ، نفي للعجز عنه .

إلا أن قولنا هو كذا ظاهرة التقديس ، وقولنا ليس بكذا ظاهرة التسبيح ، لأن التسبيح موجود في ضمن التقديس ، والتقديس موجود في ضمن التسبيح ، وقد جمع الله تبارك وتعالى بينهما في سورة الاخلاص . فقال عز اسمه : ﴿قل هو الله أحد ، الله الصمد﴾[1]. فهذا تقديس ، ثم قال : ﴿لم يلد ولم يولد،ولم يكن له كفواً أحد﴾[2]. فهذا تسبيح . والأمران معاً راجعان إلى إفراده وتوحيده ونفي الشريك والتشبيه عنه .

ومنها المجيد : ومعناه المنيع المحمود . لأن العرب لا تقول لكل محمود مجيداً ، ولا لكل منيع مجيداً . أو قد يكون الواحد منيعاً غير محمود كالمتآمر الخليع الجائر ، أو اللص المتحصن ببعض القلاع . وقد يكون محموداً غير منيع كامير السوقه والصابرين من أهل القبلة ، فلما لم يقل لكل واحد منهما مجيد ، علمنا أن المجيد من جمع بينهما ، فكان منيعاً لا يرام ، وكان في منعته حسن الخصال جميل الفعال والباري جل ثناؤه يجل عن أن يرام وأن يوصل إليه ، وهو مع ذلك محسن مجمل لا يستطيع العبد أن يحصي نعمته ولو استنفذ فيه مدته ، فاستحق إسم المجيد وما هو أعلى منه .

ومنها القريب : ومعناه لا مسافة بين العبد وبينه ، فلا يسمع دعاءه أو يخفى عليه حاله كيف ما تصرفت به ، فإن ذلك يوجب أن يكون له نهاية ، وحاشا له من النهاية .

ومنها المحيط : ومعناه الذي لا يقدر على الفرار منه ، وهذه الصفة ليست

---

(١) الاخلاص : ١

(٢) الاخلاص : ٢ ، ٣

حقاً إلا الله جل ثناؤه ، وهي راجعة إلى كمال العلم والقدرة ، وانتفاء الغفلة والعجزعنه.

ومنها الفعال لما يريد : ومعناه الفاعل فعلاً بعد فعل ، كلما أراد فعل وليس كالمخلوق الذي ان قدر على فعل عجز عن غيره .

ومنها القدير : وهو تام القدرة لا يلابس قدرته عجز بوجه.

ومنها الغالب : وهو البالغ مراده من خلقه ، أحبوا أو كرهوا ، وهذه إشارة أيضاً إلى كمال القدرة والحكمة وانه لا يقهر ولا يخدع .

ومنها الطالب : وهو إسم جرت عادة الناس باستعماله في اليمين مع الغالب ومعناه المتتبع غير المهمل ، وذلك ان الله عز وجل يمهل ولا يهمل ، وهو على الامهال بالغ أمره، كما قال عز وجل في كتابه : ﴿ ولا تحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾[1] . وقال : ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً ﴾[2] . وقال : ﴿ إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾[3] .

ومنها الواسع : ومعناه الكثير مقدوراته ومعلوماته ، والمنبسط فضله ورحمته ، وهذاتنزيه له من النقص والعلة واعتراف له بأنه لا يعجزه شيء ولا يخفى عليه شيء ورحمته وسعت كل شيء .

ومنها الجميل : وهذا الإسم في بعض الأخبار عن النبي ﷺ ومعناه : ذو الأسماء الحسنى . لأن القبائح إذا لم تلق به لم يجز أن يشتق اسم من اسمائها وإنما تشتق أسماؤه من صفاته التي كلها مدائح ، والأفعال التي أجمعها حكمة .

ومنها الواجد :وهو أيضاً في بعض الاخبار عن النبي ﷺ ، ومعناه : الذي لا يضل عنه شيء ولا يفوته شيء .

ومنها المحصي : وهذا مما يؤثر عن النبي ﷺ ، وفي الكتاب : ﴿ وأحصى كل شيء عددا ﴾[4] . ومعناه : العالم بمقادير الحوادث ، ما يحيط به منها علوم العباد ، وما لا يحيط به منها علومهم كالأنفاس والأرزاق والمعاصي والقروف وعدد القطر والرمل

---

(١) آل عمران : ١٧٨
(٢) مريم : ٨٤
(٣) الطلاق : ٣
(٤) الجن : ٢٨

والحصي والنبات واصناف الحيوان والموات وعامة الموجودات وما يبقى منها أو يضمحل ويفنى ، وهذا راجع إلى نفي العجز الموجود في المخلوقين عن إدراك ما يكبر مقداره ، ويتوالى وجوده ، وتتفاوت أحواله عن اسمه .

ومنها المتين : وهو الذي لا تتناقض قوته فيهن ويفتر ، إذ كان يحدث ما يحدث في غيره لا في نفسه ، وذلك أن التغير لا يجوز عليه .

ومنها ذو الطول : ومعناه الكثير الخير ، لا يعوزه من أصناف الخيرات شيء ان أراد أن يكرم به عبده وليس كذى طول من عباده قد يحب أن يجود بالشيء ولا يجده .

ومنها السميع : ومعناه المدرك للأصوات التي يدركها المخلوقون من غير أن يكون له اذن ، وذلك راجع إلى أن الاصوات لا تخفى عليه ، وان كان غير موصوف بالحس المركب في الاذن كالاهم من الناس لما لم يكن له هذه الحاسة لم يكن أهلاً لإدراك الصوت .

ومنها البصير : ومعناه المدرك للأشخاص والالوان التي يدركها المخلوقون بابصارهم من غير أن يكون له جارحة العين ، وذلك راجع الى (أن) ما ذكرناه لا يخفى عليه ، وان كان غير موصوف بالحس المركب في العين كالاعمى الذي لما لم تكن له هذه الحاسة لم يكن أهلاً لادراك شخص أو لون .

ومنها العليم: لان معناه المدرك لما يدركه المخلوقين بعقولهم وحواسهم ومالا يستطيعون إدراكه من غير أن يكون موصوفاً بعقل أو حس . وذلك راجع إلى أنه لا يغرب عنه شيء ولا يعجزه ادراك شيء كما يعجز (عن ذلك) من لا عقل له ولا حس، من المخلوقين. ومعنى ذلك انه يشبههم ولا يشبهونه .

ومنها العلام : ومعناه العلام بأصناف المعلومات على تفاوتها ، فهو يعلم الموجود ، ويعلم ما هو كائن ، وانه إذا كان كيف يكون ، ويعلم ما ليس بكائن، وانه لو كان كيف كان يكون .

ومنها الخبير : المتحقق لما يعلم كالمستيقن من العباد إذا كان الشك غير جائز عليه ، وان الشك ينزع إلى الجهل ، وحاشا له من الجهل ، ومعنى ذلك ، ان العبد قد يوصف بعلم الشيء إذا كان ذلك مما يوجبه كثر وانه لا سبيل له إلى أكثر منه ، وان كان يجيز

الخطأ على نفسه فيه ، والله جل ثناؤه لا يوصف بمثل ذلك ، إذا كان العجـــز غير جائز عليه . والانسان إنما يؤتى فيما وصفت من قبل القصور والعجز .

ومنها الشهيد : ومعناه المطلع على ما لا يعلمه المخلوقون إلا بالشهود ، وهو الحضور ، ومعنى ذلك انه وان كان لا يوصف بالحضور الذي هو المجاورة والمقاربة . فإن ما يجري ويكون من خلقه لا يخفى (عليه) كما لا يخفى على النائي من القوم مـــا يكون منهم ، وذلك ان النائي إنما يؤتى من قبل قصور آلته ونقص جارحته . والله جـل جلاله ليس بذي آلة ولا جارحة فيدخل عليه فيهما ما يدخل على المحتاج إليها .

ومنها الحسيب : ومعناه المدرك للأجزاء والمقادير التي يعلم العباد أمثالها بالحساب من غير أن يحسب ، لان الحاسب يدرك الاجزاء شيئاً فشيئاً ويعلم الجملة عند انتهاء حسابه والله تعالى لا يتوقف علمه بشيء على أمر يكون وحال يحدث .

٤ – ذكر الاسماء التي تتبع أسباب التدبير له دون ما سواه :

فأول ذلك **المدبر** : ومعناه مصرف الامور على ما يوجب حسن عواقبها . واشتقاقه من الدبر ، فكان المدبر هو الذي ينظر إلى دبر الامور فيدخل فيه على علم به ، والله عز وجل عالم بما هو كائن قبل أن يكون ، فلا يخفى عليه عواقب الامر . وهذا الاسم فيما يؤثر عن نبينا ﷺ .

ومنها القيوم : لان معناه القائم على كل شيء من خلقه يدبره بما يريد .

ومنها الرحمن : وهو المزيح للعلل ، وذلك انه لما أمر الجن أن يعبدوه عرفهم وجوه العبادات وبين لهم حدودها وشروطها ، وخلق لهم مدارك ومشارع وقـــوى وجوارح يعملون بها لتنفيذ ما أراده منهم . وخاطبهم وكلفهم وبشرهم وأنقذهم وأمهلهم وحملهم دون مـــا يتسع به بينهم . فصات العلل مزاحه وحجج العصاة والمقصرين منقطعـــة .

ومنها الرحيم : ومعناه المثيب على العمل فلا يضيع لعامل عملا ولا يهدر لساع سعياً ، وينيله بفضل رحمته من الثواب أضعاف عمله .

ومنها الحليم : لان معناه الذي لا يحبس أنعامه وأفضاله عن عباده لأجل ذنوبهـم ،

ولكن يرزق العاصي كما يرزق المطيع وهو منهمك في معاصيه ، كما يبقي البر التقي وقد يقيه الآفات والبلايا وهو غافل لا يذكره ، فضلا عن أن يدعوه ، كما يقيها الناسك الذي يسأله وربما شغلته العبادة عن المسألة .

ومنها الكريم : ومعناه النفاع ، من قولهم : شاة كريمة ، إذا كانت غزيرة اللبن تدر على الحالب ، ولا تقلص باخلافها ، ولا تحبس لبنها .

ولا شك في كثرة المنافع التي مَنّ الله تعالى (بها) على عباده إبتداء منه وتفضلا فهو باسم الكريم أحق من كل كريم .

ومنها الصبور : وذلك مما وردت به الاخبار عن الرسول ﷺ ، وليس له في الكتاب ذلك . ومعناه : الذي لا يعاجل بالعقوبة . وهذه صفة ربنا جل ثناؤه لانه يملي ويمهل وينظر ولا يعجل .

ومنها العفو : ومعناه الواضع عن عباده تبعات خطاياهم وآثارهم ، فلا يستوفيها منهم ، وذلك إذا تابوا واستغفروا ، أو تركوا لوجهه أعظم مما فعلوا ، (فيكفر عنهم ما فعلوا) ، بما تركوا ، أو بشفاعة من يشفع لهم ، ويجعل ذلك كرامة لذي حرمة لهم به ، وجزاء له بعمله .

ومنها الغافر : وهو الذي يستر على المذنب ولا يؤاخذه به فيشهره ويفضحه .

ومنها الغفار : وهو المبالغ في الستر ، فلا يشهر المذنب لا في الدنيا ولا في الآخرة .

ومنها الغفور : وهو الذي يكثر منه الستر على المذنبين من عباده ، ويزيد عفوه على مؤاخذته .

ومنها الرؤوف : ومعناه المتساهل على عباده لانه لم يحملهم ما لا يطيقون بدرجات كثيرة ، ومع ذلك غلظ فرائضه في حال شدة القوة ، وخففها في حال الضعف ونقصان القوة ، وأخذ المقيم بما لم يأخذ به المسافر ، والصحيح بما لم يأخذ به المريض ، وهذا كله رأفة ورحمة .

ومنها الصمد : ومعناه المصمود بالحوائج ، أي المقصود . وقد يقال ذلك على انه المستحق لان يقصد بها ، ثم لا يبطل هذا الاستحقاق ، ولا تزول هذه الصفة بذهاب من يذهب عن الحق ويضل السبيل ، لانه إذا كان هو الخالق والمدبر لما خلق لا خالق غيره

ولا مدبر سواه ، فالذهاب عن قصده بالحاجة وهي بالحقيقة واقعة إليه ولا قاضي لها غيره ، جهل وحمق ، والجهل بالله تعالى كفر .

ومنها **الحميد** : وهو المستحق لان يحمد لانه جل ثناؤه بدأ فأوجد ثم جمع بين النعمتين الجليلتلين الحياة والعقل ، ووالى بين منحه ، وتابع آلاءه ومننه حتى فاتت العد ، وان استفرغ فيها الجهد . فمن ذا الذي يستحق الحمد سواه ، بل له الحمد كله لا لغيره ، كما ان المن منه لا من غيره .

ومنها **القاضي** : ومعناه الملزم حكمه . وبيان ذلك : الحاكم بين العباد لا يقول إلا ما يقوله المفتي ، غير ان الفتيا لما كانت لا تلزم لزوم الحكم ، والحكم يلزم ، سمي الحاكم قاضيا ، ولم يسم المفتي قاضيا ، فعلمنا أن القاضي هو الملزم ، وحكم الله تعالى كله لازم فهو إذا قاضي وحكمه قضاء .

ومنها **القاهر** : ومعناه انه بدأ خلقه بما يريد فيقع في ذلك ما يشق ويثقل ويغم ويحزن ، ويكون منه سلب الحياة أو نقص الجوارح ، فلا يستطيع أحد رد تدبيره والخروج من تقديره .

ومنها **القهار** : أن يقهر ولا يقهر بحال .

ومنها **الفتاح** : وهو الحاكم ، أي يفتح ما انغلق من عباده ويميز الحق من الباطل ، ويعلي الحق ويخزي الباطل ، وقد يكون « ذلك » منة في الدنيا والآخرة .

ومنها **الكاشف** : ولا يدعي بهذا الاسم إلا مضافاً إلى شيء . فيقال : كاشف الضر أو كاشف الكرب . ومعناه : الفارج والمجلي . يكشف الكرب ويجلي القلب ، ويفرج الهم ويزيح الضر والغم .

ومنها **اللطيف** : وهو الذي يريد بعباده المؤمنين الخير واليسر ، ويقيض لهم أسباب الصلاح والبر .

ومنها **المؤمن** : ومعناه المصدق ، لأنه إذا وعد صدق وعده ، ويحتمل المؤمن عبادة بما عرفهم من عدله ورحمته من أن يظلمهم ويجور عليهم .

ومنها **المهيمن** : ومعناه لا ينقص للمطيعين يوم الحساب من طاعاتهم شيئاً ، فلا يثيبهم عليه ، لأن الثواب لا يعجزه ، ولا هو مستكره عليه فيحتاج إلى كتمان بعض الأعمال أو

جحدها ، وليس ببخيل فيحمله استكثار الثواب إذا كثرت الأعمال على كتمان بعضها، ولا يلحقه نقص بما يثيب فيحبس بعضه . لأنه ليس منتفعاً بملكه حتى إذا نفع غيره إلى انتفاعه عنه بنفسه ، وكما لا ينقص المطيع من حسناته شيئاً ، لا يزيد العصاة على ما اجترحوه[١] من السيئات شيئاً فيزيدهم عقابا على ما استحقوه . لأن واحداً من الكذب والظلم على جائز عليه . وقد سمى عقوبة أهل النار جزاء ، فما لم يقابل منها ذنباً لم يكن وفاقاً ، فدل ذلك على انه لا يفعله .

ومنها الباسط : ومعناه الناشر فضله على عباده ، يرزق ويوسع ويجود ويفضل ويمكن ويخول ويعطي أكثر مما يحتاج اليه .

ومنها القابض : يطوى بره ومعروفه عمن يريد ، ويضيق ويقتر أو يحرم فيفقر ، ولا ينبغي أن يدعى ربنا جل جلاله باسم القابض حتى يقال معه الباسط .

ومنها الجواد : ومعناه الكثير العطايا .

ومنها المنان : وهو عظيم المواهب . فانه أعطى الحياة والعقل والنطق وصور فأحسن الصور ، وأنعم فـأجزل ، وأسنى النعم وأكثر العطايا والمنح . قال — وقوله الحق — ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[٢]

ومنها المقيت : وعندنا انه الممد ، وأصله من القوت الذي هو مدد البرية . ومعناه أنه دبر الحيوانات بان جبلها على أن يحلل منها على مر الأوقات شيئاً بعد شيء ، ويعوض ما يتحلل غيره فهو يمدها في كل وقت بما جعله (قواماً لها إلى أن يريد ابطال شيء منها فيحبس عنه ما جعله)[٣] مادة لبقائه فيهلك .

ومنها الرازق : ومعناه المفيض على عباده ما لم يجعل لأبدانهم قواماً إلا به ، والمنعم لهم باتصال حاجتهم من ذلك اليهم ، لئلا تتنغص عليهم لذة الحياة بتأخره عنهم ولا يفقدوها أصلاً بفقدهم إياه .

ومنها الرزاق : وهو الرزاق رزقاً بعد رزق والمكثر الواسع لها .

ومنها الجبار : في قول من جعل ذلك من جبر الكسر ، أي الصلح لأحوال عبـاده

---

(١) اجترحوه : كسبوه . (٢) ابراهيم : ٣٤

(٣) هكذا وردت في كتاب الاسماء والصفات للامام البيهقي على لسان الحليمي .

والجابر لها، والمخرج لهم مما يسؤهم إلى ما يسرهم،ومما يضرهم إلى ما ينفعهم .

ومنها الكفيل : ومعناه المتقبل للكفايات ، وليس ذلك بعقد وضمان ككفالة الواحد من الناس ، وإنما هو على معنى : انه لما خلق المحتاج والزمه الحاجة ، وقدر له البقاء الذي لا يكون إلا مع إزالة العلة ، وإقامة الكفالة ، لم يخله من إيصال ما علق بقاؤه به اليه ، وادراره في الأوقات والأحوال عليه . وقد فعل ذلك ربنا جل جلاله إذ ليس في وسع مرزق أن يرزق نفسه ، وإنما الله تعالى يرزق الجماعة من الناس والدواب ، والاجنة في بطون امهاتها ، والطير التي تعدو خماصاً وتروح بطانا ، والهوام والحشرات والسباع في الفلوات .

ومنها الغياث : وهو المغيث . وأكثر ما يقال : غياث المستغيثين ، ومعناه : المدرك عباده في الشدائد إذا دعوه ومريحهم ومخلصهم .

ومنها المجيب : وأكثر ما يدعى بهذا الاسم مع القريب ، فقال : القريب المجيب ، وقال : مجيب الدعاء ، أو مجيب دعوة المضطرين . ومعناه : الذى ينيل سائله ما يريد .لا يقدر على ذلك غيره .

ومنها الولي : وهو الوالي ، ومعناه مالك التدبير . ولهذا يقال : المقيم على اليتيم ولي اليتيم ، وللامير الوالي .

ومنها البر : : ومعناه الرفيق بعباده ، يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر ،ويعفوعن كثير من سيئاتهم ، ولا يؤاخذهم بجميع جناياتهم ، ويجزيهم بالحسنة عشر أمثالها ، ولا يجزيهم بالسيئة إلا مثلها ، ويكتب لهم الهم بالحسنة ، ولا يكتب لهم بالسيئة. والولد البر بابيه هو الرفيق بة ، المتحري لمحابه المتوفي لمكارهه.

وقد قيل : ان البر في صفات الله جل ثناؤه المولى، ومعناه المأمول منه النظر والمعرفة لأنه هو المالك ولا يتفرغ للملوك إلا مالكه .

ومنها الحافظ : ومعناه الصائن عبده من أسباب الهلكة في أمور دينه ودنياه ،وهذا الاسم فيما يؤثر عن النبي ﷺ ، وجاء في القرآن: ﴿ فالله خير حافظاً ﴾[1] وجاء : ﴿ بما حفظ الله ﴾[2] ومن حفظ فهو حافظ .

---

(١) يوسف : ٦٤ (٢) النساء : ٣٤

ومنها الحفيظ : ومعناه الموثوق به بترك التصنيع .

ومنها الناصر : وهو الميسر للغلبة .

ومنها النصير : وهو الموثوق منه بان لا يسلم وليه ولا يخذله .

ومنها الشاكر : ومعناه المادح لمن يطيعه والمثني عليه والمثيب له بطاعته فضلا من نعمته .

ومنها الشكور : وهو الذي يدوم شكره ويعم كل مطيع وكل صغير من الطاعة أو كبير .

ومنها خالق الحب والنوى : يصونها في الأرض عن العفن والفساد ، ويهيئهما للنشوء والنمو ، ثم يشقها للانبات ويخرج من الحب الزرع ومن النوى الشجر لا يقدر على ذلك غيره .

ومنها المتكلم : وهو المكلم عباده وحيا وعلى السنة الرسل ، قال الله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ [1] .

ومنا الرب : وهو المبلغ كلما ابدع حد كماله الذي قدره له ، وهو يسل النطفة من الصلب ويجعلها علقة ، والعلقة مضغة ثم يجعل المضغة عظما ثم يكسو العظم لحماً ، ثم يخلق في البدن الروح ويخرجه خلقاً آخر وهو صغير ضعيف فلا يزال ينميه وينشئه حتى يجعله رجلا ، ويكون في بدء أمره شابا ثم يجعله كهلا ثم شيخاً . وهكذا كل شيء خلقه فهو القائم عليه به ، والمبلغ إياه الحد الذي وصفه وجعله نهاية ومقداراً له .

ومنها المحيي : وهو جاعل الخلق حيا باحداث الحياة فيه [2] . وفي القرآن: ﴿يحييكم ثم يميتكم ﴾ [3] . وفيه : ﴿ فأماتهم الله ثم أحياهم ﴾[4] .

ومنها الضار : وهو الناقص عبده مما جعل له اليه الحاجة .

فمنها النافع : وهو الساد للخله [5]، والزائد على ما اليه الحاجة ، وقد يجوز أن يدعى

---

(١) الشورى : ٥١ (٢) ورد في الاصل : (وهو جاعل الخلق ميتا بسلبه الحياة واحداث الموت فيه) وهذا تعريف لاسم (المميت) وقد جاء في كتاب الاسماء والصفات ما اوردناه في النص اعلاه . (٣) الجاثية : ٢٦

(٤) لم يرد هذا النص في القرآن الكريم ، وانما هناك آيات تشبه هذا النص كقوله تعالى : « ثم يميتكم ثم يحييكم » . البقرة : ٢٨ . أو كقوله : « فقال لهم الله موتوا ثم احياهم » . البقرة : ٢٤٣ .

(٥) الخلة : الحاجة والفقر .

الله جل ثناؤه باسم النافع وحده ، ولا يجوز أن يدعى بالضار وحده حتى يجمع بين الاسمين كما قلت في الباسط والقابض . وهذان الإسمان فيما يؤثر عن النبي ﷺ .

ومنها **الوهاب** : وهو المتفضل بالعطايا المنعم بها لا عن استحقاق عليه .

ومنها **المعطي والمانع** : جاء عن النبي ﷺ فيما كان يدعو به : (اللهم لا مانع لو أعطيت ولا معطي لما منعت)[1] (فالمعطي) هو الممكن من نعمه ، والمانع هو الحائل دون نعمه . ولا يدعى الله باسم المانع حتى يقال عنه المعطي ، كما قلت في الضار والنافع .

ومنها **الخافض والرافع** : وهذان الإسمان مما يؤثر عن رسول الله ﷺ ولا ينبغي أن يفرد الخافض عن الرافع في الدعاء كما قلت في المانع والمعطي ، فالخافض هو الواضع من الأقدار ، والرافع المعلي للاقدار .

ومنها **الرقيب** : وهو الذي لا يغفل عما خلق فيلحقه نقص ، أو يدخل عليه (خلل) من قبل غفلته عنه .

ومنها **الثواب** : وهو المعيد إلى عبده فضل رحمته إذا هو رجع إلى طاعته وندم على معيته ، ولا يحبط بما قدم من خير ، ولا يمنعه ما وعد المطيعين من الإحسان .

ومنها **الديان** : أخذ من ﴿ مالك يوم الدين ﴾[2] ، وهو الحاسب والجازي لا يضيع عملا ، ولكنه يجزي بالخير خيراً وبالشر شراً .

ومنها **الوفى** : من قوله : ﴿ فيوفيهم أجورهم ﴾[3] . وقوله : ﴿ أوف بعهدكم ﴾[4] ومعناه لا يعجزه جزاء المحسنين ، ولا يمنعه مانع من بلوغ تمامه ، ولا تلجئه ضرورة إلى النقص من مقداره .

ومنها **الودود** . وقد قيل : هو الواد لأهل طاعته ، أي الراضي عنهم بأعمالهم ، والمحسن اليهم لأجلها والمادح لهم بها . وقد قيل : هو الودود بكثرة احسانه ، أي المستحق لأن يود فيعبد ويحمد .

---

(١) ورد في سنن ابن ماجه « كتاب اقامة الصلاة » رقم ٨٧٩ ، ص ٢٨٤ . وفي صحيح البخاري « كتاب الدعوات » الباب ١٨ ، وفي صحيح مسلم « كتاب الصلاة » رقم ٢٠٥ ، ٢٠٦

(٢) الفاتحة : ١٠ (٣) النساء : ١٧٣ (٤) البقرة : ٤٠

ومنها العدل : ومعناه لا يحكم الا بالحق ولا يقول الا الحق ولا بفعل إلا الحق ،والحق هذا يلزم الاعتراف به ، هكذا ينبغي أن يكون .

ومنها الحكم : وهو الذي قيه الحكم . وأصل الحكم منع الفساد ، وشرائع الله تعالى كلها استصلاح العباد .

ومنها المقسط : وهو المنيل عباده القسط من نفسه ، وهو العدل، وقد يكون الجاعل لكل واحد منهم قسطاً من خيره .

ومنها الصادق : خاطب (الله) عباده بما يرضيه عنهم ، ويسخطه عليهم، وبما لهم من الثواب عنده إذا أرضوه ، والعقاب اذا أسخطوه ، فصدقهم ولم يعزرهم ولم يعزرهم ولم يلبس عليهم . وهذه الأسماء فيما جاء عن نبينا ﷺ.

ومنها النور : وهو الهادى لا يعلم العباد إلا ما علمهم ، ولا يدركون إلا ما سهل لهم [1] ادراكه . والحواس والعقل فطرته وخلقه وعطيته.

ومنها الرشيد : وهو المرشد، وهذا مما يؤثر عن النبي ﷺ . معناه الدال على المصالح والداعي إليها ، فهذا من قوله عز وجل : ﴿ وهيىء لنا من أمرنا رشداً ﴾[2]، فإن مهيىء الرشد مرشد . وقال : ﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾[3]،فكان ذلك دليلاً على ان من هداه فهو وليه ومرشده .

ومنها الهادي : وهو الدال على سبل النجاة والمبين لها لئلا يزيغ العبد (ويضل) فيقع فيما يرديه ويهلكه .

ومنها الحنان : وهو الواسع الرحمة ، وقد يكون المبالغ في اكرام أهل طاعته إذا وافوا دار القرار لأن من حن إلى غيره من الناس أكرمه عند لقائه وكلف به عند قدومه.

ومنها الجامع : وفي القرآن : ربنا انك جامع الناس لاشتات الدارسين من الأموات وذلك يوم القيامة .

ومنها الباعث : يبعث من في القبور احياء ليحاسبهم ويجزيهم باعمالهم .

ومنها المقدم : وهو المعطي لعوالي الرتب .

---

(١) وردت في الاصل (سهلهم) (٢) الكهف : ١٠ (٣) الكهف : ١٧

ومنها المؤخر : وهو الدافع عن عوالي الرتب .

ومنها المعز : وهو الميسر أسباب المنعة .

ومنها المذل : وهو المعرض للهوان والضعة . وهذه الأسماء السبعة مما ورد به الخبر عن النبي ﷺ ، ولا ينبغي أن يدعى جل ثناؤه بالمؤخر إلا مع المقدم ، ولا بالمذل إلا مع المعز ، ولا بالمميت إلا مع الحي المحي ، كما قلت في المانع والمعطي .

ومنها الوكيل : ومو الموكل والمفوض إليه ، علماً بأن الخلق والأمر ، لا يملك أحد من دونه شيئاً .

ومنها سريع الحساب : فقيل معناه لأ يشغله حساب أحد عن حساب غيره ، فيطول الأمر في محاسبة الخلق عليه . وقيل معناه : انه يحاسب يوم القيامة في وقت قريب لوتولى المخلوقون مثل ذلك الأمر في مثله لما قدروا عليه ، ولاحتاجوا إلى سنين لا يحصيها إلا الله عز وجل .

ومنها ذو الفضل : وهو المنعم عما لا يلزمه .

ومنها ذو انتقام : وجاء في الآثار : المنتقم وهو المبلغ بالعقاب قدر الإستحقاق .

ومنها ما جاء عن رسول الله ﷺ: انه قال : « لا تقولوا الطبيب » « ولكن » قولوا الرفيق ، فانما الطبيب هو الله [١] . ومعنى هذا ان المعالج للمريض من الآدميين وإن كان حاذقاً متقدماً في صناعته ، فانه قد لا يحيط علماً بنفس الداء ولئن عرفه وميزه فلا يعرف مقداره ، ولا مقدار ما استولى عليه من بدن العليل وقوته ، ولا يقدم [٢] في معالجته إلا مطبباً عاملا بالأغلب من رأيه وفهمه ، لأن منزلته في علم الدواء كمنزلته التي ذكرتها في علم الداء ، فهو لذلك ربما يصيب وربما يخطىء ، وربما يزيد فيغلو وربما ينقص فيكبو ، فاسم الرفيق « إذا » أولى من اسم الطبيب لأنه يرفق بالعليل فيحميه ما يخش أن لايحتمله بدنه ويطعمه ويسقيه ما يرى انه أرفق له .

فأما الطبيب فهو العالم بحقيقة الداء والدواء ، والقادر على الصحة والشفاء ، وليس

---

(١) ورد بهذا المعنى في مسند الامام احمد بن حنبل ج ٤ ، ص ١٦٣ .

(٢) يقدم : يتقدم .

بهذه الصفة إلا الخالق البارىء المصور ، فلا ينبغي أن يسمى بهذا الإسم أحد سواه . فأما صفة تسمية الله تعالى به فهو أن يذكر ذلك في أحوال الإستشفاء مثل أن يقال : اللهم انك أنت المصح والممرض والمداوي والطبيب ونحو ذلك . فأما أن يقال : يا طبيب كما يقال يا رحيم أو يا حليم أو يا كريم ، فان ذلك مفارقة لآداب الدعاء ، والله أعلم .

ومنها ما جاء عن رسول الله ﷺ: قال « اللهم اشف أنت الشافي »(١) وقد يجوز أن يقال في الدعاء : يا شافي يا كافي ، لأن الله عز وجل يشفي الصدور من الشبهة والشكوك ومن الحسد والغلول (٢) ، والابدان من الامراض والآفات ، ولا يقدر على ذلك غيره ، ولا يدعى بهذا الإسم سواه . ومعنى الشفاء رفع ما يؤذي أو يؤلم في البدن .

ومنها ما جاء عن رسول الله ﷺ : انه قال : « ان الله حي كريم » (٣) ومعناه أنه يكره أن يرد العبد إذا دعاه فسأله ما لا يمتنع في الحكمة اعطاؤه إياه وإجابته إليه ، فهو لا يفعل ذلك الا وانه لا يخاف من فعله ذما كما يخافه الناس فيكرهون لذلك فعل أمور وترك أمور ، فان الخوف غير جائز عليه والله أعلم .

فصل

ولله جل ثناؤه أسماء سوى ما ذكرنا تدخل في أبواب مختلفة :

منها ذو العرش : ومعناه الملك الذي يقصد الصافون حول العرش لتعظيمه وعبادته، فهذا قد يتبع إثبات الباري جل ثناؤه على معنى ان للعباد ملكاً وربما يستحق عليهم أن يعبدوه ، وقد يتبع التوحيد على أن المعبود واحد والملك واحد وليس العرش إلا لواحد، وقد يتبع إثبات الابداع والاختراع له لأنه لا يثبت العرش إلا لمن ينسب الاختراع إليه ، وقد يتبع التدبير له ، على معنى انه هو الذي رتب الخلائق ودبر الامور مقلا بالعرش على

---

(١) ورد في سنن ابن ماجه «كتاب الجنائز » رقم ١٦١٩ ، وفي صحيح البخارى «كتاب المرض» باب ١٩ .

(٢) مفردها غله وهي الخيانة والحقد .

(٣) ورد في سنن ابن ماجة « كتاب الدعاء » باب ١٣ رقم الحديث ٣٨٦٥ ، وفي سنن ابي داود « كتاب الوتر » باب ٢٣

كل شيء ، وجعله مصدراً لقضاياه واقداره ، فرتب له حملة من الملائكة ، وآخرين منهم يصفون حوله ويعبدونه .

ومنها **ذو الجلال والاكرام** : ومعناه المستحق بان يهاب لسلطانه ويثنى عليه بما يليق بعلو شأنه . وهذا قد يدخل في باب الاثبات على معنى : ان للخلق رباً يستحق عليهم الاجلال والاكرام ، ويدخل في باب التوحيد على معنى : ان هذا الحق ليس إلا لمستحق واحد .

ومنها **الفرد** : لان معناه المنفرد بالقدم والابداع والتدبير .

ومنها **ذو المعارج** : وهو الذي إليه يعرج بالارواح والاعمال . وهذا أيضاً يدخل في باب الاثبات والتوحيد والابداع والتدبير ، وبالله التوفيق .

فصل

وإذا ثبت التحاق معاني هذه الاسماء التي عددتها بالعقائد الخمس التي وصفتها ، وثبت انضمام شهادة أن لا إله إلا الله إياها ، ثبت انها تنظم معنى هذه الأسماء التابعة لها ويشتمل عليها كلها ، فحصلت أجمع الأفكار وأسناها وأفخمها وأعلاها وأولاها بان يتقرب إلى الله تعالى ويؤدي شكر ما علم من البيان بادامة ذكرها واستعمال اللسان ما أمكن بها ، وحق لها أن تدعى كلمة التقوى كما دعاها الله ، ويعصم الدماء والأموال والأعراض بها ، ويدخل الجنة من كانت آخر كلامه ، وتزحزح عن النار من قالها مخلصاً من قلبه ، كما أخبر ﷺ به ، فالحمد لله الذي هدانا وإياه يستودعها ليحفظها علينا ويؤديها بفضله الينا أحوج ما يكون لها وينفعنا بها انه ولي ذلك والقادر عليه .

فصل

وما يتبع الايمان بالله جل ثناؤه التفكر في إثبات الله تعالى جده للاستدلال بها على إثباته ووحدانيته وقدسه وعظمته ووجوب طاعته ، فان في أخطار ذلك بالقلب تأكيداً للايمان وتثبيتاً للقلب ، والاطراء له ، ودفعاً لخطوات الباطل عنه ، والتفكير في وعد الله

ووعيده لينتهي إلى ما وعد به الثواب ويبقى ما أوعد عليه بالعقاب .

قال الله عز وجل : : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهارلآيات لاولي الألباب ، الذين يذكرون الله قيامـــا وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والارض ﴾ [١] .

وقال : ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والارض ﴾ [٢] فأخبر عز وجل ان في خلق السموات والارض وغيرهما آيات ، وأمرنا بالنظر فيهما ، والمنظر فيها تدبرهاليوقف منها على ما هي اثبات له ودلالات عليه ،من أن لنا فاعلا حياً عالماً قادراً حكيما، إذ كانت آثار الصنعة لازمة لها ، والصنع يقتضي صانعاً فلا يتعذر منه الصنع حتى يكون عالماً به قبل أن يصنعه ، قادراً عليه ، ولا يأتي منه متقناً شيء حتى يكون مع علمه وقدرتـــه حكيما ، ولا تجتمع القدرة والعلم والحكمة في فاعل إلا وان يكون حيــاً يريد ويختار ، فيأتي الفعل منه على ما يريد .

فان قال قائل ومن لكم بان أثر الصنعة موجود في السموات والارض !

قيل له : ان السماء جسم محدود متناه ، والمحدود والمتناهي لا يجوز أن يكون قديماً ! لان القديم هو الموجود الذي لا سبب لوجوده ، وما لا سبب لوجوده .

فلا جائز أن يكون له نهاية لانـــه لا يكون وجوده إلا إلى تلك النهـــاية أولى به من وجوده دونها أو وراءها . ولان التناهي لا يكون الوجود ، لانه إلى نهايته يكون موجوداً ثم يكون وراء نهايته عدماً ، والقديم لا يعدم فصح ان المتناهي لا يجوزأن يكون قديماً والسماء متناهية ، فثبت بقدمه .

فان قال قائل : وما الدليل على ان السماء متناهية !

قيل : الدليل على ذلك ، أنها متناهية عياناً من الجهة التي تلينا ، فدل ذلك على انها متناهية من الجهات التي نراها ولا نشاهدها ، لان بتناهيها من هذة الجهة قد أوجب أن لا يكون منها قديماً موجوداً إلا لسبب فصح ان مالا يلينا منها فهي كذلك أيضاً ، لانه لا يجوز أن يكون شيء واحد بعضه قديم [٣] وبعضه غير قديم . وأيضاً فان السمـــاء جسم

---

(١) آل عمران : ١٩٠ (٢) الاعراف : ١٨٥

(٣) وردت في الاصل (قديما) .

واحد وكل جزء منه محدود متناهي ، فدل ذلك على ان جميعها محدود متناهي .

فان قال قائل : ما أنكرت انهـا على ما هي عليه من الاجزاء المجتمعـة ولا غاية لها ولا نهاية !

قيل له : قد ثبت ان كل جزء منها متناه ، فبطل بذلك أن يكون لها جميع ، لانـه إذا كان كل جزء منها متناهياً ، فبطل بذلك أن يكون لها جميـع ! لانه إذا كان كل جزء منها متناهياً ثبت انه ليس موجوداً بذاته لا لسبب لكن وجوده عند فاعل ، وإذا ثبت ذلك لم يخل الفاعل أن يكون قد يقل السماع وفرع منها ، أو يكون لم يفعلها ولميفرع منها ، فان كان قد فعلها وفرع منهـا ، فقد ثبت ان الاجزاء جميعاً وكلا ، وفي ذلك ثبوت الابتداء والانتهاء .

وان كان لم يفرغ منها والموجود يومنا إذا نقص السماء لاكلها ، وليس هذا قول أحد على أنه : ان كان لم يفرغ فمن ذلك لم يكن متناهياً ، كما قد خرج إلى الوجودمنهامتناهي ولا ضير مما لم يخرج إلى الوجود لان اتباع الفعل لا يبطل ثبوت الابتداء،ولا انكار وجود الانتهاء ، ولان كل جزء من السماء إذا كان متناهياً ، وكان هذا وصفاً لا يشذ عنه جزء ، ولم يبق منهما ما يوصف بعدم التناهي اليه ، لانه لا يبقى، وأقوالنا كل جزء شيء لآخر، فيرجع الوصف بعد التناهي اليه ، فصح باطلاق القول : ان السماء متناهية . وفي ثبوت التناهي ان يكون وجودها لذاتها لا لسبب . فصح ان وجودها لموجود أوجدها ، وليس ذلك إلا الله القديم جل ثناؤه .

فان قال : انكم ان كنتم وجدتم السماء متناهية ، فانما وجدتموها متناهية إلى جسم فاقضوا بذلك على ان الجهة التي لا تليكم منها متناهية إلى شيء آخر ، فتكون ذوات الموجودات غير متناهية،وكل نوع منها متناهي الخواص الثابتة له ، لهذا لا يوجب الحدث!

فالجواب : ان الموجودات إذا كانت على أنواعها ، وكل نوع منها متناهياً في خواص ثابتة له ، فقد وجب أن تكون الانواع كلها متناهية [1] في الخواص الثابتة لجميعها . وإذا كانت لا تنفك عن تلك الخواص، وقد وجب أن تكون متناهية في حكمها، فليس وراء ذلك إلا أن تكون متناهية في أنفسها .

---

(١) ورد في الاصل : متناهيا .

ويقال له : ان كان ما عارضتنا به لازماً ؟ فقل : إن الذي تنتهي اليه أجسام العالم بما تسميه خلاء لما كان متناهياً إلى أجسام ، وجب أن يكون وله وراء ذلك تناهي إلى أجسام وأنت لا تقول ، بل تقول ان الخلاء لا نهاية له ، فبطلت بذلك معارضتك .

ويقال له : السماء من الجهة التي تلينا متناهية عندك إلى النار ،والنار إلى الهواء والهواء إلى الماء والارضين ، ومعلوم انه لا سبيل إلى اثبات انها تتناهى من الجهة التي لا تلينا إلى مثل ما تناهت اليه من الجهة التي تلينا ، فثبت ان القضاء في هذا الغائب بحكم المشاهد ممتنع باتفاق . وأيضاً فان الذي يدعونه لا سبيل إلى إثباته لأنه لو كان في الأول مكان خال لا شيء متمكن فيه لما جاء ! فان تغير عن حاله. فيصير ببعضه أو كله مكاناً لأجسام يتمكن فيه! لأنه لو كان مات خلا كبقيته ،لكان التغير مستحيلاً عليه مع بقاء نفسه ، ولما كان إثبات الخلاء يؤدي إلى المحال صح أنه سبيل إلى إثباته ، وان أجسام العالم كانت لا إلى شيء والله أعلم .

وأيضاً : فان الأفلاك لا تعزى عن الأحداث لأنها دائمة التحرك ، والحركة حدث ، لأن الحدث ما لم يكن ثم كان ، فلما لم يعرض الحدث وجب أن يكون بانفسها لأن كل ما لم يكن خالياً من شيء لم يجز أن يكون له الوجود سبق عليه ، الا ترى ان الرجلين إذا كانا توأمين [1] قد ولدا في وقت واحد ، لم يجز إذا كان أحدهما ابن خمسين سنة أن يكون الآخر ابن ستين سنة ، فكذلك إذا كانت الأفلاك لم تخل من الحركة ، وكانت الحركة بأحد ، لم يجز أن تكون الأفلاك قديمة .

فان قال قائل : فاني أقول ان الأفلاك كانت ساكنة ثم تحركت ! قيل له : هذا محال، لأنها لو كانت قديمة ، وكانت في قدمها ساكنة ، لكان حكم سكونها حكم وجودها ، وهو انها تكون ساكنة لسكون لا سبب له ، كما تكون موجودة بوجود لا سبب له ، ولو كان كذلك لما جاز أن يعدم ذلك السكون إلى الحركة ، كما لا يجوز - عندك - على ذاتها أن تعدم ، وان كانت ، قد كانت ساكنة ثم تحركت . فذلك دليل على أن سكونها لم يكن لها إلا عن سبب ، وهو لتسكين الفاعل أبلها [2] وإذا كان التسكين

---

(١) ورد في الاصل اذا كانا (برين) .

(٢) هكذا وردت في النص والاصح (قبلها) .

فعل فاعل بها كالتحويل ببنيانها ، لم يخل من تسكين مسكّن وتحريك محرك ، فلم يجز مع ذلك إلا أن تكون سابقة لها . فثبت أن فاعل السكون والحركة فيما هو فاعلها ، وبالله التوفيق .

فان قال قائل: ان حركة الفلك حركة دور وحركة الدور لا بدء : ولا نهاية، فكيف ؟

فالجواب : ان هذا جهل عظيم ! لأن حركة المنحنون وحركة الرحى حركة دور ، ولا يخلو الواحد منهما من أن تكون لحركته بدء ونهاية . لأنه من قبل أن يتحرك يكون ساكناً ثم يعود بعد حركته إلى السكون ، فمن استحال أن تكون لحركة الأفلاك بدء ونهاية ، وإن كانت حركة دور.

ويقال له : حركة دور الدور ولاتخلو من الإبتداء لأنها إذا لم تكن ثم كانت ثم انقطعت ، فقد وجد الإبتداء والإنتهاء ضرورة. وأما الذي يصح أن يقال في هذا ان جزءاً مما يتحرك حركة الدور لا يسبق الحركة إليه قبل جزء ، فتكون الأجزاء لا أول لها من حلول الحركة إياها، ولسنا ندفع أن يكون ذلك حال الفلك. وأما الحركة نفسها ببدئها وانتهائها فيما بيننا عيان ، فكان حكم الغائب مثله والله أعلم

ويقال : ان المتحرك دائماً دائم الغير ، والموجود لذاته لا لسبب لا يجوز عليه التغير ، فلو كان الفلك موجوداً لذاته لا لسبب ، لم يجز أن يكون دائم التحرك فيكون وقتاً فوق الأرض ووقتاً تحت الأرض ، ولم يكن لونه فوق الأرض حين يكون فوقها أولى من كونه تحتها ، ولا كونه تحتها حين يكون كذلك أولى من كونها فوقها ، فثبت أنه موجود لسبب ، فان الذي له حده هو الذي يدبرهما يؤخذ عليه .

وأيضاً فان الأفلاك طبات معدود ، وإذا ثبت العدد أثبت التناهي ، وفي ذلك ما يوجب حدثها . وأيضاً فإن الافلاك أجزاء من السماء متحركة ، وفي ذلك بيان أن بعض السماء متحرك وبعضها ساكن وكل واحد منهما حد للآخر ، فإن الجزء المتحرك منها ينتهي إلى الساكن والجزء الساكن منها ينتهي إلى المتحرك ، فقد ثبتت النهاية للبعضين ، وفي ثبوت المتناهي بطلان أن يكون بطلان موجود لذاتها لا لسبب وبالله التوفيق .

وما قلته في السماء فهو في الأرض مثله وأبين ؟ لأن أجزاء الأرض تقبل في العيان أنواعا من الإستحالة ، وكذلك الماء والهواء لأن أجزاء كل واحد من هذه الأشياء يجتمع مرة

ويفترق أخرى وينقل من حال إلى حال وفي ذلك شيئان : **أحدهما** ان ذلك يبين انهـــا ليست موجودة لأنفسها من غير سبب ، لأن الموجود لنفسه لا يجوز عليه التغيير ، فانا اذا توهمنا له صفة ما وجب أن يتوهمها ثانية له لنفسه كالوجود ، فاذا ثبت له ذلك الصفــة لم يجز أن يعدم الى خلافها لأن ذات القديم لا يجوز أن تكون محـلا للحوادث ، وفي تعاقب الأحوال المختلفة على أجزاء ما ذكرنا دليل على أنها غير موجودة لأنفسهـــا . **والآخر** : انها إذا لم تكن قط منفكة من الحوادث ، فقـد وجب أن تكون بانفسها حدثاً كما ثبت .

فان قال قائل : فانا لا نقول أن الطينة الأولى كانت خاليـــة من الإجتماع والإفتراق والحركة والسكون .

قيل له : ومن سلم لكم أن طينة كانت ، تصفونها بما ذكرتم أو خلافه ، وانه ضرورة تدعو إلى انتهائها . ويقال لهم : إن كانت ! فاي العرضين سبق إليهما الاجتماع أوالافتراق؟ لانا نجد الاجسام قابلة للأمرين ، فان قالوا : الإجتماع هو الذي سبق ! قيل : فهذا يدل على انها كانت ابعاضاً مجتمعة فكيف يقولون: انها كانت خالية من الاجتماع! على انها لو كانت في الأول مفترقة لكان الإفتراق واجباً لها لذاتها ، ولما جاز على الإفتراق أن يقــدم ولو كانت في الأول مجتمعة ، لكان الإجتماع واجباً لها لذاتها ، ولما جاز عليها أن يقدم في وجود الإجتماع والإفتراق متعلقين على الأجسام دل على أن كل واحـد منهما ليس بأولى في وجود الجسم غير منفك منهما ما دل على أنه حدث مثلها والله أعلم .

فان قال قائل : إذا ثبت لكم ان ابعاض الأرض والماء والهواء تقبـل الإستحالة ولم يثبت لكم ان كلها تقبل الإستحالة ، ولأن السماء تقبل الإستحالة في جزء لا في كل ، فمن أين ادعيتم ان كلها أو السماء حدث .

فالجواب : انه إذا لم يكن جزء من هذه الأشياء إلا وهو قابل للاستحالة ، صح ان الكل لم يعدم إستحالته ، لأن الإستحالة غير جائزة عليه لكنه الذي يحيل ابعاضها منهـا ليس يحل كلها ولو شاء أن يحيله لم يمتنع عليه. وهذا أيضاً حجة في الافلاك وفي سائر أجزاء السماء ، لأن السماء متماثلة الاجزاء ، فلما جاز على بعضها أن لا يتحرك جـــاز على البعض الآخر أن يعدم حركته فيصير إلى مثل حال سائر الاجزاء ، وجاز على غير المتحرك منها

أن يتحرك فيصير إلى مثل سائر الاجزاء ، وفي هذا ما ابان ان المتحرك منها غير متحرك لعينه ، ولا غير المتحرك منها غير متحرك لعينه ، ولا لان بخلاف الصفة التي هي لواحد منها غير جائز عليه والله أعلم .

وأيضاً: فان دلالة الحدث ليست في الإستحالة في السماء فقط إذا لم يكن لجملة النار أو جملة الهواء أو جملة التراب إستحالة مشاهدة، أو لم يكن للسماء إستحالة مشاهدة في جزء امتنع عليها القضاء الحدث . فان استحالة الاجسام التي في الارض باصلها جملة غير مشاهدة ، وانما المشاهد استحالة أجزاء بها ، لان الواحد بعد الواحد يموتون، وتصيبهم الآفات ، وكذلك الواحد بعد الواحد من الشجر والدواب والطير ، وليس في أن الاجسام كلها تشاهد بطلانها وانتقاصها، دليل على أن البطلان والانتقاص غير جائزين على كلها، بل هما جائزان على الكل لجوازهما على الابعاض والحكم بالحديث عليها كذلك واجب .

فكذلك استحالة كل الماء والنار والهواء والتراب وان لم يكن مشاهدة . فكذلك لا يدل على أن الإستحالة غير جائزة ، لكنها جائزة عليه لجوازها على الابعاض والحكم بالحدث كذلك عليه واجب . واستحالة السماء في الاجزاء والكل وان لم تكن مشاهده ، فقد وجد من نظر الاستحالة ما يدل على الحدث ووجود بعض امارات الحدث تكفي لإيجاب حكم الحدث . فان القدم كما لا يقارن جميع دلائل الحدث ، فكذلك لا يقارن أحدهما . وقد ذكرنا فيما تقدم أن مجرى السماء واشهاداتها يدلان على حدثها . فان كانت إستحالتها لم توجد ولم تشاهد في كل ولا جزء ، فذلك لا يفسد هذا الاصل وبالله التوفيق .

وأيضاً فان اشتمال الفلك على كواكب لها طباع في الحر والبرد والرطوبة واليبس يدل على أن الفلك يضر الاجسام الارضية المشتملة على هذه المعاني وذلك يدل على أنه محدث مصنوع ، لان هذه المعاني متضادة متنافرة، فلم يكن لتجتمع وتتألف بانفسها، فان الناس لو اجتمعوا فاحتالوا ليجمعوا بين نار وماء في مكان واحد ، ويدفعوا النار عن اماته الماء والماء عن إطفاء النار ، لما قدروا عليه .

فلما كانت هذه المعاني قد اجتمعت في الكواكب ، علمنا ان ما سرى فوقها فثبتوها

---

(١) لقد وردت في الاصل (الطائر) .

على الاجتماع، ودبر الكواكب بالجمع بينهما فيها، ولولا أن ذلك كذلك لم يجتمع مع مضارها ومنافعها في جسم واحد .

ويمكن أن يستدل بهذا المعنى على أن الافلاك قابلة للاستحالة والتغير والفساد ، لانه إذا اجتمعت فيها كيفيات متفاوتة ، فقد ضاهت الاجسام الارضية ، وهي بزعمهم أنها تقبل الفساد لاجتماع الكيفيات المتضادات فيها. فاذا كان هذا المعنى موجوداً في الكواكب وجب القضاء عليها بانها قابلة للفساد وثبت بذلك حدثها لان القدر لا يفسد ولا يتغير وبالله التوفيق .

وأيضاً فان من قولهم ان كل ما يكون في هذا العالم فمتأثر من الافلاك والكواكب في هذا العالم التغير والفساد والاستحالة ، فان كان ذلك كله من آثار الافلاك والكواكب ففيها إذا مكان الفساد والاستحالة والغير ، وإن لم يكن ذلك شيء منها فكيف يتأثر شيء منها في غيرها ما ليس فيها ؟ فأخذ القولين خطأ ، وبالله التوفيق .

فصل

فان قال قائل : ان كان دليلكم على حدث الجوهر بغير الاوصاف عليها ، فان هذا المعنى منتقض عليكم بالباري جل ثناؤه فانه قدير بلا خلاف ، ولم يكن موصوفاً بالفعل إلى أن فعل واستحق إسم الفاعل ، وأفعاله أيضاً لم تقع ضربة واحدة ، ولكنه فعل وترك .

وكذلك هو في المستقبل يفعل ولا يفعل ، وقد قال : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [1] فهو يريد بعد ان لم يكن مريداً ، ويقول : كن ، بعد ان لم يكن قائلا ، ثم يدع الارادة ويدع القول . ويعلم المعدوم معدوماً ، فإذا أوجده علمه موجوداً ، وكل هذا أحوال شتى وأوصاف مختلفة ، ولم يكن في جوارها على الباري عز وجل ما يفسد القول بقدمه . فما أنكرتم أن اختلاف الاحوال على الجواهر لا يفسد القول بقدمها !

---

(١) يس : ٨٢ .

وان قلتم ان الفعل وغير الفعل موجبـــان بغير أحوال المفعول . فلا يوجب ان تغير أحوال الفاعل . قلنا : وكذلك تعاقب الاعراض على الجواهر ، فوجب تغير الاعراض في أنفسها . فأما الجواهر فانها بحالها لا تتبدل ، ولانها لا تستحيل ولا تتغير ولا تفسد ، فما دلالتكم إذاً على حدثها ؟

فالجواب : ان حمل الجواهر للاعراض هو الدليل على حدثها ، وذلك أن للعـــرض حدوثاً وانقضاء ولا بد له من شيء يكون حدوثه وانقضاؤه فيه ، ووجدنا الجوهـــر حاملاً للأمرين فيه ودل ذلك على أن بقاء الجوهر عرض حادث ، فلذلك أمكن أن يحدث العرض فيه .

ولو كان الجوهر قديماً لم يكن بقاؤه عرضا ، فكان لا يلائم الوجود العرض من شيء آخر ولا يحمله ، الا ترى أن الباري جل ثناؤه لا يجوز أن يكون حاملاً للأعراض ومـا ذلك إلا كما وصفت ، فلو كانت الجواهر قديمة لكان حكمها فيما ذكرت حكمه، ولما لم يكن كذلك بل كانت حاصلة للاعراض ، علمنا أن المعاني التي تسمى أعراضاً إنمـا جاز أن يعترض فيها المجانسة التي بين ثقلها حـال حدوث الاعراض فيهـا وبين بذلك الاعراض .

وهذا يدل على أن الجواهر ليست بقديمة ، ومعنى وصفنا إياها بالتغيير انها مجـــال للاعراض فهو يقبلها أو يحملها مع اختلافها فتصير لاجل ما تحمله منها موصوفاً مرة بصفة وموصوفاً بضدها أخرى . والعقلاء لا يفرقون الغير إلا هذا ، وما يزيد وضوحـاً ان من الاعراض التي تحمل الجواهر ما يعدمها بفعل حال إلا وقد يحلها خلاف ذلك فيعجزهاعن ذلك الفعل حالاً ، وكالإنسان يصبح ليفعل أفعالاً كثيرة، ثم يعرض فلا يتبع لملك الافعال، ومعلوم أن الفعل إنما يقع من الجواهر وإذا اتسعت للفعل حالاً ولم يتسع له أخرى ، فقد وجب التغير .

وأما الباري جل جلاله فانه تعالى عن الاعراض أن تحله ، والاحوال أن تكون له .

وأما وجود الفعل منه بعد ان لم يكن ، فلا يوجب لغيره لانه لا يفعل في نفسه وإنمايفعل في غيره ، فذلك الغير هو الذي اختلف حاله ، فكان مرة معدومـاً ومرة موجوداً ، وأما الارادة والقول فان أصحاب الحديث يقولون : ان الله جل جلاله لم يزل مريداً أن

تكون كل كائنة في الوقت الذي كانت فيه ، وهذا يبين انه لا تغير له بوجه من الوجوه.

وأما غير أهل الحديث ، فإن الارادة عندهم من صفات الفعل ، لا من صفات الذات ، فهل تحل المراد ولا تحل الود ، كما أن الخلق حل المخلوق ولا تحل الخالـــق ، فلا يؤدي واحد من القرائن إلى إجازة التغير على الباري جل ثناؤه وتقدست أسماؤه .

وأما العلم فانه اثبات الشيء على ما هو به ، واذا كان الشيء معدوماً وماعلمه معدوماً وإذا كان موجوداً ، علمه موجوداً ، فيثبته في كل حال على ما هو به ، وذلك لا يوجب تغير علمه ، انما يوجب تغير المعلوم ، لأنه علمه بالمعــدوم لم يكن إلا اثباته إياه على ماهو به ، فإذا صار موجوداً فقد أثبته على ما هو به بان ان العلم اختلف وبالله التوفيق .

فصــــل

فان قالوا : لا يجوز أن تكون طينة العــــالم إلا قديمة لأن حدوث شيء لا من شيء ، مستحيل في العقل!

فيقال لهم : ان كان ذلك مستحيلا في عقولكم ، فليس بمستحيل في عقول عـــالم من الناس مثلكم ، أو أكثر منكم . فكيف صارت عقولكم عيارا على عقول غيركم دون أن تكون عقول غيركم عياراً على عقولكم ! وقد أجيبوا ان الحادث القديم قسمان يخرجهما العقل عند تقسيم الموجود وكتخريجه الموجود والمعدوم والجائز والممتنع والحسن والقبيح . فكما ان حقيقة كل من ذلك ثابتة لا تدفع ، فكذلك الحادث والقديم لاتدفع حقيقته واحد منهما فلا يحال وجوده . فاذا كانت حقيقة القديم الموجود لا عن أول كانت حقيقة الحادث الموجود عن أول ، فوجب أن لا تدفع حقيقة الحدث عن بعض الموجودات ، ولا يقال لا حادث ، كما لا يقال لا موجود أولا معدوم ، أو لا حسن ، أو لا قبيح ، أو لا جائز ، أو لا ممتنع . فصح بما ذكرنا ان الحدوث ليس بمستحيل في الفعل إذا كان العقل قد خرج في مقابلة القدر ، ولا جائز أن يثبته بم يمنع مفه ويدفعه .

وقد أجيبوا بان حدوث الشيء لا من شيء ان كان غير جائز ، فلسنا نقول ان شيئاً حدث بنفسه لا من شيء ، بل نقول انما حدث بمن يحدثه ، لأنه أحدثه محدث وأوجده

موجد ، وأكد هذا على من أقر بالله جل ثناؤه ، وأنكر الاختراع بان الله جل ثناؤه لو كان لا يقدر على أكثر من تركيب الجسم من جواهر موجودة لكان ذلك نقصاً به وعجزاً ، لأن منزلته لا تعدوا في التركيب منزلة الناس .

وكان فضل ما بين تركيبه وتركيب الناس ، كفضل صناعة الصانع على صنعة النجار ، وفضل صنعة الرفاء على صنعة الخياط ، وفضل صنعة الخباز والطباخ على صنعة من يجمع شيئا إلى شيء بلا تأليف أو تركيب وذلك غير جائز . فصح أن لا يحتاج في الخلق إلى مادة تكون حاضرة فيركب منها جسما ، لأن الحاجة نقص، وشيء من النقائص غير جائز عليه وبالله التوفيق .

ويقال لهم : ليس في إبداع شيء لا من شيء إلا ما في تركيب الجواهر من غير مماسة إياها، وذلك ليس يستحيل في العقل . فما أنكرتم ان الابداع ليس بمستحيل فيه .

ويقال لهم: إذا جاز ان تركيب الباري جل ثناؤه الجواهر بلا مماسة، لأنه قادر لا بسبب، فلذلك يفعلها ويوجدها عن عدم لأنه قادر لا لسبب ، ولا يلزم على هذا المحال الذي لا يجوز وصفه لمقدور ، لأن ذلك إنما استحال لتناقضه ، ولا تناقض في وجود الجوهر بعد عدمه. فصح انه يجوز أن يكون مقدوراً بلا مماسة .

ويقال لهم : الموجود الحي العالم القادر لا لسبب ينيل غير الموجود وجوداً، فلا يستحيل، كما انه ينيل غير العالم علماً ، وغير الحي حياة وغير القادر قدرة ، بل ذلك أولى ، لان الايجاد أخص بالموجود من العلم والأحياء والاقدار ، وإذا جاز عليه إيجاد العلم أو القدرة أو الحياة لغيره ، لأنه مع هذه الصفات موجود لا لسبب كان إيجاده الوجود لغيره مثل ذلك أو أجوز وبالله التوفيق .

ويقال لهم : إن المادة التي تدعون قدمها ، إذا حقق الخلاف فيها رجع إلى اللفظ دون المعنى ، لأنكم تزعمون انها قديمة بالقوة دون الفعل ، والذي يعقل من الموجود بالقوة والموجود بالفعل ، ان الموجود بقوة ما يمكن ان يخرج إلى حقيقة الوجود ولما خرج ، والموجود بالفعل هو الذي خرج الى حقيقة الوجود وارتفع عنه اسم المعدوم ، وإذا كان كذلك ، فليس يجب قولكم : إن المادة قديمة ، إلا انه يمكن وجوها . وقد قلتم : انها ما لم تخرج إلى حقيقة الوجود ، وهي التي تسمونه الوجود بالفعل لم تقبل الخلق والتركيب فثبت

ان الباري جل ثناوه اخرجها – عند تركيب ما ركب فيها – الى حقيقة الوجود ،وليس قبل ذلك الاخراج الا العدم . فصح انها كانت معدومة فأوجدها الباري وبالله التوفيق .

ويؤكد هذا اتفاقهم على انها – قبل تركيب ما ركب منها – لا جسم ولا جوهر ولا عرض ، وهو بعد التركيب جواهر وأجسام فثبت ان الباري هو الفاعل للجواهر جواهر كما انه هو الفاعل للاجسام أجساماً ، وانها من قبل أن تكون جواهر لم تكن إلا عدماً، إذ لو كانت موجودة لا جوهراً ولا عرضاً ، لكان موجوداً كذلك لنفسه ، ولم يجز أن تتغير عن ذلك إلى حال يحدث له في نفسه ، إذ القديم لا يتغير وبالله التوفيق.

فقال القائل: اليس الباري جل ثناؤه كان غير فاعل ففعل ، ولم يستحل ذلك من حيث انه قديم ، فما أنكرتم ان المادة لم تكن جوهراً ولا عرضاً تصير جوهراً وعرضاً ولا يستحيل ذلك من حيث انه قديم .

فالجواب : ان الباري عز وجل كان غير فاعل ففعل ، وأفعل في غيره لا في نفسه ، فلم يوجب ذلك ، وإنما أوجب بغير المفعول . والمادة التي تدعيها قديمة إذا لم تكن جوهراً فجعلها الله تعالى جوهراً . فقد عبر بفعله الذي فعله فيها ، نفسها . والقديم لا يقبل فعلا لفاعل ولا يتغير ، فانه لو جاز عليه أن يتغير لجاز أن يقدم هذا ما شاء وبالله التوفيق .

فصل

وكل ما ثبت من حدث السماء والأرض فهو دليل على أن لهما محدثا لا يجوز أن يكون حدثا اتفاقا . فانه لو جاز أن تحدث السموات والأرضون اتفاقاً ، فلجاز أن يزداد كوكبه ويزداد جبل في الأرض اتفاقاً . ولئن جاز أن يحدث اتفاقاً فلجاز أن يعدم اتفاقاً.وليجز أن يحدث الانسان اتفاقاً ، وليجز أن يحدث عنها أخرى اتفاقاً دون هذه السماء . فإذا كانت اجادة كل شيء مما ذكرنا تجاهلا ، كانت اجازة ان تكون السموات والأرضون على ما هما عليه من النظام والصنع الشديد المتفق حديث اتفاقاً أولى بالتجاهل وبالله التوفيق .

فان قال قائل : أرأيتم لو قلب هذا عليكم ، قال فقال : لو كان وجودها عن احداث محدث وخلق خالق لجاز أن يوجد مثلها أو شيء مما ذكرتم اليوم خلقاً له .

قيل له : ولا سؤالاً بها اذا كانت خلقاً لخالق فعلق وجودها بمشيئته ، فان شاء أحدث وخلق ، وإن شاء لم يحدث ولم يخلق . فأما إذا كان الحدوث اتفاقاً ، فليس شيء بالحدوث اتفاقاً أولى من شيء ، ولا وقت وجود الاتفاق فيه أولى من وقت ، وإن لم يكن الوجود اتفاقاً أولى من القدم اتفاقاً ، فهذا فرق ما بين القولين وبالله التوفيق .

فصـــل

فان قال قائل : قد ثبت جواز أن يكون البـــاري جل ثناؤه اخترع الجواهر ، فما الذي يدل على أن وجودها من قبل اختراعه لا من حيث انه كان علة له ، فوجب عـــن وجوده وجودها.

قيل : — وبالله التوفيق — انكرنا ذلـك لأن قائل هذا القول لا يخلو من أن يقول : ان الجواهر وجدت لوجود الباري عن غير اختيار منه واردة لوحودها وكونها ، أو يقول : وجب عن وجودها من غير اختيار كان منه ، ولا ارادة !

فان قال : انما وجدت باختياره وإرادته ! قيل له : وجدت عندك بعد ان لم تكن. أو يقول : كانت موجودة معه باختياره وارادته ! قيل له وجدت عندك بعد ان لم تكن .

أو يقول : كانت موجودة معه باختياره وارادته ، فان قال : وجدت باختياره وارادته بعد ان لم تكن ، فهذا قولنا. وإنما الخلاف بيننا في تسمية الله عز وجل علة ، فانا لا نخبر ذلك لما فيه من ايهام الباطل ، وانه اسم لم يأت به كتـاب ولا سنة ، ولا وقع عليه من المسلمين اجماع ، ولا هو في معنى ما ورد به النص أو وقع الاجماع عليه.

وإن قال : كانت موجودة معه لا باختياره وارادته ! قيل له : فهي إذاً قديمة عندك. فكل دليل اقمناه على حدثها فهو حجة عليه . ويقال له : ما أنكرت انه يستحيل ، فلا يمكن أن تكون لم تزل موجودة معه بشرط اختياره وارادته لأن وجودها معه ، يوجب قدمها ، وتعلق ذلك الوجود بارادته يحل قدمها ، لا ما كان لوجوده سبب لم يكن قديماً إذ القديم هو الذي لا سبب لوجوده . ومـــا كان لوجوده سبب ، اختص وجوده بذلك السبب ، فكان موجوداً من جهته ولاجله . ولو توهم منفكاً من ذلك السبب لم يكن أن يتوهم موجوداً ، وهذا هو المحدث .

فأما القديم فهو الموجود بالاطلاق الذى لا يمكن أن يضاف وجوده إلى ما سواه.
فصح ان وصف الجواهر بانها لم تزل موجودة مع الباري جل جلاله ، وإن وجودها معه كانت باختياره وارادته ، قول متناقض وحكم فاسد .

فان قال : انما كان يلزمني هذا لو أجزت امكان ان كان يكون الباري في الأزل غير مريد لوجود هذه الجواهر معه . قيل : هذا هو المحال الذي لا يجوز الذهاب اليه . لأن الجواهر ان كانت لم تزل موجودة مع الباري ، لم يجز أن يكون الباري بانه شاء لوجودها .
كما لا يجوز أن يوصف بانه شــاء لوجود نفسه ، ولأن ما تعلق وجوده بمشيئة شاء وجب ان يكون وجوده بعد المشيئة ، ولأن مشيئة الموجود لمـا ليس في حال المشيئة لمعدوم ، ولا يقوم في وهم . وإنما يتصور في مثل هذا ان يقال : انه شـاء لبقاء الموجود وذلك أيضاً لا يصح ، لأن الجواهر ان لم تزل موجودة معه ، فوجدها معلوم بمشيئته . وإذا كانت موجودة لا بمشيته لم يحتج في بقائها إلى مشيئة ، لأن القديم لا يجوز عليه العدم وبالله التوفيق .

ويقال له : إذا نفيت عن البارى صفة الابداع ، دليلك على وجوده ؟ فانا إذاً نستدل على وجوده ، فوجدنا آثار الحدث في عامة الموجودات ، واقتضائها محدثا ، فان لم تكن الموجودات محدثات فيما إذا عرفت ان لها بارئاً وأثبته .

فان قال : وجب عن وجوده وجودها من غـير اختيار كان منه ولا إرادة ، دخل عليه ما ذكرت في الوجه الأول ، وهو أن **يقال له** : محدث بعد ان لم تكن أو لم تزل موجودة معــه .

فان قال : لم تزل موجودة معه . **قيل له** : فما الفصل بينك وبين من قال : انها علة لها ؟ وقيل أيضاً عن الدليل الذي دله مع هذا القول على التمادى ولن تجد اليه سبيلا .
ويقال له : ما أنكرت أن هذا حكم فاسد ، لأن وجود غيره من قبل اقتضائه إياه يحل قدم ذلك الغير ، لأن القديم هو الموجود لنفسه لا لسبب فان كان لوجوده سبب كان موجوداً من قبل ذلك السبب ، ولم يستحق الوصف بالموجود إلا من جهته خاصة ، فثبت أن الجمع بين إثبات القديم لغيره ووصفه بان وجوده كان من قبل انقضائه اياه قول متناقض وحكم فاسد .

وإن قال : حدثت بعد ان لم يكن . **قيل له** : ان جاز أن يحدث بعد ان لم يكن لا باختياره ، فأجوز من ذلك وأحق أن تكون حادثة باختياره . وأيضاً فـان وجوده لو اقتضى وجودها لا باختياره لوجب أن تكون قديمة لأنه قديم . ولما جاز له أن يكون موجوداً ، وما يجب وجوده عن وجوده غير موجود لأن ذلك لو جاز وقتاً لجاز أبداً ومنه بطلان أن يكون البارى علة كما قال هذا القائل وبالله التوفيق .

فصـــــل

وإذا ظهر ان العالم صنع صانع حي عالم قادر حكيم ، فالحكيم لا يخلق خلقاً ، ولا يعمل فعلا لا لغرض صحيح منه ، وهذا هو المعنى الذى نبه الله عز وجل عليه عبادة بقوله تعالى : ﴿ أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً ﴾[١] ، وبقوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾[٢] . أي لا لشيء أو من غير غرض كان في خلقهم .

وإذا ثبت ذلك ، وكان العالم مشتمل على حي عاقل مبين ، وعلى احياء لا تفعل ولا تبين وجماد ، لم يجز أن يكون ما يقل مخلوقاً لما لا يعقل ، لأن العاقل أفضل وأشرف من غير العاقل ، فلا يجوز أن يكون العاقل الحكيم خلق الاشرف للادراك والأفضل الأنقص ، لأن ما كان مخلوقاً لغيره كان المخلوق له هو الغالب عليه إذا كان سبباً لوجود ما خلق له .

ولا يجوز أن يكون الأنقص غالبـــاً على الأفضـــل ، ولأن ما لا يعقـــل إذا لم يعلم معاني نفسه استحال أن يعلم معاني غيره ، وإذا لم يعقلها ذهب خلق غيره له هدراً ، وكان فعل ذلك مناقضاً للحكمة . فثبت ان مالا يعقل مخلوق لمن يعقل ، وذلك أن ينتفع بكل شيء منه على الوجه الذي يصلح له ، والإعتبار يجمعها كلها ، لانه ما من شيء إلا وفيه الدليل على الفاعل القديم المبدع الحي القادر العالم الحكيم ، ثم يكون وراء ذلك في شيء منفعة الاكل وفي آخر منفعة الركوب ، وفي آخر منفعة الحمل عليه إلى غير ذلك مما يكثر عده ، ثم الذي يعقل مخلوق ليعلم ما يقع العلم به على حسب العلم الواقع له .

---

(١) المؤمنون : ١١٥ (٢) الطور : ٣٥

قال الله عز وجل : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [1] والعلم بهــذه المحسوسات إنما يقع له بالاستدلال والنظر ، وأصلها التفكر المشار إليه بقوله عز وجل : ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحـق ﴾ [2] وقوله : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ [3] . وقوله : ﴿ ويتفكرون في خلــق السموات والأرض ﴾ [4] فثبت بذلك ان حفظ الايمان بادامة التفكر والنظر في الآيات والفكر ليرسخ في القلب منه ما علق به ، ويزداد على الايام تأكـداً بازدياد الشواهد التي تدرك بالفكر ووضوحها على الأيام ، من أحق الأمور بصرف الهمم إليه ، والعكوف في أكثر الأوقات إليه ، وبالله التوفيق .

فصــل

فاما ما وراء إثبات الصانع جل جلاله من التوحيد والتقديس ، فان دلائل التوحيـد كثيرة ، فمنها ما يستدل به على انه لا قديم سواه ، ومنها ما يستدل بـه على أن لا إله سواه . فاما انه لا قديم سواه ، فان الكلام فيه مع الذين يثبتون نفسا قديمة ومادة قديمة . والذي حملهم على هذا استنكارهم حدوث شيء لا من شيء ، فقد تقدم القول على هـذا ، وما يقربه ويثبته ما فيه كفاية .

وأما النفس ، فقد اختلف متكلموا المسلمين فيها ، فمنهم من أثبتها ، ومنهـم من لم يعترف بها ، وان ثبت وجودها فلا سبيل للملحدين إلى دعوى القدم ، امـا إذا كانوا بانفسهم يقولون انها نزلت من عالم لها علوي ، إلى هذا العالم السفلي ، وتشبثت بالجواهر ، وانها من قبل كانت عالمة ، فلما حلت ما ليس من جنسها بسبب وغفلت ، فاحتيــج إلى تذكيرهـا ، والتعليم هو التذكير ، وانما تجاور ابدان الحيوانات قسراً لا اختيــاراً ثم تفارقها عند الموت وترجع إلى عالمها .

ومن تأمل ان هذا كله تغير وتغلب ، والقديم لايتغير ، فلا يكون له أحوال ، فبطل بما

---

(١) الذاريات : ٥٦
(٢) الروم : ٨
(٣) النحل : ١١
(٤) آل عمران : ١٩١

يصفونها به أن تكون قديمة . فاما إذا كلموا فيها على سبيل الإنكار ، فقد قيل لهم : ان النفس ليست تكون حبيباً ، فوقع العلم به ضرورة ولا ببديهة العقل ، والنظر لا يوجبها ، وضر الصادق الذي يلزم الحجة بمثله لم يأتنا به ، فلم يستغني إثباته ؟ فقالوا : بل النظر يدل عليها لأن الاصل الحي العاقل الناطق الحساس الدراك إذا لم يفقد من أعضائه وجوارحه شيئاً .

ومع ذلك فان العقل والبيان والادراكات كلها ترتفع عنه وتزيله . فدل ذلك على أنه كان لهذه المعاني قبل الموت حامل سوى البدن يحملها كلها من صفاته ، وانها انما عدمت وارتفعت لزوال ذلك الحامل وانقطاع مجاورته للبدن .

ولولا ان هذا هكذا لوجب أن يرتفع ولا يعدم مع بقاء البدن برمته ، فقيل في الانفصال عن هذا ان الله عز وجل ركب العقل في القلب وكل نوع من الحسن في جارحة تختص به ، والبيان في اللسان . وجعل كل عضو مما ذكرت متيسراً لما هيأه له بالروح الذي جعله سبباً للحياة، فإذا نزع الروح من البدن، زال تيسر القلب للعقل وتيسر الاعضاء الحساسة ، وتيسر اللسان للنطق والبيان ، وفي تنزيل الامر على هذا بيان ان لا ضرورة إلى إثبات شيء يدعى نفساً سوى الروح والبدن وإحيائه بهذه الامور اليه وبالله التوفيق .

ولا أعلم في الاعتراف بها ضرراً عائداً على الدين بوجه من الوجوه ، وقد قال الله عز وجل في كتابه : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ (١). وقال : ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ﴾ (٢) . وقال : ﴿ والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم ﴾ (٣) . وقال : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ (٤) . وقال : ﴿ إن النفس لامارة بالسوء ﴾ (٥) . الى غير ذلك من آيات كثيرة .

ومع هذا فانا نقر مع السائل في الثواب والعقاب تلجأ إلى إثبات النفس على ما سيجيء بيانه .

وكذلك ما وصف الله تعالى الشهداء من انهم أحياء عنده ، وذهب إليه ابن عباس من

---

(١) الفجر : ٢٨ (٢) الشمس : ٨ (٣) الانعام : ٩٣
(٤) آل عمران : ١٨٥ (٥) يوسف : ٥٣

أن الإستثناء في قوله عز وجل : ﴿ فصعق من في السموات ومن في الارض إلا من شاء الله ﴾ [1] راجع إليهم يدعو إلى انتهائها ، والله أعلم .

وأما انه ﴿ لا إله إلا الله ﴾ فدلالته إثبات الصانع الواحد لاقتضاء الصنع إياه فالصنع يقتضي الصانع ، ولكنه لا يقتضي عدداً ، وفي وجود الصانع الواحد ما يقوم به الصنع ، فلم يجز إثبات صانع آخر غير مشاهدة ولا دلالة عقل بوجه من الوجوه .

وأيضاً فانه لو كان صانعان لم يخل من أن يقدر بكل واحد منهما على قهر الآخر ولا يقهر عليه ، فان كان يقدر عليه ، فالمقدور عاجز ، وإن كان لا يقدر فهما عاجزان ، والعاجز لا يكون إلهاً .

وأيضاً فلو كان إلهان لكان من حق كل واحد منهما أن يكون تام القدرة نافذ الأمر ، وإذا وقع منهما القصد إلى الخلق ، أن يخلق منهما التدبير ، فيريد أحدهما غير ما يريده الآخر ، يفعله الآخر ليظهر بذلك الإلهية وقدرته ، فإن ذلك ان لم يكن وقع الخلق والتدبير منهما متفق ، لم يعرفا إذا كان الإله إنما يعرف بما كان من أفعاله فإذا لم يظهر فعلا ، لم يمكن أن يكون فاعلها واحداً ، لم يعرف الفاعلان ، فلو كانا ، ووقع ذلك منهما لم يخف في هذا العالم آثارهم ، ولزال النظام عنه ، وغلب التفاوت عليه ، وفي وجودنا إياه متسعاً مطرداً على ضرب واحد من ضروب التدبير لا تفاوت فيه ما دل على أن خالقه ومدبره واحد .

فان قيل : ما أنكرت انهما إلهان قادران حكيمان فلا يختلفان ، لأن ما يريده أحدهما لا يخلو من أن يكون حكمه ، فلو خالفه الآخر لم يكن حكيماً ، وفي كونهما حكيمين ما أحال أن يكونا متخالفين .

قيل : ان كانا حكيمين ما تختلف أفعالهما إذا فعلا ليظهر كل واحد منهما بافعاله التي لا يمكن أن تكون واقعاً من الذي وقعت منه أضدادها فان الحكمة لا تطلق التلبيس ، ومن التلبيس أن لا يفعل كل واحد منهما إلا ما يريده الآخر ، لأنه لا يظهر بالفعل الواحد ان له فاعلين إذا كان الفعل لا يقتضي لوجوده وتيسره إلا فاعلاً ، والعدد ليس من شرطه

---

(١) الزمر : ٦٨

بالاتفاق على الفعل أداء تلبيس واتهام من كل واحد منهما ، ان الاله واحد ، وهذا خلاف الحكمة . فثبت بما ذكرنا ان عدم التفاوت في الخلق والتدبير ليس إلا من وجه : ان الاله واحد ، وبالله التوفيق .

وأيضاً : فانه ان كان فاعلان يتفقان على الأفعال بحكمتهما ، ولا يختلفان ، فلا يخلو كل واحد منهما من أن يكون قادراً على التفرد بما يفعله الآخر ، أو غير قادر . فان كان غيره قادر ، فهما جميعاً ناقصان ، إذ كان كل واحد منهما محتاجا إلى معاونة الآخر . فان كان فساداً فيهما إذا اجتمعا على الفعل ففعلا ، وجد الفعل منهما على وجه التغالب والمنع من كل واحد منهما للآخر ، على أن يخلص الفعل له وحده فينسب إليه دونه ، والمتغالبان المتقاومان هما جميعاً عاجزان ، وان العاجز لا يكون إلهاً ، فثبت أن عدم التفاوت في الخلق إنما كان لأن الخالق واحد وبالله التوفيق .

فصل

وأما التقديس فدلالته : ان القديم لو أشبه المحدث في صفاته لبطل أن يكون قديماً ، لأن شبه المحدث لا يكون إلا محدثاً ، كما ان شبه الطويل لا يكون إلا طويلاً ، وشبه الأسود لايكون إلا أسود. فلماوجب أن يكون الصانع قديماً،بطل أنيكون لخلقه شبيهاً . وأيضاً فانه ليس في الأفعال فعل يشبه فاعله ، ولا فاعل يشبه فعله ، فعلمنا أن الباري عز وجل لا يشبه خلقه ، وان شيئاً من خلقه لا يشبهه ، وبالله التوفيق .

فصل

ونقول : انا كما وجدنا في السماء والأرض آثار الحدث ،نعلمنا بذلك أنهما محدثان، فلذلك وجدنا فيهما آثار التدبير المتقن السديد ، فعلمنا ان محدثهما الذي كان أول تدبيره الانشاء والإختراع حي عالم حكيم ، وانه هو الذي يدبرهما بعد الانشاء بما هما عليه ، ويبلغهما مشيئته التي كانت له في إنشائهما وخلقهما .

فان قيل : وما آثار التدبير ؟ قيل : أما السماء فحملت الأفلاك بما رتب في كل فلك

منها من النجوم والبروج ، فلك فيه الكواكب الثابتة فلك ، وكل كوكب من الكواكب السيارة فلك . وللفلك من الفلك بعد معلوم ، ولكل فلك إستدارة معلومة ودرجات معلومة، ولكل كوكب سير وجد فيه معروفه ، وللشمس والقمر من بينهمامن الاختصاص بالضياء والنور ما ليس لغيرهما ، فاذا كانت الشمس فوق الأرض فذلك النهار ، وإذا كانت تحت الأرض فذلك الليل .

ولفصول السنة من التعلق الظاهر : تسير الشمس ما لا تخفى ، فانها إذا تحركت من أول الحمل إلى أن تبلغ آخر الجوزاء فالزمان ربيع [١] ، وإذا تحركت من أول السرطان إلى أن تبلغ آخر السنبلة فالزمان صيف [٢] ، وإذا تحركت من أول الميزان إلى آخر القوس فالزمان خريف [٣] ، وإذا تحركت من أول الجدي إلى آخر الحوت فالزمان شتاء [٤] .

ويظهر في الربيع اليسر والنمو وتزهر الأشجار وتظهر الثمار ثم نضجها وادراكها ما بين أول الربيع إلى أوائل الخريف ثم تعبر الحر ويظهر البرد ، فلا يزال يقوى ويشتد حتى لا يبقى على الأشجار ورقة ، وتتابع الانداء ، وتجمد المياه ، وكل ذلك أمور تكرر سنين لا تحصيها العباد، وجرى فيها على وتيرة واحدة لم ينقص فيما بينهما في شيء منها عادة قط .

ودون السماء السحاب المثقل بالماء تسوقه الرياح ، ثم ينزل منه ما ينزل أكاماً ، جعله الله حياة للناس وعامة الحيوانات وبعدها للارضين الموات واما ثلجاً واما برداً ، وفي كل منهما منفعة وفائدة لا تنقضه ويعتده ويمنع من أن يسوغ إليه الانحلال ، فيستقبل به أيام القيظ على تبريد الماء الذي لا يمكن شربه على ما هو عليه من السخونة المفرطة . فيجتمع إلى مسكن العطش به اطفاء بوائر الامراض ، والتحرز به من كثير من الحوادث والأعراض . ودونها أيضاً الرياح اللواقح والسوابق للفلك من البحار والأرض التي هي قرار ومهاد ،

---

(١) وهي الفترة الواقعة ما بين ٢١ آذار الى ٢٠ حزيران وهي فترة الربيع تماما .
(٢) وهي الفترة الواقعة من ٢٠ حزيران الى ٢٠ ايلول وهي فترة الصيف تماما .
(٣) وهي الفترة الواقعة من ٢١ ايلول الى ٢٠ كانون الاول وهي فترة الخريف .
(٤) وهي الفترة الواقعة من ٢١ كانون الاول الى ٢٠ آذار وهي فترة الشتاء .

وللأحياء والأموات كفات وفيها أعواد وهي للماء الذي فيه الحياة معادن ومنار .

وفيها جبال هي للأرض أوتاد تحوطها من أن تميلها الرياح العواصف، والرجفات والزلازل، وفيها معادن الذهب والفضة ، والحديد والنحاس والرصاص ، ومعادن الأحجار النفيسة، ومعادن العفر والنوره والزرنيخ وعيون الملح والنفط والكبريت وفي البحر من الحيتان لحوم طرية ، ومن الزين اللؤلؤ والزبرجل والمرجان ، نظير مـا على الجبال من اليواقيت ، وفي المعادن من الفيروزنج والجزع والعقيق ، وفي كل شيء من ذلك منفعة وللناس عرض وحاجـة .

وفي سهولها المساكن من الامصار والقرى والحصون وغيرها ، ومنها المزارع والمغارس والحدائق البهجة والزروع أصناف والغرائس أصناف ، وفي كل صنـف منها منفعة ، وللناس فيها ارب وبغيه . وعلى ظهرها من الحيوان : الناس المخصوصون بالعقل والبيان وانتصاب القامة ، ثم الدواب المقسمة إلى سباع وغير سباع، والطائر المنقسمة كذلك والهوام، وللناس عليها كلها السلطان .

وإذا تأمل من المتأمل نفسه علم ماله من الفضل على جميع الحيوانات الارضية ، وما في بينته وجملته من امارات التدبير الحكيم والصنع المتقن السديد .

فان الدواب كلها وإن شاركت الانسان في أن لها أعضاء وجوارح ، كما ان له أعضاء وجوارح ، وان لم يكن منها كهن منه ، وكان لكل منها ومنه رأس فيه العينان فللبصر، والاذنان للسمع ، والانف للشم ، ودونه اليـدان للبطش وللاخذ والدفع ، ودونهما الرجلان للمشي ، وذلك للناس خاصة ، وللمشي على أجمعها للدواب، والفم للاكل والشرب والاسنان للطحن ، والفروج من الذكور والإناث لطلب النسل ، وللاناث الارحام خاصة، والاثداء لأنهن الحوامل والمراضع ، وليس من الذكور إلا اللقاح .

فقد اختص الناس بالعقل والبيان فسـاسوا من سواهم ، وتوصلوا بعلم ما في الارض وتمييزه ومعرفته إلى استزاح منافعها ، بضروب المكاسب والاستئثار بفوائدها ، فكانت لهم الملابس والري والمراكب والفرش والاثاث والخزائن والذخـائر وبيوت الاموال ، وأكلوا من أصناف الطعـام ما يشتهون ، وركبوا من الدواب ما يريدون ، وأصابوا من

النساء ما يحبون ، وافترشوا من أصناف الفراش ما يختارون ، ولبسوا من ضروب اللباس ما يستحسنون .

وكانت أحوال الحيوانات سواهم مقصورة من الضرورة دون الاختيار لفقدهم من العقل والبيان ، فأوجد منها الناس إلى غير ذلك من أحوال الموجودات التي تذكر على العد ، وكلها مجتمعة المعنى في الدلالة على انها وضع وتدبير ،ونظم وترتيب ،وان الواضع لها والمدبر والناظم المرتب عالم حكيم قادر قوي ، فان لم يعلم الحاجة ، لم يعلم ما تزاح بـه العلة ، لم يقدر على وضعه وإيجاده . وإذا علم لم يوجد منه وضعه حتى يكون قادراً عليه ، فدل عليه على وجود الحاجة ووجود ما تقضي به الحاجة على ان الموجد عليهم حكيم قادر قوي .

ألا ترى أن صانع المشربه لا يصوغها إلا عن علم بما يصلح له وقدره ، وكان على الصناعة وكذلك صانع المسرجة والمنارة والمجمرة وكذلك صاحب المنزل لا يسخر منزلة من الآلات إلا عن علم بما يصلح كل شيء منها له قدرة على جميعها ، واعدادها لوقت الحاجة اليها .

فكيف يتوهم أن تكون السموات والأرضون وما بينهما وفيها وجدت على ماهي عليه ، إلا صنعاً لصانع عليم حكيم قادر قوي كلا ما يمكن ذلك ولا يجوز ، وما هي إلا من صنع اللطيف الخبير تبارك الله أحسن الخالقين وأحكم الحاكمين .

فصـــل

فأما الكواكب فلا يمكن أن تكون مدبرة لهذا العالم لأنها مدبرة ، وفي هذا بيان انها غير موكولة إلى نفسها ، فكيف يكون غيرها موكلا اليها ؟ ألا ترى انها تكون مستقيمة السير حالاً ، ولا سبيل لها في تلك الحلل إلى أن تكون راجعة ، وتكون راجعه حالاً ، ولا سبيل لها في تلك الحال إلى أن تكون مستقيمة وزائدة السـير مرة وناقصة أخرى ، وسالمة تارة ومحرقة أخرى ، ولا سبيل لها إذا كانت على حال وقتاً إلى أن تكون فيه على خلافها ، وكل ذلك يدل على أنها غير موصوفة بتدبير أنفسها ، فدل ذلك على أنها من الوصف بتدبير غيرها أبعد .

وأيضاً فإن التدبير انما يكمل له الحي القادر ، والكواكب بمعزلة عن هذه الأوصاف ،

فلا يمكن ان تكون مدبرة ، والدليل على خلوها عن الحياة ، لزوم التسخير إياهـا حسب لزوم احراق النار ، والترطيب بالماء .

والله جل جلاله إذا أشعر الحياة خلقاً أشعره أثرها وهو الإرادة والإختيار ، فلما لم يكن للكواكب في سيرها واستقامتها ورجوعها واحتراقها وغير ذلك من أحوالها اختيار علمنا انها ليست بحية ، والفلك نفسه ليست توجل الحركة الدائمة منه اختياراً ،ولاسبيل له إلى السكون ، فعلمها انها مسخرة حية مريدة مختارة ، فانا موصوفة بالملائكة لايختلف حالهم في طاعة الباري جل جلاله ، فلا يدل ذلك على انهم ليسوا باحياء ، ولكنهم أموات مسخرون .

قلنا : وجود الخلاف فيهم ممكن عندنا ، وقد كان ذلك فيما اقتضه الله جل ثناؤه علينا في شأن آدم إلا أنهم قاموا بعد ،ورجعوا إلى ما كان أولى بهم . فثبت انهم مختارون للطاعة على المعصية بفضل ما عندهم من المعرفة ،وفي أنفسهم من المخافة ، وتلك الطاعة لهم عباده.

ومن يخالفنا لا يقول : إن حركات الأفلاك والكواكب عبادة منها وطاعة ،ولايمكنه أن يدعي ذلك أبداً ، فأنى يجوز له أن يناقضنا بالملائكة ، وأيضاً فان سيرها في أفلاكها إنما هو كما ركب الله في ذلك السير من منافع غيرها به فهو يجري الماء في الأنهار ، وليس ذلك إلا من قبل الاختيار ، ولا هو عبادة للماء ولا طاعة منه ، فكذلك تسير الكواكب في أفلاكها .

فان قال : كيف يجوز أن تكون تلك الأجسام العلوية على شرفها وفضلها مبرأ بما أوتيته الأجسام السفلية من صفات الحياة والسمع والبصر ، بل إذا كانت هذه في انحطاط أقدارها على أقدار العلوية مكرمة بهذه الصفات ،فالعلوية أولى وأحق بأن تكون مكرمة بها .

قيل له : ان الأرض هي التي تكون في مقابلة السماء ، وليست حية عاقلة سميعة بصيرة ، فيكون لك أن تقول : انها إذا كانت بهذه الصفات ، فالسماء أولى أن تكون كذلك ، إذ هي أشرف وأفضل ، ولا كل ما في الأرض من الزين جائز لهذه الصفات ،ونقول : إن ما في السماء من الكواكب التي هي زينة لها بوجوب هذه الصفات لها أحق وأخلق ، وإنما الحياة والعقل والسمع والبصر في الأرض للناس ، خاصة الذين هم سكان الأرض المكلفون المتعبدون فيها ، فبأزائهم الملائكة في السموات .

ولسنا ننكر أن يكونوا أحياء فاعلين يسمعون ويبصرون ، وإن يكونوا فيما لهم من هذه الصفات فوق الناس ، فمن أين يلزمنا وراء ذلك أن نقول : ان الأفلاك والكواكب أحياء يعقلون ويسمعون ويبصرون ، كلا ما يلزمنا ذلك بوجه من الوجوه وبالله التوفيق.

فان سئل سائل عن الكواكب : هل يجوز اضافة شيء من الكوائن التي تكون في هذا العالم اليها ؟

قيل له : أما القول بانها أحياء عاقلة ، سميعة بصيرة ، تدبر مـــا تحتها فباطل ، ولو ثبت انها أحياء لكانت إضافة الفعل اليها من حيث هي في هذا العالم من غير سبب يتصل بينها وبينه باطلا ، لأن الجسم انما يفعل في نفسه ، ثم قد يتأثر غيره عنه لاتصاله به ، ولا يمكن ان فعل الجسم في غيره ، وهذا كمن يدفع رجلا فيندفع ، فتكون حقيقة ذلك انه جمع قوته في آلة دفعه ، ثم قرنها من أراد دفعه والصقهـــا به واعتمد عليها بجهده ، فكان فاعلا ذلك كله في نفسه ، ثم ان الذي الصق نفسه به واعتمد بقوته عليهـــا بجهده فكان فاعلا ذلك كله في نفسه ، ثم ان الذي الصق نفسه به واعتمد بقوته عليه ، لما لم يكن فيه متحمل له اندفع به ، فكان الاندفاع أثراً حادثا في المدفوع عن الدافع لاتصاله به .

ولو أراد رجل من أقوى الرجال وأشدهم أن يدفع آخر عن مكانه وهو ناء عنه من غير سبب فيصل منه ، ما استوى ذلك ولا قدر عليه .

وليس الفعل في الغير الا ممن يستحيل الفعل منه في نفسه ، وذلك هو ان الله جل ثناؤه الذي ليس بجسم ، ولا يجوز عليه أن تحله الأعراض والحوادث ، فمن أدى ذلك لكواكب فهو مبطل في دعواه .

وأما القول بان منها مطبوعاً بالحرارة والبرودة والرطوبة أو اليبوسة ، وانه قد يكون لبعضها بعض اتصال ممتزج منه طبائعها ، ثم ينادي تلك الطبائع بالمجاورة إلى الجو بمجاورته الأرض إلى الأرض ، فيكون سبباً لآثار تحدث في الأجسام الارضية عنها . فهذا قد يكون الا بان تلك الآثار حينئذ تكون أفعالاً لله جل ثناؤه ، لا للكواكب ، وليس ذلك باكثر من حياة الأرض الميتة بالماء الذي يساق اليها ، ثم لا يجوز أن يظن به فعلا ، فضلا عن أن يقال : أن تنقل الكواكب وتبدل أحوالها مواقيت لا قضية الله تعالى وأقداره .

فكما انه جعل دلوك الشمس ميقاتا للصلاة ، ولا يضاف وجوب الصلاة إلى الشمس ،

وجعل اهلال رمضان ميقاتا لشهر الصيام ولا يضـــاف ذلك إلى القمر ، فكذلك جعل انتقال الشمس إلى البروج الصيفية ميقاتا لحر الهواء وانتقالها إلى البروج الشتوية ميقاتا لبرد الهواء وانبساط نور القمر على الرطاب ميقاتا وحالا لنشوئها ونموها ، وانبساط حر الشمس على الثمار ميقاتا وحالا لطيبها ونضجها، ولا يضاف شيء من ذلك إلى الشمس ولا إلى القمر، ولا يدعى فعلا لهما ولا لواحد منهما .

ولذلك قال الله عز وجل : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ (١) وبالله التوفيق .

فان قيل : فما تقولون في إضافة النحوس والسعادة إلى الكواكب ؟

قيل : قد قال الله عز وجل في قصة عاد : ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصرا في يوم نحس مستمر ﴾ (١) . وقـــال : ﴿ في أيام نحسات ﴾ (٢) . جاء في بعض الأخبار التي تؤثر عن جبريل صلوات الله عليه : يوم الاربعاء يوم نحس مستمر ، وعن الاربعاء التي لا تدور فعلمنا بيان الشريعة ان من الايام نحساً ، والذي يقابل النحس هو السعد فإذا ثبت ان بعض الايام نحس ، ثبت ان بعضها سعد ، والأيام في هذا كالأشخاص ، منها مسعودة ومنهـــا منحوسة ، ومن الناس شقي وسعيد . فان لصاق أحد الكواكب إلى أنها تسعد باختيارها أوقاتا أو أشخاصاً أو تنحسها ، فقد قال باطل .

وإن قال : إن الكواكب طبائع وأمزجة مختلفة وتلك أيضاً يتغير منها اتصال بعضها ببعض وانفصال بعضها عن بعض فطرة فطرها الله تعالى عليها ، فإن ما فيها من هذه المعاني ينادي بتوسط الشمس والقمر إلى الأرض وما فيها ، فأي شيء منها كان هو المبادىء إلى أن الأجسام الأرضية كانت الآثار التي تحدث عن ذلك فيها بحسبها .

فقد يكون منها ما وصلت إلى الأبدان كانت سبباً للاسقام ، وقد يكون منها مـــا يكون فيضطرب سبباً للصحة والسلامة ، وقد يكون منهـــا ما إذا وصل إلى الأرواح والنفوس كانت سبباً لحسن الخلق وبدل المعروف والانصاف والرغبة في الخير ، ويكون ما إذا وصلت إلى ما ذكرنا كانت سبباً للهيج والظلم والاقدام على الشر . فهذا قد يكون الا ان يكون كل ذلك إذا أفعال الله جل ثناؤه وأقداره لا صنع للكوكب فيها .

---

(١) فصلت : ٣٧ (٢) القمر : ١٩ (٣) فصلت : ١٦

وما أكثر مما يزيد من هذه الآثار التي ذكرناها إذا كانت نسبة بالدعاء والصدقة ،وما أكثر مما يريد منها إذا كانت حسنة بالذنب والخطيئة ، فهذا هو الذي ينبغي أن يعتقد في هذا الباب والله أعلم .

فصـــل

وأما الملائكة فانها وإن كانت حية عاعلة سميعة بصيرة ، فليس تدبير العالم ، ولا أمر الله جل ثناؤه ، كما لا خلق الا لله . قال الله جل ثناؤه : ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ [1] . وبيان ذلك ان الملائكة محدثون مـدبرون ، فكما امتنع لأجل الحـــدث من غيرهم امتنع منهم ، ومعلوم ان النـــاس لا يتكلمون لتدبير أنفسهم ، إذ لو امتنعوا له لكان ينبغي ان يستغني بتدبيرهم أنفسهم عن تدبـــير غيرهم اياهم ، وإنما توافي العجز عما وصفنا من قبل الحدث والملائكة مشاركة لهم فيه فكانوا إلى العجز عنها مثلهم .

فان قيل : اليست الملائكة لقبض الأرواح ولسوق السحاب ، ولقلب المدائن ولنسخ الأعمال ، وإن كان الناس لا يقدرون على شيء من ذلك ، فما أنكرتم انها تقدر على عامة ما ذكرتم ، وإن كان الناس لا يقدرون عليها ؟

قيل : الناس لم يعجزوا عن الأعمال التي ذكرتموهـــا لحدثهم ، ولكن لكنافتهم أو قصور قولهم ، فلما باينتهم الملائكة في الكيافة فكانوا في اللطافة وفي الضعف كانوا في غاية القوة ، نزلوا من الناس منزلة بعضهم من بعض والتفاوت في الأعمال موجود فيهم ، فكان وجوده بين الملائكة وبينهم كذلك . وليس الكلام على هذا ، وإنما الكلام على ما يعجز الناس عنه بكونهم محدثين مصنوعين ، وإن مما عجزوا ، لذلك لم يجز أن تقدر الملائكة عليه لأن المشركين في المعنى لا يجوز أن يتباينا في الحكم فلا يتشاركا فيه وبالله التوفيق.

وأيضاً فان الملائكة من سكان العلو أجسام كالكواكب ، وقد بينا انه لا يمكن أن يكون من الكواكب فصل في هذا العالم ، أو كانت أحياء عـاقلة من سبب متصل بينهما

---

(١) الاعراف : ٥٤

وبينه . فان الجسم لا يفعل في غيره وإنما يفعل في نفسه ، وكانت الملائكة هـــذا مثلهم وبالله التوفيق .

فان قيل : فان في القرآن اضافة التدبير في الملائكة ، قال الله عز وجل: ﴿فالمدبرات أمراً﴾ [1] وفي سورة أخرى : ﴿ فالمقسمات أمراً ﴾ [2] وإنما أراد بالإثنين الملائكة !

قيل : معنى المدبرات المنفذات لما دبر الله تعالى على أيديها ، وكما يقال للفاصل بين الخصمين حاكم ، والحكم ليس إلا لله عز وجل وهو الحاكم ، غير انه سمى من ينفذ الحكم بين عباده حاكماً ، لانهم منه يسمعون الحكم ، كذلك تدبير الله عز وجل انما يظهر من قبل الملائكة . فقيل لها : المدبرات والمقسمات كذلك ، والله أعلم بالصوب .

★ ★ ★

---

(١) النازعات : ٥ (٢)الذاريات : ٤

الثاني من شعب الايمـــان

– وهو باب في الإيمان بالنبي ومن تقدمه من النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين بدلائله وحججه –[1].

ويتلو الإيمان بالله جل ثناؤه إعتقاداً وإقرار الإيمان برسل الله صلوات الله عليهم عامة إعتقاداً وإقراراً ، إلا أن الإيمان بمن عدا نبينا صلوات الله عليه هـو الإيمان ، فانهم كانوا مرسلين إلى الذين ذكروا لهم ، انهم رسل الله إليهم ، وكانوا في ذاك صادقين محقين ، والإيمان بالمصطفى نبينا صلوات الله عليه هو التصديق بأنه نبي الله ورسوله إلى الذين بعث فيهم والي من بعدهم من الانس والجن إلى قيام الساعة .

قال الله جل ثناؤه : ﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾[2] فقرن الإيمان برسوله بالإيمان بـه .

وقال : ﴿ والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحـد من رسله ﴾[3] .

وقال : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً ، واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾[4] . وفي هذه الآية ان الله عز وجل جعل الكفر ببعض رسله كفراً بجميعهم ، ثم جعل الكفر كفراً به .

وقال بعد ذلك : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[5] .

فثبت ان حسب المآب إنمـا يكون لمن لم يفرق بين رسل الله تعالى وآمن بجماعتهم .

---

(١) لم يرد هذا العنوان بالاصل وانما ورد فقط تحت عنوان : الباب الثاني من شعب الايمـان ويتلو الايمان بالله جل ثناؤه .

(٢) الحديد : ٧ (٣) البقرة : ٢٨٥ (٤) النساء : ١٥٠ (٥) النساء : ١٥٢

والإيمان برسول الله ﷺ يتضمن الإيمان له ، وهو يقول فأجابه من عند الله جل ثناؤه والعزم على العمل به ، لأن تصديقه في انه رسول الله إلزاماً لطاعته ، كما كان الأمـر بالله إلزاماً لطاعته إذا أقر أو نهى ، وذلك راجع إلى الإيمان بالله تعالى ، والإيمان فاما رجوعه إلى الإيمان بالله تعالى فلأنه يستحيل وجود التصديق بان أحدا رسول الله مععدم الإعتراف بالله ، إذ الرسل تقتضي مرسلاً كما تقتضي مرسلاً إليه وكان يقضـي رسالة ، فمن صدق أحدا في أنه رسول الله فقد أثبت الله وصدق به .

وأما رجوعه إلى معنى الإيمان فيه فلان القبول عن رسول الله قبول عن الله، والطاعة طاعة لله عز وجل، وإذا كان الله هو المعبود دون رسوله ، وهو المرغوب إليه،والمرهوب منه دون من سواه ، فمن ثبت له انه رسوله وجبت الطاعة لأوامره لأنهـا أوامر المرسل الذي تجب طاعته شكراً للنعمة التي أولاها الابداع والاخراج من العــدم إلى الوجود ثم الحياة ثم العقل ثم البيان ، واجلالاً له عن أن يعصى ، وهو المالك الذي لا يد فوق يدهولا مانع يرده بوعيده والإيمان برسول الله ﷺ ، وان كان في الجملة تصديقـه في الرسالة على الوجه الذي يذكره ويصفه ، وانه يتفرع ويتشعب فروعاً وشعباً :

أولها : تصديقاً في أن الله عز وجل ثناؤه أرسله فميزه برتبة الرسالة من سائر الناس .

والثاني : تصديقه في أنه عز اسمه ، أرسله بما يقول : وان الذي يؤديه هو رسالة الله التي أرسله بها .

والثالث : تصديقه في انه أرسله إلى من يذكر انه أرسله إليهم من خصوص أو عموم.

والرابع : تصديقه في أنه خاتم النبيين لا رسول ولا نبي بعده ، والشريعة المشروعةله آخر الشريعة وعليها تقوم الساعة .

والخامس : تصديقه في صفة إرساله إذ أثبتها لقومه . فان قال: أوحي إلي على لسان ملك ، صدق في أن الذي يأتيه ملك ، والذي ينزل عليه وحي من الله جل ثناؤه ليقـــع بذلك تنزهه من الكهانة.

وان قال : ألهمني ربي ، صدق في أن ما يجده في قلبه قذف من الله تعالى ليقع بذلك تنزيهه عن الوسوسة . وان قال : هتف بي ، صدق في أنه قد نودي في الحقيقة فاسمع مـا

يقول ليقع بذلك تنزيهه عن التخيلات الباطلة والأوهام الفاسدة . وان قال : رأيت في المنام ، صدق في أن الله جل ثناؤه أراه في المنام ما يقول ، ليقع بذلك تنزيهه عن درجة الذين يحملون في منامهم بما لا أصل له والله أعلم .

فصـــل

ومما يجب معرفته في هذا الباب معنى النبوة وتفسيرها عن النبي ﷺ ، أنـــه قال : « الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »[1] . والفرق بين النبي والرسول فنقـول – وبالله التوفيق – : ان النبوة إسم مشتق من النبأ وهو الخبر ، إلا أن المراد به في هـذا الموضع خبر خاص وهو الذي يلزم الله عز وجل به أحداً من عباده فيميزه بالقائه إليه عن غيره ، ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي ووعظ وإرشاد ووعد ووعـــيد ، فتكون النبوة على هذا الخبر والمعرفة بالمخبرات الموصوفة التي ذكرتها ، والنبي هو المخبر بها.

فان انضاف إلى هذا التوفيق أمر تبليغه إلى الناس ودعائهم إليه ، كان نبياً رسولاً . وان ألقي إليه ما ذكرنا ليعمل به في خاصته ، ولم يُؤمَر بتبليغه والدعاء إليه كان نبيـاً ولم يكن رسولاً ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولاً .

ثم ان الأنبياء صلوات الله عليهم يخصون وراء ما وصفت بآيات يؤكدون فيها ليتميزوا بها عمن ليس مثلهم كما تميزوا بالعلم الذي أوتوه . فيكون الخصوص وأفعالهم من الوجهين الا أن ما في حيز التعليم فهو النبوة، وما وقع في حيز التأييد فهو حجة النبوة. والخصوص من قبل التعليم قد يكون في الجهة التي منها يلقون العلم، وبه تكون في العلم التي تلقى فيهم، والواقع من ذلك في جهة العلم وجوه منها وهو أعلاها : **درجة تكليم الله** عز وجـــل من كلم منهـم ، قال الله عز وجل : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾[2] وقال : ﴿ هـل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى، إذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾[3]وقال:

---

(١) ورد في سنن ابن ماجه « تعبير الرؤيا » باب ١ . حديث رقم ٣٨٩٤ . وفي صحيح البخاري « تعبير الرؤيا » باب ٢ ، ٤ ، ١٠ ، ٢٦ .

(٣) النساء : ١٦٤   (٤) النازعات : ٨٥

﴿ فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ (١) .

ومنها ان يلهم الله تعالى واحداً منهم بالكلام يسمعه على شيء فيجده في نفسه من غير موصل يقدمه إلا منه إليه بحس واستدلال .

ومنها أن يوحى إليه على لسان ملك فيراه فيكلمه كما يكلم واحداً من البشر صاحبه فيقع له العلم بما يسمعه منه .

ومنها ان يأمر الملك فينفث في روعه كما روي عن النبي ﷺ انه قال: (ان روح القدس نفث في روعي : فان نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله واجملوا في الطلب) (٢) . وهذا هو الوحى الذي يخص القلب دون السمع وفي كتاب الله عز وجل : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ (٣) . وقال الله عز وجل : ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ (٤) .

وذلك – والله أعلم – أن ينفث الملك في روع المؤمن من الأطماع في الظفر بالعدو ، والرغبة في الثواب والأجر والاتكال من القرار ، فيحمله ما يجده في قلبه من هذه المعاني في الثبات ويزول عنه ما يسوس به الشيطان من التخويف والاحباط من الظفر ، والحمل على اغتنام السلامة بالرجوع إلى الأهل ، إذا كان الملك ينفث في روع كل مؤمن . فما الفرق بين النبي وبين من دونه ؟

قيل له : لا ينفث في روع من دون النبي ﷺ علم الأحكام ولا علم الكوائن والحوادث المستقبلة ، والوعد والوعيد ، وإنما ينفث في روعه ما تقدم ذكره وما يشبهه فيكون ذلك مددا للتوفيق يدرأ به عنه وساوس الشيطان عن صدره والله أعلم .

ومنها اكمال عقل النبي وتقويته وصيانته عن الخبل والجنون فلا يعرضان له ، وبالحر في أن يكون ذلك لا آلة التمييز والعيان على الدلائل كلها هو العقل ، فيحق أن يكون من اصطفاه الله تعالى بتكليمه وإرسال ملك إليه بامره ونهيه ووعده ووعيده أقوى

---

(١) القصص : ٣٠ (٢) لم يرد الا في سنن ابن ماجه « كتاب تجارات ، باب ٢ ، حديث رقم ٢١٤٤ وهو حديث ضعيف .
(٣) الشعراء : ١٩٣ (٤) الانفال : ١٢

الناس تمييزاً وأصحهم إدراكاً في كل ما يلقى إليه ، وأثبتهم فصلا فيما هو عنده الخطاب والتكليف ، ولولاه لم يكن بين الناس وبين البهائم فرق ، ولا لهم عليها فضل ، فانه إنما يبلغ عن الله يلقى عنه ويتلقى عنه بحسب ما يؤول فيه من قوة الادراك والقبول .

فاذا لم تكن تلك القوة في نهاية الشدة ، ثم انضاف إلى ذلك خروج للامر فيما يلقى الله من العرف والعادة ، واقتربت به الهيبة والخشية حتى يقيد لهما أحواله في تلك الوقت عيانا ، عما كانت تكون عليه في سائر الأوقات عسر عليه ضبط ما يلقى إليه وتثبته على وجهه وحقيقته ، فيثبت بما وصفنا أن عقول الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين أكمل العقول وأراءهم أشد الآراء، ولذلك يكملون لقبول الوحي أولاً ، وتبليغه ثانياً والله أعلم.

ومنها **تقوية حفظه** وذكره حتى يسمع السور التي لم يسمعها ، ولا كلاماً مثلها منظوماً بنظم خارج عن نظوم كلام الناس ، من الملك مرة واحدة فيعيها طويلة كانت أو قصيرة ويحويها قلبه ولا ينس منها حرفا حتى يبلغها الناس كما أخذها من الملك .

ومنها **ان يعصم** من الزلل في رأيه ، فاذا اجتهد في الحوادث رأيه لم يخطىء ، ولم يحلم إلا بالصواب والحق .

ومنها اذكاء فهمه حتى يتسع لضروب من الاستنباط بما أوحي إليه لا يبلغها فهم من دونه ، وحقيق أن يكون كذلك . وان العلماء من أمته متفاضلون ، فمنهم من يدرك بفهمه ما لا يدركه فهم غيره وان فهمه ، فالنبي الذي هو أعلم العلماء أولى بان يفضل أمته فيكمل من الاستنباط لما يقصر عنه غيره . وقال بعض العلماء : ان عامة سنن رسول الله ﷺ راجعة إلى القرآن . ومعلوم أنه ليس كل شيء منها تقف العلماء على أصله ، فذاك إذا لأن النبي ﷺ ، كان يدرك من معاني الوحي مما لا يبلغه فهم غيره فيحسب ذلك كأن يكون استنباطه والله أعلم .

ومنها اذكاء بصره حتى يدرك الشيء النائي الذي لا يقوى بصره في كل وقت ، ولا يصر غيره على إدراك ما بعد ذلك البعد ولا ما دونه كما قال نبينا ﷺ : زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها [1] . ومعلوم أن البصراء

---

(١) ورد في سنن ابن ماجه « كتاب الفتن » باب ٩ ، حديث رقم ٣٩٥٢

يتفاوتون في البصر تفاوتا بعيداً . وقد كانت زرقاء اليمامة تدرك الشيء من مسيرة ثلاث، وقصتها في ذلك مشهورة . فلا ينكر أن تفاوت بين النبي وبين غيره باذكاء بصره حالاً ووقتاً ليدرك به ما يفوض له مما يراد توفيقه عليه ، ويكون معنى قوله : (زويت لي الأرض) على هذا أي قربت علي ادراك مشارقها ومغاربها ، فكانت من احاطة بصره بي لها كأنها حاضرة إياه والله أعلم .

ومنها اذكاء سمعه : حتى يسمع مالا يقدر غيره على سماعه لبعد المسافة بينه وبينه ، كما روي على نبينا ﷺ انه قال : « أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما منها موضع قدم إلا وفيه ملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى »[٢] ، وروي عنه أنه سمع وحيه فذكر انها هوى بصخرة قذفت في جهنم لم تبلغ قعرها إلى الآن، ولا سبيل للملحدين إلى استبعاد هذا واستنكاره ، فانهم يدعون لفيثاغورس انه كان يسمع أصوات الكواكب والافلاك إذا تحركت ، وانه الف الحانه عليها ، وهم عندنا في ذلك كاذبون إلا أن يثبت ان فيثاغورس كان نبياً ، فيجوز أن يكون اسمع ما ليس في العبادات امكان اسماعه وتأليفه الالحان عليها انه يصدقه .

ومنها إحضار النبي : مشاهد لا يبلغ فوق البشر أن يبلغها ، كالعروج بنبينا ﷺ ، ورفع موسى حياً إلى السماء في قول أكثر المسلمين . ورفع ادريس والياس على ماوردت به الأخبار . وهذا إنما يدخل في باب الاعلام لنبينا ﷺ خاصة لأنه عرج به إلى السماء ليشاهد فيها من الآيات الباهرة للعقول ما لم يكن يشاهد مثلها في الأرض ، وليوصي به فرض الصلاة ، فيرجع بـه إلى أمته . فأما عيسى عليه السلام وإدريس ، فإنما رفعا للاسكان ، واخراجها من بين أهل الأرض لتعليم شيء لم يكونا علماه من قبل والله أعلم .

ومنها اذكاء شمه كما فعله باسرائيل صلوات الله عليه بان يوسف عليه السلام لما أمر بحمل قميصه اليه والقائه على وجهه ، وفصلت العير من مصر ، قال أبوه : ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾[١] .

---

(١) ورد في سنن ابن ماجه « كتاب الزهد » باب ١٩ ، حديث رقم ٤١٩٠ .
وفي سنن الترمذى « كتاب الزهد » باب ٩ ، حديث رقم ٢٣١٢ .
(٢) يوسف : ٩٤ .

ومنها تسييره في مدة يسيرة مسافة طويلة لا يقدر البشر على قطع مثلها في مثل تلك المدة، كالاسراء بنبينا صلوات الله عليه من مكة إلى بيت المقدس، ورده منها إلى مكة في بعض ليلة. قال الله عز وجل: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾ (١)، ولأنه عز وجل أخبر عن فائدة ذلك والحكمة فيه، قال: ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ (٢). دخل في باب الاعلام والتوفيق، وإن كان يدخل من وجه آخر في باب التأييد.

ومنها تعبير العبادة في مخاطبته، فقد روى انه قيل للنبي ﷺ: (كيف يأتيك الوحي يا رسول الله؟ فقال: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي، فيقضي عني وقد وعيت ما قال. وأحيانا تمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما قال)(٣) وإنما كان الأول أشد الوحي عليه، لأن الملك إذا مثل له رجلا فلقيه في صورة حسنة لم يداخله به روع ولا أمر تحول بينه وبين القبول عنه، وكلمه مع ذلك بلسانه الذي يعرفه كلاماً عهد مثله، فلم يبعد مراده من فهمه.

وأما إذا لم ير ملكاً وسمع صوتا مثل صلصلة الجرس واضطر إلى علم انه وحي، فأول ما في ذلك ان مثل هذا الصوت إذا قرع القلب، ثم إذا أقيم مقام الكلام ولم يكن في نفسه معهوداً نبا القلب عنه أول ما يرد عليه، ثم إذا وقع العلم بانه خطاب يحتاج إلى تلقيه وحفظه زاد ذلك في شغل القلب به.

ثم ان المخاطب بمثل هذا الصوت لا يخلو من أن يحول في ذلك الوقت عن طباعه، حتى انه ربما أثر ذلك في أحواله الظاهرة منه، ليصير كالصحيح إذا مرض، أو الماشي إذا جهد ونصب، أو الصائم إذا جاع أو عطش.

وكان ما يعرض للنبي ﷺ عند نزول الوحي عليه من البرحاء والومضاء من العرق منه في اليوم الثاني، ونقله على الراحلة حتى يكاد بطنها يلتصق بالأرض وينكسر عضداها، من هذا الوجه وقد روى في قول الله عز وجل: ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم، قالوا ماذا قال

(١و٢) الاسراء: ١

(٣) ورد في صحيح البخاري « كتاب بدء الوحي » باب ٢، وفي « كتاب بدء الخلق » باب ٦.

ربكم ، قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾ [١] . ان الله عز وجل إذا تكلم بالوحي سمع أهل السموات مثل صوت الصلصلة على الصنوان ، ففزعوا فإذا انقضى الوحي قال بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم ، قالوا الحق ، وهو العلي الكبير . فاذا كان الوحي الذي يوحى إلى الملائكة صوتا مثل صوت السلسلة [٢] على الصفوان .

فالنبي ﷺ إذا أوحى اليه بصوت مثل صوت الجرس ، كان هذا الوحي شبيهاً بالوحي الذي يوحى إلى الملائكة قبسه ، والله أعلم انه في تلك الحال كان يلزم بادیانه من طباع الملائكة وتمثيله في بعض الوجوه لهم ، كما كان الملك في بعض الأحوال يمثل رجلا لتعليمه ومخاطبته فيلقى الوحي الذي يوحي بمثله إلى الملائكة ، ويشتد ذلك عليه ، إلا ان الله عـز وجل يعصمه خلال ذلك من الاغفال والنسيان فكانت تلك الحالة تنقضي عنه . وقد وعى مـا قيل له والله أعلم .

ومنها أن يحدث الله تعالى في صيوان قد ذبح وشوى كلاماً فيسمعه النبي ﷺ ليدل به على أمر مغيب عنه ، كما روى ان الذراع قالت له في بيت يهودي : إني مسمومة فلا تأكلني وهذا يدخل في باب التعليم من الوجه الذي بينته ، ويدخل في باب التـأييد من حيث ان كلام الذراع شيء غير معهودة .

ومنها أن يحدث الله تعـالى في الحيوان الذي لا صوت له ، صوتا يحضره نبي ويسمعه إياه فتختص بادراكه ، ثم يخبر به غيره ، قال الله عز وجل في قصة سليمان عليه السلام : ﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل ، قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ [٣] .

وهذا يدخل في باب التعليم ، ويدخل في باب التأييد ، فأما دخوله في باب التعليم فقد يكون انه أريد باقرار النملة على الكلام ، واستماعه ذلك منها . ويكون من وجـه أن يعلمـه ان في طريقه نملا كثيراً ليعدل بجنوده عن ذلك الطريق فلا يحطموهـا وهم لا يشعرون . وأما دخوله في باب التأييد ، فمن وجه انه أمر غير معهود خص سليمان بأحد آيه ونقص الصلاة به لأجله فكان كسائر الآيات والبينات ، وهذا مصح ان كان قومـه

---

(١) سبأ : ٢٣ (٢) هكذا وردت في الاصل والاصح (الصلصلة) (٣) النمل : ١٨

سمعوا للنملة نغمة ما ، ثم بين لهم سليمان من مرادها ما لم يعرفوه .

ومنها انطاق النبات لسليمان صلوات الله عليه ، فقد روى انه كان إذا أصبح كل يوم رأى حشيشة جديدة ، قد نبتت بين يديه ، فيقول لها : ما أنت ولما أنت ؟ فتقول : أنا كذا وأصلح لكذا ، فلما كان اليوم الذي نبت فيه الخروب قال سليمان : قد اذن الله في حراب هذا المسجد .

ومثل هذا لا ينكر للانبياء ، صلوات الله عليهم ، لأن آياتهم لو كانت من جنس الأمور المعهودة المألوفة لم يكن لهم فيها حجة لانهم محتاجون إلى ما يميزهم عن غيرهم ، والتمييز لا يقع بالامر المشترك فواجب إذا ان تكون آياتهم كلها مباينة للعادات . وأيضاً فان الذي يقدر على أن ينطق غير النبات لا يعجزه أن ينطق بالنبات .

فان قيل : إنما ينطق غير النبات بآلة المنطق ، والنبات ليست له تلك الآلة !

قيل : إن الذي يسمى آلة المنطق ليس شيئاً يقتضي المنطق بكل حال ، لانه لو كان لذلك ، لما جاز أن يوجد ذو لسان أخرس ، وفي وجودنا ذاك دليل على ان الله تعالى وضع للناس فاجرائهم عليها في أن لفظهم يكون باللسان ، وإلا فاللسان والاصبع في جماد أن ينطقه الله فينطق سواء . وكذلك ما له لسان وما لا لسان له في ذلك سواء وبالله التوفيق .

ومنها ما جاء من افهام الله تعالى نبينا ﷺ كلام الذئب ، فقد روى ان نبينا ﷺ كان جالساً بالمدينة في أصحابه إذ أقبل ذئب فوقف بين يديه ، فعوى . فقال رسول الله ﷺ : (هذا وفد السباع اليكم ، فان أحببتم أن تعرضوا له شيئاً لا يعدوه إلى غيره ، وإن أحببتم تركتموه واحترزتم منه ، فما أخذ فهو رزقه . قالوا يا رسول الله ما تطيب أنفسنا بشيء ، فأومأ اليه النبي ﷺ ، فولى وله عسلان)[1] . فهذا يدخل في باب التعليم من وجه ان الذئب لما جاءه فسأله النظر بينه وبين أرباب المواشي ، أعلمه الله مراده بعوائه ومجيئه ، ويدخل في باب التأييد من وجه أن فيه شهادة من الذئب بنبوته .

ومنها ما جاء من افهام الله تعالى إياه رغاء البعير وحنينه . فيما يروي أن النبي ﷺ

---

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

دخل حائط رجل من الانصار ، فإذا جمل ، فلما رأى النبي ﷺ حن وذرفت عيناه ، فاتاه النبي ﷺ فمسح شراته وذفراه [١] . ثم قال : من رب هذا الجمل فجاءفتى من الانصار فقال : هو لي يا رسول الله ! فقال : أفلا تتقي الله في هذه البهيمة ، فانه شكا إلي انك تجيعه وترئبه [٢] .

وفي حديث آخر : خرج النبي ﷺ فجاءه بعير يرغو حتى سجد له فقال : أتدرون ما يقول ! زعم انه خدم مواليه أربعين سنة ، حتى إذا كبر نقصوا من علفه وزادوا في عمله ، حتى إذا كان لهم عرس أخذوا الشفار لينحروه فأرسل إلى مواليه ، فقالوا : صدق والله يا رسول الله ! فقال : اني أحب أن تدعوه ، فتركوه [٣] . فهذا يدخل في باب التعليم من وجه ، ان الجمل لما تظلم الى رسول الله ﷺ بحنينه والثاني برغائه ، أفهمه الله تعالى مراده ، فنظر لذلك في أمره وقضى حاجته ، فدخل في باب التأييد من وجه ان فيه شهادة من كل واحد منهما بنبوته .

ومنها ان سمع النبي ﷺ ولا يرى مكلماً فيقع له العلم بما قيل له ، وذكر وهب في في كتابه : إن كان للانبياء منازل ، فمنهم من كان يسمع الصوت فيهمه ويحتمل ان ذلك كان يكون صوتا يحدثه الله تعالى عند سمع النبي ﷺ فيجيبه ويلهمه الله المراد منه فيعرفه ، ويحتمل أن يكون ذلك الصوت كلاماً معهوداً ، فاذا حصل إلى سمعه عرف .

ومنها الجمع بين النبي ﷺ وبين الجن ، وقد كان نبينا صلوات الله عليه مبعوثا إلى الجن والانس ، فيمكن من مشاهدتهم ومناطقتهم ، وبلغهم الرسالة شفاها وعيانا . فقد حل هذا في باب العلم ، من حيث انهم عالم كثير محجوبون عن الابصار ، وفي خلقهم ما يزيد الناظر والواقف عليه بصيرة ويقينا بالله جل ثناؤه ، وانبساط قدرته . فإذا ميزت له رؤيتهم ومعرفتهم ازداد علماً بالله جل ثناؤه ، لما يشاهده من آياته فيهم ، ويراه من آثار قدرته الظاهرة عليهم . ويدخل في باب التأييد من وجه انه يمكن من لقائهم ومكالمتهم وقراءة القرآن عليهم لا تكون إلا مع حجة دعوته وثبوت نبوته .

---

(١) الذفرى : مؤخر رأس البعير .

(٢) ورد في سنن أبي داود «كتاب الجهاد» باب ٤٧ ، حديث رقم ٢٥٤٩ .

(٣) لم يرد الا في مسند الإمام احمد بن حنبل ج ٦ ، ص ٧٦ .

ومنها أن يحتاج إلى جواب مخالفته إلى العلم بشيء غائب عنه ، فيمثـل له حتى يراه ، فيجربه ويدفع بذلك الخصم عن نفسه ، كما انه لما حدث الناس بانه أسرى به إلى بيـت المقدس ، وصل فيه ورجع من ليلته احضروا له من كان رأى بيت المقدس وعرفه فاستعد له ، فكان يصفه له وتبعته إلى أن كاد يخفى به بعض النعت ، فمثل له المسجد حتى نظر إليه فوصفه .

ومنها ان يقصد امرا متفق عله عند ذلك حال من جنس ما هو كائن، فيعلم به عاقبة ذلك الأمر وحاله ، كما انه لما خرج من المدينة يوم أحد ، تعلقت قبضة سيف رجل بشيء من رجل غيره ، فانسل من غمده ، فنظر إليه النبي ﷺ فقال : « هذا يوم ينتفى فيـه السيف »[1] . فكان كما قال : وموضع الخصوص في هذا ان ما رأى جعل طريقاً له إلى العلم ، حتى قطع لأجله الحكم . وأما غيره فإن ذلك ان وقع له لم نعده أكثر من ظـن لا يغني من الحق شيئاً .

ومنها ان يشاهد من دابته حالاً بغير معهود له منها فيستدل بذلك على الأمر الذي قصد تغيير شحها حتى كان منها ما كان ، كما روى عن غزوة الحديبية : ان ناقـة رسول الله ﷺ تركت ، فقال الناس : حلاب ناقة رسول الله ﷺ ، فقال : ما حلاب ، ومـا ذلك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، فاعلم بتروكها من غير ان كان الحران خلقاً لها أو سمع رأيه ، ففزعت منه ، أو كلال أصابها فأوهى قواها ، ان ذلك صـد من الله تعالى عن مكة أن يدخلها قهراً لئلا يصيب المسلمين من أهلها بالسوء من لا تحره إصابته له ، ثم أنزل قوله عز وجل : ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونسـاء مؤمنات ﴾[2] ، وتفسير ذلك موجود في موضعه والله أعلم .

ومنه ان يكون بينه وبين أحد كلام واختلاف في أمر ، فإذا جاء منهم من يخاطبـه عنهم ، استدل باسمه ، مما هو كائن من أمره ، كما استدل يوم الحديبية بمجي سهيل بن عمرو على أن الصلح واقع بينه وبينهم ، ويسهل سبيله إلى مكة ، فكان كما وقع له ووقـع الصلـح في الحال ، وأمن الناس ثم عاد العام القابل ، فقضى عمر به وبلغ مراده والحمد لله.

---

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .　　(٢) الفتح : ٢٥

ومنها ان يهتم بامر فيرفع له صورة حسنة ، ويجعل له مثلاً يعلم بـه حسن استمرار ذلك الأمر له ، ويأتيه على مـا يريده ، كما روي أن حلفاءه من مكة لما جاؤوه يشكون قريشاً إليه ، ويذكرون انهم نقضوا العهد ، نظر إلى سحابة بيضاء فقال: ان هذه السحابة لتسهل بنصر بني كعب ، ويحتمل أن تلك السحابة كانت تضيء إضاءة فوق المعتـاد من مثلها ، وكان في مرها تنجو مكة ، فعلم انها مثل ضرب لمصيبة إليها ، واشراقها بنـور دعوتـه ، وحيرة قلوب أهلها بتركه ، كما تحيا الأرض بالمطر النازل من السحاب والله أعلم .

ومنها الرؤيا وهي تبشير أو إنذار أو تعليم ، وربما الأنبياء صلوات الله عليهم يفارق رؤيا غيرهم من أوجه ، **احدهما** : ان ما استوى منها واعتدل وانتظم بعضها ببعض حتى صار للتأويل بها محال صدق منهم بكل حال ، وأما غيرهم فقد يصدق منهم وقـد لا يصدق ، ولهـذا قال النبي ﷺ : « إذا تقارب الزمان لم نكاد رؤيا المؤمن تكذب ، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً »(١) . وهذا والله أعلم ان النبي لا يكذب ولا يكـذب فلا يكذب ان رؤياهم كانت منهم قبل نفسهم فكذبته نفسه ، فإن نفسه معصومة من الكذب ومن الهم به ، وليس وراء ذلك إلا أن يقال : انها من الله عز وجل فهو تبارك اسمه من الكذب أبعد .

والوجه الآخر الذي يجوز أن يعلم للاحكام في منامه ، ولا يجوز ذلـك لغيره ممـن ليس بنبي كما يوحى إليه بذلك في يقظته ، ولا يكون ذلك لغير نبي .

والوجه الثالث : يجوز أن يضرب من الأمثال الدقيقة الغامضة مـا لا يضرب لغيره لأنه بقوة عقله وذكاء فهمه وسداد رأيه يكمل لادراكها ، ولا يتسع ذلك لمن لا يكائفه في أحواله .

فان قال قائل : إذا كانت الرؤيا الصالحة جزءاً من ستة وأربعين جـزءاً من النبوة ، فلم جاز أن يكون للكافر فيها نصيب ، ونفسه ليست موضعاً للنبوة وقد ذكر جالينوس: انه عرض له قدم في الموضع الذي يتصل بالكبد منه بالحجاب فأمره الله جـل ثناؤه في المنام أن يفصد العرق الضارب من كفه اليسرى ففعل ذلك وبرأ !

---

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

فالجواب : ان الكافر لم يكن موضعاً للنبوة ، وليس كل مؤمن أيضاً موضعاً لها ، ثم لم يمتنع أن يرى (المؤمن الذي لا يجوز أن يكون نبياً في منامه ما يعود عليه بخير في دنياه . فكذلك لا يمتنع أن يرى الكافر مثل ذلك ، والمعني فيه الرؤيا الصالحة وإن كانت جزءاً من النبوة فليس بانفرادها نبوة ، كما ليست كل شعبة من شعب الإيمان بانفرادها إيماناً ، ولا كل جزء من الصلاة بانفرادها صلاة والله أعلم .

ومنها فراسة الأنبياء وهي لا تخطىء كما رؤي أن البيضاء بنت عبد المطلب كانت تحت كرز فلما ولدت عامراً ، أتت به النبي ﷺ فتأمله ، ثم قال : « ما في هذا من عبد مناف مولوداً أشد حمقاً منه » (١) . فبلغ من حمقه انه ورد على ابنه عبد الله وهو أمير البصرة أيام عثمان فرآه يخطب . حتى مثل بين يديه فقال : (أيها الناس ان هذا ابني وأنا أسن منه ، وخرج من هذا وأشار إلى ذكره) .

واما فراسة المؤمن غير الأنبياء فقد تخطىء وقد تصيب ، ومنها ما روي أن النبي ﷺ قال لأصحابه : « اني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي » (٢) .

وهذا يحتمل أن يكون على معنى انهم إذا كانوا على حال يريد الله تعالى أن يطلع نبيه عليها ولا يغيب عنه علمها ، مثلهم له فرآهم ، ووقف على ما هم عليه ، ويكون ذلك عيانه شهادة ليقع العلم به ضرورة ، وإذا أخبر الناس به ، كان ذلك مما يزيدهم إيمانا ، وصار من جملة دلائله وبيناته ، ويكون مجاز قوله : « اني أراكم خلفي) أي اني أراكم وأنتم خلفي والله أعلم .

ومنها اطلاعه على فعل يكون من الملائكة باحد من أمته ليبحث عن سيئة ، فيعلمه ويخبر بما رأى أصحابه ، فيكون ذلك أحد حججه وبيناته ، كما روي أن حنظلة الراهب لما أصيب باحد قال للنبي ﷺ :

« اني رأيت الملائكة تغسله بصحاف الفضة بين السماء والأرض ، فسال أبو أسيد عن حاله فذهبنا إليه وأبصرناه : فإذا رأسه تقطر ماء قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، فأخبرته . فأرسل إلى امرأته واستخبرها عن حاله ، فذكرت انه واقعها ثم خرج إلى أحد وهو جنب » .

(١ و ٢) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

ومنها تيسيره حلال عرض له وجهد أصابه بآيات يجعلها مثلاً لفتوح وخيرات مستقبلة، ويريه إياها ليسلو بهـا قلبه ، ويوقف عليها أصحابه ، فيثبتهم بذلك ، ويقوى على الصبر عزائمهم ، كما روي انه : كانوا يحفرون الخندق فعنت صخرة لهم أعيتهم ، فضربهـا رسول الله ﷺ بالمعول ثلاث ضربات ، وظهرت من كل ضربة برقة ، فذهبت أولاهـا اليمن والثانية إلى الشام والثالثة إلى المشرق ، وكان أصحابه يتبعونها أبصارهم . فقـال لهم : « ان هذه فتوح يفتحها الله تعالى عليكم » (١) . فهذا يدخل في التعليم من حيث انه خبر عن كائن هذه ، وقد ظهر فيه صدقه ، فالتحق بجملة دلائله وبيناته والله أعلم .

ومنها الزيادة في بصيرته بانطاق الجماد الذي لم يلحـق له منطق في أصله ، لتنزاح الخواطر عن قلبه ويستيقن حتى يداني المضطر انه رسول الله ﷺ . كما روي أنه لمـا استعان له جبريل ، لم يكن يمر على حجر ولا مـدر إلا ناداه : « السلام عليك يا رسول الله » . وان الجن قالوا له بمكة : « من يشهد أنك رسول الله ؟ فقال : تلك السمرة ، ثم قال لسمرة منها : من أنا ؟ فقالت : رسول الله ! » .

فهذه إثنان وثلاثون وجهاً أحصيها للخصوص الواقع من جهة العلم . وهذه أربعـة عشر وجهاً أحصيها للخصوص الواقع في المعلومات :

منها ما حكاه الله عز وجـل عن سليمان عليه السلام من قوله : ﴿ يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء إن هـذا لهو الفضل المبين ﴾ (٢) ، ويحتمل انها كانت مناطق سيان بنغمتها وأصواتها فيلهمه الله عز وجل مرادهـا . وإنما بينا هذا لأن قوله : ﴿ علمنا منطق الطير ﴾ يدل على انها كانت لا تفارق عادتها في مناطقته ، ولم يبلغنا انه كان يفارق عادته إذا ناطقها ، فكان الأشبه بذلك ما وصفت الله أعلم .

وأما نبينا صلوات الله عليه قد جمع له بين الأمرين فشكى اليه الجمل بحنينه ، والبعير برغائه ، وعرفه عز وجل شكواها ، وسأله الذئب بعوائه فأجابه بايمانه . وأما الظبية فانها كلمته بكلام الانس وأخبرته بانها صيدت بالأمس ولها خشف صغير ، وسألته أن يأمر بتخليتها لترضع خشفها ثم ترجع . إنما يعرف مثل هذا بالروايات والله أعلم .

---

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

(٢) النمل : ١٦ .

ومنها اطلاع النبي ﷺ على المعاد الذي يصير الناس اليه في الآخرة ، ليعلم عظم نعم الله تعالى عليه وعلى الناس به ، وإذا كان بعثه اليهم ليدعوهم إلى النعيم الذي أراه بعضه في الجنة ويستنقذهم من النار التي اراه إياها ، ويزداد جداً وجهداً في الدعوة الشفقة على الأمة وذلك قوله ﷺ : (دخلت الجنة فرأيت فيها نبقاً كقلال هجر) [1] وذكره لعمر رضي الله عنه انه رأى قصراً من ذهب وسأل عنه فقيل لعمر . ووصفه النار ومن رأى فيها من عمرو ابن يحيى والمرأة المعذبة على حبس الهرة وحبس الطعام عنها حتى ماتت ، وغير ذلك.

ومنها تعليمه الرؤيا حتى لم يكن في وقته ولا بعده أحد أبصر منه بتـأويل الرؤيا . ويقال : انه لم يكن فيمن خلا أعلم بالتأويل من ابراهيم الخليل صلوات الله عليه . والتأويل وإن كان قد أوتي منه كثير من الناس ، فان تأويلهم قد يخطىء وتأويل النبي ﷺ لا يخطىء والله أعلم .

ومنها تعليم الله عز وجل آدم عليه السلام الاسماء كلها ، وذلك انه كان خلقه ليحدث النسل وليسكنهم الارض فيعمروها ، وعلى انه يعرض لهم أحوال لا يستغنى بعضهم فيها عن اطلاع غيره على ما هو عنده ، ليتعاونوا على الكلف التي هم يحتاجون اليها ، وتنزاح عليهم بعضهم لبعض ، فعلمه البيان وخلق فيه النطق وعلمه الاسماء كلها ، فأخذ من أخذ ذلك من ولده عنه ، ثم لم يزل يأخذ كل أحد عن غيره ، ولم يبتدأ أحد منهم بتعليم كما ابتدأ اله أبو البشر إلا ماروى عن رسول الله ﷺ أول من قال : الآن حمي الوطيس ، وجاء باسم الصلاة والايمان والاسلام والزكاة والجزية والنفاق [2].

ويحتمل ان المبعوثين بالشرائع من الانبياء كان يقع لهم في كلامهم من لغاتهم مثل هذا. فاما الاصل فانما خص به آدم عليه السلام لانه كان أبا البشر ، ومن فيه نشأت الحاجة ، فكذلك على لسانه أزيحت العلة ومنها الهداية إلى وجوه العبادات والديانات والهداية للاحكـــام ووجوه الحلال ، أعني العبادات والاحكام جملة الشريعة التي أرادهـــا الله تعالى بقوله : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ وهي التي تتفاوت على السنة الرسل لما يعرض فيها من النسخ والتبديل .

فأما العبادات فان عظم الغرض في ارسال الرسول إلى الناس دعاهم الله تعالى ، ودلالتهم

---

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

(٢) مفردها نفقة .

على ما يستحقه من التذلل له والخشوع والاستكانة والاستشعار للغير واستنفاذ العمر في ذلك دون الركون إلى الجمام والراحة والخفض والدعه .

وأما الاحكام فانها سياسة الله تعالى عبادة ، وتدبيره إياهم بما فيه انتظام أمورهم ودفع المكاره والمظالم عنهم . فـان الناس إذا خلوا وأنفسهم لم يهتدوا إلى مـا فيه صلاحهم واعتدال الجمهور .

ومنها الهداية الى تركيب العالم وهيأته وصفاته ماديا ، أو يأتي من حواشيه وأقطاره فان الوقوف على ذلك مفيد في الاعتبار وكثير من الامور ، وعلم ذلك موجود عند أهله والكتب المنسوبة إلى ادريس عليه السلام في هذه الابواب ، والمنسوبة منها الى الذين كانوا هذه فورثوا علمه في أيدي الناس بأبيه .

ومنها الهداية الى مصالح الايمان ، وهي علم الطب الذي حملته حفظ الصحة على الصحيح ، ودفع السقم عن السقيم ، فانه لما كان في علم الله تعالى انه لا يخلص الصحة للناس دائما ولكن يستقيم أوقاتا ، وكان خلق في الارض أشياء إذا استعملوها زالت عوارض الاسقام عنهم ، وأشياء إذا تناولوها حلق الاسقام اليهم وقعت لهم الحاجة إلى معرفة المضار والمنافع مما في الارض على وجهه وحقيقته ، واحتاجوا مع ذلك إلى معرفة الادواء والعلل وأسبابها الجالبة لها وأعراضها التابعة له والدالة عليها ، ليستدلوا بمعرفة الاسباب على وجوه التحرز وبمعرفة الاعراض على حقائق العلل ثم يتوصلوا بمعرفة الادوية وطرق استعمالها على دفع ما قـد حدث ، فتكون للسلامة وتعود الصحة ، واذا كانت الحاجة إلى جميع ما ذكـرنا واقعة ، وكانت عقول الناس تحسر عن ادراكه لا اخبار مخبر إياهم احتاجوا إلى المخبر عنه ، كما انهم إذا لم يعملوا ما الذي يرضي الله تعالى عنهم .

وما الذي يبيحه أو يكره وقوعه منهم احتاجوا إلى الخبر عنه ، كما أزيحت هذه العلة لهم بالرسل كذلك أزيحت العلة فيهـا وصفنا بالرسل ، وذلك مذكور في الكتب ولا يمكن للامر إلا على ما وصفت .

ومنها الهداية إلى الصناعات ، قال الله عز وجل : ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم﴾ (١) يعني داود عليه السلام ، وقال لنوح عليه السلام :

---

(١) الانبيـاء : ٨٠ .

﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ (١) ولا شك في أن الحـــاجة إلى الغزل والنسج والطحن والجر والخياطة والبناء وما يجري مجراها ليست دون الحاجة إلى الملبوس المحصن من اللباس ، وان الناس لو أخلوا من الدلالة عليها في اول الأمر ، لم يقفوا عليهـــا ، ولم يهتدوا اليها ، كما ان كل من لم يجربه اليوم ولم يرشد اليه لم يبلغه علمه ولم يدركه فهمه، فواجب إذاً أن يكون أولها تعليماً ، كما كان أول علم الاسماء تعليماً .

ومنها تخصص الأنبياء صلوات الله عليهم بالاخبار عما قد كان مما ليس علمه موجوداً عند الذين هم بين أظهرهم من غير أن يعرف لهم البقاء ممن أخبرهم به ، أو قرأوا كتابا من الكتب الناطقة به ليكن علمهم بها واخبارهم الناس عنها دليلا على صدقهم واحقاقهم في دعوتهم ، إذا كانت الغائبات لا تدرك إلا بالاخبار . فاذا أدركها واحد من الناس لا من قبل أحد يتهيأ إصابة ذلك العلم اليه منهم أثبت ان الله عز وجل هو الذي أنبأ بها .

قال الله عز وجل : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيهـا إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا [٢] . وقال : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ . وقال : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ [٤] .

ومنها تخصصهم بالتوفيق على أسرار الناس ومحبـاتهم ، ودخل في هذا قول الله تعالى حكاية عن عيسى صلوات الله عليه بان قال لقومه : ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون في بيوتكم ﴾ [٥] .

واخبار النبي ﷺ العباس : الذهب الذي استودعه أم الفضل . واخباره كثيراً من الناس بماجاؤوه كله وبما نالوه في أنفسهم من غير أن يكون سمع سامع ذلك منهم .

ومنها توفيقهم على علم المعاشرة . فان الحاجة اليه كالحاجة إلى علم الحكم والسياسة، فان من لا خلق له ولا آداب له اضطر الى الانقباض والعزلة، ولم يتسع للانبساط والمداخلة، ودخل عليه الخلل في أحواله وأموره .

---

(١) هود : ٣٧ (٢) هود : ٤٩ (٣) آل عمران : ٤٤

(٤) يوسف : ١٠٢ (٥) آل عمران : ٤٩

قال الله عز وجل لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ إذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولاً لينا ، لعله يتذكر أو يخشى ﴾ (١) .

وقال لنبينا صلوات الله عليه: ﴿خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين﴾(٢).

وقال : ﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظم لعلكم تذكرون ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك . فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر ، فاذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ (٤) .

ثم للنبي تبارك اسمه عليه فقال : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ (٥) . فسئلت عائشة رضي الله عنها : كيف كان خلق رسول الله ﷺ ، قالت : كان خلقه القرآن ، يعني أخذ نفسه بآداب القرآن فتأدب بها وارتاض عليها ، فكان كأنه لا يحسن سواها . وهذا مما لا يكمل إلا لمعصوم . وأما من لا عصمة له فانه ان ضبط شيئاً أغفل بازائه غيره .

ومنها تعليمهم طرق الاستدلال ومحاجة الخصوم ، قال الله عز وجل : ﴿وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ان أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم : ربي الذي يحيي ويموت ، قال : أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم : فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين » (٧) .

وقال لنبيه ﷺ ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (٨) .

ثم علمه الاحتجاج فقال : ﴿ لو كان منهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (٩) .

وأمره أن يقول لمن قال : ﴿ من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾(١٠) إلى غير ذلك مما يكثر احصاؤه.

---

(١) طه : ٤٤ (٢) الاعراف : ١٩٩ (٣) النحل : ٩٠ (٤) آل عمران : ١٥٩
(٥) القلم : ٤ (٦) الانعام : ٨٣ (٧) البقرة : ٢٥٨ (٨) النحل : ١٢٥
(٩) الانبياء : ٢٢ (١٠) يس : ٧٨ .

فإن ما في القرآن من آيات الاعلام والحجج أكثر مما فيه من آيات الاحكام ، فمن قدر على شيء من العلوم التي ذكرناها فالاستفادة عن الأنبياء صلوات الله عليهم ، أو عن من استفادها منهم . فأما فضيلة الابداء لهم ، وإذا كان هكذا ان علم كل دين وشريعة فإنما يكون جميعه عند النبي المبعوث بها ، ويتفرق في الدين يأخذون عنه فلا يؤخذ عند كل واحد من الناس إلا بعضه . وتمت هذه الأقسام أربعة عشر ، فبلغت خصائص النبوة فيما مرجعه إلى العلم ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، ما واحد منها إلا ويليق به أن يكون قريباً للرؤيا الصالحة التي أخبر النبي ﷺ انها جزء من ستة وأربعين جزءاً وامن النبوة ، والله أعلم بما أراد رسوله عليه السلام .

فصل

وكلما ذكرنا في الباب الأول من الحاجة إلى معرفة آيات الله الدالة عليه وعلى وحدانيته وقدسه وانفراده ما كان إلا مستبصر بها الجاهل فيؤمن ، ويستثيب بها المؤمن فلا يغوى ولا يضل ، فهو في هذا الباب مثله ، ولا غنى عن دراية اعلام النبوة جملة وتفصيلا ، مستبصر بها المنكر معترف ، ويستظهر بها المؤمن فلا يزيغ . وليفصل بين النبي والمتنبي ، وينزل الأنبياء صلوات الله عليهم منازلهم .

ومما يعرف ما لنبينا صلوات الله عليه من الدلائل الراجحة والاعلام اللائحة التي لم يبق معها لمرتاب مقال ، ولا لسائل سؤال ، وقد أرشد الله تعالى النبوة في القرآن كما أرشد إلى آيات الحدث الدالة على الخالق والخلق ، فقال عز اسمه : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (١) . وقال : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ (٢) . وقال : ﴿ ولو انا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ (٣) . فأخبر انه بعث الرسل لقطع حجة العباد . وقيل في ذلك وجوه :

أحدها : ان الحجة التي قطعت على العباد هي أن يقولوا ان الله جل ثناؤه ان كان

---

(١) الحديد : ٢٥ (٢) النساء : ١٦٥ (٣) طه : ١٣٤

خلقنا لنعبده ، فقد كان ينبغي أن ييسر لنا العبادة التي يريدها ويرضاها لنا ، مـا هي ؟ فانه وإن كان في عقولنا وجوب الاستجداء له ، ولزوم الشكر اياماً على نعمه التي أنعمها علينا ، فلم يكن فيها ان التذلل والعبودة منا ، بماذا ينبغي أن نكون ، على أي وجه ينبغي أن يظهر ، فقطعت حجتهم ، بان أمروا ونهوا وشرعت لهم الشرائع ، ونهجت لهم المناهج ، فعرفوا ما يراد منهم ، وزالت الشبهة عنهم .

والآخر : ان الحجة التي قطعت هي ان لا يقولوا انا كنا ركب سهو وغفله ، وسلط علينا الهوى ، ووضعت فينا الشهوات . فلو أمدونا بها اذا سهونا نهينا ، وإذ امال بنا الهوى إلى وجه قومنا لما كانت منا الا الطاعة ، ولكن لما خلينا ونفوسنا ، ووكلنا اليها وكانت أموالنا مما ذكرنا ، غلبت الاهواء علينا ولم نملك قهرها ، فكانت المعاصي منا لذلك .

والثالث : ان الحجة التي قطعت هي أن لا يقولوا : قد كان في عقولنـا حسن الايمان والصدق والعدل وشكر النعم ، وقبح الكفر والكذب والظلم ، ولكن لم يكن فيها ان من ترك الحسن إلى القبيح عذب بالنار خالداً مخلداً فيهـا ، وان من ترك القبيح إلى الحسن اثيب الجنة خالداً فيها ، لأنه إذا كان يدرك بالعقل ان الله جل جلاله خلقاً هو الجنة وخلقاً هو النار الفانية . كيف يدرك ان أحدهما معد للعصاة ، هو النار الفانية . كيف يدرك ان أحدهما معد للعصاة ، والآخر لأهل الطاعة ، ولو انا نعذب على المعاصي وذنوب متناهية عذابا غير متناهي ، أوسار بالطاعة المتناهية ، وأما غير متناهي لما كان منا إلا الطـاعة ، ولم يكن منا بحال معصية ، فقطع الله تبارك وتعالى هذه الحجج كلها نبعث الرســـل وبالله التوفيق .

فصـــل

ثم إذا تأملنا ما في السماء والأرض من أصناف الخلائق ، وجدنا في وقوع ما وقع لنابه من العلم ما يدل على الرسل ، كما وجدنا فيها أنفسنا وتصاريف أحوالها ما يدل على الباري جل ثناؤه . وذلك انا نعلم ان الكواكب التي نراها بابصارنا ، لا يمكن الوقوف بالنظر اليها على ان منها بروجاً ، وكل برج إنما يتم بكذا وكذا كوكبه منها وانها اثنـا عشر ، لا أقل منها ولا أكثر .

وان منها كواكب ثابتة وعددها كذا ، منها سيارة وعددها كذا، وإن مقادير اجرامها كذا وكذا ، وإن أبعادها كـــذا وكذا ، وإن لكل نجم من النجوم السيارة فلكاً على الانفراد . فان عقل عاقل منها إذا لم يسمع بشيء ما يقوله أهل العلم بهيئة السماء، والكواكب في هذه الأبواب .

ثم اعمل فكره في ادراك عملها، وعلم شيء منها لم يزد منه إلا بعداً ، ولم يصل اليه أبداً أبداً ، إلا ان يسمع فيه من عالم شيئاً ويستدل أصلا ، فعسى أن يتبع بعد الآن ، ينبيء خبره ويتدرج منه إلى ما سواه .فدل ذلك على أن الاوائل لم تقل جميع ما قالته في هـذه الأبواب بازائها من قبل أنفسها ، وإنما أدركت الأصول حيناً ، ثم قاست بعقولها عليه غيره . واستنبط بها ما سواه .

وهكذا الأرض لا يمكن أن يعلم ما فيها ، فيميز ما يكون قوتا تقوم به الأبدان ، وما يكون دواء وما يكون سماً ، وما يختص بدفع ضرر السموم كالهـادر ، وما يختص بجبر الكسر كالمومياي ، ثم يميز من الأدوية ما يصلح منها لشيء بعينه ، وما يصلح منها لخلافه ، ومقدار ما ينبغي أن يتداوى به من كل جزء فيصاب نفعه ، ويؤمن ضرورة إلا بجبر فان أغفل عاقل منا لو لم يسمع في هذه الأبواب من أهل العلم بها شيئاً ، ثم أراد أن يهجم عليها بعقله ويدرك منها ما أدركه البصر بمجرد فهمه لما اتسع لذلك ولا قدر عليه .

فدل هذا على أن الأوائل لم تصل إلى معرفة ما عرفت وادراك ما أدركـت مما سبق ذكره بمجرد افها وعقولها ، ولكنهـا وقعت على الأصول بالخبر بها استنبطت بازائها من تلك الأصول ما وجدت فيها ادلالة عليه ، ثم ان النبي أخبرهم بأوائل هذه لو كان مثلهم في التجلي بفعله ، والانفراد برأيه وفهمه لم يكن الاختراع عاجزاً مثلهم .

فصح ان الاخبار لها انما كان ممن وفقه الله تعالى عليها وأمره بالاداء إلى غيره ، فاولئك المخبرون المؤدون عن الله هم الرسل صلوات الله عليهم ، ثم إن وجود الكلام للناس يدل على الرسل ، وذلك ان الموجود المعروف فيما شاء ان لم يسمع الكلام أصلا لم يتكلم ، فان من ولد أصم لا ينطق أبداً وانما ينطق من يولد سمعاً فيسمع كلام جنسه وينشأ عليه ، فلولا ان بشراً[1] تكلم كان قد علم البيان واستمع الكلام ، لكانت حالة حال المولودين من الناس اليوم ولما يكلم .

---

(١) وهو بشر بن المعتمر ، لغوي فصيح له رسالة في الانشاء ، عاش في العصر الاموى .

ومن المعلوم ان الصبي لا يتكلم إلا باللغة التي يسمعها، فلولا ان رجلا من العرب ولدت له تركيه ولداً ، فغاب الوالد عنه ونشأ مع أمه لم ينطق بالعربية التي لم يسمعها وإنما ينطق بالتركية التي سمعها من أمه ، ولا يسمع غيرها . فبان بهذا أن أصل الكلام سمع وان أول من يتكلم من البشر تكلم عن تعليم ووحي ، كما قال الله عز وجل : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ [1] فاسمعه الاسماء والهمه علم ما اسمعه ، وأقدره على النطق به ، فصار متكلماً .

ثم انه لما سمع الكلام منه غير معرف نفس الكلام ، وبتلقيه بها ركب الله تعالى في لسانه من التيسير له على المراد باستدلال عقلي رجع أصله إلى العرف والعادة ، وهو أن يقف السامع من المتكلم بالعبارة ، أو بنقص الامارات الحالية على انه إذا تكلم بكذا أو أراد بكذا وأراد كذا ، تدله حال المتكلم على إفادته ، كما قد تدل الإشـــارة التي هي دون العبارة على كثير من الإفادة ، فأما أصل الكلام سمع ولا يمكن فيه غير ذلك والله أعلم .

وفي ظهور ما وصفت ان الدلائل الدالة على الرسل دالة على القديم جل ثناؤه لا يمكن أن يكون الذي أرسلهم واحداً مثلهم ، فيصح انه إنما أرسلهم من لا يشبههم ، ولا يجوز عليه الجهل والعجز مايجوز على الناس،وليس إلا للباري القديم جل ثناؤه وتباركت أسماؤه .

فصـــل

ثم ان رسولاً أرسله الله إلى قوم فلم يخله من إبـداء آية وحجة أتاها إياه وجعل تلك الآية مخالفة العادات إذ كان ما يريد الرسول إثباته بها من رسالة الله تعالى أمراً خارجاً من العادات ، فيستدل باقران تلك الآية بدعواه ، وانه رسول الله واستظهاره بها على تصحيح دعواه على صدقه واخفائه ، فانه إذا كان لا يتميز عن سائر الناس بأمر يوجب أن ينقص الله تعالى لأجله عادة سوى دعواه انه رسوله ، ولا يعلم لينقص الله تعالى العادة على لسانه انه أوغل يده،وفي الجملة لأجله ولسببه وجه سوى أن يكون خصه بذلك لتخصيصه إياه مما يدعيه من رسالته بغير هذا الوجه للقبول ، لم يكن لتوهم غيره مساغ وإن قال لقومه :

(١) البقرة : ٣١ .

وإن كنت مفتريا على الله فاتوا بمثل ما افتريت ، فعجزوا ولم يؤت الله تعالى أحداً منهم مثل الذي أتاه مع حاجتهم اليه لمعارضته وتكذيبه ، إن كان كاذباً مفتريا .

وقد أشعر باتيانه ما أتاه وحرمانهم مثله ، انه قد أراد إظهاره عليهم ، وقطع حجتهم عنه ، ألا ترى ان رجلين لو جاءا قوماً ، فذكر كل واحد منهما لهم انه رسول الله اليهم ، فكذبوه ، فدعوا الله عز وجل معاً وسألاه آية تدلهم على صدقهما ، فوقعت الاجابة لأحدهما ، واحد بآية من الآيات التي ليس في قوى البشر الاتيان بمثلها .

وتتابعت العبر على الآخر ، لعلم علما لا يلامسه شك ، ان الذي أجيبت دعوته صادق ، وان الآخر كاذب ، ولم يجز أن يكون كذلك أقل من تقدم بلداً ، فابدان أو رجلان من كانا يدعي كل واحد منهما ان سلطان المسلمين ولاه ذلك البلد واستدعاه أهله ، فلا يصدقا فيكتبا إلى السلطان بخبرهما ، ويلتمسا منه دلالة على صدقهما فيخص أحدهما بخلع أخيه ، ويعرض للآخر بضروب من الجفاء أولاً فأولا ، فان ذلك لو كان لزال الشك في أمر المكرم وعلى انه الصادق فيما ادعاه من الولاية دون صاحبه .

وكذلك إذا كانت الدعوى من واحد فكذبه قومه ، فسأل الله آية فاجابه اليها وأعجزهم عن مثلها ، ثم أجرى العادة بان كل من أصر على التكذيب بعد مجيء الآية عاقبه وعذبه ، وجب أن يعلم ان الذي أمده بالآية صادق عليه ، وان المعجزين عن معارضته كاذبون عليه مبطلون فيما ينسبونه اليه من الافتراء على ربه ولو وقع مثل هذا لأهل بلد مع من يدعي انه واليهم أنفذه سلطان المسلمين اليهم ، فارتابوا به ، فسأل السلطان آية ، فانفذ اليه حياً وجعله في جواب ما استدعاه من الآية التي تدلهم على صدقه ، في انه ولاه عليهم لعلموا عليه بذلك صدقه ، فهكذا فليعلم قوم كل رسول ، فسأل الله تعالى انه يعلم بها قومه صدقة ، فأمده لعجزه وأرسله ، وقد قرن دعواه الرسالة بمعجزة ، فلم يعلم لتميزه واختصاصه بها سوى ما ظهر من دعواه وأنه محق صادق ، وبالله التوفيق .

وأيضاً فلا خفا على ذوي البصائر والعقول ان مدعي النبوة لو سأل الله آية فأخرسه الله مكانه أو سلبه العقل ، لكان ذلك دليلا باهراً على ان الله تعالى أراد بماصنع تكذيبه وهكذا لو ادعى انه نبي ، أو انه صرفه انه يقدر من ادراك المعقولات ووجوه الاستنباط على مالا يبلغه ، فهم أحد سواه فسلبه الله العقل مكانه لعلم من يشاهده ويعرف حاله إن

شاء الله تعالى لم يفعل ذلك به إلا ليكذبه ويجعله نكالاً وموعظة لغيره .

فلذلك ينبغي أن يقال : انه إذا ادعى النبوة وسأل الله انه ان ما سعف جوابه سؤاله بمـا تعجز الانس والجن عن مثلـــه ، أو كانت دعواه مقرونة بمعجزة وجب أن يعلم ان الله عز وجل لم يخصصه بها الا ليدل على صدقه هذا ، والكذب على الله والافتراءعليه بدعوى الرسالة من عنده من أعظم الجنايات فلا يليق بحكمة الله أن يظهر على من يعاطى ذلك واجترائه عليه آية ناقضة للعادات ، وبراءة تستظهر بها على كذبه ، وبراءة تستظهر بها على كذبه ، فيفتتن العباد به ، وتظهر في البلاد العبر العظيمة منه ، ولا يؤتيه آية إذا سأله قومه إياها ، سلبه سمعه أو بصره ، فان فعل هذا بالصادقفي السفير عنه والحث على خلافه لفعل الأول بالكاذب في التسكين اليه والتحريض على اتباعه .

وقد نزل الله تعالى من هذا الصنع نصـــاً في كتابه فقال – يعني نبيه ﷺ : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾(١) . وقال في الدلالة على صدقه : ﴿أفلا يرون انا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾(٢).

فثبت ان الله عز وجل لا يمد الكاذب المفتعل بما يكون سبباً لاعتزاز الناس به ، كما لا يخذل الصادق المحق ولا يصنع به ما يكون سبباً لانحراف الناس عنه ، وبالله التوفيق .

وكل آية أتاها الله رسولا ، فانه يقدر بها عن الرسول أولا انه رسول حقاً ، ثم عنـد غيره ، وقد يجوز أن يخصه بأنه يعلم النبي بها نبوة نفسه ، ، ثم يجعل له على قومه دلالة سواها . وفي الجملة ، فإنما يعلم النبي نبوة نفسه اكتساباً لاضرورة ،ويكون متعبداً بالايمان بنفسه ، وذلك في الأخبار المروية عن نبينا ﷺ من أول مبعثه إلى ان قوى الامر وعلا ظاهراً بينا .

فصـــل

ومعجزات الرسل صلوات الله عليهم كانت أصنافاً كثيرة ، ولم يبلغنا عن الذين سبقوا إبراهيم صلوات الله عليهم أن معجزاتهم ما كانت وكيف كانت ، ونعلم في الجملة انهـم لم يخلوا من أن يكونوا قد خلوا أقوالهم بما ألزموهم به الحجة .

---

(١) الحاقة : ٤٤ – ٤٦ (٢) الانبياء : ٤٤

فأما إبراهيم صلوات الله عليه ، فانه على ما قيل كان في زمان لا يؤمن بالله عز وجل على وجه الأرض غيره وكان الغالب على الملك الذي كان في بلده وعلى قومه الإلحاد والتعطيل ، فجعل الله حجته على قومه النظر الثاقب الذي لم يقاوم وهو استدلالة يتعاقب للأحوال على الكواكب التي هي أعلى ما يرى وأنهاها وأنورها على أنها محدثة لم تكن ، ثم كانت ، وفي ثبوت حدثها وجوب أن يكون لها محدث خارج من المحسوسات خلاف ما كان يعرفونه ، انه ليس سوى المحسوسات ، قال الله عز وجل : ﴿ وتلك حجتنا أتيناها إبراهيم على قومه ﴾ [1] . وإنما هي حجته التي أقامها عليه بما وصف لهم ، من أن له ولهم ولعامة ما يشاهدون صانعاً .

وكذلك قوله الذي حاجه وادعى القدرة على ما كان يصنعه إبراهيم إلى الله تبارك وتعالى : ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فأما دلالة نبوته فينبغي أن تكون غير هذه الحجة ، ولا شك في أنه لم يخل منها .

فأما عصمة الله تعالى إياه من الإحتراق بالنار ، فهي تدل على إخفائه فيما كان يدعيه من الرسالة والنبوة ، فكما يدل على الصانع جل ثناؤه إلا ان ذلك أيضاً لم تكن آيته التي أيد بها دلالة على نبوته ، إذ كان القوم قصدوا بما صنعوا بمكانه معاقبة على ما كان منه من كسر للأصنام لامتحانه ، لينظروا هل له إله يدفع عنه أولاً ، إذ كان ذلك إنما يليق لو كانوا سألوه دلالة ، فقال : دلالتي أن النار وان بلغت ما بلغت في لظى لا تحرقني ، وان ربي من أذاها يعصمني ، وهو كما كان قال لهم .

فثبت أن دلالته كانت شيئاً سوى عصمة الله إياه من النار إلا أنها لما وقعت لم تخل من هذه الدلالة أيضاً ، فهدى الله تعالى من هدى وخلى بين نفسه وهواه من خلى إلى اليوم الذي يجري فيه كل ساع بما يسعى.

وقد أخبر الله عز وجل انه أراه إحياء الموتى عياناً ، فان كان إنما سأل الله تعالى ذلك على أعين الناس ليدل باجابته إياه على صدقه فيما فعله من ذلك بدعائه له وبينه ، وان كان إنما سأل ذلك لخاصة فهو شيء أراده ليطمئن قلبه ، فكانت دلالته على قومه أمرا سواه وبالله التوفيق .

---

(١) الانعام : ٨٣

وأما موسى عليه السلام فإن الله عز وجل أخبر أنه أتاه تسع آيات بينات: العصا، واليد، والدم، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والطمس والبحر.

فأما العصا فكانت حجته على الملحدين والسحرة جميعاً، وكان السحر في ذلك الوقت منتشراً، فلما انقلبت عصاه حية تسعى وتلقفت حبال السحرة وعصيهم، علموا أن حركتها عن خبرة حادثة فيها بالحقيقة، وليست من حد بين ما يتخل بالحبل، فجمع ذلك الدلالة على الصانع وعلى ثبوته جميعاً.

وأما سائر الآيات التي لم يحتج إليها مع السحرة، فكانت دلالات على فرعون وقومه والقائلين بالدهر، فأظهر الله بها صحة ما أخبرهم به موسى: من ان له ولهم رباً وخالقاً إذ كانت كلها متجاوزة جداً لقوة البشرية، وثبت بامداد الله تعالى إياه بها حاجته إلى تصحيح دعواه انه نبي الله ورسوله كما يقول وبالله التوفيق

فأما يوشع ففي الأخبار أن الشمس حبست له لما دعا الله عز وجل وسأله جل ثناؤه أن يحبسها له عند قتاله أهل أريحا وإشرافه على فتحها عشية يوم الجمعة، وإشفاقه من أن تغرب الشمس قبل الفتح فيحرم عليهم لأجل السبت القتال، ويعلم به عدوهم فيعمل السيف فيهم ويجتاحهم فكان ذلك آيته التي خص بها بعد ان كانت نبوته ثابتة بخبر موسى عليه السلام على ما يقال والله أعلم.

وأما داوود صلوات الله عليه، فان الله عز وجل ألان له الحديد وسخر له الجبال والطير فكانت تسبح معه بالعشي والاشراق، وكان على ما يقال يقرأ الزبور بأصوات مختلفة: منها صوت يطرب ومنها المهم، وتعكف الوحش والطير عليه إعجاباً به واستتابته إليه.

وأما المسيح صلوات الله عليه فإن الله عز وجل خلقه لا من أب، ولكن ذلك إنما علم بخبر الصادق عن الله تعالى، ولم تكن آيته ومعجزته، إنما آيته ان الله عز وجل أقدره على الكلام في المهد فكان يتكلم فيه كلام الحكماء وانه كان يحيي الموتى، ويبرأ بدعائه، أو بيده إذا مسح الاكمه والأبرص، وجعل من الطين كهيأة الطير، فينفخ فيه فيكون طائراً باذن الله.

ثم ان رفعه من بين اليهود لما أرادوا قتله وصلبه، فعصمه بذلك من أن يخلص القتل

والصلب إلى بدنه ، وكان الطب عاماً غالباً في زمانه ووقته فأظهر الله تعالى بدعائه وأجراه على يده من زوال الداء العظيم دفعة واحدة بدعائه ، وحدوث جارحة لم تكن أصلاً ، ورجوع الحياة إلى البدن الميت ، وعجز الخلائق من الأطباء عما هو أقل من ذلك درجات كثيرة .

إن التعديل على الطبائع وإنكار ما خرج منها باطل ، وإن للعالم خالقاً ومدبراً لا يتعذر عليه إحياء ميت ، ولا إبداع خارجه ، ولا إزالة عدمه . ودل باظهار ذلك له ولأجله وبدعائه وعلى يده وحال حاجته ما يدل على صدقه على أنه محق فيما يدعيه من رسالته وبالله التوفيق .

واما المصطفى نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وعزته ، فإنه كان أكثر الرسل آيات ، ذكر بعض أهل العلم ان أعلام نبوته تبلغ ألفاً . فأما العلم الذي اقترن بدعوته ولم يزل يتزايد أيام حياته ، ودام في أمته بعد وفاته ، فهو القرآن المعجز المبين ، وحبل الله المتين الذي هو كما وصفه به من أنزله ، فقال : ﴿ وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ [١] .

وقال : ﴿ إنه لقرآن كريم ، في كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين ﴾ [٢] . وقال : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ [٣] . وقال : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾ [٤] . وقال : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ، واتقوا لعلكم ترحمون ﴾ [٥] . وقال : ﴿ كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة ﴾ [٦] . وقال عز وجل : ﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ [٧] .

فابان جل ثناؤه انه أنزله على وصف مباين لأوصاف كلام بشر ، لأنه منظوم ، وليس بمنثور ، نظمه ليس نظم الرسائل ولا نظم الخطب ولا نظم الأشعار ، ولا هو كاسماع الكهان . وأعلمه أن أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثله ثم أمره أن يتحداهم على الإتيان به ،

---

(١) فصلت : ٤٢ (٢) الواقعة : ٧٧ - ٧٩ (٣) البروج : ٢٢ (٤) آل عمران : ٦٢
(٥) الانعام : ١٥٥ (٦) عبسى : ١٣ (٧) الاسراء : ٨٨

وان ادعوا أنهم يقدرون عليه أو ظنوه.فقال: ﴿قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾[1].
ثم نقصهم تسعاً ، فقال : ﴿ قل فأتوا بسورة مثله ﴾ (٢) .

فكان من الأمر ما يصفه غير أن من قبل ذلك دلالة : وهو أن النبي ﷺ كان غير مدفوع عند التوافق والتحالف عن الحصافه والمانه ، وقوة العقل والرأي ومن كان بهذه المنزلة ، ومع ذلك قد انتصب لدعوة الناس إلى دينه ، وذكر لهم أنه رسول الله .

وبلغ من ميله إلى إظهار دينه وحرصه على إدخال الناس في مثله ، أن يقاتل ويجاهد ويعاني الاوابد ويكابد الشدائد ، ولم يكن أن يقول للناس ايتوا بسورة من مثله مـــا جئتكم به من القرآن ، ولن تستطيعوه ، فان أتيتم به فأنا كاذب ، وهو يعلم من نفسه ان القرآن لم ينزل عليه وهو الذي تولى وضعه ويعلم أولاً ما من أن يكون في قولـــه من يعارضه وينتظم له من الكلام ، ان صرف اليه همه مثل الذي انتظم له ، وان ذلك ان كان يطلب دعوته وانتفض أمره ، وكان أحسن أحواله ان سومح فاستحى ، وسوهـل فاستبقى أن يصر بين الناس في الكذب آية ، ولم يعلم له بعد ذلك عند أحد رأيه ، فهذا إلى أن يذكر ما بعده دليل قاطع على انه لم يقل للعرب إيتوا بمثله ان استطعتموه ولن تستطيعوا إلا وهو واثق متحقق مستيقن انهم لا يستطيعوه ، وليس يجوز أن يكون هذا اليقين وقع له من قبل نفسه ، فصح انه إنما وقع له من قبل ربه الذي أوحى إليه بـــه موثق أجره وبالله التوفيق .

واما ما بعد هذا فهو أن النبي ﷺ قال لهم: إئتوا بسورة من مثله ان كنتم صادقين! فطالت المهلة والنظرة لهم في ذلك ولو أثرت الوقائع والحرب بينه وبينهم فقتلت صناديدهم وسبيت ذراريهم ونساؤهم وانتهبت أموالهم ، ولم يتعرض أحد لمعارضته ، فلـــو قدروا عليها لافتدوا بها أنفسهم وأولادهم وأهليهم وأموالهم ، وكان الاسم في ذلك قريبـاً منهلا عليه ، إذ كانوا أهل لسان وفصاحة وشعر وخطابة ، فلو لم يأتوا بذلك ولا ادعوه ، صح انهم كانوا عاجزين عنده في ظهور عجزهم عنه بيان انهم في العجز مثلهم ، إذ كان بشـراً مثلهم ، لسانه لسانهم وعاداته عاداتهم ، وطباعه طباعهم وزمانه زمانهـــم ، وان كان ذلك وقد جاء بالقرآن وجب القطع بأنه من عند الله لا من عنده وبالله التوفيق .

---

(١) هود : ١٣ (٢) يونس : ٣٨

فإن قيل : فإن مسيلمة قد ادعى أنه يأتي بمثل هذا القرآن ، وقال : لقد أنعم الله على الحبلى إذا خرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشاء ، وقال : يا ضفدع نقي كم تنقين فلا الشراب تمنعين ولا الماء تكدرين ، وقال : الفيل وما الفيل، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب طويل ، وشفر وثيل ، وان ذلك من خلق لقليل ، وعارض سورة الكوثر فقال : إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر ، إن عدوك هو الكافر .

فالجواب : ان كل ما جاء به مسيلمة فلا يعدو أن يكون بعضه محاكاة وسرقة وبعضه كاساجيع الكهان وأراجيز الأعراب ، وقد كان النبي ﷺ يقول ما هو أحسن منها لفظاً وأقوم معنى وأبين فائدة ، ثم لم يقل له العرب ها أنا محداث على الآيات بمثل القرآن، ويزعم أن الجن والانس لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله لا يقدرون عليه ، ثم قد جئت بمثله مفترى انه ليس من عند الله وذلك قوله عليه السلام : (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب) (١) .

وقوله : (والله ، لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا ، فأنزلن سكينة علينا ، وثبت الاقدام ان لاقينا) (٢) . وقوله : (اللهم ان العيش عيش الآخرة ، فأرحم الانصار والمهاجرة) (٣) .

وقوله : (تعس عبد الدنيا وعبد الدرهم وعبد الخميصه ، ان أعطي منها رضي، وان لم يعط سخط وتعس وانتكس ، وان شيك فلا انتقش) (٤) . ولم يدع أحد من العرب ان شيئاً من هذا يشبه القرآن وان فيه كثيراً ، لقوله : ان أحداً لا يقدر على الاتيان بمثله .

وقد جاء ان سيف بن ذي يزن ، لما ظهر على الحبشه وقصده عظماء قريش بالتهنئة ، وكان رأسهم عبد المطلب خلا سيف به وبشره بالنبي ﷺ . فقال : إذا ولد مولود

---

(١) ورد في صحيح البخاري « كتاب الجهاد » باب ٥٢ ، ٦١ ، ٩٧ ، ١٦٧ ، وفي صحيح مسلم « كتاب الجهاد » حديث رقم ٧٨ — ٨٠ .

(٢) ورد في صحيح البخاري « كتاب الجهاد » باب ٣٤ ، وفي صحيح مسلم « كتاب الجهاد » رقم ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٣) لم يرد الا في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ، ص ١١٨ ، ١٨٠ .

(٤) ورد في صحيح البخاري «كتاب الجهاد » باب ٧٠ ، وفي سنن ابن ماجه «كتاب الزهد » باب ٨ .
شيك الرجل : فهو مشوك اذا دخل في جسمه شوك .

بتهامه ، غلام بين كتفيه شامة ، كانت له الأمامة ، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة ، وانه سأله أن يوضح له قوله ، فقال : والبيت ذي الحجب ، والعلامات ذي النصب ،إنك يا عبد المطلب لجده غير كذب .

وما زالت العرب تسجع وترجز ، فما فطن عن أحد منهم انه ادعى أنه يشبه القرآن اسجاعها وأراجيزها ، ولو علموا أنه ذلك لا تبدروا إلى المخاصمة والمعارضة ، فانهم كانوا لما قال عز وجل : ﴿ وتنذر به قوماً لداً ﴾ [1] . وقال : ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ [2] .

فلما لم يقل أحد منهم علمنا انها غفلت فرق ما بين القرآن وبين الاسجاع والاراجيز ، ولذلك ضربت صحبها صفحا ولم يشتغل بها أصلاً ، فلذلك اسجاع مسيلمة هذا سبيلها مع ما فيها من المحاكاة والسرقة والهذر ، وكل واحد من الحاكي والسارق مستغن بما يأخذه من أعيان ألفاظ المعارض وأوصافه كلامه على معارضته ، وإذا كان كذلك ، لم تخلص منه المعارضة ، واثار كل واحد من الفعلين ظاهرة في كلام مسيلمة :

فأما المحاكاة . فانه يحاكي نحو قوله عز وجل : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ﴾ [3] .

وأما السرقة : فانه أخذ قوله : (لقد أنعم الله) من قوله الله عز وجل : ﴿ لقد من الله ﴾ [4] ، وقوله : ﴿ وإذ يقول للذي أنعم الله ﴾ [5] وأخذ قوله : (إذا خرج منها نسمة) من قوله عز وجل : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ﴾ [6] . وأخذ قوله : (تسعى) من قوله عز وجل : ﴿ فاذا هي حية تسعى ﴾ [7] ، وأخذ جملة ذلك من قوله عز وجل : ﴿ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ [8] فسرق المعنى كما سرق اللفظ .

ثم قوله : (من بين صفاق وحشا) ولأن الولد لا يكون من بين الصفاق والحشا ، وإنما يكون في الرحم ، والرحم من الحشا .

وقوله : (لقد أنعم الله على الحبلى إذا خرج منها نسمة تسعى) مع ذلك كلام مجيد لأن انعام الله تعالى على الحبلى إنما هو بتقويته إياها على الحمل وتخليصها إذا جاء وقت الولاد

---

(١) مريم : ٩٧ — (٢) الزخرف : ٥٨ — (٣) الضحى : ١ — ٣ ،
(٤) آل عمران : ١٦٤ — (٥) الاحزاب : ٣٧ — (٦) النحل : ٧٨
(٧) طـه : ٢٠ — (٨) الروم : ٢٠

من غير بأس ، وأما ما عدا هذا فانه وإن كان انعاما عليها ، فليس ذلك من حيث أنها حبلى ، والانعام على أن المولودين بالولد أكبر منه على الأم ، لأن الولد إليه ينسب ، وبه يعرف ، وعليه مؤونته وإليه دعوته .

وقوله : (الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل) محاكاة لقوله : ﴿القارعة ماالقارعة ، وما أدراك ما القارعة﴾ [1] . والمحاكاة قريبة المعنى من السرقة ، وقد يحاكي الشاعر من ليس بشاعر ، فيستوي له ذلك ، ولو أراد أن يقول بيت شعر من ذي قبل لما قدر عليه.

وقوله :(ذنب طويل وشعر وثيل) من جملة الاسجاع التي قل أحد أن يعجز عن مثله . فان كان ذلك كالقرآن ، فالاسجاع كلها كالقرآن،ومهما بطل أن يكون ما قيل ، هذا الكلام معارضة ، وثبت أنه محاكاة وسرقة ، فقد بطل الاعتداد به .

ولما ثبت لما بعده على الانفراد حكم ، لأن أكثر ما فيه أن يكون كمعارضة بعض السورة ، وتلك مما لم يقع التحدي عليها ، وهذا مع ما في قوله : (له ذنب طويل) من الخلف ، لأن ذنب الفيل ليس بالقياس على مقادير أعضائه وجوارحه طويلاً ، ولا هو مما ينبغي أن يشار إليه إذا وصف خلقه ، لأنه لا فرق فيه بينه وبين البعير ، وإنما يقع تمييزه من غيره بالخرطوم والنابين والرأس والأذنين وعظم الجثة ، واكبار المفاصل حتى لا تلس للوقوع بالأرض ، وان وقع لم يقدر على القيام ، فهذه خصائصه .

ووجدناه قد قال : (ما ادراك ما الفيل) فلما أخذ في وصفه لم يعرفه بما استحق تعريفه ، فدلنا ذلك على ركاكته وغباوته .

وأما قوله (يا ضفدع نقي كم تنقين ، لا الشراب تمنعين ولا الماء تكدرين) فإنه أيضاً من ركيك الكلام ، المضاهي لترقيص نساء الاعراب أولادهن من نحو قول إحداهن أشبه ابا أمك وأشبه حمل ، ولا تكونن كلهوف ، وكل يصيح في مضجعة ، قد انحدل وأرق إلى الخيرات وأربأ في الحيل ، وعن قول من ربيب أباها فقال : وابناه ، وابن الليل ليس سروب الفيل يضرب بالذيل كمقرن الحبل فان كان هذا القول من مسيلمة معارضة القرآن ، فكل واحد من كلام هاتين المرأتين معارضة وإلا فليعلم أن ليس كل سجع وكل كلام منقطع كالقرآن والله حسبه .

---

(1) القارعة : ١ — ٣

فصــل

ونقول في الفرق بين فصول القرآن وبين هذه المنقطعات ان الاسجاع وقوله في الاشعار يتحرى لها الالفاظ وجعل المعاني تابعة لها سيف بن ذى يزن لم يقل : انك يا عبد المطلب لجده غير كذب وترك أن يقول لجده حقاً لا لمراعاة اللفظ ، وليزدوج آخر كلامه بادلة ، وإلا فليس في العادات أن يقول قائل : ان هذا هكذا غير كذب ، وإنما يقول حقاً أو صدقاً ، كما قال عز وجل : ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق ﴾ [(١)] .

وجرى النبي ﷺ هذه العادة لما قصد السجع ، فقال : (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب) (٢) . ولم يقل أنا النبي حقاً ، قال الله عز وجل : ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ﴾ (٣) لأن ذلك كان لا يزدوج مع الذي كان في نفسه ان يقوله من قوله : (أنا ابن عبد المطلب) ويجري للاسجاع إتفاق حروف المقاطع نحو ياء وميم وجيم .

وعلى هذا عادة الشعراء ويتوفى فيها معاً تبيان للفضل والبيت والبيت في الطول والقصر ، وليس القرآن كذلك ، لأن مقاطع آياته لم تبن على استواء الحروف ولا آياته على التساوي ، فعلم بذلك أن المعاني فيها بحق المقصودة ، والألفاظ تحتها لم تشبه ما تشبه الاسجاع والأشعار ، من تخالف الحروف في مقاطعها ، ولا طول آية وقصر التي تحتها .

ألا ترى أن النبي ﷺ لما سجع فقال : (أنا النبي لا كذب) اقتصر بعده ، على ان قال : (انا ابن عبد المطلب) ولم يقل : انا ابن عبد الله بن عبد المطلب ، وإن كان كذلك بالحقيقة . لأنه لو قال هذا لزالت بهجة السجع وحسن النظام عن هذا الكلام .

وقد دخل هذا المعنى اكثر آيات القرآن فلم يسوءها ولم يعرضها لأن تمجها الاسماع وتنبوا عنها القلوب . فقيل: ﴿ الحمد لله رب العالمين﴾(٤). ثم قيل: ﴿ الرحمن الرحيم﴾(٥) . وذلك كلمتان ، والذي قبله ثلاث كلمات ومقطعها مختلف ، ثم قيل بعد هذا : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ (٦) وهي ثلاث كلمات ومقطعها الميم ، وقيل بعدها : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين آمين ﴾ (٧) . وفي هذه إضعاف

---

(١) الذاريات : ٢٣

(٢) ورد في صحيح البخاري « كتاب الجهاد » باب ٥٢ ، ٦١ ، وفي صحيح مسلم « كتاب الجهاد » رقم ٧٨ — ٨٠

(٣) الاعراف : ٤٤

(٤ و ٥ و ٦ و ٧) آيات سورة الفاتحة .

التي قبلها ومقطعها النون ، فلم يستنكر ذلك أحد سمعه من أهل البلاغة والنظم، ولو كان ذلك في شعر أو سجع لا يستهجن ولم يعترف لصاحبه بأن آياته المتفاوتة قصيدة واحدة، فعلم بهذا أن مبنى ايات القران على غير مبنى الاسجاع والقوافي .

ومن تأمل كلام مسيلمة على مشاكلته للاسجاع ومباينته آيات القرآن ، وكذلك بقصد الهزل ، والركيك من اللفظ والغث من المعنى ، فيقول : « يا ضفدع نقي كم تنقين، لا الشراب تمنعين ، ولا الماء تكدرين » فإن هذا من قوله يدل على أن اللفظ كان أغلب عليه من قصد المعنى ، وإلا فليس في هذا الكلام ما يستحسنه عاقل .

وهكذا قال الصديق رضي الله عنه لما سمعه : (ان هذا لم يخرج من إله) أي لم يخرج من عند الرب ، فان الرب حكيم ، والحكيم لا يتكلم بمالا يستجاد معناه ، ولا يستفاد لفظه وكذلك قوله : (وقد أنعم الله على الحبلى إذا خرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشا) قد عرض له في من الهجنة والركاكه مالا تفرضه له الا تجريده قصداً للفظ واعراضه عن المعنى.

وكذلك قوله في صفة الفيل الذي تقدم ذكره ، والكشف عما فيه ، إنما عرض له التقصير فيه لإرادته اللفظ وقلة حفله بالمعنى وآيات القرآن كلها تخل من هذه الصفة ، فظهرت بذلك فرق ما بينها وبين غيرها وبالله التوفيق .

فان قيل : أرأيتم لو تحدى العرب عليه من الإتيان بمثل هذا القرآن ، أهو مثله في النظم دون غيره أو في النظم أو المعاني ، فان كان في النظم والمعاني ، فأنتم تعلمون انه لا اعجاز في المعاني ، وإن كان في النظم وجب أن يكون كل من تكلم بكلام منظوم مثل نظمه اتيا بمثله ، وإن كان ذلك الكلام هدراً لا معنى تحته ولا فائدة فيه ، وفي هذا ما يمنعكم من الطعن في كلام مسيلمة لما فيه من اختلال المعاني ، وفساد الأعراض .

فالجواب : ان الاعجاز في لفظ "قرآن ، ولكن لا يمنع اللفظ من الإفادة والإجادة ، فان تكلم متكلم بكلام يدل على عرض محتج ومعنى مستقيم منظوم بنظم لا يشبه نظم الشعر ولا نظم الخطب ولا نظم الرسائل ولا الاسجاع ، كان معارضاً للقرآن آتياً بمثله ، ولكن يكون ذلك أبداً شهادة من الله تعالى بذلك حقاً ، فأما ان نظم هدراً أوضاع

كلاماً لا معنى تحته ، واستوى له من ذلك بقدر سورة من القرآن لم يجز أن يقال انه عارضه أو جاء بمثله ، لأنا وجدنا في الناس من لا يحسن ان يقول بيت شعر .

وقد قال قصيدة صاغها هذرا ونظمها من الفاظ لا معاني تحتها . ورأيت من يخدم الملوك ويصيب الرغائب منهم ولا سبب له عندهم إلا هذا الصنيع ، وشاهدته وهو ينشد قصائده التي وصفتها وهم يضحكون منه ، ولو أراد أن يقول بيت شعر مستقيما لما قدر عليه ، فعلمنا ان الاعراض عن المعاني واغفالها مما يسهل السبيل إلى التوسع في الالفاظ الفارغة وبالله التوفيق .

وأما من زعم انه عارض سورة الكوثر ، فهو أضل من حمار أهله ، لأن قوله : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك ﴾ [1] . وبعض ما بعده كلها أعيان سورة الكوثر ، وما بعضها محاكاة وسرقه ، فانى يكون ذلك معارضة ، لولا قلة المعرفة ، ويدل على صحة ما قدمنا ذكره خطباء العرب وفصحاؤهم لما سمعوا القرآن استعظموه ،فقالوالمعرفتهم مباينته جميع ضروب كلامهم : (إن هذا إلا سحر يؤثر) [2] . كما قالت سائر الأمم للانبياء لما رأوا من اعلامهم ما يباين الموجودات عندها ، قالوا هذا سحر مبين .

وروى ان الوليد بن المغيرة جمع قريشاً فقال لهم ، ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : هو شاعر ، وقال بعضهم : هو كاهن ، فقال الوليد : سمعت قول الشعر فما هو شاعر ، وسمعت قول كهان اليمن فما هو مثله ! قالوا : فما تقول أنت ؟ فسكت ساعة ثم عبس فقال : ان هذا الا سحر يؤثر .

وفي رواية أخرى ان الله عز وجل لما أنزل على نبيه ﷺ : ﴿ حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ [3] ، قام النبي ﷺ في المسجد فقرأها والوليد قريب منه يستمع إلى قوله ، فلما نظر النبي ﷺ إلى الوليد يستمع إلى قراءته ، اعاد هذه الآية ، فقال : حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، في ملكه العليم بخلقه ، غافر الذنب لمن تاب من الشرك ،

---

(١) الكوثر : ١ – ٢ (٢) المدثر : ٢٤

(٣) غافر (المؤمن) : ١ – ٣

شديد العقاب لمن لا يتوب من الشرك ، ذي الطول ذي الغنـاء عمن لا يوجد ثم وجد نفسه حين لم يوجده كفار مكة ، فقال لا إله إلا هو .

فلما سمعها الوليد انطلق حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال: (والله لقد سمعت لمحمد كلاماً أنفاً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، ان أسلفه لمعذق ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن له لحلاوة وان عليه لطلاوة وإنه ليعلو أو ما يعلا ثم انصرف إلى منزله .

فقالت قريش : قد صبأ الوليد ، فو الله لتصبون قريش كلها ، وكان يقال له ريحانة قريش . فقال أبو جهل : أنا اكفيكموه ، فقعد اليه كهيئة الحزين ، فقال له الوليد : مالي أراك حزيناً ؟ فقال : وما يمنعني أن أحزن ، وهذه قريش ، قد أجمعوا لك نفقة ليعينوك على أمرك ، وزعموا انك إنما رتبت قول محمد لتصيب من فضل طعامهم ! فغضب الوليد وقال : أو ليس قد علمت قريش اني من أكثرهم مالاً وولداً ، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام ، فقام الوليد ، وانطلق مع أبي جهل حتى مجلس بني مخزوم فقال : يزعمون أن محمداً كذاب فهل رأيتموه كـــذب فيكم قط ، وكان يسمى قبل النبوة ﴿ الأمين ﴾ ؟ فقالوا : اللهم لا ! فقال : تزعمون أن محمداً مجنون ! فهل رأيتموه جن فيكم قط ؟ فقالوا : اللهم لا ! قال : فتزعمون انه كاهن ! فهل سمعتموه يخبر بما يخبر بـــه الكهنة ؟ فقالوا : اللهم لا ! فبرأه الله من هذه الثلاثة كلها .

ثم قالت له قريش : فما هو يا أبا المغيرة ؟ فيكفر ما يقول له ، ثم نظر فيما يقول ثم عبس وبسر ، فقال : ان هذا إلا سحر يؤثر.

وفي حديث آخر ان عيينة بن ربيعة قال لقريش : خلوا هذا الرجل واجعلوها لي والله لقد سمعت الشعر قريضـــة وزجره وقول الكهان ، فما سمعت مثل قوله ، وذلك عندمـا سمعه يقول : ﴿ حم ﴾ (١) . ﴿ السجدة ﴾ (٢) ، من أولهـا إلى ان بلغ : ﴿ فإن أعرضوا ﴾ (٣) فأقسم عليه ان يمسكه ويصد قريشاً ، فقال لهم ما قال : فقالوا سحرك يا أبا الوليد !

---

(١) لشورى : ١

(٢) ان اسم السورة التي يعنيها هي (الشورى) وليس (السجدة) .

(٣) الشورى : ٤٨

وهذا كله يبين انه لم يكن يخفى على العرب ان القرآن لا هو كالاسجاع ولاهو كاراجيز العرب التي كلها أجلى وأنهى وأفصح وأهيأ من اسجاع مسيلمه ، فكيف يقبل منمسيلمة ، فكيف يقبل من مسيلمة ان يدعي معارضة القرآن بشيء لولا قصد الحجاج وازالة الشبهة عن صدور المستضعفين لجلب نعمة الله على عباده بالسمع أن يصرفوا اليه ويشغلوه به وبالله التوفيق .

والاحتجاج بالقرآن وجه ثالث : وهو انه كتاب ناقض للعادات من كل وجه ، ولأن الناس حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ كانوا فريقين : معطلين وملبين .

فالمعطلون لم يكونوا يقولون بامر ولا نهي ولا تحليل ولا تحريم ولا وعد ولا وعيد ولا تسبيح ولا تقديس ولا عبادة قط .

والملبون كانوا متمسكين بالشرائع الموروثة لهم عن اسلافهم، المبدلة منها وغير المبدلة، ولم يكونوا في العبادات ولا الاحكام عن المنهاج الذي نهجه القرآن ، والمعطلة من العرب لم يكن تعطيلها الا تقليداً، ولم يكن لهم من النصر بالحجج وطرق النظر ما كانت لمعطلة الفلاسفة ، وكذلك المتدينة منها بنصرانية أو يهودية أو مجوسية ما كانت الا مقلدة ، ولم يكن لها في النظر والحجاج والجدل نصيب .

وكان النبي ﷺ مولوداً بمكة ، وبها تربى على عادات أهلها ، نشأ لم يجالس النظار ولا حملة الاشعار ، إذ لم يكن منهم من يليه أحـد ولا أن يحل إلى من كان منهم في غير بلده ، فجالسه والتقى به ، ولا عرف البحث عن الديانة والخوض عنها من همه ودأبه ، وكان مع هذا الانفراد لا يكتب .

ثم انه جاءهم بالقرآن المشتمل على الاثبات والتوحيد والتسبيح والتقديس والتحميد والدعاء والاستغفار والتمجيد، وإثبات العبادات على اختلاف وجوهها وإبانـة الاحكام في عامة الحوادث على كثرها ويقين أصولها وفروعها ، وكانت جملتها مخالفة في أنفسها لمـا عليه المعطلة ، وفي أوصافها وشرطها لما عليه الملة المتدينة ، فدل على وجوه الحجاج وأرشد إلى طرق الجدل والخصام ، وكان في مجموع ذلك كله ثلاثة معاني أخذها القرآن كتاب وخبر وفيه تكرير .

وعلى ذلك فقد اشتمل من بيان احكام الحوادث على ما أفاد بعضها الكفاية ببعضه، وفي بعضها ما يضمنه من المعنى الذي يتوصل به إلى معرفة الحكم فيما قصر اللفظ عنه، فلا تخلو حادثة تحدث إلى قيام الساعة عن أن يمكن استدراك حكمها من قبله، ومن وجه فيكون مرجعه اليه ومصدره عنه.

ومن علم النظر والاستدلال على مالا متجاوز عنه ولا زيادة عليه، ولا تكاد العقول تبصر طريقاً سواه، والنظار وإن أمعنوا وبالغوا وجاوزوا وصنفوا وقدموا وأخروا، فإن أصل احتجاجهم اليه يرجع، وعليه يقف: ومن علم العبادات على ما أتي بها وهذا إلى وجوهها وأقسامها.

ومن علم الآداب والشمائل المحمودة على نحو من علم العبادات والمعاملات أحكام الصروف والجنايات. ومن التسبيح والتقديس والدعاء والتحميد مالا تبلغه بلاغة البلغاء ويعجز عنه علية الفصحاء.

ويضاف إلى هذه الأبواب المواعظ والأمثال والقصص والوعد والوعيد، ومابقي منها إلا اليسير خلا عن العبادة، والتركيز في مواضع كثيرة بالألفاظ مختلفة، والأمر فيها مؤتلف، والقائم به واحد منفرد، فلا يمكن أن يكون استوى ذلك كله له حتى تولى وصعد من تلقاء نفسه، لأن امكان ذلك مباين للعادات لا يكاد يتفق ذلك لأحد من الناس فيما يحفظ أو يعرف ان جميع هذه ولا سيما على شرطه في الاعادة والتكرير والعبادة عن كل واحد منهما بعبارات كثيرة، والفاظ مختلفة في كتاب قدره كقدر القرآن، وجملته كجملته، وفي ذلك ما يدل على انه انما جاء به من عند اللطيف الخبير الذي هو على ما يشاء قدير.

والآخر انه ما من باب من هذه الأبواب التي ذكرنا الا وهو ناقص بها عادة فرق من الفرق التي عددناها، فإنه بما جاء به من الشرائع والاذكار والدعوات نقض عادة العرب، وخالف طريقة عامة المعطلة، فلا يمكن أن يكون أخذ عنهم ما لم يكن عندهم.

وأما أهل الملك فقد خالفهم أيضاً، لأنه جاء بغير ما كانوا عليه من العبادات والاحكام وكذبهم في كثير مما كانوا يدعونه ديناً وكذبا بالله عز وجل، ولعنهم وكفرهم وضللهم وقتلهم وغنم أموالهم وسبى ذراريهم ونساءهم وضرب الجزية على الذين سالمهم، وأنذر بالنار والعذاب الدائم من مات منهم، ولم يمكن أن يكون أحد من يخالف دينهم عنهم.

وأما ما يوافق قولهم ، فلو كان أخـذه عنهم لم يخف ذلك عليهم ولو لم يعفوا عليه في أول الأمر ، فقد كانوا يدر كونه إذا غلبت يده وظهر أمره ثم كانوا لا يمكنونه عليه ، بل يفشونه ويذيعونه حرصاً عليه متتابعين فيه ، ولما ذهب علم ذلك على النجاشي الذي كان أصحابه يلحون إليه وهو يومئذ ملك النصرانية ، وقد جاءهم بنسخ أحكامهـا وتبديل شرائعها وتكذيب أكثر الدائنين بها مما كانوا يقولونه في عيسى صلوات الله عليه .

ولما لم يقدر أحد من اليهود والنصارى والمجوس على أن يضيف اليه شيئاً مما ذكرت ، وإنما قالت العرب عند تحيرها في الأمر ، إنما يعلمه بشر ، فليشتبه إلى الأخذ عن أعجمي لا يحسن العربية ، وهو عندي لا يحسن الاعجمية ، حتى رد الله جل ثناؤه عليها قولها من هذا الوجه فصح انه لم يأت بالقرآن إلا من عند الله جل ثناؤه وبالله التوفيق .

والثالث هو ما أشار اليه جل ثناؤه بقوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (١) . منها عما قد كان ، ومنها عما قد يكون في الدنيا وفي الآخرة ولم يأت به النبي ﷺ جملة وانما أتاهم به شيئاً بعد شيء ، وقد جرت العادة ، بان الكذاب لا يسلم من المناقضة في كلامه ، ولا سيما إذا تشتت اخباره وتخللت بينها أزمان متباعدة ، وأحوال متتابعة .

فلو كان القرآن وضعاً وضعه من تلقاء نفسه ، لوجدوا في اخباره من التفاوت ما هو أظهر امارات الكذب ، وأبين ما يميز به الناس بين الصادق والكاذب ، فيقول قائلهم : أما فلان فلا تجري أقواله إلا على نهج واحد ، وأما فلان فإنه يقول مرة كذا ومرة كذا ، أي ان الأول محق صادق ، والآخر مبطل مخارق .

وما لم يوجد ما ذكرنا انه امارة الكذب والكذاب في القرآن ، صح انه إنما جاءبه من عند الله عز وجل ، وهذا كما قال : ﴿ أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ﴾ (٢) . أي الم يقابلوا أحواله وأوصافه باحوال المتحابين وأوصافهم حتى إذا لم يجدوا شيئاً منها له وفيه علموا انه ليس بمجنون .

فان قيل : ان اخبار القرآن لا تبلغ في الكثرة ان لا يطلق الاحتراز فيها من المناقضة

---

(١) النساء : ٨٢ (٢) الاعراف : ١٨٤

ولا سيما إذا كان الذي يأتي بما يريد ، يتوصل به إلى إثبات الرسالة لنفسه من الله تعالى جده !

فالجواب : انه ما من مخبر كاذب إلا وله في خبره غرض يريد أن يبلغه بخبره ، ويكره أن يظهر المخبر كذبه فيه ، ثم ليبين في ذلك ما يحتمل وجود التفاوت في كلامه إذا ردده في عدة مجالس في يوم أو أيام متدانية أو متباعدة ، وما ذاك إلا ان التحرز من المناقضة في بواعث العقل والتمييز وجب الذكر الجميل ، والاشفاء من الاسم الذميم .

ومن كان بهذه المنزلة لم يكذب ولم يقتصر على ان يكون كذبه معتدلا دون أن لا يكذب أصلا ، وانما يرضى لنفسه بالكذب من ضعف رأيه وخف وزنه أمامه الذي لومه حاله وعرضه القائم في نفسه حين تكلم تكلماً يغرب الحال ، واختلف العرض بغير كلامه ولم يجعل بما تقدم له منه .

وإذا كان هذا هكذا ، لم يكن في امكان التحفظ من المناقضة في قدر اخبار القرآن الكريم بما كان يحيل أو يمنع وجود آيات الكذب فيها لو كان الآتي بها صادق وبالله التوفيق .

وفيه وجه آخر وهو ان في هذه الآية : ان القرآن لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه التفاوت والتناقض ولكن ليس فيها ان ذلك على أي وجه ، وجد من حيث ان الآتي به كان لا يقدر على التحفظ فيه أو من وجه سواه فيقول : بل من وجه سواه ، وهو ان الله عز وجل إذا رآه مستظهراً بالتحفظ على التلبيس ، ويتوصل إلى وضع شريعة وصرف الناس عن الشرائع الصحيحة اليها ، حال بينه وبين همه وسلبه الأوصاف الذي يتمكن بها من الاحتراز وعرضه لما يوقعه في المناقضة وحلاه حلية الكذابين ، فلما لم يفعل ذلك بمن جاءهم بالقرآن ولا هو أنزل عليه عذاباً ولا سلط عليه عدواً بل كتب له النصر على من ناوأه اوخالفه وجب أن يعلم ان من جاء بالقرآن من عنده وبالله التوفيق .

فصل

ومما يدخل في تعظيم قدر القرآن انه مخصوص : بانه الدعوة وهو الحجة ولم يكن مثل هذا الرسول قط ، إنما كانت تكون لكل واحد منهم دعوة ثم تكون حجة غيرها ، وقد

جعل الله تعالى القرآن لرسوله ﷺ دعوة وحجة ، إلا انه دعوة لمعاينة حجة لألفاظه ونظمه ، وحسب الدعوة شرفا أن تكون الحجة نفسها ، وحسب الحجة قوة ان لا تتميز الدعوة عنها .

ومن خصائص القرآن ان الله تعالى جعل معجزة الرسول ﷺ باقيـة إلى يوم القيامة ، وذلك لنفاد دعوته إلى يوم القيامة .

وأما سائر الرسل فكانت إيمانهم تبقى قدر ما تلزم بها الحجة .. لا يوجد منهـا إلا ذكرها وبناؤها . وهذا مما أكرم الله بها نبينا ﷺ ، ثم ان له عليه السلام وراء القرآن من الآيات الباهرة إجابة الشجرة إياها لما دعاها ، وتكليم الذراع المسمومـة إياه ، وازدياد الطعام لأجله حتى أصاب منه بأس عظيم ، وخروج الماء من بين أصابعه في المخضب حتى توضأ منه ناس كثير ، وجبر الجذع وظهور صدقه في معينات كثيرة أخبر عنها وغير ذلك مما قد ذكر ودون .

وفي الواحد منها كفاية ، غير أن الله عز وجل لما جمع له من أمرين : أحدهما بعثة إلى الانس والجن عامة ، والآخر ختم النبوة به ، ظاهر له بين الحجج حتى شذت واحدة عن فريق بلغتهم أخرى ، وإن لم تنجـع واحدة نجعت الأخرى ، وان درست على الأيام واحدة بقيت أخرى ، ولله في كل حـال الحجة البالغة ، ولله الحمد على نظره ورحمته لهم كما تستحقه .

ذكر الكهانة

قال الله عز وجل : ﴿ إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، قليلاً ماتؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون ﴾ (١) .

فان قال قائل : ما الدليل على أن نبيكم لم يكن كاهناً ؟ أرأيتم لوقيل لكم : ان الكهانة كانت فاشية في العرب وتحاكمهم إلى الكهان أمراً ظاهراً وقـد علم أن الجن تقدر من الصناعات مالا يقدر عليه الإنس ، وقد وصفهم الله عز وجل بذلك ، فقال في قصة سليمان

(١) الحاقة : ٤٠ – ٤٣

عليه السلام : ﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ (١).

وقال : ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ (٢).

وجاء في الاخبار انهم كانوا يعملون له في البحر ويبنون البنايات المظيمة التي لا يبني الناس مثلها ، فلا يمكن أن تكون قوتهم على نظم الكلام كقوتهم على سائر الأعمال مع ما كان يذكره كل شاعر من كبار شعاريهم ، من ان له تابعة من الجن تلقيه وتعينه ، وذلك موجود في أشعارهم ، قد ذكروه واعترفوا به بل تبجحوا وافتخروا .

فيكون هذا القرآن من نظم الجن ومن نظم تابعة بينكم ، يعني أن يكون وحياً إليه على لسان الملك ، ويكون القتال الذي ينسبونه إلى الملائكة واقعاً من قبل الجن ، وأن يكون مجيء الشجرة لما دعاها من قبل الجن إياها ، وزجرهم إليه لها ، وأن يكون حنين الجذع صوت جني عنده ، لا صوته بالحقيقة ، وكذلك كلام الذراع ، أن تكون أخباره عن كثير من المغيبات لانباء الجن بذلك ، فيكون جميع أمره كهانة لا نبوة !

فالجواب : — وبالله التوفيق — ان هذا باطل ، والنبي ﷺ أظهر أمراً وأبين حالاً والشواهد على نبوته وصدق دعوته أكثر وأبهر من أن تسوغ هذه المعارضة لأحد في أمره.

فأما ما يختص بالابانة على انه لم يكن كاهناً فعدة أشياء منها أنه يبرأ من الكهانة ، فقال فيما قرأه على الناس حاكياً عن الله في وصف القرآن ﴿ إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين ﴾ (٣).

وقال : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ (٤).

فلو كان يأخذ من الشياطين ، ثم يسبهم ويشتمهم ويغيبهم ويكذبهم وينسب ما يغيبونه ويعدونه إلى غيرهم من غير أن يريد بذلك ستراً عليهم وصيانة لهم عن مكروه يخافه عليهم من إظهار أمرهم لما سألوه ، ولكان أقل ما يعاملونه به ان لم يضروه ان يهجروه.

---

(١) الانبياء : ٨٢ (٢) سبأ : ١٣

(٣) الحاقة : ٤٠ — ٤٣ (٤) الشعراء : ٢٢٢ — ٢٢٣

الا ترى أن واحداً من الناس إذا كان يتلقى عن أحد علماً مستفيد به في الناس ذكراً أو مالا أو جاهاً ثم ترك إلى أن ينسبه إليه ، لا لغرض سوى الترفع أن يقال : انـه يأخذ عن فلان وينسبه إلى ضده ويخالفه وصار مع ذلك إلى سبه وشتمه وتكذيبـه من غير ضرورة إليه ، أو عذر يعرف له فيه ، كان من أقل ما يعامله به إذا عرف ما يكون منه أن يقطع عنه مادته ويرفض في إرفاده عادته دون أن يتحمل لأجله المشاق والكلف في تحصيل حاجته ثم يعصمها عليه مع ما يعرفه من رفعة عنه ، وإساءة القول فيه .

وإذا كان كذلك ثم لم ينقطع عن النبي ﷺ ببراءته من الجن وتكذيبه مسترقة السمع منهم ، وذمهم إياهم وتسميتهم باقبح الاسماء وهو الشياطين ، علم ما كان يأتيه ، ولقدرت الشياطين على الاضرار به ، دل ذلك على أن العلم إنما كان يأتيه من الله تعالى على لسـان الملك ، دون ان كان شيطان يلقي إليه شيئاً ، أو يسترق لأجله سمعاً ، منها : ان نبينـا ﷺ ذكر للناس أن الكهانة قد أبطلت ورفعت ، وان الجن قـد حيل بينهم وبين خبر السماء ، فقال فيما أوحى الله إليه من قول الجن : ﴿ وإنا لمسنـا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً ، وشهباً وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابـاً رصداً ﴾ (١) .

وذكر انفيما أنزل عليه: ﴿ إنا زينا السماءالدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كلشيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ، ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ (٢) :

وقوله عز وجل: ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ (٣) .

فلو كان ما يقوله إنما يسمعه من مسترقة السمع وكان الإستراق بحالة ، والكهانـة حالها الكذب وسائر الكهان ، ويكون تابع كل كاهن لصاحبه ، انما يأتي محمد أميـاً فلان ، وانه واحد منكم ، ولأخبر الكهان بذلك الناس ليتمكنوا من كهانتهم ، كما كانوا متمكنين منها قبل .

فلما اسكتوا وبطل أمرهم وانقطع التواقع إليهم لعدم العلم الذي كان يوجد فيما مضى

---

(١) الجن : ٨ (٢) الصافات : ٦ — ١٠ (٣) الملك : ٥

عندهم ثبت ان الكهان إنما عجزوا عن الطعن في النبي ﷺ ، فلم يدعوا انه من طبقتهم ، وواحد من حملتهم ، لأنه لم يكن منهم ، وكان صادقاً في قوله : ان الجنة حجبوا عن السماء ، وبطلت الكهانة وجاءت النبوة ، ولولا ذلك لقالوا : ما ذكرنا انهم لم يقولوه وزادوا على ذلك انهم كانوا يشاركونه في مخبراته شياطينهم ، يأتونهم بمثل ما كان يأتيه به شيطانه ، لو كان منهم ، فكان يظهر بذلك أن الجن لم يحجبوا عن السماء ، وان الكهانة لم تبطل وسيبين للناس انه منهم ومثلهم .

وفي انقطاع الكهانة وبطلان امداد الكهان ما دل ان النبي ﷺ كان صادقاً في جميع ما قال ، وان العلم كان يأتيه من عند الله على لسان الملك ، ولم يكن للجن إليه سبيل . ومنها أن نبينا ﷺ قد ثبت له اعلام لا يمكن إضافتها إلى الجن ، نحو الماء ينبع من بين أصابعه في المحصب حتى توضأ منه ثمانون رجلا .

والشاء التى أكل منها سبعماية رجل وأكثر ، وبقي الطعام مع ذلك بحاله . ونحو اشتقاق القمر وغير ذلك مما لا يمكن أن يكون للجن فيه عمل .

فيثبت بهذه الاعلام صدقه ، ولم يجز معها أن يضاف إليها الكهانة أو هو قدبرأ منها، لأنه لو كان كاذباً في البراء بينها لما أيده الله تعالى بهذه المعجزات ، وفي تأييده إياه بها ، وجوب حكم للصدق والامانة له ، فصح أن الكفاية عنده مدفوعة والنبوة ثابتة وبالله التوفيق.

ومنها أن استراق السمع خيانة ونجس ، وإفشاء ما يجري في الملأ الأعلى من غير أن يأذن الله تعالى فيه خيانة ، كل ذلك فسق ومعصية ، فصح أن الشياطين الذين منهم يقع هذا يطرأ على شياطين الانس الذي تقع منهم السرقات وإفشاء الاسرار وهتك الحرمات. ومعلوم أن هؤلاء إنما يسألون أمثالهم من أسرار الناس ، ولا يسألون الصلحاء والبررة والأتقياء ولا يخالطونهم ولا يصحبونهم .

فدل ذلك على أن أمثالهم من الجن إنما يساكنون من الانس الشرار والمردة وأهل الخبث والخلاعة ، دون الاخيار وذوي الصلاح والامانة والعفة .

وقد علم أن نبينا ﷺ ، كان أوفى الناس نفساً وأحمدهم شمائل ، وأرضاهم انحاء ومذاهب ، وأصدقهم لساناً وأبينهم أمانة . كذلك كان قبل النبوة ، وكان يدعى بينهم

الأمين ، ثم ازداد فيها حمداً وفضلا ، فكان أبعد الناس من أن تؤاتيه مسترقة السمع من الجن ، أو تسالمه أو تصحبه .

فثبت من هذا الوجه أيضاً بعده عن الكهانة ، وهذا هو المعنى الذي أشار الله تعالى إليه بقوله : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ (١) . وبالله التوفيق .

ومنها أن أمره لو كان من قبل الكهانة لم يخل الجني الذي كان يأتيه من أن يكون مؤمناً أو كافراً ، فان كان كافراً استحال أن يأتيه بغرض الايمان ، وعبادة الرب ويجحد الكفر ، وقتال جميع طبقات الكفار . فان كان مؤمناً استحال أن يقول له وهو ليس بنبي نبياً ، وادعى أن الله تعالى أوحى إليك ونباك ، لان من أمر بهذا غيره ، أو رضي به كفر ! فكيف إذا ظاهره على ذلك باشياء تشبه في ظواهرها المعجزات ليحيل بها الناس صرفه نحو الحنين عند الجميع ، ليرى الناس أن ذلك حنين الجزع ، أو قوله عند الذراع : اني مسمومة ، ليتوصل القول له ذلك إلى أن يدعي الذراع كلمته .

وإذا كان كذلك ، صح ان أمره لم يكن من قبل الكهانة ، ولا علمه كان من جهة مسترقة السمع ، فإن ذلك لو كان لم يخل الجني الذي يحضره ويكلمه من أن يكون كافراً أو مؤمناً ، وقد بينا أن ذلك غير ملائم لواحدة من الحالين . فبطل أن يكون للجن إليه سبيل أصلا ، وبالله التوفيق .

ومنها ان كهانة الكهان لم يكن بينها أمر ولا نهي ولا وعظ ولا وعد ولا وعيد ، وكان الأغلب مما جاء به النبي ﷺ الدعاء الى الله تبارك وتعالى ، وبيان أحكامه والارشاد إلى عبادته والوعظ والتبصير والإنذار والتبشير ، كما لذلك كان الذي جاء به موسى وعيسى عليهما السلام ، وتبرئتهما من الكهانة ، فليقل في نبينا ﷺ قوله فيهما ، لأن الذي جاء به كان نظير الذي جاء به موسى وعيسى ، انه لا نظير كهانة الكهان .

وان كان يزعم أن موسى وعيسى كاهنان كذبتهما المعجزات التي آتياها ما لا يجوز أن يكون للجن فيه صنع بوجه من الوجوه نحو انقلاب العصا حية وانقلاب النيل دماً ثم

---

(١) الشعراء : ٢٢٢ - ٢٢٣

عودة ماء الطمس على أموال قوم فرعون كانفلاق البحر ، وظهور طرق يابسة فيها بضربة واحدة ، وحياة الميت ، وانقلاب الطين طائراً حياً ، وبرء الاكمه والأبرص ، فان هذه أمور لا تمكن إلا من الله جل ثناؤه ، فاذا ثبت بها نبوة موسى وعيسى عليهما السلام ، وكانت دعوة محمد ﷺ مشاكلة لدعوتهما ، ثبت أن أمره لم يكن من ناحية الجن كما لم يكن أمرهما من ناحيتهم والله أعلم .

ويؤكد هذا ان الكهنة ما كانت لهم دعوة مستجابة في أحوال الضرورات العارضة للناس ، وقد كان منها لنبينا ﷺ ما كان للانبياء عليهم السلام مثله . فدل ذلك على انه كان نبياً ولم يكن كاهناً وبالله التوفيق.

فصـــل

فاما قول من قال : يجوز أن يكون تابعه محمد وأولياؤه من الجن ، هم الذين قاتلوا المشركين ببدر ، دون أن يكون الله تعالى أمده بجند من السماء لأجل النبوة !

فالجواب : ان هذا لو كان هكذا لوجب أن يقاتل توابع المشركين وأولياؤهم توابع النبي ﷺ وحزبه ، وإن كانت فعلت هذا ، فهلا وجد في المسلمين من قتلى الجن مثل ما وجد في المشركين من قتلى غير الانس ، فقد كان الكافر يقع بالأرض قبلا ، ولا يرى قاتله ، وترى أبدان المشركين طعنات لا تشبه طعنات بني آدم ، ولم ير باحد من المسلمين من مثل هذا شيء ، فهذا يبين ان مدد المسلمين لم يكن إلا الملائكة .. التي لا يجوز أن تبصر الا أولياء الله بأمر الله ، وبالله التوفيق .

وأما الشجرة التي دعاها رسول الله ﷺ ، فأقبلت تجر الأرض حتى وقعت بين يديه ، لا يخلو من أن يكون فعلها والأمال بها من قبل الجن أو فعلا لله جل ثناؤه غير منضاف الى أحد سواه ، فان كان فعلا لله جل ثناؤه لا يضاف إلى أحد من خلقه منه شيء ، فهذا ما قلنا ، وإن كان من قبل الجن ، فالدلالة به على صحة نبوة نبينا ﷺ قائمة ، لأن ذلك يدخل في باب تسخير الجن له كما سخروا لسليمان عليه السلام وذلك ان من المعلوم الذي لا يلبس ان الجن لم تكن تعمل لأحد من الكهنة عملا ، وما كانت تزيد على أن يخبرها ببعض الحساب ، وما مضى من الكاتبات .

فأما ما جاوز ذلك فلا ، وما كان العمل منها لسليمان عليه السلام تسخيراً من الله عز وجل إياها له . فان كانت الجن تصحب ﷺ في وسفره وانفراده بنفسه ، واجتماعه مع اخوانه ، وحين يسلو به أو يريد أن يقضي لنفسه حاجة ، أو يقيم على أحد برهانا ودلالة حتى ان دعا الشجرة قلعتها وأحضرتها إلى غير ذلك ما اضافه الطاغون إلى الجن . فقد كانت إذاً مسخرة له وتسخيرها لأحد من الانس خلاف العادة . ولم يكن فيما مضى إلا لنبي ، فهو إذاً نبي.

وأيضاً فلو كانت جن تفعل ذلك موالاة للنبي ﷺ ، وميلا اليه بطبعها ، لعلمت جن آخرون لمخالفته مثلها منها إياها وميلا اليها بطبعها ، ألا ترى ان القتال لما وقع بينه (وبين) قريش اعانه من الموافقين من اعانه ، وأعانت قريشاً أيضاً من موافقها من أعانهافهكذا كان ينبغي أن تعمل الجن ، فإذا أعانته جن بما يكون له من المشركين أعانت المشركين جن مخالفون له وموافقون لهم مثله ، كيلا يجد إلى الإحتجاج عليهم سبيلا . ولما لم يكن ذلك ، علم ان ما كان من هذه الأمور ، فلم يكن للجن فيها عمل وبالله التوفيق .

وأيضاً فان قالوا : علمت النبي ﷺ بعمل لا يقدر الانس على مثله ، ليتوصل بذلك إلى دعوى انه نبي ، كان أقل ما يقدر عليه جن آخرون ، أن يخبروا الذين كانوا يأتونهم من الكهان بذلك فتدوم الكهانة ، ويعلم الناس من قبل الكهان ما يظهر للناس من الأمور المخالفة للعادة ، فهو من قبل الجن ، ولما لم يقدروا على ذلك ، علم انه لم يكن للجن اليه سبيل وبالله التوفيق .

وأيضاً فان الشياطين ان قدروا على قلع الشجرة التي لا يقدر الآدمي على قلعها فلايقدر على اعادتها وركزها واعلامها حتى تعود في الحال كما كانت ، فإن الآدميين قد يتعاونون على القلع أيضاً ثم لا يقدرون على أن يعيدوها راسخة ثابتة في الحال كما كانت ، والحديث الذي روى فيه دعاء النبوة واقبالها روى فيه أيضاً : انه لما قضى حاجته أمرها أن تعود فعادت إلى مكانها كما كانت لا ينلز منها شيء،فثبت ان ذلك لم يكن من قبل الجن ، وإنما كان من الله الذي لا يعجزه شيء وبالله التوفيق .

وأيضاً فان الأخبار ما دل على ان أمر الشجرة لم يكن من عمل الجن لأنه روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ان النبي ﷺ قال : (إني أمرت أن أتلو القرآن على

الجن ، فمن يذهب معي ، فسكتوا ، ثم الثانية فسكتوا ، ثم الثالثة ، فقال عبد الله : أنا أذهب معك يا رسول الله . فقال : أنت تذهب معي ! فانطلق حتى إذا جاء الحجون عند بعض الشعاب خط علي خطا ، فقال لا تجاوزه ، ثم مضى إلى الحجون ، فانحدروا عليه امثال الحجل يحدرون الحجارة باقدامهم ، يمشون يقرعون في دفوفهم ، كما تقرع النسوة في دفوفها حتى غشوة فلا أراه ، فقمت فاومأ بيده إلى أن أجلس ، فتلى القرآن ، فلم يزل صوته مرتفع ، ولصقوا بالأرض حتى ما أراهم ، فقالوا له : ما أنت نبي ، فقالوا : من يشهدلك؟ قال : هذه الشجرة ، تعالي يا شجرة ، فجاءت تجر بعروقها الحجارة لها معامع حتى عادت ، كما كانت ، فلما أقبلت إلى النبي ﷺ قال : أردت أن تأتيني ، قلت : نعم ، قال : ما كان لك ذلك ، هؤلاء الجن أتوا يستمعون القرآن ثم ولوا إلى قومهم مدبرين) [١] .

فثبت بهذه الرواية ان مجيء الشجرة بامره كان حجة له على خلق كان من الجن يحرونها لم يخف على الجن الآخرين أمرها ولم تكن بذلك حجة عليهم والله أعلم .

ذكر القرآن المجيد : وأما القرآن فانه أكرم وأمجد وأعظم قدراً وأرفع ذكراً من أن ينسب إلى الجن وضعه ، أو يتوهم لها قدرة على مثله ، بل الجن في العجز عن ذلك كالانس وأضعف وأعجز ، لأن الجن وإن كانت مشاركة للانس في البيان .

فلم يظهر لنا من اقتدارهم على نظم الكلام خطبة ،أو رسالة أو شعر أما ظهر لنا اقتدار الانس ،وليس للجن قديماً ولا حديثاً قصيدة تؤثر عنهم ،ولا كتاب يضاف اليهم ويعرف بهم ، فليس إذا كان لهم قوة على أعمال شاقة عنيفة لا تقوى الانس على مثلها ، وجب أن يكون حالهم في البيان مشاكلة كذلك ، فان في الانس من تشتد قوته وتستحكم جريرته حتى يقدر من الأعمال وحمل الأثقال على ما لا يقدر عليه غيره على مثله وما يقرب منه ، ثم يكون أبعد الناس من البيان ، وأعجزهم عن نظم الكلام .

وقد أخبر الله عز وجل عن الأعمال التي كانت للشياطين تعملها لسليمان صلوات الله عليه ، ثم لم يخبر عنه انه استكتب منهم أحداً واستحفظه . فلو كان عندها من فضل

---

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

البيان ما كان عندها من فضل الإختبار على شدائد الأعمال ، لكان عليه السلام لا يبخس نفسه حظاً من بلاغتها ، كما لم يجنبها إياه من حلاوتها .

وفي وقوع السلف من نقلة الأخبار ومبتغى الآثار عنها في هذا البـاب دليل على انه لا حال لها فيه ، فوجب البشر ويقتضي الإشارة والشهر والله أعلم .

وأما ما حكي عن شعر العرب من ادعائهم ان نوابغهم يعينونهم على اشعارهم ، فليس ذلك على معنى انهم يلقنونهم الشعر ، إذ لو كان كذلك ، لكان أولئك هم الشعراء،وهؤلاء وداة لهم ، مخبرون عنهم ، وإنما هو على معنى انهم يذكرونه ، معنى لا يحصرهم من تشبيه أو مدح أو ذم أو شيء مد اعتاض عليهم . فانه إذا جاز عليها أن تذكر وقد يمكن أن تقع مثل هذه المعونة من الإنسان غير الشاعر للشاعر ، فان وقعت من حتى غير شاعر لا بشأن شاعر لم يبعد وبالله التوفيق .

ثم نقول: لو كان القرآن من نظم الجن لم يخل الذي نظمه منهم من أن يكون حكيماً أو غير حكيم ، فإن كان حكيما ، فالحكم لا يكذب على الله عز وجل ، ولا يصنع كتابا ، ثم يقول هذا كتاب الله ، ولا يقدر الانس والاجن على مثله ، ولا يأمر من ليس بنبي أن يتنبأ ولا يعينه بما يخيل إلى الناس انه صادق ليقبلوا منه ويأخذوا عنه ، فان لم يكن حكيما فغير الحكيم لا تجري أفعاله وأقواله ، لا على الحكمة ، والقرآن مبني على أبلغ الحكمة ، فيثبت انه لا يجوز ان يكون من وضع من ليس بحكيم ، وإذا بطل الوجهان ، وكانت اضافة القرآن إلى الجن لا ينفك منها ، صح ان هذه الإضافة باطلة ، لأن مما لا ينفك عن الباطل باطل .

وأيضاً فان تكذيب النبي ﷺ في ان القرآن كلام الله أنزله عليه على لسان ملك ، وادعى انه كاهن ، فان القرآن من وضع الجن لا فائدة فيه ، لمن يكفر به ، وإن تكذيبه من هذا الوجه يؤدي إلى تصديقه ، وإذا وجب صدقه لم يجز تكذيبه فيكون التكذيب عائداً على نفسه بالابطال .

وبيان ذلك : ان نبينا ﷺ ، ان كان أخذ القرآن عن جني فلم يكن يخلو غيره من الجن من أن يقدروا على مثله أولا يقدروا ، فان قدروا فقد كان ينبغي لكفارهم أن يعينوا

اخوانهم من الانس بالمعارضة بعد أن يجدوا ، وقيل : ﴿ لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾[1] .

وإذا لم يفعلوا وأسلموا اخوانهم للقتل والسبي ، دل ذلك على انهم عاجزون عن معارضة صاحبهم ، وإذا وجب ذلك ، صح ان صاحبهم في العجز مثلهم ، وانه لم يأت به من عند نفسه ، فعاد الأمر إلى انه جني أمده الله بمعجزة فشهد على احقاق رجل من الانس مما يدعيه من رسالة ربه ، فيقبل ذلك منه ويعترف بالصدق له ، ولا فرق بين أن يرسل الله رسولا ، ويقرن برسالته حجة يتولى اقامتها بنفسه ، وهي أن يقيض معجزة ليصدقه في ان تصديقه واحد في الحالين.

فان كان كما قالوا : فالجن الذي أخذ عنه النبي ﷺ القرآن بزعمهم ، إذا صاحب معجزة ! وقد صدق النبي ﷺ في غير موضع من القرآن وشهد له بالنبوة والرسالة ، فوجب القبول منه وتصديقه ، فقد بان تكذيبه وإجراؤه في اعداد الكهان عاد موجباً لتصديقه ، ثم الاعتراف له بكل حال .

فان قيل : ما أنكرتم أن توابع الكفار من الجن كانوا قادرين على معارضته الا انهم لم يفعلوا الآن الحرب ، كانت بين النبي ﷺ وبين كفار الانس . وأما الجن فكانوا منه في راحة .

قيل : فالجني الذي وضع القرآن بزعمكم للنبي ﷺ ، لماذا وضعه له ؟ أكان غرضه فيه ، ولم يكن يرجع اليه من يوجه أمره يقع ، ولا فائدة !

فان قال : هذا وإن كان هكذا ، فقد كان يجوز أن يحمله موالاته إياه واختصاصه به على أن يريد تمكينه واعلاء أمره ، فيكيد له اضداده بمثل هذه المكيدة !

قيل : فهلا حمل توابع الكفار مولاتهم إياهم ، واختصاص كل واحد منهم بواحد من الكفار على أن يريدوا نصرهم والدفع عنهم واعانتهم مما كان نازلا بهم بمعارضة يكيدون بها صاحبهم الذي كاد الكفار بالقرآن لأجل محمد ﷺ بعد ان كانوا قادرين عليها بزعمك ، وما الفضل ؟

ذكر الكلام في شهب القذف : وهي من جملة آيات السماء الدالة على نبوة نبينا ﷺ

---

(١) الاسراء : ٨٨ .

الداخلة في قوله عز وجل : ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ [١] .

قال قائل: ان الأصل الذي يذكرونه لبطلان الكهانة ليس بذلك البين لأنكم تزعمون ان الجن كانت تتسمع لخبر السماء ، فلما بعث نبيكم حرصت السماء ورصدت الشياطين فمن وجد منهم مسترقاً للسمع رمي نجم فاحرقته ، لئلا تنزل به الأرض فيلقيه إلى الناس، فيختلط على النبي أمره ، ويرتاب الناس خبره ، وان سبب انقضاض الكواكب هذادون غيره ولا يجوز أن يكون ما يذهبون اليه هذا حقاً ، لأن انقضاض الكواكب مذكور في اشعار شعراء الجاهلية الذين سبقوا الاسلام .

وقد ذكرته الفلاسفة في كتبهم وزعم الزاعم منهم ان الارض إذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس ، فاذا بلغ النار التي دون الفلك احترق بها مكان اللهب الذي يرى غليان ذلك البخار ، فان كانت هناك أجزاء من البخار مجتمعة واحترق شيئاً فشيئاً أري شهل ذلك اللهب متطاولا ، وإن اخترقت دفعة واحدة رئيت كشكل القمر .

وهذا يبين ان انقضاض هذه الكواكب ليس لاجل نبوة نبيكم ، ولو كان لأجله لوجب ان ينقطع بموته ، إذ ليس هناك اليوم ما يخشى أن يسابقوا اليه النبي فيسبقونه .

وقال قائل : ان كانت السماء خرست في عهد النبي ﷺ ، أفكانت قبل ذلك ضائعة والشياطين للملائكة في علم ما يجري فيها مشاركة ؟ فان كان ذلك جائزاً فهلا سكنت السماء كما سكنتها الملائكة ؟ وماذا أثر اخراج ابليس منها ؟ فانكم تزعمون ان الله عز وجل قال له : ﴿ فاخرج منها فانك رجيم ﴾ [٢] أفكانوا بعد هذا القول متمكنين من السماء يقفون على اخبارهم ، ويعلمون ما يجري فيها .

وقال قائل : كيف تقع الثقة بما يصفون من هذا الأمر العظيم ، وقد عقل أن الجن الطف حواساً ، وأصفى أذهاناً وأثقب إفهاماً ، وأقوى على كثير من الأمور من الإنس ؟ فكيف يجوز أن يشاهدوا واحداً أو مائة من جنسهم يسترقون السمع ، فيقدمون السمع، فيقدمون بالنار ويهلكون ، ثم هم على ذلك يعودون لمثل صنعهم ، وليس في العادات أن يستنصر عاقل بأمر فيعلمه سبباً للهلاك يقيناً ، فيتعرض له ، فكيف صارت الجن تعقل هذا وتختاره لأنفسها ؟

---

(١) آل عمران : ١٩١ (٢) الحجر : ٣٤

فالجواب : ان أصل الكهانة ما ذكرنا ، ولم يكن الكهان يدعون لأنفسهم سبباً غير اختيار الجن إياهم ، مما لا يجبرون به غيرهم ، وقد عقل أن الجن لا تصل إلى معرفة ما لا يكون في الأرض ولا في الحويل يكون في السماء إلا بان ، يخبرهم عنه مخبر ، فاما أن يهبط عليهم من السماء من يحدثهم ، واما أن يرتقوا هم إلى السماء فيستمعوا ولما لم يكن يهبط عليهم من السماء أحد ، دل ذلك على أنهم كانوا ينسبون بالارتقاء إليها إلى معرفة ما يجري فيها ، ولا يجوز أن يدخلوها ويتمكنوا فيها ، لأنها مكان غيرهم فثبت أنهم لم يكونوا يصلون إلى أكثر من استراق كما وصفه الله تعالى .

ثم ان الذي ذكره الله عز وجل في كتابه من أمر الشهب ، فجملة القول فيه : انه ليس فيما يتلوه من كتاب ربنا عز وجل : ان الشياطين ترمي بالكواكب أو بالنجوم وإنما فيه‌ما يذكره ، وهو انه عز وجل قال حكاية عن الجن : ﴿ وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ﴾[1] . فأخبرت الجن انه زيد في حراس السماء حتى امتلأت منها ومنهم .

وفي ذلك دليل على انه كان فيها قبل ذلك حراس وشهب معدة معهم . والشهاب في لسان العرب : النار المتوقدة ، وقال عز وجل : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾[2] ويجوز أن تكون المصابيح هي الشهب المعدة مع حراس ، دون أن يكون المراد بها كواكب السماء لأن المصباح هو السراج ، فلو كانت الكواكب مصابيح لم يكن لتخصيص الشمس بتسميتها سراجاً معنى .

فثبت أن المراد بالمصابيح الشهب المعدة للقذف ، وان تزيين السماء بها هو تزيين ما يلي سكانها منها لا تزيين ما يلينا منها . وقال عز وجل : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾[3]. فمن قرأ بالإضافة والجر فوجهه : ان السماء زينت بمثل زينة الكواكب. وزينة الكواكب النور والإشراق . فكذلك زينت في السماء لأجل الحراسة شعل منيرة مشوقة ، كأنها في رأي العين كواكب حساً وكثرة . ولو كان المعنى غير هذا لأشبه أن يقال : ان السماء الدنيا بالكواكب ، فلما قيل بزينة الكواكب ، دل ذلك على أنها زينت بزينتها لأنها أنفسها ، وزينتها كما ذكرنا والله أعلم .

---

(١) الجن : ٨ (٢) الملك : ٥ (٣) الصافات : ٦

ومن قرأ ﴿ بزينة الكواكب ﴾ ، والتنوين والجر ، جعل الكواكب تفسيراً للزينة ، وذلك ما يدفع ما أوجبته القراءة الأولى ، لأن كل نقطة بيضاء هي عند العرب كوكبة .

وكذلك من قرأ ﴿ بزينة ﴾ ، فنون الكواكب فنصب ، واراد بزينة جعلنا الكواكب لأنها تصلح أن يكون المراد بالكواكب في هاتين القراءتين الشعل التي أيدت بها الحراس ، بل ذلك هو الذي لا ينبغي غيره ، لأنه لا يجوز أن يقرأ الآية الواحدة قراءتين متضادتين، فيكون المراد باحداهما خلاف المراد بالأخرى .

وقد بينا أن قرأ بالاضافة والجر فلا تخرج قراءته إلا على أن يراد بها زينا السماء بالزينة التي هي الكواكب . فلم يجز أن يكون المراد بالتنوين والجر ، والتنوين والنصب ، زينا السماء بالكواكب أنفسها ، لأن زينة الكواكب غير الكواكب كما ان زينة كل مزين غيره ، ويدل على هذا أن الله عز وجل ذكر السماء ذكراً مطلقاً والكواكب التي يراد بها النجوم هي في الأفلاك خاصة ، وليست مثبوتة في السماء كلها ، فهذا يدل على أن المراد بها الشعل التي هي أشباه الكواكب ، وليست بالنجوم .

وأما قوله عز وجل : ﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملإ الاعلى ﴾[(١)] ثم قال : ﴿ إلا من خطف الخطفة فأتبعته شهاب ثاقب ﴾[(٢)] . فابان ان القذف إنما هو الشهاب الذي هو النار لا يكون من كواكب الأفلاك ، ولم يذكر الله عز وجل في موضع من كتابه ان القذف لا يكون إلا بالشهاب وهو النار ، فكان ما ذكرنا مفسراً في عامة الآيات موافقاً لما أجمل في قوله عز وجل : ﴿ وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ﴾[(٣)] والله أعلم .

ثم ان السلف اختلفوا في أن قذف الشياطين كان مبعث النبي ﷺ ، أو كان ذلك أمراً حدث لمبعثه ، فروى الزهري عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : (بينا النبي ﷺ جالساً في نفر من أصحابه إذ رمي بنجم فاستنار ، فقال : ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية ؟ قالوا : كنا نقول : يولد عظيم أو يموت عظيم ! قال : فإنها لا ترمي لموت أحد ولا لاحيائه ، ولكن ربنا تبارك اسمه إذا

---

(١) الصافات : ٧ (٢) الصافات : ١٠ (٣) الجن : ٨

قضي الأمر في السماء سحب العرش ثم سبح أهل السماء وسبح كل سماء حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء ، ويسبحوا أهل السماء حملة العرش ، فإذا قال ربكم فيخبروهم ويخبر به أهل السماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء ، ويختطف الجن فيرمون فما جاءوا به فهو حق ، ولكنهم يزيدون فيه) [1] .

قال : قلت للزهري أكان يرمي في الجاهلية ؟ قال : نعم ! قلت : أفرأيت قوله عز وجل : ﴿ وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ [2]. قال : غلظت وشدد أمرها حتى بعث النبي ﷺ .

وقال آخرون : ان ذلك حدث بعد مبعث النبي ﷺ فروى عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان الجن يصعدون إلى السماء فيستمعون الوحي ، فاذا سمعوا الكلمة زادوا فيها سبعاً ، فاما الكلمة فتكون حقاً ، واما ما زادوا فيكون باطلا ، فلما بعث النبي ﷺ منعوا مقاعدهم ، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك. فقال لهم إبليس : ما هذا إلا لأمر حدث في الأرض ، فبعث جنوده فوجد رسول الله ﷺ قائماً يصلي ، فأتوه فأخبروه ، فقال : (هذا الحدث الذي حدث في الأرض) .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لم تكن قبيلة من الجن إلا ولها مقاعد يستمعون منها ، فكان إذا نزل الوحي سمعت الملائكة صوتاً كصوت الحديد ألقتها على الصفا فخروا سجداً فلم يرفعوا رؤوسهم ، فإذا نزل قال بعضهم : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وإن كان مما يكون في الأرض يكلموا به ، قال :أيكون كذا وكذا ، وتسمعه الشياطين فيقولون به على أوليائهم قد جدوا بالنجوم ، فكان أول من علم بها ثقيف ، فكان ذو الغنم منهم ينطلق إلى غنمه فيذبح كل يوم شاة ، وذو الابل لينحر كل يوم جزور ، فاشرع ذلك في أموالهم ، فقال بعضهم لبعض : لا تفعلوا ، فان كانت النجوم التي تهتدون بها ، فهو من أمر الساعة ، فان كانت النجوم لا تعرف، فهو من أمر حدث، فنظر ، فاذا نجوم لا تعرف ، فكفوا .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : لما كان اليوم الذي نبي فيه رسول الله ﷺ ، منعت الشياطين ورموا بالشهب .

---

(١) ورد في سنن الترمذى « كتاب التفسير » باب ٣٥ ، حديث رقم ٣٢٢٤ . (٢) الجن : ٩

وعن عبد الملك بن سابور قال : لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما ، فلما بعث محمد ﷺ حرست السماء ورميت الشياطين بالشهب ، ومنعت من الدنو من السماء .

وعن أبي كعب رضي الله عنه ، قال : لم يرم نجم منذ رفع عيسى حتى نبى رسول الله ﷺ فرمي بها ، فرأت قريش أمراً لم تكن تراه ، فجعلوا يسيبون أنعامهم ويعتقون برقابهم ، يظنون أنه الفناء ، فبلغ ذلك من فعلهم أهل الطائف ، ففعلت ثقيف من ذلك ، فبلغ عبد قابيل بن عمر ، فأصغت ثقيف فقال : فلم فعلتم ما أرى ؟ قالوا : رمي بالنجوم فرأيناها تتهافت من السماء ، قال : ان إفادة المال بعد ذهابه شديد فلا تعجلوا وانظروا ، فان تكن نجوم تعرف فهو عيد فيأمن الناس ، وان كانت نجوماً لا تعرف ، فهو أمر حدث ، فنظروا فإذا هي لا تعرف ، فاخبروه ، فقال : في الامر مهلة ، فهذا ظهور نبي ، فما مكثوا إلا يسيراً ، حتى قدم أبو سفيان على أقواله فجاءه عبد بابل فذاكره أمرالنجوم ، فقال أبو سفيان : ظهر محمد بن عبد الله ، يدعي انه نبي مرسل . قال عبد بابل ، فعند ذلك رمي بها .

وعن نافع بن جبير ، قال : كانت الشياطين في الفترة ، تستمع فلا ترمى ، فلما بعث رسول الله ﷺ رميت بالشهب .

فهذان القولان من السلف في الظاهر مختلفان ، وقد يحتملان التوقيف ، فقال : ان الذين قالوا ان الشياطين لم تكن ترمى بالنجوم قبل مبعث النبي ﷺ ، ثم رميت ، أي لم تكن ترمى رمياً من جانب ولا ترمى من جانب .

ولعل الاشارة بقوله عز وجل : ﴿ ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب ﴾ [1] إلى هذا المعنى ، وهو انهم كانوا لا يقذفون إلا من بعض الجوانب ، فصاروا يقذفون من كل جانب ، وكانوا لا يرمون إلا في بعض الأوقات ، فصاروا يرمون واصباً ، وإنما كانوا من قبل كالمنجسة من الانس يبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره ، ويسلم واحد ولا يسلم غيره ، بل يقيض عليه فيعاقب وينكل به ، فلما بعث النبي ﷺ شدد عليهم ، وزيد في حفظ السماء ، واعدت لهم شهب لم تكن من قبل ليدحضوا عن جميع

---

(١) الصافات : ٩ .

جوانب السماء ولا يقعدوا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها ، فصاروا لا يقدرون على سماع شيء مما يجري فيها ، الا ان يختطف أحد منهم بخفة حركته خطفة فيتبعه شهاب ثاقب،قبل أن ينزل إلى الأرض فيلقها إلى إخوانه فتحرقه فيطلب من فلك الكهانة وخلصت النبوة والرسالة والله أعلم .

ومعنى ما يجري في هذا الأخبار من أسماء النجوم ورميها إلى ما هو في رأي الغير كالنجم لأن ذلك الذي فيضيء لونه لون النجوم ، وإلا فليس بنجم على الحقيقة ، لأن النجوم لا تكون في جميع السماء ، وإنما تكون في الأفلاك .

وقد أخبر الله عز وجل أن شهب القذف قد ملأت السماء فهذا يدل على أنها ليست بنجوم على الحقيقة ، ويدل على هذا أيضاً أن الذي يخر لا يكون كوكباً كالكواكب ، ولكنه لا يظهر إلا في حال الانخرار .

فيدل ذلك على انه شعلة يرمى بها من السماء إلى جهة الأرض ، فاذا فارقت حدالسماء هاوية ظهرت ، وإذا اتصلت بالرمي فاحرقته جمدت ، ولو كان ذلك كوكبا بالحقيقة لكان مرتباً في مكانه قبل القذف ، ويعاد إلى مكانه بعد احراق من يرمي ، وثبت في موضعه . وأيضاً فان انكدار النجوم وانتشار الكواكب في مواعيد يوم القيامة ، فلا يسبقه كما لا يسبقه تكوين الشمس ولا طي السماء وبالله التوفيق.

ومعنى ما قيل من أن السماء لم تكن تحرس في قبل هذه الفترة ، أي لم تكن تحرس الحراسة الشديدة كما تكون في زمن النبوة إذا بعث نبي وزيد في الحراسة ، وأكثر من القذف كان ذلك انه لبعث ذلك الشيء، فتكون الكهانة الفاشة قبل بعثه منقطعة ذاهبة كمبعثه والله أعلم .

وقد تكون الزيادة في الحرس والشهب عند مبعث النبي ﷺ وجه آخر ، وهوان معجزته الناشئة الباقية كانت القرآن ، والقرآن من خبر السماء ، فلو لم يحرس السماء حتى لا تصل الشياطين اليها ولا سمع ما يجري فيها أصلا لادى ذلك إلى اختلاف أمرالنبوة ولم يقع القرآن من قبل النبي ﷺ موقع المعجزة . لأن الشياطين كانت تسمع القرآن فينزل به إلى الكهان فيقرأه الكهان على الناس ، كما يقرأه النبي ﷺ ويزول حكم الحجة ، كما تسمع منه لانه يصير مشاركاً فيه من ليس بنبي ، فكان يقرن حجته

بالقرآن واعجازه في حجب الشياطين عن السماء لئلا يسمع أحد منهم مـــا يتلى فيها من القرآن ، فيسبق به الملك إلى النزول ، ويبلغ الكاهن قبل أن يبلغ النبي ﷺ ،وقد كان ذلك بحمد الله ومنه قامت المعجزة ولزمت بها الحجة وبالله التوفيق .

وفي هذه الجملة التي ذكرتها ما قطع عنها معارضة من معارضنا بان الأوائل من الشعراء وغيرهم ، ذكروا انقضاض الكواكب ، وان ذلك يدل على وجود هذا الأمر قبل البعث ، وأعياناً عن تكليف الجواب عنها بغير ما بينا والله أعلم .

وأما قول بعض الأوائل ان هذه الشهب سببها الخرة ، ترتفع من الارض ، فإذا بلغت النار التي دون الفلك احترقت فليس بشيء يلزم الاعتراف به ، لأن الذي قاله لم يقله الاعلى أغلب ظنه ، وتحسب ما وقع عندنا نظر فيه واجب الوقوف على وجه ان كان له بعد ان كان لا يعرف من السماء ما يعرفه رسل الله صلوات الله عليهم يجهله بهم وتكذيبه لهم ،وكفره بخالقه ورازقه الذي يتقلب ليله ونهاره في نعمه ، ولا غنى به في حال من الأحوال عنه .

وليس يجوز لنا أن ندع خبر النبي ﷺ الذي قامت الدلائل على صدقه عن خالق الشهب كظن ظنان ولا توهم متوهم .

وأيضاً فان هذه الأبخرة تتصـــاعد من جميع الأرض إذا الشمس تنبسط على جميعها ، فكان ينبغي إذا وصلت إلى النار التي قالها هذا القائل وأحرقت بها ان ترى ذلك كهيئة المطبق العالي ما بين الأفق ، لأنها لا تنأى عن وجـه الأرض النـائي الذي يصعد منه في المنظر العظيم ، ويدق الجليل الجسيم كالكواكب ، بل كان مرئي منه الشيء العظيم المبشر الذي كان لا يخفى انه لو دنا من وجه الأرض أو قريباً منه ، لأن ما يرتفع من وجه الأرض من حين الضحى فيبلغ ما يبلغ ، اما في أوائل الليل أو في أوسطه وآخره .

فبين ان مسافته في البعد لا تنتهي إلى أن يرى المرتفع منه عن أكثر الأرض ،والمنتشر المنبسط بعد ذلك في الهواء يحط محطـــاً ، أو جبل فيصير بحراً ، وكان ينبغي أن يرى ذلك من كل وجه لا يرى منه في جانب ما قيد سهم أو قيد قوس ، فان طـال حداً فقدر رمـــح .

وأيضاً فان العيان يقضي بان ذلك قذف ومرمي لان ما يظهر ذلك في السماء ، فهو في صورة ما يشاهد من القذافات فيشعل فيه دفعة واحدة ، ولكنه في المشاهدة كشيء يبدو

أو يمر مراً طويلا أو قصيراً ثم يقف فهو أشبه بما يرى من قذافات الأرض ، فكيف يجوز أن يترك العيان ويجحد بالاوهام والظنون .

وأيضاً فان الابخرة التي تتصاعد عن وجه الارض ، أين كانت انما اكتسبت اليبس من قبل الشمس ، فينبغي إذا انقطعت مجاورة الشمس عنها بمجيء الليل وحالت الارض بينها أن تعود إلى حالتها الاولى ، وترطب برطوبة الهواء ، ثم تستحيل اليه ولا تبلغ النار التي يقولونها وهي حارة يابسة ، وإن كان البخار الرطب يبلغ من تأثير الشمس فيه ان تجعله مهيأة للاحتراق ولتؤثر هذا الاثر في الهواء نفسه ، فيخترق بالنار المجاورة له بزعمه ، أو لتؤثر تلك النار نفسها فيما يجاورها من الهواء وتحرقه ، في فساد ذلك فساد ما قاله هـــذا القائل والله أعلم.

ويقال له : أرأيت البخار الحار اليابس إذا احترق بالنار يصير ناراً فلا يمكنه أن يقول انه يصير رماداً ، إلا ان تلك الابخرة ليست أجزاء من التراب ، وإنما هي من قبل الانداء المركبة في أشياء الارض ، ولا أن يقول انه يصير شيئاً ما يشير اليه ، فانماينبغي أن يقول: انها صارت في طبيعة النار المحدث بها ، فصارت ناراً ، وانقلابها نار لا يوجب ظهورهـــا لابصارنا ، لان تلك النـــار ليست بمرئية لنا ، فكيف يرى ما يتصل به ويتحد معها . ومعلوم ان تلك ينبغي أن تكون أعظم وأبسط وأقوى من هذه أضعافاً كثيرة ، فكيف صار هذا الجزء اليسير الذي انقلب ناراً ترى ، والعظيم والكبير الذي انقلب هذااليه واتحد معه لا شيء ؟

فان قيل : انه يلزمكم من هذا بل ما ألزمتم غيركم لانه يقال لكم ،والجن الذي ترمي تحرق ماذا يصير، فلا يمكنكم أن تقولوا : انه يصير رماداً ، وإن قلتم تصير ناراً ، فكيف صار هو وما قذف به النار يرى ؟ والنار العظيمة التي من فوق لا ترى ؟

فالجواب : ان الله عز وجل أخبر انه ﴿ خلق الجان من مارج من نار ﴾ (١) . فقد يجوز إذا ورد عليها نار أقوى منها أن تأكلها وتبطلها ، فأما ان هذا يرى ، وتلك النـــار التي يصفونها ان سلمت لهم لا ترى ، فلا يلزمنـــا منه ما يلزمهم ، لان هذا عندنا من اعلام النبوة ، واعلام النبوة كلها ناقضة للعادات ، ظاهرة للادراكات ، خـــارجة من حكم المغيبات ، والله أعلم .

---

(١) الرحمن : ١٥ .

فصـــل

وأما قول من قال : ان كان هذا القذف لاجل النبوة ، فلم دام بعد وفـاة النبي ﷺ؟

فجوابه من وجهين :

احدهما دام لدوام النبوة ، فان النبي ﷺ اخبر ببطلان الكهانة، وقال: (ليس منها من يكهن) فلو لم تحرس السماء بقدرته لعادت الجن إلى سمعها ولعادت الكهانة ولايجوز أن تعود بعد ما أخبر النبي ﷺ ببطلانها ، ولا قطع الحراسة عن السماء إذا وقع لاجل النبوة فعادت الكهانة دخلت الشبهة على ضعفاء المسلمين ، ولم يؤمن ان الكهانة إذا عادت لتباهي النبوة ، فانها إنما كانت ارتفعت لاجلها ، فلولا النبوة زالت لما عادت الكهانة ، فصح ان الحكمة تقتضي دوام الحراسة في حياة النبي ﷺ وبعد أن يتوفاه الله تعالى إلى كرامته .

والوجه الآخر : ان السماء تحرس بعد وفاته لاقصاء الشياطين عن مشاهدة الملائكة المكرمين سماع كلامهم اذلالاً وإهانة ، وان كانت لا تحرس احتياطاً لما يوحى ، إذ كان الوحي قد انقطع ، والله أعلم .

فصـــل

وأما قول من قـــال : ان كانت السماء حرست في عهد النبي ﷺ ، أفكانت ضائعة من قبل ؟

فجوابه : انها لم تكن ضائعة بل كانت محروسة ، لكن غلظ أمرها وشددت حراستها بمبعث النبي ﷺ ، وعلى انها لو لم تكن محروسة ، ولا الشياطين عنها بالقهر ممنوعة لكان في بيعهم وزجرهم عن الصعود والسمع بالنهي كفاية . وقال الله عز وجل لابليس: ﴿ فاخرج منها فانك رجيم ﴾ (١) وقال : ﴿ فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فـاخرج إنك من الصاغرين ﴾ (٢) .

فمن كان من ذريته أو من جده أو من طبقته فهو مثله ، وله من الرجم والزجر ماله،

---

(١) الحجر : ٣٤ (٢) الاعراف : ١٣

فإن أغفلوا أو بعضهم النهى، فليس ذلك يلزم ربنا جل ثناؤه بصنعها ولا اهمالها، فما أكثر ما شرع للانس وامر ونهى وأباح وحظر ورغب وحدد ونزه وندب ووعد وأوعد، فضلوا عن شرائعه، وتركوا الطاعة في نواهيه وأوامره، ثم لم يعالجهم بالعقوبة، ولم يلجئهم إلى فعل ما يرضيه عنهم ضرورة، ولم يوجب ذلك اضافة التصنيع والاهمال اليه عن اسمه، فلذلك شأن السماء وما جرى فيها، والله أعلم.

فصـــل

وأما قول من قال: أن الجن اصفى اذهانا واثقب افهاما، فكيف يعلم انها ترصـــد بالشهب، وتعاين من يحترق من المستمعين منهم، ثم يعود فيجلس تلك المجالس، ويتعرض للاحتراق؟

فجوابه: ان الله عز وجل إذا كان قد قضى على طائفة منها الحرق، لطغيانها وضلالها قيض لها من الدواعي المطمعة في درك المرام المغفلة عن الاختيار ما يقرب عليها بعد الطلب، ويحول بينها وبين سبيل المهرب، ويوردها مواضع حتوفها، فينزل بها قدر الله على رغم أنوفها وبالله التوفيق.

وقد ذهب بعض المتكلفين إلى ان نصب الحرس واعداده الشهب خارق في وقت النبي ﷺ، وان ما ينسب إلى الاوائل من وضع الكتب في تأويل الشهب فغير موثوق به. فقد جرب المترجمون كثيراً من كلامهم، ونسبت اليهم كتب لم يضعوها، وأشياء لم يقولها، وأما الاشعار فلم يثبت عن الجاهلين فيها شيء من القصائد التي فيها ذكرها، بعضها من نسبت اليه، والامر في ذلك أبين، وبعضها شعر من المخضرمين الذين جمعوا بين الجاهلية والاسلام ولا يخالف القرآن بوجه من الوجوه، وخصوصاً بخبر لا يعرف اصله ولا يعتمـــد نقله، وبالله التوفيق.

ذكر فصول في هبوط الملائكة بالوحي على الانبياء صلوات الله عليهم:

قال قائلون من الطاعنين في النبوءات: ان الاجرام العلوية لا يمكن ولا يجوز أن تنزل إلى الارض، والاجرام السفلية لا يمكن ولا يجوز أن تعلو إلى السماء، كالنـــار التي إذا

تحركت لم يمكن أن تتحرك إلا نحو العلو ، والمـــاء والتراب اللذين إذا تحركا لم يتحركا إلا نحو السفل !

فالجواب : ان الملائكة اجســـام فلا ينكر حركتها في الجهـــات ، لان ما جازت عليه الحركة نحو جهة ، جازت عليه الحركة من كل جهة .

فان قيل ان الملائكة أرواح مفردة ، والأرواح جواهر ، ولا ينكر ذلك احد منكم ، وليس الا جواهر مؤلفة **أو يقال لهم** : ان كان الجـــرم العلوي لا ينزل بطبعه فانه ينزل بالعسير كالجرم السفلي الذي اثبت لم يفك بطبعه ، فقد نقلوا بالقسر كلامهم ، والحجر يرمي إلى فوق ، فلا يخلو من ان يعلو أو يبلغ من العلو ما يبلغ ثم ينزل ، فما انكرت ان يكون الملك ينزل بالقسر الذي يلحقه من الباري جل ثناؤه ، وليكون منه في الأرض ما يريد ، ثم يرده إلى مكانه.

ويقال لهم : ان داعيبكم متفقون على ان النفس عالما من فوق ، وقلتم مع هذا ان في كل بدن من ابدان الناس نفساً تجاوره مدة ثم تفارقه ، وفي هذا انالة النزول على النفس لمجاورة البدن ، فلم جاز ان ينزل الملك ليساكن الناس وقتاً ثم يرجع إلى مكانه !

ويقال لهم : إذا كانت الملائكة ارواحاً ، فهل يخلو حي من روح تجاوره مدة من المدد ثم تفارقه ؟ فاذا كان وجود الروح في الأرض مستمكناً على هذا الوجه ، فما الذي أحال هبوط الأرواح أو الروحانيين إلى الأرض من غير أن يداخل الأبدان ويسكنهـــا ، لولا التسرع إلى القضاء بما يدعو اليه الهوى .

فصـــل

قالوا : ان كان ملك يهبط إلى الارض على انسان فيكلمه من حيث يراه ، فكيف لا يراه ناس ان كانوا حوله إذا كانوا في قوة البصر مثله ؟

فالجواب : ان الله تعالى يخصه بادراك الملك الذي هو من المدركات بالأبصار في الجملة ، ويعجز غيره عن إدراكه كما قد يخص واحداً بادراك بعض المعقولات ، ويعجز غيره عن إدراكه . وقد زعمتم ان فيثاغورس كان يسمع أصوات الافلاك والكواكب إذا تحركت وما سمع ان احداً سواه سمعها ، الا ما يروى عن نبينا ﷺ من قوله :

(أطت السماء وحق لها أن تئط)[1] فــاذا اخرتم ان تكون الافلاك والكواكب أصوات عند حركاتها مسموعة ، ثم يختص واحد من بين الاولين والآخرين بسماعها ، فلم لا أجزتم ان يخص الله تعالى أنبياءه بادراك الملائكة إذا نزلوا عليهم دون حاضري مجالسهم من الناس تكريماً لهم وتمييزاً عن غيرهم .

فصــــل

قالوا : زعمتم أن الملك كان ينزل على نبيكم في صورة إنسان ، أفكان يكون في تلك الحال ملكاً أو له لساناً ؟ فان قلتم كان يكون إنساناً فالملك إذا لم يهبط على أحد قــط .

فالجواب : انه يكون ملكا لأن التغيير كان يلحق ظاهره دون باطنــــه ، وليس في هذا ما يوجب دخول الشبهه على الناس في تميز بعضهم بعضاً لأن الملائكة لا تخالط الناس ولا يماشوهم في الأسواق ، ولا يجالسونهم في بيوتهم ، ولا يصافونهم في مساجدهم، فوقوع العلم لهم بذلك في الجملة تزيح الشك من صدورهم فيمن يرونه ، فلا يظنون انـــه ملك في صورة بشر والله اعلم .

فصــــل

قالوا : ان كان الملك ينزل على النبي ﷺ في صورة إنسان ، أفكان هو الذي ينقلب في صورة البشر ؟ **قيل** : كلا ، بل الله عز وجل كان يغير صورته، لا يقدر على ذلك أحد سواه كما لا يقدر على خلق الانسان من التراب ، ثم إعادته تراباً . فأما هو جل ثناؤه فلا يعجزه شيء وهو على ما يشاء قدير .

فصــــل

قالوا : وكيف كان يعلم الذي ينزل عليه الملك ان الذي يراه ملك ، وليس بانســان؟

---

(١) ورد في سنن ابن ماجه « كتاب الزهد » باب ١٩ ، حديث رقم ٤١٩٠ .
وفي سنن الترمذي « كتاب الزهد » باب ٩ ، والاطيط صوت الاقتاب ، واطيط الابل اصواتها وحنينها ، والمعنى ان الارض اطت لكثرة ما عليها من الملائكة .

قيل : يجوز أن يعلم النبي بها انه ملك وليس بانسان ، وهكذا القول في موسى عليه السلام حين يسمع النداء ، قد يجوز أن يكون علم أن الله تعالى يكلمه ضرورة، ويجوز أن يكون برق بإلهاب النار في شجرة خضراء من غير أن تحرقها ، أو تغيرها عن حالتها ، وذلك أمر يخالف العادات ، إن الله تعالى هو الذي يكلمه ، وهذا القول من الملك نفسه ، إذا بعث إلى أحد من البشر ، قد يجوز أن يعلم أن الله تعالى هو الذي يأمره ويرسله ضرورة ، ويجوز أن يعلم ذلك بأنه ينصها الله تعالى فيستدل بها على أنه مبعوث مأمور وبالله التوفيق .

فصل

قالوا : رويتم أن نبيكم كان يغش عليه عند نزول الوحي عليه ، فالمغش عليه لا يدرك شيئاً من المحسوسات ولا من المعقولات ، فكيف كان يرى الملك ويميزه ويتلقى عنه ما يكلمه به .

فصل

قد قال بعض العلماء : ان الله تعالى كان يعرفه الوحي في تلك الحال تميزا له عمن ليس بنبي ، فكان ذلك إحدى الكرامات والمعجزات ، وقد يجوز أن يكون عقله لم يكن فارقه ، فاني لا أحفظ فيما جاء من الحديث انه كان يغش عليه ، وإنما فيه : انه كان يثقل وتأخذه البرحاء ، فقد يجوز أنه كان يتغير عن حاله المعهود تغيراً شديداً ، ولكن العقل لم يكن يفارقه وبالله التوفيق .

ذكر فصول في الايمان بالرسل :

إن سأل سائل : عمن آمن بمحمد ﷺ ، وقال لا أدري ، أكان من البشر أو كان ملكاً أو كان حساً ، أيكون مؤمناً به ؟

قيل له : أكان القائل هذا لم يسمع أخبار الله تعالى عن محمد بانه بشر مثل قومه ، وأخبار محمد ﷺ نفسه ، وأخبار الناس عنه ، وذكرهم نسبه وشمائله ونعوته، فلا وقف

على شيء مما ذكرنا لم يضره الجهل بحاله شيئاً ، كما لو عرف بأنه من البشر ، ولم يسمع بأنه كان من العرب أو العجم لم يضره ذلك شيئاً ، وكذلك لو لم يعلم أنه كان شاباً أو شيخاً أو مكياً أو عراقياً لم يضر ذلك إيمانه نبياً وحجته أنه أياً ما كان إنما يظنه به ، فقد يصلح لأن يكون رسولاً ، فلم يوجه الجهل بالحق من ذلك إلى الجهل برسالته ونبوته وفارق ذلك أن تقول : آمنت بالله ، ولا لتدري أجسم هو أو غير جسم ؟ لأن الجسم لا يجوز أن يكون إلهاً ، إذ الجسم هو المؤلف ، والمؤلف يقتضي مؤلفاً ، وما كان محلاً للاعراض قابلا للافعال لم يكن قديماً ، ولم يجز أن يكون إلهاً ، فلذلك لم يثبت الايمان بالله مع الشك في أنه جسم أو غير جسم والله أعلم .

فصل

ان قال قائل : أتقولون ان آمن بالله وحده ثبت له أصل الايمان ، وإنما يحتاج إلى الايمان برسوله لاستكمال الايمان ، واستيفاء شعبه !

قيل له : لا نقول ذلك ، بل نقول : ان إيمانه بالله لا يعينه شيئاً ولا يثب له ديناً حتى يؤمن برسله . وحجة ذلك أن الله تعالى نص على أن التفريق بين الله ورسله كفر ، لأنه قال : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ [1] . فابان أن الفرق في الايمان بين الله ورسله كفراً ، والفرق بين رسله في الايمان بهم كفر .

فاما إيجاب الكفر بالتفريق بين رسل الله ، فقد ذكرت وجهه ، وأما التفريق بين الله ورسله ، فإنما كان كفر بالله ، لأن الله عز وجل إنما فرض على الناس يعبدونه بما شرع لهم في ألسنة الرسل ، فإذا جحدوا الرسل ، ردوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم ، فكانوا ممتنعين من التزام العبودة التي أمروا بالتزامها ، فنزل ذلك منهم منزلة جحد الصانع ، وجحد الصانع ، كقولنا فيه من ترك التزام الطاعة ، فكان ذلك كفر .

فان قيل : فقد قال الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ﴾ [2] . فأثبت

---

(١) النساء : ١٥٠ (٢) النساء : ١٣٦

الايمان لهم أولا ثم أمرهم بالايمان بالرسل ، فصح ان اسم الايمان بالاطلاق واجب لمن آمن بالله وحده .

قيل : لو دلت هذه الآية على أن إسم الايمان يجب من غير وجود الايمان بالرسل لدل على أنه يجب من غير وجود الايمان بالله تعالى ، لأنه كما أمر الذين آمنوا أن يؤمنوا برسل الله ، أمرهم أولاً أن يؤمنوا بالله فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ (٣). أي أجمعوا إلى الايمان برسوله ، فإن الايمان به غير متقبل منكم إلا أن تضمنوا إليه الايمان برسوله .

وقد بين ذلك بما أتبعه هذه الآية من قوله : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ [١] . فإن في ذلك بياناً أن الفرق بين الله ورسله في الايمان كفر ، وفي ذلك وجود أن يكون معنى الآية ما ذكرنا وبالله التوفيق .

فصل

فان سأل سائل : عمن آمن بالله ولم يؤمن برسله أيكون إيمانه بالله إيماناً ناقصاً يتوقف على ما يصله به من الايمان برسله ، او يكون فاسداً غير صحيح ، فإذا أراد الايمان بالرسل احتاج إلى أن يستأنف الايمان بالله !

قيل له : ان الإعتراف بالله تعالى بعض الايمان به ، لأن الايمان به هو التصديق به والتزام عبودته وطاعته ، فإذا صدق بالله ولم يلزم طاعته وعبودته كان آتياً ببعض الايمان به فيوقف ذلك على ما يأتي به من البعض للآخر كما ان النصراني إذا لم يكن كفره إلا جحد نبوة نبينا ﷺ ، فإنه إذا آمن به تم إيمانه ولم يحتج إلى استئناف الايمان بالله وبأنبيائه وعيسى .

فلذلك من آمن بالله ولم يؤمن برسله فانه إذا آمن بالرسل بعد ، تم إيمانه بالله ولم يحتج إلى الاستئناف ، وعلة هذا انه ليس للايمان وقت محصور تتعلق صحته ، لكن الأوقات كلها وقت الايمان ، فهي على سعتها بمنزله أضيق وقت منها .

---

(١) النساء : ١٣٦ (٢) النساء : ١٥٠

ومعلوم أن من دعي إلى الايمان ، فأجاب إليه فإنه لا يأتي به إلا شيئاً فشيئاً ، لأنه يبدأ مؤمناً بالله ثم بنبيه ﷺ ، ثم اتصل ذلك بما ينبغي أن يصل به ، وكما يوقف الايمان بالله على الايمان بالرسل في المجلس الواحد،فكذلك يتوقف في العمر لأن الايمان غير محصور بوقت، فالعمر كله بمنزلة المجلس، فإذا انقضى ولم يكمل حبط الموجود منه ولم يستوجب صالحة به آخر .

ومعنى ما قلت : ان الله عز وجل لما خاطب الناس بالايمان ، وبلغت عنه الرسل صلى الله عليهم صحت الاجابة إليه بمن سمع الدعوة فأجاب إليه في الحال وممن يسمع غيره مالا ، أو يستنكح امرأة ، فإن إجابه قبل أن يتفرقا أو يحدثا أو أخذهما ما يشبه التفرق صح الجواب ، فان أجابه بعد التفرق لم يصح . وذلك لأن الدعوة إلى دين الحق من حقها أن تدوم ، ولا تكون وقتاً دون وقت ، وإن كانت الدعوة ولم تختص بحال دون حال لم تختص للاجابة إليها بحال دون حال ، فكذلك قلنا أن بعض الايمان شيء واحد ، أما ربنا ما نفى عليه تراضى عنه أو تدانى منه وبالله التوفيق .

★ ★ ★

الثالث من شعب الايمـــان

وهو باب في الايمان بالملائكة

والايمان بالملائكة ينتظـــم معاني أحدها التصديق بوجودهم ، والآخر : إنزالهم منازلهم وإثبات أنهم عباد الله وخلقه كالانس والجن ، مأمورون مكلفون لا يقدرون إلا على ما يقدر لهم الله تعالى ، والموت جائز عليهم ولكن الله جعل لهم أمداً بعيداً ، فـــلا يتوفاهم حتى يبلغوه ، ولا يوصفون بشيء يؤدي وصفهم به إلى إشراكهم بالله تعـالى ولا يدعون الهة كما قد دعتهم الاوائل . والثالث : الاعتراف بأن منهم رسلا لله تعالى يرسلهم إلى من يشاء من البشر .

وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض ويتبع ذلك الاعتراف بأن منهـم حملة العرش ، ومنهم الصافون حوله ، ومنهم خزنة الجنة ، ومنهم خزنة النار ، ومنهم كتبة الأعمـال ومنهم الذين يسوقون السحاب ، وقد ورد القرآن بذلك كله أو بأكثره ، فاما اثباتهم في الجملة ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ (١) .

وقال في الايمان بهم خاصة ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ، والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ (٢) .

وأما أكثر ما في القرآن من ذكر الملائكة واستقصاء ذلك يطول . وأمـــا إقرارهم ومنازلهم ، فقد قال تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبـــداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ (٣) ، ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه ، بل عباد مكرمون ، لا يسبقونـه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضـى ، وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنـم ، كذلك نجزي الظالمين ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ٣٤ (٢) البقرة : ٢٨٥ (٣) النساء : ١٧٢ (٤) الانبياء : ٢٦–٢٩

فأخبر بهذه الآية عن منازل الملائكة وابان انه لا يجوز أن يقال انهم ولد الله ولا انهم بنات الله ، كما كان كثير من العرب يقولون. فانكر الله عليهم قولهم، وقال: ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الله إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾[1] . وقال: ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله ، وإنهم لكاذبون ﴾[2] .

وإذا تأمل المتأمل وجد قول العرب : ان الملائكة ولد الله نازعاً إلى قول الاوائل الذين يسمونهم توابى ، ويزعمون انهم قاصوا عنه ، فإن كل ولد فهو يأتي والده وقابض عنه .

ثم ان العرب سمتهم أولاداً كما يقولون في كثير من الأشياء : تولد هذا من هذا ، وتجاوزت ذلك إلىتسميتهم بنات ، على معنى أنهم محجوبون عن الأبصار، فهم كالمخدرات من الأولاد ، وهن البنات ، فرد الله تعالى ذلك كله عليهم ، وانتفى منه ، فأنكره وأخبر انه : لا منزلة للملائكة إلا أنهم عباد مكرمون ، وابان عن فضل خشيتهم ورهبتهم له ، ودل على أن كرامتهم عنده إنما هي لأجل طاعتهم له ، ولو عصوه لعذبهم بالنار ، كسائر العصاة .

فهذا هو الذي ينبغي أن يعتقد فيهم ، فيكون ذلك إيمانهم الا ترى أن الإيمان بالمسيح صلوات الله عليه ليس أن يترك فوق منزلته ، كما يقول النصراني، لكن ذلك كفر بالله عز وجل ، وبه أيضاً ، وإنما الايمان به أن يعتقد فيه أنه عبد الله ورسوله ، فكذلك الايمان بالملائكة ، ليس أن ينزلوا فوق منازلهم ، لكن أن لا يبخسوا حظاً جعله الله تعالى لهم من فضله والله أعلم .

واما تصريفهم على ما يصرفهم الله تعالى عليه في الدنيا والآخرة ، فقد قال الله عز وجل :﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾(١). وقال ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾ . يعني الملائكه الذين أرسلهم الله إلى قوم لوط وقالوا : ﴿ إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ (٢) . وقال : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ [3] . وقال : ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلى في المحراب ، إن الله يبشرك بيحيى ﴾ [4] .

---

(١) الزخرف : ١٩ (٢) الصافات : ١٥٠ (٣) الحج : ٧٥
(٤) هود : ٦٩ ، ٨١ (٥) مريم : ١٧ (٦) آل عمران : ٣٩

وقال : ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ (١) .

وقال : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ﴾ (٢) .

وقال حكاية عن الملائكة : ﴿ وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون ﴾ (٣) .

وقال في يوم القيامة : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ (٤) .

وجاء في الجن أن حملة العرش أربعة ، فاذا كان يوم القيامة أمدوا بأربعة آخرين .

وقال في أهل النار : ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ﴾ (٦) .

وقال في أهل الجنة : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ﴾ (٨) .

وقال في قبض الأرواح : ﴿ تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾ (٩) . فهذا في المؤمنين ، وقال في غيرهم : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا والملائكة ﴾ (١٠) . وقال : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾ (١١) .

وقال في قبيح الأعمال : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ﴾ (١٢) .

وقال : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (١٣)

وقال : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ (١٤) .

وأما سوق السحاب فبما وردت بـه الأخبار ، وكل ما ذكرنا مجتمع المعنى في أن الملائكة : يتعرفون على الأعمال لتعريف بني آدم ، فهذا هو الذي ينبغي أن يعتقد فيهم وبالله التوفيق .

---

(١) آل عمران : ٤٢ — (٢) غافر : ٧ — (٣) الصافات : ١٦٥
(٤) الحاقة : ١٧ — (٥) غافر : ٤٩ — (٦) الزمر : ٧١
(٧) الزمر : ٧٣ — (٨) الرعد : ٢٣ — (٩) النحل : ٣٢
(١٠) الانفال : ٥٠ — (١١) السجدة : ١١ — (١٢) الانفطار : ١١
(١٣) ق : ١٨ — (١٤) الجن : ١٨

فصل

واما الملائكة ، ما هم ؟ فان من الناس من ذهبوا إلى أن : الأحياء العقلاء الناطقون فريقان : انس وجان . وكل واحد من الفريقين صنفان : أخيار وأشرار . فأخيار الانس ابرارهم ، ثم ينقسمون إلى رسل وغير رسل . وأشرارهم يدعون فجاراً . ثم ينقسمون إلى كفار وغير كفار .

وأخيار الجن يسمون الملائكة ، ثم ينقسمون إلى رسل وغير رسل ، وأشرارهم يدعون شياطين ، ثم قد يستعار هذا الاسم لفجار الانس تشبيهاً لهم بفجار الجن ، وقد يحتمل هذا القسم وجهاً آخر : وهو ان الجن منهم سكان الأرض ، ومنهم سكان السماء ، فالذين هم سكان السماء يدعون بالملائكة الأعلى ويدعون بالملائكة . والذين هم سكان الأرض هم الجن بالاطلاق ، وينقسمون إلى أخيار وفجار ، ومسلمين و كفار .

وإنما قيل الملأ الأعلى ملائكة ، لأنهم مستصلحون للرسالة التي تسمى الركام أكثر الناس على الملك أصله ملاك ، وان ملاك مقلوب وليس نبياً مستقيم ، وانه قيل لواحد من الملائكة ملاك بمعنى انه موضع للرسالة لكونه مصطفى مختار للسماء أن يسكنها ، أو كانت الرسالة منها تأتي سكان الأرض ، ومن ذهب إلى هذا قال : أخبر الله عز وجل أنه أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ، ولم يكن من الملائكة ، لم يكن لاستثنائه منهم معنى ، ثم قال في آية أخرى : ﴿ إلا إبليس كان من الجن ، ففسق عن أمر ربه ﴾[1] .

فأخبر انه لعنه ورجمه وأخرجه من السموات ، وابان أن المأمورين بالسجود كانوا طبقة واحدة ، إلا أن إبليس لما عصى ولعن صار من الجن الذين يسكنون الأرض ، ولا سبيل لهم إلى مخالطة الملأ. فكان كالعدل من الانس يفسق أو يرتد فيعصى وينفذ ويدعى فاسقاً وخبيثاً وفاجراً ، بعد أن كان يسمى عدلاً وبراً وتقياً والله أعلم .

وأيضاً فإن الله عز وجل حكى عن الكفار أنهم قالوا : ولد الله وان الملائكة بناته ، وجعلوا بينه وبين الجن نسباً ، فدل ذلك على أن الملائكة من الجن ، وان النسب الذي

---

(١) الكهف : ٥٠

جعلوه بين الله وبين الجن ، إنما هو قولهم : الملائكة بنات الله ، تعالى عما قالوا علواً كثيراً .

وأيضاً فإن الانس منهم الظاهرون والجن هم المختبئون ، والملائكة مختبئون، فينبغي أن يكون إسم الجن لاحقاً إياهم . وأيضاً فإن الله تعالى لما صنف الخلائق قال : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ﴾ [٢] .

فلو كانت الملائكة صنفاً ثالثاً سوى الانس والجن لما كان يدع أشرف الخلائق ، فلم يتمدح بالقدرة على خلقه ، ويذكر ما دونه فيمتدح بالقدرة على خلقه ، هذا وقد نبهت أن الجان خلق من مارج من نار ، وأن إبليس مخلوق من النار ، والظاهر دخوله في جملة الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم ، وفي هذا رجوت أن تكون الملائكة من الجن والله أعلم .

ومن خالف هذا القول قال : إن سكان الأرض ينقسمون إلى انس وجن ، فأما من خرج عن هذا الحد لم يلحقه إسم الانس ، وإن كان مرئياً ، ولا إسم الجن وإن كان غير مرئي . ويدل على هذا أن الجن سموا جناً لأن الانس لا يرونهم ، وإلا فإن بعضهم يرى بعضاً ، والناس سموا انساً لأن الجن يرونهم ، وإنما وجب هذا التمييز بينهم ، لأن البقعة الواحدة من الأرض ، كالدار الواحدة ، والفضاء الواحد ، وقد تجمع الفريقين ، فيرى الجن الانس ، ولا يرى الانس الجن . وأما الملائكة فإنهم بأشد البعد من الناس ، فلا يلحقهم إسم الجن ، لأنهم لا يرونهم ، كما لا يلحق المشرقي إسم الجن ، لأن المغربي لايراه ، ولا المغربي اسم الجن ، لأن المشرقي لا يراه والله أعلم .

ويدل على أن الملائكة غير الجن ، ان الله عز وجل لما أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس . أخبر الله عز وجل عن سبب مفارقة الملائكة : ﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ [١] . فلو كانوا كلهم جناً لاشتركوا في الامتناع من السجود ولم يكن في ان إبليس كان من جملة الجن ما يحمله على أن لا يسجد . وفي هذا ما ابان ان الملائكة خير والجن خير وانهما فريقان شتى .

فان قال : ما معنى دخول إبليس في الأمر الذي خوطبت الملائكة به إن لم يكن منهم؟

---

(١) الرحمن : ١٤ — ١٥ (٢) الكهف : ٥٠

قيل : معنى ذلك انه كان من الجن الذين خلقوا من النار، وكان اجراته أنه في الأرض غير أن الله عز وجل اذن له في مساكنة الملائكة ومجاورتهم لحسن عبادته وشدة إجتهاده، وقد وردت الأخبار ببيان ذلك من حاله ، فلما أسكن السماء وطال اختلاطه بالملائكة ومباينته لجنسه جرى في عداد الملائكة ، وصار يواجدهم كالأعجمي يختلط بالعرب ويسكن بلادهم ، فتعلم لسانهم وتخلق بأخلاقهم، فيكون أعجمياً مبعوثاً ، ويدعى بذلك من العرب المستعربة كلهم هكذا .

فلما أمرت الملائكة بالسجود لآدم دخل في الجملة الملك الاصيل والملحق بالملائكة ، غير أن مفارقته الملائكة في أصل جملته على مفارقتهم في الطاعة ، قال الله عز وجل : إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، كما يكون الاعجمي المبعوث بين قوم فاذا همت العرب بأمر وأجمعت عليه ، حمل الاعجمي أصله المخالف لاصل العرب على خلافهم، فيقال انه كان من الاعاجم ، فكذلك لم يواطيء العرب، فرده الله بعد ذلك إلى مساكن جنسه، وأخرجه من السموات ، فصار عند الاقصاء شيطانا كما كان عند الادنى ملكاً .

وأما قول الله عز وجل : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ [1] . فان الناس لم يتفقوا على أن الإشارة به واقعة إلى قولهم : الملائكه بنات الله ، لكن ذلك قد قيل ، وقيل غيره : وهو أن مشركي العرب كانوا يقولون للأصنام انها بنات الله ، وسمتها لذلك آلهة، ويزعم أن عبادتهم لها تقربهم إلى الله عز وجل، ولذلك كانت تسميها اللات والعزى ومناة.

وإنما وقع لهم من حيث أن الشياطين كانت تدخل أجوافها. فيكلمهم منها ، فكانوا ينسبون ذلك الكلام إلى الله تعالى . فقال الله تعالى : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ لانهم سموا الاصنام لمكان تكليم الجنة إياهم من أجوافها آلهة ، وادعوا أنها بنات الله وأثبتوا بين الله تعالى وبين الجنة نسباً ، جهلاً منهم ، بأن الكلام الذي يسمعونه ، إنما هو كلام الشياطين ، لا كلام الله جل ثناؤه ، وليس هذا في الظهور دون الوجه الآخر ، والله أعلم .

وأما قوله عز وجل : ﴿ خلق الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ﴾ [2] . فانما هو بيان ما ركبه من خلق متقد ، فلم تدخل الملائكة في ذلك لانهم

---

(١) الصافات : ١٥٨ (٢) الرحمن : ١٤ — ١٥

مخترعون . قال الله عز وجل لهم ﴿ كونوا فكانوا ﴾ كما قال للأرض التي خلق منه الجن، والاصل الذي خلق منه الانسان وهو التراب والماء والنار والهواء كن فكان ، فكانت الملائكة في الاختراع كأصول الانس والجن، لا كأعيانهم، فكذلك لم يذكروا معهم والله أعلم.

فصـــل

ثم ان الملائكة يسمون روحانيين ، بضم الراء ، على معنى أنهم أرواح لا شيء معها من ماء أو نار أو تراب ، وإنما لا يرون للطافتهم . فاما الجن فهم مخلوقون من النار مرئيه، لا انهم حجبوا عن الابصار ، ولذلك سموا جناً ، والجنة في لسان العرب السترة ، فكأنهم مستورون عن الناس ، وقد سمى الله عز وجل جبرائيل صلوات الله عليه الروح الامين ، وروح القدس . وقال : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ [1] وقال : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ [2] وقال : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ﴾ [3] . فقيل ان المراد جبريـل ، وقيل انه ملك عظيم سوى جبريل يقوم وحده صفا والملائكة صفاً ، ومن قال بهذا قال : الروح جوهر .

وقد يجوز أن يؤلف الله تعالى أرواحاً فيجسمها ويخلق منها خلقاً ناطقاً عاقلاً فتكون الروح مخترعاً ، والجسم وضم العقل والنطق اليه حادثا من بعد . وقد يجوز أن تكون الاجسام على ما هي عليه اليوم مخترعة كما اخترع عيسى وناقة صالح . وفي بعض الاخبار الواردة في شأن الملائكة ما يدل على هذا الوجه ، وقال بعض الناس : ان الملائكة روحانية بفتح الراء ، بمعنى انهم ليسوا محصورين في الابنية والظلل ، ولكنهم في فسحة وبساطة ، وقد قيل : إن ملائكة الرحمة هم الروحـــانيون – بفتح الراء – ، وملائكة العذاب هم الكريبيون فهذا من الكرب ، وذاك من الروح والله أعلم.

ومما يدل على مفارقة الجن الملائكة ان الله عز وجل اخبر انه : تسأل الملائكة يوم القيامة عن المشركين ، فيقول لهم : ﴿ أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ [4]. فتقول الملائكة : ﴿ سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن ﴾ [5] فتشهد ان الملائكة غير الجن

---

(١) مريم : ١٧ (٢) القدر : ٤ (٣) النبأ : ٣٨
(٤) سبأ : ٤٠ (٥) سبأ : ٤١

إذ لو كانت الملائكة جنا لم يخل عباد من أن يكونوا عبـــاد الملائكة فلم يكن لقول الملائكة انهم كانوا يعبدون الجن ولا يعبدوننا معنى ، والله أعلم .

فصـــل

ثم ان الناس قديماً وحديثاً تكلموا في المفاضلة بين الملائكة والبشر ، فذهب ذاهبون إلى ان الرسل من البشر ، أفضل من الرسل من الملائكه ، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة . وذهب آخرون إلى ان الملأ الأعلى مفضلون على سكان الأرض ، واحتجوا بقول الله عـــز وجل : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبـــداً لله ، ولا الملائكة المقربون ﴾ (١) . فبدأ في نفي الاستنكاف من العبودة لله جل ثناؤه من المسيح ثم نبأ بنفيه عن الملائكة .

فدل ذلك على ان الملائكة ارفع قدراً وأعلى مرتبة إذ لم يكونوا كذلك لكان في معنى ما نفى عن المسيح دلالة على ان من دون بانتفاء ذلك عنه أولى ، فقد عقل ان الأعلى رتبة والارفع درجة إذا لم يأنف منه ، فالذي هو أعلى منه يأنف ولا يأنف ، فلذلك صار وجه الكلام أن يبدأ في مثل هذا بالادنى ثم انثني بالاعلى ، ألا ترى انه يقال : لن يأنف الوزير أن يدعى خادما للامير ولا الكاتب ، وما كان كذلك الا لعلو رتبته وارتفاعها عن رتبة الكاتب ، وكذلك ما ذكرنا والله أعلم .

ومما يشبه هذا ان ينفي علم عن واحد ثم يعطف عليه غيره « فيقال : ما تدري هذا فلان ولا فلان ، فيكون وجه الكلام الابتداء بالادنى في العلم منزلة ، لانه قد يجوز أن لا يدري ما يدريه الافضل ، ويبعد أن لا يدرى الافضل ، ويدرى من هو دونه ، فيحتاج إلى نفي العلم بعد نفيه عن الافضل .

ولكن إذا نفي الجهل عن واحد ثم يعطف عليه غيره ، فانما ينتفي أن يبدأ بافضلها فيقال : ما يجهل هذا فلان ، ولا الذى هو دونه لان العرض عن الانابة عن وضوح ما نفيت الجهالة عنه ، وقد يجوز أن يتضح لافضل الرجلين في العلم ما لا يتضح لمن دونه ، فاذا كان بحيث يعلمه قليل العلم كما يعلمه كثير العلم ، فذاك هو النهاية من الوضوح .

---

(١) النساء : ١٧٢

وعلى هذا يقال : ما يصلح للحكم بين الناس فلان ولا فلان ، فبدأ بالادون ، وإذاقيل: ما يدفع عن الحكم فلان ولا فلان بديء بالأفضل .

وإذا قيل : ما يرضى الأمر فلان وفلان ، وأريد به تقبيحه بديء بالأفضل ، لأنه قد يدرك برأيه من الخلل الذي فيه ما لا يدركه الذي دونه فيدعوه ذهابه عليه إلى أن يرضى به ، فيفي هذا المعنى باتباع الادون الأفضل ليدل به على إيضـــاح وجه الأمر ، وانتفاء اللبس عنه .

واذا قيل : ما يكره هذا الأمر فلان ولا فلان ، وأريد به بخسه بديء للادون لأنــه يخفي عليه بعض ما فيه ، فلذلك لا يكرهه ، فاما من هو أعلى منه فإنه كوقوفه على حقيقته بكرهه لينفي هذا المعنى بعطف الأعلى على الادون والله أعلم .

وحجة أخرى : هو ان الله جل ثناؤه أخبر عن آدم وحواء عليهما السلام انه نهاهمــا عن أكــل الشجرة ﴿ إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إني لكما من الناصحين ﴾ [1] .

فلو لم يعلم آدم صلوات الله عليه ان الملك أفضل من البشر لما استطاع ابليس أن يغره بأن شبه عليه انه نهى عن أكل الشجرة لئلا يكون ملكاً ، وفي نفاد الغرور له عليه من هذا الوجه ما دل على أن الملك عند آدم أفضل من البشر .

وحجة ثالثة : وهي ان الله تعالى جعل الملائكة شفعاً لبني آدم فقال: ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ ومعلوم ان استغفار الملائكة لبني آدم ليس لحق بني آدم فيقضونه بالاستغفار لهم ، كاستغفــار الولد لأبويه ، ولا هو على معنى التعاون كاستغفار بني آدم بعضهم لبعض لأنهم يستغفرون لبني آدم ولا حاجة بهم الى أن يستغفر بنو آدم لهم . فصح انه من جنس الشفاعة منهم لبني آدم كاستغفار النبي لأمته ، وفي ذلك يتأول على أنهم أفضــل من الذين يستغفرون لهم ، كما ان كل نبي فهو أفضل من أمته والله أعلم .

وحجة رابعة : وهو أن يرسله الله تبارك وتعالى إلى أحد فهو أفضل من المرسل إليه.

---

(١) الاعراف : ٢١ (٢) غافر : ٧

ويدل ذلك على أن الرسول من البشر أفضل من قومه ، فقياس ذلك أن يكون الملك المرسل إليه أفضل منه .

وحجة خامسة : وهو أن الله جل ثناؤه سمى الملائكة الملأ الأعلى ، وفي ذلك معنيان:

احدهما : أن الملأ في اللسان ، هم العظماء والأشراف ، قال الله تعالى : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ﴾ [1] . على خوف من فرعون وملئهم ، أي من أكبر قومه . وقال : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون ﴾ [2] . أي كبراؤهم ، فإن جماعتهم لم يكونوا بخاطبي فرعون ، فلما سمى عز وجل عامة الملائكة بالاسم الموضوع للعظماء ، دل ذلك على أنه إنما سماهم بذلك لأنهم بالقياس إلى سكان الأرض غاية كبرى عظماء ، وليس فيهم من ينحط قدره من أحد من أهل الأرض .

والمعنى انه نسبهم إلى العلو دلالة بذلك على فضلهم ، وتنبيهاً على علو قدرهم ، لأنه لا شك أن السماء أفضل من الأرض ، فقد ينبغي أن يعقل من ذلك أن الله تعالى إذا كان هو الذي أسكن الملائكة السماء ، والبشر الأرض ، ولم يكن ليسكن أفضل المكانين أدون الخليقتين، وأدون المكانين أعلى الخليقتين ، وفي هذا ما ابان ان الملائكة أفضل من البشر.

وحجة سادسة : وهو ان التقي من البشر أفضل من الذي يخلط العمل الصالح بالسيئة. والملائكة كلهم يخلصون للطاعات ، وليس فيهم أحد يخلطها بشيء من المعصية، ولا التقاة من البشر ان عصموا من الكبائر فقد لا يعصمون من الصغائر ، وان سلموا من الفعل فقد لا يسلموا من الهم .

وقد أخبر الله عز وجل بانهم لا يعصون الله ما أمرهم ، ولا يسبقونه بالقول وهم من خشية ربهم مشفقون ، وانهم لا يستخرون عن عبادته ولا يفترون . وفي هذا سوى ما ذكرنا من أتقياء البشر ان سلموا من كبائر الذنوب وصغائرها فليس أحد منهم يتعبد دائماً ، والملائكة يعبدون الله دائماً لا يفترون . فيجب عن هذا أن لا يكونوا أفضل من البشر .

فان قيل : لو وجب أن يكون أفضل الانبياء يحيى بن زكريا عليهما السلام لأن نبينا ﷺ أخبر أنه لا يخطىء قط ، ولا همّ بخطيئة ؟

---

(١) يونس : ٨٣ (٢) الاعراف : ١٢٧

فالجواب : أن الملائكة كما لا يخطئون ولا يهمون بالخطيئة فلذلك يعبدون الله دائماً ولا يفترون ، ويحيى بن زكريا عليه السلام لم يكن بهذه الصفة بل كان يأكل ويشرب وينام ويفتر فيستريح ، فيكون في هذه الأحوال منفكاً عن التعبد ، فاذا تعبد في غير هذه الأحوال ، فالظاهر من أمره أنه كان يتعبد بالصلوات والصيام والتقديس والتسبيح ، ولم يكن عليه من الجهاد في سبيل الله والدفع عن دين الله وأوليائه بالسيف ، ما كان على كثير من الأنبياء ، ولا من الحج والهجرة ما كان على غيره ، فلذلك لم يجز على القطع بتفضيله على عامة الأنبياء صلوات الله عليهم .

فان قيل : فانكم تعارضون في الملائكة بمثل هذا ، وهم انهم كانوا لا يعصون ويسبحون دائماً فلا يفترون ، فإن الناس يكابدون من الحج والجهاد والهجرة والتعليم والتأدب والعفة ما لا تكابده الملائكة ، فلا يجوز أن يقطع بفضل الملائكة عليهم .

فالجواب : ان نزول الملائكة من السماء إلى الأرض لا يختلف عن حج الحجاج واقامتهم في الارض لنسخ الاعمال ، لا تتخلف عن هجرة النبوة ، وقد جاهدوا مع النبي ﷺ لما أمروا بالجهاد ، وإذا لم يجاهدوا ، فلأنه لا أعداء في الدين لهم من جنسهم .

والناس أيضاً لا يقاتلون من لا يعاديهم في الدين من جنسهم . فالفريقان من هذا الوجه سواء. وإذا لم يهاجروا فانه لا مانع يمنعهم من حبسهم من عبادة ربهم في مقارهم ومواضعهم ، والناس أيضاً لم يؤمروا بالهجرة حيث لم يكونوا يخافون الفتنة على أنفسهم ، ولا الحيلولة من طاعة الله وعبادته .

والحج ليس فيه الا قصد البيت والطواف حوله ، والملائكة حافون من حوله ، وأهل النائي منهم عن العرش يلزمهم منه في بعض الاوقات حضوره ، وذلك مغيب عنا ، فلا نتكلم عليه بنفي ولا إثبات ، ثم ان العرش على كواهل عدة من الملائكة ، وليس البيت الذي في الارض على كاهل أحد من البشر ، وفي هذا ما يبين أن الملائكة أثقل عملاً وأطول شغلاً .

وأما التأدب والتعلم والنفقة فلا حاجة بالملائكة ، لكنهم ما رأوا ذلك خزنة كتب الله تعالى وحملة وحيه.

وكذلك صار جبريل صلوات الله عليه موصوفاً بالعلم في قوله تعالى علمه شديد القوى ،

وليست تقصر رتبة التعليم عن رتبة التعلم ، لكنها تعلوها، لان التعليم إعطاء والعلم قبول. والاعطاء فوق القبول ، وليس ما وصفنا من شأن يحيى بن زكريا بسبيل أنه قد كان له أعداء في الدين ، ومع ذلك لم يؤمر بإتيانه ، وحج البيت الذي فيه ، فثبت انه لا يلزم من يفضله على سائر النبيين صلوات الله عليهم أجمعين، بالرغم من تفضيل الملائكة على البشر من الوجه الذي ذكرناه .

هذا مع أن للملائكة أعمالاً لا يتسع لها ، نحو نسخ الاعمال وقبض الارواح ، وسوق السحاب ، ونحو ذلك ، ويحيى بن زكريا لم يكتب له بإزاء ما أسقط عنه ، وكان مكتوباً على غيره ما هو مثلها أو أشق منها ، وفي ذلك ما يمنع من المعارضة بأمره والله أعلم .

فان قال قائل : فان الله تبارك وتعالى أسجد ملائكته لآدم صلوات الله عليه ، بأنما يدل بذلك على أنه كان أفضل منهم .

فالجواب من وجوه : أحدها أن معنى قول الله عز وجل : ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ [١]. أي اسجدوا إلي مستقبلين وجه آدم . وإنما هذا لقول الله عز وجل : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ [٢] . أراد به اقم الصلاة لي عند دلوك الشمس ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾[٣] . معناه : فقعوا إلي عند تمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين .

والدليل على هذا ما روي عن النبي ﷺ انه قال : (إذا سجد ابن آدم ، قال الشيطان : امر ابن آدم بالسجود فاطاع فله الجنة ، وأمرت بالسجود ، فعصيت فلي النار) [٤] . ومعلوم أن ابن آدم لم يؤمر بالسجود إلا لله تبارك وتعالى ، فثبت أن الشيطان أيضاً ، إنما أمر بالسجود لله تعالى ، وانه عن ذلك امتنع فحقت عليه النار والله أعلم .

فان قيل : لو أمر بالسجود لله تعالى لم يمتنع منه ، فإنه كان يعبد الله من قبل ذلك !
قيل : إنما امتنع من السجود لا لانه لم يؤمن به لله تعالى ، ولكن لان أمره به لله عز

---

(١) البقرة : ٣٤ (٢) الاسراء : ٧٨ (٣) ص : ٧١
(٤) ورد في صحيح مسلم « الايمان » رقم ١٣٣ .

وجل في وجه آدم كان يرجع إلى تكريم آدم ، فقال في نفسة : أنا خير منـه ! فكيف يؤمر أحد بالسجود لله عز وجل في وجهه عند إتمامه خلقي ليكون ذلك تكريماً لي، فإنما امتنع من السجود حسداً لآدم صلوات الله عليه ، على ما أوجب عليه تعالى من تكريمه ، لا لان السجود لم يكن لله جل ثناؤه!

فإن قيل : ان السؤال قائم وذلك انه إذا أمر الملائكة له وجه آدم تكريماً له ، دل ذلك على انه كرمه عليهم .

قيل : لا ، بل كرمه على سائر من علم انه مخرجه من ظهره وغير أمرهم أن يسجدوا له من وجه أحد منهم ، كما أمرهم أن يسجدوا له في وجهه أو كرمه على الجن وسائر مـا كان في خلق قبله من أصناف الحيوان ، ولم يرد بذلك تكريمه على الساجدين ، كما انه لما أمر المسلمين أن يصلوا له تلقاء الكعبة ، كان بذلك مكرماً لها على الجهات الاخر التي لم يأذن في الصلاة إليها ، ولم يكن مكرماً لها على المصلين والله أعلم .

وحجة اخرى : وهو أنه يحتمل أن يكون الله أمرهم بالسجود لآدم معاقبـة على قولهم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيهاويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ [١] . كما قال لهم : ﴿ إني جاعل في الارض خليفة ﴾ [٢] .

وقد كان علم منهم قبل أن خاطبم أنهم قائلون هذا ، فقال لهم : ﴿ إني خالق بشراً من طين ﴾ [٣] وجاعله خليفة في الارض ، ﴿ فاذا سويته ونفخت فيه من روحي، فقعوا له ساجدين ﴾ [٤] . والمعنى ليكون ذلك عقوبة لكم في ذلك الوقت على ما أنتم قائلون لي الآن ، فلا يلزم عن هذا أن يكون أفضل منهم كما لا يلزم عن معاقبة يونس صلوات الله عليه بتسليط الحوت عليه، حتى التقمه الحوت عند هربه من قومه ، وامتناعه من تبليغهم رسالة ربه أن يكون الحوت أفضل منه .

وقد قال قائل : وقد قال الله عز وجل : ﴿ ولقـد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ [٥] . فأخبر أنه فضلهم على كثير ممن خلق — ومن اسم للذي يعقل — فثبت أنهم مفضلون على غيرهم من العقلاء وهم الملائكة !

(١و٢) البقرة : ٣٠ (٣) ، (٤) الحجر : ٢٩ ، ص : ٧٢ (٥) الاسراء : ٧٠

فالجواب : لكن العقلاء سوى بني آدم ليسوا الملائكة فقط ، لكن الجن مشاركون لهم في العقل ، فإذا وجبت لهم الفضلة على الجن وقد وجبت الآية حظها ، فلا يجب بعد ذلك تفضيلهم على الملائكة إذ ليس في الآية انهم مفضلون على كثير منهم، بل في الآية دليل على فضل الملائكة عليهم ، لأن العقلاء ثلاثة أصناف : الملائكة والانس والجن ، وقد وجب أن يكون الانس أفضل من الجن ، فثبت الذين ليس الانس أفضل منهم هم الملائكة والله أعلم .

ومما يدل على فضل الملائكة أن الله تعالى جعل دخولهم على بني آدم في الجنة وتسليمهم عليهم من حملة الثواب الذي وعدهم بحسن أعمالهم ، فقال : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم ﴾ (١) .

فلو كانت الملائكة دونهم لم تكن زيارتهم إياهم نعمة يحتاج إلى التوصل إليها إلى ترك الشهوات ، وإجهاد النفس في الصالحات ، فلما كان ذلك لا يوصل إليه إلا بما ذكرنا ، بأن الملائكة أفضل وأرفع قدراً ، وان زيارتهم للذين يزورونهم زائدة في أقدارهم معلية لرتبهم والله أعلم .

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه استدل على فضل البشر بأن الله عز وجل أقسم بحياة رسوله ﷺ فقال : لعمرك ، وآمنه من العذاب بقوله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ (٢) . وقال للملائكة : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ﴾ (٣) .

فالجواب : ان الله عز وجل ان كان لم يقسم بحياة الملائكة ، فلم يقسم بحياة نفسه ، فانه لم يقل : لعمري ، ولا قال بحياتي ، فلا يدل ذلك على أن حياة النبي ﷺ أجل قدراً من حياته ، وأقسم بالسماء والأرض ، ولا يدل ذلك على أنها أرفع قدراً من العرش والكرسي والجنان السبع التي لم يقسم بها واقسم بالتين والزيتون ، فلا يدل على أنها أجل رتبة من النخل التي جعلها الله مثلا لكلمة الاخلاص ، وسماها طيبة .

وأما قوله عز وجل : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه ، فهو نظير قوله للنبي ﷺ ، ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من

---

(١) الرعد : ٢٤ (٢) الفتح : ٢ (٣) الأنبياء : ٢٩

الخاسرين ﴾ (١) . فليس منه إذا دلالة ، وقد استوفيت الكلام في هذه المسألة فما خرجته من تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ (٢) ــ الوقوف عليه ــ فليرجع إليه إن شاء الله.

فصــــل

إن قال قائل : ان ذكرت الرسل جملة وجعلت الإيمان بهم جميعاً شعبة واحدة إذ كان بعض الرسل من الناس وبعضهم من الملائكة ، كما قال الله عز وجل : ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ (٣) .

قيل له : لأن الله عز وجل جعل الملائكة والرسل في الإيمان بهم صنعتين ، فقال : ﴿ والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ (٤) . فلأن الملائكة ليســـت من جنس البشر ، والرسل من بني آدم جمعهم جنس واحد ، فكان للأحسن أن يكون الإيمان بالملائكة شعبة ، والإيمان بالرسل من البشر شعبة سواها .

وأيضاً : فان الايمان بالرسل هو الاعتراف لهم بالرسالة من الله تعالى ، فأما الاعتراف بوجودهم فمما لا خلاف فيه بين المؤمنون بهم وبين المكذبين بهم ، وانما الخلاف في تصديقهم. فان الملائكة فانما يحتاج إلى الاعتراف بوجودهم أولاً ، ثم الاعتراف بمنازلهم وأحوالهم وأقدارهم ، والاعتراف بوجودهم ليس من إثبات الرسالة في شيء ، ولذلك وجب أن يكون الايمان بالملائكة شعبة سوى الايمان بالرسل من البشر والله أعلم .

---

(١) الزمر : ٦٥
(٢) البقرة : ٣٠
(٣) الحج : ٧٥
(٤) البقرة : ٢٨٥

الرابع من شعب الايمان

وهو باب في الايمان بالقرآن المنزل على نبينا محمد ﷺ وسائر الكتب المنزلة على الأنبياء صلوات الله عليهم

والايمان بالقرآن يتشعب شعباً **فأولاها** : الايمان بانه كلام الله تعالى، والا تبين من وضع محمد ﷺ ، ولا من وضع جبريل عليه السلام .

والثانية : بأنه معجز النظم ، لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يقدرون عليه .

والثالثة : اعتقاد ان جميع القرآن الذين يوفى النبي ﷺ عنه ، هو هذا الذي في مصاحف المسلمين ، لم يفت منه شيء ، ولم يصغ بنسيان ناس، ولا ضلال نجيب ولاموت فادي ، ولا كتمان كاتم ، ولم يحرف منه شيء ولم يزد فيه حرف ، ولم ينقص منه حرف.

فأما الوجه الاول : فان الله تعالى يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ [1] .

وقوله عز وجل : ﴿ والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته و كتبه ورسله ﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ [3] .

وقال : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً ﴾ [4] . وقال : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ﴾ [5] .

وقال تعالى : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً ﴾ [6] .

---

(١) النساء : ١٣٦ — (٢) البقرة : ٢٨٥ — (٣) البقرة : ٤

(٤) النساء : ٨٢ — (٥) الانعام: ١٥٥ — (٦) النساء : ١٦٦

وقال : وإنه لتنزيل رب العالمين نزل بـه الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ (١) . وقال : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ (٢) .

وآيات القرآن في هذا المعنى كثيرة،فان عارض معارض بقول الله عز وجل في كتابه : ﴿ إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ﴾ (٣) . وفي سورة أخرى : ﴿ إنه لقول رسول كريم ذي قوة (٤) عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ﴾ وزعم أن هاتين الآيتين دلالة على أن القرآن كلام جبريل ، قيل انه ليس معنى الآية ما توهمت لأن الله عز وجل قـال في آية أخرى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ (٥) .

فأثبت أن القرآن كلامه ، ولا يجوز أن يكون كلامه و كلام جبريل معاً ، فثبت أن معنى قوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ (أي قول تلقاه عن رسول كريم أو نزل عليه رسول كريم) .

فدل على هذا أن الله جل جلاله قال : ﴿ لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ (٧) . فثبت أن القرآن معجز . فلو كان من وضع جبريل لم يكن معجزاً لأن المعجز ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل .

فان قال قائل : ما أنكرتم أن يكون قول الله عـز وجل : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ (٨) . يجري على ظاهره ، ويكون معنى قوله حتى يسمع كلام الله أي الكلام الذي أمر الله عز وجل جبريل بالقائه إلى نبيه .

فأما قوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه ﴾ (٩) وسائر ما في مثل معناه ، فان وجهه: أن الله عز وجل إذا أمر جبريل أن ينزل على نبيه كتاباً ثم يحمله إليه ، ففعـل الكاتب ذلك أن يقال : هذا كتاب ذلك الملك ، صدر بأمره أو بعلمه .

وأما الاعجاز فقد يجوز أن يوصف به القرآن، وان كان من قول جبريل لأن الملك يقدر على ما لا تقدر عليه الانس والجن ، ولم يذكر الله عز وجل في التعجيز عن الاقيان بمثل

---

(١) الشعراء : ١٩٢ (٢) يوسف : ٢ (٣) الحاقة : ٤٠
(٤) التكوير : ١٩ — ٢١ (٥) التوبة : ٦ (٦) الحاقة : ٤٠
(٧) الاسراء : ٨٨ (٨) الحاقة : ٤٠ (٩) الانعام : ١٥٥

القرآن إلا الانس والجن ، فما الذي أحال أن يقدر على القرآن ، ولا تقدر عليه الانس ولا الجن .

هذا وقد جعل الله هذا ، وقد جعل الله تعالى فعلاً من أفعال الملائكة علماً يصدق نبي من الأنبياء ، وهو الذي أخبر قومه بان الله بعث لكم طالوت ملكاً ، فلما قالوا : ﴿ أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ﴾ (١) . قال : ﴿ إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ﴾ (٢) .

فجعل الله عز وجل حمل الملائكة ذلك التابوت المأنوس لبني إسرائيل من الوصول إليه ، انه لصدق النبي الذي أخبرهم أن الله تعالى ملك عليهم طالوت ، فلا ينكر أن يجعل الله القاء جبريل بالقرآن إلى نبينا صلوات الله عليه دلألة على صدقه ، وان جبريل هو الذي تولى وضعه ونظمه .

فالجواب : إن الله عز وجل لم يقصر التعجيز عن الاتيان بمثل القرآن على الانس والجن لأن الملائكة تقدر على الاتيان بمثله ، ولكن لان الرسالة كانت إلى الأنس والجن فوقع التحدي للفريقين حتى إذا عجزوا كان عجزهم دلالةعلى أن النبي ﷺ عاجزمثلهم فيظهر بذلك انه لم يأت بالقرآن من عند نفسه وانما أتي به من عند الله .

فأما الملائكة فلم يتحدوا عن ذلك ، لأن الرسالة إذا لم تكن إليهم لم يكن القرآن حجة عليهم فنبئوا أ كانوا قادرين على مثله أو عاجزين ، وهم عندنا عاجزون .

وليس الاتيان بمثل القرآن من قلب المدائن ، والاتيان بالتابوت في شيء ، لأن قلب المدينة وحمل التابوت العظيم كالذي يوصف من تابوت بني إسرائيل ، لقصور قواهم عنه، فاذا زادت قوة الملك على قوة الآدمي اضعافاً مضاعفة زاد عمله أيضاً كذلك .

وأما نظم القرآن فانه ليس من جنس نظم كلام الناس ولكنه مباين لهذا ، فلايهتدى إليها فيحتذى ويمثل ، فهو كتركيب الجواهر غير الأجسام ، لتصير أجساماً ، ولا على قلب الأعيان ولا يقدرون عليه من ذلك . والملائكة أيضاً لا يقدرون عليه كذلك .

---

(١) البقرة : ٢٤٧ (٢) البقرة : ٢٤٨

وما لا يقدر عليه الانس والجن من الاتيان بمثل القرآن ، والملائكة أيضاً لا يقدرون ، وفي ذلك ما ابان نظم القرآن ليس من عند جبريل ، لكنه من عند الله اللطيف الخبير ، وبالله التوفيق .

وقد دخل فيما ذكرته من هذا الوجه الثاني من الأوجه الثلاثة التي تقدم ذكرها في صدر الكتاب .

فأما الوجه الثالث فبيانه أن الله تعالى حفظ القرآن ، فقال عند ذكره : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (١) . وقال : ﴿ وإنه كتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٢) . فمن أجاز أن يتمكن أحد من زيادة شيء في القرآن أو نقصانه منه ، أو تحريفه أو تبديله ، فقد كذب على الله تعالى في خبره ، وأجاز وقوع الخلف فيه ، وذلك كفر .

وأيضاً فان ذلك لو كانت ممكناً لم يكن أحد من المسلمين على ثقة من دينه ويقين مما هو متمسك به ، لأنه لا يأمن أن يكون فيما كتب من القرآن أوضاع نسخ الصلوات أو بعض شيء منها ، أو تغيير أوقاتها أو الزيادة عليها ، أو نسخ الزكاة ، أو تغيير الأموال بها ، والزيادة في مقاديرها ، أو النقص منها ، أو نسخ الصيام أو الزيادة على شهر رمضان أو تبديله بغيره . أو نسخ الحج أو إيجاب تكريره . أو منع الجهاد ، أوتحليل الخمر والميسر واطلاق المحرم من الفروج ، أو تحريم المحلل منها .

فكان أحد من الناس لا يقيم عبادة إلا متشككا ، ولا يقدم على شيء ولا ينزع عن شيء إلا متشككا . ثم كان لا يؤمن أن يكون وصف نبينا بانه خاتم النبيين زيادة من نقصان الناس دون أن يكون تنزيلا ، فلعله عن قريب يبعث بعده نبي ، أو يكون قوله : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ﴾ (٣) . تحريفا وتبديلا ، ويكون المنزل يا بني اسماعيل ، واخباره هذا يدعو إلى تشريع كل خارج من الاسلام أن لايدخل فيه ، وإن الثقة به لا توجد لأهله ، وهذا غير الكفر . فصح انمن تمام الإيمان الإعتراف : بان جميعه هذا ، المتوارث خلفا عن سلف لا زيادة فيه ولا نقصان وبالله التوفيق .

---

(١) الحجر : ٩ (٢) فصلت : ٤٢ (٣) الاعراف : ١٥٨

فأما الإيمان بسائر الكتب مع الإيمان بالقرآن ، فهو نظير الإيمان بسائر الرسل مع الإيمان بنبينا ﷺ وعليهم، لأنه قد أخبر عن الله جل وعز : انه أنزل كتبا على أنبياء كانوا قبله ، كما أخبر عنه بانه كانت لله تعالى قبله رسل وأنبياء فلا يكمل تصديقه فيما يذكر انه انزل عليه إلا بتصديقه فيما انه انزل على غيره .

وهذا هو المعنى الذي ذكرته في وجوب الإيمان بسائر الرسل معه إلا ان الايمان بما أنزل عليه يقتضي قبوله واتباعه والعمل به على ما يلزمه ويدعو اليه .

والإيمان بما أنزل قبله لا يقتضي الا الاعتراف بانها كانت من عند الله ،وكانت في أوقاتها حقاً وصدقاً واتباعها واجباً للمتعبدين المخاطبين بها ، كما ان الإيمان به يقتضي الإيمان بقبول ما جاء به واتباعه في عامة ما أمر به ، ويدعو اليه .

والإيمان بالرسل قبله لا يقتضي إلا الاعتراف بانهم كانوا صادقين محقين ، وكانت طاعتهم لازمة للذين بعثوا اليهم والله أعلم .

وفي الايمان بالرسل معنى آخر لا لبس فيه : وهو ان عامتهم أتوا بمعجزات وبينات دلت على صدقهم ، فمن آمن بالنبي ﷺ بمعجز ، ليقولوا نؤمن بالنبي بعد قوة مع اثباتهم بالمعجزات ، كان قد أجاز على صاحب المعجزة مع إجازة المعجزة لغير النبي ﷺ ضدان يقتضيان لا ما يليقان ولا يليقان . فلهذا كان الإيمان بعامة الرسل من تمام الايمان بنبينا صلوات الله عليه وعليهم وبالله التوفيق .

فان قال قائل : ان الله عز وجل قال : ﴿ والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ [(١)] . بدأ بنفسه وثنى بملائكته وثلث بكتبه وذكر الرسل اخيراً ،وأنتم خالفتم هذا الترتيب فجعلتم الشعبة الثانية للايمان بالرسل ، والشعبة الثالثة الايمان بالملائكة ، والرابعة الايمان بالكتب ، فهل لكم من عذر في هذا ؟

قيل له : أما التنبيه بالرسل فلان الله عز وجل قال في آية الأمر : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ [(٢)] . وقرن الايمان برسوله بالإيمان به . وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ﴾ [(٣)] .

---

(١) البقرة : ٢٨٥ (٢) النساء : ١٣٦ (٣) الحديد : ٢٨

وقال في آية الوعد : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ﴾ [١] فأوجبنا التثنية بالرسل عند تعديد شعب الإيمان ، هذا ولان العلى الملائكة ، إنما وقع بخبر الرسل ، فكانت التثنية بالرسل لذلك أولى من التثنية بالملائكة .

ثم ذكر الملائكة بعد الرسل أولى من ذكـر الكتب ، لأنهم من جملة الرسل وان كانوا صنفاً غير الرسل الذين من البشر ، ولأن الكتب تنزيل الملائكة ، فالأحسن إذاً تقـديم ذكرهم على ذكر تنزيلهم.

فصـــل

ونقول : ان الإيمان بالكتب المنزلة على الأنبياء الذين كانوا قبل نبينا ﷺ وعليهم ، وإن كان واجباً فلا يؤخذ بقراءة ما في أيدي اليهود والنصارى منها ، لأن الله عز وجل قد خوفهم وزجرهم ونسبهم إلى انهم يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عندالله ، ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ [٢] . وقال: ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ [٣] وقال : ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون ﴾ [٤] .

وإذا كان هذا هكذا ، لم يقع للمسلم تقديماً بقول اليهود انه من التوراة. ويقول النصراني انه من الانجيل ، أو يقولان : انه من الزبور ، إذ كـان لا يأتيه ان يكون من وصفهم الذي أخبر الله عز وجل بانهم ينسبونه إلى الله عز وجـــل ، يعلمون من أنفسهم بانهم كاذبون .

وأيضاً فان الكفار لا شهادة لهم أصلا ، فكيف يقبل قولهم على الله تعالى ورسله ، لكنهم أبعد الناس من ذلك ، فاولاهم بالرد والتكذيب. هذا وقد ظهر أكثر ما في أيديهم ، لا يجوز أن يكون منزلا من عند الله عز وجل لأن ما يدعون اليه ، إنه التوراة مغازي مـوسى وقصته بعد فرعون ، وما دار بينه وبين بني اسرائيل طول مقامه بين أظهرهم ، وصفة وفاته

---

(١) النساء : ١٥٢
(٢) آل عمران : ٧٥
(٣) المائدة : ٤١
(٤) آل عمران : ٧١

فلا يخفى على عاقل ان ذلك على وجهه لم ينزل عليه ، وانه بمنزلة الأخبار التي جاءت من السنن ومحاورات النبي ﷺ وأصحابه وسائليه والقادمين عليه من الوفود وغيرهم ،وعن جابر أن يلحق شيء من ذلك بالقرآن ، أو يدعى باسمه ، فلذلك ما كان ذلك لموسى ﷺ ، لا يجوز أن يلحق بالتوراة أو يدعى باسمها .

فأما ما في القرآن من ذكر بعض حروب النبي ﷺ ، وليس على معنى الاقتصاص له بتلك الحروب ولأصحابه وإنما هو ذكر أحوال ومقامات أكرمهم الله تعالى فيها بيده ونصره ، فقرر عندهم نعمه التي أنعمها عليهم ، لئلا يغفلوا عنها ، ويزداد بصيرة في دينهم لأجلها ، ويحمدوه عليها .

وذكر أمور وقعت منهم على وجه لم يرضه الله تبارك وتعالى ، فأنكرها عليهم ، لئلا يعودوا لمثلها ، وما في التوراة أن يدعو بها ليس على هذا الوجه ، وإنما هو اقتصاص مجرد لجميع ما كان من موسى وقومه ظعناً وإقامة ، فما ذلك إلا كحديث رسوله ﷺ الذي رواه جابر فاستوفاه ، وسائر المغازي ، وما جاء في وفاة رسول الله ﷺ . فإذا لم تجز دعوى التنزيل في هذه فتلك مثلها وبالله التوفيق .

وأما ما يدعي النصارى انه الإنجيل ، فإن فيه من الكفر الصريح من نحـــو قولهم : ﴿ باسم الأب والابن والروح القدس ﴾ ، وقولهم : يا ملكوت ارحمنا ، مالا شكل على عاقل ان الله عز وجل لا يرضى من عباده باطلا ، فضلا عن أن يأمر بانزاله ، وعند علماء المسلمين انه ليس عند النصارى ذلك الانجيل المنزل على عيسى صلوات الله عليه،وانه فات مـــا جرى على بيت المقدس وبني اسرائيل ايام بخت نصر[1] .

ولكن جماعة من علمائهم وضعوا لها كتبـــاً تجمعهم ، وسموه الانجيل ، ليكون ذلك أعظم لاسمه ، ودعي الناس إلى قبوله ، وما كان بهذه المنزلة فالبر في مجانبته لا في قراءته وبالله العصمة .

ولو ثبت ان شيئاً مما في أيدي اليهود والنصارى منزل من عند الله تعالى لكان الاحب

---

(١) نبوخذ نصر .

ـــ وأسأل الله التوفيق ـــ ان لا ينسخ ولا يدرس لما روى عن عمر رضي الله عنه انه جاء رسول الله ﷺ بصحيفة فيها التوراة ، فكان يقرأها ورسول الله ﷺ يتغير لونه من الغضب ، وعمر رضي الله عنه لا ينظر اليه فلا يراه ، فلما فرغ قال له : (أمتهوكون فيها أنتم يا ابن الخطاب ، ، لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي)[1] . فقال عمر : فوددت مما رأيت رسول الله لو كنت أسلمت يومئذ .

ففي هذا الخبر انه لا ينبغي للمسلم أن يدرس التوراة ، فلا يجعل لها صحيفة عنده ، ومعنى ذلك ـــ والله اعلم ـــ ان النسخ والدرس إنما يراد بهما حفظ الكتاب عن الفناء والضياع ، وليس على المسلمين من ضياع تلك الكتب من أيدي اليهود والنصارى ضرورة لأنهم في بقائها في أيديهم نفع ، بل ذهابها خير على المسلمين من بقائها . وبقاؤها أضر لهم من ضياعها ، لأنها ما دامت عندهم وفي أيديهم ، فانهم يدعون لاجلها أهل الكتاب ويظهرون من أنفسهم الاستغناء بها مما عندنا ، وإذا عفت ودرست ولم يبق عندهم منها شيء انقطعت عنا مضاهاتهم ايانا ، وما تقدرونه من مكافأتنا ومساواتنا ، ولعل الضرورة تحملهم على الدخول في ديننا ، كما دعت كثيراً من العرب من الفترة في الدخول في دين أهل الكتاب .

فأما القرآن ، فإنما ينسخ ويعلم ويتعلم ويتلى آناء الليل والنهار لانها معجزة رسول الله ﷺ وحجته الباقية بعده ، وجامع الاحكام الثانية التي لا معقب لها إلى قيام الساعة ، فلا غنى عن حفظه وصونه عن الذهاب والضياع . وهذا المعنى غير موجود في تلك الكتب فيما بينه في النسخ والدرس والله أعلم .

وأيضا فان المسلم إذا قرأ التوراة وقف على الاحكام التي كانت يومئذ ، ووجد بينها وبين الاحكام المشروعة لنا ذلك التباين العظيم ، لم يؤمن ان يكيده الشيطان فيوسوس اليه في بعضها انه ما يليق به أن يكون حكما ، لانه لا يجد له فيما عنده وجهاً . وفي بعضها ان هذا لو كان اليوم حكماً لكان أشبه لما تجده في قلبه قرب وجهه وحسن

(١) لم أجد هذا في الكتب التسعة .

موقعه ، وكل واحد من هذين باب يسرع إلى الكفر ، فكان ابقاؤه اولى من التعرض له والله أعلم .

وأما ما جاء عن النبي ﷺ من استدعاء التوراة ، واستقرابه الرجم ، فإنما كان لأن اللذين أراد رجمهما كانا يهوديين ، وكان عبد الله بن سلام أخبره ، وهـــو يومئذ مسلم ، ان الحكم عندهم في مثلها الرجم ، فأراد النبي ﷺ ، أن يضرب ذاك عليهم لئلا ينسبوه إلى انه قبلهم ادخالا للنقص على أهل دينهم ، لا لأن القتل كان واجباً عليهم وليصحح عليهم انهم يكتمون الحق وهم يعلمون ، وإن كتمانهم أمره الذي يجدونه في كتبهم ، مثل كتمانهم الحكم الذي كان عندهم ، ولم يكونوا يعترفون به ، والله أعلم ، وبالله التوفيق .

★ ★ ★

الخامس من شعب الايمـــان

وهو باب في ان القدر خيره وشره وحلوه ومره من الله عز وجل

القدر – بفتح الدال – هو المقدور . والقدر – بتسكين الدال – هو الفعل .

قال الله عز وجل : ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ (١) .

وقال تعالى: ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾(٢). وهي الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم، وعلمنا انه أراد بالقدر ذلك الفرق . والقدر والتقدير واحد ، والقدر والمقدور واحد . والقدر والقدر كالنقص والنقص والحبط والحبط ، وبان بذلك ان المراد بالحديث : ان كل مقدور فالله قدره، وإن الخير والشر وإن كانا ضدين فان قادرهما واحـــد ، وليس قادر الشر غير قادر الخير ، وكما يقوله الثنويه .

فان قيل : فان الله عز وجل خص الخير بإضافته إلى نفسه ، فقال ببدل الخير : انك على كل شيء قدير ، وعن النبي ﷺ في استفتـاح الصلاة : (والخير منك واليك ، والشر ليس اليك) (٣) .

فالجواب : ان معنى تخصيص الخير باضافته إلى الله عز وجل للاعتراف له بان النعم كلها من عنده ، لأرفع ان يكون الشر من عنده ، كما ان تخصيص السموات والأرضين باضافتهما إلى خلقه ، إنما هو الإعتراف بان كل موجود سواه وإن عظم ولم يقدر العباد قدره ، فالله خالقه ، لارفع أن يكون الذر والهباء من خلقه .

وأما قول النبي ﷺ : (الخير منك واليك والشر ليس اليك) فان معناه: ان الإحسان منك واليك، أي ان ما يصيبنا من خير وحسن فأنت مؤاتيه . والمنعم وما يكون منا من طاعة وفعل حسن ، فأنت المقصود به ، وعبادتك هي المراد منه .

---

(١) المرسلات : ٢٣ (٢) القدر : ١

(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

فأما ما يصيبنا من خير وشر فانه وإن كان منك أيضاً فان ذلك بشرور أنفسنا وهي ما تقع من أعمالنا من سيء وقبيح فلست المقصود به ، أي ليس غرض المسيء منا في اساءة خلافك وعصيانك ، كما ان غرض المحسن منا في إحسانه طاعتك وعبادتك ، وإنما هو عقله بغرض فيتبع المسيء فيها شهوته من أن يكون العصيان عضده وإرادته ، ولو قصد ذلك لضاهى ابليس ومن كان من المتكبرين ، فانما هذا الكلام تبرأ من النفاق والعناد لا إنه نفي الشر اصلا عن الله ، وانكار ان يقدر الشر وبالله التوفيق .

فان قيل : قد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ (١) . وهذا خلاف ما يقولون !

فالجواب : ان معنى الآية ﴿ ما أصابك من شيء ﴾ فسرك من صحة بدن وظفر بعد، ووسعة رزق ونحو ذلك ، فالله متبديك بالإحسان به اليك ، وما أصابك من سوء يسؤك ، وتعمل فتكسب يدك ، لكن الله تعالى مع ذلك سابقه اليك ، والقاضي به عليك ، كما قال في أخرى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ (٢) .

ويدل على صحة هذا انه عز وجل قال في هذه السورة : ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾(٣) . ثم قال بعد هذا بلا تصل ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ (٤).

فكان الذي توجبه مجموع الآيات الثلاث التي ذكرتها : ان ما أصابك من حسنة من الحسنات التي تقدم ذكرها ، فالله موليها ومبتديء للانعام بها ، وما أصابك من خلافها فالله قاضيها وقادرها أيضاً ، لكنها جزاء لمن أصابه ذلك بكسب حياة على نفسه ،فكأنه هو الفاعل بها بمكان نفسه كما ان قتل قتيل كأنما قتل نفسه ، وإن كان ولي قتيله هو الذي يقتله والله أعلم .

وأما قول الله عز وجل ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ (٤) . فليس على معنى يوجب أن يكون القدر هو القدرة والتقدير . ومعناه انا كل شيء خلقناه بحسب ما قدرناه قبل أن

---

(١) النساء : ٧٩ (٢) الشورى : ٣٠ (٣) النساء : ٧٨
(٤) النساء : ٧٩ (٥) القمر : ٤٩

لخلقه إذ كان علمنا به سابقاً له ، فاثبتنا منه ، فاعلمناه في أم الكتاب وبينا ما هو كائن منه قبل أن يكون . فإذا كان بحسب ذلك الذي قدرناه وفي الوقت الذي قدرناه ، فالقدر هو المقدور ، وكما ذكرنا في صدر الكتاب وبالله التوفيق .

وجاء في ذكر ما نزلت فيه هذه الآية : ان قوماً من اليهود جاءوا يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر ، فنزلت : ﴿ انا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ .

وروى في التغليظ عن من قال ﴿ لا قدر ﴾ وان احد الذين هم أشد الناس عذابا فكذب بالقدر أخبار .

وذكر أبو بكر الجلاد البصرى عن المزني رضي الله عنه انه قال : سألت الشافعي رضي الله عنه عن القدرية فقال : هم الذين يقولون ان الله يعلم الذي يكون .

ومعنى تسمية هؤلاء قدرية ، ان الله عز وجل قال في كتابه : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ (٢) . فمن بغي أن يعلم الله قبل كونه ، بغي أن يكون لله تعالى كتاب أثبت فيه ما هو كائن قبل أن يكون ، وبين فيه انه كيف يكون ومتى يكون ، وأبطل أن يكون الله تعالى قدر قدر المقادير ، ودبر بعلمه الأمور ، والحقه في العجز بعباده الذين لا يعلمون الشيء حتى يكون ، فقيل لهم قدرية لأن بدعتهم وضلالتهم كانت من قبل ما قالوه في القدر ، ثم على ذلك كفار ، لأن من عجز الله تعالى وجهله لم يكن عارفاً به وبالله العصمة .

وإذ قد كتبنا في تفسير اسم القدر فاعلمنا انه محتاج اليه ، فلنرجع إلى الكشف عن عرض هذا الكتاب ، والمقصود به بقول رسول الله ﷺ : (القدر خيره وشره من الله وحلوه ومره من الله) (٢) . فنقول — وبالله التوفيق — ان المراد بهذا إيجاب الاستسلام لا قضية الله تعالى وإقراره بالقلب واللسان معاً لهما بالقلب ، فان لا ينظر أحد ولا يتأثر مما يجري به القضاء بما يوافقه ، ولا يأنف ولا يجري لما يأتي به القضاء مما لا يوافقه .

وأما اللسان ، فهو أن لا يفتخر على غيره بسبب ذلك إلى سبب يكون مرجعه إلى

---

(١) الحديد : ٢٢ (٢) ورد في سنن ابن ماجه « المقدمة » باب ١٠ ، حديث رقم ٨٧ ، وفي صحيح مسلم « الايمان » رقم ١ ٠ ٧

نفسه ، ولا يضجر مما يسوء فعل من يشكو أحداً وينسبه إلى ظلم اصابه من قبله ، لكن نضيف الأمرين إلى الله تعالى وننسبهما إلى قضائه وقدره ونذعن ونستسلم لمـــا يكرهه ، ويحمد الله تعالى على ما يسره .

ومنزلة هذا الباب مما كتبت في باب الايمان بالله جل ثناؤه والاعتراف له كمنزلةالتزام طاعةالله وطاعةرسوله والقبول لماخاطبهبهفي كتابه من آيات الباري جل ثناؤهوالإعترافله بالخلق والإبداع ، فان الإقرار له وبالخلق كما يقتضي وجوب الطاعة لهفيأوامرهونواهيه، فكذلك الإقرار له بالتدبير يقتضي الاستجداء له والاستسلام لتدبيره ، فلا ينسخط منه ما يثقل على الطبائع ولا يستشعر لما يحل عليه اشرا ولا بطراً .

قال الله عز وجل : ﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسوليدعوكمفيأخراكم فأثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ﴾ (١) .

ومعلوم ان الحزن على ما يفوت والفرح بما يأتي موضوع في التنبيه والتجله ،وانالتجلي بالحزن بما يفوت أصلا استحقاق له موجوداً ومعدوماً ، والتجلي من الفرح بما يسر ويأتي ازدراء له وقلة حفل به أيضاً ، وهما جميعاً غير مرضيين . فثبت ان المراد بالحزن في الآية حزن السخط والتضجر وبالفرح فرح التبذخ والتكبر والله أعلم .

وقال عز وجل حكاية عن قارون انه لما قيل له : ﴿ وأحسن كما أحسن اللهإليكولا تبغ الفساد في الارض ، إن الله لا يحب المفسدين ﴾ (٢) .

قال ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ (٣) ثم انكر عليه قوله ، واخبر باستحقاقهالأذى والعقوبة ، فقال : ﴿ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ﴾ (٤) .

فدل ذلك على ان من أبصر لنفسه حالاً يحبها ويرضاها ، فرأى انها انما دأبت لهبقوة نفسه كان في ذلك مخالفة شرط إيمانه مبايناً لما يجب من حق الله عليه ، وقوله : ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ يحتمل انه أراد به علم كنوز المتقدمين وقع اليه فاستخرجهـــا فاستولى عليها .

---

(١) آل عمران : ١٥٣

(٢) القصص : ٧٧

(٣و٤) القصص : ٧٨

ويحتمل انه اراد به علم الصنعة ، وانه كان من أحذق الناس بها وأبهرهم فيها ، وان تلك الكنوز لما اجتمعت له من هذا الوجه ، وايا ما كان من هذين فان الله عز وجل اخبر عنه : انه فرح لما رأى لنفسه من الأموال ، فقال له قومه : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ (٤) والمعنى انه اختال وافتخر واستطال ونكر كما قال عز وجل في آية اخرى : ﴿ ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ﴾ (٥) . وانهم سألوه ان يحسن إلى الناس فيواسيهم ويأخذ بايديهم فقال لهم : ﴿ إنما اوتيته على علم عندي ﴾ .

وظاهر هذا انه عارض بهذا الجواب قولهم : واحسن كما احسن الله اليك ، اى ليس هذا مما لا يأتي الله من غير كدح كان لي فيه ، ولكنه قال توصلت اليه بعلم كان عندى ، اى انه فائدة رأيي وتدبيرى ، فلا يلزمني ان اواسي به غيرى شكر الله تعالى به

ثم انه خرج على قومه في زينته كما يخرج ذو النعمة العظيمة والمال الجم القوى متعظماً بها على قومه ، فأنكر الله ذلك عليه وعاجل أخذه بطغيانه واضافته المال إلى حوله وقوته ، وخسف به وبداره كان فيها من كنوز الأرض ولم يورثها موسى صلى الله عليه وقومه إذ كانت مشؤومة أطغت قارون وأضلته وحملته على ترك الانقياد لموسى والايمان به واتباع سبيله ، فكان يظن الأرض أولى بها من ظهرها .

ألا ترى أن الحل الذي جمعه السامري فاتخذ منه العجل وأضل به بني إسرائيل لم يدبه موسى ولم يردوه إلى الذين أخذ منهم ، ولكنه حرقه ثم ألقاه في اليم . كذلك كنوز قارون لما كانت كما ذكرنا سحقت وأبطلت ، ولم يمكن منها أحد من المؤمنين وبالله التوفيق .

وقد يحتمل ان كانت الكنوز اجتمعت له بعلم الصنعة ، أن يكون لله تعالى خسفها لأنها كانت معموله لم يكن ذهبها ذهباً ، ولا ورقها ورقاً ، فلم ير منها لله تعالى لنبيه موسى صلوات الله عليه ولا للمؤمنين من قومه ، ولو كانت خالصة نقية لاشبه أن يورثها إياه ، كما أورثه وقومه أموال فرعون وقومه حيث يقول : ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ﴾ (١) . ﴿ كذلك وأورثناها قوماً آخرين ﴾ (٢) . وفي آية أخرى : ﴿ وأورثناها بني إسرائيل ﴾ (٣) وبالله التوفيق .

---

(١) القصص : ٧٦ (٢) هود : ١٠ (٣) الشعراء : ٥٨
(٤) الدخان : ٢٨ (٥) الشعراء : ٥٩

وقال عز وجل في آية ثالثة : ﴿ وتجعلون رزقكم إنكم تكذبون ﴾ (١) . فجاء في تفسيره عن النبي ﷺ : انهم كانوا يقولون : مطرنا بنو كذا ، ومعنى هذا انهم كانوا يرون النو موجباً للمطر ، فكانوا ينسبون المطر إليه ، ويعقلون عن خلق الكواكب ورتب أحوالها من الأنوار وغيرها ، وان يزول المطر عند الانواء ، إنما يكون بارادة الباري سبحانه وتعالى ، فان شاء أن يغير العادة أو يعاقبهم بالجدب ، فيحبس المطر عند الانواء لم يكن له ذلك مانع ، ولا كان لما يريده بهم دافع ، فذم الله تعالى من قولهم وغايتهم ، فقال : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ (٢) .

فالمعنى – والله أعلم – وتجعلون شكر ربكم انكم تكذبون بمن يرزقكم وتنسبون ما يأتيكم إلى ما هو خلقه ، وإنما صلح أن يوضع إسم الرزق مكان شكره ، لأن شكر الرزق يقتضي الزيادة فيه ، فيكون الشكر رزقاً على هذا المعنى ، فقيل : ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ أي شكر رزقكم الذي لو وجد منكم لعاد رزقاً لكم ، إنكم تكذبون بالرازق أي تضعون التكذيب مكان الشكر كما قال : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾ (٣). أي لم يكونوا يصلون ، ولكنهم كانوا يصفرون ويصفقون مكان الصلاة من المسلمين .

وفي هذا بيان ما أصاب العبد من خير أو شر ، فلا ينبغي له أن يراد من قبل الوسائط إلى أخرى العادة بان تكون أسباباً وجهات لحصول أقضيته وأقداره إلى عبيده ، بل ينبغي أن يراه من قبل الله جل ثناؤه ، ثم يقابله بما يليق به من شكر أو صبر تعبداً له وتدللاً ، وبالله التوفيق .

ويدخل في هذا الباب ان التاجر الكسوب الضارب في الآفاق إذا اجتمع عنده المال ، فما ينبغي له أن يقول : انما أصبت المال بجهدي وجدي ، بل ينبغي أن يقول : وفقني الله للكسب فكسبت ، ورزقني فأصبت ، لأن لو شاء لأقعده عن الكسب ، ولو شاء لحرمه ما كان يأمله بالكسب أو قوته بعدما يحصل ، إذ ليس كل طالب يجد ولا كل واحد يبقى له ما يجده وهذا عادة كما ان خلافه عادة ، فاضافة الموجود اذاً إلى السبب المختلف خرق وجهل ، وإضافته إلى السبب الذي لا يخلف وهو فضل الله ورحمته هي التي تحق وتلزم ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ فاذا مس الإنسان ضر دعانا ﴾ (٤) .

(١و٢) الواقعة : ٨٢ (٣) الانفال : ٣٥ (٤) الزمر : ٤٩

ثم إذا خولناه نعمة منا قال : إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ، أي ابتلاء ومحنة ليظهر إخلاصه ومعرفته إن كان من المخلصين العارفين ، وجهله وغباؤه ان كان من الأغنياء الجاهلين . فيصف النعمة إلى الله عز وجل ويقوم بشكرها ان كان من الأولين ، وينسبها إلى قوله ويغفل عن شكرها ان كان من الآخرين ، فيستحق في كل حالتيه خيراً يجب عمله الا ان يمكن بالعفو عنه إذا شاء والله أعلم .

وقال عز وجل في آية أخرى : ﴿ أو لم تعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ (١) . فاستجهل عزيزى سعة الرزق وضيقه يكونان الا من قبل الله تعالى ، واستنكر الذهاب عن معرفة ذلك ، لأنه لا سبب بقدر العبد أن يصل إلى المال من حصته وقد لا يصل ، وذلك انه يشهد أن الموجب للغناء والوجد ليس مايخلف من الأسباب ، وإنما هو مما لا تخلف من إرادة الله تعالى ، فانه ان يرد الغناء لأحد فيفتقر ، ولا الفقر لأحد فيستغني ، فمن كان به للإيمان من الإذعان للحق إذا ظهر له ، فهذا له انه كافيه . وبان بقوله عز وجل : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ (٢) . ان الإعتراف بما ذكرت الانقياد له من الايمان والله أعلم .

وقال عز وجل في آية أخرى : ﴿ أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ (٣) . فتداخل وعز بتعريفهم نفسه وانه خالقهم ومنشئهم ، لأن لا يرى أحد منهم انه إذا أصاب أهله فولدت منه كان هو السبب بنفسه لوجود ذلك الولد ، فانه إذا رجع عقله ، علم انه لا يقدر على إغلاق ما به برحم أهله ان لم يعلق ، وان علق فلا قدرة له على تعليقه من حال إلى حال ، ولا الزيادة في أجزائه ولا تركيب الولد منه ، وتصويره .

وإذا نظر في انه ليس كل من يواقع أهله يولد له ، ولا كل ما يعلق ينمو ، ولا كل ما ينمو يسلم ، علم أن إحالته كون الولد على السبب المخلف باطل ، فانه لا وجه إلا إحالته على إرادة الباري جل ثناؤه وصيغته ورزقه وبالله التوفيق .

ثم قال عز وجل : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون ﴾ (٤) فأبان لهم أن ما يحرثونه فليس يثمر غرضهم فيه بنفس

(١و٢) الزمر : ٥٢ (٣) الواقعة : ٥٩ (٤) الواقعة : ٦٤

الحرث ، وإنما يتم ببنائه ونموه وتزايده حتى يبلغ غايته التي يتجاوز له عنهما ، وكل ذلك ما لا صنع لهم فيه .

وقد يحرث الواحد فيصل من حرثه إلى مراده ، ويحرث الآخر فلا يصل من حرثه على شيء مما كان في نفسه .

فينبغي لهم أن يعلموا أن الله عز وجل هو المنبت للحب والقلب له حالاً فحالاً ، إلى أن يظهر الريع ، ويبلغه غايته التي قدرها له .

ولا يقول أحد جربت فأصبت بل يقول أعانني الله فجربت ، وأعطاني بفضله فأملت واستحب لكل من ألقى في الأرض بذراً أن يقول بعد الاستعاذة : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ (١) . بل الله الزارع ، والمنبت والمبتغ ، اللهــم صلي على محمد وعلى آل محمد وارزقنا ثمره وجنبنا ضرره ، واجعلنا لا نعمك من الشاكرين .

ثم قال : ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحـــن المنزلون ، لو نشاء جعلنــاه أجاجاً ﴾ (٢) . يعرفهم أنهم كانوا يتخذون المصانع كما ينزل عليهــم من القطر ، حتى يجتمع لهم فيها ما يشربونه ، ويستمتعون به المدة الطويلة ، فليس لهــم أن يظنوا ان تمكنهم من الماء ووصولهم إليه ، إنما هو من قبل أنفسهم ، فيمتدحوا لسعيهم على تحصيله ، ويظنوا انه على ما يسألهم إياه من أهل الحاجة إليه ، وينبذ جوابه على مــن لا عنده ، بل ينبغي لهم أن يعلموا أن ذلك رزق ساقه الله تعالى إليهم ويطول بــه عليهم ، وانهــم لو اتخذوا مكان كل مصنعة مصانع ، وحبس الله عنهم القطر لم تغن عنهــم مصانعهم شيئاً .

ولو أنزل الله عز وجل عليهم القطر فأبرزه ولم يغزره لما افادتهم المصانع شيئــاً ، ولو أغزره ثم ما يمكن عدمه مع وجوده ، ووجوده مع عدمه . بل الواجب إحالته على المنان الكريم الفعال لما يريد ، ومقابلة فضله بالشكر . رجاء أن يديمه لهم .

ثم قال عز وجل: ﴿أفرأيتم النار التي تورون، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾ (٣) فعرفهم أن النار التي يورثونها من الأشجار ويقولون : في كل شجرة نار ، واسمخد المــزج

---

(١) الواقعة : ٦٤ (٢) الواقعة : ٦٩ (٣) الواقعة : ٧٢

والعقار هو الذي ركبها فيما يورى منه لا يستطيعون أن يدعون أنهم أو آباءهم الأقدمين ، الذين هم أودعوها إياها وركبوها فيها ، وإذا كان ذلك من صنعه ، كما جمع المتفرق منها في الشجرة عند معالجة الايراء ثم اخراجها منه صنعه ، وإلى ذلك ، فهو الذي هداهم أبر النار من الشجرة ، ولولا ذلك لما علموا أن الشجر الأخضر الذي جعل قوامه بالماء المطفي النار محلا للنار ، وجامع بينها وبين الماء ، ولو شاء عند قعدهم الايراء أن يحبس النار فلا يثررها لهم لفعل، وانه ليس كل قادح يورى وقادح ، وان أمعن لا يورى ، لم يجز أن يتوهم أن القدح موجب للايراء ووجب أن يضاف إلى ذلك إلى السبب الذى لا يختلف وهو إرادة البارى جل ثناؤه وفضله وعطيته ، ولا يوصف الشجر بالمجيد من صفات الله تعالى ، وهو المجيد والماجد وبالله التوفيق .

وقال جل ثناؤه في آية أخرى : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ، وان تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ، ويتولوا وهم فرحون ﴾ (١) فأخبر نبيه ﷺ أنه إن أصابته حسنة ساءت المنافقين القاعدين عنه ، ويتخطوا إصابتها إياك .

وإن أصابتك مصيبة فرحوا بها وقالوا : إنا سلمنا مما أصاب غيرنا لأنا احتطنا لأنفسنا بالتخليف عنه ، واستقلنا الأمر بواجبه ، وحسنا تدبيره ، فذمهم الله عز وجل وعاب قولهم هذا ، وأمر النبي ﷺ أن يخالفهم فيقول : ﴿ لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا ﴾ (٢) أى خالقنا ، وهو في أيدى الملائكة ينظرون فيه ويعلمون منه إحاطة الله تعالى بما هو كائن من أمور عباده قبل أن يكون .

فلا سبيل لأحد الاحتراز من أن يصيبه ما كتب أن يصيبه ، ولا إلى الاحتراز ما لم يكتب أن يصيبه ، وبالله التوفيق .

وقال عز وجل : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ .

ثم قال : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم ﴾ (٣) . يحتمل أن يكون المعنى : فاعلموا هذا وأعلمناكم هذا لكيلا تحزنوا على ما يفوت ، ولا تفرحوا بما أتى .

---

(١) التوبة : ٥٠ (٢) التوبة : ٥١ (٣) الحديد : ٢٢

وقد بينت فيما تقدم أن هذا حزن السخط وفرح التبذخ ، ويدخل على ذلك قول الله عز وجل موصولاً بما ذكرت : ﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ (١)

فابان أن الفرح الذى ذمه وأنكره هو الاختيال والتفخر به على من لا يؤت مثل ما أوتي ، وذلك فعل من يرى أن الذى تيسر له فيمن قبل نفسه . فأما من يعلم انه انما أنعم به عليه من لا يعجزه تعميم العباد كلهم بمثل ما أعطاه وخير وأكثر منه ، فانه لا ينكر بما أوتيه على غيره ولا يروى احداكما لأجل أنه لا يرى له مثل ما يرى لنفسه على حمد ربه والتقرب إليه بما يديم له عوارف فضله .

وقال في آية أخرى : ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ﴾(٢) فأمر نبيه ﷺ أن يخبر أمته انه ليس إليه من أمره شيء ، وانه لا يقدر على أن ينفع نفسه ولا يضرها ، ليعلموا أنه إذا كان مع اصطفاء الله تعالى إياه برسالته لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، فمن لم يكن له من الله هذه الأثرة وهذه المنزلة فهو من أن يملك مضر نفسه أو نفعها بعد ، وعن أن يملك نفع غيره أو ضره أعجز ، وبالله التوفيق .

وأما الحديث الذى جاء عن رسول الله ﷺ في القدر ، وان خيره وشره من الله ، فقد روى فيه : « واعلم ان ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك »(٣). ومعنى هذا وجوب البصر ، وإلى الله تعالى من الحول والقوة والاستسلام للقضاء والقدر وشرح الصدر به . ومعنى حلوه ومره ما سر وجف عن الطبع وساء وثقل على القلب والله أعلم .

---

(١) الحديد : ٢٣ (٢) الاعراف : ١٨٨

(٣) ورد في سنن ابن ماجه « المقدمة » باب ١٠ ، حديث رقم ٧٧ .

السادس من شعب الايمان

وهو باب في الايمان بالله واليوم الآخر

ومعناه التصديق بان لايام الدنيا أخرى ، أي أن الدنيا متصفة وهذا العلم يومأينتقض صنعه ، وينحل تركيبه في الإعتراف بانقضائه إعتراف بابدائه ، لأن القديم لا يفنى ولا يتغير ، وفي اعتقاده وانشراح الصدر به ، ما يبعث به على فضل الهبة من الله تعالى وقلة الركون إلى الدنيا والتهاون باحزانها ومصائبها والصبر عليها ، وعلى مضض الشهوات إحتساباً وثقة بما عند الله تعالى من حسن الجزاء والثواب ، وقد ذكره الله عز وجل في كتابه ، فقال : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ [1] .

وقال : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ [2] . إلى غير ذلك من آيات سواها .

ومن أنكر اليوم الآخر ، فكأنما أنكره من حيث أن الأفلاك ليست بحدثه ، وأن العناصر وهي الماء والتراب والهواء والنار ليست بحدثه ، كان أهم ذلك إلى أن أنكروا فناءها واقتصاصها ، وللمسلمين عليهم في نقض أصولهم ، وإفساد مقالاتهم ، وإبانة أن كل ما سوى الله فهو صنعه ، فلا قديم عليه ما لا يبقى لمتأمله بعد وقوعه عليه موضع شبهة باذن الله وتوفيقه .

وقد كتبنا في الشعبة الأولى من اطراف ذلك ما أمكننا أن تقع به الكفاية ، وإذا ظهر أن كل ذلك حدث ،فامره إلى محدثه بنفيه ما شاء ويديم له هباته المشاهدة له ما يشاء . فإن أراد إفناءه أو تغيير كله أو بعضه لم يعجزه ، فانه القادر على ما يشاء والفعال لما يريد.

وقد أخبر عز وجل على لسان نبيه ﷺ أنه مفني على وجه الأرض ومبدل الأرض غير الأرض ، وأن الشمس تكور ، وأن البحار تسجر ، والكواكب تنثر فيذرها قائمة

---

(١) البقرة : ٨ (٢) التوبة : ٢٩

صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، وكل ذلك كائن على ما جاء به الخبر ، وعـد الله صدق وقوله حق . وأما ما وراء ذلك مما لم يخبر الله عز وجل عنه بشيء ، فأمره إليه ، وهو أعلم بما هو فاعله .

ولا ينبغي لنا أن نتكلم فيه بشيء لأن القول على كل حال بغير علم حرام، فالاجتراء به على الله جل ثناؤه أشد وأولى بالحرمة . أعني بهذا إن سائل سأل: أن السماء إذا طويت والشمس إذا كورت أو الكواكب إذا انتثرت ، أو عن الأرض بعد ركوب الناس الصراط وفراغها منهم ، ماذا يكون من أمرها بعد ذلك ؟ لم يكن له جواب يمكن القطع بـــه ، والأولى بالمسؤول أن يقول : كما قال الرسول ﷺ للذي سأله عن الساعة : « ما المسؤول عنها باعلم من السائل » [1] .

فان مثل هذا لا يدرك إلا بخبر ولم يأتنا في هذه الأبواب عن الله جـل ثناؤه خبر إلا أن في الجملة يخبرنا بانتقاض الأجسام ، فإن أراد الله تعالى افناها وحبس البقاء عنها، وفعل ذلك بها ، وإن أراد غير ذلك فله الخلق والأمر يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو على كل شيء قدير .

فصـــــل

إن سأل سائل عن تفسير الساعة التي تكرر ذكرها في القرآن ، قيل : الساعـــة على وجهين : أحدهما الساعة الأخيرة من ساعات الدنيا ، والآخر الساعة الأولى من ساعـــات الآخرة ، قال الله عز وجل : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عنـد ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض ﴾(٢) فهذا على الساعة الآخرة لقوله تعالى : ﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ (٣) .

وكذلك قوله : ﴿ يسألك الناس عن الساعة ﴾ (٤) فهو على الساعة الأولى من ساعات الآخرة ، وهو حين يبعث من في القبور لقوله تعالى : ﴿ يقسم المجرمون مـــا لبثوا غير ساعة ﴾ (١) .

---

(١) ورد في سن ابن ماجة « المقدمة » باب ٩ ، ٦٣ . وفي صحيح البخاري « الايمان » باب ٣٧ .
(٢و٣) الاعراف : ١٨٧ (٤) الاحزاب : ٦٣ (٥) الروم : ٥٥

وكذلك قوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ (١) . وهو بمنزلة قوله : ﴿ يوم يبعث الناس ويوم البعث ، ﴾ والله أعلم .

فصـــل

وإن سأل سائل : عن اليوم الآخر : ما حده ونهايته ؟

قيل له : اليوم الآخر إنما يراد به أيام الدنيا ، والدنيا بعث للحياة .

قال الله عز وجل : ﴿ وما هذه الحياة الدنيا ﴾ (٢) . وقال : ﴿ وفرحوا بالحيـــاة الدنيا ، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع الغرور ﴾ (٣) فاليوم الآخر هذا ، هو آخر أيام الحياة الدنيا . فاذا نفخ في الصور وصعق من في الأرض فلم يبق منهم أحد ، فيومهم الذي انقضت فيه حياتهم الدنيا هو يومهم الآخر إذا نفخ في الصور نفخة الأحيـاء فبعثوا فذلك يوم القيامة وما بينهما لا من الدنيا ولا من الآخرة ، وهو البرزخ الذي ذكره الله عز وجل في كتابه فقال : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ (٤) .

فإن قال قائل : لم لا قلت : ان نهاية اليوم الآخر تكوير الشمس ، لأن الليل والنهـار حالان من أحوال الشمس ، فاذا كانت الشمس فوق الأرض فهو نهار ، وإذا كانت تحت الأرض فهو ليل ، فاذا بطلت الشمس فلا ليل ولا نهار ، يعلم بهذا أن نهاية أيام الدنيـــا تكوير الشمس .

قيل : لو كان هذا هكذا ، لكان البعث يقع في الدنيا لأن الشمس تكور على أبصار الناس بعد البعث . وقد أجمع الناس على أن الموتى لا يردون إلى الدنيا ، فبطل بهذا أن يكون نهاية أيام الدنيا تكوير الشمس على أن الدنيا صفة للحياة — كما قلنا - فلا جائز أن تكون الحياة منقطعة بالإطلاق إسم الدنيا باقياً والله أعلم .

---

(١) غافر : ٤٦ (٢) العنكبوت : ٦٠

(٣) الرعد : ٢٦ (٤) المؤمنون : ١٠٠

فصـــل

إن سأل سائل عن يوم القيامة : هل يكون له آخر ؟

قيل : قد يسمي الله هذا اليوم يوم الدين، وهو الحساب والجزاء ، فاذا لم يكن الجزاء متقضياً لم يكن يومه متقضياً .

فان قيل : فما معنى قول الله عز وجل : ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ (١).

قيل : لم أجمع الله المسلمين على ما ذكرت لم يجز أن يكون يوم الدين مقداراً إلا أن يقول قائل : إن له أياماً كل يوم منها خمسون ألف سنة من أيام الدنيا ، فيكون ادعى ما لا يعرف يوم القيامة ، ولا يقوم له عليه دليل . وإن احتاج إلى بيان ما يقع به الفصل بين الأيام لا يمكن أن يقول : ان لها لياليا ، وان أراد أن يقول غيرها لم يجده

وإذا كان الأمر على ما وصفت ، بأن هذا التقدير إنما هو لعروج الملائكة والروح من الأرض إلى الله جل ثناؤه لأن مفتتح هذه الآية : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ (٢) . في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون فيحتمل أن يكون هذا المعنى : انها تبارك من السماء إلى الأرض ثم تعرج من الأرض إلى السماء الدنيا من يومها ، فتنقطع ما لو احتاج الناس إلى قطعة من المسافة لم يقطعوها إلا في ألف سنة مما تعدون ، وينزل من عندالعرش إلى الأرض ثم يعرج منها إلى السماء من يومها .

ولو احتاج الناس إلى قطع هذا المقدار من المسافة لم يقطعوها إلا في خمسين الف سنة مما تعدون ، وليس هذا من تقدير يوم القيامة يسأن ، وهو لا متصل بما قبله من هذه السورة أو بعده ، ولكنه من صلة قوله : ﴿ من الله ذي المعارج ﴾ (٣) . فانه لما وصف نفسه بذي المعارج بين ان هذه المعارج للائكته ، فقال : ﴿ تعرج الملائكة والروح اليه ﴾ (٤) . أى إلى حيث جعله مضافاً لهم حول العرش في يوم كان مقداره الف سنة ، ثم قال: ﴿ فاصبر صبراً جميلا إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴾ (٥) .

فعـــاد إلى ذكر العذاب الذي وصفه في أول السورة بانه واقع وليس له دافـــع

---

(١) السجدة : ٥ (٢) المعارج : ٤ (٣) المعارج : ٣
(٤) المعارج : ٤ (٥) المعارج : ٥

فقال : انهم – يعني الكافرين – يرونه بعيداً من العذاب ، وتراه قريباً ، ولم يرد به انهم يرون اليوم الذي تقدم ذكره بعيد ، لأنهم لم يكونوا يثبتونه أصلا ، فكيف يستبعدون لا يعرفونه ويجحدون كونه .

وهذا التقدير الذي يذكر للعروج لا يختص به وقت دون وقت فان كان ها هنا دليل يدل على ان المراد بقوله تعالى : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ [1] يوم القيامة ، فالتقدير أيضاً ليس يرجع إلى يوم الجزاء ، وإنما يرجع إلى عروج الملائكة ويكون المراد بها يوم الدين ، تعرج إلى الله فتقطع من المسافة مالا تقطع الناس مثلها في خمسين الف سنة لو عمروها ، وذلك لطول الطريق عليهم ، فان السموات إذا طويت لم يكن لهم يومئذ مصعد يفرون فيه ، وإنما يعرجون ، إذا عرجوا إلى حول العرش .

وذكر وهب – رحمه الله – ان ما بين الأرض والعرش خمسين الف سنة من أيامنا وشهورنا وسنيننا ، أو يقال : ان الملائكة كانت تستطيع قبل اليوم أن تنزل إلى الأرض من أعلى مقام لهم في السموات وفوقها ثم تعرج اليه في يوم كان مقداره الف سنة .

فأما في يوم القيامة فلا تستطيع ذلك ، لأنها وإن كانت آمنة من العذاب ، فإن ما يشاهدونه من عظمة الله وشدة غضبه ذلك اليوم على أهل العبادمن عباده يفرقوهم فيحتاجون للعروج إلى مدة أطول مما كانوا يحتاجون اليه مما قيل ، فقدر الله ذلك بخمسين الف سنة ، فهذا كما جاءت به الأخبار : من ان العرش على كواهل أربعة من الملائكة ، ثم اخبر عز وجل عن أنهم يكونون يوم القيامة ثمانية ، فقال : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ [2] . وفي بعض الأخبار ان أولئك الأربعة يؤيدون باربعة آخرين ، وهذا على ما يشاهدونه يوم يكشف عن ساق تغرهم فيحتاجون إلى من يمدهم ويعينهم ، فيحتمل ان تكون حالهم في العروج مثل هذا .

فصـــل

فان قال قائل : رويتم ان رسول الله ﷺ ، سئل عن الساعة فقال : (ما المسؤول عنها باعلم من السائل) (٣) . وهذا يدل على انه عنده بها علم . ورويتم عنه أيضاً قال : (بعثت

(١) المعارج : ٤ (٢) الحاقة : ١٧

(٣) ورد في سنن ابن ماجة « المقدمة » ٩ ، رقم ٠ ، وفي صحيح البخاري « الايمان » باب ٣٧

انا والساعة كهاتين) [١] . وهذا يدل على انه ان كان عالماً بها ، فكيف يأتلف وان الخبر يمان ؟

قيل لهم : قد نطق عنه القرآن بانه لم يكن يعلمها ، ولا أحد من خلق الله عز وجل ، لانه قال : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها،قل إنما علمها عند ربي،لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٢) .

ومعنى قول النبي ﷺ : (بعثت انا والساعة كهاتين) أي اني أنا النبي الآخر ، فلا يليني نبي آخر ، وإنما تلينني القيامة وهي مع ذلك دانية ، لأن شرائطها متتابعة بيني وبينها ، وذلك انه أشار باصبعيه المتجاورين إيمانهما .

الا ان توليد الأنبياء عليهم السلام قد انقطع فليس يتراخى الأمر بعده إلى ان ندرس شريعته ويبعث بعده نبي ، وإنما تليه القيامة كما تلي السبابة الوسطى ، وليست بينهما اصبع ، وهذا لا يوجب أن يكون له علم بالساعة نفسها ، لأن ما بين الاشراط ومابين آخر الاشراط والساعة ، وإذا لم يكن معلوماً لم يوجب العلم باول الاشراط ولا بدنوها العلم بالساعة والله أعلم .

وهذه الاشراط قد ذكرها الله جملة في القرآن فقال : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ﴾ (٣) . اي دنت ، وأولها النبي ﷺ لأنه نبي آخر الزمان وقد بعث وليس بينه وبين القيامة نبي .

ثم بين النبي ﷺ بما يليه من الاشراط ، فذكر أن تلد الأمة ، ومنها : وتطاول الناس في البنيان ، وضياع الحكم ، وشرب الخمر ويكثر الهرج وتتابع الفتن ، وتظهر المعارف ، ويكون زعيم القوم أرذلهم ، ويكرم الرجل مخافة شره ، وقد كان هذا كله . وذكر فيض العلم وقد بدت أوائله ، وأموراً تهم الله تعالى ذكرها في قوله عز وجل : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو تأتي بعض آيات ربك ، يوم تأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ [٤] .

---

(١) ورد في سنن ابن ماجة « المقدمة » ٧ ، رقم ٤٥ ، وفي صحيح البخاري « رقاق » باب ٣٩
(٢) الاعراف : ١٨٧ (٣) محمد : ١٨ (٤) الانعام : ١٥٥

أراد بهذه الآية طلوع الشمس من مغربها، وقد خبر النبي ﷺ : انه كائن وأنذر تغلبه الانزال، وخروج الرجال، وأن عيسى عليه السلام ينزل ويقتل الرجال ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، وأن المال يفيض في زمانه فلا يقبله أحد، ونطق القرآن بخروج الدابة من الأرض، وجاء ذكرها في الأخبار، وكل ذلك مقبول عندنا مصدق به .

ومن استبعد طلوع الشمس من مغربها فليراجع دينه إن كان ذا دين، فان اطلاع الشمس من مغربها دون تكويرها، فإذا كان قد اعتقد تكويرها وطي السموات بأفلاكها فلا يستبعد إطلاع الشمس من مغربها دلالة من الله على عباده: على أنه يناقض تركيب العالم، وحال ربطه، وان الأمر في ذلك قد دنا وتقارب

وإذا كان يعلم أن الله عز وجل، إذا كان جعل الكواكب الخمسة حالا إذا بلغها رجعت، فلا تزال كذلك تبلغ في رجوعها الحد الذي وضعه لها ثم تأخذ في السير المستقيم، فليجز أن يكون الله تعالى جعل الشمس في مسيرها نحو المشرق ودنو طلوعها حالا يبلغها عند دنو الساعة وإذا بلغتها رجعت حتى تكون بمغربها، فنظر فيه إلا أنه لم يطلع عباده على تلك الحال، ولم يعلمهم إياها كما أعلم حال رجوع الكواكب .

وإنما قلنا هذا لأنه جاء في الحديث أن تلك الليلة تطول، ولا يعلم بها المجتهدون وأصحاب الأفراد، فانهم يفرغون من أورادهم ولا يتخلى الليل عنهم، حتى يعودوا فيستوفون أوراد ليلة أخرى، فعلمنا أن طلوع الشمس من مغربها إنما هو : من أن تغرب الشمس فتسير سيراً مستقيماً حتى إذا قطعت ما تحت الأرض وكادت تطلع رجعت وراءها فتقطع ما تحت الأرض راجعة في قدر ليلة أخرى، حتى إذا بلغت موضعها التي غربت منه ظهرت فرآها الناس طالعة من مغربها، فيكون عند ذلك كرجوع الكواكب مما ألقاه الله إلى عباده، وعلم رجوع الشمس مما استأثر به، ولم يوقف أحداً على الحال التي هيأها له وبالله التوفيق .

فصل

ثم ان الحكم في تقديم الاشراط دلالة الناس عليها وأخبارهم : بأن منها ما إذا وقع لم ينفع نفساً إيمانها بتنبيه الناس عن رقداتهم وحثهم على الاختيار لأنفسهم بالتنزيه والاثابة

لي لا يعامضوا بالحول بينهم وبين تدارك الفوارط منهم وليكونوا عند ظهور هذه الاشراط شيئاً فشيئاً كالمريض إذا صادف إشراط الموت عليه شيئاً فشيئاً ، فإنه لا يألوا في ذلك الوقت أن يتوب ويوصي وينظر لنفسه ولورثته وسائر أصحاب الوسائل عنده ، ولذلك ينبغي الناس أن يكونوا بعد ظهور اشراط الساعة ، نظراً لأنفسهم وانقطاعاً عن الدنيا واستبقاء بالساعة واستعداداً لها وبالله التوفيق .

فصل

وكل ما تقدم ذكره في إخفاء أمر الساعة على الملائكة والأنبياء صلوات الله عليهم ، وتفرد الباري جل جلاله بعلم وقتها مما لا يختلف فيه المسلمون، وقد أكثر المنجمون الحوادث في وقت انقضاء العالم ، ولم يقل أحد منهم فيه شيئاً يعلم لكن بظن وحدس، لأن جماعتهم استبقوا ما قالوه من أحوال الكواكب ، فقال بعضهم : عمر الدنيا سبعة آلاف سنة بعدد النجوم السيارة لكل واحدة ألف سنة . وقال بعضهم: ثلاثمائة وستون ألف سنة بعدد درجات الفلك ، لكل درجة ألف سنة .

وذكرت الهند لذلك حساباً طويلاً جعلوا آخره أن تجتمع الكواكب كلها في آخر نقطة من الحوت ، فتعود كما كانت حتى تحركت من أول نقطة من الحمل ، وذلك أمد بعيد جداً ، وما بقي من أيام العالم عندهم في هذا الحساب ، أكثر مما مضى .

وليس هذا حكماً يمكن القطع به ، وإن كانوا في الحساب الذي حسبوه مصيبين ، لأنه قد يجوز أن يكون هذا الأمر محتاجاً إليه لتصير الكواكب في آخر الحوت ، كما كانت اليوم الأول في أول الحمل ان تركت، وبلوغ هذه الحال والمصير إليها ، ولكنها لا تترك وذلك لرجل يقول : بيني وبين أن أبلغ سن أبي ثلاثون سنة ، فإن أبي بلغ مائة سنة ، وأنا ابن سبعين سنة ، فيكون صادقك في قوله ، ولكن على معنى أن بينه وبين أن يبلغ سن أبيه ثلاثين سنة ان ترك وعمر ، وقد يمكن أن لا يترك وبلوغها بل يخترم دونها . فلذلك ما قاله هؤلاء في انقضاء الدنيا فهذا سبيله .

وأيضاً فإن الذي يؤمنهم ان بلغت الكواكب آخر الحوت وعادت إليه كما كانت أن يكون لها تحرك جديد من أول الحمل ، فتتجدد الدنيا دون أن ينصرم وما الذي أوجب

أن تنقضي الدنيا في ذلك الوقت فهذا مما لا دلالة لهم عليه ، فإنما هو ظن والظـــن كذب الحديث وبالله التوفيق .

وكل ما قلته في قول الهند والسيارة لكل نجم ألف سنة أو انه إثنا عشر ألف سنـة بعـد البروج ، لكل برج ألف سنة ، لأن هذا الحكم وإن كان ملائمـــاً لوضع الأفلاك والكواكب ، فقد يجوز ، إذاً من بعض الآلاف أن يحدث قطع كالإنسان الذي يمكن أن يبقى لكل طبيعة من الطبائع الأربع التي فيه مدة من المدد ، إلا أنه إذا مرت به قسمـة بعضها ، انقطع عمر ، فلم تبلغ قسمة ما بقي منها ، فهذا من أصلهم مما يعارضون به ،فيلزم أن يخبروا حدوث مثل ذلك على عمر العالم والله الموفق .

ويقال لهم أن الكواكب مختلفة الأحوال،مختلفة القوى،متفاوتة الاجرام ، وأقدارها وبعضها سفليه . فلم جعلتم للكواكب السفلى من السنين مثل ما جعلتموه للعلوي الكبير ، ولم كان الذي يصيب كل كوكب أو كل برج ألف سنة دون أن يكون ذلك أقل وأكثر . وما الدلالة القاطعة بهذا والموجبة له ، فلا يجدون إلى إقامتها سبيلا . وفي ذلك مـــا ابان انه ليس في هذا الباب شيء يجوز القطع به ، وليس إلا أن يفوض العلم فيه إلى الله جـل ثناؤه كما جاء به القرآن وبالله التوفيق .

السابع من شعب الايمـــان

وهو باب في الايمان بالبعث بعد الموت

يعيد الله تعالى الرفات من أبدان الأموات ، ويجمع ما يغرق منها في البحـار وبطون السباع وغيرها حتى تصير بهيئتها الأولى ، ثم يجعلها حية فيقوم الناس كلهم بأمر الله جل ثناؤه احياء صغيرهم و كبيرهم حتى السقط فإنه روي عن النبي ﷺ أنه قال : ان السقـط ليظل محنطياً على باب الجنة وانه يقال له : ادخل ، فيقول لا يدخل أبواي [1]، وهــذا يدل على أن المراد بالسقط هو الذي تم خلقه ونفخ فيه الروح ، فيكون المراد من ساعته .

وقد أخبر الله جل ثناؤه : أن الموؤودة تحبس وتسأل ، ﴿ بأي ذنب قتلت ﴾ [2] . والسقط التام خلقه قرئت منها . فأما الذي لم يتم خلقه ولم ينفخ فيه الروح أصلا ، فهو وسائر الموات بمنزلة واحدة والله أعلم .

فان سأل سائل عن الاحمال التي تضعها الحوامل يوم القيامة من فزع يومئذ ، كما قـال عز وجل : ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ (٣) .

قيل له : ان أولئك الحوامل قد متن باحمالهن مرة فإذا بعثن فاسقطن من فزع القيامة اسقطن الاحمال التي كانت احياء فماتت بموت امهاتها احياء ، ثم لم تمت الاسقاط لأن الموت لا يتكرر عليهن مرتين لأنه لا موت في القيامة وإنما هو يوم الحياة .

وأما الأحمال التي لم تكن احيـاء قط وماتت الأمهات وهي في احواقهن فانهن إذا اسقطنها من فزع القيامة اسقطنها امواتا كما كانت ، ولا تحيى لان للاحيـاء ذلك اليوم انما

---

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة ، انما ورد بهذا المعنى حديث في سنن ابن ماجه « الجنائز » حديث رقم ١٦٠٨ .

(٢) التكوير :

(٣) الحج : ١

يكون اعادة الحياة إلى من كان حياً وأميت ، ولم يكن له في الحياة الدنيـــا نصيب أصلا فلا نصيب له في الحياة الآخرة والله تعالى أعلم . وقد ذكر الله تعالى البعث في كتابه فقال ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل : بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ،وذلك على الله يسير ﴾ (١) .

وقال : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ، قـــال : من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ (٦) .

فأخبر الله عز وجل عباده انه يميت جمعهم ثم يحييهم ويبعثهم من قبورهم ويجمعهم في صعيد واحد ويحاسبهم باعمالهم ويجزيهم بما وقرت ذلك عليهم باشياء كثيرة منها : الاحالة على القدرة ، ومنها المعارضة بالابتداء ، ومنها التنبيه على ما يشاهده من لقائه احيـــاء واحيائها بعد موتها. ومنها ما اخبرهم به من ارائه ابراهيم صلوات الله عليه احياء الأموات، وقد نقلته عــامة اهـــل الملك ، ومنها ما أجبتم عن الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت ، فقال لهم : موتوا ثم احياهم .

ومنها ما اخبر به من شأن اصحاب الكهف الذي ضرب على آذانهم زيادة على ثلاثمائة سنة ثم احياهم ليدل يومهم عندما اعتز عليهم على ان ما انذروا به من البعث بعد الموت لا ريب فيه . ومنها ما اخبرهم به من قلبه عصا موسى عليه السلام حية، ثم أعادتها خشبة ، ثم جعلها عند محاجة الشجرة حية ثم اعادتها خشبة ، وقد اشترك عامة اهل الملك في نقله .

فأما الاحالة على القدرة : فقوله تعـــالى : ﴿ أو لم يروا ان الله الذي خلق السموات

---

(١) التغابن : ٧ — (٢) التغابن : ٩ — (٣) فصلت : ٣٩
(٤) يس : ٧٩ — (٥) فاطر : ٩ — (٦) الجاثية : ٢٦

والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾[1] .

واما المعارضة بالإبتداء فقريبته من هذه الحجة ، وهو قوله عز وجل : ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾[2] وإنما فرق بين الاحتجاجين ان احدهما مايبدأ خلق الذين وعدهم ان يعيدهم كا بدأهم ، والآخر يخلق الأجسام التي هي أعظم وأكبر من الناس ، وكل واحد منهما لا يلزم لمنكرى البعث اشد اللزوم . اما احدهما فلان الانسان احد الحيوانات الأرضية ، فينبغي ان يكون خلق الأرض نفسها بما يحيط بها من السموات اكبر من خلق الانسان مبتدأ ومعاداً . فإذا كان الله قد خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقها ، فأولى ان يقدر على خلق الانسان مبتدأ أو معاداً .

وأما الآخر فلان الإعادة ليس منها إلا ما في الإبتداء ، فإذا جاز أن يخلق آدم من حمأ مسنون ، ثم جعله صلصالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه الروح فجعله لحماً ودماً وعظاماً وعروقاً وأعصاباً ، فلم لا يجوز ان يجعل الأموات منه ومن ولده تراباً ثم يخلقهم منه مرة أخرى بشراً كا خلق آدم اولا .

وهاتان الحجتان على من اعترف الباري جل جلاله وابتدائه الخلق ، وأما من بلغت به الزناخة أن يجحد الباري جل جلاله فإنما تكلم في اثباته أولا ، ولا يقدم على ذلك مالا يطلق النظر تقديمه عليه والله أعلم .

فان قال قائل : اليس الخزاف قد يعمل الجرة أو الكوز ، فإذا انكسر الإناء لم يقدر على إعادته .

فيقال له : ان اعـادة الخزف تراباً لدنا كا كان تمل ، لا يمكن للخزاف ان يعمل منه ثانياً مثل ما كان عمله اولا ! ألا ترى ان الاناء المفروغ من صنعته لو انكسر من قبل أن يصير فخاراً لامكنه اصلاحه واعادته ، ولكن تكسره بعدما صار فخاراً لا يعيده ترابا لدنا كا كان .

والإنسان إذا رسم عاد تراباً كالتراب الذي خلق أول انسان منه ، فلما كانت القدرة قد اتت على الخلق الأول فلذلك يأبى على الخلق الثاني ، ألا ترى ان أواني الحديد والرصاص

---

(١) الاحقاف : ٣٣ (٢) يس : ٧٩

والنحاس إذا انكسرت أو ادخلت النار فاذيبت حتى عادت تبرا كما كانت أولا ، لا تمكن الصانع الذي صنع منها تلك الاواني أولا أن يصنعها منها ثانياً ، فلذلك الباري جل جلاله لما خلق آدم من تراب ثم جعله تراباً يقدر أن يخلقه منه مرة اخرى وبالله التوفيق .

وأيضاً فان الخزاف لا يتهيأ له تغيير الطبائع التي طبعها الله تبارك وتعالى والله جل ثناؤه لم يطبع الماء على ان يؤلف بين خزفين كما طبعه على ان يؤلف بين آخر التراب ، فانما يمتنع على الخزاف اعادة ما ينكسر عليه بتعجيز الله جل ثناؤه إياه عن ذلك كما يتيسر له ابتداء الصنعة باقدار الله تعالى إياه عليه ، والباري جل ثناؤه لم يمتنع عليه شيء ولايعجزه فالإبتداء والإعادة في قدرته سواء وبالله التوفيق .

ومن ذكر امر الخزاف مبتدأ للاحتجاج به لا معارضاً ، قيل له : سواء ما ذكرت . اليس الخزف لولا صدع لم يقدر الخزاف على ان يلام بما هو من حبسه حتى يعود كما كان ، ولو اتخذ آنيةصغيرة لم يقدر ان ينمها ويكبرها على الأيام ويحدث كل يوم منها زيادةيسيرة ولا يختص بها مكان معلوم ، ولكنها تسبغ في جملتها ولو مرتين يظن آنية ، أو اظهرها فذهبت الأضراس لم يمكنه أن يعيدها ، والله يبرىء الشجاج والجروح ، ويجبر العظام المنكسرة ، ويكبر الصغير وينميه على ما وصفته ، ويعيد الاسنان بعد سقوطها ،فلاينكر أن يعيد الأموات بعد بلو أو رموا احياء . وإن كان الخزاف لا يمكنه أن يعيد الخزف المنكسر كما كان .

وأما الاحتجاج بما يشاهده من احياء الله تعالى الاموات ، فانه وقع تبليه أشياء : احدها بالأرض تكون حبة تنبت وتثمر وتموت ، فتصير إلى ان لا تنبت وتبقى خاشعة هامدة . فأما حياتها فإنها تكون عند سخونة الهواء الذي جاورتهاواسخانه إياها ،وانسياق الماء إليهاوترطيبه لها.وأما موتها فإنما يكون عند اسخان الشمس إياها منغير ماتصل اليها، لأنها تصير عند ذلك كالفخار ، وعند برودة الهواء المجاور إياها وتبريده لها ، وصل الماء اليها أو لم يصل .

وهذه أحوال تتعاقب على الأرضين كل سنة ، فانها تنبت وقتاً ثم تصير إلى ان لاتنبت وقتا ، فإذا انبتت كانت حية تهتز ، وإذا لم تنبت كانت ميتة هامدة ، والله عز وجل هو

الفعل للامرين ، والمصرف لها على الحالين ، فإذا قدر على ذلك لم يعجزه ان يميت الإنسان أو يسلبه معاني الحياة ثم يعيدها اليه ويجعله كما كان وبالله التوفيق .

فان قيل : ليس فيما ان الأرض لا تنبت في الشتاء ما يوجب لها حكم الموت ولا اسمه ، فان الشجر لا ينبت الأورق ولا يخرج الثمار في الشتاء ولا يوجب ذلك لها حكم الموت ولا اسمه.

فالجواب : ان هذا السؤال ليس يطعن فيما قلنا بالحقيقة ، وإنما هو معارضة لأن الشجر إذا لم يورق ولا يثمر في الشتاء فان الأرض ميتة لا تنبت ، وورق الشجر وثمره غير خارجين من أن يكون انباتها مضافاً إلى الأرض ، فإذا ماتت الأرض فلا انبات منها لا لنفس الشجر ولا لورقها ولا لثمرها ، فلم يجز أن يستبدل بعدم الأوراق والاثمار من الشجر على انها ميتة ، لان الشجر ليس باصل في نفسه وإنما هو مستمد من غيره ، فإذا انقطع المدد عنه لم يكن له ورق ولا ثمر ، ولا صح الاستدلال بذلك وبغيره من وجود الاثبات على ان الأرض تموت في الشتاء إذا كانت لا تهتز لما يساق اليه ، ولا شمس تنبسط عليه ، ولا يكون منها اثبات كما لا يهتز الميت بسبب من الأسباب ولا تأتي منه الأفعال التي كانت تأتي في حال الحياة وبالله للتوفيق .

فان قيل : لو كانت الأرض ميتة لم تبق الأشجار الراسخة فيها حية ولماتت ثمرتها .

فالجواب : ان الأرض تموت كما قال الله عز وجل ، ولكن الشجر الراسخ فيها لا يموت بموتها . لأنه قد استمد منها حسناتها تتباقى به إلى ان يحيى الله تعالى الأرض ، بذلك اجرى الله تعالى العادة ولو توهمنا الموت مستمراً بالارض لم نتوهم الاشجار الثابتة فيها حياة .

ألا ترى ان الشجر الرطب ان اقلع في الربيع فقد يتباقى أياماً كثيرة إلى ان يغرس ثانية ، ولم استمر به القلع ولم يغرس ، يتوهم مع ذلك حبه فكذلك يبقى بعد موت الارض ، وهي انقضاء الشتاء إذا كانت قد استمدت قبل ذلك من الارض والماء ما يكفيها ، ولو استمر الموت بالارض لم تبق ، كما استمر بها القلع لم تبق .

فان قيل : قد استمدت من الارض قبل موتها ما يحتاج اليه ، فلم لا يورق ويثمر .

قيل : ان الاستمداد في المستقبل ينقطع ولا يتسع ذلك الموجود لها ، ولزوائد تحدث فيها . وقد يمكن ان يسبق من هذا الموضع فرق بين الشجر والارض جوابا عما عورضنا به

وان كنا مستغنين عنه ، وذلك بان نقول : ان حياة الشجر بالماء في طراوته ورطوبته بما تيسر به بعروقه من الماء سوى ما يجري به الماء من اجزاء الارض وتيسره لذلك . فان انقطع في الشتاء فان ما اشتد به من قبل لا يزايله،ولكن يبقى منه فيه ما تدوم عضاضته وطراوته فيه،وإن لم يبلغ حداً يكون من ورق أو ثمر،فلذلك لم يجز ان يوصف بالموت .

وأما حياة الارض فإنما تكون بتعديل الهواء الحار لبردها ، وتعديل الماء الذي هو رطب لنبتتها حتى يتسع عند اعتدالها لها الانبات . ومعلوم ان الشتاء إذا جاءت فان هذا التعديل كما ينقطع منه شيء ، و كذلك لا يكون الانبات فاستحقت لذلك الوصف بالموت والله أعلم.

والثاني من الثلاثة الاشياء التي ذكرناها ان الله تعالى احتج على عباده قوله عز وجل ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ﴾ (١) . يعني نطفاً في الاصلاب والارحام فجعلكم منها بشراً تنتشرون . وقال : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ﴾ (٢).

فاعلمهم انه إذا أخرج النطفة من صلب الاب قد صارت ميتة ، ثم انه عز وجل يجعلها حية فيخلق من خلق منها ، ويركب الحياة فيه ، فهذا حيات ميت في المشاهدة ، فمن يقدر على هذا لا يعجز عن أن يميت هذا الخلق ثم يعيده حيا ، وبسط هذا المعنى جل ثناؤه في آية أخرى فقال : ﴿ ألم يك نطفة من مني يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ (٣) ، وهذا أبلغ ما يكون على الاحتجاج في هذا الموضع وبالله التوفيق .

والثالث قوله عز وجل:﴿ إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ﴾(٤). وذلك ان الحب إذا جف ويبس بعد انتهاء تمامه ووقوع الناس من ازدياده .

وكذلك النوى إذا تناهى عظمه وجف ويبس كانا مسببين ثم انهما إذا أودعا الأرض الحبة فلقهما الله تعالى وأخرج منهما ما يشاهد من النخيل والزرع حبا ينشأ ويثمر إلى أن

---

(١) البقرة : ٢٨ (٢) المرسلات : ٢١
(٣) القيامة : ٤٠ (٤) الانعام : ٩٥

يبلغ غايته ويثمر اجل في هذا المعنى للبيضة بفارق الناقص ، فيجري عليها حكم الموت ثم يخلق الله تعالى منها فرخاً حياً،فهل هذا الاحياء الميتة وهو أمر مشاهد والعلم به ضرورة.

قال قائل : الحب والنوى والبيض كلها حية لبقاء الرطوبة الاصلية فيها ، فلذلك تنبت الحبة والنوى ويخرج من البيض الفرخ . ألا ترى أن البيض إذا استوى ، والحب إذا قلى ، فلم يكن من ذاك فرخ ولا من هذا نبات !

فالجواب : ان البيض ميت فلذلك يعفن ويفسد بتطاول الزمان عليه ، والحي لا يعفن بمرور الزمان ، ولا الفرخ الذي يحدث من البيض يحدث ولا حياة به إلى ان تنفخ فيه الروح فيصير حياً ، فلو كان البيض حياً لكان اذا انقلب فرخاً ينقلب فرخاً حياً . ولو كانت النطفة حية لكانت إذا انقلبت ولداً ينقلب حياً ، ولما كان الامر بخلاف ذلك ولم يكن بين الحياة والموت واسطة ، علمنا ان الحال السابقة لنفخ الروح لم تكن الا الموت وبالله التوفيق .

واما الحب والنوى ، فان الماء الذي هو سبب حياة الاشجار منقطع عنهما ، وليس يتوقع ان تحدث فيهما زيادة بعد ما جفا ويبسا ، فكانا كالميت الذي انقطع الغذاء عنه ، ولا يتوقع أن يكون له نشوء ونمو ، فلم يجز وصفهما مع ذلك بالحياة . وأما الرطوبة التي فيهما فانما هي الدهنية ، ومعلوم انه لا سبيل الى استخراج الدهن من اللب الرطب فعلمنا انه قد مات اذا صار ان يسيل منه الدهن فقد فارقته المائية بواحدة فلا منه ماء ولا هو يفرض أن يستمد من الماء فيزداد مقداره ، فعلمنا انه قد مات وبالله التوفيق .

واما ان البيض بعدما يستوي والحب بعدما يقلى لا يكون من احدهما فرخ ولا من الآخر شجر . فجوابه ان ذلك ليس ان الله تعالى لا يقدر ان يخرج من هذا فرخا ، ولا من ذلك شجراً ، فان الله عز وجل خلق آدم صلوات الله عليه من صلصال كالفخار،ولكنه لم تجر العادة بذلك كما لم تجر العادة بان يخلق انسانا لا من أبوين، ولو شاء لخلق ، كما خلق آدم صلوات الله عليه من صلصال كالفخار ، ولكنه لم تجر العادة بذلك كما لم تجر العادة بأن يخلق إنسانا لا من أبوين ، ولو شاء لخلق كما خلق آدم لامر مثله .

والأصل أن وجود خلق البشر من الله دليل قاطع ، على انه تعالى قادر على مثله وعدم

خلق الشيء منه ، ليس بدليل على انه عاجز عن خلقه لأنه إنما يخلق ما يخلق مختاراً، فإن شاء يخلق على ما يقدر على خلقه ، وإن شاء لم يخلق وهذا في كل مختار ينشأ ، هكـــذا يكون ، لأن اتخاذ النجار بابا يدلنا على أنه يمكنه أن يتخذ باباً سواه، فإن لم يتخذ سريراً لم يكن ذلك دليل على أن ذلك خارج من وسعه .

فكذلك وجود إخراج الله تعالى الفرخ من البيض غير أن المستوى والنجم والشجر من الجنة والنوى غير المقلي ، دليل قاطع على أنه قادر على إحياء الموتى كما هو قادر على مـا ما ذكرنا . وعدم إخراجه من البيض المشوي والحب المقلي ، لا يدل على أنـه ليس بقادر على ذلك ، وأقصى ما عسى أن يقال في هذا أنه يعيد إلى البيض المشوي والحب المقلي ما أخذت النار منهما ثم يخرج من هذا فرخاً ، ومن ذلك شجراً ، وهو إذا قدر على هذا، فقد قدر على إحياء البيض والحب والنوى .

وليس الكلام على أنه كيف يحيي ؟ وإنما الكلام على الإحياء نفسه ، فقد ثبت أنـه ليس بخارج من قدرته والله أعلم .

وأما ما أراه إبراهيم صلوات الله عليه لما قال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ [1] فهو ان أمره بأن يأخذ أربعة من الطيور ، فيقطعن ، ويجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم يدعوهن . فرجع كل جزء إلى مثلة حتى يلتئم جملة ذلك الطير ، ويرد الله الحياة إليهـا ، ويأذن له في إحيائـه ، فيأتينه سعياً ، فجعل إبراهيم صلوات الله عليـــه ، وأنجز الله له وعده .

وقد أدى جل ثناؤه مثل هذا ، الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، قال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها ، وكان معه حمار وركوة عصير وسلة تين ، على ما جاءت به الأخبار . فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال : كم لبثت ؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال : بل لبثت مائة عام . وكان قد أمات الحمار وأبلاه ، فعلم أن لبثه لم يكن يومـاً أو بعض يوم ، ثم ان الله تعالى أحياه على عينه . وقال له : أنظر إلى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحماً . واعلم أن الله على كل شيء قدير ، فنبهه فأحيا الحمار على انه ان يحيى تلك القرية بعد موتها وهي بيت المقدس لم يعجزه ذلك ، وقد يكون أبقى الله عز وجل التين

---

(١) البقرة : ٢٦٠

والعصير بحالها ليدله بذلك على انه لو شاء لابقى الحمار بحاله أيضاً . ولكنه أراد أن يريه احياء الميت عياناً لئلا يعود فيقول ما قال ولا يستعيذ من أمر الله تعالى ما تقدمه كمال القدرة وليكون ذلك حجة على إنكار البعث ممن شاهده أو بلغه .

فأما عصا موسى عليه السلام فإن الله تعالى قال لموسى: ﴿ ألقها ياموسى، فألقاها فإذا هي حية تسعى ﴾، فجعل الله الحية لحماً ودماً . وخبر ذلك شائع في أهل الملك لا ينكره أحد منهم. فقال له: ﴿ خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ فلما أخذها عادت عصاً كما كانت .

ثم ان فرعون جمع له السحرة ، فألقوا حبالهم وعصيهم ، وخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فقال الله عز وجل : ﴿ وألق ما في يمينك ﴾، فلما ألقاها تلقفت حبالهم وعصيهم ثم عادت كما كانت . فليس لأحد أن يستبعد مع هذا احياء الله تعالى للأموات وبعثتهم ، ويكذب الرسل الذين هم وعدوا ذلك عن الله عز وجل امامهم وبالله التوفيق .

وأما أصحاب الكهف فانهم كانوا بين ظهراني قوم يكذبون بالبعث ، فضرب الله على آذانهم في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم أقامهم ، واغتر قومهم عليهم ليعلموا بحفظ الله تعالى أجسادهم مع فقدهم الغذاء تلك المدة الطويلة وصيانة شعرهم وبشرهم مع ذلك عن أن تأكلها الأرض ، وكل ذلك خارج عن العادة ، ان الله تعالى قادر على إحياء الموتى ، وإعادة الأجسام الهامدة كما كانت ، وان كان ذلك مفارقاً للعادة وبالله التوفيق .

فصل

ان الله جل ثناؤه كما دل بالآيات التي سبق ذكرها على جواز البعث ، فقد ذكر بآيات سواها على وجوبه ، فقال : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من مني يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ! ﴾ (٢) . فذكره القدرة على إحيائه الموتى ، إحتجاجاً بها على من يحسب انه يترك سدى .

---

(١) طـه : ١٩ القيامة : ٤٠

فدل على أن المراد بالآية انه يحسب الانسان انه يترك سدى . فلا يجزى بما يسعى، وان الجزاء إذا لم يكن قبل الموت في هذه الدار وجب أن يكون في دار أخرى بعد الموت ، وإذا كان الميت يعرض البلى فواجب أن يعلم أن يجيء بما يكون في دار أخرى بعدالموت.

وإذا كان الميت يعرض الى باعادته حياً بعد ما مات ، ونقله من الدار التي قطعه عنها إلى دار سواها والله أعلم . وقال عز وجل : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا ترجعون ﴾ (١) ، ليهملكم فلا يأمركم ولا ينهاكم فعل من يعبث بالشيء فيريده ، لا لغرض صحيح ، او انا خلقناكم : اغفلنا أمركم فلا نجازيكم، أي فلا تحسبوا هذا ، فان العبث ليس من صفاتنا ولا هو لائق بنا ، واعلموا انكم إلينا ترجعون ، أي إلى دار عددناها لنجزيكم فيها بأعمالكم ، فدلهم بهاتين الآيتين على ان البعث واجب في حكمته كما دل بغيرها على انه جائز في قدرته .

فان قال قائل ليس لكم أن تقولوا شيئاً مما قلتموه لأنكم تتلون في كتابكم: ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ﴾ (٢) . ومن يعمل سوء يجزيه . ويروون أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال للنبي ﷺ : كيف الصلاح بعد هذه الآية يا رسول الله ! فقال : يا أبا بكر ، الست تحزن الست تمرض ، اليس تصيبك البلوى ؟ قال : بلى ! قال : فان كل ذلك مما تجزون به في القرآن في قصة اليهود ، فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ (٣) .

وفيه : ﴿ علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ، فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ (٤) .

وفيه : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ﴾ (٥) .

وفي هذا إثبات الجزاء في هذه الدار نصيباً . وفيه : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا ، أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببعضهم ﴾ (٦) .

---

(١) المؤمنون : ١١٥
(٢) المائدة : ٣٨
(٣) البقرة : ٥٩
(٤) البقرة : ٦٥
(٥) البقرة : ٨٥
(٦) الانعام : ١٤٦

وفي آية أخرى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ [1] وفيه في حد المحاربين : ﴿ ذلك لهم خزي في الدنيا ﴾ [2].

وفيه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ [3] .

وفيه في قصة اليهود : ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾ [4] .

وفي قصة النصارى: ﴿ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة ﴾ [5]

وفيها معنى إثبات الجزاء في هذه الدار ، وفيه في قصة اليهود : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ [6] .

وفيه في ذكر قوم نوح : وانهم اغرقوا لتكذيبهم نوحاً ، وذكر عاد وثمود ، وما بالهم لتكذيبهم هوداً وصالحاً وذكر فرعون وما ناله وملأه لتكذيبهم موسى ، وذكر قوم لوط وما أصابهم لعصيانهم لوطا قد عرفتم .

وإذا تتبع ما في كتابكم من أمثال هذه الآيات كبرت ، وفيما تدعون انه حدود الله تعالى من فعلهم ، وقبلهم عقوبة لهم بكفرهم ، وسبي ذراريهم ونعيم أموالهم ، وجلد الزاني ورجمه وجلد الشارب والقاذف وقطع (يد) السارق وقتل المرتد وتارك الصلاة . وقتل القاتل وجرح الجارح ما ينبي عن وقوع المؤاخذات في الدنيا ، وكذلك الكفارات التي يدعون أنها واجبة بالأسباب التي تذكرونها شاهدة عليكم بمثل شهادة الحدود .

وقال نبيكم ﷺ : (اليمين الغموس يدع الديار بلاقع من أهلها) [7]. وفيما يروى أيضاً مما جاء : (ما شيء أعجل عقوبة من عقوق الوالدين وقطيعة الرحم ، واليمين الفاجرة تمحق البركة ، والبيعان ان صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وان كذبا وكتما خفت بركة بيعهما) [8] . وقد جاء في منع الزكاة بما يشبه هذا .

---

(1) النساء : ١٦٠ (2) المائدة : ٣٣ (3) البقرة : ٢٧٩

(4) آل عمران : ٢٢ (5) آل عمران : ٥ (6) البقرة : ٦١

(7) ورد في صحيح البخارى «كتاب الديات» باب ٢ وفي مسند الامام أحمد بن حنبل ج ٢ ، ص ٢٠٢

(8) ورد بهذا المعنى في صحيح البخاري « الادب » باب ٦ ، وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٢ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٤

فأما ما يدخل في باب حسن الجزاء والثواب ، ففي قصة إبراهيم ، وآتيناه أجره وانه في الآخرة لمن الصالحين . وفي غيرها من الآيات : ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ﴾ (١) .

وفيه : ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾ (٢) .

وفيه : ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ (٣) .

وفيه : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ﴾ (٤) .

وفيه : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ (٥) .

وفي قصة زكريا وما استجاب فرد عليه : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين ﴾ (٦) .

وفيه : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ (٧) .

وفي قصة إبراهيم لما أمر بذبح ولده ، ثم افدى بذبح عظيم : ﴿ سلام على إبراهيم ، كذلك نجزي المحسنين ﴾ (٨) .

وكذلك في قصة موسى وهارون والياس وقصة نوح انه قال لقومه : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ (٩) .

وفيما يروى عن نبيكم ﷺ : (الصدقة تطفي غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في

---

(١) آل عمران : ١٤٨ (٢) النساء : ١٣٤ (٣) المائدة : ٦٦
(٤) الاعراف : ١٣٧ (٥) هود : ٣ (٦) الانبياء : ٩٠
(٧) النور : ٥٥ (٨) الصافات : ١٠٩ (٩) نوح : ١٠

العمر ، والدعاء يرد البلاء ، لا يزال بالعبـــد يخرجه من ذنوبه ويجعله كيوم ولدته أمـــه)[1] .

وهذا النوع أيضاً إذا تتبع وجـــد كثيراً ، فاخبرونا عن هذه المثوبات والمثلات ان كانـت موجودة عاجلا ، فما الذي يضطر إلى اثبات دار أخرى للجزاء ؟ ومـا معنى قولكم : ما لم يكن الناس مجربين باعمالهم في هذه الدار ولم يجز أن يكونوا مهملين ، صح ان وراءها دار أخرى ينقلون اليها ويجزون فيها ، وأنتم تقولون بألسنتكم : من آمن وعمل صالحاً فهو عدل تقبل شهادته ، ومن عمي فهو فاسق رد شهادته ، ومن بر أبـــاه ورثه لئن مات ، ولئن قتله حرم ميراثه . ومن تصدق بماله ، ومن منع مخافة بركة ماله.

وتتلون في كتابكم ، وتروون عن نبيكم ﷺ ما حكيناه وكتبناه ، وعن ذلك ممـــا تركناه ، وأي احتجاج ثبت لكم في هذا الباب مع الذي ألزمناكم ؟

فالجواب : — وبالله التوفيق — : ان الجزاء بكل واحد من الحسنى والسوء على ضربين: فأما آية جزاء السوء فجزاء الإنتقام ، وهو الجزاء المطلق . والآخر جزاء الدفع والرجس وليس هذا جزاء بالاطلاق . وأما أحد جزاء الحسنى فالتفويض من الطاعة والصبر عليها ومقاسات الشدة . وهذا هو الجزاء المطلق . والآخر جـــزاء البشرى ويراد به الترغيب والتحريض ، كما يراد بالذي قبله الردع والترهيب.

فأما جزاء السيئة فما يكون كفء لها ، وهو جزاء الإنتقام . وجزاء الحسنة انما يكون كفء العبودية والطاعة ، وليس شيء منه بموجود في هذه الدار . وأما جزاء الردع والزجر وجزاء الحرض والترغيب فهو الموجود . وفي هذه وهذا ليس بجزاء مطلق ، لأن الترغيب من توابع الأمر ولواحقه . والترهيب من توابع النهي ولواحقه .

فإذا لم يصلح ان يكون الأمر بنفسه جزاء ، فيقف معنى الجزاء فيما يراد به البعث على فعل المأمور به ، وإذا لم يصلح أن يكون النهي حسن الضعيف ، معنى الجزاء فيما يراد به البعث على ترك السعي عنه واحد هذين الجزاءين ، إذاً بما يؤدي اليه الاضراب من العذاب والآخر مبشراً لما يوجبه الدوام من الثواب ، وليس هذا الجـزاء بنفسه مطلقاً لكن غير ضرب التقييد، ومن وجه دون وجه.

---

(١) لم يرد الا في سنن الترمذي « الزكاة » باب ٢٨

فيقال للاحسان الذي هو الترغيب جزاء بمعنى انــه لم يكن مبتدأ ، وإنما وقع في مقابله حين تقدم من المحسن اليه ، فكانت صورته صورة الجزاء.

ويقال للاساءة التي هي الترهيب جزاء بمعنى انها لم تكن مبتدأ ، ولكنها وقعت في مقابلة شر يسبق من المساء اليه ، فكانت صورتها صورة الجزاء ، وكل ما عده هذا القائل فقال فيها الآيات ، وروى فيها الأخبار فهو داخل فيما وصفنا ، انه للعصاة وردع وتقويم وترهيب ، ومنع لهم عن الاضرار ، وللمطيعين حرض وترغيب وبعث على البيان والدوام ، فلذلك كان موضعه هذه الدار ، وذلك انهـــا دار العمل والترغيب والترهيب فيما يحسن وبها يليق .

فأما جزاء الانتقام وجزاء التعويض ، فلا يكتفيان بدار العمل ، لأن الحياة مادامت باقية ، والمحسن العدل ، يعرض أن ينقلب مسيئاً فاسقاً ، والمسيء الفـــاسق يعرض أن ينقلب محسنـــاً عدلاً ، والمؤمن يعرض أن يكفر ، والكافر يعرض أن يؤمن ، فلاحق أن يتأخر جزاء كل منهما الى أن تنقضي حيـاته التي هي نهاية لمدة تكليفه ، فيكون جزاؤه بحسب ما يختم به عمره ، ويلقى به ربه ، وهذا جملة الجواب عن السؤال وبالله التوفيق .

ثم التفضيل ان الله عز وجل ان أمر يقبل المرتين فقد جعل لبعضهم منه مخرجاًبالجزية ولجماعتهم بالرق إذا جرى عليهم،فلو كان ذلك جزاء الكفر لماسقطبالجزية ولا بالاسترقاق لأن الكفر منهم مع الآخرين قائم ولان ذلك لو كان انتقاماً منهم لكفرهم لا مكن منهم ليقتلوا .

ومعلوم أن الأولين هم الذين وصل إلى قتلهم ويسلم الأكثرون ، فلا يبقى وراء هذا إلا اباحة لدمهم ، والاباحة نفسها لا انتقام يقع بها حتى يكون معها اراقة الدم واهلاك النفس، فما كان ذلك مما لا يوصل اليه ، وقد يعرض عند القتال ما يمنع عنه في حكم الله تعـالى ، علمنا ان قتل الكفار ليس إلا ردعاً لمن يفضله السيف منهم عن الأضرار ، ولذلك قام أخذ الجزية والاسترقاق لما فيها عليهم من الذلة والصغار فقام القتل والله أعلم.

فان قيل : فالمقتول منهم كيف يرتدع ؟ قيل : إنما كان ردعه باعلامه انه مقتول على كفره ، والتعريض بالسيف ، فان ابى وقاتل فهو القاتل بنفسه ، والله أعلم . والقول في الحدود كلها على هذا ، وذلك إنما روادع بما فيها من إيلام المحدود عليه من الشين والعار ،

والكفارات أيضاً روادع بما فيها من نقصان المال واجهاد النفس، وليس منها جزاء الانتقام .

ألا ترى ان الحدود كلها تسقط بالتوبة لوقوع الاستغناء بارتداع من كان عليه الحد عن ردعه ، والقتل ايضاً بعد وجوه يزول عن الكافر باسلامه ، يعلم انه المردع في المستقبل عن الاضرار ، فلما ارتدع سقط ، ولو كان عرض الانتقام منه لكفره ، لما نفعه الإسلام بعد ما حق القتل عليه . وأما كل جرم ذهب ما الجرم لأهله ، ولا يخلو ذهاب ماله من أن يكون ردعاً له عن الاضرار ، ولغيره عن مثل فعله .

الا ترى انه لو كان مات قبل أن يذهب ماله لما ذهب له لجرمه . وأيضاً فان ماله إذا ذهب لم يهمله الله تعالى ولم يجعله من نظره لأنه يجب على المسلمين ان لا يضيعوه ولا يغفلوا عنه فيموت جوعاً أو عريا في شدة حراً وبرداً ، ولكنهم يكفونه ويموتونه فيصير كالمتروك بعض ماله عليه ، وهو مالا بد منه ، وفي هذا ما يبين ان الغرض انما كان التقويم لا الانتقام والله أعلم .

وأما ما في باب الإحسان من قوله عز وجل في قصة إبراهيم عليه السلام : ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا وأنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ [1] . فإنما هو إشارة للبشرى والترغيب ، لأن الله عز وجل لما ركب فيه العقل الذي يتوصل به إلى معرفته ليستدل به معرفته وحده . فلما أراد عدوه القاه في النار توكل على الله ، وآثر ما لديه فلم يرجع عن دينه ، ولما اضطره إلى الجلاء عن وطنه هاجر وقطع الأقربين في ذاته وابتلاه الله في ابنه ، بان أمره بذبحه ، فأسلم وصبر فعصمه الله تعالى من النار ، وأورثه الأرض المقدسة وكثر ماله وأنمى ولده ، وجعل فيهم النبوة والملك ، وأزال عنه الأمر بذبح الولد ، وفداه عظيم ، وجمع عليه الاسم فلا يكذبه أحد منهم بل يؤمنون به ويطيعون ، وكل ذلك ترغيب له ما دام حياً في الدوام على الطاعة ، وترغيب لمن يتبع غيره في إيثار طاعة الله تعالى والصبر على ما يلقاه فيها من أذى يؤذيه وجفاء من يجفوه ، فهذا أجره الذي أتاه الله في الدنيا وهو أجر الترغيب والبشرى فيما هو قادم عليه في الدار الآخرة ، فهذا وكل نعمة أنعمها الله تعالى على احد من مال أو غيره فسبيله ما ذكرت .

الا ترى انه لا يخلو فيما أنعم الله عليه من فرائض تلزمه ، فلو كانت غرضاً لسعيه وعمله

---

(١) العنكبوت : ٢٧

الذي قدمه ، لكان من حقه ان يكون محلى وإياه يعمل به ، وفيه ما يريد ، ولما لم يكن كذلك ، بل كانت لله عليه مطالبات ، علم انها ليست غرضاً لما قدم من بر وطاعة ، وإنما هي من جهة ماله فيها من الرفق ترغيب وتحريض على الثبات والدوام ، ومن غيرهاانعام مبتدأ سبيله ان يشكر الله تعالى ويؤدي حقوقه منه ، وما كان هكذا لم يستحق أن يكون جزءاً بالاطلاق ، وبالله التوفيق .

ونقول من غير هذا الوجه ان قتل الكافر ليس يجوز أن يكون جـــزاء الكفر لأن القتل يجب بكفر ساعة كما يجب بكفر مائة سنة جزاء له ، لان عظم مـــا في القتل موت القتيل ، ثم الالم الذي يصل اليه قبل خروج الروح .

ومعلوم ان الموت لا بد منه ،فانه مدرك كل احد، فلم يجز أن يقال: ان الموت جزاء له ولا حد سواه ، فلم يبق الا الالم ، وذلك المقدار من الألم مما لا يشكل على ذى عقل انه لا يوازي كفر مائة سنة ، فبطل بهذا ان يكون القتل جزاء لكفر الكافر .

وكذلك الزاني لو زنى ثلاثين سنة ،فبطل بهذا أن يكون القتل وإفساد حرم الناس وهتك استارهم وتلويث انساب اولادهم . والشارب لو شرب سبعين سنة وهو لا يحتقر ارادالإمام حده ، لم يزده على أربعين جلده .

والسارق لو سرق من الف مسلم أموالا عظيمة وهو لا يقدر عليه أو لا يعلم به من خبأ واعترف ، فانه لا يزاد على ان تقطع يمينه لهم جميعاً . ومعلوم ان ما ينال كل واحد من هذين لا يوازي عظيم جرمه ، ولكنه وغيره مما تقدم ذكره يصلح لوقوع الزجر والردع به . فعلمنا انه لذلك لا للانتقام والله اعلم .

وكذلك له الذي تعود الحلف بالله تعالى باطلا ، فهو يقدم كل وقت عليها ،وجرى على ذلك سنين ، فاذهب الله تعالى ماله والقى بمؤونته على غيره ، فليس يجوز ان يكون تعويضه للحاجة إلى غير مواز بالجزاء به على الله تعالى ، والحلف باسمه على مالا حقيقة له فعلمنا ان ذلك ردع وترهيب وليس بانتقام ، وبالله التوفيق .

وعلى هذا ، فإن من اتاه الله تعالى بعد مقامات كانت له في طاعة نبوة أو ملكاً عظيما أو جاها عريقاً ، وادام له الصحة والسلامة ، فليس يليق بشيء من هذا ان يكون غرضاً، وإن كان إحساناً وبراً لان الذي كان من العبد عبادات اخلصها الله تعالى .

فهذه الوجوه كلها سوى ما يرجع إلى العبد من فوائدها ، حقوق الله تعـالى تلزمه وتفترض عليه ، لانه تعالى ان أنبأه احتاج أن يقوم باعباء النبوة وينخرد لها ويصير على ما يستقبله فيها ، وإن ملكه احتاج إلى الزنا حد نفسه بالعدل بين الناس، والاخذ للضعيف من القوى ، وإقامة حدود الله تعالى ، واستبقاء حقوق الله تعالى ووضعها مواضعها ومجاهدة اعداء الله تعالى إلى غير ذلك ، مما يطول على التعديد والاحصاء ، وإن كثر ماله أو بسط جاهه ، فعليه من كل واحد منهما حق معروف ، وجملته أن يواسي من كل واحد منهما غيره مما يحتاج اليه وإن صح بدنه لزمه في الصلاة والصيام والحج والجهاد فرائض الاصحـاء . فعلمنا ان كل شيء من هذا لا يخلص التعويض فهو إذا تـرغيب وتحريض كما ذكرنا وبالله التوفيق .

ثم المعنى في عامة ما وصفت ان هذه الحياة كلها وقت له ، فكان الجزاء واقعاً بعـد نقض العمل لاحلاله .

والمعهود من الناس كلهم انهم يوفون العامل آجره ، إذا فرغ من عمله ، فذلك عنـد جماعتهم حسن جميل ، فكانت معاملة الله تعالى بنحو ما عرفوه واعتادوه . بل كان ذلك أليق بان يكون له حكماً لما ذكرت من أن العدل يفسق ، والفاسق قد يعتدل ، والمؤمن قد يكفر ، والكافر قد يؤمن .

ولا وجه لان يجمع الجامع في حياته بين العدالة والفسق من ان يثاب على عدالته ويعاقب على فسقه ، ولا للجامع في حياته بين الكفر والايمان ان يعاقب على الكفر وثبات الايمان ، لان هذه المعاني متدافعة غير متلائمة ، أعني أن العدالة والفسق صفتان لا تجيئان معاً لأحد ، لكن العدالة تنسخ الفسق ان كان تقدمها ، والفسق ينسخ العدالة إذا تقدمه ، والكفـر ينسخ الايمان ويحبطه ، والايمان ينسخ الكفر ويحبطه .

فإذا كانت هذه الأوصاف مناسخة متنافية ، لم يجز لأحد أن يجمع لأحد بين الواجبات التي تجب فيها ، فيؤتى ثواب العدالة مدة اعتداله تاماً ، ويعاقب بالفسق مدة فسقه تاماً ، ويعذب على كفره مدة ما كفر ، ويثاب إيمانه مدة ما آمن ، لأن من حكم الله عز وجـل وموضوع سنة نبيه ، ان من فسق ثم تاب وأصلح حبط فسقه ، ومن أصلح وقتاً ثم فسـق أحبط فسقه من الطاعات التي قدمها دون أصل للايمان بعدده حتى لا يجب له ثوابها .

وأما أصل الايمان فأمره على الاختلاف ، وإذا كان كذلك ، وجب أن يكون الجزاء بعد انقطاع العمل وتقضي مدته ، ثبت أن الله عز وجل قد أعد للجـزاء دارا سوى دار العمل ، وانه يوردهم إياها واجباً ليجزيهم بأعمالهم ، فيثيب المحسن ثوابا يشترك فيـه من يثيبه كل ما اشترك منها عن حسن العمل، فيعاقب المسيء عقوبة يشترك فيها من ينيبه كلما اشترك فيها من سوء العمل وبالله التوفيق .

ويقال للمعارض الذي حكيت قوله واجبته عنه : أرأيت العابد الخاشع الناسك الذي لا يعصي الله ، ولا يخلو من وجع أو شدة جوع أو عرى في الحر والبرد بما يؤذى ، ويخفى وهو بصير ولا يفارق عادته ، إذا مات على هـــذه الجملة ، أليس انـها مات ولم يستوف ثواب عمله .

أرأيت الفاسق الخليع المتهتك إذا رضى ايامه في ضروب المعاصي ، فلم يدع شهوة إلا قضاها ولا لذة الا استوفاها وهو في ذلك لا يصيبه غم ولا وجع ولا نيـلاً ولا يزداد على الايام الا غناء وثروة وجاها ، ورفعة وهو لا يقلع عما فيه إلى أن مات على هذه الجملة ! أليس انما يثاب غير مجزى بعمله ، فما حال هذين الرجلين عندك ، أضـاع الموت سمعيهما ، فهذا خلاف الحكمة ، والله الموفق تعالى حكيم له يجزيان ، فأين تجربان الا ان يحيئا منقلا إلى دار أخرى فيجربانها كما تقول !

وإذ كان هذا هكذا ، بان العباد إذ كانوا متقاربي الحال ، فمنهم محسن يلقى في حياته خيراً ومسيء يلقى في حياته شراً ، ومحسن ومسيء لا يلقى واحد منهما في حياته ما يليق بحاله . فواجب أن لا يكون الخير الذي يلقاه المحسن ولا الشر الذي يلقاه المسيء جـزاء بالحقيقة ، وانما يكون الجزاء ترغيباً وتحريضاً وبشرى للمحسن ، والشر ترهيباً وإنـذاراً للمسيء ، لأنه لا يجوز أن يكون بعض العمال يجزون وبعض العمال لا يجزون ، وإذا لم يجز ذلك صح انما تفاوت فيه القوم لم يكن جزاء بالحقيقة ، وانما كان الغرض منه شيئـاً آخر والله أعلم .

فان قيل : هذه المعاني التي ثبت عليها جوابك كلها معان شرعية ، وإنـما يعترض عليك بالسؤال الذي مضى ، من لا يعترف بالشريعة ، فكيف يلزمه ما أمعنت فيـه من الجـــواب .

قلنا : ان الاعتراض إنما وقع علينا بأشياء مستخرجة من القرآن ، وأخبار الرسول . وإذا بينا ان مصادرها غير ما ظن وجوهها ، ليس ما قدر ، سقط السؤال عنها.

وان أفردنا ما قال عن ان سنوه إلى ربنا ونبينا ، كان جوابنا له : ان وجوب ماخبر الجزاء إلى دار أخرى يتفرع عندنا عما وضع الله حكمه وشرعه عليه ، وذلك بما قـام الدليل عندنا على انه من عند الله تعالى . فان سلمت لنا معانه ما كتبناه لازم لـك ، وان أنبت كان الكلام معك في النبوة وما يشتمل عليها من الأوضاع والأحكام وأفراد البعث بالكلام فضل وبالله التوفيق .

فصـــل

وسأل سائل فقال : أرأيتم ان من كان في الدنيا خالط الطاعة بالمعصية ، وكان ينحل جسمه ويعتل وقتاً ، فكيف يحشر ؟ فإن قلتم : يحشر أعظم ما كان جسمه فقد أجزتم أن يعاقب على السيئات التي أخرجها في حال الدقة والنحولة أجزاء من بدنه حدثت بعد تلك الجرائم ، ولم يكن لها في افتراقها نصيب .

وان قلتم يحشر انحل ما كان جسماً وأدقه ، فقد أجزتم أن يخلوا الأجزاء التي زادت في بدنه عند العظم ، والعفو له من ثواب الطاعات التي عملهـا في تلك الحال ، ولو جاز أن يخلي بعض أجزائه من الثواب لجـاز نحلها ، كلها ، فان جاز ذلك فليجز أن لا يبعث أصلاً !

فالجواب : انه يجوز أن يقال : الله تبارك وتعالى ان ادخله النار عذبه على كل ذنب أتاه ، وهو ناحل أصلاً ، وعلى كل ذنب أتاه ، وهو عند العظم . فامـا إذا صاره إلى الجنة ، فإنه لا ينحل عليه فيثبته بما أتاه من الطاعات ، وهو ناحل أصلاً ، لأن التفضـل بالاحسان كان منه ، وان كان الاشراف في العقاب غير واقع منه ، فيجعله في الجنة عبد ليصل إليه ثواب ما عمله من الخير في حال عبولته باسم الجزاء ، ويكون بنعم أجزائـه الزائدة على ما كانت عندما عمل من الخير ، وهو ناحل ابتداء ، فضل من الله تعالى لاجزاء بالحقيقة والله أعلم .

وسأل سائل عن كافر قطعت يده في حال كفره ثم أسلم ، ومات مسلماً براً تقيــاً ويصار إلى دار الجزاء، فان قلتم تبعث يده، فانما هو جزء من بدنه الذي كفر به، فكيف يكون موضعها دار الثواب ؟

وان قلتم يبعث بلا يد ، فقد أجزتم أن يبعث بعضه ولا يبعث بعضه . وسـأل عن مسلم قطعت يده : لم ارتد ومات على ذلك ، أيبعث بيده أو بلا يد ؟ فان قلتم يبعــث بيده ، فكيف تلج النار يد لم يذنب بها صاحبها ؟ وان قلتم : بلا يد ، فقد أجزتم أن لا يبعث بعضه .

فالجواب : ان كل واحد منهما يبعث تام النمو ، كامل البدن . وأما الذي مات مسلماً وقد كانت يده قطعت في حال كفره ، فإن إسلامه أحبط كفره عن جميع بدنه ،فالتحق بذلك ان تورد يده مورد سائر أعضائه ، ولا ينظر إلى اتصال اليد به ، وانفصالها عنه ، لأن اليد تابعة للبدن لا حكم لها على الانفراد في طاعة ولا معصية .

وأيضاً فإن واحداً من الاسلام أو الكفر لا يقع باليد ، ويقع بالقلب واللسان كانت يداً أو لم تكن ، فإن جاز أن تدخل الجنة يد كانت ، إلا أن الإسلام لم يقــع بها ، وان وقــع بغيرها جاز أن تدخلها يد لم تكن عند الكفر أصلا أو وقع الكفر بغيرها والله أعلم .

وأيضاً فإن اليد المقطوعة من جملة البدن الذي كان حياً في هذه الدار ، فلا يخلو من أن تعاد الحيــاة إليها في الآخرة ، ومعلوم أن حياتها في هذه الدار كانت لحياة الجملة ، تــدل ذلك على أنها في الآخرة تكون حية بحياة الجملة ، لأن الله عز وجــل قال : « كما بدأكم تعودون »[1] ثم يكون فرح الاسلام بردها إليه من جملة ثوابه ، وردها أيضــاً إلى الكافر مما يتغلظ به عذابه ، لأن ألم ما يمس اليد من النار زيادة ألم يصيبه ، وقد جاء في الحديث : « ان ضرس الكافر في النار مثل أحد »[2] فهذا دون ذلك وأقرب منه وبالله التوفيق .

---

(١) الاعراف : ٢٩ (٢) ورد في صحيح مسلم « الجنة » رقم ٤٤ .

فصـــل

وسأل سائل عن قوله عز وجل : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ [1] وعما مـا جاء عن النبي ﷺ : « ان الجماء تفيض من القرناء » [2] ، وقال : قد جعل الله بهيمة الأنعـام وكثيراً من الوحوش طعمة للناس ، أفرأيتم ما أكل من لحومها أيعاد اليها يوم القيامة للحشر أولا لايعاد ؟

فإن أعيدت فما حال الأبدان التي أعيدت تلك اللحوم ، انقرض منها غيرها أولا،فان عوضت ، فكيف يجوز أن تصل لذة الثواب وألم العقاب إلى غير ما اكتسبت الطاعـة والمعصية من البدن ، وان لم يعرض أوجب ذلك أن يكون ابن خمـس سنين إذا اغتذى اللحوم حق كبر وصار ابن خمسين سنة ، فيرع منه تلك اللحم كلها، وردت إلى مواضعها ان تصير كابن خمسين سنة ، ولذلك تدخل الجنة أو النار !

فإن قلتم : لا تعاد إلى الحيوانات لحومها التي أكلتها النار ، فكيف تحشر ولا لحم لها ولا دم ولا نفس ولا مخ ، وانما تكون لها الحياة دون هذه الأشياء .

فالجواب : ــ وبالله التوفيق : انه إذا كان لها هناك تعويض فتتعوض الحيوانات من لحومها و لحوماً غيرها ، أشبه بأن ترد لحوماً اليها ، ويعوض الناس منها غيرها ، لأن مـا نما من أبدان الناس بتلك اللحوم ، فقد صار من جملة أبدان مكلفة أحسنت وأسـاءت ، فصارت بذلك مستحقة للثواب والعقاب ، فلا ينزع عنها ، وتعاد إلى البهائم فيكون بدن الانسان قد قلب بهيمه ، وعوض منه عوضاً لاحظ له في طاعته ولا معصيته ، فيخرج من ذلك من أن يجزى بخير أو بشر مع ما في ذلك من مخ المنجس في دار الجزاء ، وانما المسخ من سخط الله وعقوبته وخزيه ، فكيف يجوز أن تكون عاقبة الذي آمن وعمل صالحـاً إذا ورد يوم القيامة أن يمسخ ؟

وأما البهائم فقد قيل : انها تحشر لتعوض ما خلص إليها من ألم الذبح ومهانة السلـخ والتمزيق والأكل عرضـاً ، ولا تحشر لمحاسبة ولا لجنة أو نار ، فلا حظ لها في الحسنات والسيئات. وإذا كان حشرها للتعويض، فهي إذا عوضت اتمام أبدانها وتصحيح أجسادها،

---

(١) التكوير : ٥ (٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

والذت بذلك ونعمت فقد توفر على الحشر عوضه وبالله التوفيق .

قال قائل : لو كان البعث بعد الموت حقاً لما جاز أن يأمر الله العباد أو ينهاهم ، ويكلفهم ضروباً من التكليف من لدن آدم إلى زمان عيسى ، ولا يطلع أحد على ما هو فاعل بهم ، ولا يدري أحد منهم أنه قد أعد للمطيعين داراً مشحونة بالنعمة والكرامة ، وهي الجنة ، وأعد للعصاة داراً تتأجج نارها مشحونة بالنقمة والعقوبة ، ولو كان قدأعد لهم ذلك ، واطلع العباد عليه لوجب ذكره في كتب المتقدمين ، والأمر بخلاف ذلك ، لأن دعاء الاولين إلى الله جل ثناؤه كنوح وإبراهيم وموسى ما أخبر أحد منهم قومه بان لهم معاداً يحاسبون فيه ويجزون بأعمالهم . وإنما كانت مواعيدهم كلها عاجلة كما قال نوح لقومه: ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ [1] .

وقال هود أيضاً لقومه : ﴿ إستغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ [2] .

فإذا تصفحت التوراة لم تجد فيها للمعاد ذكراً ولا عن الجنة خبرا . وانما هو وعد الخصب والصحة والظفر على الأعداء وما يشبهها على المعصية ، وما ذكر أحد قبل عيسى معادا . فكان أول من رمز فقال : ان المسلمين المنحلين من الدنيا المتفرغين لعبادة الرب يرقون إلى ملكوت السموات وان الاثمة والظلمة يصيرون إلى أغوار ومغور مظلمة،فيلقون فيها جزاء أعمالهم السيئة ، ثم جاء بعده نبيكم فلم يقنع بذكر الأرواح حتى اخبر ان لا بد ان يعاد بها ، ووصف دارين : أحدهما مشتملة على الملاهي والملاذ ، فذكر أنها للثواب .

والأخرى مشحونة بألوان المكاره والآلام فأخبر أنها للعقاب وهذا يدل على أن الأولين لم ينتهوا في طلب الرئاسة ، فما ينتبه به الآخرون ، فاقتصروا على المواعيد العاجلة اتكالا على انه ان اتفق لمن يطيعهم خير ، قالوا : هذا لطاعتك ، وان اصابه شر ، قالوا : هذا لعصيانك وان جرى الأمر بخلاف هذا فيكون للطبع ، أو يخلف عنه ما وعده ، قالوا : هذا الشيء أحدثه أو سريرة رديئة بين الله تعالى وبينه أتاه لوجده كان يفعل كذا،

---

(١) نوح : ١٠ (٢) هود : ٥٢

وان اصابت القاضي حسنة ويحلف عنه ما أوعده به ، فقالوا : هذا لحسن خلقه ، أو لأجل جاره الصالح ،أو استعطاف من الله تعالى إياه واستتابه ،ومثل هذا سائر موجود في العامة .

فانهم إذا رأوا رجلا صالحاً عندهم قد وسع الله عليه الرزق وأصلح حاله ، قالوا : هذا من بركة الصلاح والخير ، وإن رأوا خيراً مثله عليه سيء الحال ، قالوا : ألا ترون أن الله تعالى تحميه الدنيا لموته في الآخرة ما هو أسنا وافضل ، ونسوا ما قالوه في غيره ، وإذا رأوا رجلا كافي المعاصي والمفاسد ضعيف الحال شديد الفقر والحاجة ، قالوا : هـــذا من شؤوم المعصية ، وان رأوا آخر مثله موسعاً عليه قالوا : ان الله تعالى أتاه الدنيا ليجد منه الآخرة ، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقي الكافر منها شربة ، ونسوا ما قالوا في غيره .

فعلى هذا كان أمر الأولين ، ثم ان الآخرين يذهبوا لوجه لآخر أبعد من أن يقع فيه حلف يحتاجون إلى أن يطلبوا له علة ، أو يذكروا له عذرة ، وما حالوا على مواعيد احله ذكروا انها تكون بعد الموت وإلى مدة لا يعلم انقضاؤها إلا الله تعالى ، وعلموا انه لا شيء أحب إلى الناس من الحياة ، واتظهروا عليهم بحرصهم عليها ، وأخبروهم انهم في الدار التي ينتقلون إليها يحيون حياة شر مدتها لا انقضاءلها ليكون ذلك مأتما لهم على اتباعهم والقبول منهم حرصا على أن يحيوا أبداً في النعيم الذي بشروهم به ، قال : فهذا سبب وقوع خبر البعث بعد الموت فيما بين الناس.

فالجواب : — وبالله التوفيق — إن الله جل ثناؤه لم يحل أحداً من رسله من انـــذار قومه على لسانه بالبعث بعد الموت والمحاسبة والجزاء بالجنة والنــار ، ونحن قد علمنا ذلك قبل أن يدعيه ولا يتوقف فيه ، وهذا المعترض لا علم له بما قال ، ولا يرجع فيه الا إلى ظن مجرد ، والظن لا يعني من الحق شيئا .

وانما قلنا هذا لأن نبينا صلوات الله عليه النائب إلى بالاعلام الكثيرة الباهرة صدقة كما أخبرنا بالبعث بعد الموت .

فلذلك قد أخبرنا عن الله تعالى ما أرجاه من ذلك إلى أنبياء آدم صلوات الله عليـه ، وعن النبيين قبله صلوات الله عليهم ، قبل موسى عليه السلام من الكتب قليلا ولا كثيراً ، ولا شاهدا عن الذين كانوا يدينون بالدين ، ورجوا عليه أحداً أو أكثر مما يفزع إليه في

تصحيح قوله : « انه لم يجد في المعاد الذي يصفه ذكرا في التوراة ، ولا عنه خبرا عند اليهود ، فمن له بالتوراة حتى نحاكمه إليها ؟

فإن الذي في أيديهم يدعون انه التوراة فيها مغازي موسى عليه السلام ووفاته وحزن قومه عليه ، وفيه من تعجيز الله وتكفيره وتشبيهه بخلقه ، وتكفيره هارون ، ورميه باتخاذ العجل ما لا يمكن أن يكون منزلاً من عند الله تعالى .

فان كان ذكر المعاد لا يوجد فيها فلا خير فان الجناية في حد ما أنزل من عند الله واسقاطه أيسر منها في التقول على الله واضافة ما ليس في تنزيله إلى تنزيله ، علما اني سمعت عالمامن علمائهم يقول: ان الله تعالى يقول في التوراة لموسى اني رفعت القتل عن النافين من الذين اتخذوا العجل فأخرت امرهم إلى قوم علمه عندي ، فاذا جاء ذلك اليوم كنت بجزائهم بصيرا ، وسألت عن الكتب المنزلة بعد موسى ، فأخبرني ان ذكر البعث بعد الموت فيها كثير .

وان يوشع بن نون عليه السلام يسأل الله تعالى أن يريه إحياء الموتى فأمره ان يذهب الى واد سماه له ، فيه ما لا يحصى من رميم الأموات ، فأذن الله تعالى العظام المفنيه من الأبدان المتفرقة أن تحيى ، فكان كل عظم وكل مفصل يفقد منه مكانه ، ويرجع إلى موضعه من بدن صاحبه الى ان تتم جملته ، وتستوى كما كانت حتى أراه الأبدان كلها ناشرة ، ولم يذكر انه أحياها .

الا ان المنكر للاحياء ، منكر للأعادة ، وقد ثبت وجود الخبر عنها . ما نقلته اليهود عن يوشع ، وثبت أيضاً ان يوشع سأل الله تعالى ارائه احياء الموتى ، فأجابه إلى ما يتقدم للأحياء من اعادة الأبدان ، ولم يجبه إلى الأحياء لالتقائه بما أراه ، فانه لم يكن يخفى عليه أن الأحياء بعد اعادة الأجساد ، كيف تكون.

ولم يكن يوشع ليسأل الله تعالى أن يريه احياء الأموات ، إلا بعد أن أخبره الله تعالى وأخبر موسى عليه السلام انه ما تحب عبادة بعد الموت ، فاذا أراد أن يتعجل النظر إلى ذلك ليطمئن قلبه ، وان كان قد تقدم منه الايمان به .

وقرأت أنا فيما يذكرون أنه الزبور الخبر عن يوم القيامة ، وجزاء الناس باعمالهم في عدة مواضع ، فليس لأحد أن يدعي على الأنبياء قبل عيسى عليه السلام انهم لم يذكروا

لأمهاتهم المعاد ولا ان يدعي على الانبياء قبل عيسى عليه السلام ، انهم لم يذكروا لامهم المعاد ، ولا أن يقطع بنفي ذلك اعتمادا على انه لم يجد في التوراة له ذكراً .

فانه لو ثبت ان التوراة المنزلة كانت خالية من ذكر المعاد ، لكان وجه ذلك ان الله عز وجل اخبر بموسى بالمعاد بوحي ، او جاءه خارجاً عن التوراة . فكيف وغير ذلك ثابت ، وليس شيء مما علومه عنه منه ثقة ، الاما ثبت بغير خبرهم انه فيما انزله الله تعالى، وبالله التوفيق .

وأيضاً فان بعض نسخ الكتاب الذي يدعون أنه التوراة هو الخالي من ذكر البعث بعد الموت ، فأما الذي ترجمه أحمد بن عبد الله للأنجيل وفيه شيء كثير ، ذكر انه مما انزل الله على موسى من صحف إبراهيم صلوات الله عليهما، فما أكثر ما فيه من ذكر القيامة، وقد قرأته مرات وعلقت كثيراً منه ، ولو لم يكن من هذا شيء ليس من المجتمع عليه أن نبينا صلوات الله عليه كان من أولي الألباب ومشهوراً بالحكمة ، فان كان الخاسرون لا يشهدون له بالنبوة ، ومعلوم أن القاتل المكلف بأمر من الأمور ، الحريص على جمع الناس على الاعتراف لديه ، لا يأتي بما ينفرهم عن تصديقه ، ويضطرهم إلى تكذيبه، وإنما يجتهد في تقريب قراه عليهم ، واشرابه قلوبهم . فاذا كان هذا هكذا ، لم يجز أن يكون محمد نبينا صلوات الله عليه ، أخبر بني إسرائيل بان نبيهم ومن تقدمه اخبروهم بمعاد فيه الجنة والنار ، من غير أن يعلم أن ذلك كان منهم ، أو مع علمه بانه لم يكن ، وانما كانت مواعيدهم كلها عاجلة لا آجلة ، ولم يكن يخفى عليه وهو عاقل مميز أنه إذا أخبره عن أنبيائهم وكتبهم خلاف ما يعرفون ، كان ذلك مدعاة لهم على تكذيبه وجحد نبوته ، وتنفيراً لهم عن الدخول في دينه .

فثبت انه انما أخبرهم بذلك بأن الله عز وجل قد أنزل ذكره وصفته في كتبهم على أنبيائهم لاستبانة ان ذلك حق ، ولم يكن هذا اليقين يقع له إلا أن يكون صادقاً في أن الله تعالى يرسل إليه الملك بما يشاء من أمره ، ويطلعه على الغيب الذي يريد اطلاعه فصح ووضح انه كان رسول الله حقاً فوجب تصديقه عن مخبراته والبعث بعد الموت وان الرسل المتقدمين أخبروا قومهم به جملتها ، فلزم تصديقه وبالله التوفيق .

وأيضاً فإن خبر المعاد لم يزل فاشياً في الملتين وغيرهم من الأوائل المتقدمين ، وقد ذكر

سقراط أن الذين يمضون إلى الآخرة ، وقد أفنوا أعمارهم بالطهارة وسبيل القصد ، فإن الملك يقودهم إلى الأرض مشرقة عجيبة ، ومـا نبتت فيها من الأنوار والأشجار بخلاف هذه ، إذا كانت التربة والاحجار خلاف لتلك الاحجار ، ملس متسقة ، حسنة الألوان كأنصاف اليواقيت والزبرجد ، وليس فيها بأكل ولا فساد ، ولا في تربتها عفونة ،وجميع ما تم من الحيوان ومن النبات بخلاف هذا كله .

وتلك الأرض مزينة بالذهب والفضـة ، وليس لأولئك مرض ، وحواسهم بخلاف حواسنا ، واذهانهم بخلاف اذهاننا ومفهومنا ، وثم لهم ملائكة يكتبون ، ووحي وآثار سيئة ومعارضات عجيبة ، وان الذين عظمت ذنوبهم وجناياتهم ، ونزلوا واجبات الشريعة فإنهم يحملون إلى نهر يلتهب بنار عظيمة،ويغلي بماء وطين ، فيكونون فيهاأبداً،لايخرجون عنها ، وأما الذين برزوا في حسن السيرة وانهم يصيرون إلى فـوق إلى المسكن التقي فيسكنونـه ، ومن كان من هؤلاء قد آثر الحكمة ويبقى بها نقياً بالغاً ، فإنهم يعيشون بالأبدان ، ويصيرون إلى مساكن لا تسهل الدلالة عليها . قال : فقد ينبغي لما قلت يجتهد الجهد كله حتى ينال في سيرتنا الفضيلة وللفوز في الذكاء والفهم .

وهذا الذي قاله سقراط من أن من آثر الحكمة ويبقى بها ويعيش في الآخرة بلا بدن، يدل على ان عامة ما قدمه في غير هذه الطبقة من خير أو شر ، فإنما أراد به أن ينـال أبدانهم ، فإنهم لو كانوا عنوة بلا أبدان لم يكن بينهم وبين المؤثرين للحكمة فرق .

وهذا هو الذي أنكره المعترض الذي حكينا اعتراضـه وقدحه ، ورغم ان المسيح أول من رمز باعـادة الأرواح ، ولم يرض الذي جاء بعده – يعني المصطفى نبينـا ﷺ – بذلك حين قال : (إن الإيمان يعلو) (١) فيقال له : ان كان الأمر كما قلت ، فمن وأين قال سقراط ما حكيناه منه ، وهو على ما يقال : كأن قبل موسى عليه السلام بسنين كثيرة ، وإن ايامه كانت قريبة من عصر ابراهيم عليه السلام ، وهل يمكن أن يكون ما قال استنباطاً واستخراجاً له بعقله ، فان كان ذلك يمكن ادراكه بالعقول .

فما أحرى بالذي جاءوا به عن الأنبياء صلوات الله عليهم التصديـق والتنزيه من أن

---

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

يكون زوروه أو افتعلوه ، ليكذبوا به العامة ويقودوهم إلى طاعتهم واتباعهم ، فـــان مثل هذه التهمة انما تليق بمن قال قولا لا يجد له في المعقول أصلا ، فاذا ذلت عليه العقول، وشهدت بصحته الأصول ، فان القبول إله منه يلزم ، وإن لم يكن نبيـــاً .

فكيف يجوز ان يتهم فيه بالتزوير إذا كان نبياً ، أتى بالمعجزات ،وأتت نبوته بالدلائل والبينات ، فان كان سقراط لم يقل ما حكيناه عنه من قبل المعقول ، وإنما قاله سماعـــاً من الدعاة إلى الله ، كانوا في ذلك الوقت أو قبله ، فقـد بطل قول المعترض : ان أول من جاء بهذا الوعد محمد ﷺ .

وأما الذين تقدموا فإنما كانوا يعترضون على المواعيد العاجلة ، وقال سقراط عند موته إلى الله الابتهال في أن يكون نقلي من هذه الدار إلى الدار الآخرة نقلة سعادة .

وقال تاليس المليسي ، أحد السبعة الذين كانوا يدعون اساطين الحكمة : ان فـوق السماء عالم مبدعة ، لا يقدر المنطق على أن يصف تلك الأنوار ، وذلك الحسن والبهاء، وهي مبدعة من غير لا يدرك العقل غوره ، وهو الدهر المحض من نحو آخوه لا من نحوبدئه واليه تشتاق العقول والانفس أشد الشوق ، وهذا الذي سميناه الديمومة والبقاء في حد النشأة الثانية . فقد أثبت هذا الرجل أيضاً النشأة الثانية ، وقوله في السماء عوالم لا يقدر على أن يوصف حسنها يوافق ما جاء من ذكر العرش ، وإن جنة عدن في ظلاله وبقربه ، ومـــا جاء من قول الله جل ثناؤه : (أعددت لعبادي الصـــالحين . ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) (١) .

فكيف يجوز المعترض ان يقول : ان فكر المعاد ابدعه محمد ؟ وإن هذا القول مستمان على اسرائه قلوب العامة مما يعلم منهم من الحرص على الحياة ، وقد سبق محمد ﷺ إلى هذا من ذكرناه ممن لا يعد في أصحاب الشرائع وليس عند المعترض بموضع تهمة .

وقال هرقل العظيم من أهل افيسيوس : إن السماء في النشأة الثانية تصير بلا كواكب لان الكواكب فيها ذكر ، تهبط سفلا حتى تحيط بالارض ، وتلتهب فيصير بعضها متصلا ببعض حتى تكون كالدائرة حول الارض ، فكل نفس شريرة تبقى محيطة بها تلك النار

---

(١) ورد في سنن الدارمي « الرقائق » باب ٩٨ ، ١٠٤ .

وتصير الانفس الزكية المطهرة إلى السماء وتكون سماؤهم سماء نورية أشرف من هذه، فيها آثار الباري عز وجل بلا متوسطات وهناك الصور والحسن المحض والقوة .

فقد أثبت هذا أيضاً النشأة الاخرى ، وقد سمى الله عز وجل الحياة الآخرة بهذا الاسم في القرآن فقال : ﴿ وأن عليه النشأة الاخرى ﴾ (١) وقوله : ان الكواكب تهبط سفلا ، وهو عين ما ورد به القرآن من قوله عز وجل ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾(٢).

وقوله في النار التي تحيط بالارض ، قول الله عز وجل: ﴿ ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾(٣)

وقوله في الانفس الزكية انها تصعد إلى السماء وسماؤهم انور وأشرق من هذه، يدل على ان التي أشرق كواكبها تزول عنده فيضاهي ذلك ما في القرآن من قوله : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ (٤) .

وقال سقراط : فإن الذين مروا من قديم الدهر ، ان الذي يصير إلى الآخرة من البقاء والاستبصار ، فانه ساكن الملائكة وعلى زرابيته الاكاليل ، وإن الذين يمضون إلى الآخرة وليس عندهم نقاء فانهم يكونون في الحمأة والبلاء ، لم يكونوا اخساء ولا اراذل ولا جهال ولكن أهل فهم وعقل وفضل وجلاله ، وأنا قد اجتهدت عند هذا كله في طلب الصواب وتيقنت تيقناً لا يتقدمه شيء ان مصيرى إذا اخرجت من هذه الدنيا انما هو مؤول في غابة الجود والخير ، ورؤية اقوام خيار ، فلم اعسر على مختلف من أخلقه من إخواني وساداتي لما أرجو اني القى هناك اخوانا وسادات خياراً ليسوا بديلا من هؤلاء .

فقد أثبت سقراط ان ذكر الآخرة موجود سائر في النـــاس عند قديم الدهر ، وان الذين أخبروا بذلك كانوا أهل جلال وفضل وفهم ، وذلك تكفيت للمعترض في دعواه ، ان أول من جاء بذلك نبينا ﷺ ها هنا ومما كتبناه من كلامه قبل هذا : إن أهل البقاء يصيرون إلى فوق وخلافهم يكونون في الحمأة والبلاء ، موافق لما في القرآن من قول الله عز وجل : ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ كلا إن كتاب الابرار لفي عليين ﴾ (٦) .

---

(١) النجم : ٤٦ (٢) الانفطار : ٢ (٣) الكهف : ٢٩
(٤) الزمر : ٦٧ (٥) المطففين : ٧ (٦) المطففين : ١٨

وقول سقراط : إن الحياة تذهب بهم إلى نهر يلتهب بنار عظيمة وتغلى بماء وطين ، يوافق بما جاء غير واحد من الصحابة في قوله : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ (١) ، انها تحمي فتصير جهنم ويحبس فيها قوم من العصاة .

وقال بعضهم : سجرت أى سألت ، فقد يجوز أن يحيي ويرسل فتصير انهاراً جارية يغل بعضها بنار وبعضها بماء وطين ، وبالله التوفيق .

فان قيل : كيف يجوز اثبات حكيم عن بقراط ولم يكن مصدقاً بالرسل ؟

قيل : إنما حكينا عنه قوله ، ويقال : إنه كذا وكذا ، فإنه قد أثبت لهذا الخبر انه سمع ما قال إنه ليس بذلك ، إنما ادعاه المعترض من أول ابداع هذا الوعد ، إنما كان نبينا ﷺ ، وانه تنبه لما كان لا يجوز أن يثبته له ، الا الاولون من الدعاة إلى الله تعالى ، إذ كانوا هم المبتدئين للامر بهت وكذب ، وإن كان هذا مسموعاً متعالماً منذقديم الدهر ، ثم سواء كان سقراط مثبتاً لهذا الوعد مصدقاً لهذا القول ، أو منكراً إياه ومكذباً به ، وعلى أنه يمكن أن يكون مثبتاً له من جملة ما أخبرت به الرسل ، وإن كان غير معترف برسالتهم لاستبصاره من دلائل العقل ما يوحيه في الجمله ، فإن لم يكن فيها التفصيل الذى جاءت به الرسل والله أعلم .

وعلى ان سقراط فيما قيل من خبره كان مصدقاً بالرسل فيما خلا ثم صار إلى تكذيبهم ، لا من حيث رأى : إنه لا يجوز ان يكون لله تعالى إلى خلقه رسول ، ولكن لامر يسير دخلت عليه الشبهة من قبله ، وهو انه كان صاحب جهد في استنبـاط العلوم التي كانوا يسمونها رياضية وطبيعية .

فلما شاهد الرسل أمل أن يجد عندهم منهذهالعلوم مايستغنى بها عن الجهد والطلب ، وستبين له الحقائق وتزول عنه الخواطر والشكوك ، فلما لم يجد عندهممنها شيئاً استبعد أن يكون الرسول الموحى اليه في البعد من هذه المعلومات كالعامة ، فصار ذلك سبباً لاتهامه إياهم ، وجحده ثبوتهم .

ولو كان الله تعالى كتب له السعادة لعلم ان الله عز وجل إنما بعثهم ليوقف عبادة بهم على ما خلقهم له من عبادته ولم يكلهم ان يعلموا ما يبعث سقراط وأمثـاله فيه أنفسهم

(١) التكوير : ٦

شيئاً ، ولا ذلك مما ينفعهم في الآخرة شيئاً ، وإذا كان هذا سبب كفره فلا ينكر أن يكون ما حكاه من أمر النشأة الثانية شيئاً سمعه من احياهم قبل أن يتغير رأيه فيهم ويكون منه ما كان وبالله التوفيق .

وأيضاً فإن في اشعار العرب في الجاهلية قولا يثبت المعاد يوم الحساب ، فقال زهير بن أبي سلمى في قصيدته المعروفة :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى فمهما تكتم ، الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أم يعجل فينقم

وليس يمكن أن يكون زهير أخذ عن النبي ﷺ لأنه سبق أيامه ، فصح انه أخذ عمن يقدمه ، وان علم العباد كان خاشياً عندهم والله أعلم .

واما قول المعترض في المواعيد العاجلة ، فجوابه : أن المواعيد العاجلة أدل به على صدق الوعد لأنه ما لم يبق عن نفسه الثقة التامة بانه صادق مصدق لا يقدم على أن يعد الناس على اتباعه ، ويوعدهم على خلافة مواعيدا عاجلة ويصرف لنا مواقيتاً معلومة لأنه لا يأمن ان وقع فيها قال خلف: أن ينتهك ستره ويعامل مايعامل به الكذابون المزورون.

ولما كانت الدعاة إلى الله عز وجل المتقدمون فعلوا ذلك صح انهم كانوا مسبقين لصدق أنفسهم ، فلا يمكن أن يكون اليقين وأفعالهم للامر قبل اخبار الله تعالى وإياهم بما أخبروا به قومهم ، فثبت بذلك احقاقهم ولم يجز بعد ذلك أن يتأول عليهم ما تأوله المعترض من انهم قدروا في أنفسهم ان خلفا ان وقع في ميعادهم وضعوا له علة ، فإنا قد بينا ان ذلك غير ممكن أن يكون منهم مع قطعهم بما ذكروا انه كان بعينه وقت تنبئه بعينه ، وإنما يصلح طلب العلة لمن وعد خيراً منها أو وعد شيء منها لا في وقت بعينه .

وأيضاً فان ما قال : ان كان مثله يمكن أن يكون من واعد وموعود ، فلم يقع في خبر أحد من الأنبياء عليهم السلام ، حلف احتاج إلى أن يطلب له علة لكن كل ما أخبر به وقع في الوقت الذي قال بعينه . لان نوحاً عليه السلام ان انذر قومه بالاحتياج ودعا على قومه بان لا يذر على الأرض من الكافرين ديارا . وقد كان ذلك بعينه ، فإن الله عز وجل أرسل الطوفان فعم الكافرين بالغرق ولم يتخلص إلا نوح ومن آمن به .

ولئن كان هود ﷺ أنذر قومه بالبوار ، فقد حقق الله تعالى ذلك فأرسل عليهم ريحاً عاتية لم يبق منهم أحداً.

ولئن كان صالح عليه السلام أنذر قومه : ان آذوا الناقة ومسوها بسوء بعذاب قريب ، فعقروها ولم يخافوا عقبى جناتهم عليها ، فقد صدق الله تعالى وعده وأرسل عليهم الثالثة والرابعة صيحة أهلكتهم وان كان موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل عن الله تعالى أن يخلصهم من فرعون واستعباده إياهم ، ويورثه أموال قومه فقد فعل ذلك بهم.

وما يتهيأ للممترض أن ينص على وعد ووعيد لنبي أخلف ، فاحتاج إلى أن يطلب لاخلافه علة ، فدل ذلك أن مواعيدهم لم تكن صادرة من جهتهم وإنما كانت تصدر عن عبد الله تعالى عاجلة كانت أو آجلة ، وبالله التوفيق.

وأما ما حكاه عن عوام المسلمين من اختلاف أموالهم في المطيع والعاصي ، إذا رأوا أحداً منهما باحسن حال ، فإنما هو مثل ضربة للانبياء عليهم السلام من مواعيدهم ، وقد ثبت أن الحال التي وضعها لم تكن لهم ، فبطل بذلك أن يكون مثلهم مثل الذي ضربه لهم ، وبان ذلك انه وضع التشبيه غير موضعه ، وشك النبي بخلافة لا بنظره على ان ما قاله ليس بقدح في الكلام الذي حكاه عن العوام لأن جميع ذلك حق .

وقد فاوت الله بين عباده في الأخلاق والهمم فجعل منهم من لا يصلحه الا الغني ، ومنهم من لا يصلحه إلا الفقر ، فهو عز وجل يوسع على المصلح الذي جبله على الصبر وسعة الصدر ، ليجزيه في الآخرة بصبره كما يجزيه بغيره من عمله .

والمفسد أيضاً قد يوسع عليه افساده ليبتليه حتى إذا قابل انعامه بالكفر ، جزاه بذلك كا يجزيه بغير ذلك من سيئات أعماله ، وقد يقر عليه تشقيقاً وتشديداً عليه . فيكون ذلك وبالا عجلة له ، فأي شيء من ذلك قاله قائل فيمن ذكرت كان مصيباً صادقاً ، وعلى حد السالكين سبيل المعترض هذا أيضاً ، لان المنجمين منهم قد ينظرون في حال الرجل ، فإذا وجدوها شبهة ضيقة قالوا : هذا من آثار رجل . وقد ينظرون في حال آخر ، فاذا وجدوها رفيعة صالحة ، قالوا هذا من عطية رجل :

فلو قيل لهم : هذا أيضاً مختلف ، قالوا : كلا ، فإن الرجل إذا كان في موضع من الفلك موافق أعطى ، وإن كان في موضع رديء أخذ ، فجعلوا لكل واحد من القضائيين

حالا غير حال الآخر يتحرزون بذلك قضاؤهم عن التناقض ولا ظناً منهـم ينظرون إلى رجل متحرز حذر يسلم ، فيقولون ما تفعل الحكمة باهلها ، ونظروا إليه لا يسقم ، وعلى اختلاف الحالات يسلم .

وقد ينظرون إلى متحرز محاذر لا يسلم ، فيقولون الحمية ليســـت محمودة بالاطلاق . ولبعض الأطباء كتاب في الحميه مفرطة مهلكة للبدن ، ونسوا ما قالوه للآخر . وقـــد يرون رجلاً يتهافت بالطعام والشراب وعلى ذلك يسلم فيقولون : مـا أقوى طبعه وأحكم تركيبه . وقد يرونه لا يحتضرز ولا يسلم ، فيقولون : هذا لانه لا يسامح نفسه ولا يحسن تدبيره ، ونسوا ما فضوا به للآخر .

فلو قيل لهم : ان هذه القضايا مختلفة متفاوتة مضطربة ، قالوا : كلا ان لكل قضـاء من هذه حالا يخرج ، وبها يتعبد ، فيقال للمعترض : فان عوام المسلمين كذلك يقولون لك ويزعمون ان لكل مقام مقالا ، وان لكل قول حكيته عنا حالا ، فارض منا بما ترضى به من الأطباء والمنجمين وبالله التوفيق .

ويقال له ان المواعيد العاجلة لم تصدر من الأنبياء عليهم مصادر المواعيد الآجلة ، التي استبعدتها ، وإنما كانت عن جهة حجج ، أو لذكر الأنبياء على قومهم فانها ، اذا خفـت كانت حلا له على صدقهم ، وكان يزول ما نفع الابعاد به بالموعدين تردعه لمن يأتي بعدهم من المنذرين عن أن يكونوا أنبياء ، ان جاءهم بآية ، وبوعدهم على تكذيبه بوعيد ، وان لا يقنعوا منه تبلك الآية ، ويتربصوا لينظروا أيصدق وعيده أو يكذب ، وهـذا بين في اقتصاص الله تعالى أيضاً الأمم الماضيه ، لأنه قال في قصة نوح :

﴿ فكذبوا عبدنا ، وقالوا مجنون وازدجر ، فدعا ربه إني مغلوب فانتصر ، ففتحنـا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ (١).

وقال : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ، فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إلى قوله : ﴿ فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابي ونذر ﴾ (٣).

---

(١) القمر : ٩ - ١١ (٢) القمر : ١٨ - ١٩ (٣) القمر : ٢٣ - ٣٠

وقال : ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ، إنا أرسلنا عليهم حاصباً ، إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ (١) .

وقال : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخـذ عزيز مقتدر ﴾ (٢) . فقد أبان الله عز وجل المواعيد العاجلة انها كانت مؤكدة لبينات الرسل ، فلما لم تقبل منهم آياتهم أرسل عليهم من العذاب ما كانوا أنذروا به ، ليؤكدوا ذلك الآيات التي أعدوها في الدلالة على صدقهم ، أو تردع الجائين بعدهم عن مثل صنيعهم ، إذ كانت الدار دار التكليف والتعبد .

فأما هتك حرمة الإله المبدع الباريء المصور ، الخالق الرازق ، فليس يجوز أن يكون الغرق أو الصحة أو الريح أو الخسف جزاؤه ، لانه ليس في شيء من ذلك أعظم من سلب الروح، وذلك عقبى كل ذي روح ، آمن أو كفر . وما وراء ذلك فإنما هي روعة ساعة أو كرب ساعة .

ولا يشك أن ذلك لا يقابل عند عظيم حرمة الله عز وجل لإيواء الكفر مع تتابع نعمه التي لا تحصى ، الزمان الطويل والأمد البعيد ، ولا تكذيب رسله والكفر بهم ، فصح بذلك أن هذه المواعيد لم تكن تصدر من الأنبياء عليهم السلام ، مقابلة الحق من الايمان والكفر ، ولا الإيمان والكفر بهم أنفسهم ، وإنما كانت تصدر منهم على الوجـه الذي بيناه وشرحناه.

وإذا كان كذلك صح إنما يستخص به بالكفر بالله وبرسله ، هو شيء خارج عن هذه المؤاخذات العاجلة ، وان جزاءهم بالحقيقة زائد عليها اضعافاً لا يحصيها إلا الله تعالى، فهو لا محالة واصل إليهم إذا صح ذلك ، ثم وجدنا الانذار بها دون ذلك ، لم يجز أن لاتكون الأبدان بهـذا الا عظم وانفاً لأن ظن الخبر عنهم غرور لهم ، ولا يجوز على الغرور . فثبت انه قد وقع منهم وإن لم يوجد في كتبهم وبالله التوفيق .

وإذا قد ثبت لنا ، أردنا إثباته في مجيء الأنبياء عليهم السلام ، بذكر البعث بعـد

---

(١) القمر : ٣٣ - ٣٤ (٢) القمر : ٤١ - ٤٢

الموت، في الجزاء بالاعمال ، علمنا أن الذائمين له ، يبعثون بذلك البروج على المنعمين المترفين من الملوك ، وذوي الأعمال العظيمة ليستأكلوا بها أعمالهم ، ويكتسبوا بـــه الوجاهة عندهم . وإنما يستعينون على اشراب ذلك قلوبهم بمـا في الطباع من حب الجمام والراحــة ، والميل إلى الخفض والدعة ، فـــلا مكيدة لهم ولا لغيرهم من طبقات الكـالى أعظم من أن تصور مـا يقرب عليهم ترك الصلوات ومنع الزكوات والعقول عن غيرها من الطاعات ، وتسهيـل سبيلهم إلى إتباع الشهوات ، ومن تأمل الحال عرف صدق المقال وبالله التوفيق .

الثامن من شعب الايمـــان

وهو باب في حشر الناس بعدما يبعثون من قبورهم إلى المواقف الذي بين لهم من الأرض فيقومون ما شاء الله تبارك وتعالى ، فإذا جاء الوقت الذي يريد الله (به) محاسبتهم أمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون ، تذكر فيها أعمال الناس ، فأتوها . فمنهم من يؤتي كتابه بيمينه ، أولئك هم السعداء . ومنهم من يؤتى كتابه بشماله ، أو وراء ظهره وهؤلاء هم الأشقياء .

قال الله تعالى في المطففين : ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقـوم النـــاس لرب العالمين ﴾ (١) . فأخبر ان الناس يكونون يوم القيامة واقفين على أقدامهم. وأبان ان لا حال لهم سوى القيام من قعود واضطجاع . قال : ﴿ وكل إنسان الزمنـــاه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ﴾ (٣) .

وقال عز وجل : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ (٥) . وأخبر ان الذين يقرأون كتبهم يقولون : ﴿ مـال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ (٦) .

وإن من أوتي كتابه بيمينه يقول : ﴿ هـــاؤم اقرؤوا كتابيه ، إني ظننت اني ملاق حسابيه ، فهو في عيشة راضية ، وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول : ﴿ يا ليتني لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، يا ليتها كانت القاضية ﴾ (٧) .

---

(١) المطففين : ٤ ـ ٦ (٢) الاسراء : ١٣ (٣) الانفطار : ١١
(٤) ق : ١٨ (٥) الجاثية : ٩ (٦) الكهف : ٤٩ (٧) الحاقة : ١٩ ـ ٢٧

وقال : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً ﴾ [١] .

فإذا وقف الناس على أعمالهم من الصحف التي يؤتوها حوسبوا ، قال الله عز وجل : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ،فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسرورا [٢].

فدل ذلك على ان المحاسبة انما تكون ايتاء الكتب ، ولعل ذلك – والله أعلم – لأن للناس إذا بعثوا لا يكذبون ذاكرين لأعمالهم ، فان الله عز وجل يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا ، أحصاه الله ونسوه ، فإذا ذكروها وقفوا عليها : حوسبوا بها ، ولا يمكن ان يقطع في صفة المحاسبة بشيء لأنها لا تدرك إلا بتوقيف .

غير أنه جاء في الخبر عن النبي ﷺ انه قال : (ما من أحد الا وسيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان) [٣] .

وسمعت منهم من يقول : ان الملائكة يحاسبون بأمر الله والمحاسبة حكمة ، فلذلك يضاف اليه كما انه أضاف الحكم الى نفسه . فقال : ﴿ ألا له الحكم ﴾ [٤] ، وقال : ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ [٥] الا انه جعل مع ذلك إلى العلماء عباده أن يحكموا بين الناس ، فالحكم له والعباد يتولونه باذنه . كذلك المحاسبة حقه وحكمة ، غير ان الملائكة يتولونها باذنه ، والله أعلم .

وقد قيل ان الله عز وجل لما قال : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا ، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ [٦] .

فخص هؤلاء بان الله لا يكلمهم يوم القيامة ، دل ذلك على ان من لم يكن في معناهم ، فانه – تعالى جده – يكلمهم ، فان كان هكذا فانه سيكلم المؤمنين ويحاسبهم حسابا يسيراً بنفسه من حيث لا يكون بينه وبينهم ترجمان اكراماً لهم .

كما أكرم موسى عليه السلام في الدنيا بان كلمه تشريفاً له وتفضيلا ، فان المغضوب

---

(١) الانشقاق : ٩ – ١٢ (٢) الانشقاق : ٩

(٣) ورد في سنن ابن ماجة « المقدمة » ٧ ، باب ١٣ ، ١٨٥ ، وفي صحيح البخاري «المناقب» باب ٢٥

(٤) الانعام : ٦٢ (٥) الاعراف : ٨٧ (٦) آل عمران : ٧٧

عليهم من الكفار وغيرهم ، فانه لا يكلمهم ، ويأمر الملائكة بمحاسبتهم ليميزهم بذلك عن أهل الزلفة والكرامة والله أعلم ، ما هو فاعله .

وقد وصف الله تعالى نفسه في كتابه بانه أسرع الحاسبين وانه سريع الحساب وقال : ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ [١] ، فقيل : إن معناه محاسبة الخلائق لا يعتاص عليهم لكثرتهم وكثرة أعمالهم كما يحتاج المحاسب من البشر إلى مدة مديدة إذا كثر الذين يحاسبهم ، لكنه حاسبهم جميعاً بنفسه لمحاسبة أحدهم ومحاسبة أحدهم لا يتطاول عليه لكثرة عمله ، فيحتاج منها إلى وقت أمـــد من وقت محاسبة غيره ، ممن هو أقل عملا منه ، لكن مدته تتسع لمحاسبتهم معاً وإن كثروا ، وكان بعضهم أكثر عملا من بعض .

وإن كان المعهود من محاسبة الناس بعضهم من بعض خلاف هذا ، ألا ترى ان مدته تتسع لأحداث خلائق كثيرة معاً كما تتسع لأحداث احدهم ، وقدرته على أحداث الخلق العظيم ، كقدرته على احداث خلق صغير ، وقد بين جل ثناؤه ذلك في كتابه فقال : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ (٢) ، أي الا الخلق نفس واحدة ، وليس هذا للعباد ، ولأن أحداً منهم لا يقدر على الجمـــع بين بناء دارين وركوب دابتين ، وقطع ثوبين وخياطة قميصين .

وإذا تعاطى أحدهما لم يفعله إلا شيئاً فشيئاً ، واحتاج لاكثرهما شغلا إلى زمان أطول ، لذلك تتسع قدرة الله تعالى لمحاسبة الخلق كلهم معاً ولا يحتاج لمحاسبة أكثرهم عملا إلى زمان يطول هذا ان حاسب نفسه ، فأما ان أمر الملائكة بالمحاسبة ، فانه يقتص لكل واحـــد منهم ملكا بحسابه ، فيقتضي محاسبتهم في وقت واحد من هذين مما لا يقدر عليه غيره على مثله ، فيستحق في الوجهين أن يكون أسرع الحاسبين وبالله التوفيق .

فصـــل

وقد أخبر الله جل ثناؤه ، ان المحاسبة تكون بمشهد النبيين والشهداء ، فقال عز وجل : ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾ (٣) .

---

(١) الانبياء : ٤٧ (٢) الزمر : ٦٩ (٣) النساء : ٤١

وقال : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ (١) .

فالشهيد في هذه الآية النبي ﷺ . وشهيد كل أمة نبيها ، وأما الشهداء من قبلها فالاظهر انهم كتبة الأعمال بحضرة الأمة ورسلها ، فيقال للقوم : ما أجبتم المرسلين ؟ فيقول الرسل لله تعالى : ﴿ لا علم لنا إنك علام الغيوب ﴾ (٢) ، وذلك اما لأنهم نسوا ما أجيبوا به ، واما لأن الهيبة تأخذ بمجامع قلوبهم ، فيذهبون في تلك الساعة عن الجواب ، وإن كانوا ذاكرين له من قبل . ثم ان الله تعالى ينبئهم ويحدث لهم ذكراً فيشهدون بما أجابتهم به أممهم ، فهذا فيما بين كل نبي وقومه .

فأما كل واحد من القوم على الانفراد فالشاهد عليه صحيفة عمله وكاتباه ، فانه قد أخبر في الدنيا بأن عليه ملكين موكلين يحفظان أعماله وينسخانها ، واعلم ان جميع ما ورد عليه قبل أن يرد ، وعرف ان الملائكة أمناء لا يعصون الله ما أمرهم ، وانهم من خشيته مشفقون ، فريق بذلك كله ، واعتقد واعترف بأنهم لا يزيدون ولا ينقصون ولا يحرفونه ولا ينتمون ولا يغلطون ولا ينسون ، فلا حجة عليهم في موقف العرض والحساب أولى بأن يقام عليهم من شهادتهم وما كتبوه لهم وعليهم .

وليس هذا لان الله عز وجل غير محتاج في تثبيت الذنب على العبد ليعاقبه به إلى حجة وبينة ، ولكن الناس يردون القيامة ، وقد تباعد عهدهم بأعمالهم ونسوها وأغفلوا عنها . فقد كانوا في الدنيا ينسبون ما يكون منهم بأخف من هذه العوارض التي عرضت لهم .

فان تلك الحوادث إذا قوبلت بالموت والبلى ، ثم الإعادة والبعث ومشاهدة أهوال يوم القيامة ، كانت هباء .

ولذلك إذا قيل لهم : كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : ﴿ لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾(٣) فإذا عرضت عليهم الصحف الناطقة بأعمالهم وشهد عليهم كتبتها بما فيها ، ووقع لهم العلم بما كان منهم ضرورة ، وتبين لهم من الصواب والخطأ وفيما كان منهم ما كانوا في الدنيا جاهلين أو مستكينين فيه ، وذلك مما وعدهم الله عز وجل أن يفعله بهم ، لان الله عز وجل خبر في غير آية انهم يردون اليه فيثيبهم بما كانوا فيه يختلفون . فدخل من دخل

---

(١) لقمان : ٢٨ (٢) المائدة : ١٠٩ (٣) الكهف : ١٩

النار منهم عن بصيرة باستحقاقه إياها . ودخل من دخل منهم الجنة متحققـاً بفضل الله تعالى عليه ، بما أهله له من الكرامة التي أورده إياها يوم القيامة والله أعلم .

وأما أخبار الله عز وجل عن شهادة الجوارح على أهلها بقوله تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ [١] .

وقوله تعالى : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ، وقالوا لجلودهم : لما شهدتم علينا ، قالوا : أنطقنـا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ [٢] .

وقوله عز وجل : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ [٣] .

ومما جاء عن النبي ﷺ من قوله : ﴿ انكم مقدمون يوم القيامة ، فأول ما يتكلم من أحدكم فخذه ﴾ [٤] .

وإن ذلك والله أعلم – يحتمل وجهين : أحدهما ان يكون زيادة على ما ينطق بـه كتاب بعض العصاة ، يريد الله تعالى به فضيحة يوم القيامة ، لانه في الدنيا كـان يجاهر بالفواحش ويخلو قلبه عندها من ذكر الله عز وجل فلا يفعل خائفاً مشفقاً .

لكن فعل من لا يرى عليه تقية بحال ، فيجزيه الله تعالى بمجاهرته الا ساعة تفحشه وفجوره على رؤوس الاشهاد ، ويكون معنى قول الله تعـالى : ﴿ ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ (٥) . أي فعلتم فعل من يظن هذا .

كما قال في قصة يونس عليه السلام : ﴿ فظن أن لن نقدر عليه فنادى ﴾ (٦) . أي فعل من يظن انه لا يقدر عليه والله أعلم .

والآخر أن يكون هذا ، فيمكن أن يقرأ كتابه فلا يعترف بما ينطق به على هـذا . انهم يقولون لجلودهم : لم شهدتم علينا . فهذا يدل على ان الذين يشهد عليهم جوارحهم ،

---

(١) النور : ٢٤ (٢) فصلت : ٢١ ، ٢٠ (٣) يس : ٦٥

(٤) لم يرد الا في مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ ٥ ، ص ٣

(٥) فصلت : ٢٢ (٦) الأنبياء : ٨٧

بلغوا غاية التمرد ، فلم يذعنوا لشهادة الصحيفة ، ولا كاتبيها ، فاستحقوا من الله تعالى الفضح والاجزاء ، نعوذ بالله منها والله أعلم .

فصل

والحساب وإن كان الله تعالى ذكره جملة ، وكذلك جاء ذكره في كثير من الاخبار ، فان في بعضها دلالة على ان كثيراً من المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب وهم المتوكلون. فصار الناس إذاً ثلاث فرق : فرقة لا تحاسب أصلا ، وفرقة تحاسب حساباً يسيراً، وهاتان الفرقتان من المؤمنين ، من يكون أدنى إلى رحمة الله فيدخله بغير حساب . وليس يبعد أن يكون من الكفار من يكون أدنى إلى غضب الله فيدخله النار بغير حساب .فتكون الفرق أربعاً .

وقد جاء في الحساب اليسير عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (اللهم حاسبني حسابا يسيراً ، قلت : وما الحساب اليسير ؟ قال : ينظر في كتابه ويتجاوز عن سيئاتهم ، وأما من نوقش الحساب عذب ، قلت : فأين قول الله عز وجل : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾(١). قال ذلك العرض (٢).

وقيل في معنى العرض : هو أن يقرأ كتابه ليقرأه ويعرف ما كان منه من حسنة وسيئة ثم يتجاوز عن سيئاته من غير أن يقال : لم فعلت هذا ، ولم تركت هذا . فيسأل عن الحجة إذا سئل عنها لم يجدها ، فكان العذاب يحق عليه. ومناقشة الحساب أن يقول: هلا فعلت هذا ؟ أم هلا تركت هذا ؟ ولم تركت هذا ؟ ويطالب بالحجة ، فإذا لم يجدها عذب والله أعلم.

فصل

فأما الكفار فان الله جل ثناؤه قال : ﴿ أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ (٣) .

---

(١) الانشقاق : ٨ (٢) لم يرد الا في مسند الامام احمد بن حنبل ، ج ٥ ، ص ٤٨
(٣) الصافات : ٢٤

وقال في سورة أخرى : ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ [1] وقال في ثالثة : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ ، ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ . ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ [2] .

وفي آيات العدل التي ذكر بعد الفراغ من ذكر الحساب إبانه بالغة عن محاسبة الكفار وهذه الآيات لا اختلاف فيها تناقض لأنها آيات عامة الألفاظ واللفظ العام قد يطلق والمراد به بعض من يشملهم اللفظ إعتماداً على أصل قد يفرد مما إذا رجع المخاطب إليه وجد فيه دلالة الخصوص فيكون الموجود في تلك الدلالة ، اللفظ عام بمنزلة الاستثناء المقترن باللفظ.

وإذا كان هكذا احتمل الجمع بين هذه الآيات من وجهين : أحدهما أن الكفار يحاسبون بالكفر الذي كان طول العمر شعارهم ودثارهم .

وكل دلالة من دلائل الإيمان خالفوها وعاندوها وذهبوا عنها ، فإن ينكثوا عنها يسألون عنها ويسألون عن الرسل وتكذيبهم إياهم وذهابهم عن الدلائل الدالة على صدقهم .

فاما تعاطيهم وتصرفهم ، فكل شيء أتاه على مما كان ممنوعاً من الملك أومعطلاًوكان قبيحاً في العقول فانه يسأل أيضاً عنه ويحاسب به . فأما ما فعله على مما كان مطلقاً فيقلبه وغير مطلق في الإسلام فهو إنما يسأل عن ملته التي كان يعتقدها بعد أن تميل عنها، ويسأل عن ذلك الذنب نفسه كما يسأل المسلم عن ذنوبه كلها ، لان سؤال المسلم عن ذنوبه ، أن يقال له : إذا كنت مسلماً وكان الاسلام لا يطلق لك هذه الأعمال ، فلم عملتها ، وما الذي هون عليك تعاطيها ويبعد أن يقال لمعتقد ملة من الملك،إذا كنت تعتقد ملة كذلك، وكانت الأعمال مما يطلقها لك ملك الملة ، فلم عملتها وما الذي هون عليك تعاطيها ؟ لأنه يقول : هونها علي ان ملتي كانت توحيها ، وتمنعني من خلافها.

ولو قال هذا لكان يقال له : ولم اخترت تلك الملة وقد كان تعالى نسخها ودعاك إلى غيرها . وبعث بذلك الغير إليك رسولا ، وانزل به كتاباً وأمد ذلك الرسول من الدلائل بكذا وكذا ، فبان بهذا ان الرسول لهؤلاء انما يكون عن كفرهم .

---

(١) القصص : ٧٨ (٢) الرحمن : ٣٧ - ٤١

وما احرموا من الذهاب عن الحق ودلائله لا عن الذنوب ؛ الا ان تكون الذنوب بالصفة التي ذكرتها وإذا كانت هذه الجملة معقولة وجب أن يرجع إليها في تبين منازل الالفاظ التي وردت بها تلك الآيات ، فيقول — يعني قول الله عز وجل : ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ (١) عن الله ورسله صلوات الله عليهم ، وعن الايمان في الجملة ، وهو معنى قوله عز وجل : ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ (٢) ومعنى : ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ (٣) ، أي لا يسألون عما فعلوه مما كانت مللهم وتقتضيها وتوجبها لما ذكرت .

وله وجه آخر : وهو أنهم لو فعلوا خلاف ما كانت تلك الملك توجبه ، لم يكن في ذلك بر ولا قربة لهم مع تمسكهم بالملك الفاسدة ، فكيف يقال لهم : الا خالفتم ما كانت مللكم تدعوكم إليه ، ولو كانوا فعلوا ذلك لم يكن ذلك بانفراده برا ولا قربة لهم . وأما المسلم فانه يقال له : لم فعلت ما كان دينك لا يقتضيه ، لأنه لو كان فعل بخلاف ذلك ، لكان لزوم ما يوجبه دينه عليه برا له وقربة ، فهذا فرق ما بينهما والله أعلم .

والوجه الآخر : ان الكفار يحاسبون بتعاطيهم كما يحاسبون بأصل دينهم ، ومعنى قول الله عز وجل : ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ (٤) ، أي محاسبون . ومعنى : ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ ومعنى ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان ﴾ سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين ، أي أن الملائكة لا تحتاج الى ان يسأل أحد يوم القيامة فيقول : ما كان دينك ، وما كنت تصنع في الدنيا حتى يتبين له باخباره عن نفسه ، انه كان مؤمناً أو كافراً ، لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه ، منشرحي الصدور ، والمشركون سود الوجوه زرقا مكروبين ، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار ، أو تمييزهم في الموقف عن المؤمنين كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم والله أعلم .

ومن قال هذا فيحتمل أن يقول : ان الأمر يوم القيامة يكون بخلاف ما هو كائن قبله على ما وردت به الاخبار من سؤال الملكين الميت إذا دفن وانصرف الناس عنه ، يسأل عن ربه ونبيه ودينه ، أي إذا كان يوم القيامة ، لم تسأل الملائكة عند الحاجة إلى

---

(١) الصافات : ٢٤ (٢) الرحمن ٣٩ (٣) القصص : ٧٨
(٤) الصافات : ٢٤ (٥) القصص : ٧٨

تمييز فريق عن فريق عن هذا لاستبقائهم بمناظرهم عما وراءها والله أعلم .

ومن رأى بهذا الرأي فعسى أن يحتج بقول الله عز وجل : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ (١) . فأخبر انهم يسألهم عن أعمالهم ، وهذه الآية في الكافرين. ولمن ذهب المذهب الأول أن يقول : إذا سألهم عن أصل كفرهم ثم عن تحديهم إياه في كل وقت باستهزائهم بآيات الله ورسوله ، فقد سألهم عما كانوا يعملون ، وذلك هو المراد بالآية والله أعلم .

فصل

وإذا انقضى الحساب ، كان بعده وزن الأعمال للجزاء ، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة فان المحاسبة لتقرير الاعمال والوزن لاظهارها معانيها دبرها ليكون الجزاءَ بحسبها قال جل ثناؤه : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ (٢) ، ﴿ والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ، تلفح وجوههم النار ، وهم فيها كالحون ﴾ (٤).

وقال : ﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه ، نار حامية ﴾ (٥) .

وفي هذه الآيات كلها أخبار بوزن أعمال الكفار ، لأن غاية المعنيين بقول الله تعالى : ﴿ خفت موازينه ﴾ في هذه الآيات هم الكفار . فان في احديها ، ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ والظلم بآيات الله للاستهزاء بها وترك الاذعان لها .

وفي الثانية : ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ (٦) .

---

(١) الحجر : ٩٢ (٢) الأنبياء : ٧٤ (٣) الأعراف : ٨

(٤) المؤمنون : ١٠١ (٥) القارعة : ٩ (٦) المؤمنون: ١٠٣ - ١٠٥

وفي الثانية : ﴿ فأمه هاوية وما أدراك ماهية، نار حامية ﴾[1]. فهذا الوعيد بالإطلاق لا يكون للكفار فإذا جمع بينه وبين قوله تعالى : ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (٢) .

ان الكفار يسألون عن كل ما خالفوا فيه الحق من أصل الدين وفروعه ، إذ لولم يسألوا عما وقفوا فيه أصل دينهم من ضروب تعاطيهم ولم يحاسبوا لم يعيدها في الوزن أيضاً، وإذا كانت موزونة في وقت الوزن ، دل ذلك على انهم محاسبون بها في وقت الحساب والله أعلم .

ومن قال بالوجه الآخر بقي أن يقول : إنما وصف الله تعالى ميزان الكافر بالخفة، وذلك يقتضي أن يكون له وراء كفره ، معاصي توزن معه ، لأنـــه وإن لم يوزن من أعماله إلا الكفر وحده ، فليس ذلك بدافع الخفة عن ميزانه ، فبطل الاستشهاد بهذه الآيات ، على أن فروع كفره موزونة ، فأما قوله عز وجل : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ﴾ (٣) ، فانما هو في ان اليسير من الطاعة لا يضع لفاعله ليكون قد ظلم .

فأما السيئة إذا لم يؤت بها فليس في ذلك ظلم يلحق صاحبها ، فدل ان ذلك يعزل عما أريد بالآية والله أعلم .

فان قيل : فان معاصي الكافر لا توزن مع الكفر ، فهل يعاقب عليها ؟ **قيل** : من قال بهذا القول فينبغي أن يقول : يعاقب الكافر المنهمك في السيئات على كفره عقوبة أغلظ مما يعاقب به الكافر المجرد للكفر عن تلك السيئات ، لأن كفره هو الذي حمله على ما اقترفه وجناه، ولا يعاقب على سيئة عقوبة مفردة، هو الذي يليق بان الكفار مخاطبون بالشرائع .

وأما القول الآخر : فانه انما يليق بان يكونوا غير مخاطبين بالشرائع حتى يؤمنوا ، وفي القرآن ما يدل على انهم مخاطبون بها مسئولون عنها ، محاسبون مجزيون على الإخلال بها ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿ وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ (٤) ، فتوعدهم على منعهم الزكاة ، وأخبر عن المجرمين انه يقـــال لهم : ﴿ مـــا سلككم في سقر ﴾[5] ، فيقولون ﴿ لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا

---

(١) القارعة : ٩ (٢و٣) الأنبياء : ٤٧
(٤) فصلت : ٧ (٥) المدثر : ٤٢

نكذب بيوم الدين﴾(١) ، فبان بهذا ان المشركين مخاطبون بالإيمان بالبعث،وباقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وانهم مسئولون عنها محاسبون بها ، مجزيون على ما أخلوا منها والله أعلم .

فصل

ان قال قائل : أما وزن أعمال المؤمنين فظاهر وجهه لأنه قد يكون للمؤمن حسنات وسيئات ، فإذا قوبلت احداهما بالأخرى وجدت حقيقة الوزن ، والكافر لا يكون له حسنات فما الذي يقابل بكفره وسيئاته وأنى يتحقق في أعماله الوزن ؟

فالجواب : ان ذلك على وجهين : أحدهما ان الكافر يحضر له ميزان فيوضع كفره ، أو كفره وسائر سيئاته في احدى كفتيه ، ثم يقال له : هل لك فن طاعة تضعها في الكفة الأخرى ، فلا يجدها فيشال الميزان فترفع الكفة الفارغة ، وتبقى الكفة المشغولة ، فذلك خفة ميزانه ، وهذا ظاهر الآية ، لأن الله جل ثناؤه انما وصف بالخفة الميزان لا الموزون، وإذا كان فارغاً فهو خفيف .

والوجه الاخر : ان الكافر قد تكون منه صلة الأرحام ومواساة الناس ورحم الضعيف واعانة الملهوف والرفع عن المظلوم وعتق المملوك ونحوها ، مما لو كانت من المسلم لكانت قربا وطاعات ، وهي تقع حسنات في أنفسها ، وإن كانت لا تسلم له عبادة وطاعة ، كما ان من المباح من الطعام والشراب واللباس . إذا تعاطاه وقع ذلك منه مباحاً ، فهذه الخيرات من الكفار فانها تجمع وتوضع في ميزانه ، غير أن الكفر اذا قابلها رجح بها ، ولم يخل من أن يكون الجانب الذي فيه هذه الخيرات من ميزانه خفيفاً ولو يكن له الأخير واحد وحسنة واحدة لا حضرت ووزنت كما ذكرناها .

ومن قال بالوجه الأول ، قال : لو احتسب جزاؤه حتى يوزن لجوزي بها جزاء مثلها، وليس له منها جزاء ، لأن رسول الله ﷺ سئل عن عبد الله بن جدعان وقيل له انه كان يقري الضيف ويصل الرحم ويعين في الثواب ، فهل ينفعه ذلك ؟ فقال : لا ، ان عبد الله ابن جدعان لم يؤمن يوماً قطرب أغفر لي خطيئتي يوم الدين (٢) ، أي لم يكن يؤمن بالله

---

(١) المدثر : ٤٣ - ٤٦

(٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

والبعث والحساب ، فيدعوه ذلك إلى الاستغفار وسأله عدى بن حاتم عن أبيه مثل ذلك، فقال : (ان أباك طلب أمراً فأدركه) (١) ويعني الذكر .

فدل ذلك من ان خيرات الكافر ليست بخيرات له ، وإن وجودها وعدمها سواء . ومن قال بالوجه الآخر قال : قد قال الله جل ثناؤه : ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (٢) وليس في الآية فصل بين نفسين ، فبخيرات الكافر تحضر وتوزن ويجزى بها ، إلا ان الله تعالى حرم عليه الجنة فيجزي بها أن يخفف عذاب الكفر عنه .

وقد أخبر النبي ﷺ : (إن أبا طالب في صحصاح من نار وعليه نعلان من النار تغلي منه دماغه ، ولولا مكانة لكان في الدرك الأسفل من النار) (٣) ، فقد بان إحسان أبي طالب إلى النبي ﷺ ينفعه من حيث يخفف عذابه فكان كل ذي حساب وخيرات من الكفار في هذا مثله .

وأما ما قال النبي ﷺ في عبد الله بن جدعان وحاتم طي فانما هو في انهما لا يدخلان الجنة ولا ينعمان بشيء من نعيمها والله أعلم .

وهذا الثاني وجه فاسد ، لأن الله عز وجل إذا خفف عن الكفار العذاب الذي ذكره جزاء الكفر كان ذلك مغفرة منه لبعض الكفر ، وقد أخبر الله عز وجل في كتابه انه لا يغفر ان يشرك به ، فلو جاز مع هذا الخبر ان يغفر بعض الشرك ، لجاز معه أن يغفره ، وذلك ممتنع .

وفي هذا بيان خبر أبي طالب صحيح ، لا يجوز إثباته عن النبي ﷺ الا أن يكون معناه : ان جزاء الكفر من العذاب واصل اليه ، ولكن الله تعالى وضع وراء ذلك عنه الوانا من العذاب على جنايات جناها سوى الكفر تطيباً لقلب النبي ﷺ ، وثواباً له في نفسه لا لأبي طالب ، ولا في هذا القول احتساباً بحسنات الكافر ، وتلك ليست بحسنات منه في الحقيقة .

---

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة . (٢) الأنبياء : ٤٧

(٣) ورد في صحيح البخارى « مناقب الأنصار » باب ٤٠ ، وفي صحيح مسلم « الايمان » رقم ٣٥٧ ، وفي مسند الامام أحمد بن حنبل ج ١ ، ص ٢٠٦

ولا لقائل أن يقول : وجود الحسنات منه كوجوه السيئات من المؤمن لأن الحسنات طاعة والكافر لا يثب الجنة دار المطيعين والكافر لا طاعة منه ، وأماالسيئةفهيمعصية المؤمن ، فثبت الأمر الذي يتصرف العصيان اليه ، فصحت السيئة منه ولهذا جاز أن يستوجب بها النار .

وإذا كان كذلك صح ان حسنات الكافر لا يجوز أن توزن ليجزي بها خيراً،وأقصى ما يكون أن يقال فيها : انها توزن قطعاً بحجته ، وعلى معنى أن يقال : ان كانت خيراً بلى هذه فقد وزناها الا ان الكفة لما قابلها رجح بها واحبطها ، فما ذلك بعد هذا فأما على غير هذا الوجه فلا يمكن أن تكون موزونة والله أعلم .

ولا يصح لأصحابنا من هذا الوضع قول سوى هذا ، لأنهم ان قالوا : ان تثبت حسناته كا تثبت سيئات المؤمن ، وانها تحبط بقدرها من سيئات الكافر كا تحبط سيئات المسلم بقدرها من حسناته ، فماذا تهيأ لهم أن يقولون إذا لم يبق للكافر سيئات وخلص الأمر إلى كفره .

فإن قالوا : لا تحبط حسناته من أصل كفره شيئا ، فماذا ثواب حسناته وقد حرم الله عليه الجنة ، وإن قالوا تحبط ، لزمهم أن يقولوا ان حسناته إذا ترادفت لم ترك يحيط من أصل كفره الشيء بعد الشيء حتى يحيط جميعه .

فإذا قالوا : كذلك يكون ، قيل لهم : أن يكون هذا الكافر بعد ذلك ولا دار إلا الجنة أو النار ، ولاحظ في واحد منها ، فيضطرون عند ذلك إلى ترك هذا القول ، ولا يعرض لهم مثل هذا في سيئات المؤمن ، لأن الله تعالى لم يحرم النار على المسلمين ، ماحرم من الجنة حتى على الكافرين فهم يقولون : ان سيئات المؤمن تحبط حسناته التي هي دون الايمان ، فإذا لم يبق منها شيء ازهقت نفسه بالنار ، ومن أجاز من المتقدمين أن تحبط السيئات ثواب أصل الإيمان . قال : إذا لم يبق من ثوابه شيء فإن كانت له مع ذلك مسيئة باقية خفت عليه النار إلا ان يعفو الله تعالى عنه ، وإن لم تكن عليه سيئة باقية ، فان الله تعالى يحسن اليه فيدخله الجنة اما بشفاعة النبي ﷺ ، وأما ابتداء بالتفضيل عليه ولا يمكن أن يقال في الكافر ان خيراته احبطت سيئاته كلها ادخل الجنة ، فيتبين بهذا تباين الفرقين وبطلان التسوية بين الطبعتين وبالله التوفيق .

فان قيل : ان كان الكافر مثلما يعمل الخيرات بالأمر الذي يسجله في الكتاب الذي يدين الله تعالى به ، فلم لا يكون فعله لها طاعة كا تكون السيئة للمؤمن معصية ؟

قيل : لأنه مأمور بتلك الخيرات بالأمر الذي بلغه النبي ﷺ عن الله جل ثناؤه ، فإذا لم تثبت له طاعته ، وأما الأمر المتقدم فقد تناهى وزال قيام الحجة به ، ولولا أن هـذا هكذا لكانت بعض رسالة رسل المتقدمين باقية ، ولكان الرسل إلى بني اسرائيل في بعض الأشياء ليوم موسى ومحمد صلوات الله عليهما معاً ، وليس ذلك كذلك ، ولكن الرسول محمد ﷺ وحده ، فمن لم يثبت الأمر الذي بلغه على لسانه لم تثبت له طـاعة الأمر ، ولم يكسب بما يفعل بر ولا قربة .

فان قيل : أرأيت ان كان للكافر انما يفعل هذه الحسنات لأنه يجدها حسنة في عقله ، ويجد الإحسان حسنا ، والعقل داعية من دواعي الله تعالى، فلا تزول على حكمه طاعة .

قيل : ان الأمر المقرون بالوعد والوعيد هو السمعي ، فمن لم يفعل ما يفعله من الخير لامر يثبته فلا طاعة منه تستحق به الجزاء .

فان قيل : فقولوا ، ان لم يثبت الامر لم يثبت له عصيانه كما قلتم ، ان من لـم يثبت الامر لم تثبت له طاعته ، فلزمكم على هذا أن لا يكون المعطلة عصاه .

قيل : إن العصيان إنما هو مفارقة الامر وترك العمل به ، وجحد الامـر من أعظم الدواعي إلى ترك العمل به ، فاستحال أن يقال : ان لم يثبت الامر لم يؤخذ منه عصيانه وأما الطاعة فهم العمل بالامر وجحد الامر ليس من الدواعي إلى العمل لكنه من الموانع ، فاستحال أن تثبت طاعة الامر ممن لا يثبت ، لان الشيء لا يوجد مع مواقعه ، وإنما يوجد عند وجود دواعيه وبالله التوفيق .

ومما يدل على صحة هذا القول ، قول الله جل ثناؤه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ [١] ، فان أعمالهم الصالحة في أنفسهـا لم تنفعهم ، وخفف عنهم العذاب لاجلها لما كانت هباء منثوراً . وقـال جل ثناؤه : ﴿ عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ﴾ [٢] ، وذاك أيضاً اشارة إلى نصيب الكافر في عمله الذي يرى انه طاعة له وقربة لا تجدى عليه شيئاً ، ولا تدفع عنه من شدة حمى النار شيئاً والله أعلم .

---

(١) الفرقان : ٢٣ (٢) الغاشية : ٣

فصـــل

فان سأل سائل عن وزن الاعمال كيف يكون ، فانمـــا الأعمال حركات الناس وهي أعمال لا بقاء لها ، وقال : كيف تبقى الأعمال إلى يوم القيامة وكيف يمكن وزنها ؟

قيل له : قد تكلم الناس في ذلك فقالوا : ما يكون المراد من الوزن مقابلة الأعـمال ، ويتبين ما ينبغي ان يعامل به بيانا ظاهرا للملائكة والنبيين والشهداء ، أو قـــد تدعو الحاجـة في الدنيا إلى أن يعرف مقدار عمل ، كالذي يحتـاج الى أن يعطي آخر مثله ، فيقابل عمله ذلك بأمثاله من غير ميزان يكون التعديل به .

وقد استعمل الناس ذكر الوزن في الشعر ، وفي كل كلام مستحال ، ولم يريدوا بـه الا الاعتدال ، واستوى بعضه ببعض عند المقابلة بين فصوله ، فقيـل ان وزن الاعمال يوم القيامة من هذا .

وقال آخرون : انه تكون هناك موازين بالحقيقة ، لكل ميزان كفتان ، احداهمامن نور والأخرى من ظلمة ، كما جاءت به الأخبار ، فالكفة المنيرة للحسنات ، والكفـــة المظلمة للسيئات .

ثم ان الناس يومئذ ثلاث طبقات : احداهـما المؤمنون المتقون ، وهم الذين يوافون يوم القيامة بلا كبائر الذنوب . والثانية المؤمنون المخلطون وهم الذين يوافون القيامة بالفواحش والكبائر . والثالثة الكفار .

فأما المتقون فان حسناتهم توضع في الكفة النيرة ، وصغائرهم — ان كانت لهـم — في الكفة الأخرى ، فلا يجعل الله لتلك الصغائر وزنا ، وتثقـل الكفة النيرة حتى لا تبرح ، وترفع المظلمة ارتفاع الفارغة الخالية ، واما المخلطون فان حسناتهم أيضاً توضع في الكفـة النيرة ، وآثامهم وسيئاتهم في الكفة المظلمة .

فيكون يومئذ لكبائرهم التي جاءوا بها ولحسناتهم ثقـــل ، إلا أن الحسنات تكون بكل حال أثقل لأن معهـا أصل الإيمان ، وليس مع السيئات كفر ، ويستحيل وجود الإيمان والكفر معاً لشخص واحد ، فيوزن أحد بالآخر ، ولأن الحسنات لا يراد بهـا إلا وجه الله تعالى ، والسيئات لم يقصد بها مخالفة الله تعالى ، واشفاق من غضبه فاستحال ان

توازى السيئات وإن كثرت حسنات المؤمن ، ولكنها عند الوزن لا تخلو من ثقيل يقع بها للميزان حتى يثقلها كبعض ثقل الحسنات ، فيجزي أمر هؤلاء على مـا يثبت في باب زيادة الايمان ونقصانه .

وأما الكفار فان كفرهم ومعاصيهم التي دعاهم إليها ، وهو بهـا عليكم ، كفرهم في الكفة المظلمة ولا يوجد لهم حسنة توضع في الكفة الأخرى ، فتبقى خفيفة لفراغهـا وخلوها من الجزاء ، فيأمر الله تعالى جده بهم إلى النار ، ويعذب كل واحد منهما بقـدر أوزاره وأيامه .

وأما المتقون فإن صغائرهم باجتنابهم الكبائر تغفر ، ويؤمر بهم إلى الجنـة ، ويثاب كل واحـد منهم بقدر حسناته وطاعاته . وهذا ان الصفات هما المذكوران في القرآن في آيات الوزن ، لأن الله عز وجل لم يذكر حيث ذكر وزن الأعمال الا من ثقلت موازينه ومن خفت موازينه ، وقطع بل ثقلت موازينه بلا فلاح ، والعيشة الراضية على الاطلاق. ولمن خفت موازينه بالخلود في النار بعد ان وصفه بالكفر ، وقد علمنا أن النـاس كلهم لا يكونون هذين الفريقين، لكن يكون معهما فريق ثالث وهم الذين يخلطون الشيء الصالح.

ووردت الأخبار بأن النبي ﷺ يشفع فيهم فيخرجون من النار بعدما صاروا حمماً . إلا أن هذا الفريق لم يذكروا ذكراً مفصلاً في آيات الوزن ، ولكن الله عز وجل قدقال: ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبـة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (١) .

وفيها بيان المخلط توزن حسناته وسيئاته ، ولذلك قال ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ ، أي لا توزن له سيئة ، لأن نقصانها من ميزانه كان لا يحول بينه وبين الجنة ، كما لو تركـت للمخلط حسنة ازداد ذلك من ثقل سيئاته ، وأوجب ذلك زيادة عذاب عليه . فعلمنا أن الطبقات يومئذ ثلاث كما بينا والله أعلم .

فاما ان الوزن كيف يكون ، ففيه وجهان : احدهما ان صحف الحسنات توضع (في) الكفة المضيئة ، وصحف السيئات توضع في الكفة المظلمة، لأن الأعمال لا تنسخ في صحيفة واحدة ولا كاتبها يكون واحداً ، لكن الملك الذي يكون على اليمين يكتب الحسنـات

---

(١) الأنبيـاء : ٤٧

والملك الذي على الشمال يكتب السيئات ، فيفرد كل واحد منهما بما ينسخ ، فإذا جاء وقت الوزن وضعت الصحف في الموازين فيثقل الله منها ما يحق تثقيله، وخفف مايحق تخفيفه.

والوجه الآخر : انه يجوز أن يحدث الله أجساماً مقدرة بعدد الحسنات والسيئات ، ويميز احدهما عن الآخر بصفات يعرفونها ، فيوزن كما توزن الأجسام بعضها ببعض في الدنيا ، والله أعلم .

فصل

إن سال سائل: عن الأعمال إذا وزنت مايعتبر فيها في الوزن فيظهر بها الأخف والأثقل.

قيل له : تعتبر فيها مواقعها من رضى الله عنه تعالى أو سخطه ، وذلك ان المؤمن قد يأتي بحسنة لا يريد فيها إلا وجه الله تعالى ولا يحمله عليها الا حبه لله تعالى ورغبته في تحصيل مرضاته .

وقد يأتي بها خوفاً من عقابه، وقد يأتي بها فرقاً في حال اتيانه بها من ان لا تقبل منه، وان لا تكون وقعت من كل وجه على ما يرضاه الله تعالى .

وقد يأتي ساكن العلم إليها معتقداً انه قد أدلها وخرج عن عهدتها وعلى هذا قد يواقع السيئة غافلاً عن نهي الله تعالى لا يخطر بقلبه ان الذي يأتيه سيئة لا يرضاها الله تعالى وذلك لألفة إياها ومرونية عليها وان كان لو وقف في تلك الساعة وسئل عما يأتيه لاعترف بها سيئة خائفاً من تبعتها فرقا من مواجدة الله تعالى اياه بها .

الا ان ما يغلب عليه من الهوى يحول بينه وبين الكف عنها ثم ذلك الهوى أيضاً يختلف فقد يشتد حتى يجد صاحبه اتباعة لذة كثيرة ، وقد يخف فلا يجد صاحبه في اتباعه الا لذة يسيره .

وكذلك الداعي إلى الحسنة يختلف وقد يقوى حتى يجد صاحبه من اجابته وفعل الحسنة التي دعا إليها فرحاً شديداً ، إنما تبشره لها ، وقد لا يبلغ هذا المبلغ فيكون فرح الفاعل للحسنة بحسنة دون فرح الذي ذكرناه ، وكل هذه الوجوه معتبرة في الوزن .

فلذلك يصلي رجلان بصلاة واحدة ويصومان يوماً واحداً ويحجان معاً ، ويكون ما يظهر من أعمالها سواء الا ان عمل احدهما أثقل وزناً وأكبر ثواباً ، ويصلي واحد ركعتين

فرقا وركعتين مثلها وقتاً آخر ، فتكون احدى صلاتيه أفضل من الأخرى .

وكذلك الصيام وغيره ، ويشتركان في معصية فيكون ما يظهر من أفعالهما سواء ، الا ان عمل احدهما يكون أكثر تبعة ، وأظهر في ميزانه من الآخر ، فقد قيل في قول الله عز وجل : ﴿ وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ﴾ [1] ، معنى اطلاعها على الأفئدة ان تؤلم كل أحد بقدر ما في قلبه من المعصية التي واقعها فصار معاقباً عليها .

فان محل الدواعي كلها هو القلب ، والافعال اجابة عن الأعضاء لتلك الدواعي تختلف مقاديرها وما يستحق بها بحسب اختلاف تلك الدواعي في أنفسها .

ألا ترى أن العبد قد يدعوه سيده خير فيجيبه الا ان اجابته غير سيدة لا يقع منه موقع اجابتة سيده ، فانه انما يجب سيده على ان ذلك واجب عليه لا يسعه خلافه ويجب غير سيده تبرعاً في الجملة ، فبان بذلك ان أحكام الأفعال مأخوذة من دواعيها ، وهي كذلك في الدنيا وكذلك يكون في الآخرة والله أعلم .

فصل

ان سأل سائل : عن كبائر الذنوب وصغائرها وواجباتها . فقد قال الله عز وجل : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ [2] .

وقال : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ [3] .

وقال : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ [4] .

وقال : ﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ [5] .

وقال : ما الفرق بين ما سماها الله تعالى كبائر وما سماها فواحش، وما يجوز أن يقال لها صغائر ؟ .

فالجواب : انه ما من ذنب الا وفيه صغيرة وكبيرة ، فقد تنقلب الصغيره كبيرة

---

(١) الهمزة : ٥ ـ ٧ (٢) الأعراف . ٣٣ (٣) النساء : ٣١
(٤) النجم : ٣٢ (٥) الشورى : ٢٧

بقرينة تنضم إليها وتنقلب الكبيرة فاحشة بانضمام قرينة إليها الا الكفر بالله عز وجل ، فانه أفحش الكبائر وليس من نوعه صغيرة ، فأما ما عداه فالأمر فيه ما ذكرته .

وجاء عن النبي ﷺ انه سئل عن الكبائر ، فذكر الشرك بالله جل ثناؤه ، وقتل النفس بغير حق والزنا بحليلة الجار ، وقذف المحصنات والفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسرقة ، وقد قال الله جل ثناؤه : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ (١) .

وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وإن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما ﴾ (٤) .

وقال النبي : ﷺ : (من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر) (٥) ، والمعنى فقد استحق ما يستحق الكافر وهو القتل .

وإذا تتبع ما في الكتاب والسنة من المحرمات كثر ، وإذا أردنا هذه لنبين الصغائر والكبائر بياناً خارجاً نأتي على ما يحتاج إليه في هذا الباب باذن الله تعالى فنقول : ان قتل النفس بغير حق كبيرة ، فان كان المقتول ابا او ابنا او ذا رحم في الحلة او اجنبياً بالحرم فهو فاحشة ، واما الخدشة والضربة بالعصا مرة أو مرتين فمن الصغائر ، والزنا كبيرة ، فان كان بحليلة الجار أو بذات رحم أو لا بواحدة من هاتين ، لكن يأثم في شهر رمضان أو في البلد الحرم فهو فاحشة .

قال الله عز وجل : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ (٦) ، فالزنا كله

---

(١) النساء : ١٠ (٢) النساء : ٢٩ (٣) المائدة : ٣

(٤) البقرة : ٢١٩ (٥) ورد في مسند الإمام احمد بن حنبل ج ٦ ، ص ٤٠١ .

(٦) الحج : ٢٥

كبيرة ، الا ان ما كان منه على وجه مما تقدم ذكره فازداد كثيراً فالتحق بالفواحش ، وأما ما دون الزنا الموجب للحد فانه من الصغائر ، فان مع امرأة الأب أو حليلة الابن أو مع أجنبية اثم لكن على سبيل القهر والاكراه كان فاحشة كبيرة .

وقــذف المحصنات كبيرة ، فان كانت المقذوفة اماً أو اختاً أو امرأة فانــه كان فاحشة كبيرة .

وقذف الصغيرة والمملوكة والحرة المنتهكة من الصغائر ، وكذلك القذف بالخيانــة والكذب والسرقة والفرار من الزحف كبيرة ، فان كان من واحد أو اثنين ضعيفين وهو أقوى منهما ، أو اثنين حملا عليه بالسلاح وهو شاك السلاح، فذلك فاحشة وعقوق الوالدين كبيرة ، فان كان مع العقوق سب أو شتم أو ضرب فهو فاحشــة ، وان كان العقوق الاستثقال لأمرهما ونهيهما والعبوس في وجههما والتزمهما مع بذل الطاقة ولزوم الصمت فهذا من الصغائر ، فان كان ما يأتيه من ذلك ينجيهما إلى أن ينقصا عنه فلا يأمراه ولا ينهياه أو يلحقهما من ذلك ضر فهذا كبيرة ، والسرقة من الكبائر ، فأما أخـذ المال في قطع الطريق فاحشــة .

وكذلك قطع يد السارق ويد المحارب ورجله من خلاف وقتل النفس في قطع الطريق فاحشة . وكذلك لا يعمل عفو المولى عنه إذا قدر عليه قبل التوبة وسرقة الشيء التافــه صغيرة ، فان كان المسروق منه مسكيناً لا عناية عما أخذ منه فذاك كبيرة، وان لم يكن على السارق الحد وأخذ الأموال بغير حق كبيرة ، فان كان المأخوذ ماله يفتقر أو كان أب الآخذ او امه او كان الأخذ بالاستكراه والقهر فهو فاحشة ، وكذلــك ان كان على سبيل القمار ، فإن كان المأخوذ باقياً ، والمأخوذ عنه غنيا لا يتبين عليه من ذلك ضرر ، فذلك صغيرة .

وشرب الخمر من الكبائر ، فان استكثر من الشرب حتى سكر أو جاءهم بــه فذلك من الفواحش ، فان مزج خمراً مثلها من الماء فذهبت شدتها وشربها فذلك من الصغائر .

وترك الصلاة من الكبائر ، فإن صار عادة فهو من الفواحش ، فان أقامها ولم يوفهــا حقها من الخشوع، لكنه التفت فيها أو فرقع أصابعه أو استمع إلى حديث الناس أو سرى الحصى ، أو اكثر مس لحيته فــذاك من الصغائر ، وان ترك إتيان الجمعــة من غير عذر

فذاك من الكبائر ، فان اتخذ عادة فهو من الفواحش ، وان ترك إيتاء الجمعة لغيرها فذاك من الصغائر ، وان اتخذ ذلك عادة قصد به مباينة الجماعة والانفراد عنهم فذاك كبيرة ، وان اتفق على ذلك أهل بلده فهو من الفواحش .

ومنع الزكاة كبيرة ورد السائل صغيرة ، فان اجتمع على منعه أو كان المنع من واحد الا انه زاد على المنع الاشهار والاغلاظ فذاك كبيرة .

وكذلك ان أتى محتاج موسعاً على طعام فتاقت إليه نفسه ، فان تعاطيه كبيرة وتعاطيه على وجه يجمع وجهين أو وجهاً من التحريم كان فاحشة ، وتعاطيه على وجه يقصر به عن رتبة المنصوص أو تعاطي ما دون المنصوص الذي لا يستوفى معنى المنصوص الذي نهى عنه ، لئلا يكون ذريعة له إلى غيره ، فهذا كله من الصغائر ، وتعاطي الصغيرة على وجهين أو وجهاً من التحريم كبيرة .

مثال ذلك ان قتل النفس بغير حق محرم بعينه منهى عنه لمعنى في نفسه ، فهو انتهاك حرمة الله عز وجل بانتقاص مخاطب مكلف من الجملة ، فذلك ان كان عمداً كبيرة ، لأن العامل متسع لاستيفاء من يريد قتله وانتقاصه . فان احتقار الانتقاص وقتل فقد أراد الخيانة وآثرها فكانت منه كبيرة . وإن وقع ذلك خطأ لم تكن كبيرة ، ولأن زوال العمل يقصر بقتله عن رتبة المنصوص فانه لا يكون عند ذلك مؤثراً الانتقاص عدد المخاطبين المكلفين من بين الجملة .

فان كان المقتول أبا أو ذا رحم ، أو كان القتل في البلد الحرام أو قطع طريق كانت فاحشة لما في ذلك من انتهاك حرمات كثيرة مضمونة إلى حرمة المقتول ، وان ترك القتل إلى شيء دونه من إيلام بضرب غير منهك أو جرح لا ينقص به المجروح عضوا ولا يتعطل به عليه من منافع بدنه منفعة لم يكن ذلك كبيرة . لأن هذه الجناية لا تستوفي معنى القتل المنصوص وإن وجد فيه بعض معناه . لأن معنى الايلام أو انهار الدم وإن وجد ، فإن أماته الحي لا يوجد فيه ، فيفارق بذلك القتل وقطع الطريق ولا يكون كبيرة .

وإن تعاطي قتل أب أو أم أو ذوي رحم من كان ، أو كان ذلك في حرم أو شهر حرام أو استضعافاً لمسلم أو استعلاء عليه ، فذلك كبيرة لأنه فعل يجمع إيلام المجني عليه ، وانهار شيء من دمه أو طرفه اليه فصار بذلك كبيرة .

وإن دل رجل على مطلوب ليقتل ظلماً ، أو أحضر المرتد للقتل سكيناً فهذا كله محرم لأنه يدخل في قوله : ﴿ ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ﴾[1] لكنها صغائر ، لأن المنهي عنه ليس لأنفسها لكنها ذرائع الظالم إلى المتمكن من ظلمه ، فاكثر ما في اعانة القاتل بها ، ان المعين مشارك له في القصد ، والقصد إذا خلا عن الفعل لم يكن كبيرة .

وكذلك سؤال الرجل غيره الذى لا تلزمه طاعته أن يقتل ليس من الكبائر ، لأنه ليس فيه إلا إرادة هلاكه من غير ان يكون معها فعل والله أعلم .

فصـــــل

ان سأل سائل عن أصحاب الكبائر عن أهل القبلة إذا وافوا القيامة بلا توبة قدموها، ماذا يكون من أمرهم ؟؟

قيل له : – وبالله التوفيق – أمرهم الله تعالى ، فإن عفا عنهم مبتدئاً وإن شاء شفع فيهم نبيهم ، وإن شاء أمر بادخالهم النار وكانوا معذبين بها مدة ، ثم أمر باخراجهم منها إلى الجنة اما بشفاعة ولا يخلد في النار إلا الكفار .

فان سأل عن الدلائل على ما قلنا ! أما الدليل على أن غير الكفار لا يخلد في النار فهو قول الله عز وجل ﴿ من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[2] ، فأخبر ان التخليد في النـــار انما هو لمن احاطت به خطياته ، والمؤمن صاحب الكبيرة والكبائر لم تحط به خطياتة ، لأن رأس الخطايا هو الكفر ، وهو غير موجود منهم ، فصح انه لا يخلد في النار .

فان قيل : هذا معارض بأن الله تعالى قال بعقب هذه الآية : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خــالدون ﴾[3] ، فوعد الجنة من جمع بين أصل الإيمان وفروعه وصاحب الكبيرة أو الكبائر تارك للصالحات فصح ان وعد الجنة ليس له .

فالجواب : ان التعاطي للكبائر إذا تاب عنها ووافى القيامة تائباً لا يخلو من أن يكون

---

(١) المائدة : ٢ (٢) البقرة : ٨١ (٣) البقرة : ٨٢

تاركا للصالحات التي هي أضداد الكبائر ، ثم لأنه إذا شرب الخمر فقد ترك العمل بقول الله عز وجل .

وإذا زنى فقد ترك العمل بقول الله عز وجل : ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ [1] .

وإذا فر من الزحف فقد ترك العمل بقول الله عز وجل : ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ [2] ، وعلى هذا جميع الكبائر .

ثم انه إذا تاب سقط العذاب عنه بالتوبة ، وصارت الجنة داره ، وإن لم تصر بالتوبة جامعاً بين أصل الايمان وفروعها من الصالحات . لأنه وإن تاب منها اليوم فلا يخلوان من كان من تاركا لها بالأمس وقع بهذا ، جاز أن تكون داره .

فلا ينكر ان الذي يوافي القيامة بكبائر لم يتب منها مثله، فان تقل ليسا سواء،لكن التائب يقيم التوبة مقام السيئات التي قدمها ، والمصر ترك الطاعات ولم يقم مقامها شيئاً ، قيل التائب غير مبدل من الطاعات التي تركها شيئاً ، لأن التائب هو الذي يندم على ما جنى ولا يعود لمثله في المستقبل . فأما بذمة على ما معنى فانما هو بكرهه لما كان منه،وقد كان مأموراً من حين : فقيل : الا ان تاب بان يكون متكرهاً له ، فلما لم يفعل وأخره إلى الوقت الذى تاب منه كان إيتاء من هذا الغرض ببعضه لا بجمعه .

واما نزوعه عن الفعل وترك العود لمثله في المستقبل فهو أيضاً بعض ما كان عليه ، إلا انه كان عليه أن يكون نازعاً عن الفعل أبداً ، فإذا قدم عليه وقتاً ثم نزع عنه وقتاً كان بذلك مبغضاً للغرض ، وبعض الفرض لا يكون بدلا من جميعه ، فصح ان التائب غير مبدل من الطاعات التي تركها بدلا ولا يقيم مقامها خلفاً ، ومع ذلك جاز أن يدخل الجنة ، فليجز أن يدخلها المصر .

فان قيل : لو كانا سواء لكانت الجنة واجبة للمصر ، كما هي واجبة للتائب ، ولما كان المصر معذباً كما لا يكون التائب معذباً ، دل انهما لا تستويان .

قيل : انما أردنا بما أجبناكم به ، أن التائب لا يخلو من أن يكون تاركا للصالحات التي

---

(١) النور : ٣٠ (٢) الاسراء : ٣٣

كانت عليه ، ومع هذا يدخل الجنة ، فعلم بهذا أن الجنة ليست للجامع بين أصل الإيمـان وفروعه دون غيره ، وقد ثبت هذا .

فأما قولكم : ان المصر لو كان كالتائب لما كان معذباً ، **فجوابه** أن يقال .

ان التائب انما لا يعذب لأنه رجع إلى ما كان عليه ، وترك ما لم يكن فعله فعفى الله عنه عما لا تمكنه مداركه فيما مضى ، فإنه لا يمكنه أن يجعل ما كان منه غير كائن . والمصر مجدد للمعصية في كل وقت وكان يعرض العقوبة الا ان يمن الله تعالى عليه بالعفو ، امـا باستغفار يكون منه أو بشفاعة من يشفع له في الآخرة .

ألا ترى ان التائب من الكبائر اذا احتدم من ساعته فقد يفارق المتقـي الذي يرد القيامة بلا كبيرة في أن المتقي يجب له من الثواب مالا يجب للتائب من كبائره، وافتراقهما هذا يستوجب من الاحسان ما لا يستوجبه الآخر ، ولا يمنع من أن يمن الله تعالى على التائب بكرامات وخيرات تعدد ثواب المتقين او يؤته ذلك بشفاعة النبي عليه السلام .

فكذلك اقتراف التائب والمصر في ان التائب يستوجب الجنة ، والمصر لا يستوجبها عاجلا لا يمنع من أن يمن الله تعالى على المصر فيدخله مع التائب الجنة ، امـا باستغفار او بشفاعة تشفع له والله أعلم .

والدليل على جواز ان يعفو للمصر باستغفاره قول الله عز وجل : ﴿ إن الحسنـات يذهبن السيئات ﴾ [١] ، وهذا في الصلوات المفروضات فعلمنا انها كفارات ، وإذا كانت الصلاة كفارة للمذنب، والمذنب ليس هو الداعي اليها والباعث عليها، فلئن كان الاستغفار كفارة وهو طاعة تدعو الذنب إليها وتحمل عليها اولى واحق .

ووجه آخر : وهو قول الله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مـا دون ذلك لمن يشاء ﴾ [٢] ، ولا يجوز ان يعرض في خبر الله تعالى خلف .

فان قيل : المعنى انه يغفر الصغائر لمجتنب الكبائر، ولا يغفرها لمن لا يجتنب الكبائر، كما قال في آية اخرى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ [٣].

---

(١) هود : ١١٤ — (٢) النساء : ٤٨ ، ١١٦ — (٣) النساء : ٣١

فأما الكبائر أنفسها فلا يغفرها الا للتائب . والدليل على ذلك انه تعالى لمـــا توعد اصحاب الكبائر بالنار والخلود فيها لم يستثن منهم الا التائبين ، لأنه عز وجل قال: ﴿ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب ﴾ [1] .

فعلمنا ان يخلص أصحاب الكبائر بالتوبة فان المغفرة الموعودة لها دون الشرك، انما هي لأصحاب الصغائر المجتنبين للكبائر .

فالجواب : — وبالله التوفيق — ان هذا الوعيد ينصرف الى جميع ما تقدم ذكره، فان الله جل ثناوه فتح بهذه الآية بذكر الشرك فقال : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ﴾ (٢) ، فانصرف قوله ومن يفعل ذلك إلى جميع ما تقدم ذكره . ولسنا ننكر ان يكون الجامع بين هذه الكبائر مستوجبا هذا الوعيد، وان لا يخرج منه إلا التائب .

ويدل على ان المراد بالآية هذا ، أن الله عز وجل لا يضاعف له العذاب ، فبـــان ان المراد بها ان من جمع بين الشرك وغيره من الكبائر ، فيصير العذاب مضاعفا عليه ، وذكر الخلود في هذا الموضع ، فثبت انه لاحظ في ذلك لمن اقتصر على الكبائر التي هـــي دون الشرك ، ولم يضم إليها شركا .

ويدل على هذا أيضاً انه عز وجل لما ذكر التوبة قال : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمـل صالحاً ﴾ (٣) ، فذكر في التوبة الإيمان العمل الصالح، فثبت ان الوعيد على من اشرك وضم الى الشرك اعمالا سيئة فكانت توبته ، أن يؤمن ويعمل في ايمانه الاعمال الصالحة ، فيحبط الايمان كفره ويحبط اصلاحه في الايمان افساد الذي كان في الكفر .

ومثل هذا جاء حديث عن رسول الله ﷺ ، وقد أثبتناه في أول الكتـاب — وبالله التوفيق — وان جعلوا دلالتهم على صحة تأويلهم ، قول الله عز وجل : ﴿ ومن يقتـــل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ﴾ (٤) ، قيل لهم : جـاء الحديث عن رسول الله

(١ و٢) الفرقان : ٦٩　　　(٣) مريم : ٦٠　　　(٤) النساء : ٩٣

ﷺ انـه قال : « ذلك جزاؤه ان جازاه » (١) ، وكذلك يقول ويذهب إلا ان لا يجازيه لأنه من حكمه ان يغفر ما دون ذلك لمن يشاء والقتل دون الشرك فثبت انه قد يغفره لمن يشاء .

وايضاً فإنه لم يقل : فجزاؤه جهنم الا أن يتوب ، ولكن حمل المطلق منها على انـه الاستثناء التي كان تأويلها عندهم انها في صاحب الكبيرة ، كافرا كان أو غير كافـر ، فلا يدفعونها عن أن تحملها على الآية التي فيها وعد المغفرة ، فيقول : « ذلـك جزاؤه » لولا ان الله تعالى وعد أن يغفر ما دون ذلك لمن يشاء أن يغفر أصلاً ، فلا يأخذ فاعله به.

واذا كان كذلك ، علمنا انه إذا اخذه به لم يخلده النار لأنه لا قائـل يقول : ان من القائلين من يعفو عنه ، وان لم يكن قدم توبة فلا يعاقب اصلا ومنهم من يخلد في النـار .

فان قيل : انفصلوا عمن قلت هذا عليكم ، فنقول : قد ثبت بقوله تعالى : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ لبعض أصحاب الكبائر ، فيجريه مجري الشك ، لانه قد حكم تائباً ما عدا الشرك ، وإذا كان دونه كانت عقوبته دون عقوبته ، فصح ان القلب الذي ادعوه لا يتوجه لهم وبالله التوفيق .

فان قيل : قالوا عقوبته دون عقوبة الشرك في الخفة والغلظ لا في طول المدة وقصرها.

قيل لهم : انفصلوا فيمن قال هو في الطول والقصر لا في الخفة والغلظ ، وإذا لم يكن أحد هذين القولين أولى من الآخر ولم يكن بينهما تنافي وجب ان يجمع بينهما فيقال : عقوبة بما دون الشرك دون عقوبة الشرك في الخفة وقصر المدة وبالله التوفيق .

وجواب آخر : وهو ان هذا تخصيص الآية بلا دليل ، لأن قوله عز وجل : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فيه تخصيص كبيره من صغيره ولا دليل يوجب هذا التخصيص فوجب أن يضم هذا في الوعد إلى التوبة فيكون كأنه قال : ﴿ من تاب أو شـاء الله أن يغفر له ﴾.

فان قيل : أفتقولون ان من أصحاب الكبائر من لا يشاء الله أن يغفر له فيخلده النار.

قيل : يقول : ان منهم من لا يشاء الله ان يغفر له ، ولا يقول : أن منهم من إذا لم يغفرله

---

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

خلده النار ، لأن الله عز وجل قد اخبر : ان ما عدا الشرك فهو دون الشرك .

وقد علمنا ان في عدله لا يسوى بين جزاء من خف ذنبه وجزاء من عظم ذنبه ، كما لا يسوى بين المحسن والمسيء ، فدل ذلك على ان جزاء المشرك إذا كان التخليد كان جزاء من قصر دينه عن ذنبه مقاماً دون ذلك والله أعلم .

وجواب آخر : عن كلامهم في أنه المغفرة ، وهو أن يقول : ان كان لا يستثنى من الوعيد إلا التائب ، فما بال الصغائر تصير مكفرة مغفورة لا حساب الكبائر ؟ لم لا جاز أن يغفر الكبائر لاجتناب الكفر ؟

فان قيل : صاحب الصغائر أصلا وصاحب الكبيرة إذا وافى القيامة بلا كفرواخاها، وكبرته مستحقاً لأن يعذب عليها . فكيف يستويان ؟

قيل له : ان مغفرة الصغائر لمجتنب الكبائر بفضل من الله جل جلاله عليه ، ومن تفضل الله عليه بشيء لم يجب أن يتفضل ، فدل ذلك على أن الله تعالى إذا كان يتفضل على مجتنب الكبائر بالصفح عن صغائره جاز ، ولم يمتنع أن يتفضل على مجتنب الكبائر بالعفو عن كبائره ، وإن كان ذلك غير واجب والله أعلم .

وإن أصبحوا بصحة جمعهم بين الآيتين بقول الله عز وجل :﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاًفأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴾ ، وقالوا : لما وعد الجنة من باب علمنا ان المصر لاحظ له في الجنة .

وقيل :ومعناه إلا من تاب أو شاء الله تعالى أن يجعل أخذ ما تيسير باجتنابه الكفر غفران خطاياه ، ووضعها عنه ، أو يشفع النبي ﷺ أو كثرت نوافله وخيراته . فأراد الله تعالى أن ينبه منها العفو من كبائره فان كان مما دلت الدلائل على جواز أن تقابله مغفرة الكبائر من هذه الوجوه يصير كالمقرون بالتوبة نصاً ، الا ان يرى الدليل لما دل على ان اجتناب الكبائر يجوز أن يكون سبباً لمغفرة الصغائر .

كأن اجتناب الكبائر من يرتكب الصغائر كالتوبة من مرتكب الكبائر .

وكذلك الوجوه التي ذكرتها هي لمرتكب الكبائر كالتوبة ، ولا فضل وان احتجوا بقول الله عز وجل : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى،

ويقولون : سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لا يقولوا على الله إلا الحق ﴾ [1] ، وقالوا : في هذه الآية دليل على أن قولهم المصـــر على الكبيرة ستغفر في قول غير حق .

قيل لهم : ان هذه الآية في اليهود، والذين وصفهم الله تعالى في أكل أموال الناس بالباطل في آية ، وأكلهم السحت ، في آية أخرى ، وتخويفهم كتاب الله ، وقولهم مع ذلك ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ [2] ، ودعواهم انهم ابناء الله وأحباؤه ، أي انه متجـاوز عنهم حيالهم كما يتجاوز الناس عمن يحبونه ، مالا يتجاوزنه عن غيره .

فأخبر الله عز وجل ان قولهم سيغفر لنا قول غير حق ، لأن من حكم الله تعـالى ان لا يغفر للكفار وهم كفار ، وإن احتجوا بقول الله جل ثنـاؤه ، ﴿ إن الابرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم ، يصلونها يوم الدين ، وما هم عنها بغائبين ﴾ [3] .

قيل لهم : إن الله تعالى قابل الفجار بالمتقين في غير هذه الآية فقال : ﴿ أم نجعـــل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ [4] ، فدلت هذه المقابلة على أن الفاجر خلاف المتقي .

ومعلوم ان رأس التقوى هو الإيمان فلا يقال لغير المؤمن تقي . فدل ذلك على ان رأس الفجور المقابل للتقوى هو الكفر ، وقابل في هذه الآية : الفجـــار بالأبرار ، ورأس البر الايمـــان .

قال الله عز وجل : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ [5] ، فعلمنا ان رأس الفجور هو الكفر ، وإن الفجار المقابلين بالابرار وبالمتقين هم الكفار ، ولسنا ننكر أن يكون الكفار مرادين بالآية .

وجواب آخر : وهو إن ثبت ان المراد بالفجار أصحاب الكبائر من أهـــل القبلة ، فلسنا ننكر أن يصلوا يوم القيامة النار ، ولكن قوله عز وجل: ﴿وما هم عنها بغائبين﴾ [6]، عن حضرتها فلا يمكن أن يصلوها لكنهم لا بد مارون عليها مشاهدوها، والآخر انهم إذا دخلوها لم يخرجوا منها ، فوجب صرفه إلى الوجه الأول للمعاني التي سبق تكريرها.

---

(١) الاعراف : ١٦٩ (٢) البقرة : ٨٠ (٣) الانفطار : ١٥
(٤) ص : ٢٨ (٥) البقرة : ١٧٧ (٦) الانفطار : ١٦

وجواب ثالث : وهو ان الله عز وجل انما نفى الغيبة عن الجحيم بعد صلتها عن الفجار أجمعين ، ولذلك يقول : لا تغيبون عنها حتى لا يبقى فيها أحد منهم ، وأما بعضهم فيدعون أن تغيب عنها ، وإذا احتملت الآية ذلك ، وجب تنزيلها عليه لما سبق ذكره .

فان قيل : على الجواب الأول : روينا عن النبي ﷺ انه قال: (الا ان الصدق يدعو إلى البر ، والبر يدعو إلى الجنة ، والكذب يدعو إلى الفجور ، والفجور في النار)[1] ، وإنما أراد بذلك ان التوحيد الذي هو صدق يدعو إلى تحقيق مـــا صدر منه عن اللسان بالافعال التي كلها بر ، ويوجب لصالحها الجنة ، والكفر الذي هو كـــذب ، ويدعو إلى موافقة ما نهى الله عنه أو ذلك فجور يوجب لصاحبها النار . فثبت ان الفجور اسم الإفساد في العمـــل

فالجواب : ان الصدق نفسه بر ، يقال : في يمينه إذا صدقهـــا ، وفجور في يمينه إذا كذبها ، واليمين الفاجرة هي الكاذبة ، وكان معنى الحديث : (ان الصدق هو يدعو إلى ما يكون براً مثله ، والكفر الذي هو فجور يدعو إلى ما يكون فجوراً مثله) وذلك ما لا ينكر والله أعلم .

والذي يخالفوننا في هذا ، لهم أصول عليها ، بنوا قولهم في التخليد **احداهما ان قالوا:** ان الوعد كالوعيد ، فلما كان أحد الذين وعد الله تعالى الجنة لا يجوز أن يدخلها لأن ذلك إذا كان أخلف بوعد فصار كذباً ، والكذب ينفي عن الله ، فكذلك أحد الذين أوعدهم الله تعالى النار لا يجوز أن يدخلها لأن (الله) لا يخلف وعيده فيصير كذباً . وهـــو جل ثناؤه قد أوعد من غير التائبين النار ، فلا بد لهم من ان يدخلوها .

والثاني : قولهم : ان صاحب الكبيرة ليس بمؤمن وإنما هو فاسق ، والفسق منزلة بين الايمان والكفر ، والجنة دار المؤمنين فمن لم يكن مؤمناً فلا حظ له فيها . **والثالث** انهم يقولون لا يجوز أن يشفع النبي ﷺ لاصحاب الكبائر من وجوه احدها ان الله تعالى مدح الملائكة ﴿ لا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾[2] ، دل ذلك على ان الشفاعة لأصحاب الكبائر مخالفة لخشية الله تعالى فلا يجوز وجودها من النبي ﷺ .

---

(١) ورد في سنن ابن ماجة « المقدمة » باب ٧ و ٤٦ ، وفي صحيح مسلم «كتاب البر» رقم ١٠٣ — ١٠٥

(٢) الأنبيـــاء : ٢٨

ووجه آخر : وهو ان الله عز وجل وصف يوم الدين بأنه ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ (١) ولو جازت الشفاعة لاصحاب الكبائر ونفعت لكان قد ملكت فيه نفس لنفس أعظم الأشياء وهو الخلاص من النار وذلك خلاف ما وصف الله تعالى به ذلك اليوم .

ووجه آخر : لما نزل قول الله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ (٢)، قال رسول الله ﷺ (يا بني عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً) (٣) ، خص عين واحد منهم بمثل ذلك ، حتى قال : (يا فاطمة بنت محمد ، اشترى نفسك من الله ، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً) .

فدل ذلك على ان الشفاعة يوم الدين لا تقع لأصحاب الكبائر لما جاز أن يخبر بها أمته ، ولكان اخفاء خبرها عنهم أولى من إخفاء ليلة القدر لئلا يتكلون ، لأن في علمهم ذلك تجرئة الشقاق ، وحملانهم على ان يغرموا بضروب الفسق وينهمكوا فيها ، متكلين على الشفاعة .

وفي ذلك بطلان حكم الله تعالى في الوعيد ، وتنزيل النبي ﷺ منزلة من يقول : ان الله تعالى يوعدكم بالنار ، ولكن لا يأمن عليكم فاني أشفع لكم ، وهذا غير جائز على ان يخرجه وينقضه . والدليل على ذلك انه إذا ثبت لم يحتج ان تجريد الإقرار ، فلو كان خارجاً من الإيمان لم يعد اليه الا بعقد جديد . وفي اجتماع الأمة على انه محتاج في ثبوت الإيمان له إلى عقد جديد ، وما دل على انه خارج من الإيمان .

ووجه آخر : وهو ان اجماعهم على انه لا يكفي ، والله عز وجل يقول : ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن . ﴾(٤) فقسم هذين القسمين . فلما لم يكن صاحب الكبيرة كافر أظهر انه مؤمن .

ووجه ثالث : وهو ان إيمانه أكبر طاعته ، وكل ذنب طول الكفر ، فليس بأكبر معاصيه ، فلم يجز أن يحبط الاصغر الاكبر ، كما لا يجوز ان يقال : الصغائر تحبط الإيمان ، أو ما يتفرع عنه من فرائض الطاعات .

---

(١) الانفطار : ١٩ (٢) الشعراء : ٢١٤

(٣) ورد في سنن الدارمي « الرقائق » باب ٢٣ ، جـ ٢ ص ٣٠٥ . وفي صحيح البخاري « وصايا » باب ١١ « مناقب » باب ١٣ (٤) التغابن : ٢

ووجه رابع وهو ان المعاصي دون الكفر . لا يوجد من مسلم على سبيل مضادة الايمان، لأن المسلم لا يريد بها الخلاف والعباد، وخلع رباق الطاعة من عنقه، وإنما يتبع الهوى ويريد قضاء شهوته ، فهي إذا توجد منه مضادة لما كان عليه مكانها ، ولا توجد مضادة لأجل الايمان ، فلم يجز ارتفاعه بها كالصغائر ، وأما معاصي الكافر فإنها توجد منه مضادة الايمان لأن الكفر هو الذي يحرك عليها ، الا ترى انه لا يعتقد فيها انها معاصي ، وإن الله تعالى وصفها فكانت كمحسنات المؤمن التي تكون إيمانا . لأن أصل الايمان هو الذي يحرك عليها، ألا ترى انه يقطعها على انها طاعات تقربه من الله تعالى .

فأما معاصي المسلم ، فإن هواه يحركه عليها لا الكفر ، فكانت كبائره من هذا الوجه كصغائره، ولم يجز ان يرتفع بها الايمان وبالله التوفيق . وتدل على هذا حسنات الكافر لا تخرجه من الكفر ، لأن الايمان ليس هو يحركه عليها لان التكريم وطلب الذكر وشبه ذلك مما لا يرجع في الجمله إلى اليدين ، فكذلك سيئات المؤمن لا تخرجه من الإيمان ، لأن الكفر ليس هو المحرك له عليها ، لكن الهوى والشهوة ، وبالله التوفيق .

وأما الجواب عن تشبيه الوعيد بالوعد ، فهو ان العفو عن صاحب الكبيرة لا يوقع حلفاً في الوعيد ، لأن الله عز وجل إذا قال : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (١) ، فما أخذ بوعيده مع هذا الا ويصير ذلك الوعيد مقرونا بشرط المشبه ، فيكون قوله عز وجل : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما ﴾ (٢) ، فانه قرن به الاستثناء .

فقيل : الا ان يكون ممن سبقت له مشيئة الله تعالى بأنه يدخله الجنة ، أو الا ان يشفع له رسول الله ﷺ ، أو يكون المعنى هذا جزاؤه ، ولكنه قد لا يجزيه بل يعفو ، فمن عفا عنه لم يلحق خبره من ذلك خلف والله أعلم .

وجواب آخر : هو ان خطاب الله تبارك وتعالى في القرآن عباده عما وقع بلغة العرب لأن الرسول ﷺ كان منهم ومن ظهرانيهم فلذلك خاطبهم بحسب عاداتهم عن حكم العادة فيما تتفق فيه عاداتهم ، وعادة غيرهم .

---

(١) النساء : ٤٨ (٢) النساء : ٩٣

ومعلوم من عادات الناس أجمعين أن وعيدهم يكون باتا ووعيدهم معلقاً ، فمن قال عنهم لغيره : لأعطينك كذا ، لم يقله على خيار ، ومن قال : لاضربنك قاله على خيار . وذلك لأنهم يعلمون ان الاحسان والعفو أولى بالمدح من العقاب والمؤاخذة ، فان العقاب ينزع إلى استيفاء الحق والعفو ينزع إلى التصديق بالحق .

ولا يخفى بعد ما بين الأمرين . وتفاوت ما بين الفعلين . فمن وعد آخر خيراً فمنحه كان تاركاً للفضل إلى ما لا فضل منه . ومن يرعد آخر بشر فلم يفعله ، كان تاركاً للافضل فيه إلى ما هو الفضل .

وإذا كان كذلك صح أن الوعد يصدر من صاحبه باتا ، لأنه يريد الاحسان الذي هو سبب المدح والثناء عليه في الدنيا وسبب المثوبة في الآخرة ، فلا يليق الخيار بكلامه الذي كان لهم في تخاطبهم .

وإذا كان خطابه لهم فيما تختلف فيه عادتهم وعادة غيرهم بحسن عادتهم وان الوعيد يصدر معلقاً ، لان الموعد قد يرى ان يدع غير الفضل إلى الفضل ، فلا يليق معهذا بوعيده الثبات ، بل يكون المعلق أولى به ، فيكون عند قوله : لافعلن بك كذا وكذا ، كأنه يصر على الاستثناء فوصله به . وقال : الا ان يشفع شافع ، أو إن شئت .

وإذا كان هذا عادة الناس في وعدهم ووعيدهم ، وجب أن يكونوا من الله تعالى محمولين على قضيته ، العادة المعروفة التي نزل القرآن بها بين ظهرانيهم ، ووقع الخطاب به لهم ، فيصير الوعد كأنه نص على بته ، والوعيد كأنة نص على تعليقه . فلا ينقلب الوعيد بالعفو كذباً وبالله التوفيق

فان قيل : لو كان هذا هكذا ، لوجب ان احلف الرجل : ليضربن عبده اليوم مائة ، ثم عفا عنه ولم يضربه حتى انقضى اليوم ، أن لا يحيب ، لانه لو صرح فقال : لأضربنه اليوم الا ان شاء العفو عنه فعفا عنه ولم يضربه حتى انقضى اليوم ولم يحنث ، قيل : إنما حنث لان كلامه يحمل على التعليق الذي ذكرنا إذا صدر منه مطلقاً ، فلم يظهر لنا انه أراد خلاف ما هو العادة في مثله .

وأما إذا أكد وعيده باليمين التي يراد بها في العادات أيضاً تأكيداً للأمر المحلوف عليه ، والاحتراز من وقوع الحلف منه كان البت أغلب عليه وأولى بظاهره من التعليق وصار

الحالف لذلك كأنه قال : « لأضربنك اليوم شئت أو كرهت « شفع شافع أو لم يشفع . ولو قال ذلك فانقضى الوقت ولم يضربه يحنث . وكذلك إذا اكد قوله باليمين ، ثم خالف ما قال حنث والله أعلم.

واما الجواب : عما قالوه في الشفاعة ، فهو أنه قد جاء عن نبينا ﷺ انه قال : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » (١) . وأنه ﷺ قال : « لكل نبي دعوة مستجابة ، واني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » (٢) . ووردت الأخبار المتواترة فلا عذر في ردها والذهاب عنها .

وأما قول الله عز وجل ولا تشفعون إلا لمن ارتضى ان تشفعوا له ، كما قال : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ (٣) ولا يحتمل انه غير ذلك . لأن المرتضين عند الله لا يحتاجون إلى شفاعة ملك ولا نبي . فصح أن المعنى ما قلنا ، ولا يجوز أن يقال : ان الله عز وجل لا يرتضي ان يشفع لصاحب الكبيرة لان المذنب هو الذي يحتاج إلى الشفاعة ، حائلا بينه وبين الشفاعة.

فان قيل : ما جزاء الشفاعة للكافر ؟ قيل : امتناع الشفاعة للكافر لأن ذنبه كبير ، تعالى الباري المشفوع اليه جل ثناؤه ، أو الرسول الشافع صلوات الله عليه ، أو لان الله عز وجل أخبر أنه لا يشفع فيه أحد ، فهذه المعاني كلها معدومة في صاحب الكبيرة من أهل القبلة ، فجاز ان يشفع له عند النبي ﷺ ، وليس ذلك بمخالف خشية الله عز وجل لان الشفاعة لا تكون الا بعد الاذن من الله تعالى فيها . وإذا جاء الاستئذان والتوقيف إلى أن يكون الاذن ، فقد وفيت الخشية حقها والله أعلم .

وأما قول الله عز وجل : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ (٤) . فإنه لا يدفع الشفاعة لأن المراد بالملك ، الدفع بالقوة ، كما يكون في الدنيا أن يدفع الناس بعضهم عن بعض وعن أنفسهم بالقوة ، ولا يكون ذلك يوم الدين . والشفاعة ليست من هذا الباب

---

(١) ورد في سن ابن ماجة « الزهد » باب ٣٧ ، رقم ٤٣١٠ . وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٢ ، ص ٧٠ ، ٨٢ .

(٢) ورد في سنن ابن ماجه « الزهد » باب ٣٧ ، رقم ٤٣٠٧ ، وفي مسند الامام احمد بن حنبل ج ٥ ، ص ٣٢٦ .

(٣) البقرة : ٢٥٥

(٤) الانفطار : ١٩

لأن ذلك من ذي الشفاعة للمشفوع عنده ، وإقامة الشفيع بذلك من المشفوع له ، فلا يوم أليق به وأشبه بأحواله من بيوم الدين .

فأما قول النبي ﷺ : « يا بني عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله ، فاني لا أغني عنكم من الله شيئاً »[1] . فقد يخرج على أن يكون نهاهم عن التقصير في حقوق الله اتكالاً على انهم عترة رسول الله ﷺ ، ولعلهم لا يسألون عما يعملون لأجله . فأخبرهم أن أفضالهم به لا يسقط عليهم تقلب أعمالهم ، وانهم مسئولون ومحاسبون كغيرهم ، وأمرهم بعد ذلك إلى الله تعالى ان شاء عذبهم وان شاء عفا عنهم ، ولم يرد به ان لا يشفع لهم ، وليست الشفاعة أغنى عنهم من الله شيئاً ، لأن الشفاعة فيما بينا ليست بمرحبة ، فكيف يتوهم أن تكون الشفاعة عند الله تعالى مرحبة وبالله التوفيق .

وأما قولهم ان الشفاعة لو كانت واقعة لأصحاب الكبائر فيه لما جاز ان يخبر بها لما في ذلك من تجربة الخاطئين في خطاياهم . فجوابه : انه ليس في إخبارهم بذلك إلا ما في اخبارهم بأن من قضى شهواته كلها دهراً طويلاً ثم تاب إلى الله تعالى توبة صحيحة ،صحت بتلك المزية عنه في تلك الساعة جميع الأوزار ، وصار كيوم ولدته أمه . فإن كان هذا جائزاً ، والأخبار به جائزاً مثله ، فلم لا جاز أن تكون الشفاعة والأخبار بها جائزين ؟.

فان قال : لا تجزئه في منزل التوبة واحباط الخطايا ، لأن الخاطىء لا يعلم من نفسه ان التوبة تنفعه له أو لا تنفعه : قيل له : والخاطىء لا يعلم أن الشفاعة تناله أو لا تناله . فان الخاطئين كلهم لا يسلمون من النار انما يسلم منها بعضهم وبالله التوفيق .

فان قال قائل : الشفاعة حق ، ولكنكم تضعونها في غير موضعها ، وإنما هي لصاحب الكبيرة ، والمنهمك في الخطيئة إذا مات ، ثم أخبرهم ، من قريب توفي في القيامة ، وليس وراء الايمان عمل صالح فيشفع النبي ﷺ له الى الله تعالى ليحسن إليه منتدباً ان كان لا يستحق ان يحسن إليه جازياً ومشيئاً .

فالجواب : ان قول النبي ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » (٢) . تأبى هذا

---

(١) ورد في صحيح البخاري « مناقب » باب ١٣ ، وفي سنن الدارمي « الرقائق » باب ٢٣ ، جـ ٢ ، ص ٣٠٥ .

(٢) ورد في سنن ابن ماجه « الزهد » باب ٣٧ ، رقم ٤٣١٠ .

التأويل ، لأن فيه ان المشفوع له يكون أهل الكبيرة حتى يشفع له ، والتائب في الدنيا لا يوافي القيامة بكبيرته ، فلا تكون الشفاعة كما ذكرت شفاعة لصاحب كبيرة لانه لا كبيرة له يحاسب بها يوم القيامة .

وأيضاً فان الروايات قد نطقت بابطال هذا التأويل لان ابن عباس قال : قيل لرسول الله ﷺ : شفاعتكم للمتقين ! فقال : ان المتقين في غناء ، ان الله عز وجل يقول ﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾[1] ، إنما شفاعتي للهلاك من أمتي . ومعلوم ان التائب لا يكون هالكا، فصح ان المراد به المضر على الكبيرة والله أعلم .

وأيضاً فان التائب إذا دخل الجنة أثبت بالإيمان ، فلو جاز ان يشفع لكل مقصر به عن غيره ليبلغ درجة من فوقه إلى ان يستوي أهل الجنة كلهم في نعيمها، ويزول التفاضل من بينهم . ومعلوم ان ذلك لا يكون ، فالذي قاله مثله وبالله التوفيق .

وأيضاً فان الذي في العادات ، ان الشفاعة لمن عظم ذنبه بعد ما عفي عنه ليخلو بمن لا ذنب له إحسانا إليه أعظم من الشفاعة له ليعفي عنه . فإن كانت أعظم الشفاعتين جائزة ، فلم لا تجوز التي دونها ؟ وبالله التوفيق .

وإذا بطلت هذه العلل كلها صح ان يخلو أصحاب الكبائر من أهل القبلة في النار ، وكان مما بيناه انهم مؤمنون بما يوجب أن يكون لهم في الجنة نصيب ، وان وافوا القيامة غير تائبين ، لأن الله عز وجل في قضائه ، فلا يجوز ان يستوفي بتعذيب صاحب الكبيرة حقه ولا يوفيهم من عذاب الايمان حقه . وإذا كان ذلك غير جائز ، وكان من أدخل الجنة للثواب لا يخرج منها أبداً ، دل على أنه إذا عذب لم يعذب دائماً ، ولكن إلى وقت ، ثم يخرج إلى الجنة ، وبالله التوفيق .

فان قيل : الدار داران : الجنة والنار ، وقد أجمعنا على أن من أدخل الجنة للثواب لم يخرح منها ، ومن يدخل النار ولم يكن كافراً لم يخرج منها أيضاً ، كما لا يخرج المؤمن من الجنة ، وان كان غير كافر لم يجز ان يخلد فيها ، لان ذلك يؤدي إلى حرمانه اجر الإيمان، وذلك غير جائز ، وبالله التوفنق .

قال قائل : ما أنكرتم أن يكون جزاء إيمانه تخفيف العذاب عنه في النار ، فقال .

---

(١) النبأ : ٣١

بما يفضل ممن قال : لا يدخل النار أصلا بل يدخل الجنة ويجعل جزاؤه بكبائره حطة عن بعض الدرجات ، وحرمانه بعض ما نواه ، لو كان في إيمانه مجانباً للكبائر . فإن كنت لا تجيز هذا ، فالذي قبله مثله فلا يجزه وبالله التوفيق .

فصل

ان قال قائل : أخبر الله تعالى عن الناس انهم محاسبون مجزون . واخبر انه يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين، ولم يخبر عن ثواب الجن ولا عن حسابهم، فما القول في ذلك عندكم ؟.

فالجواب : أنه قد قيل : ان الله تعالى لما أن قال : ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ [١] . وقال عز وجل : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ [٢] دخل في الجملة الجن والأنس ، فثبت للجن من وعد الجنة بعموم الآية ، ما ثبت للانس .

فإن قال قائل : فما الحكمة في إفراد الجن عن الانس في الوعيد ، وترك افرادهم عنهم في الوعد ؟

فقيل في جواب ذلك : انهم قد ذكروا في الوعد لأن الله عز وجل يقول : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والأنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ [٣] .

ثم قال : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ [٤] ، وانما أراد ولكل من الجن والانس ، فقد صاروا مذكورين في الوعد مع الأنس كما ذكروا في الوعيد .

فان قيل : أليس قد ذكر يخاطب الجن في النار ، ولم يذكر يخاطب الفريقين في الجنة لأن الله عز وجل قال: ﴿ وقال الشيطان لما قضي الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ [٥] . وقال : ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد ﴾ [٦] . ولم يأت عن تعارض الفريقين في الجنة خبر .

---

(١) الكهف : ٣٠ (٢) البقرة : ٨٢ (٣) الأحقاف : ١٨
(٤) الأحقاف : ١٩ (٥) ابراهيم : ٢٢ (٦) ق : ٢٧

قيل : انما ذكر في معارضهم في النار ان الواحد من الأنس يقول للشيطان الذي كان في الدنيا قرينه انه المغاوي وأضلني . فيقول له قرينه : ما أطغيته ، ولكن كان ضالاً في نفسه غويا ، وهذا تخاصم يدعو إليه طاعة الانس لقرنائهم من الجن وهم الشياطين في الدنيا ، ولا سبب بين الفريقين يدعو أهل الجنة منها إلى التفاوض ، فلذلك سلب عنهما .

وايضاً فان الله جل ثناؤه ، أخبر الناس ان عصاتهم يكونون قرناء الشياطين يخاصمون في النار ليزجرهم بذلك عن التمرد والعصيان . وليس في اجبار الاخيار باجتماع الجن معهم في الجنة ما يحرضهم على الازدياد من الطاعات ولاستكثار من الخيرات ، إذ لا معنى فيهم يسوق الانس إليهم ويحثهم على مجاورتهم . فيحتمل أن يكون ذكرهم مع الانس في الوعيد ، والسكت عن ذلك في الوعد لهذا ، والله أعلم .

ووجه آخر : وهو ان السكت عن ذكر الجن وادخالهم الجنة يحتمل ، لأنهم لا يخالطون الانس فيها ، ولا يجاورنهم مجاورة الانس بعضهم بعضاً ، ولكنهم مع الانس في الجنة كما يكونون معهم في الأرض ، لا يرى هذا ذاك ، ولا ذاك هذا ولعل ذلك لا يجاوز الاشكال أنس ويجاوز الأضداد وحشة ، والجن اضداد الانس . فان الجن مخلوقون من النار ، والانس مخلوقون من الماء والتراب . والماء ضد النار ، وفي التراب أيضاً بعض المضاد لانه يطفيء النار كما تطفئها الماء .

فالتضاد بين الفريقين في أصل الجملة ، ولان الجن في الدنيا انما كانوا يتعيشون بروائح الاطعمة دون أجسادها ، فلذلك في الجنة يتنعمون بنسيم الجنة وطيب روائحها ، وروائح الاطعمة والأشربة التي تكون فيها ، فتكفيهم من المكان في الجنة مثل ما كان يكفيهم منه في الدنيا ، فيكونون لاختبائهم عن الأبصار كالمعدومين ، فتشبه ان يكون افرادهم بالذكر بما لم يقع لهذين المعنيين او لاحدهما والله أعلم .

فأما الذين يوردون النار من الجن ، قد يجوز أن يكونوا أيضاً غير مرئيين للأنس ، ولا تظهر لهم فيرونهم ، ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ (١) . فكذلك أهل النار من الفريقين ، وان تخاصموا فذلك لا يقتضي ان يرى بعضهم بعضاً ، والله أعلم .

---

(١) الشعراء : ٢٢١

وأما المحاسبة فان الله جل ثناؤه قد أخبر ان في الجنة يسألون ، لأنه تعالى قال جزاءاً عما يقال لهم يوم القيامة يا معشر الجن والانس : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ﴾ [١] . وهذا سؤال ، وإذا ثبت بعض السؤال ثبت كله ، والله أعلم .

فصل

فإن سأل سائل عن الملائكة ، هل تكتب أعمالهم ويحاسبون ويثابون ؟.

قيل له : أما كتبة أعمالهم فما يشبه ان تكون ؟ لأن الملائكة هم الذين يكتبون أعمال الناس ، ولو كتبت أعمال الملائكة لاحتاج كل ملك إلى كاتب أو اثنين ، وذلك الكاتب إلى مثل ذلك إلى مالا يتناهى . والقول بذلك فاسد .

والمحاسبة أيضاً لا معنى لها ، لأنهم لا يخلطون الحسنات بالسيئات ، وما أكثر من لا يحاسب من بني آدم ، فلا تكون الملائكة أولى ولا أدنى منزلة منهم .

وأما الاثابة فقد قيل : يرفع التكليف عنهم فيتنعمون بالراحة ويتلذذون بالخفض والدعة ، وليسوا من أهل المطاعم والمشارب فيوردون موارد بني آدم من الجنة ، ويحتمل أن يكون قد أوضع التكليف غيرهم نعمة أعدها الله لهم ولا تبلغها أفهامنا وعقولنا ، فانه تعالى يقول : (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) (٢) . وإذا جاز أن يعيد للناس مثل هذا الثواب المغيب ، فأولى أن يكون ذلك للملائكة والله أعلم .

فصل

ان سأل سائل : عن قول الله عز وجل : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار يتعارفون بينهم ﴾ [٣] فقال : التعارف بينهم يكون بالكلام . وقد قال الله عز وجل

---

(١) الزمر : ٧١

(٢) ورد في سنن الدارمي «الرقائق» ج ٢ ، ص ٣٣٥

(٣) يونس : ٤٥

في آية أخرى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ﴾[1] وفي آية ثالثة انهم يقولون ﴿ من بعثنا من مرقدنا هـذا ﴾[2] . وهذا كلام وهو مضاد إليكم . والتعارف تخاطب وهو مضاد للصم والبكم معاً .

وقال عز وجل ﴿ وقفوهم انهم مسئولون ﴾[3] . وقال جل ثناؤه : ﴿ فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين ﴾ (٤). والسؤال لا يكون إلا بالسمع والناطق يتسمع للجـــواب .

وقال . ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ، يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشراً[5] وهذا كلام ، والأبكم لا يستمع له .

وقال في آية أخرى : ﴿ فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾[6] وفي آية أخرى : ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً ، كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾[7].والنسلان والاسراع مخالفان للخبر على الوجوه فما وجوه هذه الآيات عندكم ؟

فالجواب — وبالله التوفيق — : ان الناس إذا أحيوا وبعثوا من قبورهم ،فليست حالهم واحدة ، ولا موقفهم ومقامهم واحد ولكن لهم مواقف وأحوالاً .

واختلف في الاخبار عنهم لاختلاف مرافعهم وأحوالهم .

وجملة ذلك انها خمسة أحوال : اولها حال البعث من القبور ، **والثانية** حال السوق إلى الحساب ، **والثالثة** حال المحاسبة ، **والرابعة** حال السوق إلى دار الجزاء ، **والخامسة** حال السوق إلى مقامهم في الدار التي يصارون اليها .

فأما **الحالة الأولى** : : وهي حال البعث من القبور ، فإن الكفار يكونون فيها كاملي الحواس والجوارح لقول الله عز وجل : ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ (٨) وقوله : ﴿ يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً ﴾ أو قوله : ﴿ كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم . فاسأل العادين ، قال : ان لبثتم إلا قليلا لو انكم كنتم تعلمون ، أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون ﴾[10] .

---

(١) الاسراء : ٩٧ — (٢) يس : ٥٢ — (٣) الصافات ٢٤
(٤) الاعراف : ٦ — (٥) طه : ١٠٢ - ١٠٣ — (٦) يس : ٥١
(٧) المعارج : ٤٣ — (٨) يونس : ٤٥ — (٩) طه : ١٠٣ — (١٠) المؤمنون : ١١٢

والحالة الثانية . حال السوق إلى موضع الحساب ، وفي هذه الحال يضاً أبحواس تامة يقول الله عز وجل : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ومـا كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ (١) . ومعنى فاهدوهم دلوهم عليه ، ولا دلالة للاعمى الاصم ، ولا سؤال الأبكم ، فثبت انهم يكونون باسماع وأبصار وألسن ناطقة .

واما الحالة الثالثة : وهي حالة المحاسبة فإنهم يكونون فيها أيضاً كاملي الحواس ليسمعوا ما يقال لهم ، ويقرأوا كتبهم الناطقة بأعمالهم ، وتشهد عليهم جوارحهم بسيئـاتهم ، فيسمعوها ، وقد أخبر الله عز وجل أنهم يقولون : ﴿ مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ (٢) ، وانهم يقولون لجلودهم لم شهدتم علينا وليشاهدوا أهوال القيامة وما كانوا مكذبين في الدنيا به من شدتها ، ويصرف الأحوال بالناس فيها .

واما الرابعة : وهي السوق إلى جهنم ، فانم يسلبون فيها أسماعهم وأبصارهم والسنتهم وعلى ذلك يوردون جهنم ، لقوله عز وجل : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميـاً وبكماً وصماً ، مأواهم جهنم ﴾ (٣) ويحتمل أن يكون قوله عز وجل : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ (٤) . فيؤخذ بالنواصي والاقدام ، اشارة إلى ما يشعرون به من سلب الاسماع والابصار والنطق .

والحالة الخامسة : حال الاقامة في النار ، وهذه الحالة تنقسم إلى بدء ومآل . قيدوها انهم إذا قطعوا المسافة بين موقف الحساب وشفير جهنم عمياً وبكما وصماً بإذلالا لهم وبشيراً عن غيرهم ردت الحواس اليهم ليشاهدوا النار وما أعد لهم فيهـا من العذاب ، ويعاينوا ملائكة العذاب ، كل ذلك مما كانوا مكذبين به ، فيستقرون في النار ناطقين سـامعين مبصرين .

ولهذا قال الله عز وجل ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي ﴾ (٥) .

وقال عز وجل : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ (٦) .

---

(١) الصافات : ٢٤ (٢) الكهف : ٤٩ (٣) الاسراء : ٩٧
(٤) الرحمن : ٤١ (٥) الشورى : ٤٥ (٦) الانعام : ٢٧

وقال عز وجل ﴿ كلما دخلت أمة لعنت اختها ، حتى إذا اداركوا فيها جميعاً ، قالت أخراهم لأولاهم . ﴾ (١)

وقال عز وجل : ﴿ كلما القي فيها فوج سألهم خزنتهم ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ﴾ (٢) .

فأخبر الله عز وجل : انهم ينادون أهل الجنة فيقولون : ﴿ ان افيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ﴾ وإن أهل الجنة ينادونهم ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ، قالوا ، نعم ﴾ (٣) .

وانهم يقولون : ﴿ يا مالك ! ليقض علينا ربك ، قال : إنكم ماكثون ﴾ (٤)

وانهم يقولون لخزنة جهنم : ﴿ ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ (٥)، فيقولون لهم : ﴿ أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا : بلى، قالوا فادعوا ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ (٦) .

وأما العقبى والمال ، فانهم إذا قالوا ، ربنا اخرجنا منها ، فإن عدنا فإنا ظالمون . فقال عز وجل : ﴿ إخسأوا فيها ولا تكلمون ﴾ (٧) .

وكتب عليهم الخلود بالمثل الذي يضرب لهم . وهو ان يؤتى بكبش يسمى الوزح ، ثم يذبح على الصراط بين الجنة والنار ، وينادوا : يا أهل الجنة خلود ولا موت ، ويا أهل النار خلود ولا موت . سلبوا من ذلك الوقت اسماعهم وقد يجوز أن يسلبوا الأبصار والكلام ، ولكن سلب السمع بين لأن الله عز وجل يقول : ﴿ لهم فيها زفير وهم لا يسمعون ﴾ (٨) .

وإذا سلبوا الاسماع صاروا إلى الزفير والشهيق ، ويحتمل أن تكون الحكمة في سلب الاسماع انهم إنما أوتوا من قبل انهم سمعوا نداء الرب عز وجل على السنة رسله فلم يجيبوه بل جحدوه وكذبوا به بعد قيام الحجة عليهم بصحبته ، فلما كانت حجة الله تعالى عليهم في الدنيا للاسماع عاقبهم على كفرهم في الأخرى ، فسلب الاسماع تبين ذلك انهم

---

(١) الأعراف : ٣٨ (٢) الملك : ٨ (٣) الأعراف : ٤٤
(٤) الزخرف : ٧٧ (٥) غافر : ٤٩ (٦) غافر : ٥٠
(٧) المؤمنون : ١٠٨ (٨) الانبياء : ١٠٠

كانوا يقولون : ﴿ وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [١] .

وإن قوم نوح كانوا يستغشون ثيابهم يتستروا منه لئلا يروه ولا يسمعوا كلامه .

وقد أخبر الله عز وجل عن الكفار في وقت نبينا ﷺ بمثله فقال : ﴿ ألا انهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون ومـا يعلنون ﴾ [٢] ، وبالله التوفيق . وإن سلب أبصارهم فلانهم أبصروا بالعين فلم يعتبروا ، أو النطق فلانهم أوتوه فألحدوا وكفروا والله أعلم .

وأما **الحشر على الوجوه** : فالمراد به حال السوق إلى جهنم ، فيجمع عليهم فيها بين الحشر على الوجوه وبين سلب الحواس والمنطق ، وقد بين ذلك في آية أخرى فقال : ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا ﴾ [٣] فبـــان الحشر على الوجوه ، إنما يكون حال السوق إلى النار .

فأما **حال البعث**: فإنهم يبعثون قياماً ، لقول الله عز وجل: ﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ [٤] وأما حال السوق إلى موضع الحساب ، فانهم ينسلون فيها ويسرعون ﴿ كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ [٥] . فهذا وجه الجمع بين هذه الآيات عندنا والله أعلم .

وقد يحتمل قول الله عز وجل: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً﴾ [٦] على ما ذكرنا في ان هذا يكون في حال سوقهم إلى النار وجهاً آخر ، وهو ان يكون ذلك مثلا مضروبا لهم : وهو ان الله عز وجل وصفهم في هذه الدار بانهم صم وبكم وعمي ، ثم كان معنى ذلك انهم صم عما يسمعونه من دعاء الداعي إلى الله عز وجل ، بكم عن الاجابة عمي عن البينات والحجج .

فكذلك وصفهم الله تعالى في الآخرة ، عندما يحشر المتقون إلى الرحمن وفداً أو يساق المجرمون إلى جهنم ورداً ، بأنهم يكونون عمياً بكما صمـاً على السنة ، وهو انهم صم عن تحيات الملائكة وبشاراتهم ، بكم عن المعاذير والحجج ، كما قال الله عز وجل : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ [٧] أي لا يكون لهم كلام يجري عليهم فيتكلمون به ،

---

(١) فصلت : ٥ — (٢) هود : ٥ — (٣) الفرقان : ٣٤
(٤) الزمر : ٦٨ — (٥) المعارج : ٤٣
(٦) الاسراء : ٩٧ — (٧) المرسلات : ٣٥

ولا عذر فيؤذن لهم في تركه عمي عن طريق الجنة لأن الله عز وجل قد قال: ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم، وقفوهم إنهم مسئولون﴾[1] فهم لا يهتدون إلى غيره.

وهذا أيضاً كما قال الله عز وجل: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم﴾[2] وقال: ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾.[3] فدلت هذه الآيات على ان المراد بهذه الآيات الصم والبكم والعمي في الآخرة ما ذكرنا والله أعلم.

وأما قول الله عز وجل: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾[4] فيحتمل أن يكون المراد انهم من مر الذلة يكونون ناكسي رؤوسهم، لا يبصر أحد منهم إلا موضع قدمه، فهو كذلك كأنه يمشي على وجهه قصد قدميه لا قصد نفسه، وقد وصفهم الله تعالى بذلك فقال: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم﴾[5]

فيحتمل أن تكون إشارة إلى حشرهم على وجوههم، لأن وجوههم إذا كانت على الأرض، كانوا ناكسي الرؤوس، ويكون الدليل على هذا ما روى أنس رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله، الكفار يحشرون على وجوههم. قال (أليس الذي امشاه على رجليه في الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة). [6]

فهذا الحديث ينبيء ان ذكر الحشر على الوجه تحقيق وليس بمثل للخشوع، وليس ذلك بمستنكر، فان الله تعالى جعل الجنة التي هي عدو بني آدم يمشي على بطنها، فإن ألحق الكفار والذين هم أعداء المؤمنين في الآخرة بها فجعلهم مشاة على بطونهم ووجوههم لم يبعدوا والله أعلم.

فصل

ان سأل سائل عن كيفية انتهاء الحياة الأولى وابتداء الحياة الأخرى، وصفة يوم القيامة، وما يكون قبل المحاسبة، قيل له — وبالله التوفيق —:

---

(١) الصافات: ٢٤ (٢) النساء: ١٦٨ (٣) الفرقان: ٢٢

(٤) الاسراء: ٩٧ (٥) السجدة: ١٢

(٦) وردفي صحيح البخاري تفسير سورة ١٥ / ١، وفي صحيح مسلم «المنافقين» ٥٤، وفي مسند الامام احمد بن حنبل، جـ ٢، ص ٣٥٤، ٣٦٣

اما انتهاء الحياة الأولى فإن له مقدمات تسمى اشراط الساعة ، وهي اعلامها : منها خروج الدجال ونزول عيسى صلوات الله عليه وقتله الدجال ، ومنها خروج يـــأجوج ومأجوج ، ومنها خروج دابة الارض ومنها طلوع الشمس من مغربها ، فهـــذه هي الآيات العظام .

وأما ما تقدم هذه من قبض العلم وغلبة الجهل واستعلاء أهله وتتبع الحكم ، وظهـور المعارف ، واستفاضة شرب الخمور ، واكتفاء النساء بالنساء والرجال بالرجال ، واطالة البنيان وزخرفة المساجد وامارة الصبيان ، ولعن آخرة الأمة أولها وكثرة الهرج ، فإنها أسباب حادثة ، ورواية للاخبار المنكرة بها بعدما صار الخبر عيانا ، الا انها في الجملة اعلام للساعة ، وقد مضى من هذا القول في هذا ذكر اليوم الآخر .

وأما الدجال فانه رجل من بني آدم كأعظمهم وأجسرهم ، أعور كأن احدى عينيه عنبة طافية ، وقد أنذر النبي ﷺ أمته ووصفه لهم ، ولكنه لم يبين لهم وقت ظهوره . واخبرهم عن تميم الدرامي : انه رآه في جزيرة في البحر ، مغلولة يداه إلى عنقه ، مصفداً بالحديد عن ركبتيه إلى عقبيه .

وانه سأل عن النبي ﷺ العربي ، وطاعة العرب له . فاخبروه انه قد خرج وانه قد اذعنت له العرب واطاعته ، فقال : ذلك خير لهم أن يطيعوه ، وانه قال له فيما قـال : يوشك أن أطلق ، فلا يبقى بلد وأرض الا وطئتها ما خلا طلبة . فاخبرهم النبي ﷺ : أنه أراد بذلك المدينة التي سماها طلبة ، وأن عليها ملائكة يمنعونها عنهـــا ، وان مكة محرمة عليه ، فلا يدخلها ، وأنه كان في حديث تميم : أنه في البحر الذي في المغرب ، فإنه لا يأتي الناس إلا من قبل المشرق .

وأخبرهم ان الناس يقحطون قبل خروجـــه بثلاث سنين ، فتحبس السماء في السنة الأولى ثلث قطرها والأرض ثلث نباتها . وتحبس السماء السنة الثانية ثلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها . وتحبس السماء في السنة الثالثة جميع قطرها والأرض جميع نباتها ، ثم يكون خروج الدجال .

وأخبرهم ان عيسى بن مريم صلوات الله عليه ينزل بيت المقدس وقت صلاة الفجر ، والمؤمنون يومئذ قليل ، وشيعة الدجال اليهود ، فيصل عليه السلام ويتوجه نحو الدجال

والمؤمنون معه فينصره الله تعالى عليه ، فيقتله ولا يبقى بعده كافراً الا ويقتل أو يسلم ، فيكون الدين كله يومئذ لله تعالى ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويفيض المال في زمانه حتى لا يقبله أحد .

وأخبرهم ان الدجال إذا بلغ ظاهر المدينة ، رأى بها رجلا من خير الناس . فيقول له أشهد انك الدجال الذي قد حدثنا رسول الله ﷺ حديثه . فيقول الدجال : أرأيتم لو قتلت هذا ثم احييته ، هل تشكون في الأمر ، فيقولون لا : فيقتله ثم يحييه ، فيقول له : ما قتل ، أشد بصيرة مني اليوم ، فيزيد الدجال قتله ، فلا يتسلط عليه .

ومعنى احيائه ذلك القتيل انه يعالج منه أمرا ما فيحييه الله تعالى هو فتنة للناس ، كما يحيي الموتى المسيح صلوات الله عليه دلالة للناس على صدقة في دعوته . فيظن بعض من يراه انه هو المحيي له ، وانه صادق فيما يدعيه من أنه رب الناس والهم . ويتمسك بالحق من يوفقه الله تعالى .

فان قال قائل : إذا كان لا يجوز أن يمد الله تعالى مدعي النبوة باطلا بالمعجزات فمن أين جاز أن يحيي الميت ليدعي الربوبية عند حاجته إلى ذلك .

قيل له : هذا لأن مدعي الربوبية غير منفك في نفسه من دلائل الحديث ، وامارات الخلق والصنعة ، لأنها به محيطة وعليه بالكذب شاهده ، فلا يؤدي احياء الميت له إلى تبيين حاله ، فيمكن أن يكون إلهاً ، لأن من راجع عقله علم انه لا فرق بينه وبين سائر المحدثات من الناس وغيرهم من الشواهد المحدثه عليه . ولم يسأل مع ذلك بأنه ليس بإله ، إذ المحدث لا يكون إلهاً . ولو جاز أن يكون محدث إلهاً ، لجاز أن يكون كل محدث ، فتكون الموجودات كلها آلهة وذلك فاسد محال .

وأما مدعي النبوة ، فإنه مدعي أمراً ممكناً بالا انه مغيب ولا شاهد من نفسه على انه محق أو مبطل فيه . وإنما يحتاج إلى علم ذلك بدليل يفرح من جهة أوصافه وأحواله المعهودة . فإذا كان كاذباً وأمد بالمعجزات كما يمد الصادق لم يكن الفرق بينهما أبداً وصار ذلك سبباً للشك في كل مدعي النبوة ، أو الكفر بالصادق والأيمان بالكاذب ، وذلك خارج من الجملة ، فلهذا أنكرنا ان يمد الله تعالى بآياته وبيناته إلا من كان صادقاً عليه في انه رسول والله أعلم .

فصل

ان سأل سائل : عن وجه انزال عيسى صلوات الله عليه لقتل الدجال دون نصرة المؤمنين الذين يكرمون يومئذ عليه ، فيكونوا هم الذين يقتلونه .

قيل له : يحتمل ان يكون ذلك لأن اليهود همت بقتل المسيح عليه السلام وصلبه . وجرى أمرهم معه على ما بينه الله تعالى في كتابه ، وهم أبداً يدعون انهم قتلوه ، وينسبونه إلى السحر وغيره ، إلى ما كان الله تعالى براه ، ونزهه منه .

وقد ضرب الله تعالى عليهم الذلة ، فلم تقم منذ أعز الله تعالى الاسلام وأظهره راية ، ولا كان لهم في بقعة من بقاع الأرض سلطان ولا قوة ولا شوكة .

ولا يزالون كذلك إلى ان تقرب الساعة فيظهر الدجال ، وهو أسحر المسيح ، ويتابعه اليهود فيكونون يومئذ حيرة مقدرين انهم ينتقمون به من المسلمين ، فإذا صار أمرهم إلى هذا أنزل الله تعالى المسيح عليه السلام إلى عندهم انهم قتلوه ، وأبرزه لهم ولغيرهم من الموافقين والمخالفين حياً ، ونصره على رأسهم وكبيرهم المدعي الربوبية فيقتله ، ويهزم جنده حتى إذا فرغ منه اتبع بمن معه من اليهود المؤمنين اليهود فلا يجدون مهرباً وان توارى أحد منهم بشجرة أو مدرة أو حجر أو جدار ناداه :

يا روح الله ها هنا يهودي حتى يوقف عليه ، فإما أن يسلم واما ان يقتل . فكذلك كل كافر من كل صنف فلا يبقى على وجه الأرض كافر ويدرك المسيح صلوات الله عليه من أعداؤه ، عندما رفعوا رؤوسهم وظنوا ان الامر قد عاد إليهم تارة ، ويشفي الله تعالى منهم صدره ويذيقهم ما هموا ان يذيقوه ، وظنوا انهم فعلوه .

ويظهر للمسلمين أن ما بلغهم نبيهم ﷺ من أمره عن الله تعالى كان حقاً كما عرفوه واعتقدوه ، فيقع العلم به عياناً ، ويصير ذلك دلالة باهرة على موته ، بعدما قبضه الله تعالى إلى كرامته والله أعلم .

ووجه اخر : وهو انه يحتمل ان يكون انزال عيسى صلوات الله عليه وسلم لا لقتال الدجال ، ولكنه لدنو أجله ، لأنه رفع إلى السماء فبقي فيها ما أراد الله تعالى ، الا انه قد جعل له اجلا إذا جاء أدركه من الموت ما يدرك أمثاله ، ثم لا ينبغي للخوف من التراب

ان يموت في السماء ولكن أمره يجري على ما قال الله تعالى : ليقره في الأرض مدة يراه فيها من يقرب منه ويسمع من تاب عنه ، ثم يقبضه الله تعالى بتولي المؤمنين أمره ، ويصلون عليه ، ويدفن حيث دفن بقية الأنبياء الذين أمهم مريم من نسلهم ، أعني الأرض المقدسة فينشر إذا نشر معهم .

هذا سبب انزاله غير انه يتفق في تلك الأيام من بلوغ الدجال باب الدماء قد وردت به الاخبار ، فاذا اتفق ذلك ، كان الدجال قد بلغ من فتنته ان ادعى الربوبية ، والمؤمنون قلة لم يكن أحد لينتصب لقتاله ويتوجه نحوه لخوف منه ، ولا أحد بان يظفر عليه ، ويجري قتله على يده أولى منه ، إذ كان ممن اصطفاه الله تعالى لرسالته ،وأنزل عليه كتابه، وجعله آية ، وانه فعل هذا الوجه ليكون هذا الأمر لا أنه ينزل لقتال الدجال قصداً ، والله أعلم .

وقد ورد الخبر بما ذكرنا من انه يموت ويلي أمره المسلمون ، ويصلون عليه ، فمن هناك وقع الاشتقاق ، بهذا الجواب وبالله التوفيق .

فصل

لئن سأل سائل: عن منزلة عيسى صلوات الله عليه إذا نزل انه يكون نبياً أو غير نبي وانه إذا كان حكما كما قال النبي ﷺ : « لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير »(١) فبماذا يحكم وكيف يكون مع المسلمين أمره ؟ .

قيل له : — وبالله التوفيق — : ان عيسى صلوات الله عليه قد تناهت رسالته عندما بعث الله تعالى نبينا محمداً ﷺ ،وأنزل عليه القرآن،فان عامة قومه لزمهم ان يدخلوا في دين محمد ﷺ ، وينتقلوا إلى دعوته وشريعته ، فيرفضوا ما تقدم بخلافها ويعملوا بما يوافقها على انه شريعة محمد ﷺ الا انه شريعة موسى وعيسى صلوات الله عليهما .

وإذا كانت رسالته قد تناهت في ذلك الوقت ، وقد أخبر الله عز وجل ان محمداً نبينا ﷺ خاتم النبيين ، لم يجز ان يتوهم ان عيسى صلوات الله عليه إذا نزل نزل رسولاً ،

---

(١) ورد في سنن ابن ماجة « الفتن » باب ٣٣ ، رقم ٩٧٧ ، ٤٠٧٨

فصح أن يكون يومئذ من اتباع محمد ﷺ ، كما أخبر به عن موسى عليه السلام ، حيث قال لهم : لو كان حياً ما وسعه إلا اتباعي .

وجاء في بعض الاخبار أنه إذا نزل صلوات الله عليه صلى خلف الأمام ببيت المقدس ولم يتقدمه ، وانما صار حكماً ، فانه لا سلطان له يومئذ للمسلمين ، ولا امام ولا قاضي ولا مفتي قد قبض الله العلم وخلا الناس منه فينزل ، وقد علم بأمر الله عز وجل في السماء قبل أن ينزل ما يحتاج إليه من علم هذه الشريعة للحكم به بين الناس والعمل به في نفسه فيجتمع المؤمنون عند ذلك إليه ، ويحكموه على أنفسهم ، أو يكون له ان يحملهم على ان يحكم بينهم ، لان تعطيل الحكم غير جائز ، ولا أحد يصلح لذلك يومئذ غيره .

ولا يبعد على هذا ان يقال ان قتاله الدجال يكون من هذا الوجه ، وذاك انه إذا حصل بين ظهراني الناس وهم مفتونون ، فدعم فرض الجهاد اعيانهم ، وكان أحدهم لزمه من هذا الغرض لم يلزم غيره ،فلذلك يقوم به،وذلك داخل في اتباع نبينا ﷺ وبالله التوفيق.

فصل

وأما دابة الأرض،فان الله تعالى ذكرها في القرآن: ﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ [(١)].

فيحتمل أن يكون معنى وقوع القول عليهم : أي وجب الوعيد عليهم لتماديهم في العصيان والفسوق ، واعراضهم عن آيات الله عز وجل وتركهم تدبيرها والنزول على حكمها ، وانتهائهم في الطغيان إلى ما لا تنجع فيهم موعظة ، ولا تصرفهم عن غيهم تذكره بقول عز من قائل فإذا صاروا كذلك ﴿أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم﴾ [(٢)]. أي دابة تعقل وتنطق ، وذلك ــ والله أعلم ــ ليقع لهم العلم بأنها آية من قبل الله تعالى ضرورة ، فان الدواب في العادات لا كلام لها ولا عقل ، فإذا خرجت لهم دابة تعقل وتكلم ، ولم تكن مع ذلك من الدواب المعهودة ، لكن دابة مباينة لأصناف الدواب ، انبثقت عنها الارض وكانت منفردة بنفسها لا يتعلق أمرها بمدعي نبوة أو أحد من الناس.

(١و٢) النحل : ٨٢

فيقال : انه سحر وتخيل ، انبثقت إليهم عنها من كل وجه ، ولم يشك أنها آية أراها الله تعالى عباده والله أعلم .

وأما الأمر الذي لم يخرج الدابة ، فهو تمييز المؤمن والكافر والمنافق، ورسم كل فريق من هؤلاء الفرق في وجهه بما يعلم الله تعالى منه ، وهي وإذاً تعقل ذلك بالهام الله عز وجل إياها ، لا باختيار وامتحان يقع فيها للناس ، ووردت الأخبار بعد القرآن بذكرها . وفي بعضها انها تخرج بمكة بين الصفا والمروة .

وجاء عن عبد الله بن عمر انه قال وهو يومئذ بمكة : لو شئت لاخترت بشيء بـه هاتين ، ثم مشيت حتى ادخل الوادي الذي تخرج منه دابة الارض ، فانها تخرج ، فتلقى المؤمن فتسمه في وجهه وكفيه ، فيبيض بها وجهه ، وتسم وجه الكافر وكفيه فيسود بها وجهه . وهي دابة ذات رغب وريش ، فيقول : ﴿ ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ وهذا والله أعلم ، إنما نذكر الناس بهذه التلاوة ، انها الدابه التي أخبر الله تعالى عنها في القرآن ، فقال : ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ان دابة الارض تخرج من بعض أودية تهامة ذات زغب وريش ، لها أربع قوائم ، فتكتب بين عيني المؤمن بكتة يبيض منها وجهه ، وتكتب بين عيني الكافر بكته فيسود منها وجهه . والبياض في هذين الأثرين بياض من من غير سوء ، يشبه ان يكون ذلك عبارة عن النور والاشراق والله أعلم.

واما ظهور يأجوج ومأجوج فإنه يكون في أيام عيسى صلوات الله عليه بعد قتله الدجال بذلك . ووردت الأخبار ، وفيها انهم إذا خرجوا لم يأتوا على أحد إلا أهلكوه فتهرب الناس ، ويأتون عيسى عليه السلام مستغيثين منهم ، فيدعو الله عليهم دواباً يقال لها النغف فتأخذ بأقفيتهم فتقتلهم ، فتتبين الارض منهم ، فيأتي الناس صلوات الله عليه ثانية فيدعو الله عليهم ، فيبعث الله عليهم الماء فيذهب بهم فيقذفهم في البحر .

وأما طلوع الشمس من مغربها ، ، فقيل في قول الله عز وجل : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا

---

(١) النمل : ٨٢

ينفع نفساً إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾[1] .

ان المراد بطلوع الشمس من مغربها . وجاء ذكره نصاً عن النبي ﷺ ، وفي بعض الاخبار ان تلك الليلة تطول فلا يعلم بحالها إلا المجتهدون أصحاب الأوراد ، فانهم يفرغون من أورادهم ، والليل بحاله ، فيعودون لمثلها .

فإذا فرغوا منه ولم يصبحوا قاموا ظنـــاً ولم يستفتوه حتى يعودوا لأورادهم ، فإذا فرغوا وجدوا الليل لا يحلى استفتوا ، وفرق الناس فصاحوا وفرغوا إلى ذكر الله تعـالى والصلاة والبكاء ، فإذا طلع الفجر رأوه من قبل المغرب ثم طلعت الشمس من مغربهـــا فيشاهدونها لا نور لها ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها .

وفي بعضها انها تطلع من قبل وتبقى الدنيا حتى يلتقي الشيخان الهرمان ، فيقـــول أحدهما للآخر : متى ولدت ؟ فيقول : أخبرتني أهلي أني ولدت ليالي طلعت الشمس من مغربهـــا .

فصـــل

فأما أول الآيات ظهور الدجال ثم نزول عيسى صلوات الله عليـه ثم خروج يأجوج ومأجوج ويبين ذلك أن الكفار في وقت عيسى عليه السلام يفنون ، لان منهم من يقتل ومنهم من يسلم ، وتضع الحرب أوزارها ، فيستغني عن القتال على الدين بذلك أخبر رسول الله ﷺ ، فلو كانت الشمس طلعت قبل ذلك من مغربها لم ينفع اليهود ايمانهم أمام عيسى صلوات الله عليه ، ولو لم ينفعهم لما صار الدين واحداً باسلام من يسلم منهم .

فأما الآيتان الباقيتان فالذي نسبه ان عيسى صلوات الله عليه ، إذا قبضه الله تعـالى دخلت الارض منه ، وتطاول الايام على ذلك اخذ الناس في الرجوع إلى عاداتهم واحدثوا الأحداث من الكفر والفسوق كما أحدثوه بعد كل قائم نصبه الله تعالى حجـة عليهم ، ثم قبضه فيخرج الله تعالى دابة من الارض كما تقدم وصفه ، فيميز المؤمن من الكافر ، ليرتدع بذلك الكفار عن كفرهم والفساق عن فسقهم ويستبصروا وينزعوا أعمالهم فيه من الفسوق

---

(١) الأنعـــام : ١٥٨

والعصيان ولا يتجاوزون الأمر في ذلك الوقت هـذا الحد ، وتغيب الدابة عنهم ويمهلون ويصيرون إلى طغيانهم .

أطلعت الشمس من مغربها لم تقبل بعد ذلك لكافر ولا فاسق توبة ، وأزيل الخطاب بها والتكليف عنهم . ثم كان قيام الساعة على أثر ذلك قريباً لان الله عـز وجل يقول : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [١] . فإذا قطع التعبد عنهم لم يقرهم بعدذلك في الارض زماناً طويلاً ، الا انه لا يعلم متى تقوم إلا الله تعالى .

وروي ان رسول الله ﷺ ، كان يكثر السؤال عنها حتى نزلت : ﴿ فيم أنـت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها ﴾ [٢] . فأمسك عن السؤال بعد ذلك .

وقال عز وجل : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عنـد ربي ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ،يسألونك كأنك حفي عنها ، قل إنما علمها عند الله ﴾ [٣] .

وسئل النبي ﷺ عنها فقال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » [٤] .

وقال رسول الله ﷺ : « لتقومن الساعة، وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ولا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نعجته فلا يطعمه ، ولتقومـن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيـه فلا يطعمها » [٥] .

وجاء عن النبي ﷺ : « لا تقوم إلا نهاراً ، وأنها تقوم يوم الجمعة » [٦] والله أعلم .

وفيما ذكر انه يكونفي زمان عيسى صلوات الله عليه ان الضريح يأتيه إنذا السويقين الحبش قد سار إلى البيت ليهدمه ، فيبعث عيسى صلوات الله عليـه طائفة من بين الثماني إلى التسع .

وجاء عن النبي ﷺ انه قال : « يوشك أن يحشر الفرات عن جبل من ذهب ، فمن

---

(١) الذاريات : ٥٦ (٢) النازعات : ٤٤ (٣) الاعراف : ١٨٧

(٤) ورد في سنن ابن ماجة « المقدمة » باب ٩ .

(٥) ورد في صحيح البخارى « الفتن » حديث رقم ٦٤ ، وفي صحيح البخارى « ايمان » باب ٣٥ .

(٦) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

حضر فلا يأخذ منه شيئاً » فيشبه ان يكون هذا الزمان الذي أخبر النبي ﷺ : « ان المال يفيض فيه فلا يقبله أحد »[1] وذلك في زمان عيسى صلوات الله عليه . ولعل سبب هذا الفيض العظيم ، ذلك المثل مع مـا يغنمه المسلمون من أقوال المشركين والله أعلم .

فان قيل : فما المعنى في نهي النبي ﷺ : « من حضر ذلك الجبل لا يأخذ منه شيئاً » .

قيل : يحتمل أن يكون ذلك لتقارب الأمرين ، وظهور اشراطه ، فان الركون إلى الدنيا والاحتشاد لها ، مع ذلك جهل واغترار . ويحتمل ان يكون لانه مجرى المعدن ، فإذا أخذه ، ثم لم يجد من يخرج حق الله تعالى إليه ، لم يوفق بالبركة من الله تعالى فيه ، فكان الانقباض عنه أولى والله أعلم .

وفي بعض الاخبار ما يدل على ان أول الإشراط نار تظهر بالحجاز ، فتضيء منهـا أعناق الابل ببصرى . وفي بعضها : لا تقوم الساعة حتى يخـرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه . وفي بعضها عن النبي ﷺ قال : « لن تذهب الايام حتى يملك رجـل من أهل بيتي يملأ الأرض عدلاً لما ملئت جوراً »[2] .

وفي بعضها : انه يفتح القسطنطينية وجبل الديلم ، ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد يطول الله ذلك اليوم ففتحها على يده » وفي بعضها : لا تقوم الساعة حتى يقتتل فتيان عظيماً مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة ، وحتى يخرج دجالون كلهم يزعم أنه نبي .

فأما قول الله عز وجل : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾[3] . فقد روى أهـل مكة سألوا رسول الله ﷺ آية فأراهم القمر منشقاً بنصفين والجبل بينهما ، فقال : أشهد وأومن . قال معناه : ينشق كما قال : « أتى امر الله فلا تستعجلون » معناه يأتي .

فان كان هذا هكذا فقد أتى . ورأيت ببخارى الهلال وهو ابن ليلتين منشقاً بنصفين عرض كل واحد منهما كعرض القمر ليلة أربع او خمس ، وما زلت انظر اليهما حتى اتصلا ، ثم لم يعودا كما كانا ولكنهما صارا في شكل اترجة ولم امل طرفي عنهما إلى ان غابـت ،

---

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٢) لم يرد إلا في سنن الترمذي « فتن » باب ٥٠ ، ٥٢ .

(٣) القمـر : ١ .

وكان معي ليلتئذ جماعة ما بين شريف وفقيه وكاتب وغيرهما من طبقات الناس ، وكل رأى ما رأيت .

واخبرني من وثقت به ، من كان خبره عندي كعيان: أنه رأى الهلال وهو ابن ثلاث منشقاً بنصفين ، وإذا كان هذا هكذا، ظهر ان قول الله عز وجل: ﴿ وانشق القمر ﴾[1] انما هو على الانشقاق الذي هو من اشراط الساعة دون الاشتقاق الذي جعله الله تعالى آية لرسوله ﷺ وحجة أهل مكة وبالله التوفيق .

فصـــل

واذا انقضت الاشراط وجاء الوقت الذي يريد الله تعالى اماتة الأحياء من سكان السموات والبحار والأرضين، أمر اسرافيل وهو أحد حملة العرش وصاحب اللوح المحفوظ ينفخ في الصور . وفي بعض روايات العرب ، يروى ان رسول الله ﷺ قال : كيف أنعم الله أو قال كيف اضحك ، وصاحب القرن قـــد التقمه ، وحنى ظهره ينتظر متى يوم ينفخ ، فإذا نفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض، إلا من شاء الله »[2] .

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنه ان الاستثناء لاجل الشهداء فان الله عز وجل يقول: ﴿ أحياء عند ربهم يرزقون ﴾[3] وهذا مما لا تحتمل الامة غيره ، لان من خالف هـذا القول زعم ان الاستثناء لاجل الشهداء وحملة العرش وجبريل وميكائيل وملـك الموت . أو زعم انه لاجل موسى صلوات الله عليه ، فان النبي ﷺ قال : « أنا أول من تنشـق الارض عنه ، فأرفع رأسي ، فإذا موسى متعلق بقائمة من قوائم العرش ، فـــلا أدري أفاق قبلي إذ كان ممن استثنى الله تعالى »[4] . وشيء من هذه الأقوال يصح .

أما الاول فلأن حملة العرش وجبريل وميكائيل ليسوا من سكان السموات ولا من سكان الارض ، لان العرش فوق السموات كلها ، فكيف يكون حملته في السموات .

---

(١) القمر : ١
(٢) ورد في سنن الترمذي « القيامة » باب ٨ ، وفي مسند الامام أحمد بن حنبل جـ ١ ، ص ٣٢٦
(٣) آل عمران : ١٦٩
(٤) ورد في سنن ابن ماجه « الزهد » ٣٧ ، رقم ٤٣٠٨ .

وأما جبريل وميكائيل فمن الصافين المسبحين حول العرش ، فإذا كان العرش فوق السموات لم يكن الاصطفاف حوله في السموات .

وكذلك القول الثاني لان الولدان والحور في الجنة والجنان ، وان كانت بعضها أرفع من بعض فان جميعها فوق السموات دون العرش وهي بانفرادها عالم مخلوق للبقاء فلا شك انها بمعزل عما خلف للفناء والله أعلم .

واما صرف الاستثناء إلى موسى صلوات الله عليه فلا وجه له ، لانه قد مات بالحقيقة ، فلا يموت عند نفخ الصور ثانية ، فلهذا لم يعد في ذكر اختلاف المتأولين بالاستثناء بقول من قال : الا ما شاء الله ، ان الذي موتهم قبل نفخ الصور ، لأن الاستثناء إنما يكون لمن يمكن دخوله في الجملة . فما من لا يمكن دخوله فيها فلا معنى لاستثنائه منها ، والذين ماتوا قبل نفخ الصور ليس بغرض ان يصعقوا ، فلا وجه لاستثنائهم ، وهذا في موسى صلوات الله عليه موجود ، فلا معنى لاستثنائه والله أعلم .

وقد جاء عن النبي ﷺ في ذكر موسى ما يعارض الرواية الأولى وهو ان قال : «ان الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، وإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي ، أو جرى بصعقة الصور » [1] .

فظاهر هذا الحديث ان هذه صعقة عيسى يوم القيامة لا صعقة الموت الحادث عن نفخ الصور . فاذا حمل الحديث عليها ، فذاك . وان حمل على صعقة الموت عند نفخ الصور وصرف ذكر القيامة ، إلى انه أراد أوائله ، قيل المعنى ان الصور إذا نفخ فيه أخرى كنت أنا أول من يرفع رأسه ، فاذا موسى اخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري افاق قبلي أو جرى بصعقة الصور ، أفلا أدري ان بعثة قبلي كان برسالة ، وتفضيلا من هذا الوجه كما فضل في الدنيا بالتكلم ، أو كان جزاء بصعقة الطور ، وقدم بعثه على بعث الانبياء الآخرين بقدر صعقته عندما تجلى به الجبل إلى أن أفاق ليكون بهذا جزاء له بها ، وما عداها فلا يثبت والله أعلم .

فأما الملائكة الذين ذكرناهم فإنا لم ننف عنهم الموت وإنما اثبتنا أن يكونوا هم

(١) لم يرد إلا في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ، ص ٣٣ .

المرادين بالاستثناء من الوجه الذي ذكرناه . قد وردت الأخبار بأن الله عز وجل يميت حملة العرش وملك الموت وميكائيل ، ثم يميت آخر من يميت جبريل عليه السلام ويحييه مكانه ويحيي هؤلاء الملائكة الذين ذكرناهم .

وأما أهل الجنة فلم يأت عنهم خبر ، وكما ظهر انها دار الخلد ، فاذا كان الذي يدخلها لا يموت فيها أبداً مع كونه قابلا للموت ، فالذي خلق فيها أولى أن لا يموت أبداً . وأيضاً ان الجنة دار لذة وسرور ، لا خوف فيها ولا حزن ، وإن من فيها لا يمرض ولا يموت .

وأما أهل السماء فانهم خائفون وجلون ، وأهل الأرض بالبلايا والمصائب منتحبون . فلا ينكر أن يكون هؤلاء يموتون وأولئك لا يموتون .

وأيضاً فان الموت انما هو لقهر المكلفين ونقلهم من دار إلى دار وأهل الجنة لم يبلغنا ان عليهم تكليفاً ، فان اعفوا عن الموت كما اعفوا عن التكليف لم يكن ذلك ببعيد.

فان قيل : ان الذين يدخلون الجنة انما لا يموتون ولا يخافون ولا يحزنون ، جزاءاً لهم بأعمالهم ، والولدان والحور لم يربوا في الجنة ، جزاءاً لهم بعمل صالح قدموه فان ماتوا فذلك ، ولا يبعد من أمرهم .

قيل : لو صح هذا لجاز على قياسه أن يمرضوا ويبتلوا بالمجاعة والجهد والخوف من الذين يحرمونه من أهل الجنة ، فان كان شيء من هذا لا يلحقهم ، وإن لم تكن الجنة جزاءاً لهم ، فلا ينكر أن لا يكتب عليهم الموت ، وإن لم تكن الجنة جزاءاً لهم ، وبالله التوفيق.

فان قيل : فان الله عز وجل يقول : ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ (١) . وفي هذا دليل على ان الجنة يفنيها ثم تعاد ليوم الجزاء . فما أنكرتم أن الولدان والحور يموتون ثم يحيون !

قيل : يحتمل أن يكون معنى كل شيء هالك إلا وجهه ، أي ما من شيء الا وهو قابل للهلاك . فيهلك ان اراد الله ذلك الا وجهه أي الا هو ، فإنه تعالى قديم والقديم لا يمكن أن يفنى ، وما عداه محدث والمحدث انما يبقى قدر ما يبقيه محدثه ، فإذا حبس البقاء عنه هلك ، ولم يبلغنا في خبر صحيح ولا معدل ، انه يهلك العرش ويبقيه ، فلتكن الجنة مثله والله أعلم .

---

(١) القصص : ٨٨

فصـــل

وقد سمى الله عز وجل الصور بإسمين : أحدهما الصور والآخر الناقور ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فإذا نقر في الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير ﴾ [٢] . وقول المفسرين انه الصور . والظاهر ان الصور وإن كان هو الذي ينفخ فيه النفخات جميعاً ، فإن الاصعاق يخالف صيحة الاحياء .

وجاء في الأخبار : ان في الصور ثقباً بعد الأرواح كلها ، وانها تجمع فيـــه النفخـة الثانيـــة ، فيخرج عنـد النفـخ كل روح من احـــدى الثقب نحو الجسد الذي نزع منه وحتى يرجع اليه ، فيعود الجسد حياً بإذن الله تعالى ، فيحتمل أن يكون الصـــور يجمع الآيتين ، ينقر في أحدهما ، وينفخ في الأخرى ، فإذا فيه للأصعاق جمع بين النقر والنفخ لتكون الصيحة أهل وأعظم . وإذا نفخ فيه للأحياء لم ينقر فيه ، واقتصر على النفخ ، لأن المراد ارسال الأرواح في ثقب الصور إلى أجسادها لا ينفرهـــا من أجسادها . والنفخة الأولى للتنفير ، وهي نظير صوت الرعد الذي قد يقوى فيموت وبالله التوفيق .

فصـــل

فإذا مات الأحياء كلهم تركوا أربعين سنة ، ثم نفخ في الصور نفخة الأحياء واتفقت الروايات على أن بين النفختين أربعين ، وقال العلماء : هي أربعون سنـــة ، وذلك — والله أعلم — بعد أن يجمع الله تعالى ما يفرق من أجساد الناس من بطون السباع وحيوانات الماء وبطن الأرض ، وما أصاب النيران منها بالحرق ، والمياه ، وما ابلته الشمس وذرته الرياح .

فإذا جمعها واكمل كل بدن منها ولم يبق إلا الأرواح ، جمع الأرواح في الصور ، وأمـــر اسرافيل صلوات الله عليه . فان سلها بنفخة من نفث الصور ، فرجع كل روح إلى جسده باذن الله تعالى .

وجاء في بعض الأخبار : مايبين ان كل شيء اكله طائر أو سبع حشر من جوفه أو هو مارواه الزهري عن أنس رضي الله عنه قال : مر رسول الله ﷺ بحمزة يوم أحد ، وقد جدع

---

(١) المدثر : ٨ — ١٠

ومثل به فقال: (لولا أن نجد صفته في نفسها لتركتها حتى يحشره الله تعالى من بطون السباع والطير) [1] .

فان سأل سائل عن كافر اكل لحم مؤمن، أو مؤمن أكل لحم كافر ، كيف يحشر هؤلاء ؟

قيل له : الله أعلم بذلك ، لكن الذي تبلغنا علمه فيه ، هو ان الكافر إذا أكل لحم مؤمن لم يرجع لحمه من بدن الكافر إلى بدن المؤمن ، إذا كان قد بقي في جوف الكافر ، وصار غذاءاً له . فأما إن أكله فمات أو قيل : قبل أن يصير غذاءاً له ، فإنه يرجع منه عند البعث إلى بدن المؤمن ، واذا لم يرجع في الحال الأولى عوض المؤمن مثله ، وأكمل جسده ، ونفخ فيه روحه فقام باذن الله تعالى حياً .

وعلة هذا - والله أعلم - ان تلك الأجزاء التي انقلبت بدن كافر ، بعد ان كانت من بدن المؤمن ، فقد وجد منه الكفر والمعاصي بها ، فلو أعيد إلى بدن المؤمن فادخل الجنة لكان قد أدخل الجنة أجزاء من كافر ، وليست الجنة دار الكفار . فصح إذا انها تصار إلى النار ويعوض المؤمن من أمثلها اختراعاً يخترعه الله عز وجل .

فان قيل : وكذلك إذا قلتم انها لا تعاد إلى بدن المؤمن ، قلتم انها تصار إلى النار ، وفي ذلك ابطال ما عمل المؤمن بها من الطاعات أيام حياته .

فالجواب : ان ذلك الثواب لا يبطل عمل المؤمن ، وإنما يبطل بنعم تلك الأجزاء التي انقلبت فصارت من بدن الكافر بالثواب ، وذلك لأن الثواب انما هو لنفس المدين ، ولكن أيضاً من بدنه إذا سلمت له وصلت نعمة الثواب إلى نفسه من أماكن شتى ، فاذا مات بعضها وصلت هذه النعمة اليه مما بقي من عرض ما فات .

وأما الأجزاء الفانية التي صارت من بدن الكافر ، فإنها لا تنعم بشيء ، فان ذلك لو كان يفرح به الكافر ولم يشعر به المؤمن الذي كانت هذه الأجزاء من بدنه ، وذلك غير جائز والله أعلم .

وأما المؤمن إذا أكل لحم كافر واغتذى به ، فالقول فيه على ما وصفت أيضاً ، وهو ان أجزاء الكافر لا ترد من بدن المؤمن إلى بدن الكافر ، إنها أجزاء وجدت من المؤمن

---

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

الطاعات بها فلو أعيدت إلى بدن الكافر لكانت أجزاءاً من المؤمن فدخلت في النار ، وإنما الخلود في النار للكافر وأما عذاب الكفر كاملا فإنه واقع بالكافر لا ينقص منه شيئاً لما فات من أجزائه .

فان قيل : فكيف يبعث : قيل : يجوز أن يقال أن الله عز وجل يعوضه مما أكل المؤمن من لحمه مثله ، فيكمل جسده الذي كان .

فان قيل : افيخلص العذاب إلى هذا العوض ، أو يكون الألم كله على البدن القديم ؟ فان قلتم ان العذاب يخلص إلى العوض الحادث اجزتم تعذيب ما لم يكن له نصيب في الذنب. وإن قلتم : إن الألم يحل كله على البدن القديم ، أوجبتم نقل حصة الأجزاء الفانية من العذاب إلى الأجزاء الباقية ، وذلك غير جائز .

قيل : وما في هذا إن قلنا ان العوض الذي كمل به جسمه يتألم بالعذاب ، فان الله عز وجل قال : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، ليذوقوا العذاب ﴾ [1] فليس هذا مثله وإن قلنا ان الألم كله يخلص إلى باقي البدن القديم ، فان عذاب الكافر القتل وعذاب الكافر القتل قد يجوز أن يكون سواء ، فامكن هذا مثله ، وليس ما قالوا من نقل العذاب من بدن إلى بدن في شيء ، لأن العذاب كله على النفس الكافرة فان كملت ابعاض البدن خلص الالم اليها من اماكن شتى ، وإن نقصت ابعاض البدن خلص الالم اليها فما بقي لمقدار في الحالين واحد والله أعلم .

وأما المؤمن يأكل لحم مؤمن فإن المأكول لحمه يعوض من لحمه ما يأكل به بنيته ، ويبعث ويجزى بما عمل من الطاعات ، ويوصل اليه ثوباً كاملا لا يبخس منه شيئاً . فأما الأجزاء التي كان عمل بها عمل الطاعات ، ثم صارت من بدن غيره فانها لا تفرد بثواب . لأن الثواب للنفس المؤمنة ، فلو كانت تلك الأجزاء الباقية مع ما بقي من بدنه لكانت نعمة الثواب تأتي نفس المؤمن من قبل جميعها ، ولكنها إذا ماتت لم تنعم بنعمة لا يشعر بها المؤمن الذي كان قربها منه ولا يجدها في نفسه .

وأما الكافر يأكل لحم كافر ، فالقول فيه على هذا أيضاً ، وهو ان المأكول لحمه يعوض ما يكمل به بنيته ويجزي بما عمل من السيئات جزاء كاملا ولا تعود الأجزاء التي صارت

---

(١) النساء : ٥٦

من بدن غيره لجزاء ، لأن ذلك لو كانت يتألم به الكافر الذي كانت هذه منه . وإنما الجزاء له ، فكيف يجزي بما لا يجده في نفسه ولا يشعر به والله أعلم .

فان قيل : فما الفرق بين ما أكله السبع وحوت الماء والطـــير ؟ يقولون انه يرد إلى الأبدان التي أكلت منها ، وبين ما أكله الناس بعضهم من بعض يقولون ان شيئاً منه لا يرد إلى أصله لكن صاحبه يعوض منه .

قيل : الفرق بين الناس ما أكله الناس من بعضهم من بعض ، فقد انقلب من مكلف إلى مكلف ، فلا بد للمكلف في الدنيا من معاد وجزاء في العقبى . والمعاد اما جنة واما نار ، اوجبنا أن يكون الاكل أحق بان يبقى له ما أكل من المأكول منه ، لأن ذلك ان لم يكن كذلك يؤدي إلى ادخال جزء من الكافر الجنة أو جزء من المؤمن النار ، وقد بينت في أكل المؤمن لحم الكافر ، وأكل الكافر لحم المؤمن ، وإذا وجب هذا الحكم من هذين ، كان أكل المؤمن لحم المؤمن وأكل الكافر لحم الكافر في معناها . لأن كلا من ذلك أكل مكلف من لحم مكلف .

فقلنا : إن ما أكله الآكل فمتروك عليه والمأكول لحمه يعوض عنه . وأما ما أكله سبع أو طائر أو حوت ، فهو في معنى ما أكلته الأرض نفسها فلما كان ما تاكله الأرض لا يترك ترابا ، لكنه يعاد كما كان فكذلك ما يأكله حيوان لا تكليف عليه . فانه يعاد كما كان أولا يترك على ذلك الحيوان والله أعلم .

فان قيل : إذا أجزتم أن يخلو الجزء الذي أكله الكافر من لحم المؤمن عـــن التنعم بالثواب الذي يصل إلى المؤمن ، فلم لا أجزتم أن يخلو بدنه من التنعم أصلا ، وأن يكون ثواب نفس المؤمن بالسرور الدائم والراحة دون المطاعم والمشارب والملابس والمنـاكح ، فيصير بذلك إلى قول غيركم .

قيل : انما أجزنا أن يخلق الجزاء الفائت من بدن المؤمن عن التنعم بالثواب الذي يصل إلى المؤمن على شرائطه أن يعوض الله جل جلاله المؤمن منه عوضاً فيكون وصـول نعمة الثواب إلى النفس من قبل البدن قديمة وحديثة ، فإنما يقام وصوله اليها من قبل الاول لو كان باقياً بحالة لم يفت منه شيء .

فكيف يلزمنا عن هذا ان نجـــيز خلو البدن من التنعم بالثواب اصلاً ، وانفراد النفس

به دونه ، بل الأصل ان نفس المؤمن لما لم تنفرد باكتساب الطاعات عن البدن ، لكن جهد العبادة خلص إلى النفس من قبله ، فلذلك ينبغي أن تخلص نعمة الثواب اليهامن قبل البدن . فان كان البدن المكتسب للطاعات فإنما تخاله معرضاً للابانة بتنعم الثواب . وإن كان أو بعضه فانياً،قام المثل الذي يبتدىء الله جل جلاله خلقه المؤمن مقامه والله أعلم.

فان قيل : كيف يجوز هذا ، والعوض المبتدأ خلقه ليس هو الذي كان اكتساب الطاعات به .

قيل : يجوز ، لأن الذي كان اكتساب الطاعات منه لم يتفق ذلك إلا بحلول النفس المؤمنة إياه ، وتصريفها له ، فاذا انقلب بعد ، فصار من بدن كافر ، وكان إيراده الجنة فتجاوز كل مايخلق للنفس من مثله ليحله ويخلص من قبل ما ينـاله من الثواب والنعمة واللذة اليها ، فذلك قائم مقام الفائت وعامل عمله .

فان قيل : فما تقول في كافر قتل مؤمناً ومزقه وقطعه ولم يدع منه لحماً ولا عظماولا شيئاً قط الا أكله ، كيف يبعث ؟ .

قيل :الأصل الذي ذكرنا ، يقتضي أن يخلق الله تعالى لنفسه بدنا جديداً ويصرف الثواب الذي استحقه عليه،فيكون هذا الخلق الجديد عوضاً له من بدنه الفائت والله أعلم .

فان قيل : فان كان هذا هكذا ، فأجزاء يحدث الله تعالى عند النشأة الثانية ، لكل نفس بدنا جديداً أو لا يعيد البدن الذي كان؟

قيل : ولا هذا يلزمنا لانا لم نقل ان ما فات من بدن المؤمن ، فإن صار بدنا للكافر ولا يعاد ، فيلزمنا عن ذلك إجازة أن لا يعاد شيء أصلا .

وأما التعويض فانما يليق بما فات ، لان ما هو قائم بعينه ، فكلما أكلته الأرض فانماهو البدن غير ان أعراضه تبدلت باعادة الاعراض التي كانت له حتى يصير بدنا كما كان ،أولى بها من خلق بدن جديد لينال بالثواب ما أجهده العمل بعينه ، حتى إذا كان اتصال الثواب إلى ما أجهده العمل محالا لانقلاب ما كانت الطاعة اجهدته بدن كافر ، كانت اقامة مثله مقامة ما عدل وأمثل ، فانه لم يقم مقامه مثله حلت النفس ، ولم تتبع وحدها لتنعم أصلا ، ففي ذلك اتصال الثواب وابطاله يضيع الحسنات.

وقد أخبر الله عز وجل : ﴿ انا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ [1] وإن كان يتسع للحياة ، والاستئناس بمثلها ، والفرح بمكانها الذي فيه ، ففي ذلك تقليل الثواب ، لأنها لو كان معها بدن طاعم وشارب لابس يتمتع بالشهوات ، ويتقلب في اللذات لكان بنعمها مما يخلص اليها من النعمة واللذة من قبل البدن أكثر . فعلمنا ان التعويض من الفائت اقرب إلى الانابة بالحسنات لا عن تعويضه .

فان قيل : النفس العاقلة لا تتنعم بالشهوات .

قيل : انها لا تتنعم بها إذا كان في اتباعها اغفال للطاعـــات والحسنات والخيرات ، والتوغل في المفاسد والسيئات ، وهذا انما يكون في الدنيا . فأما الدار الآخرة فلا تكليف فيها ، وإنما هي دار فراغ ، والتنعم فيها بالشهوات واللذات هو الخير المحض لان من فاته لا يرجع منه إلى ما يكون له خيراً منه . فبطل قول من قال : إن النفس العاقلة لا تتنعم بالشهوات والله أعلم .

فصـــل

فإذا اكمل الله تعالى جسده للاجساد على ما هو أعلم به من صفة اكمالها ، إلا انها بعد تراب. ففيه بعض الأخبار: ان الله تعالى يمطر عليهم من تحت العرش فتنموا به أجسادهم .

فقد يحتمل ان كان هذا ثابتاً انه ينبتهم بهذا الطين الذي ينزل عليهم حتى يجعلهم بشراً كما روى في قصة الذين يخرجون من النار . وقد صاروا حمما انهم يغتسلون من نهر يأتي الجنة فينبتون به كما تنبت الحبة في حميل السيل ، حتى إذا لم يبق إلا ان يحيوا ، أمر اسرافيل عليه السلام بنفخ الصور ، فاذا وصل ما في الصور إلى هذه الاجساد وصار فيها عادوا أحياء باذن الله تعالى ، وتكون هذه الاجساد من هذا الوجه كالحسل في بطن أمه ، ينقلب حالا حتى إذا صار في هيئة البشر فعند ذلك ينفخ فيه احد الملائكة الروح بأمر الله تعالى . فأما نفخ جبريل عليه السلام في مريم ، فانه يحتمل وجهين:

احدهما يحتمل ان يكون الله تعالى جده ، اخترع عند مخاطبة جبريل مريم بان يكون

---

(١) الكهف : ٣٠

عيسى بشراً سوياً في رحم مريم ، ثم أمر جبريل فنفخ الروح فيها . لكن إذا وصـــل الروح المنفوخ إلى عيسى يحيى ، فكانت فضيلة عيسى بان الله تعالى جده خلقه لا من تراب. ثم بأن نفخ فيه الروح ، كان من الروح الامين الرسول الكريم ، لا من بعـــض الاملاك الموكلين بالارحام .

والوجه الآخر: ان جبريل عليه السلام نفخ في مريم عليها السلام، وهي غير حامـــل فحملت عند وصول نفخته إلى رحمها ، وتكون نفخة جبريل في هذا الوجه كالرياح التي وصفها الله تعالى بأنها لواقع ، فإذا جاز ان تلقح الريح الشجر ، فيكون لها منه حمل،جاز ان يحمل الله بنفخة ملك وهي في الحقيقة ريح لاقحة ، لا نبياً من ولد آدم ، فتكون منها لها حمل .

ومن قال هذا ، قال : ألا ترى ان الله عز وجل قال بعد اقتصار هبوط جبريل عليها، ومخاطبته إياها فحملته . فدل ذلك على انها من قبل لم تكن حاملاً ، فيكون أثر جبريل نفخ الروح في الحمل فقط . ومن قال بالوجه الاول ، قال: انما قال : ﴿ فحملته ، فانتبذت به مكاناً ﴾ [١] فأراد انها حملته من ذلك المكان إلى مكان آخر لانها حملته وهو في رحمهـا ولم يرد به الحمل الذي هو العلق والله أعلم .

فصـــل

وإذا أحيى الله تبارك وتعالى الناس كلهم ، قاموا بمجلس ينظرون ما يراد بهم ، لقوله: ﴿ ثم نفخ فيه أخرى،فإذا هم قيام ينظرون ﴾(٢) وقد أخبر الله عز وجل عن الكفارانهم يقولون : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾(٣) وانهم يقولون:﴿ يا ويلنا هذا يوم الدين﴾(٤) فتقول الملائكة : ﴿ هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ﴾ (٥) . ثم يعرض الجميع إلى موقف العرض والحساب وهو الساهرة .

قال الله عز وجل : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ، فإذا هم بالساهرة ﴾ (٦) . وجـاء

---

(١) مريم : ٢٢ — (٢) الزمر : ٦٨ — (٣) يسن : ٥٢
(٤) الصافات : ٢٠ — (٥) الصافات : ٢١ — (٦) النازعات : ١٣

عن النبي ﷺ انه قال : « عليكم بالشام أرض المحشر والمنشر »[1] ويقال : ان الساهرة أرض معروفة عند بيت المقدس . والساهرة عند أهل اللغة وجه الأرض . ومعنى فإذا هم قد صاروا على وجه الارض بعد ان كانوا في جوفها . قيل الساهرة صحراء قرب شفير جهنم والله أعلم .

وقد جاء في صفة الحشر في قول الله عز وجل : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً، ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾[2] . أخبر منها ما روى النعمان بن سعد عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله عز وجل : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً » قال اما انهم ما يحشرون على أقدامهم ولا يساقون سوقاً ، ولكنهم يؤتون بنوق من فوق ينظر الخلائق إلى مثلها ، رحالها الذهب ، وزمامها الزبرجد ، فيقعدون عليها حتى يقرعوا باب الجنة .

وسمي المتقون وفداً لانهم يسبقون سائر الناس إلى حيث يدعون إليه ، فانهم يكونون على نجائب تسرع بهم ، ومع ذلك لم يعلموا ان قدومهم على ما يسرهم فهم المتبطئون ، لكنهم يجدون ويسرعون ، والملائكة تتلقاهم بالبشارات. كما قال عز وجل: ﴿ وتتلقاهم الملائكة ، هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾[3] فيزيدهم ذلك إسراعاً.

وانما فسرنا الوفد إذ ذكرنا لان الوافد في الابل والقطا وغيرها مما سبق سائر الصنوف في طيرانه وروده . قال كثير من أهل العلم باللسان : وحق للمتقين أن يكونوا سابقين إلى المحشر ، لانهم كانوا يسبقون المخلطين في الدنيا إلى الطاعات ، ويفوتون الظالمين فينبغي لهم أن يشعروا إذا خرجوا من قبورهم بشمارهم ، فيكونون هم السابقين إلى موضع الحساب والجزاء .

كما أخبر النبي ﷺ : ان المحرم إذا مات يبعث يوم القيامة ملبياً ليكون إحرامه الذي عنده لله تعالى على نفسه شعاراً له وجمالاً في دار الجزاء والله أعلم .

وجاء عن النبي ﷺ : « يحشر الناس على ثلاث طرائق : راغبين راهبين ، إثنان على

---

(١) لم يرد إلا في سن ابن ماجة « الاقامة » باب ١٩٦ ، رقم ١٤٠٧ . وفي مسند الإمام أحمد ابن حنبل جـ ٢ ، ص ٤٦٣ .

(٢) مريم : ٨٥ . (٣) الانبياء : ١٠٣ .

بعير ، وثلاث على بعير ، وأربع على بعير ، وعشرة على بعير ، وتحشر بقيتهم النار ، يقيل منهم حيث قالوا ، ويبيت منهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسي معهم حيث مسوا »[1] فيحتمل أن يكون قول النبي ﷺ : « يحشر الناس على ثلاث طرائق » اشارة إلى الابرار والمخلصين والكفار .

فالابرار هم الراغبون إلى الله تعالى مما أعد لهم من ثوابه ، والراهبون الذين هم بين الخوف والرجاء ، فأما الابرار فانهم يؤتون بالنجائب كما روى في الحديث الآخر . وأما المخلطون فهم الذين ارتدوا في هذا الحديث . وقيل : انهم يحملون على الابعرة . وأما الفجار فهم الذين تحملهم النار ، بان الله تعالى لا يمهلهم بان يبعث إليهم الملائكة فيقبض لهم نوقهم ، ولم يرد في الحديث إلا ذكر البعير .

فاما ان ذلك من ابل الجنة أو من الابل التي تجيء وتحشر يوم القيامة . فهو مما لم يأت بيانه والأشبه ان لا تكون من نجائب الجنة ، لان من خرج من جملة الابرار المخلصين كان مع ذلك من جملة المؤمنين ، فانهم بين الخوف والرجاء ، لان من هؤلاء من يغفر الله تعالى له ذنوبه ، فيدخل الجنة مع الداخلين ، ومنهم من يعاقبه بالنار ، ثم يخرجه منها ويدخله الجنة .

وإذا كان كذلك لم يلق أن يوردوا موقف الحساب على نجائب الجنة ، ثم ينزل عنها بعضهم إلى النار . لان من أكرمه الله تعالى بالجنة مرة ، لم يهنه بعد ذلك بالنار .

وفي حديث آخر عن ابن هريرة رضي الله عنه قال : « يحشر الناس ثلاثة أصناف ، ثلاث ركبان وثلاث على اقدامهم مشاة ، وثلاثة على وجوههم » إلا انه قال بعد هذا : قلنا يا رسول الله : فكيف يمشون على وجوههم ، فقال : « إن الذي امشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، الا انهم يتقون بوجوههم خدد وشوك »[2] وهذا ان ثبت مرفوعاً ، ففيه ان الناس يكونون أثلاثاً ، ومعنى أصناف ثلاثة إلا انهم أثلاث

---

(١) ورد في صحيح البخاري « كتاب رقاق » باب ٥ ، وفي صحيح مسلم «كتاب جنة » رقم ٥٩ ، وفي سنن النسائي « الجنائز » باب ١١٨ .

(٢) لم أجد هذا الحديث إلا في مسند الإمام احمد بن حنبل ج ٤ ، ص ٤٤٧ .

متساوية : أحدهم الركبان وهم المتقون السابقون الذين يغفر الله تعالى لهم ذنوبهم بعد الحساب ، ولا يعذبهم ، إلا أن المتقين يكونون على نجائب الجنة .

والصنف الثاني الذين يعذبهم الله تعالى بذنوبهم ثم يخرجهم من النار إلى الجنة وهؤلاء يكون مشاة على أقدامهم ، فقد يحتمل على هذا أن يمشوا وقتاً ويكونون ركباناً . فإذا قاربوا المحشر نزلوا فمشوا ليتفق الحديثان والله أعلم .

والصنف الثالث المشاة على وجوههم ، وهؤلاء هم الكفار ، وقد يحتمل أن يكونوا ثلاثة أصناف : صنف وكلهم ركبان لكن على من أتت لهم . وصنفان من الكفار : أحدهما العتاة وأعلام الكفر ، فهؤلاء يحشرون على وجوههم ، وآخرون الأتباع وهم يمشون على أقدامهم .

وقد ذكرت فيما مضى ان مشي الكفار على وجوههم انما يليق ان تكون حالهم في سبقهم من موقف الحساب إلى جهنم ، لأن الله تعالى قال : ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً ﴾ [1] لأن الله تعالى خص أبصارهم فوصفها منهم بالخشوع في حال المعنى الى موقف الحساب . فقال : ﴿ يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ﴾ [2] .

وقال : ﴿ خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ [3] . فلو كانوا في هذه الحال مشاة على وجوههم لم يكن الخشوع من أبصارهم وحدها .

وفيما ذكرت دليل على أن المشي من القبر إلى موقف الحساب فيكون على الاقدام. ومن المواقف إلى جهنم تكون على الوجوه .

ويؤكد هذا ان الله عز وجل قال فيما وصفهم به : ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ (٤) . فلو كان ذلك حالاً بهم من حين يبعثون إلى أن يدخلوا جهنم لم يكن لتخصيص حال دخولهم النار .

فهذا الوصف معني ، الا ان هذا ، وان كان كما وصفت ، فان حديث أبي هريرة الثاني رويناه ، يدل على خلافه ، فقد يحتمل أن يخرج ذلك على ان الكفار بعضهم أغنى من

---

(١) الفرقان : ٣٤
(٢) المعارج : ٤٣
(٣) القمر : ٧
(٤) القمر : ٤٨

بعض لأن منهم من جحد ربه أصلا ، ومنهم من جحد رسله كلهم ، ومنهم من أقر بهم إلا بواحد منهم ، ولا شك انهم متفاوتون في العذاب ، ولولا ذلك لم يقل الله عز وجل: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾[1] فلما قال : علمنا ان للنار دركات ، كما ان للجنة درجات .

وقد يجوز أن يكون بعض أهلها يحشرون مشاة على الاقدام ، وبعضهم مشـــاة على الوجوه ، وجاء شرهم وسابقهم في الحالين النار والله أعلم .

وقد قال الله عز وجل فيما ذكرهم به : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾[2] فقيل في تفسير : عطاش .

وقيل في تقريب هذا المعنى : إن الابل لا تورد الماء إلا بعد ان تعطش ، فكأنه قال: ونسوق المجرمين إلى جهنم أو زاد الابل لشدة ما بهم من العطش . وقـد يجوز ان يكونوا سموا أوراداً ، لأنهم يشربون الحميم في جهنم شرب الهيم .

وأما العطش الحادث عليهم فهو بشقيق من الله عز وجل عليهم ، والاخبار تدل على ان العطش يعم للناس ، ذليل كلهم في ذلك اليوم إلا المتقون ، يسقون من حوض نبينا محمـد ﷺ ، ولذلك قال في صفة من شرب منه شربة لم يظمأ أبداً .

وأما الكفار فلا يسكن عطشهم ، ولكن يزداد عطشهم فوق عطش المؤمن ، لان عطش المؤمنين انما هو تعريض من الله تعالى إياهم ، لا يكرمهم بالسقي من حوض المصطفى ﷺ ، فيجدوا لذة الماء وطيبه ، إذ كان الريان لا يستلذ كما يستلذ العطشان .

وعطش الكافر تشديد وتفسير ذلك المشي والوقوف عليهم وتعويض الله تعالى المؤمنين ما ذكرنا زيادة في التشقيق على الكافرين،فانهم اذا علموا ان هناك ما يمكن منه المؤمنون، ولا يمكن منه الكافرين ، كان ذلك أشق عليهم من أن يكون عندهم إلا ما يرده أحـد مؤمناً كان أو كافراً والله أعلم .

وقد يحتمل أن تكون شدة عطش الكافر يومئذ للجهد الذي يلحقه من المشـــي على قدميه أو على وجهه مسرعاً ، ثم من دنو النار العظيمة منه ، لانه سابقة وحاشرة على مـــا ورد به الحديث عن النبي ﷺ والله أعلم .

---

(١) النساء : ١٤٥ (٢) مريم : ٨٥

فصـــل

ان قال قائل: لم أخبر الله ان الكفار يكونون يوم القيامة مهطعين مقنعي رؤوسهم[1] وقد علم ان اقناعها دمعها ، وانه لايرتد إليهم طرفهم. وقال في غير هذه الآية : ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ [2] وقال : ﴿ خشعاً ابصارهم ﴾ [3] فكيف يكون الرافع رأسه ، الناظر نظراً طويلا ، حتى ان طرفه لا يرتد إليه ، خاشع البصر .

فالجواب : — وبالله التوفيق — : انهم يكونون في حال المشي إلى الموقف خاشعة ابصارهم • وفي هذه الحال ، وصفهم الله تعالى بخشوع الابصار واما إذا توافوا، وضمهم ألموقف ، وطال القيام عليهم ، فانهم يصيرون من الجناة ، كأن لا قلوب لهم ، ويرفعون رؤوسهم فينظرون النظر الطويل الدائم فلا يرتد إليهم طرفهم ، كأنهم قد نسوا الغمض أو جهلوه ، وذلك داخل في جملة التشقيق عليهم إلا أنه في غير ذلك الحال والله أعلم.

فصـــل

ان سأل سائل عن قول الله عز وجل : ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ، ذلك يوم الخروج ﴾ [4] فقال : إنما تكون الصيحة للخروج وهم أموات ، فكيف يسمعونها.

قيل : ان نفخة الاحياء تميد وتطول ، فكانت أوائلها للاحياء وما بعدها للازعاج من القبور ، فما كان للاحياء فانهم لا يسمعونه . وما كان للازعاج فهم يسمعونه • ويحتمل أن تتطاول تلك النفخة كما ذكرت ، والناس يحسبون منها أولاً فأولاً ، وكلما حيي واحد سمع ما يحيي به لمن بعده إلى ان يتكامل احياء الجميع والله أعلم .

فصـــل

وإذا حشر الناس بعد ما نشروا حشروا حفاة عراة غرلاً ، لانهم كذلك بدؤا ، والله عز وجل : يقول : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ [5] فلما كانوا بدئوا غرلا بعثوا غرلا،

---

(١) ابراهيم : ٤٣ (٢) المعارج : ٤٤ (٣) القمر : ٧
(٤) ق : ٤٢ (٥) الأنبياء : ١٠٤

لئلا يمتد عن الاعادة شيء من أخبارهم ، ويحشرون حفاة عراة ، لأن الملابس في الدنيا أموال ، ولا مال في الآخرة ، زالت الاملاك بالموت وبقيت الأموال في الدنيا .

ولان كل نفس يومئذ فانها تثيبها المكاره ثواباً وجب لها بحسن عملها، أو رحمة مبتدأة بما يمن الله تعالى عليها ، فاما الملابس فلا غناء فيها يومئذ، ثم ان الاخبار وردت بأن كثيراً من الناس يكسون إذا خرجوا من قبورهم .

روى عباد بن كثير عن ابن الزبير عن جابر قال : ان المؤذنين والملبين يخرجون يوم القيامة من قبورهم ، فيؤذن المؤذن ، ويلبي الملبي ، وأول من يكتسي من حلل الجنة إبراهيم خليل الله ثم محمد صلى الله عليهما ، ثم النبيون والرسل صلوات الله عليهم، ثم يكس المؤذنون ، وتتلقاهم الملائكة على نجائب من ياقوت أحمر، أزمتها من زبرجد أخضر رجالها من اللهب ، ويشيعهم من قبورهم تسعون ألف ملك إلى المحشر .

وفي رواية أخرى عن النبي ﷺ قال : « انكم تحشرون حفاة عراة غرلاً ، فأول من يكس إبراهيم ثم أوتى بحله لا يقوم بها البشر »[1] .

فيحتمل أن يكون تقديم إبراهيم صلوات الله عليه بالكسوة لما يروى انه لم يكن في الاولين والآخرين لله تعالى عبد اخوف له من إبراهيم فيعجل كسوته بما ناله ليطمئن قلبه ويحتمل ان يكون ذلك لما جاء به الحديث انه أول من يلبس السراويل إذا صلى مبالغة في السير وحفظاً لفرجه من أن يماس فضلا ، ففعل ما أمر به ، فيخرج بذلك ان يكون أول من يستتر يوم القيامة .

ويحتمل أن يكون الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس كما يفعل بمن أراد قتله . وان كان ما أصابه في ذلك في ذات الله تعالى ، فلما صبر واحتسب وتوكل على الله ، دفع عنه شر النار في الدنيا والآخرة أو جزاه بذلك العرى ان جعله أول من يدفع عنه العرى يوم القيامة على رؤوس الاشهاد والله أعلم .

وإذا بدأ في الكسوة بإبراهيم وثنى بمحمد ﷺ ، أتى لمحمد ﷺ بحلة لا يقوم بها البشر لينجز التأخير بنفاسة الكسوة ، فيكون كأنه كسي مع ابراهيم عليهما السلام ولم يؤخر عنه والله أعلم .

---

(١) ورد في صحيح البخاري « انبياء » باب ٨ ، في صحيح مسلم « الجنة » رقم ٥٨

فصـــل

فأما الكوائن يوم القيامة قبل الحساب ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ يا أيهـــا الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمـا أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكـن عذاب الله شديد ﴾ (١) .

وقال جل ثناؤه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . إذا زلزلت الارض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان ما لها . يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لهـا . يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (٢) .

والذي يثبت بسياق الآيات وشواهدها ان هذه الزلزلة انها تكون بعـد احياء الناس وبعثهم من قبورهم ، لأنه لا يراد بها إلا إرغاب الناس والتهويل عليهم ، فينبغي أن يشاهدوها ، ويعلموا انها لهم ليفرغوا منها ، ويهولهم أمرهـــا ولا يمكن المشاهدة منهم وهم أموات .

ولانه عز وجل قال : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ أي تخبر بما حمل عليهـا من خير وشر ، يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، فدل ذلك على أن هذه الزلزلة انها تكون والناس أحياء . واليوم يوم الجزاء ، ولأنه عز وجل قال : ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخـة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقـت السماء ، فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ (٣) .

فدلت هذه السورة أيضاً على ان اصطدام الأرض والجبال الموجب لا بد حال زاويتها وبنيانها ، وتلالها وجبالها وأشجارها . انها تكون يوم القيامة ، والعرض لايكون إلابعد الاحياء ، فثبت ان هذه الكوائن انها تكون بعد النشأة الثانية ، والله أعلم .

وإذا كان ذلك كذلك ، فالمعنى — والله أعلم — إذا زلزلت الأرض زلزالها واخرجت

---

(١) الحج : ١ - ٢ (٢) الزلزال : ١ - ٨ (٣) الحاقة : ١٤ - ١٨

الأرض اثقالها ، وفرغت وتجلت وشهد بذلك قوله عز وجل : ﴿ ان زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ﴾ (١) .

فنص على أنهم يرونها ويفرعون منها ويصيرون من الخوف إلى الحال التي وصفها ، ثم أبان ذلك ، لأن عذاب الله شديد ، فصح ان الزلزلة الموصوفة بالعظم انها تكون يوم التقدير والجزاء والله أعلم .

وأما قوله : ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ﴾

فانه يحتمل وجهين : احدهما . ان يكون ذلك مثلا ، أن يكون يوماً لا يهم أحداً فيه إلا نفسه ، والحامل تسقط من مثله كما تسقط الحوامل من الصيحة الشديدة من طلب السلطان ونحوه . فانما أريد بذلك على ان الهول يكون عظيماً والخوف شديداً .

والوجه الاخر : ان يكون ذلك حقيقة لا مثلا ، ويكون المعنى ان من كانت محشورة مع ولد رضيع ، فانها إذا رأت هذه الزلزلة ذهلت عن ولدها ، ومن حشرت حاملا وضعت حملها .

ثم يحتمل ان يحيي الله كل حمل كان قد أتم خلقه ، ونفخ فيه الروح ويسويه ويعدله ، فان الام تذهل عنه ، ولو لم تذهل ما قدرت على ارضاعه ، لانه لا غذاء لها يومئذ ولا لبن ، واليوم يوم الحساب والجزاء لا يقبل من أحد فيه عذر ولا علة ، فكيف والاشتغال بالولد ما عليها من الحساب ، وهي بصدده من الجزاء.

واما كل حمل لا ينفخ فيه الروح قط ، فانه إذا سقط صار مع الوحوش تراباً ، ولم يبدأ حياة ، لأن اليوم يوم الإعادة فمن لم يمت في الدنيا لم يحيى يومئذ والله أعلم .

وقد قال الله عز وجل : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ، فيذرها قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ، وحشرناهم ﴾ (٣) ،﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ (٤) .

---

(١) الحج : ٢ (٢) طـه : ١٠٥
(٣) الكهف : ٤٧ (٤) النمل : ٨٨

وقال : ﴿ وسيرت الجبال فكانت سراباً ﴾ (١) .
وقال : ﴿ وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت ﴾ (٢) .
وقال : ﴿ أذا رجت الأرض رجاً ، وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً ﴾ (٣) .
وقال : ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ (٤) .
وقال : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ (٥) .
وقال : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ (٦) .

فصـــل

انها تبدل ، بمعنى ان اعراضها وصفاتها تغير ، فانها ذات جبال وتلال وروابي وأكام، وأودية ووهاد ، وغدران وأشجار وبنيان ، فتزال هذه كلها ، ويسوي بعضها ببعض ثم تمد مد الأديم ، فتزيد بذلك سعتها ، فتتمكن الخلائق من الأولين والآخرين من الوقوف عليها ، وعلى هـذا معنى قوله عز وجل : ﴿ وإذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت ﴾ (٧) .

فيكون ذلك من جملة تبديلها ، لانها إذا كانت مشرفة على ان تضيق باهلها ، فمدت حتى وسعتهم ، فقد غيرت . إلا ان ذلك تغيير الأعراض ، دون قلب العين .

وأما قوله عز وجل : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ (٨) فليس معناه انها تجعل شيئاً آخر سوى الارض ، فيكون مكان الارض مرفقاً ليس بأرض . وانما هو انها تهيأ هيئة أخرى ، حتى تكون في المنظر غير هذه التي يشاهدونها ، وهو الرجل بغير خلقه وسيرته مع صديقه ، فيقول تبدلت وتغيرت ، ولست الرجل الذي كنت ، والله أعلم .

وأما الجبال فقد وضعها الله تعالى بصفات مختلفة فيما ترجع إلى الجبال منها ، ومجتمعة فيما ترجع إلى الارض ، لانها كلها تعود تفريغ الارض منها ، وابراز ما كانت تواريه من محلها حتى يبرز وينكشف .

---

(١) النبأ : ٢٠ — (٢) الانشقاق : ٣ — (٣) الواقعة : ٤
(٤) القارعة : ٤ — (٥) ابراهيم : ٤٨ — (٦) الكهف : ٨
(٧) الانشقاق : ٣ — (٨) ابراهيم : ٤٨

فاما تلك الصفة فمنها الاندكاك ، ومنها تصير كالعهن المنفوش ، ومنها ان تصيرهباءاً منبثاً ، ومنها ان تسف ، ومنها ان تمر مر السحاب ، ومنها ان تسير فتكون سراباً . فيحتمل — والله أعلم — ان يكون أول أحوالها الاندكاك ، وذلك من قبل الزلزلة .

والحال الثانية ان تصير كالعهن المنفوش ، وذلك إذا صارت السماء كالمهل ، وقدجمع الله تعالى بينهما في موضع فقال ﴿ تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ﴾(١).

والحال الرابعة : أن تنسف لأنها مع الاحوال المتقدمة بارزة في مواضعها، والارض تحتها غير بارزة ، فتنشق عنها لتبرز ، فإذا انشقت فبإرسال الرياح عليها .

والحال الخامسة ان الرياح ترفعها عن وجه الارض ، فتذرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار فمن نظر اليها من بعد حسبها ليحسبها اجساداً خامدة ، وهي بالحقيقة مارة ، إلا أن مرورها مرور الرياح مندكة متنقبة .

والحال السادسة ان تكون سرابا يعني لا شيء ، فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً منها ، كما ان من يرى السحاب من بعد إذا جاء الموضع الذي كان يراه فيه لم يجد شيئاً، والله أعلم .

فصـــل

قد وصف الله تبارك وتعالى هذا اليوم بأن العشار تعطل فيه ، كما وصفه بان كل مرضعة تذهل فيه عما أرضعت ، ومعنى ذلك — والله أعلم — أنهم إذا قاموا من قبورهم وشاهدوا بعضهم بعضاً ورأوا الوحوش والدواب محشورة ، وفيها عشائرهم التي كانت أنفس أموالهم، لم يعبأوا بها ولم يهمهم أمرها ، ويحتمل تعطيل العشار ، وابطال الله تعالى أملاك الناس عما كان ملكهم اياها في الدنيا وأهل العشار يرونها لا يجدون اليها سبيلا والله أعلم .

فصـــل

ووصف الله تعالى هذا اليوم بان البحار تسجر وتفجر منه ، فقال في سورة : ﴿ وإذا

(١) المعارج : ٨

البحار فجرت ﴾ (١) . وقال في آية أخرى : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ (٢) . فقيل : إن معنى سجرت وفجرت واحد . وقيل : معنى سجرت أحميت . فمن قال معنى سجرت وفجرت واحد ، قال يحتمل ذلك وجهين : أحدهما ان الارض والجبال إذا حملتا ودكتا فقد يمكن أن تصير فيها أخاديد عظيمة تفجر اليها مياه البحار .

وقيل : معنى فجرت ، تفجر بعضها في بعض ، وترتفع الحواجز التي بينهـــا اليوم ، وأي واحد من هذين ، قيل : فإن مرجعه إلى ان البحار إذا اخليت من المياه ، أبرز مكانها نار مخلوقة تحتها ، ملأت البحار ملء المياه إياها ، وذلك هي جهنم . وأرض البحار أطباق لها ، فإذا كشف الغطـاء برزت ، فذلك قوله : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ (٣) وأما من قال : سجرت ، أحميت ، فإنه يقول : معناه ان البحار تقلب ناراً وكذلك عند تكوين الشمس كما سنبينه .

وجاء عن النبي ﷺ انه قال : (لا يركبن أحد البحر إلا حاجاً أو معتمراً ، أو مجاهداً في سبيل الله ، فان تحت البحر نار ثم بحر ثم نار حتى عد سبعة أبحر (٤) وليس المعنى في السبعة أنها محاذية تحاذي الاطباق ، ولكنه ان كل بحر من البحار التي على وجه الارض تحته نار . ثم العطف ها هنا لا للترتيب .

وروى يعلى ابن امية قال : قال رسول الله ﷺ : (البحر هي جهنم) (٥) فقيل له في ذلك فقال : (نار أحاط بهم سرادقها) ثم قال يعلى : لا تصيبني منه قطرة حتى أعرض على الله ، ولا أدخله حتى ألقى الله . وهـــذا إلى قول من يقول : ان البحر تقلب ناراً أقـــرب .

وقد قيل في معنى قوله عز وجل : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ (٦) قلبت ، وقد يحتمل أن تنشف ارضها الماء ، فكان الماء ناراً ، ويحتمل أن تقلب المياه نيراناً ، ويزداد فيهـــا فيزداد أمثلا والله أعلم .

---

(١) الانفطار : ٣ (٢) التكوير : ٦ (٣) النازعات : ٣٦
(٤) لم يرد الا في سنن أبي داود « كتاب الجهاد » باب ٩
(٥) لم يرد هذا الحديث إلا في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٤ ، ص ٢٢٣ .
(٦) التكوير : ٦

فصـــل

وقد وصف الله عز وجل هذا اليوم بأن السماء تنشق منه ، وتكور الشمس فقـــال عز وجل : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ (١)

وقال : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان . فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان (٢) .

وقال : إذا السماء انشقت (٣) .

وقال : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ وفتحت السماء فكانت أبوابا ﴾ (٦)

وقال : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ﴾ (٨) .

وقيل ان السماء انما تنشق لما يخلص اليها من حر جهنم ، وذلك إذا بطلت الميـــاه، وبرزت النيران ، فأول ذلك أنها تصير حمراء صافية كالدهن . وتنشق لما يريده الله تعالى من نقص هذا العالم ورفعه .

وقيل : ان السماء تتلون فتصفر ثم تحمر، أو تحمر ثم تصفر كالمهرة الورد في الربيع إلى الصفرة . فإذا اشتد البرد مالت إلى الحمرة ، ثم بعد ذلك إلى الصفرة . والله أعلم .

وقيل : ان الجبال بعد اندكاكها ، انها تصير كالعهن من حر جهنم ، كما تصير السماء من حره كالمهل . وهذا — والله أعلم — لان مياه البحر كانت حاجزة بين جهنم وبين السموات والارضين ، فإذا ارتفعت وزيد مع ذلك في احماء جهنم أقرب في كل واحد من السمـــاء والجبال ما ذكرنا والله أعلم .

---

(١) الفرقان : ٣٥ — (٢) الرحمن : ٣٧ — (٣) الانشقاق : ١
(٤) الانفطار : ١ — (٥) المرسلات : ٩ — (٦) النبأ : ١٩
(٧) التكوير : ١ — (٨) الانفطار : ١

وقد قيل في قوله عز وجل : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ (١) أذهب ضوؤها حتى تصير هي والقمر كالخاسفين ، فذلك قوله : ﴿ وخسف القمر وجمع الشمس والقمر ﴾(٢) وقيل : كورت : لفت . وقيل : تلف ثم تلقى في البحار ، فمنها يحمي وينقلب ناراً ويحتمل ان كان هذا هكذا ، إن البحار في قوله بين فقد فسر التسجير بالامتلاء . مما هو ان النـــار حينئذ تكون أكثر ما كان الماء ، لان الشمس أعظم من الارض مرات كثيرة . فإذا كورت والقيت في البحار ، فصارت ناراً ، ازدادت امتلاء والله أعلم .

وأما الكواكب بعد انتشارها فليس في شيء من اخبار المسلمين ذكر لهـا يكون من حالها . وفي بعض كتب الأقاويل ان الكواكب في النشأة الثانية تهبط سفلا وتحيط بالأرض كالدائرة ، وتلهب ناراً فتتلقاها الأنفس الشريرة . فقد يحتمل ان كان ما وصفوه مأخوذ عن شيء ، فان الكواكب إذا انتثرت سقطت في البحار فصير معها سرابا ، وإذا ذهبت المياه برزت الجحيم فتتاثرت الكواكب ، سقطت في النيران والتهب منها .

وقد أخبر الله عز وجل ﴿ ان السموات يوم القيامة مطويات بيمينه ﴾(٣) وقال : ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾(٤) ويحتمل انها اذا وهت كما قال عز وجل : وانشقت السماء فهي يومئذ واهية (٥) ، ان الملائكة يطودنها بامر الله جل ثناؤه طيـاً شديداً لئلا تعود فتنتشر ، كما يطوي الرجل ما يكون مكتوباً فيه من ذكر حكم مبرم أو غير مبـالغة في صيانته عن أن ينشر فيلحقه من الانتشار خلل ، ولذلك قال عز وجل بيمينه ، فان كل عمل عمله العامل بيمينه كان أشد وأوفى من الذي يعمله بيساره ، إذ اليمين أقوى من الشمال فضربت اليمين مثلا لشدة الطي ، والله أعلم .

وكلما طويت سماء نزلت ملائكتها إلى الأرض كما قال عز وجل : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ، ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ (٦) .

وقيل ان معنى قول الله عز وجل : ﴿ وفتحت السماء فكانت أبوابا ﴾ (٧) . هو انها تفرج بعد ان لم يكن لها فرج وتفتح لها أبواب وتنزل فيها الملائكة .

---

(١) التكوير : ١ — (٢) القيامة : ٨ — (٣) الزمر : ٦٧
(٤) الانبياء : ١٠٤ — (٥) الحاقة : ١٦
(٦) الفرقان : ٢٥ — (٧) النبـأ : ١٩

وقيل : انها تصير الفروج لها والأبواب من قبل السقف والله أعلم .

ودل القرآن على ان الملائكة يومئذ يكونون من بين النـــاس أجمعين ، وانهم يسوقون الكفار إلى النار ، ويلقونهم فيها ، ويعذبونهم من حيث يرونهم ، فانه عز وجل قال حكاية عنهم : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا، لقد استكبروا في انفسهم وعتوا عتـــوا كبيراً ، يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ، ويقولون حجراً محجورا ﴾ (١) فابان انهم يرونهم يوم القيامة .

ووردت الأخبار بان الناس في قيامهم يعرفون حتى يبلغ الرسخ انصاف آذانهم ويسيل عنهم سبعين ذراعاً ، فقيل ان ذلك من شدة الحر . فيحتمل أن يكون ذلك بثني الأفلاك وانحلالها . وأجمعت الأقاويل على ان الفلك المحيطة بالاملاك نار محضة .

وفي أخبار المسلمين ان فوق السموات ناراً ، وإن لم يكن فيها انه فلك ، وان اسمهــا الأثير ، كما سماه الذين ذكرناهم به ، فان كان ذلك مأخوذاً لهم عن شيء ، فتلك النار من جملة هذا العالم ، لا فرق بينهما وبين سائر الأفلاك وغيرها من اجزاء السموات والكواكب ، فلا يخلو من أن يلحقها ما يغيرها عن حالها الأولى ، كما يلحق غيرها من ابعاض العالم .

وإذا كانت الكواكب منيرة ، فتشبه ولا تبعد بقطع تلك النار وتنزل سفلا ، فيجمع بينهما وبين نار جهنم ، كما جمع زمن الطوفان ، بين ماء السماء وماء الأرض . قال الله عز وجل : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا ﴾ (٢) فالتقى الماء على أمر قد قدر .

وإن كان هذا كما وصفنا ، فقد يمكن أن يكون اشتقاق السماء من انهـــا إذا وهت وانحلت تدانت ودنت الغالبة منها بعد ان كانت شديدة البعد حداً فتكون بغيرها من هذا الوجه لا من النار التي تكون في السفل والله أعلم .

ثم تكون الحمله — والله أعلم — في بعث الناس قبل هذه الكوائن، ان يشاهدوها فيكون ذلك اشد لتكذيب الذين كانوا يقولون في الدنيا ان هذا العالم لم يزل على ما هو عليه ، فلا يزال على ذلك أيضاً .. وتصديق الذين كانوا يؤمنون بانقضائه وزواله ، إذ العلم يقع للفريقين

---

(١) الفرقان : ٢١ - ٢٢ (٢) القمر : ١١

بذلك ضرورة ثم يكون حجة للمؤمنين على الكافرين ، أمر الله عز وجل ثناؤه نبيه ﷺ ان يقول : ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون ﴾ (١) .

فصل

ووردت الأخبار بان الناس يطول عليهم القيام في ذلك اليوم ، فانه يوم القيام وقد وصفه الله عز وجل بذلك ، فقال : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ (٢) . ويحتمل أن يكون معناه يوم القيام صرعة الموت ، ويحتمل أن تكون تسميته للمعنيين جميعاً .

فإذا ضجروا وجهدوا سألوا أباهم آدم صلوات الله عليه : أن يشفع إلى الله جل ثناؤه، فيقضي فيهم قضاؤه ، فيحيلهم على نوح ، ونوح على إبراهيم ، وابراهيم على موسى ،وموسى على عيسى ، وعيسى يحيلهم على محمد ﷺ أجمعين . فيسجد نبينا المصطفى تحت العرش ، ويحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ، ولا يزال ساجداً إلى أن يقال له : ارفع رأسك ،وسل تعطى واشفع تشفع . فيسأل الله تعالى أن يحاسب عباده ويقضي فيهم قضاءه . فيأمر الله جل ثناؤه عند ذلك ان يحضر النبيون وكتاب الأعمال ، وهم الكرام الكاتبون والمعنيون بالشهداء في قوله تعالى : ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ ، فحوسب الناس ، ما تنطق بهم كتبهم ووريت لهم الأعمال ، فيقضي بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين.

فصل

ثم الذي أوجب أن يكون الإعتراف بالحساب من شعب الإيمان ان الله عز وجل ذم الكفار بانكارهم إياه ، وتكذيبهم به ، فقال : ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا ﴾(٣)وقال: ﴿ ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ (٤) فكان ذلك نظر ذمة جل ثناؤه إيام بانكارهم البعث في قوله : ﴿ زعم الذين كفروا انلن يبعثوا قل:

---

(١) الزمر : ٤٦
(٢) المطففين : ٦
(٣) النبأ : ٢٧
(٤) ص : ٢٦

بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما علمتم . وذلك على الله يسير ﴾ (١) .

فلما كان التكذيب بالحساب كفراً ، ذلك على ان الاعتراف بالحساب من الإيمان ، كما ان التكذيب بالبعث لما كان من الايمان كان الاعتراف بما كان الخلق لأجله ، وهو الطاعة والعبادة والتزام ذلك وتقبله من الايمان والله أعلم .

وإنمـــا عددت الحساب والميزان بيعة واحدة ، لأن المحاسبة تكون بالاعمال ، وتميز الاقل والاكثر من الطاعة والمعصية ، وإنما يكون بالوزن، فلم أرلتمييزالوزن عنالحساب وجهاً ، فعددتها بيعة واحدة . والله أعلم.

فصـــل

وقال قائل من السفهـــاء الملبسين بالحكماء : أخبرونا عن الكرام الكاتبـــين أين يجلسون ، وعلى ماذا يحيطون ؟ وماذا يكتبون ؟ وان دخل أحد الخلاء ، فهل يدخلون معه ؟ وقد رويتم : لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب أو صورة ، فان كان هذا حقاً فليربط من يريد ان لا تكتب أعماله في بيته كلباً ، أو يعلق ستراً فيه صورة ، فيـــأمن بذلك من أن تنسخ أعماله ولا شيء أحب إلى الاحياء من الحياة ، وأنتم تتلون : ﴿ قـل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾(٢) .

فما الذي يمنع أحدكم من اقتناء الكلب في بيته ، لينفر به ملك الموت عن نفسه،فيبقى في الدنيا خالداً ولا يخرج منها أبداً !

فالجواب – وبالله التوفيق – ان الملائكة لا يدخلون بيتاً فيه كلـب أو صورة . هم الذين يدخلون بيوت الاخيار للدعاء لهم والترتيل عليهم والاستماع إلى ذكر يجري فيـه ، والبيت لقلوبهم في الحال التي يحتاجون إلى ذلك فيها ، فان هؤلاء إذا وجدوا أخـذ من ذكرنا خالف ما يليق بطريقه إلى ما لا يليق بها ازور عنه ، ولو وجوده يقني كلباً ، وقد نهى عن اقتنائه، لم يدخلوا عليه لأن الكلب فيه شيئان : احدهما سبع عاد إلى أن يكون

---

(١) التغابن : ٧

(٢) السجدة : ١١

معلماً مطواعاً لصاحبه ، واقتناؤه سوء نظر من يقتنيه لنفسه ولجيرانه ، ولمن يدخل عليه ويخرج من عنده .

والاخر انه يحبس لا يؤمن ان ينجس إناء أو بساطاً أو لباساً أو طعاماً أو شراباً من حيث يشعر به صاحب البيت أو من حيث يشعر به ، وكذلك ممن يدخل عليه أو يخرج من عنده من بيوت الجيران ، وباب البيت والممر كان امساكه ، وفيه هذان المعنيان . فإذا رأت الملائكة ذلك من احد اجتنبوه ، لانهم يعدون ذلك حدثاً أحدثه صاحب البيت مما لا يرضي الله تعالى . وكذلك الصورة لان تصوير ذوات الأرواح حرام.

وجاء عن النبي ﷺ : « ان المصورين يعذبون يوم القيامة ، ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم »[1] ، وذلك لان المصور يريد ان يضاهي بتصويره خلق الله عز وجل ، وهذا أعظم والملائكة أخوف لله تعالى من ان يصبروا على مثله . فلذلك ينصرفون عن بيت فيه التصاوير ولا يدخلونه لحظ من الخير يكون لصاحب البيت في دخولهم إياه .

فأما الملائكة الموكلون بنسخ الاعمال وقبض الأرواح ، فانهم لا يمنعون من دخوله بيت أحد يحدث قبيح يحدثه فيهم ، لكنهم ينتهون إلى ما هم ما يتورون به ويبلغون فيه رضى الرب جل ثناؤه .

ومثل هذا في ما بيننا مما لا يستنكره أحد من العقلاء موجود ، فان الخير من الناس قد يغشاه الاخيار متبركين بمجالسته ، متكثرين بصداقته ، فان ظهر لهم منه ما يكرهون ، انقبضوا عنه وتركوا غشيانه ، ولكن المحسنين واخوانهم يأتونه بل يهجمون عليه، مقومين إياه ورادعين له عن سوء صنيعه ، ويدخله أحوال المسلمين ، فيخرجونه ليقيموا عليه حداً ان كان لزمه ليحاسبوه .

فلذلك الملك لئن لم يدخل بيتاً فيه كلب أو صورة لينتفع بدخوله صاحب البيت ، فقد يدخل بيته ليحصي أعماله ، أو ينزع روحه ، لا يمنع أحد به معصية الله باقتناء الكلب أو نصب الصورة الملك من دخوله بيته لامر يكون عليه ، وان منع من دخوله لحظ عن الخير يكون له ويرجع إليه ، كما يمنع افساد صاحب المنزل ، فيلجأ الناس من أن يدخلوا

---

(١) لم يرد الا في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ، ص ٤

منزله مؤاخين إياه ، متوددين إليهم . ولا يمنعهم من ان يدخلوه منكرين ومغرين عليه، أو مطالبين بحق ربه وبالله التوفيق .

وأما ان الملائكة لا تصحب رفقة فيها كلب أو جرس ، فلأن الكلب سبع عاد محرم الاقتناء إلا لصاحب صيد أو ماشية ، لا تدفع لصغرها وضعفها السباع عن أنفسها وهي الغنـــم .

فان أراد الناس ان يحترزوا من عوائل أصغارهم بها هذا سبيله ، لم يطلبوا من الله تعالى ان يبعث معهم ملائكة يحرسونهم ويحفظونهم . والجرس تسكن إلى صوته الابل ، ويقال ان الجن كلها تميل إلى أمثاله وتجتمع عليه والابل فيها مغان من الجن ومن ذالـــك يكون نفارها في كثير من الأوقات بلا سبب ظاهر يعرف ، او من شيء لا يليق بها على مـــا هي عليه من الشدة والقوة ان تنفر منه .

فان ما يحمل ذلك منها على ان الشياطين تعرض لها وتستهويها فتنفر وتميل إليها بالمشاكلة التي بينها خاصة دون سائر الدواب .

فان كان هذا هكذا فان تعليق الاجراس، كاستدعائهم وتآلفهم وجمعهم ، وهم بالحقيقة أحد المسلمين ، فمن آثر لنفسه هذا في سفره كان حقيقاً لكن لا يقيض الله تعالى لحراسته ملائكته وأولياءه الا ان هذا لا يمنع الموكلين بهؤلاء السفر من ملائكة الله تعالى أن يكتبوا عليهم أعمالهم ، لكنهم في حال المعصية أولى بالتضييق عليهم منهم في حال الطاعة ، وان يقبضوا أرواحهم إذا جاءت آجالهم ، فان المقيم على ما يرضاه الله تعالى أولى أن لا يمهـل ولا يؤجل عن أحد أجله من المتمسك بالطاعة والله أعلم .

فان قيل : وما فائدة المسلمين في صحبة الملائكة إياهم.

قيل : فائدتهم إذا لزموا الطاعة لله تعالى ان تثبت الملائكـــة قلوبهم ، فلا يحلوا ولا يضيعوا بالحل والترحال والسير بالليل والنهار درعاً ، ولا تنفر دوابهم لمعارضـــة الشياطين إياها ، ولا يصلوا عن سوار فيه من الهوام والسباع واللصوص ، ان حضروا سراً ليعلمهم، فلا يقدروا على الاضرار بهم أو حضورهم جهداً ، ليجهدوا ولا يصلوا إلى مرادهم .

ولعل لهـــم من الخير في ذلك ما لا يحضر ذكره ولا يعلمه إلا الله تعالى وبالله التوفيـــق .

واما قول القائل : ان الكرام الكاتبين ، هل يدخلان الخلاء بدخول وكلائه إياه ؟

فجوابه : انه لا علم لنا بهذا ، **ونقول في الجملة** : ان كانا مأمورين بالدخول معه دخلا، وان كان الله تعالى يكرمهما عن ذلك ويطلعهما على مـــا يكون من الداخل مما سبيله أن يكتباه لئلا يغفلا عنه وينسخاه،فعلا ما يؤامران به . وليس في خفاء ذلك عابناما يوجب قدحاً في ديننا ومقالتنا .

وأما قوله : أين يجلسان ، فان الله عز وجل يقول : ﴿ وإن عليكم لحافظين كرامـــاً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ﴾ (١) . وقال : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (٢) .

والمعنى عن اليمين قعيد وقد يعلم في الجملة ان الملائكة حيث هم من السماء والارض حالا في الاستفزاز يكونون عليها خلاف الحال الذي يكون لهم إذ كانوا مثقلين ذاهبين وحابين أوصافهم حول العرش مستحين قبل الحال التي تكون لهم إذا رحلوا بهـم ، فيفرقوا في جوانبهم . وتلك الحال ان كانت نحوا من قعود الناس ، وإلا فأنتم القعود لها ، مستعـار وبالله التوفيق .

واما قوله: انهم بماذا يكتبون وعلى ماذا يخطون، **فجوابه** : ان لا علم لنا بذلك ونقول في الجملة : إنهم يكتبون على شيء يحتمل الطي والنشر ، لقوله الله عز وجل ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ (٣) .

وان الله الذي خلقهم وخلق غيرهم لا يعجزه ان يخلق لهم بتنوير الجلود والقراطيـس وما يكتب عليه الناس شيئاً يخطون عليه ، اما بقلم يخلقه بتنوير الاقلام التي يخط بهـــا الناس ، واما بشيء كالقلم بمداد أو بغير مداد ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

---

(١) الانفطار : ١١ (٢) ق : ١٧ (٣) الاسراء : ١٣

التاسع من شعب الايمـــان

وهو باب في ان دار المؤمنين ومآبهم الجنة ودار الكافرين ومآبهم النار

قال الله جل ثناؤه : ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئه ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيهـــا خالدون ﴾ (١) .

وقال فيما وصف يوم القيامة : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد. فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك ، فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مـــا دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ (٢) .

وقوله جل ثناؤه : ﴿ الا ما شاء ربك فيه وجهان : ان الله تبارك وتعالى لما أخبر عن اليوم الموعود بان الذين شقوا ففي النار ، والذين سعدوا ففي الجنة . كان الذي يقتضيـه هذا الظاهر أن دخول كل واحد من الفريقين الدار المعدة لهم يقترن باتيان اليوم الموعود . فقال جل ثناؤه : ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ من وقفهم حيث كانوا فيه إلى ان حوسبوا ووزنت أعمالهم ، وسيق كل فريق منهم إلى حيث قضى له لئلا يعارض الخبر المقدم خلق .

ومن قال بهذا قال : ان قوله ما دامت السموات والارض ، لم يرد به انهم يبقون حيث ذكر وسمي قدر ما بقيت السموات والارض ، لان التوقيت ينافي الخلود ، وإنما ذلـــك عبارة عن طول مدة بقائهم ، فضرب للمخاطبين مثل ذلك بهذه بقاء السموات والارض ، إذا لم يكن فيما يعلمونه من خلق الله جل ثناؤه ، ويعرفون حاله أطول بقاء منها ، ولم يكن في جملتها شيء ، اخبروا أنه ليس بمنقض ، فيضرب لهم مثل الجنة والنار .

---

(١) البقرة : ٨١ (٢) هود : ١٠٥

فهذا القدر هو المراد لان بقاء أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار كما يتبين إلى وقت ثم ينقضي ، لكنه دائم باق ولا انقضاء له والله أعلم .

والوجه الآخر : ان المعنى خالدين فيها ما دامت السموات والارض إلا ما شاء ربك من الزيادة عليه .

ألا ترى انه قال في أهل الجنة ﴿ عطـــاء غير مجذوذ ﴾ أي غير مقطوع ، فلو كان المعنى انهم يقيمون قدر ما دامت السموات والأرض ثم يخرجون ، لكان العطاء مجذوذاً . فلما أخبر انه غير مجذوذ علمنا ان معنى الاستثناء ما ذكرنا والله أعلم .

قال بهذا ، قال إلا بمعنى سوى ، وذلك يحسن إذا كان المستثنى أكثر من المستثنى منه كرجل يقول : لفلان علي ألف درهم الا الألفين التي هي إلى سنة ، فيكون المعنى سوى الألفين .

وعلى هذا يكون قوله تعالى في أهل النار : ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ [١] بمعنى انهم خالدون في النار ما دامت السموات والارض سوى ما شاء ربك من الزيادة على ذلك فلا يتعاظمنكم ذلك من أمره ، فانه يفعل ما يريد ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . ويحتمل أن يكون ذكر مده السموات والأرض في هذا الوجة إشارة إلى ان الآخرة لا تتقـــدر بمقدار الدنيا ، ولكنهم ان استوفوا في الجنة والنار مدة العالم المقتضي ، فلا الجزاء الذي لقوه منقض ، ولا المآب الذي أعد لهم منقض ، ولكن هذا كله دائم والله أعلم .

فإذا ظهر ان مآب المؤمنين الجنة ، ومآب الكافرين النار ، وقد قال عز وجل: ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ (٢) ﴿ كلا إن كتاب الابرار لفي عليين ﴾ (٣) .

وكان المعنى ما كتب لهؤلاء علمنا ان السجين خلاف العليين ، كما ان الفجار خلاف الابرار ، وسمى الله عز وجل النار هاوية ، ووصف الجنة بانها عالية ، وجاء في الميزان : روح المؤمن تعلى به ، وان روح الكافر تهوي به ، ولم نعلم أحداً قال : ان الجنة في الارض ثبت ان الجنة فوق السموات ودون العرش .

واحتمل قول الله عز وجل : ﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ (٤) انها تكشط عما وراءهـــا

---

(١) هود : ١٠٧
(٢) المطففين : ٧
(٣) المطففين : ١٨
(٤) التكوير : ١١

من الجنان فتظهر آثارها . وان يكون ذلك أولى بها في قوله عز وجل: ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ (١) وقد قالت الأوائل : ان فوق السماء عوالم لا يقدر المناطقة على أن يصفوا حسنها ، وإليها تشتاق العقول .

وهذه إشارة منهم إلى الجنان ونعيمها ، وان لم يسمعوا باسمائها . وفي كتاب الله عز وجل : ﴿ عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ﴾ (٢) وفي بعض الأخبار : ان جنة عدن تحت ظلال العرش وفي قول الله عز وجل بعد قوله ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ (٣). ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ (٤) دلالة على ان الجنان في العلو ولذلك يكون بعضها دون بعض والله أعلم .

وأيضاً فقد تتابعت الأخبار بذكر الصراط وسمي في بعضها جسر جهنم فعلمنا بهذا ان الجنة لا في الارض ولا عند نهايتها ذائبة منها . إذ لو كانت كذلك لم يحتج الصائر إليها إلى جسر يجتاز منه إليها . وفيما وردت به الاخبار من هذا بيان انها في العلو كما ان جهنم في السفل والله أعلم .

وإذا كان الامر على ما وصفنا ، وكان الله تبارك وتعالى لم يهيء الناس هيئة من سفل إلى علو من غير سبب يتعلق به ، فيمسك قدميه ، احتاجوا في الانتقال من الارض إلى الجنة إلى سبب متصل من طرف الارض إلى طرف الجنان ، فكان ذلك هذا السبب هو الصراط الذي جاء به الخبر .

وروي انس رضي الله عنه ان النبي ﷺ قال : « ان على جهنم جسراً أعلاه نحو الجنة وخص منزله بجنبيه كلاليب ومسك من النار ، يجلس الله تعالى به من يشاء من عبادة الزالون والزالات يومئذ كثير ، والملائكة بجنبيه قيام ينادون : اللهم سلم ، ويعطون النور يومئذ على قدر ايمانهم وأعمالهم ، فمنهم من يمضي عليه كلمح البرق ، ومنهم من يمضي عليه كمر الريح ، ومنهم من يحصر عليه كحصر الفرس السابق ، ومنهم من يشد عليه شداً ، ومنهم من يهرول ومنهم من لا يعطى نور إلا قدر قدميه ، ومنهم من يحبو حبواً ، وتأخذ النار منه بذنوب أصابها ، وهي تحرق من شاء الله منهم على قدر ذنوبهم حتى تنجوا أول

---

(١) الشعراء : ٩٠
(٢) النجم : ١٤
(٣) الرحمن : ٤٦
(٤) الرحمن : ٦٢

زمرة سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب ، كأن وجوههم القمر ليلة البدر . ثم الذين يلونهم كاضواء نجم في السماء حتى يخلصوا إلى الجنة برحمة الله » (١) .

وفي بعض الروايات في هذا الحديث «ان الصراط أدق من الشعر ،وأحد من السيف»(٢) والمعنى — والله أعلم — ان امر الصراط والجواز عليه أدق من الشعر ، ان يكون عسره على قدر الطاعات والمعاصي ، ولا يعلم حدود ذلك إلا الله تعالى جده لخفائها وغموضها ، وقد جرت العادة بتسمية الغامض الخفي دقيقاً ، وضرب المثل به بدقة الشعر ، فهذا والله أعلم من هذا الباب .

واما انه أحد من السيف ، فيكون معناه — والله أعلم — ان الامر الدقيق الذي يصله من عند الله تعالى إلى الملائكة في إجازة الناس على الصراط يكون في نفاد حدة السيف ومضيه ، اسراعاً منهم إلى الطاعة وامتثالا ، ولا يكون له مرد ، كما ان السيف إذا نفذ بحدة وقوة ضاربة في شيء لم يكن له بعد ذلك مرد .

فاما ان يقال : ان الصراط نفسه أحد من السيف وأدق من الشعر ، فذلك مرفوع بنفس هذا الحديث ، لأن فيه : « ان الملائكة يقومون بجنبيه ويقولون : اللهم سلم سلم » وفيه « ان فيه كلاليب ومسكا » وفيه « ان ممن يمر على الصراط من يقع على بطنه ، ومنهم من يزل ثم يقوم » وفيه : « ان من الذين يمشون عليه من يعطى النور بقدر موضع قدميه » وفي ذلك إثبات ان المارين عليه مواطىء الأقدام » ومعلوم ان دقة الشعر لا تحتمل هذا كله . وقد سألت أحد الحفاظ عن هذه اللفظة فذكر انها ليست ثابتة . فاما ان لا يشتغل بها ، واما ان يحمل على المعنى الذي ذكرنا والله أعلم .

فأما ما قيل في هذه الرواية : من ان أعلى الحسن نحو الجنة ، ففيه بيان أسفله نحو طرف الارض ، وذلك لما مضى بيانه من أن جهنم سافلة ، والجنة عالية . فاما نهاية الميزان وقدر بعد الجنة منها ، فلم يرد فيها شيء إلا ان الله عز وجل قال في سورة الشعراء ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ (٣) وقال في سورة ق : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير

---

(١) ورد في مسند الامام احمد بن حنبل جـ ٣ ، ص ٢٥ ، ص ٢٦

(٢) لم يرد الا في صحيح مسلم « الايمان » باب ٣٠٢ ، وفي مسند الامام احمد بن حنبل جـ ٦ ، ص ١١٠ .

(٣) الشعراء : ٩٠

بعيد ﴾ (١) . اخبر انه يقال لهم قبل أن يدخلوها : ﴿ هذا ما توعدون لكـــل أواب حفيظ ﴾ (٢) .

وفي ذلك دليل على انها تكون بحيث يمكن الاشارة إليها، فقد يحتمل - والله أعلم - ان السموات إذا طويت ادنيت الجنان من أهلها ، وذلك لان أبعادها قبل يوم الدين إنما يكون ليؤمن أهلها بها وهي غائبة ، ليس عندهم منها إلا الخبر عنهـــا ، فيستوجبوها بايمانهم بها .

فإذا كان يوم الدين جاء وقت الجزاء وكشفت الاغطية عنها ، اعني كشط السموات أدنيت أيضاً . كما تبرز الجحيم لأهلها بعد ان كانت محجوبة عن أبصارهم ولا يمكن أن يشار إلى مقدار دونها وهو أعلم بالحقائق ، ليس عندنا أكثر من أن الارض تمد مد الاديم ، فنزول استدارتها وتنقلب عن حالها فتكون يومئذ مسطحة ذات طول وعرض ، والجنان فوقها ولكن متنحية منحى مشارق سطح الدار عن الدار عن صحنها لان الله عز وجـل سماها غرفاً فقال : ﴿ وهم في الغرفات آمنون ﴾ (٣) وقال : ﴿ أولئك يجزون الغرفة بمـا صبروا ﴾ (٤) وقال : ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ﴾ (٥) .

وظاهر هذا انه عز وجل سمى جميع أبنية الجنة غرفاً ، فثبت انه سماها بذلك لاشرافها على مساكن الآخرين ، ولأنه أخبر ان من في الجنة وقد تطاع فيرى من يريد في ســواء الجحيم . وذلك كاطلاع من ينظر من طرف سطح أو لرأس جـدار إلى من في سطح الدار فـــيراه .

وقد أخبر الله عز وجل عن ذلك ان أهل الجنة ينادون أهل النار ، وأهل النار ينادون أهل الجنة .

وأخبر ان أصحاب الاعراف ينظرون إلى أهل الجنة مرة فيسلمون عليهم طمعـاً في في المصير اليهم والاختلاط بهم ، وإلى أهل النار فيستعيذون بالله من حـــالهم ، وإنما هم كالواقف على رأس جدار عال يشرف منه على غرفة منها قوم على مقيمون على سرور ولذة من وجه ، وعلى صحن كان فيها مأتم وبكاء وجزع من وجه .

---

(١) ق : ٣١ (٢) ق : ٣٢ (٣) سبأ : ٣٧
(٤) الفرقان : ٧٥ (٥) الزمر : ٢٠

فأهل الجنة العالية أصحاب الأعراف كأهل السطح الذين هم في السرور ، وأهل النار هم كأهل الصحف الذين هم في الغموم .

إلا ان بين الجنة العالية من الوجه الذي يشرف على الأرض والنيران السافلة حجابا ، وهو سور يضرب يوم القيامة ، والاعراف أعلى من هذا السور ، فلا يكون بين أهل الجنة وأهل النار تلاق ولا تقارب ، الا أن يكون تناد من أهلها إلى ملائكة الجنة ينادي أهلها إلى ملائكة العذاب ، وملائكة النار ينادي أهلها إلى ملائكة الجنة ، أو يقوى الله تعالى الأصوات والاسماع فيسمع أحد الفريقين مع بعد المسافة الآخر ، وهذا قبل أن يسلب أهل النار اسماعهم .

وإذا كانت البحار تسجر يوم القيامة فتكون هي جهنم والبحار في الأرض ، فقد صار بعض الأرض جهنم ، فلا يبعد أن يكون تبديل الله تعالى الأرض غير الأرض بعد ركوب الناس الصراط كما قال النبي ﷺ هو أن تقلب الأرض كلها نارا ، كما تقلب مواضع المياه منها نارا ، وأن يكون بقاء الأرض ترابا مدة فيها يحتاج اليها للقيام عليها . فإذا فرغت منهم صارت ناراً .

وقد قال بعض العلماء : إن الكفار لا يجازون على الصراط لأنهم في النار وهم في معدن النار إذا النار في الأرض فإذا خلص المؤمنون وحصلوا على الصراط وانفرو الكفار بمواقفهم صارت مواقفهم من النار ، فلم يلق مع ذلك باحوالهم أن يجازوا على الصراط ، وهذا القول يقرب ما قلناه والله أعلم بما هو فاعله.

وذكر وهب في كتابه : ان الله عز وجل إذا أراد أن يكشف عن سقر غطاها خرجت منها نار تفتق بالبحر المطبق على شفير جهنم ، واشتعلت في الأرض السبع فتركتها جمرة واحدة ، فقد يحتمل أن يكون شقها البحر قبل حساب الخلائق ، واشتعالها في الأرضين السبع لتصير جمرة واحدة بعد أن ركب المؤمنون الصراط ، فيرجع هذا القول الذي حكته والله أعلم .

وأما ما ذكر في هذا الحديث من الأنوار ، فقد قيل : ان ذلك انما يكون إذا أمر باهل الجنة إلى الجنة وباهل النار إلى النار ، فيتقدم المؤمنون ، وقد أعطى كل واحد منهم نوراً

بقدر عمله . والباقون في ظلمة شديدة من دخان جهنم ، فيقولون لهم : ارجعـــوا وراءكم فالتمسوا نوراً .

قال الله عز وجل : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ (١) فيحتمل - والله أعلم - ان هذا السور إنما ضرب عند انتهـــاء الصراط ، وينزل له باب يخلص منه المؤمنون إلى طريق الجنة ، فذاك هو الرحمة التي في باطنه .

وأما ظاهره فإنه يلي النار ، وإن كانت النـــار سافلة عنه لا محاذية إياه ، فاذا لم يجد المنافقون إلى باطن السور سبيلا الا أن يقذفوا من أعلى الصراط ، فيهوون منه إلى الدرك الأسفل من النار ، ولم يذكر الله تعالى في قصة النور الا المنافقين .

فقد يحتمل من قول من يقول ان الكفار لا يجازون على الصراط ، ان المنافقين يخصون بالاجازة عليه على معنى أن يحلوا واتباع المؤمنين ، ليظنوا انهم ينجون بنجاتهم، حتى إذا بلغوا الحد ميزوا عنهم ، فنادوا المؤمنين : ﴿ ألم نكن معكم ، قالوا : بـلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغـــرور ﴾ (٢) فيكون هذا مما أخبر الله تعالى انه فاعله بهم في قوله : ﴿ قالوا : انما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾ والله أعلم .

واختلف الناس في أصحاب الاعراف فقال قائلون : ﴿ انهم ملائكة يقومون عليها ، وينظرون إلى أهل الجنة مرة فيحيونهم ، وإلى أهل النار مرة فيبكونهم، ويحملهم مـــا يشاهدونه من سوء أحوالهم على الاستعاذة بالله تعالى منها وذلك بعيد من وجهين : **أحدهما** ان الله عز وجل قال: ﴿ وعلى الاعراف رجال ﴾ (٣) واسم الرجال لذكور العقلاء، والملائكة ينقسمون إلى ذكور واناث .

والاخر : انه تعالى أخبر عنهم انهم يقولون لأهل الجنة : ﴿ سلام عليكم ﴾ ، طامعين أن يدخلوها . والملائكة غير محجوبين عن الجنة ، الا ان تكون ملائكة العذاب ، ولئن كان منهم من ان لا يدخلها ، فانه لو دخلها ليتلذذ بنعيمها ، إذ التلذذ بما يتلذذ به الناس غير

---

(١) الحديد : ١٣ (٢) الحديد : ١٤ (٣) الأعراف : ٤٦

مركب فيهم . فيقال إذا لم يصل اليها انه يطمع أن يدخلها . وأيضاً فان الحيلولةبين الطامع وطمعه تستبق ولا عذاب يومئذ على ملك .

وقيل : انهم قوم قتلوا في سبيل الله لا انهم مع ذلك أصحاب كبائر ،فلم يدخلوا النار، الا ارواحهم ذهبت في سبيل الله تعالى ولم يدخلوا الجنة للكبائر التي وافوا القيامة بهـــا فيحبسهم الله تعالى بين الجنة والنار خائفين ، راجين إذا نظروا أهل الجنة ،قالوا ﴿ سلام عليكم ﴾ (١) مستعجلين بان يلحقوا بهم ، وإذا أشرفوا على النار، قالوا : ﴿ ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين ﴾(٢).

فيكون ذلك الخوف عقوبة لهم إلى ان يمن الله تعالى عليهم بالجنة . وقيل . انهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، لان الحسنات تحول بينهم وبـــين النار ، والسيئات تحول بينهم وبين الجنـــة ، فيحبسون هناك ما شاء الله عقوبة لهم على سيئاتهم ثم يدخلون الجنـــة .

وهذه حال قد بينا من قبل انها لا تكون ولا يمكن انها لا تكون ، ولا يمكن لانه لو جاز أن تستوي الحسنات والسيئات مع تقدير الحسنات باصلها وهو الايمان ، وانفـــراد السيئات عن الكفر لامكن أن تزيد السيئات على الحسنات حتى يكون ميزانها هو الثقيل وميزان الحسنات هو الخفيف ، ولو امكن أن يكون ذلك لم يدخل من كان هذا حـــالة الجنة أبداً ، لأن الوزن لم يظهر له حسنة قط إذا كان ميزان السيئات هو الذي يثقل ، ولا يوازي ثقلها من جانب الحسنات ثقيل أصلا .

ولو كان لا يجوز أن يكون مؤمن يخلد في النار،علمنا ان زيادةسيئات المؤمن على حسناته غير ممكن، وإذا نظرنا في ذلك وجدنا المعنى : أن مع حسنات المؤمن إيمانه الذي هو اصل الطاعات ، ولا يوازن الاصيل ما ليس بأصل

فاذا وجب هذا المعنى أيضاً : ان لا تساوي حسنات المؤمن سيئاته ، وان يكون أثقل ميزاني المؤمن ميزان حسناته ــ والله أعلم ــ الا ان يقول قائل : ان حسنات المؤمن سوى إيمانه ، وسيئاته قد يستويان ، ولكنه هذا إذا كان وضع الإيمان مع حسناته في الميزان

---

(١) الأعراف : ٤٦ (٢) الأعراف : ٤٧

فرجح . فيزول حينئذ استواء الحسنات والسيئات والله أعلم .

الا ان هذا فان كان هكذا ، فقد يجوز أن يكون أصحـــاب الاعراف قوماً كثرت سيئاتهم ، ولم يرد الله تعالى أن يحشرهم في النار وينالهم فعذبهم بحر النار وكربهاولم يسلطها على أجسادهم فيحرقها والله أعلم.

وأما قول الله عز وجل،ونادى أصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، قالوا : ﴿ ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ﴾(١) فانما هو انهم يقولون لقوم من أهل النار هذا فيقول لهم أهل النار في جواب ذلك وأنتم فما أغنى عنكم إيمانكم ، والله لا يألكم من الله رحمه فيكذب الله تعالى يمين أهل النار ويقول لهؤلاء : اقسمتم عليهم أي ومن أين أجزتم لانفسكم أن تحكموا على الله ، ثم يقول لاصحاب الاعراف : ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾(٢) والله اعلم .

ومما يدخل في هذا الباب قول الله عز وجل ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضياً ، ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ (٣) فقيل : ان الورود النظر لا الدخول ، الا ترى ان ورود الماء بلوغ مكانه والوقوف على طرفه لا حوضه ، ولا الشروع فيه ، وقد أخبر الله عز وجل انه يحصر الكفار حول جهنم جثياً ، والجثو حال المحاسبة ، كما قال عز وجل : ﴿ وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ (٤) .

فاذا كان موضع الحسنات حول جهنم ، وحيث يكون الصراط والمؤمنون والكافرون في ذلك سواء ، وذلك هو الورود على هذا الخارج قوله عز وجل ﴿ ثم ننج الذين اتقـــوا ونذر الظالمين فيهـــا جثياً (٥) أي تخريج وذلك على وجهين احدهما ننجي الذين اتقوا بان نباعد بينهم وبين النار ، ونأمر بالظالمين إلى النار ويذرهم فيها .

والاخر : ننجي الذين اتقوا من حول جهنم بالاجازة على الصراط ، وإذا اخرجناهم سلطنا النار على الظالمين الذين كانوا جثياً ، فاخذتهم على حال جثوهم بركبانهم ، فيها . وهذا على ان ذلك المكان يصير من جهنم بمزايلة المؤمنين إياه ، وإن الكفار يجـــازون على الصراط المستقيم ، والله أعلم ،

---

(١) الأعراف : ٤٨ (٢) الأعراف : ٤٩ (٣) مريم : ٧١

(٤) الجاثية : ٢٨ (٥) مريم : ٧١

وفيه قول آخر : وهو ان المؤمنين والكفار يجازون على الصراط والله أعلم ، وذلك ورود المؤمنين النار ، لان الصراط انما هو جسر جهنم ، وقد يلحق الذين يجوزون فيه من النار أذى .

فان كان من شرط الورود مس النار والورود ، فقد كان ذلك ، وإن كان لا يلحقهم أو بعضهم منها أذى ، فان ركوب جسرها الذي يلقي منه ما يلقى إلى النار ، وتختطف الكلاليب بعضهم حقيقة بأن يقال له ورود ذلك ، وذلك هو الذي أراد الله تعالى بهذه الآيـــة .

ومن قال هذا ولم يقطع بان الارض تصير أو شيء منها من جملة جهنم قـال الاشبه ان الارض تعدم إذا ركب الناس الجسر ، كما طويت السموات فكانت عدمـاً . والدليل على ذلك ان الله عز وجل سوى بين السموات والارضين في قوله خالدين فيها مادامت السموات والارض إلا ما شاء ربك ، فبان ان مدة الارض متناهية ، كما تكون مدة السماء متناهية ، ومن قال بالاول ، قال : مدة أرضها متناهية كما ان مدة سمائه والله أعلم .

فان قيل : جاء عن النبي ﷺ انه قال : (من مات له ثلاثة لم تمسه النار الا تحلة القسم) يعني قول الله عز وجل : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ (٢) وهذا يدل على ان الورود ليس هو التطرف ، فيكون الجواز على الصراط ، وحضور شفير جهنم عند المحاسبة جازيا عنه قبـــل .

قيل : اسمى مس النار كما قال أيوب ﷺ ﴿ إني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾(٣) أي عوضني . كذلك لأن مسه بالحقيقة وكما قال عز وجل : ﴿ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ، ولا هم يحزنون ﴾ (٤) . أي لا ينادون بسوء ولا يسوءهم شيء ، فيكون معنى تمسه النار ، أي ينادي بها .

وإذا كان هذا هكذا ، وقد أخبر الله عز وجل ان جهنم ﴿ ترمـــي بشرر كالقصر ، كأنه جمالات صفر ﴾(٥) ، وجاء الحديث انها ترمي زفرة لا يبقي ملك مقرب ولا نبي مرسل

---

(١) لم يرد إلا في مسند الإمام احمد بن حنبل ج ٢ ، ص ٢٧٦ .
(٢) مريم : ٧١ (٣) ص : ٤١
(٤) الزمر : ٦١ (٥) المرسلات: ٣٣

الا تهمه نفسه وانها إذا برزت غشيت أهل الجمع منها ظلمة شديدة ، وإن شررها يقع على رؤوس الخلائق ، فتكاد أفئدتهم تنخلع من الخوف إلى غير ذلك .

فليس يبعد أن يكون ورود المؤمنين جهنم ان يحضروا شفير جهنم للمحاسبة فيروها عين اليقين،وإذا أخذت تموج وتتأجج وترمي بشررها اشفقوا منها وإذا زفرت فرقوا من زفيرها ، وتغشاهم من ظلمتها ماء يغشي غيرهم . فيكون هذا مس النار إياهم دون اللذع والاحراق والله أعلم .

فان سأل سائل عما روينا ، وقال : كيف يجوز اثبات إلملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين تهمهم أنفسهم يوم القيامة مما يرون من الأهوال والشدائد والله عز وجل يقول فيمن دونهم من الأولياء : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ، أولئك عنها مبعدون، لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون . ﴾ (١) ويقول : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ (٢).

قيل له : ان المذكورين في هذه الاية يكونون آمنين من حيث يبشرون بالخير والنعمة ، ولكن لا ينكر انهم إذا رأوا هؤلاء لم يشاهدوها قط ، ولا خطرت على قلوبهم أن يغفلوا في ذلك الوقت عن الأمن الواقع لهم،ويغلب الخوف على قلوبهم ، فقد يحتمل أن يكون خوف الانبياء عليهم السلام في الحال التي ذكرتها من هذا الوجه .

وأما قوله عز وجل : ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ ، فالمعنى انهم لا يسمعون ما تفعله النار بأهله إذا حصلوا في الجنة ، وحصل أهل النار في النار . الا ترى انه قال على أثر هذا : ﴿ وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ (٣). فاما من قبل دخول الجنة فقد يسمعون زفيرها ، ويردون كثيراً من أهوالها والله أعلم .

فان سأل سائل : عن معنى إيراد الله تعالى جده المؤمنين جهنم .

قيل له : قد قال الناس في ذلك وجهين : احدهما أن يعلم المؤمنون بالعيان ما كانوا يخبرون عنه من شدائد بدار اعد الله تعالى جده الكفار من العذاب ، فإذا صاروا منها إلى

---

(١) الأنبياء : ١٠٠ - ١٠٣ (٢) النمل : ٨٩ (٣) الأنبياء : ١٠٢

الجنة كانوا أشهر بها وأقر عيناً ، وكانت في نفوسهم أعظم قدراً موقعاً .

والاخر ان الفريقين إذا جمعها بجمع واحد وهو شفير جهنم أو الصراط ، ثم ميز أحدهما عن الآخر ، وصير به إلى الجنان ، والاخر إلى النيران ان كانت الحسرة على الذين يصار بهم إلى النار أشد ، ومصيبته أقطع وأوجع . وقد يجوز أن يكونا معاً هما المراد .

فان قيل : فلمَ لا يرى أهل النار أهل الجنة ، كما يرى أهل الجنة النار ليعلموا ما الذي فاتهم وحرموه بالمعاصي أنفسهم ، فيكون ذلك أعم وأوجع لهم .

قيل : لان حريم الجنة وحريم النار كالنار ، فلما كانت النار يخرج منها عصاة المؤمنين ، ولا يخلدون فيها ، صلح إيراد المؤمنين شفيرها ليروها ، ويعاينوا أحوالها ، ثم ينقلوا عنها . ولما كانت الجنة لا يخرج منها دخلها لم يلق بها ان يورد الكفار حريمها فيستنشقوا رائحتها ويشاهدوا نعيمها ثم ينقلوا عنها .

فصل

فان قال قائل : كأن جهنم هو البحر ، فما يبقى قوله عز وجل: ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ [1] . فان كانت النار في أسفل كما وصفهم فاجازة الكفار على الصراط لأي سبب ؟

قيل له : ان من قال . ان الكفار يركبون الجسر ، فقد يخرج عن قوله ان تكون أبواب جهنم في الجسر فروجاً ، فيه أشباه أبواب السطوح ، فهم يقذفون منها في جهنم ، وانما يجمع بينهم وبين المؤمنين على الصراط ليكون فرج المؤمنين بالفوز والخلاص أعظم ، وحسرة الكفار وغمهم أشد وأفظع ، والقاؤهم من الجسر أخوف وأهول .

ولعل قول الله جل ثناؤه : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ [2] يكون في هذا الوقت ، وما في القرآن من قول الله عز وجل : ﴿ كلما ألقي فيها فوج ﴾ [3] ، وقوله تعالى ﴿ ألقيا في جهنم كل كفار عنيد ﴾ [4] . فالدليل على هذا ، لأن الالقاء في الشيء

(١) الحجر : ٤٤
(٢) يس : ٥٩
(٣) الملك : ٨
(٤) ق : ٢٤

أكثر ما يستعمل في الطرح من علو إلى أسفل ، نحو قولهم : ألقاه في الحوض وفي البيت ، وإذا لم تكن كذلك ، قيل : ألقاه على قارعة الطريق ، وألقاه على ظهره والله أعلم .

ومن قال : ان الكفار لا يركبون الجسر ، قال : قد يكون لجهنم يوم القيامة سبعة مشارع يصار بالكفار اليها ، ثم يلقي بعضهم فيها، ويسحب بعضهم على وجوههم،ويساق بعضهم سوقاً ، ويكلفون دخولها ، وليس يكون هذا ، لان الملائكة يتعذر عليها هذا الأمر في مكان من جهنم ، ويتيسر في موضع ولكن لأهل النار سبعة أصناف ، كما قال الله تعالى ﴿ لها سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ [1] فيجعل الله يومئذ لها سبعة مشارع لتتميز الاصناف بعضها من بعض والله أعلم .

وقد ذكر الله تعالى النار ، سماها بثمانية أسماء: الجحيم – والسعير – وسقر – ولظى – وجهنم – والحريق – والحطمه – والهاويه .

وقد يحتمل ان يكون ما عدا جهنم أسماء الدركات المحتملة ، التي أعدت لأهل النار كما يليق باحوالهم وسيئات أعمالهم ، وتكون جهنم اسماً للجميع ، كما قال: ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، لها سبعة أبواب ﴾ (٢) وقال: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً، حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها ﴾ [3] فالابواب السبعة في المشارع إلى هذه المسميات السبعة وجهنم اسم لجملتها .

جاء عن النبي ﷺ في حديث يرويه سلام الطويل عن أبي سفيان عن انس بن مالك رضي الله عنهم عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل : لها سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم : « جزء أشركوا بالله ، وجزء شكوا في الله ، وجزء صيروا رعيتهم بحظهم من الله ، وجزء عتوا على الله » (٤) .

فان كان هذا ثابتاً عن النبي ﷺ ، والمشركون بالله هم الثنويه والوثنيه ، والشاكون هم الذين لا يدرون ان لهم إلهاً أولا إله لهم ، ويسألون في شريعته ولا يدرون انها من عنده .

والغافلون عن الله هم الذين يجحدون أصلا ولا يتبعونه ، وهم الدهرية . والمؤثرون

(١و٢) الحجر : ٤٤ (٣) الزمر : ٧١

(٤) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

شهواتهم على الله ، المنهمكون في المعاصي لتكذيبهم رسل الله تعالى جده وأمره ونهيه ، والشافون غيظهم بغضب الله ، القتالون أنبياء الله وسائر الداعين إليه المعذبون من ينصح لهم ، أو يذهب غير مذهبهم ، والمصيرون وغيهم يحطهم من الله ، هم المنكرون للبعث والحساب . فهم يعبدون بأي ما يرغبون فيه لهم جميعهم، حظهم من الله جل ثناؤه .

والعاتون على الله الذين لا يبالون بان يكون ما هم فيه حقاً أو باطلا ، فلا يتفكرون ولا يعتبرون ولا ينظرون ولا يستدلون ، والله أعلم بما أراد رسول الله ﷺ ان كان الحديث ثابتاً عنه .

فصـــل

وقد أخبر الله تعالى جده : ان في النار انكالا وهي القيود ومقامع من حديد ، وان فيها شجراً طلعها كأنه رؤوس الشياطين . وقال في آية أخرى ، ان شجر الزقوم طعام الاثيم وان فيها حميماً وهو الماء الجار المقطع للامعاء. وجميع ذلك يحتمل وجهين : احدهما ان يكون كل ذلك نيراناً مختلفة الاوصاف ، كما ان فيها في الارض ما بين دواب وأشجار وزروع كلها من تراب ، الا ان الاعراض مختلفة ، والاصناف متغايرة بالخشب والحديد ، هناك نار مهيأة بهيئة الشجر ونار مهيأة بهيئة الحديد ، والحميم نار مهيأة بهيئة الماء .

وكل ما جاءت به الاخبار ، من ان في النار حيات وعقارب فان كانت تلك الاخبار ثابتة فهي محمولة على هذا المعنى وهو ان تلك نيران مهيأة بهيئة الحيات والعقارب . وليس ينكر ان يخلق الله تعالى من النار المفرده خلقاً ويجعله حياً، فقد أخبر عز وجل انه : خلق خلق الجان من مارج من نار ، وهو على ما يشاءقدير .

والوجه الاخر : ان يكون الشجر خشباً ، والقيود والمقامع حديداً ، والحميم ماء ، والحيات والعقارب ما عرفت الا ان الله عز وجل يمسكها ، ويدفع الاحتراق والفساد عنها . فانه خالق الطبع والمطبوع . فكلما انه إذا أراد تغيير المطبوع غيره . فكذلك إذا أراد تغيير الطبع غيره .

وإذا كان يحرق أهل النار ولا يمسهم خلاف المعروف في الدنيا من ان من أحاطت به

النار وأحرقته هلك ، فما الذي ينكر من ان يمسك في النار خشباً وحيات وعقارب فلا حرق بالنار ما لا يطفا بالنار ولا تأكله النار وبالله التوفيق .

فصل

فاما الجنان ، فان الله حصرها بأربعة أعداد فقال عز وجل : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [1] وقال بعد ذلك : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ [2] ولم يذكر سوى هذه الاربعة جنة خامسة .

فان قال : ﴿ عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ﴾ [3] قيل : جنة المأوى اسم لجميع الجنان يدل على ذلك انه قال : ﴿ فلهم جنات المأوى ، نزلاً بما كانوا يعملون ﴾ [4].

والجنة اسم الجنس ، فمرة يقال : جنة ، ومرة يقال : جنات عدن ، وجنة عدن . لان المعدن الاقامة ، وكلها دار الاقامة ، كما ان كلها مأوى المؤمنين . وكذلك دار الخلد ودار السلام لان جميعها للخلود والسلامة من كل خوف وحزن .

وكذلك جنات النعيم ، وجنة نعيم ، لان جميعها مشحونة بأنصاف النعيم . وانما منعنا ان نجعل كل واحد من العدن والمأوى والنعيم جنة تنوى لان الله عز وجل ان كان سمى شيئاً من هذه الاسماء جنة في موضع فقد سمى الجنان كلها بذلك في موضع آخر فعلمنا ان هذه الاسماء ليست لتمييز جنة من جنة ، لكنها للجنان اجمع لا سيما وقد أتى الكتاب بذكر العدد ولم يثبت إلا أربعاً .

وقد أثبت الله عز وجل هذه أبواباً بقوله تعالى : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴾ [5] . وجاء عن النبي ﷺ : « ان أبواب الجنة ثمانية » [6] فقد يحتمل أن يكون ذلك لان لكل جنة من الجنان الاربع بابين .

وقد وصف الله تعالى هذه الجنان في كتابه ، فوصف أهل الجنة ، فصفهم صفين : أحدهما السابقون المقربون ، والآخر أصحاب اليمين . فعلمنا ان السابقين أهل الجنتين

---

(١) الرحمن : ٤٦ (٢) الرحمن : ٦٢ (٣) النجم : ١٤
(٤) السجدة : ١٩ (٥) الزمر : ٧٣
(٦) ورد في سنن ابن ماجة « الطهارة » باب ٤٧ ، ٦٠ ، وفي صحيح البخارى « اذان » باب ١٢٩ .

العليين في قوله تعالى ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ إلى قوله ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ فقال : فهاتان للمقربين ، وهاتان لأصحاب اليمين .

وعن أبي موسى الأشعري نحو من ذلك ، وأصحاب اليمين هم الذين يؤتون كتبهم بايمانهم وتخصيصهم بهذا الاسم ليس لان السابقين لا يقرأون كتبهم ، ولكن لان الثناء عليهم بالسبق إلى الطاعات أشرف لهم من وصفهم بايتاء الكتب بايمانهم ، لانهم بشركهم في إيتاء الكتاب باليمين من ليس له سبقهم وتقدمهم ،ولا يشركهم في إيتاء الكتاب باليمين من السبق غيرهم . فذكروا بارفع الذكرين ، ولما لم يكن من أهل الجنة بعدهم إلا من لم يكن لهم مثل فضيلتهم ، فيذكروا معهم قيل لهم أصحاب اليمين أي الباقون بعدالسابقين من أصحاب اليمين والله أعلم .

والسابقون هم المتسارعون إلى الطاعات من اتباع الانبياء صلوات الله عليهم ،وتصديقهم ونصرهم على أعدائهم ، وما يتبع ذلك من أوامر الله جل ثناؤه وغير متباطئين عنها ولا مستغلين لها أولا متطلبين للاعذار والعلل للاخذ بالهوينى فيها ، فان جزاءهم عند الله ان يجعلهم سابقين إلى جنته والنعيم التي أعد فيها لأهل رضوانه ، وتقدمهم على غيرهم ، كما قدموا في الدنيا طاعته على أهوائهم ، وتركوا أهلها أراد بهم .

ولما وصف الله تعالى بعض نعيم الجنان أشار إلى الفرق بين الجنتين اللتين ذكر انهما لمن خاف مقام ربه وبين الجنتين ومن دونهما فقال في الأوليين: ﴿فيهما عينان تجريان﴾[1] وفي الاخريين: فيهما عينان نضاختان ﴾[2] أي فوارتان ، ولكنهما ليستا كالجارتين لأن النضح دون الجري .

وجاء عن النبي ﷺ قال : « جنتان من ذهب للمقربين ، أو قال للسابقين وجنتان من ورق لأصحاب اليمين »[3] فقال في الاوليين: ﴿ فيهما كل فاكهة زوجان﴾ [4] فعم ولم يخص . وقال في الاخريين : ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾[5] ولم يقل من كل فاكهة وقال في الاوليين : ﴿ متكئين على فرش بطائنها من استبرق ﴾ [6] وهو الديباج . وفي

---

(١) الرحمن ، ٥٠ (٢) الرحمن : ٦٦

(٣) ورد في سنن ابن ماجة « المقدمة » باب ١٣ حديث رقم ١٨٦ بهذا المعنى .

(٤) الرحمن : ٥٢ (٥) الرحمن : ٦٨ (٦) الرحمن : ٥٤

الأخريين ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ﴾ [1] والعبقري الوشي .
ولا شك ان الديباج أغلى من الوشي ، والرفرف كثير الخباء ، ولا شك ان الفرش المفردة للاتكاء عليها أفضل من فضل الخباء .

وفي الاوليين في صفة الحور العين : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾[2]. وفي الاخريين: ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ [3] . وليس كل حسن بحسن الياقوت والمرجان .

وقال في الأوليين : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ [4] وقال في الاخريين : ﴿ مدهامتان ﴾ [5] أو خضراوتان ، كأنهن من شدة خضرتها سوداوان . فوصفت الاوليين بكثرة الاغصان، والاخريين بالخضرة وحدها . وفي هذا كله إشارة إلى تحقيق المعنى الذي قصد بقوله : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ [6] ولعل ما يذكر من تفاوت ما بينهما أكثر مما ذكر .

فان قيل : كيف لم يذكر أهل هاتين الجنتين كما ذكر أهل الجنتين الاوليين .

قيل : الجنان الاربع لمن خاف مقام ربه ، الا ان الخائفين لهم مراتب . والجنتان الاوليان لا على العباد رتبة في الخوف من الله جل ثناؤه . والجنتان الاخريان لمن حاله في الخوف من الله تعالى عنهم .

واختلف في الحور العين المذكورات في القرآن ، فقال الحسن البصرى : ان الحور العين هن المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين ، يخلقن في الاخرة على أحسن صورة ، والمشهور ان الحور العين ليس من نساء أهل الدنيا ، انما هن مخلوقات في الجنة ، لان الله عز وجل يقول: ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾[7] . ونساء الدنيا أكثرهن مطموثا.

فعلمنا ان الحور خلقهن غيرهن ولا النبي ﷺ يروى عنه: (ان أقل ساكني الجنة النساء) وإذا كانت نساء الجنة أقل من رجالهم لم يصب كل واحد منهم امرأة . ووعد الحور العين لجماعهم فثبت انهم غير نساء الدنيا . ومن ذهب مذهب الحسن قال: إذا قضى الرجال شهواتهم في الجنة ، علمنا ان النساء لهن مثل ذلك ، فلو لم يردون إلى الرجال لم يجدن غيرهم فثبت ان نساء أهل الجنة أزواج رجالهم .

---

(١) الرحمن : ٧٦ (٢) الرحمن : ٥٨ (٣) الرحمن : ٧٠
(٤) الرحمن : ٤٨ (٥) الرحمن : ٦٤
(٦) الرحمن : ٦٢ (٧) الرحمن : ٥٦

وجواب ان ذلك يمكن أن يكون ولا يجب عنه أن يكون الرجال مقصورين عليهن، فانه لا يمتنع أن يرددن عليهم . ويراد من الحور العين خيراً منهن . وأيضاً فان الله عز وجل جعل الحور العين من أوصاف الجنان وعدهن في نعيمها ، كما ذكر الفواكه والماء والخمر واللبن والفرش واللباس . وليس يجوز أن تكون الثياب بالجنة من نعم الجنة وأوصافها ، فيكون أهل الجنة مسوقين اليها بانفسهم . فصح أن الحور العين مخلوقات في الجنة وليس من نساء الدنيا والله أعلم .

وأما الولدان والغلمان فان من الناس من قال : لما لم يكن في الجنة ولدان علمنا انهم من ولادة الدنيا . وروى عن النبي ﷺ قال : (الأطفال خدم اهل الجنة) [1] وعن سلمان : أطفال المشركين خدم هذه الجنة .

وعن الحسن في قوله عز وجل : ﴿ يطوف عليهم ولدان ﴾ [2] قال لم تكن لهم حسنات يجزون بها ، ولا سيئات يعاقبون عليها ، فوضعوا هذا الموضع . وقد يحتمل مع هذا أن يكون الغلمان مخلوقين في الجنة . فيكون ذكور الخدم كآبائهم ، وسموا ولدانا من طريق التشبيه لهن في صور الولدان والغلمان ، كما قيل في الفرش وعبقري حسان . وليس في الجنة عبقري ، كما ليس فيها ولادة ، وقيل . ﴿ وزرابي مبثوثة ﴾ [3] وليس في الجنة نسخ والله أعلم.

ومعنى مخلدون ، والخلده الحليه ، وقيل مفرطون ، وقيل على سن واحد لا يتغيرون عنها أبداً . وقيل مخلدون مع من يحرمونهم ولا يزايلونهم أبداً . وذكر وهب وغيره ان الجنان سبع : دار الجلال – ودار السلام – وجنة عدن – وجنة المأوى – وجنة الخلد – وجنة الفردوس – وجنات النعيم .

على الهامش .

وفي بعض الأخبار الشائعة جنة نعيم ، ويشبه أن تكون الفردوس أسماء لجميع الجنان كلها ، كجهنم التي تجمع النيران كلها . لأن الله عز وجل مدح في أول سورة المؤمنين أقواماً

---

(١) لم أجد هذا النص في الكتب الستة .

(٢) الواقعة : ١٧ (٣) الغاشية : ١٦

وصفهم ثم قال : ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خـالدون ﴾ [1] ثم ثم أعاد ذكرهم في سورة المعارج وقال : ﴿ أولئك في جنات مكرمون ﴾ [2] فعلمنا أن الفردوس جنات لا جنة واحدة كما قال وهب والله أعلم .

وجاء عن النبي ﷺ انه قال : (إذا سألتم الله فسلوه الفردوس) [3] فهذا والله أعلم - ان للجنات مراتب لا يستوي الناس في استحقاقها ، فلا ينبغي لأحد أن يتخير احداهما فيسلها الله ، وإنما أعدها الله تعالى لغيره ، فيكون داخلا في جملة قوله تعالى : ﴿ ولاتتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ [4] بل ينبغي له أن يسل الله الفردوس ، فيكون قد سأله الجنة . في الجملة ، وليس في شيء من درجاتها بمرغوب عنه والله أعلم .

فصل

قال بعض الضلال : ان للثواب والعقاب صوراً للناس بصور جسمانية لتقرب إلى أفهامهم . فقيل لهم : إن في الجنة مآكل ومشارب ومناكح وملابس ثم وضعت لهم بأحسن الأوصاف ، وأولاها بأن يشوق اليها لأنهم لم يعرفوا اللذة والسرور والغبطة في الحياة الطيبة في العيش ، إلا من هذه الوجوه ، فضربت مثلا لهم والا فالحقيقة انه لا ألم هناك ولا موت ولا حزن ، وإنما هو مسرة دائبة متصلة ، ولذة وبهجة غير منقطعة ، كما يلتذ الطاعم بطعم الشيء الطيب اللذيذ ، ومجامعة من يميل اليها ويستحسنها ، والفرش والملابس الناعمة .

قال : ومما يبين ذلك ان الله عز وجل ذكر أن في الجنة زرابي ، وقد علم انها الطنافس ، وإن الطنافس التي يعرفونها أصواف مصبوغة مغزولة منسوجة ، وإنه لم يردها بما قال ، وإنما جعلها مثلا . وقال : ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقري ﴾ [5] .

والعبقري ما كان نسج من عنبر . فصح انه جعل ذلك مثلا ولم يرد عينه ، فكان جميع ما ذكر من المطاعم والمشارب والمناكح مثلا ، قياساً على ما ذكرنا .

---

(١) المؤمنون : ١٠ (٢) المعارج : ٣٥

(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٤) النساء : ٣٢ (٥) الرحمن : ٧٦

فالجواب – وبالله التوفيق – أن ما يقال لهذا القائل : وما الذي يلجيء إلى هـــذا التأويل ؟ ويمنع أن يكون في الجنة مآكل ومشارب وملبس ومنكح . فانا لا نجدفي عقولنا لامتناع هذه الأمور وجهاً : قال: ان الذي يلجيء اليه انالنفوس هي الصائرة إلى الآخرة دونالأجساد. قيل : وما الذي يمنع مناصارة الأجساد إلى الآخرة وتخليه فلا نجد علىذلك دلالة ، وإنما يفرغ في دعواه إلى أن ذلك يبعد في وهمه ، وليس كل ما بعد من الوهملميكن على أن ذلك قريب من وهم غيرهحق انه لمتسلط على نفسه ، فيقطع بانه هو الأمر الذي لا يجوز غيره .

وقد كتبنا في هذا الباب ما نرجو أن تقع به الكفاية ، ويقال له : انالبعثإنمايكون للجزاء بالحسنات والسيئات ؛ والنفوس لم تكتسب بانفرادها خيراً ولا شيء ، وإنما كان التكسب مشتركا بينها وبين الأجساد ، فيجب أن يكون الجـــزاء مشتركا بينهما وبين الأجساد سواء كان الكسب فعل شيء أو ترك شيء . فاذا اجتمع النفس والبدن علىالتبع في الدنيا باتباع الشهوات الممنوعة ، كانت الحكمة أن يؤلما جميعاً بأشد الآلام ، وليكن ذلك الا عذاب النار .

وإذا جرت في الدنيا من مطاعم وملابس ومناكح كان يشبهها من جنس ما أحل الله غير انه لم يجدها فلم يتسخط قضاء الله تعالى لحبسها عنه وأحسن الظن به فيه أومنجنس ما حرم الله تعالى جده عليه فتركها أو صبر عنها جاهداً محتسباً ، كان أولى ما يعوض عنه في الحكمة أن يوصل من جنسها إلى ما هو أسنى وأجزل وأعظم قدراً وأجل خطراً منها لتصل اللذة إلى ما وصل الالم اليه ويتنعم بالاصابة ما تأذى بالقوت .

ثم لا ينكر أن يصير إلى ذلك من غير هذه الاجناس أسباب يتمتع ويفرح ويتلذذ بها، ولكن ما يدخل في جملتها أشبه بمعاني الثواب .

ويبين ما قلنا ان إقامة العبادات في الدنيا لما كانت سبباً للتعب والنصب ، وجب أن تكون الراحة عوضاً منها في الآخرة باتفاق . فلذلك تخريج المرادات وقمع الشهوات في الدنيا لوجه الله تعالى يقتضي أن يكون التمكين من قضائها على وجه أفضل وأكمل عوضاً منها في الآخرة ، وبالله التوفيق .

هذا والشر لا من بعض الوجوه المعقولة في الدنيا مما لا يتصور فهم ولا هم ولا يكاد إلا

حالة عليه ، ويحرك على الطاعة ، ولا يقع موقع التبشير ، وكذلك الغم لاشيء من الاسباب المعقولة في الدنيا أمر غير معقول ، فالإنذار به لا يزجر عن معصية ،ولايقع موقع التحريف وهم أبداً يحاكموننا إلى العقل ، فإذا هم في هذا الموضع قد فارقوه ، وقالوا بما لاشاهدلهم عليه منه وبالله العصمة .

فاما قولهم : ان كل موعود من نعيم الجنة ، فمثل مضروب ، واستشهادهم بالزرابي والعبقري ، فجوابه : إن الزرابي ليس بمثل وإنما أريد بها الزرابي في مناظرها غير انهـا ليست من أصواف مصبوغة منسوجة ، وإنما هي مخترعة مبتدعة ، وهي وان أشبهت في مناظرها الزرابي ، فهي أنعم منها والين ، واللذة التي تخلص إلى البدن من الجلوس عليهالا تكون في قدر ما يوجد منها في زرابي الدنيا ، لكنها تزيد على ذلك زيادة لا يعرف قدرها إلا الله عز وجل .

وكذلك العبقري إنما أريد به انه في منظر العبقري الا انه ليس الفرش ، بل هوفرش غير انه يزيد في معاني اللذة والنعمة على مثله من فرش الدنيا أضعافاً مضاعفة لا يحصيها الناس ولا يقدرونها.

ولذلك لبنها لبن إلا أنه غير محلوب ، وخمرها خمر غير أنها ليست بمعتصرة ، وكيف لا تكون خمراً بالحقيقة ، والله عز وجل يقول :

﴿ يسقون من رحيق مختوم، ختامه مسك ومزاجه من تسنيم ﴾ فهلا جعل مثلا لشيء آخر ليعرفوه به ، ومتى كان المجهول يعرف الا ان هذا كله والثمار وغيرها تكون مخترعة مبدعة ، وإن الذي خلق خير منها ، واسنى وأفضل في الدنيا والآخرة . فإن كان الذي سأل السؤال الذي ذكرنا يعرف بالله جل ثناؤه فليس له أن يعجب من هذه الموعودات فيطلب لها تاويلا ويسميها أمثالها وبالله العصمة .

وقد قال من قال من الاوائل : ان جوهر الشمس الذهب ، وجوهر الزهرة الزبرجد والزجاج ، وجوهر عطارد الالماس وجوهر القمر الفضة ، ومعلوم ان الناس لا يعرفون الذهب الا ما يستخرج من المعادن ، وكذلك الفضة والحديد والنحاس .

وإن الكواكب لا تخلق من المستخرجات من المعادن من هذه الأجناس ، فإنهـا في

جواهرها ليست كالتي في المعادن من هذه الاشياء في الكثافة والصلابة ونحوها ، ولكن التباين بينهما شديد .

فإن جاز أن يخلق الله تعالى في السماء خلقاً من ذهب أو ورق أو نحاس غير مستخرج من معادن الارض والطف من المعدن أضعافاً مضاعفة ، فلم لا جاز أن يحدث في الجنة خمراً غير معتصره من العنب ولبنا غير مستدر من ضرع ، وزرابي لا من صوف مجزوز عن ظهر الغنم ، وإن كان المعروف في الدنيا أن الخمر من العنب واللبن من الضرع ، والزرابي من الاصواف التي على ظهر الغنم وبالله التوفيق .

فصل

ان سال سائل فقال : انكم تزعمون ان للجنة خزنة ورأسهم في رضوان ، وللنار خزنة ورأسهم ملك ، ويتلو في القرآن : ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ (١) فاخبرونا عن هؤلاء الخزنة ، ماذا يعملون ؟ وعن من يخزنون والخزن فيما بيننا أن يكون حفظا لما يخشى عليه أن يؤخذ ويفوت على صاحبه ، فمن الذي يمكن أن يأخذ من الجنة شيئاً ، فيفوته ؟ ولئن كان ما في الجنة يخزن لانه نعيم مرغوب فيها ، فالذي في النار يخزن منها ، وما الذى يدعو إلى خزنه ؟

الجواب : ان خزن ملائكة الجنة نعيمها انما يكون لاهلها ، فكل واحد منهم يجعل اليه مراعاة قسط معلوم من تلك النعم لمن أعد له، حتى إذا وافى الجنة كان هو الذي يمكنه منه بأمر الله تعالى بخزنه إياها قبل التسليم هو مقامه على ملاحظة ما جعل بسبيله وانتظار من أهل له ، واتصال ذلك اليه إذا حضر ، وعرضه عليه على الوجه الذي يكون أسر له والترتيب الذي يكون أوقع بقلبه وأنعم بعينه، وذلك عبارة منه لله تعالى لأنه يأمره بعمل ما يعمل ، فهذا خزن نعيم الجنة لاحفظها عن أحد يخاف منه عليها .

وأما خزن ملائكة النار فيحتمل أن يجزى كل واحد منهم بعض الانكال والمقامع والاغلال والسلاسل لمعنى أن ينفرد به ، فيكون هو المستعمل والواضع والرافع إلى الذين

---

(١) غافر : ٤٩

يباشرون العذاب ويتولونه ، فتكون مراعاة ذلك منه أيضاً عبادة له لانه بأمر الله تعالى يفعل ولا ينتقم لا ان هناك من يخش أن يأخذ شيئاً منها ويفوت بها والله أعلم .

فصـــل

ان سال سائل عن قول الله عز وجل: ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾[1] فقال : إذا لم تكن الدار لا الجنة والنار ، وكانت الجنة عالية والنار سافله ، وليس في السفل شيء الا النار ، قال أين يريد أهل النار أن يخرجوا ؟

قيل له : يحتمل أن يكون المعنى المعذبين منهم في جب من جهنم أو موضع أغم من غيره ان قصدوا أن يخرجوا إلى صحصاح يكون الغم والألم فيه أقل ، لم يتركوا وأعيدوا ان كانوا قد رجعوا قليلا اليه ، وقد قال عز وجل في آيه : كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم ، أعيدوا فيها ، فيقرب أن يكون هذا معنى الآية والله أعلم .

فصـــل

ان سأل سائل : عن المعذبين من أهل الكبائر ، إذا خرجوا إلى الجنة كيف يصار بهم إلى الجنة ؟ والاولون انما أخبروا إليها على الصراط ، أفيكون الصراط باقياً ما بقي في النار من المؤمنين أحداً ! أو يعاد الاخرون أو يجعل لهم سبب سواه ، فيخلصوا إلى الجنة ؟ .

قيل له : لم يبلغنا من أمر الصراط ، وان المؤمنين إذا جازوا عليه يرفع أو يترك إلى أن يجوز عليه آخر من يبقي منهم ، خبر ، وقد يحتمل أن يكون باقياً ما دام من المؤمنين أحد يعرض الجواز عليه ، وان أزيل عن مكانه ، فقد يحتمل أن يرفع من يعفو الله عنه إلى السور الذى فيه الاعراف ، وذلك بان يصعد به ملك إليه ، أو يجعل الله تعالى له سبباً ما شاء بمن يعجزه الاجتياز فيرتقي من قبله إلى السور ثم ينزل منه كما ينزل أصحاب الاعراف وإذا أمر بهم إلى الجنة فيصيروا إليها والله أعلم .

---

(١) السجدة : ٢٠

فصـــــل

ان سأل سائل عن قول الله عز وجل : ﴿ عليها تسعة عشر ، وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتـــاب ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ [1] . وقال : ما تفسير هذه الآية وتأويلها ؟

قيل له : انما قال عز وجل : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ التي هي احدى دركات النار فإنه قال تعالى : ﴿ سأصليه سقر وما أدراك ما سقر . لا تبقي ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر ﴾ [2] فلا يمكن أن يقطع بان ملائكة العذاب كلهم تسعــة عشر إذا لدركات سبع وقد يمكن أن يكون كل واحد من هذا مثل هذه العدة أو أكثر .

فأما قوله : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ [1] فانه يقال أن أبا جهل لما سمع عليها تسعة عشر هوى وقال لقريش انا اكفيكم عشرة واكفوني تسعة فأنزل الله تعالى: ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ أي التسعة عشر ليسوا بني آدم فيقاوم أمثالهم أو يقاوم الواحد عشرة منهم ، وانما هم ملائكة غلاظ شداد ينقلون المدائن ، وينزلون من السماء إلى الأرض ، ثم يرجعون إليها من نومهم ، وقال : من قال لا يقاس الملائكة بالحدادين أي بالنحاسين من بني آدم انكار المبالغة عن أبي جهل .

وأما قوله عز وجل ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن ﴾ [2] أي وما جعلنا أخبارك بعد أصحاب سقر إلا فتنة للذين كفروا ، وقوله :﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون . وليقـول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ (٣) .

فيكون أخبارنا إياك بعدم فتنة للكافرين والمنافقين، واستيقان المؤمن وأهل الكتاب، هو ان علم عدد هؤلاء الملائكة ليس من العلم العام ، ولا هو مما يوجد مثله عنـد العرب .

---

(١) المدثر : ٣١ (٢) المدثر : ٢٦ - ٢٩

(٣و٤و٥) المدثر : ٣١ .

فإذا أخبرت به أهل الكتاب ووجدوه موافقاً لما عندهم ، ازداد المؤمنون بك إيماناً لمعرفتهم بأن أحداً لم يخبرك به إلا الله جل ثناؤه واستيقن أهل الكتاب أن ذلك ينزل من الله تعالى عليك كما هو تنزيل من يقدمك ، ولا يرتاب المؤمنون وأهل الكتاب بذلك ،ولو لم يكن في كتبهم من هذا خبر ، لانهم إذا راجعوا عقولهم ، علموا أن الله تعالى قادر على أن يقوي تسعة عشر ملكاً ومن دونهم على تعذيب عالم من الناس ، وانه لم يقصرهم على هذه العدة إلا لحكمة كانت له فيها ، ولكنه استأثر بها ولم يطلع عليها خلقه فلم يوقع فله العدد الذي أخبرناك به رتبة في قلوبهم .

﴿ ويقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾[1] أي ليقولوا : هذا مثل وليس بحقيقة ، فما أراد الله بهذا ، وليستعدوا أن يكون الذين يوردون سقر على كثرتهم ، بلى يعذبهم تسعة عشر ملكاً ، فاخبارك بهذه العدة يجري مجرى سائر ما أنزلناه عليك اختباراً لقومك ، ليظهر المؤمن المستيقن من المرتاب والمشكك وتثبيتاً للذين آمنوا وتقوية لعزائمهم والله أعلم .

فصـــل

ان قال قائل : أليس الله بكل شيء عليم ؟ قلنا : بلى ! قال: أفيعلم مبلغ حركات أهل الجنة وأهل النار ؟ قيل : انها لا مبلغ لها ، وإنما يعرف مبلغ ما يكون له مبلغ . فأما ما لا مبلغ له فيستحيل أن يوصف بأنه يعلم لها مبلغاً .

يقال لهذا القائل هل يعلم الله مقدارها كلها ؟ فإن قال: لا كل لها. فيقال: انه يعلم. قيل له: وكذلك لا كل لحركات أهل الجنة وأهل النار . قيل : انها لا مبلغ لها وإنما يعرف مبلغ ما يكون له مبلغ . فأما ما لا مبلغ له فيستحيل أن يوصف بأنه يعلم لها مبلغاً .

يقال لهذا القائل . هل يعلم الله تعالى مقدوراته كلها . فإن قال : لا كل لها . فيقال انه يعلمه . قيل له : وكذلك لا كل لحركات أهل الجنة وأهل النار معلمه وبالله التوفيق .

---

(١) المدثر : ٣١

فصــــل

ان قال قائل : ما أنكرتم أن أهل النار لا يبقون في النار معذبين أبداً ، لأن الله عز وجل عدل في حكمه ، وليس من العدل تعذيب قوم أذنبوا ذنوباً متناهية بعـــذاب غير متناه . وإذا لم يجز ذلك ، فليس إلا أن يبقوا فيها قدر ما يكون جزاء لهم بأعمالهم ، ثم يكونون فيها غير معذبين ولا متألمين . وكذلك أهل الجنة يثابون بأعمالهم ، ثم يؤول أمر الفريقين في السكون الدائم .

فالجواب : ان مقدار الذنب لا يعرف بالمدة لأنه لو كان كذلك لوجب أن تكون الذنوب كلها أكبر من الكفر ، لأنه يقع بالخطرة تسكن النفس إليها ، واللحظة واللفظة ، ولا ذنب أقل اقتضاء للمدة منه .

وفي ثبوت أن لا ذنب أعظم من الكفر ، ما أبان أن الذنوب لا تقدر بالمدة ، وأيضاًفلو كانت أقدار الذنوب تعرف بالمدد لم يجز أن يكون لذنب ساعة إلا عقوبة ساعة ، ولما جاز أن يعاقب الكافر على كفره يوماً ، أكثر من يوم . ولما جاز أن يزيد مقام الكافر الذي لم يكن في يوم الكفر يوماً ، ثم هلك في النار على قدر يوم من أيام الدنيا. فعلمنا أن الذنوب لا تقدر بالمدد ، وإنما تقدر بواقعها من سخط الله تعالى جده .

ألا ترى أن الزنا بحليلة الجار أعظم من الزنا بالأجنبية ، والقتل في الشهر الحرام أغلظ منه في غيره ، وضرب الوالد وشتمه أعظم من ضرب الأجنبي وشتمه ، وزنا المحصن أغلظ من زنا غير المحصن . ومدة الأغلظ وغير الأغلظ في هذه الذنوب متفقة .

وإذا جاز أن يكون هذا هكذا في أحكام الدنيا جاز في أحكام الآخرة مثله . وهو أن لا ينظر إلى مدة الذنب ، وإنما ينظر إلى موقعه من هتك الحرمة ، وإذا نظر إلى ذلك لم يقدر قدر الكفر ، لأن حرمة الله تعالى هي التي تهتك به ، وليس لجلال الله وعظمتهمدد تحاط به ، ولا لحقوقه على العبد في الوجود قدر يشار إليه ، ولا النعمة التي بذاتها عبادة في معاني الإحسان قدر يعبر عنه ، فكذلك حرمته لا قدر لها في معنى الاشارة يعـرف ولا حد لها يوصف . فجزاؤه إذاً عذاب لا يقدر قدره ولا يمكن حده .

فمن هذا الوجه إستحق الكفار التخليد في النـار ، وإن كانت ذنوبهم في الزمان

متناهية . وأما ما عدا الكفار فإن ما فيه من هتك الحرمة أقل لأن فاعله يعتقده ديناً ، ويعتقد أن له تبعة ، فيأتيه متردداً بين الخوف والرجاء ، فكان في حال الدنيا مراعياً لبعض الحق ، فأوجب ذلك أن يكون لجزائه قدر وجد ، كما كان لدينه قدر وجد ، من حيث كان في الجملة دون الكفر بدرجات كثيرة ، فلذلك قلنا ان التخليد لا يقع لها وبالله التوفيق

ويدل على أن نعيم أهل الجنة وشدائد أهل النار غير منقضية ، ان نعيم أهل الجنة لو كان منقضياً لكان أهل الجنة أشد خوفاً وحزناً لأنهم كانوا يخافون إنقضاء نعيمهم فيحزنون له . وقد أخبر الله عز وجل أنهم ﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (١) ولو كان عذاب أهل النار منقضياً لكان في رجاء الإنقضاء والخلاص واحد لهم في الحال ، وليس في النار أمن ولا سرور ، كما ليس في الجنة خوف ولا حزن . فثبت أن واحداً من الجزائين ليس بمنتقض والله أعلم .

ومن العلماء من قال : أن الله عز وجل إنما يدخل النار من يدخلها لأنه خلقهم لها ، ويدخل الجنة من يدخلها لأنه خلقهم لها . والطاعة والمعصية علامتان يميز بهما المخلوق للجنة من المخلوق للنار ، لأن النبي ﷺ قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له »(٢) وقال : « ما أحد يدخل الجنة بعمله ، قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته » (٣) .

وقال الله عز وجل ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس ﴾ (٤) ومن ذهب إلى أن هذا لم يلزمه السؤال الذي قدمت ذكره ، لأنه يقول : بأنه خلق الكافر للنار ، ولا يغني عنه تناهي دينه في الزمان شيئاً والله أعلم .

فصل

وكل معذب في الآخرة من كافر أو مؤمن ، فإنه مميز بينه وبين من لا عذاب عليه عند

---

(١) يونس : ٦٢
(٢) ورد في صحيح البخاري « القدر » باب ٢٠ ، وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ ٤ ، ص ٤٢٧
(٣) ورد في صحيح البخاري « رقاق » باب ١٨ ، وفي صحيح مسلم « منافقين » رقم ٧١ - ٧٣ ، ٧٥
(٤) الأعراف : ١٧٩

نزول الملائكة عليه لقبض روحه ، وفي حال القبض ، وفي الموضع الذي تصار إليه روحه وبعدما تغير . قال الله عز وجل : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم فيها تدعون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم ﴾ (١) فقيل : ان هذا عند حضرة الموت تبشرهم الملائكة بالجنة وتؤمنهم ما كانوا يخافون ، ويعلمونهم انهم كانوا كونهم في الدنيا ويوالونهم في الآخرة .

وقال في الكفار : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ (٢) ويقولون لهم هذا تعريفاً إياهم انهم يقدمون على عذاب الحريق .

وقال ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم ، أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ (٣) .

فدلت هذه الآيات على أن الكفار يعرف عليهم في نزع أرواحهم ، واخراج أنفسهم ، ويعرفون مع ذلك انهم قادمون على الهوان والعذاب الشديد ، كما يرفق بالمؤمنين ، ويبشرون بما هم قادمون عليه من الأمن والنعيم المقيم .

وقال الله عز وجل : ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين ، وما أدراك ما عليون ، كتاب مرقوم ، يشهده المقربون ﴾ (٤) وقال : ﴿ كلا إن كتاب الكفار لفي سجين، وما أدراك ما سجين ﴾ (٥) فابان جل ثناؤه : إن الكتاب الذي يشتمل على أن أعمال الأبرار يعلى به فيكون بمشهد المقربين ، وذلك — والله أعلم — إشارة إلى أن روحه تعلو به إذا نزع من بدنه ليعرف المقربون انه روح صاحب الكتاب ، فيكون له بذلك شرف وفضل .

وان كتاب الفجار يهوي به إلى أشد المحابس والسجون ، وذلك عند جهنم المكتوبة تحت البحار المواراة بها ، إلا أن يأذن الله في إبرازها ، وذلك — والله أعلم — إشارة إلى

---

(١) فصلت : ٣٠ - ٣٢ (٢) الأنفال : ٥٠ (٣) الأنعام : ٩٣
(٤) المطففين : ١٨ (٥) المطففين : ٧

روحه تهوي به فيكون حيث يكون كتابه وصحيفة عمله ، ويشاهد من آثار ما هو قادم عليه ما يتعجل الغم والله أعلم .

وأما ما ينال المقبور فإن أوله ضغط القبر ، يروى عن النبي ﷺ انه قال : « لو نجا أحد من ضغطه القبر لنجا سعد بن معاذ » (١) .

وجاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : لو سمع أحدكم ضغطة القبر لجزع أو قال يجزع ، وقيل في قول الله جل ثناؤه : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ (٢) المراد عذاب القبر . وفي قول الله عز وجل : ﴿ والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ (٣) دليل على أن لهم عذاباً وأصلاً إليهم يوم الموت .

وفي قصة بدر أن النبي ﷺ وقف على القليب الذي قد طرحت فيه جيف القتلى من المشركين ، فناداهم « يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، حتى عدهم . هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فقيل له يا رسول الله : أتنادي أقواماً موتى . فقال : والذي بعثني بالحق ، أو قال : والذي نفسي بيده ، ما أنتم باسمع لما أقول منهم » (٤) .

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال « انهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير . أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستنزه من البول » (٥) .

وفي حديث آخر أنه مر بقبر فقال : « لا دريت ، فسئل عن ذلك فقال . انه سئل عني ، فقال : لا أدري ، فقلت : لا ، دريت » .

وعنه ﷺ أنه قال في حديث ذكره : « ولقد أوحى إلي انكم تفتنون في قبوركم ، يولى أحدكم في قبره، فيقال : ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم. فأما المؤمن فيقول: هو محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى . فأجبناه واتبعناه ، فيقال له : علمنا أنك

---

(١) لم يرد الا في مسند امام احمد بن حنبل ج ٦ ، ص ٥٥ ، ص ٩٨ .

(٢) السجدة : ١٢ (٣) الانعام : ٩٣

(٤) لم يرد الا في سنن النسائي « الجنائز » باب ١١٧

(٥) ورد في سن ابن ماجة « كتاب الطهارة » باب ٢٦ ، رقم ٣٤٧

تقول فيهم صالحاً ، فأما المنافق المرتاب فيقول : لا أدري،فيقال له: لا ، دريت ، ويغلظ له في قبره » (١) .

فقد أثبتت هذه الأخبار وغيرها أن الموتى يسألون عن دينهم اذا قبروا ، وفي بعضها أن ملكين يدعيان منكــــراً ونكيراً ، يأتيان الميت فيسألانه والذي يشبه أن تكون ملائكة السؤال جماعة كثيرة يسمى بعضهم منكراً وبعضهم نكيراً ، فيبعثون إلى كل ملك منهما إثنان كما كان الموكل عليه للكتب أعماله في حياته ملكان .

فإذا انقضى السؤال ، فمن أصاب الجواب أفلح ، ولم يكن عليه بأس إلى يوم القيامة ، ومن أخطأ وزل ، ضرباه بعمود يصير بدنه منهـا ناراً ثم تخمد باذن الله ، بهذا جاءت الروايـــة .

ومن كان من هذه الطبقة ، فامرهم يختلف ، لأن الله عز وجل قال في قوم نوح ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً﴾(٢) وظاهر ذلك انهم عوجلوا بالعذاب، وقال في فرعون: ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً، ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾(٣). هذا دون ما دل ظاهر الكتاب عليه من حال قوم نوح صلوات الله عليـه ، لأن ذلك إنما يدل على ادخال النار .

وهذا على العرض على النار ، وقد روينا عن النبي ﷺ انه قال في المعذبين ما قـال ، وفي ذلك دلالة على ان أجاب الملكين بجواب المسلمين ، فانه إذا كان مختلطاً لم يسلم في القبر من عذاب كان في الآخرة معذبا ، وليس يكون في المسلمين مذنب يداني قوم فرعون ،فإذا كانوا لا يرادون على العرض على النار وجوبا أن يكون عذاب المسلم المخلط دون ذلك أيضاً بدرجات كثيرة والله أعلم .

ولم يعلم من أهل السنة خلافاً . ان عذاب القبر حق ، وإنما تكلم النـــاس في كيفية التعذيب وفيما يصل اليه العذاب من الشخص المعذب ، وإلا ظهر ان السؤال والتعذيب لا تكون إلا مع الأحياء .

وقيل في الاحتجاج لهذا ان الله تعالى اخبر عن الكفار ، وانهم يقولون يوم القيـــامة

---

(١) ورد في صحيح البخاري « كتاب علم » باب ٢٤ . وفي صحيح مسلم « كسوف » باب ٨ ، ١٠
(٢) نوح : ٢٥ (٣) غافر : ٤٦

﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ، فاعترفنا بذنوبنا ، فهل إلى خروج من سبيل ﴾[1] وانهم أرادوا باحدى الاماتتين . الموت المعروف ، وبالاماتة الثانية الموت بعد الاحياء في القبر للسؤال والتعذيب . وباحدى الاحيائين ، الاحياء في القبر للسؤال والتعذيب ، وبالاحياء الثاني الاحياء يوم القيامة .

فان قيل : فان من تعذب غدواً وعشياً يجيء كل غدو وعشي ، وهذا يزيد على الرب فضلا عن اثنتين .

قيل له : قد قال بعض العلماء في ذلك ان الاحياء في القبر إنما يكون لأدنى جزء يحتمل الحياة والعقل ، فان كان ذلك كما قاله هؤلاء فلا حرر من أولى ، فهذا الحكم من القلب الذي كان من قبل أن يموت ينبوع حياته ، ومحل عقله وفهمه .

وقال النبي ﷺ : (إن في الجسد لمضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[2] فيسل ويعذب بما يشاء الله ويعذب ان كان أهلا للتعذيب ، ويكرم إن كان أهلا للتكريم ، ثم لا يمات ما دام الله يريد تعذيبه ، وإنما يمات إذا رفع العذاب عنه إلى يوم القيامة ، فلا يكون الموت على هذا أكثر من اثنين والله أعلم .

ومن قال هذا ، قال : قد يجوز أن يكون قوم نوح اغرقوا ببعض البحار ، والبحر نار يوم القيامة ، فلعل ما غرقوا فيه جفت عليهم ناراً ، فصلتهم قبل النيران لا قبل المياه والله أعلم .

ولا أعلم لهذا القائل في تخصيصه بعض أجزاء الميت بالاحياء غرضاً صحيحاً ، فإن كان إنما فرضى أن جميع الميت إذا أحيي ، فلا يخلو من أن يترك حياً ، ما دام الله يريد تعذيبه . أو يحيي كلما عذب وأميت ، فان نزل حيا فلا فرق ، وإذا بين المقبور بين المنشور ، وإنما هو كالذين على ظهر الأرض ، إلا انه لا يطعم ولا يشرب . وإن أحيي ثم أميت ثم أحيي ثم أميت ، لم يكن هذا اماتتين ولا إحياءين . ولكنه يبلغ عدداً أكثر لا يحصيه إلا الله جل ثناؤه .

فهذا كله في البعض موجود ، ولأنه إذا أحيى منه أقل خبر يحتمل الحياة والعقل ، لم

---

(١) غافر : ١١

(٢) ورد في صحيح البخاري « الايمان » باب ٣٩ ، وفي سنن ابن ماجه « الفتن » باب ١٤ .

يكن هذا للجواب ، لأنه ليس كل من يفهم ما يقال له يقدر على الجواب ، ولكنه يحتاج مع هذا إلى أن يطلق له آلة الكلام كما أطلقت له آلة الفهم ثم ان كان أحيى آلة الفهم وآلة الكلام ، لان السؤال والجواب من دونها مستحب ، فليحيى كله ، لانه إذا جاد في الجواب عن الحق ضرب بعمود يلتهب منه ، وفي هذا ما دل على ان الاحياء ينبغي أن يعم جميعه أو يخص بالعذاب قلبه ولسانه وذلك أمر غير معقول والله أعلم .

وهذه الطريقة التي شرحناها هي لمن لا يثبت إلا الروح والبدن . فأما من قال : ان الانسان له أجزاء نفس وروح وبدن ، وإنه يقول : إن نفس الحي هي الموصوفة بالعلم والجهل والغم والسرور واللذة والالم ، وإذا فارقت البدن مات البدن لانه يصير بغرض الفساد والبلى بعدما كان بغرض التيسر والنمو . فأما النفس وعدها فانها تبقى حية تعلم وتفهم وتتلذذ وتتألم مما يعمها ويسيرها ، وهي في هذه الحالة أشبه بالملائكة منها إذا كانت مجاورة البدن الطاعم الشارب الناكح .

فمعنى السؤال في القبر أن يحبس هذه النفس بعد خروجها من البدن ، وتورد معه القبر حتى يحضر الملكان فيسألاها وهي على صورة بحيال قلبه . فقال : ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ﴾ [1] فان ظهر لهما منها الفجور ، علما بان البدن إنما كان يتصرف فيما تأمره به النفس الفاجرة ، فأي شيء فعلاه مما يجري مجرى الإهانة ، فانه وإن وقع بالبــــدن .

فان النفس التي هي تتعذب بما يخلص اليها من الكرب والخوف ، ويقع لها من العلم بأنها إذا أعيدت فيه يوم الجزاء تعذبت معه بما يصل إليه من الشدائد كما تنعمت معه في الدنيا بما وصل اليه من الملاذ ، وإن ظهر لهما منه البر انصرفا عنه .

الا انه إن كانت للميت ذنوب يريد الله تعذيبه عليها في الآخرة ، فان النفس تعذب وهي محبوسة في القبر ، بلى البدن أو لم يبلى ، ويعرض على النار أو تجر بما هي لا فيها ، فتكون مكروبة مغمومة بذلك ما شاء الله تعالى جده .

وقد يمكن أن تخرج النفس من القبر إذا انقضى السؤال وتورد مورد أمثالها ، فتكون في تنعم به من البشارات والاطاعات وتغم به من التخويفات والتوبيخات هنـــاك الا ان

---

(١) الشمس : ٧ - ٨

ذلك كله يسمى عذاب القبر ، بمعنى انه العذاب الذي يكون ما دام الميت في القبر لم ينشر منه ولم يجمع بينه وبين ما غاب عنه والله أعلم .

ومن قال هذا ، قال : ان العذاب لا يسبق الحساب ، ولو كان الله عز وجل معذباً قبل الحساب لم يمت العبد ، ولينقله عند انتهاء مدته إلى مكان الجزاء الذي أعده له ، ويفعل ذلك بالواحد بعد الواحد من غير امهال وتأخير . فلما أخبر عز وجل انه : ﴿ جامع الناس ليوم لا ريب فيه ﴾ (١) ومحييهم وباعثهم ومحاسبهم وجازيهم بما تنطق به كتبهم وصحف أعمالهم ، ان خيراً فخير ، وإن شراً فشر وذلك بعد أن توزن . وتميز بين (من) ثقلت موازينه وبين من خفت موازينه ، علمنا ان الذي سبق هذه الامور بعد الموت هو السؤال ثم التبشير والإنذار والتخويف والإيمان والاطماع في الجنة ، أو العرض على النار .

وهذه كلها مما يكفي النفس لها ، وليست تحتاج إلى البدن فيها ، وإنما تحتاج اليه إذا جاء الوقت الذي يوفى فيه الموعود من تغريق في الهوان ، أو تقليب في نعيم الجنان ، ويدل على ذلك ان الاخبار وإن جاءت بعذاب القبر فليس في شيء منها ان من لا عذاب عليه يطعم أو يسقى أو يلبس في قبره ، فعلمنا ان ما يتأجل في ذلك للمحسن ، فان خلافه أيضاً يتأجل للمسيء ، وإن التعجيل للفريقين ما ذكر والله أعلم .

ومن قال هذا ، قال : معنى أمتنا باثنتين وأحييتنا اثنتين ، امتنا بارسالنا من اصلاب آبائنا نطفة ميتة ، ثم أحييتنا في ارحام أمهاتنا ، ثم أمتنا في الدنيا ثم أحييتنا يوم القيامة ويحتمل أن يقال ان الميت كلما يحيى للسؤال لانه إنما يقع في البدن الذي يعم النفس والبدن .

فإذا انقضى السؤال فالجواب أميت ولعل معنى ذلك – والله أعلم – إن الميت قد حول من ظهر الارض إلى بطنها الذي هو الطريق إلى الهاوية ، فيوقف في قبره ويحيى ثم يسأل ، فإن وجده الملكان من الابرار عرجت الملائكة بنفسه وروحه إلى عليين وكان ذلك نظير أن يوقف في المحشر على شفير جهنم ، ويستعرض عمله ، فإذا وجد في الابرار أجيز على الصراط ، وإن وجده الملكان من الفجار هوت الملائكة بنفسه وروحه إلى

---

(١) آل عمران : ٩

سجين ، وكان ذلك نظير أن يوقف في المحشر على شفير جهنم ، فإذا نظر في عمله فوجدمن الفجار التي في النار .

فأما ما وراء ذلك من عذاب ، فان أحداً من المسلمين لا تداني ذنوبه ذنوب آل فرعون ، فإذا كان الله عز وجل لم يعاملهم قبل الآخرة بأكثر من العرض على النار دون احساسها أبدانهم ، رجونا من فضله ورأفته ان لا يمس مسلما ناراً قبل أن يورده الآخرة ، وكل ما دون ذلك من إرغاب وتخويف وتعريض للحسرات والندامات ، أو خلاف ذلك من أطماع وتبشير واعلام بالمحاب والمسرات ، فان النفس لا تحتاج في الإجابة إلى البدن فيكون ما يكون لها وعليها والله أعلم .

وفي هذا الرأي جمع بين القولين اللذين سبق أيضا ضمهما، فيكاد من هذا الوجه أن يكون وسطاً والله أعلم . وإنما نذكر هذه الوجوه ازاحة لما عسى يعترض به الملحدون وينسبون اليه اخبار الديانات ومحبيها بالامتناع اليه في العقول ، لكن له مكان الوجه الواحد أوجهاً ، وإلا فالاولى بالمسلم الايمان بما يثبت عنده عن النبي ﷺ ، والتسليم له دون أن يتوقف في ذلك إلى أن يبين له وجهه .

فان الصحابة قبلوا عن النبي ﷺ ما أخبرهم به وأنذرهم إياه من عذاب القبر وغيره ، ولم يراجعه فيه منهم أحد ، ولا سأله عن وجهه وكيفيته ، فكذلك ينبغي لمن بعدهم أن يفعل فيكون التابعين لهم بإحسان وبالله التوفيق .

فصل

ان سأل سائل عن معنى ما روى عن النبي ﷺ انه قال : (إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه) (١) .

قيل له : هذا حديث رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وابنه عبد الله يزعم ولما بلغ عائشة رضي الله عنها قولهما ، قالت انكم لتحدثون من غير كاذبين ، ولكن السمع قد يخطيء ، ان الله أضحك وأبكى ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

---

(١) ورد في صحيح البخاري «الجنائز» باب ٣٣ ، وفي صحيح مسلم « الجنائز » رقم ١٦ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٢٣

وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنه وفي رواية أخرى قالت عائشة : إنما مر رسول الله ﷺ على يهودية فقال : (انكم لتبكون عليها ، وإنها لتعذب في قبرها) (١) ولكن للحديث وجوهاً إذا حمل عليها خرج خروجاً حسناً .

ولم تقع ضرورة إلى تغليظ عمر وابن عمر مع فضلهما وكبر محلهما ، أحدهما : ان أهل الجاهلية كانوا يوصون بأن يناح عليهم إذا ماتوا وتذكر أحوالهم ومقاماتهم ، فكان إذا مات أحدهم بكى عليه أولياؤه ، وأقاموا عليه النوح ، يذكرون أعماله وعاداته ، وحروبه وركوبه المحارم من النساء ، وغيرهن ، فقل إنما قال النبي ﷺ : (الميت يعذب ببكاء أهله عليه) (٢) إذ بكاؤهم عليه بوصيته وعلى الوجه الذي بينته .

وقيل قد يجوز أن يكون الميت قد استحق عذاباً بذنوبه غير ان الله تعالى قضى ان أهله إن بكوا عليه عذبه بذنوبه ، وإن تركوا البكاء عليه ترك تعذيبه ثواباً بصبرهم ، ويبلغ النبي ﷺ : (إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه) كي إذا سمع أهل الميت هذا وعرفوه تركوا البكاء عليه وارتدعوا كما يكون سبقاً لإيصال العذاب اليه .

ويقال يعذب ببكاء أهله عليه ، وإن بكاؤهم عليه إن لم يكن مؤمناً لتعذيبه ، فقد كان سبباً لتعذيبه بذنبه ، فيجوز في الكلام أن يقال عذب ببكاء أهله وهذا التأويل يليق بالمسلمين خاصة ، لان الله تعالى يترك تعذيب الكافر بصبر اهله عليه عن البكاء عليه ، ولا يعرض أهل الكفار أيضاً من صبرهم ان لا يعذب ميتهم .

وقيل : المعنى ان المحتضر إذا رأى أهله يبكون عليه البكاء المفرط ، فأعجبه ذلك منهم فسكت وأراد أن يكون منهم ذلك بعد وفاته عذب بعد الموت ببكاء أهله لأنه كان علمه منهم ، فلم ينههم عنه ليثيبوا عليه رضاء منهم بصنيعهم ، وقد كان قيمهم وصاحب أمرهم فكان عليه زجرهم عما لا يجوز ، فلما لم يفعل ، قام ذلك مقام الآمر به ، فلذلك عذب .

---

(١) ورد في صحيح البخارى « الجنائز » باب ٣٢ ، وفي سنن ابن ماجه « الجنائز » باب ٥٤

(٢) ورد في صحيح البخاري « الجنائز » ٣٣ ، وفي صحيح مسلم « الجنائز » رقم ١٦ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٢٣ .

وقيل : سواء كان المعنى هذا ، والوصية بالندبة والنياحة ، فليس في هذا الحديث إلا انه يعذب ببكاء أهله عليه ، وليس فيه متى يعذب فقد يجوز أن يكون المعنى يوم القيامة ، وليس يجب البحث عن معنى هذا الحديث للوقت . فإن التعذيب في القبر ليس بمستنكر .

وقد جاء في اليهودية انهم ليبكون عليها ، وإنها لتعذب في قبرها ، وإنما يجب الوقوف على معنى تعذيب الميت ببكاء الحي عليه . وقد ذكرنا من ذلك منا ما فيه الكفاية وبالله التوفيق .

* * *

العاشر من شعب الايمـــان

وهو باب في محبة الله جل ثناؤه

قال الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً ، يحبونهم كحـــب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾[1] . فدل ذلك على أن حب الله تعالى . ويدعو إليه .

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، فالرجل يحب المرء لا يحبه إلا لله . والرجل إن قذف في النار كان أحب إليه من أن يرجع يهودياً أو نصرانياً »[2] فبان بهذا الحديث أيضاً أن حب الله تعالى جده من الايمان . وقال الله جل ثناؤه : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾[3] فأبان عز وجل أن اتباع نبيه ﷺ من موجبات محبة الله .

فإذا (كان) اتباع النبي ﷺ إيماناً فقد وجب أن يكون حب الله الموجب له إيماناً من العبد ، كما أن اتباع النبي ﷺ لما كان من موجبات الاقرار بالله تعالى . فكان بنفســه إيماناً ، كان الاقرار الموجب له إيماناً من العبد والله أعلم .

فصـــل

فان قال قائل : ما معنى محبة الله تعالى جده ؟ .

قيل له : ان محبة الله تبارك وتعالى ليست إسماً لمعنى واحد ولكنه إسم لمعان كثيرة .

أحدها : إعتقاد أنه ــ عز اسمه ــ محمود من كل وجه ، لا شيء من صفاته إلا وهــو مدح له .

---

(١) البقرة : ١٦٥

(٢) ورد في صحيح البخاري «الايمان» باب ٢ ـ ٤ ، وفي سنن ابن ماجه «الفتن» باب ٢٣ ، ٤٠٣٣

(٣) آل عمران : ٣١ .

والثاني : إعتقاد أنه محسن إلى عباده بنهم متفضل عليهم .

والثالث : أن الاحسان الواقع منه أكبر وأجل من أن يقضي قول العبد وعمله ، وان حسنا وكثرا شكره .

والرابع : أن لا يستقل العبد قضاياه ولا يستكبر تكاليفه .

والخامس : أن يكون في عامة الأوقات مشفقاً وجلا من اعراضه عنه، وسلبه معرفته التي أكرمه بها ، وتوحيده الذي حلاه وزينه به .

والسادس : أن تكون آماله معقودة به ، ألا ترى في حال من الأحوال انه غني عنه .

والسابع : أن تجمله يمكن هذه المعاني في قلبه ، في أن يديم ذكره بأحسن ما يقدر عليه .

والثامن : أن يحرص على أداء الفرائض والتقرب إليه من نوافل الخير بما يطيقه .

والتاسع : أنه ان سمع من غيره بني عليه ، وعرف منه تقرباً إليه ، وجهاداً في سبيله سراً وعلانية مالاه ووالاه .

والعاشر : انه سمع من أحد ذكراً له بما يجل عنه ، أو عرف عنه عناء عن سبله شراً وعلانية فأنبه وناوأه ، فإذا استجرت هذه المعاني في قلب أحد فاستجماعها من المشار إليه باسم محبة الله تعالى جده وهي إن لم تذكر مجتمعة في موضع ، فقد جاءت مفرقة عن النبي ﷺ فمن دونه .

فمما جاء عنه ﷺ مما رواه عنه ابن عباس رضي الله عنه فإنه قال: « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة » (١) وهذا يحتمل أن يكون عاملاً بالأنعمة كلها ، وأن يكون إسم الغذاء في الطعام والشراب حقيقة ، ولما عداهما من التوفيق والهداية ونصب أعلام المعرفة، وخلق الحواس والعقل مجازاً ، ويكون جميع ذلك بالاسم مراداً .

فقد جاء في بعض الأخبار –وقد رويناه– ثلاث من كن فيه، وجد حلاوة الايمان»(٢) وفي بعضها « طعم الايمان جازت تسميته غذاء » فيدخل الايمان وجميع نعم الله في هذا الحديث والله أعلم .

---

(١) لم يرد الا في سنن الترمذى « كتاب المناقب » باب ٣١

(٢) ورد في صحيح البخاري « الايمان » باب ٢ - ٤

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : « علامة حب الله تعالى جده ، لم يعد المصائب التي يقضيها عليه إساءة منه إليه ، ولم يستقل وظائف عبادته وتكاليفه المكتوبة عليه ، كما أن من أحب أحداً من جنسه لم يلد يبصر منه إلا ما يستحسنه ويزيده إعجاباً به ولايصدق به من خبر المخبرين عنه إلا ما يجده سبباً للولوغ به والغلو في محبته »[1].

وجاء عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : من ذاق حب الله تعالى شغله ذلك عن حب الدنيا ، وهذا لأنه إذا تشاغل بالدنيا عن عمارة السبل التي تؤذي إلى الله تعالى جده لم يأمن أن يقطع الله عنه الطاقة ويكله إلى نفسه . وقد حكى الله جل جلاله عن أهل الجنة انهم يقولون ﴿ إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ﴾[2] . فقيل في تفسير : كانوا مشفقين أن يسلبوا الاسلام ، وهذا أحد ما تقدم ذكره .

وجاء عن بعض المتقدمين أنه قال : لايكون العبد محباً لربه حتى يذل نفسه في مرضات الله ظاهراً وباطناً وعن بعضهم أنه قال علامة من أحب الله أن يحب ما أحب الله ، ويبغض ما أبغض الله ، وعلامة من أحب ما أحب الله أن يبغض الدنيا ومتاعها ويقال أن في كتاب داود ﷺ : من أحب الله لجأ إلى طاعته ، ومن أبغض الله لجأ إلى معصيته .

وعن سعيد المقبري رضي الله عنه أنه قال : مفتاح حب الله تعالى معرفة منه الله . وقال بعض السلف : أول أحوال المحبة الموافقة والاقبال على من هو مقبل عليه ، والاعراض عمن هو معرض عنه ، وخوف السقوط من عينيه ، قال ومن علامة حب النبي ﷺ حب القرآن فحب القرآن حب ما حمداه وبعض ما ذماه .

قال بعضهم : علامة المحبة إستجلاء الطاعة ولزوم الخدمة وادامة الفكرة . وقال بعضهم : الحب اللزوم ، فإن من أحب شيئاً لزم ذكره قلبه فمحبة الله تعالى لزوم ذكره ، وهذا الذي فسر به هذا القول : المحبة من أنه اللزوم وموافق لقول أهل اللسان لأنهم يقولون : أحب وإذا ترك فلزم مكانه .

وقيل في قوله عز وجل حكاية عن سليمان ﷺ : « إني أحببت ، أي كسلت فأقمت مكاني من حب الخيل حتى توارت الشمس بالحجاب ، ولم أقم الصلاة . وقد قال عز وجل

---

(٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(١) الطور : ٢٦

لرسوله ﷺ : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ (١) أي أنكم تحبون الله فإني قائم بالدعاء إلى الله جل ثناؤه ، وأداء حقوقه والجهاد في سبيله وإعلاء كلمته وحشر الناس إلى دينه ، فلا أحد أشد موافقة لكم مني ، فأحبوني تحبوا الله ، واتبعوني فإن محبتكم لله تعالى تقتضي إتباعي لا مخالفتي والازورار عني ، فإن أبيتم فاعلموا أنكم غير محبي الله ، وان إسم العداوة والبغض أولى بكم والزم بكم من إسم المحبة والله أعلم .

وقال الله عز وجل : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسولـــه وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٢) .

فاعلمهم جل ثناؤه أنهم إذا قعدوا عن الجهاد إشفاقاً من أن يصابوا فيتضرر بذلـــك قراباتهم أو حسرة على المساكن التي يرضونها ، واسفاً على ما يفوتهم من التنعم بسكناها ، أوشحاً بالأموال التي اكتسبوها ، وخوفاً من نقصانها ، لم يكونوا محبين لله عز وجل بـل كان ما يتركون لأجله الجهاد في سبيله ، ويحملوا بسببه كفر الكفـار ، وغيهم وانتهاكهم محارم الله ، هو الأحب إليهم والآثر لديهم. فإن واحداً من أمثالهم لو سبهم وأذاهم وأسمعهم في أنفسهم أو في بعض أسلافهم ، وحسب لاحدهم امرأة أو جارية لقاتلوه ولم ينتفعوا على أموالهم ولا مساكنهم ولا على ما يكسد من تجارتهم .

وإذا سمعوا الذين يلحدون في أسماء الله . ويستهزئون بآيات الله ، وعرفوا مـــا قدم أسلافهم من قبل الأنبياء صلوات الله عليهم ، وانهم اليوم لفعلهم راضون ، ثم لم يوادوهم إشفاقاً على القرابات والأموال أو على الأنفس لم يكونوا محبين لله تعالى جده حقاً ، بـــل كانوا أحب بغيره منه ، أي لا ينبغي أن يكون ذلك كذلك ، بل خلاف ذلك هو الأولى بكم والألزم لكم ، فثبت بجميع ما يثبت أن حب الله تعالى من الايمان وبالله التوفيق .

فان سأل سائل : عن قول الله عز وجل: ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ (٣) فإذا أريد به : الذين يعترفون بالله جـــل ثناؤه . فإن ظاهره

---

(١) آل عمران ٣١
(٢) التوبة : ٢٤
(٣) البقرة : ١٦٥

يوجب أن يكون الكفار محبين لله جل ثناؤه ، ولولا ذلك لم يقل : يحبونهم كحب الله ، أي كحبهم لله .

قيل له : قد يجوز أن يكون المعنى يحبونهم كالحب الذي ينبغي أن يكون لله عز وجل وقد يحتمل أن يكون أراد به المشركين الذين يعترفون بالله عز وجل ويزعمون أنهم يحبونه ، وهو أيضاً يحبهم ، غير أنهم مشركون به بعض خلقه ، كالنصارى الذين يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه وزعموا مع ذلك أن المسيح ابن الله . ومشركي العرب الذين عبدوا الأوثان وعظموها ، وقاتلوا من سبها ، هي بعينها ، وقالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فأحبوا الله تعالى وأحبوا الأوثان أكثر من حبهم لهم ،فحبط بذلك حبهم لله تعالى ، ولم يحصلوا منه على ثواب واستحقوا بإيجادهم الأنداد من دونه أعظم العقاب والله أعلم .

فصل

فأما ما بدأ بذكره من معاني المحبة وهو في اعتقاد أن الله عز وجل محمود ممدوح من كل وجه ، فإنه أبين أركان المحبة إذا كانت العبادة الجارية ماضية به ، فإن أحداً لا يحب المذمة تكون فيه ، وإنه يحبه لمحمدة يعرفها له إما بالاطلاق وإما بحسب ما يكون عنده فيها . فإما بالاطلاق : فنحو محبة المسلمين بعضهم بعضاً لأن المواتاة والموافقة من بعض لبعض محمودة عندهم ، وإن كانت الموافقة على الخير هي المستوفية للحمل . فثبت أن الحب لا يكون إلا على ما يحمدون ما يذم بمحبة الله تعالى ، أولها: إعتقاد أن كلهامدائح ، وهي كذلك بالحقيقة ، فوجبت لها المحبة عليها وبالله التوفيق .

وكذلك إعتقاد المعنيين الآخريين وهما إحسانه وانعامه ، وإلا مجاوزتها حد ما يأتي عليه الشكر ، هما باللسان (١) للمعنى الذي تقدم ذكره ، لأن أولها يلزم الشكر والاخر يضاعفه والأول يلزمه المنة والاخر يؤنس من إسقاطها ، وكل واحد منهما ينافي البغض لأن من أبغض أحداً لم يستطع حمده ونشر محاسنه ، والاعتراف له بالفضل والافضال .

---

(١) والمقصود معجم « لسان العرب » لابن منظور .

ومن انس من مقابلة منعم إذا شكره علم ان أقل ما يلزمه له أن يعتقد أنـه مرتهن بحقه ، ويصلح قلبه له حتى لا يتمكن منه ما لو بدأ المنعم يكرهه ، ولا بتوطئه إلا مـا ظهر له منه كبيرة وأعجبه ، والله عز وجل لا يخفى عليه شيء ولا انعام يعدل انعامه ، ولا إحسان يوازي إحسانه . فهو أحق بأن لا يعتقد العبد في ذاته إلا ما يرضاه ، ويعصي في ارتكاب ما يكرهه هواه وبالله التوفيق .

وكذلك ما ذكرته في ترك الإشتغال لقضاياه،وتركالاستكثار لتكاليفه،لا استقال[1] القضايا واستشعار ظلم ، واستكثار التكاليف واستشعار حمل ، وكل واحد منهما حقـاً واعيان فمن أضمر هذا للاخر في نفسه فقد سهل لبغضه لان المظلوم لا يحـب الظالم ولا المحمول عليه الحامل .

وأما إذا لم يستقل القضايا وعلم ما نفذ فيه قضاؤه فإنما كان ملكه ، وكان أولى بـه منه أو تجاوز ذلك إلى أن يستجلي ما يجزى به القضايا لأجل إنما عرض ، فمن قبل المولى لا من قبل أحد ، لقوله : وواحد ، فيكون ذلك عائداً عليه بفضاضة وحقارة ، فناهيك بالأمرين : أما أولها فابعاد لما يفسد المحبة عن القلب ، والاخر فيوصل إلى اكتساب محبة الله ، وكل واحد منهما مما تبعث عليه الرغبة في رضى الله جل جلاله ، والكراهة تسخطه ، وإذا لم ينكر الفرائض علم أن الله تعالى قد أبقى عليه ولم يخرجه ، ويساهله ولم يشدد عليه ، فدعاه ذلك إلى نعيم طاعته ، ويطلب رضاه وموافقته .

فإن الإتقاء ممن يملك الاستيفاء اتصال ، كما أن الاستيفاء ممن يملك الاتقاء شديد والايفاء والانعام والافضال عن دواعي المحبة والبواعث عليها . وكذلك للاشفاق من انقطاع نظر الله جل جلاله هو اكدار كان المحبة ، لان الاشفاق لا يكون إلا على مظنون بـه متنافس فيه فمن كان نظره إلى ما أكرمه الله تعالى من معرفته وتوحيده هذا النظر دل ذلـك من حاله على علمه بحقه .

والعارف بحق سيده والمنعم عليه لا يكون مبغضاً له وكذلك تعلق الأمل بالله عـز وجل ، مع العلم بأنه لا غنى عنه ، وانه جواد كريم هو من أسباب المحبة ، لأن أحداً لا

---

(٢) وهي مصدر للفعل « استقل » .

يبغض من لا يصل إلى محبوبه إلا به ومن قلبه ، فكذلك يحب من يوصله إليه ، ولا سيما إذا لم يكن له إليه موصل غيره ، وكان كريماً يصدق الأمان ويكثر الافضال ويحب الدعاء ولا يحب الرجاء .

وكذلك هيجان القلب للذكر الحسن والتقرب بنوافل الخير ، وموالاة من يجده على طريقته ، ومناوأة من لا يجده وتبرئه منه ، والغلظة عليه كل ذلك من أركان المحبة في العبادات المعروفة ، وهو أمر لازم للطباع . وقد قال الله عز وجل : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ [1] .

وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الايمان ﴾ ، ومن يتولهم منكم ، فإنه منهم ﴾ [3] .

وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ [4] .

فدل ذلك على أن ولاية الله تعالى جده لا تفارق موالاة أعدائه من أعلام ولايته ومحبته والله أعلم .

فصل

فأما ادامة ذكر الله تعالى جده التي ذكرناها أنها من إمارات المحبة ، فقد جاء منها قول الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ [5]
وقوله عز وجل : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ [6]

وجاء عن رسول الله ﷺ ، وفي الأحوال التي يستحب الذكر فيها وفي فضيلته والحث عليه اخبار ، فمنها ما جاء في الحث على الاستكثار من الذكر ، فانه ليس شيء أفضل من ذكر الله ، ولو اجتمع الناس على ما أمروا به من ذكر الله ما كتب الله الجهاد على عباده وإن الجهاد شعبة من ذكر الله .

---

(١) المجادلة : ٢٢ — (٢) التوبة : ٢٣ — (٣) المائدة : ٥١
(٤) الممتحنة : ١ — (٥) الأحزاب : ٤١ — (٦) البقرة : ١٥٢

وفي هذا الحديث ان المراد بالذكر ليس هو الذكر باللسان وحده ولكنه جامع اللسان والقلب ، والذكر بالقلب أفضل لأن الذكر باللسان لا يردع عن شيء ، والذكر بالقلب يردع عن التقصير في الطاعات والتهافت في المعاصي والسيئات ، وعنه ﷺ ، انه أتى في طريق مكة على جبل فقال: (الله أكبر، هذا حمدان، سبق المؤذنون قالوا : ومن هم يارسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات) [١] .

وفي بعض الروايات : (الذين اهتزوا بذكر الله) . وعنه ﷺ ، فيما ذكر عن الله تعالى جده : (أنا مع عبدي ما ذكرني ، وتحركت بي شفتاه يعني باسمي وقال – ان أهل الجنة لا يتحسرون على شيء إلا على ساعة مرت بهم ولم يذكروا الله فيها) [٢] .

ومنها ما جاء في لزوم مجالس الذكر ومصاحبة أهله ، قال النبي ﷺ : (إذا مررتم برباط الجنة فارتعوا ، قالوا يا رسول الله ، وما رباط الجنة ؟ قال: مجالس الذكر، فأعدوا فيها وروحوا في ذكر الله) [٣] وعنه ﷺ : (ما لمجتمع قوم يـــذكرون الله الا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده) (٤) .

ومنها ما جاء في عمارة البيت بذكر الله عز وجل ، وقال النبي ﷺ : « مثل البيت الذي يذكر الله فيه ، والبيت الذي لا يذكر الله فيه كمثل الحي والميت » [٥] .

ومنها : الأحتراز من الشيطان بذكر الله تعالى جده ، يروى أن رسول الله ﷺ قال : « أوحى الله إلى يحيى ثم زكريا عليـــه السلام ان الله يأمر الناس بذكر الله تعالى » (٦) .

ثم قال : « مثل ذاكر الله كمثل رجل طلبه العدو رسارع في أثره حتى أتى حصنـــاً حصيناً فأحرز نفسه فيه ، فكذلك العبد لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله » [٧] وعنه

---

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .
(٢) ورد في صحيح البخاري « كتاب التوحيد » باب ١٥ ، ٤٣ ، وفي سنن ابن ماجــه « الادب » باب ٥٣ ، رقم ٣٧٩٢ .
(٣) لم يرد إلا في صحيح مسلم « الذكر » رقم ٢٥ .
(٤) ورد في سنن أبي داود « الوتر » باب ١٤ .
(٥) لم يرد إلا في صحيح مسلم « مسافرين » رقم ٢١١
(٦) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .
(٧) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

ﷺ : « أن الشيطان واضع خطمه في قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس وان نسي الله التقم قلبه » (١).

ومنها : ما جاء في مفارقة المجلس من غير ذكر الله تعالى جده فيه ثم يفرقوا عنـه الا كان كأنما يفرقوا عن صفة حمار ، وكان ذلك عليهم حسرة يوم القيامة .

ومنها : الذكر عند كل اضطجاعه ، قال النبي ﷺ : « من اضطجع مضجعاً لا يذكر الله فيه كان شره عليه يوم القيامة » (٢).

ومنها الذكر عند كل مشي ، قال رسول الله ﷺ : « من مشى مشياً لم يذكر الله فيه ، كان عليه برة يوم القيامة » (٣).

ومنها ذكر الله عز وجل عند كل حجر ومدر وشجر ، قال معاذ بن جبل رضي الله لرسول الله ﷺ ، أوصني ! قال : « اذكر الله عند كل حجر وشجـــر ، واتق الله ما استطعت » (٤).

ومنها الذكر في الخلوة ، قـــال رسول الله ﷺ لأبي زرين : « يا أبا زرين ، إذا خلو فأكثر ذكر الله » (٥) والأغلب أن المراد به في هذا الحديث ذكر القلب ، لئلا يكون منه في الخلوة ذنب لا يستطاع منه في الملاء . وعنه ﷺ : « سبعة في ظل الله يوم القيامة منهم رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » (٦).

ومنها الذكر في الملأ ، قال رسول الله ﷺ فيما يحكي عن الله عز وجل« أنا مع عبدي إذا ذكرني ، فإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وأطيب » (٧).

ومنها الذكر الخفي ، وهو ضربان : أحدهما الذكر في النفس ، وقد قال الله عز وجل

---

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٢) لم يرد الا في سنن أبي داود « الأدب » باب ٢٥ ، ٩٨ .

(٣) لم يرد إلا في مسند الامام احمد بن حنبل ج ٢ ، ص ٤٣٢

(٤) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٥) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٦) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٧) ورد في صحيح مسلم « الذكر » حديث رقم ٢ ، ١٨ ، ١٩ .

﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية ﴾ (١) والآخـــر ما دار به اللسان ولم يسمعه إلا صاحبه .

وقال النبي ﷺ : « خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي » (٢) .

وقال : « يفضل الذكر الخفي الذي لم تسمعه الحفظة على الذي سمعتـه الحفظة سبعين ضعفاً » (٣) .

ومنها الذكر عند الشدة قال رسول الله ﷺ : « فيما يؤثر عن الله جل جلاله : عبدي الذي هو عبدي حقاً الذي يذكرني وهو ملاق ﴾ (٤) . وعنه ﷺ قال : « طوبى لمـــن أكثر من ذكر الله جل ثناؤه في الجهاد ، والكلمة بسبعين ألف » (٥) .

ومنها : الذكر بعد الغداة إلى طلوع الشمس ، قـــال النبي ﷺ : « لأن أجلس إلى قوم يذكرون الله بعد صلاة الغداة إلى أن تطلع الشمس ، احب إلي مـــما طلعت عليه الشمس » (٦) .

ومنها – الذكر بعد العصر إلى غروب الشمس ، قال النبي ﷺ : « لأن أجلس مـــع قوم يذكرون الله بعد العصر إلى غروب الشمس أحب إلي مما طلعت عليه الشمس » (٧) .

ومنها : الذكر بين الغافلين قال رسول الله ﷺ : « ذاكر الله في الغافلين كالذي يقاتل في الغازين ، وذاكر الله في الغافلين مثل المصباح في البيت المظلم ، وذاكـــر الله في الغافلين مثله مثل الشجرة الخضراء وسط الشجر الذي قد تجاف ورقها ، وذاكـــر الله في الغافلين يغفر له بعدد كل فصيح وأبكم ، وذاكر الله في الغافلين يعرفه الله مقعده في الجنة » (٨) .

ومنها : الاشتغال بالذكر عن الملة ، قال رسول الله ﷺ ، فيما ذكره الله عز وجل :

---

(١) الأعراف : ٢٠٥

(٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٤) لم يرد الا في سنن الترمذى « دعوات » باب ١١٨

(٥) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٦) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٧) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٨) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

« من شغله ذكري عن ملتي ، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » [1] ثم الذي شذ عن هذا كله ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « من أكثر من ذكر الله بريء من النفاق » (٢) .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله ﷺ أي الايمان أفضل ؟ قال : « أن تعمل لسانك في ذكر الله » [3] فبان بهذا ان ذكر الله تعالى إيمان وإذا كان الذكر وهو مما يبعث عليه الحب والخوف، وكل واحد منهما كسب العبد، ثبت انهما إيمان، كما أن عقد القلب لما كان هو الباعث على الإقرار باللسان ، وكان الإقرار إيماناً ، كان الإعتقاد إيماناً ، والله أعلم .

وإذا كان محل ذكر الله عز وجل ما وصفت ، كان من حق العبد ان يحافظ عليه ، ولا يخل به ما استطاع ثم أن يتخري من الاذكار ما طهر فضله وجاء عن رسول الله ﷺ ، الحث عليه . فمن ذلك قوله الذي صح منه : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » [4] .

ومن ذلك ما جاء عنه ﷺ أنه قال . » أربع كلمات لا تضرك بهذه دابة : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » (٥) . وقد خصت بهذه الاذكار صلاة شرع التنفل بها لمن أحب ، فروي أن النبي ﷺ قال لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لمـا قدم من أرض الحبشة : « الا أخبرك الا لنجيك » (٦) فعلمه هذه الصلاة .

وروي عنه ﷺ أنه علمها العباسي ، وأمره أن يصليها كل يوم مرة فقال لا أستطيع قال ففي كل جمعة . قال : لا أستطيع . قال : في كل شهر . فقال : لا أستطيع. قال : ففي كل سنة مرة تكبر الله وتقرأ الفاتحة وسورة ثم تقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر خمس عشرة مرة ، ثم تركع فتقولها عشراً ، ثم ترفع فتقولها عشراً . وفي الثانية مثل ذلك ، فذلك مائة وخمسون مرة ، ومن ذلك الاستغفار .

---

(١) لم يرد إلا في سنن الترمذي « ثواب القرآن » باب ٣٥ .
(٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .
(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .
(٤) ورد في صحيح البخاري « كتاب ايمان » ١٩ ، وفي صحيح مسلم « دعوات » باب ٣١
(٥) ورد في صحيح مسلم « أضاحي » باب ٤٣
(٦) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

قال الله عز وجل : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ (١) .

وجاء عن النبي ﷺ : أنه قال : « للقلوب صدأ كصدأ النحاس، وجلاؤها الاستغفار » (٢)

وعنه ﷺ : « من أكثر من الإستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، وفي كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب » (٣) وقال « اني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » (٤) .

وعنه ﷺ : « ما لقي عبد ربه في صحيفته بشيء خير له من الاسلغفار » (٥) .

وعنه ﷺ : « من استغفر الله إذا وجبت الشمس سبعين مرة غفر له ذنبه » (٦) وشكا إليه ﷺ حذيفة دون اللسان على أهله ، وقال إني أخشى أن يدخلني النار : فقال له : « فأين له أنت يا حذيفة من الاستغفار ، فإني أستغفر الله كل يوم مائة مرة » (٧) وبالله التوفيق .

★ ★ ★

(١) نوح : ١٠

(٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٣) ورد في مسند الامام احمد بن حنبل جـ ١ ، ص ٢٤٨ ،

(٤) ورد في مسند الامام أحمد بن حنبل جـ ٤ ، ص ٢٦١ .

(٥) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٦) ورد بهذا المعنى في سنن ابن ماجة « الادب » باب ٥٧

(٧) ورد في سنن ابن ماجة « الادب » باب ٥٧

الحادي عشر من شعب الايمـــان

ـ وهو باب في الخوف من الله تعالى ـ

قال الله عز وجل : « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » (١) .

وقال تعالى : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشوني ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وإياي فارهبون ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية ﴾ (٤) .

وأثنى على ملائكته بخوفهم فقال : ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ (٥) .

ومدح أنبياءه عليهم السلام وأولياءه مثل ذلك فقال : ﴿ إنهـــم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصـــل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ (٧) .

وعاتب الكفار على غفلتهم ، فقال : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وقـــد خلقكم أطواراً ﴾ (٨) فقيل في تفسيره ما لكم لا تخافون عظمة الله ، وذمهم في آية أخرى فقال : ﴿ الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ (٩) . أراد به لا يخافون.

فدل جميع ما وصفنا على أن الخوف من الله من تمام الاعتراف بملكه وسلطانه ، ونفاذ مشيئته في خلقه . فان اغفال ذلك اغفال للعبوده ، إذ كان من حق كل عبد ومملوك أن

---

(١) آل عمران : ١٧٥ — (٢) المائدة : ٤٤ — (٣) البقرة : ٤٠
(٤) الأعراف : ٢٠٥ — (٥) الانبياء : ٢٨ — (٦) الانبياء : ٩٠
(٧) الرعد : ٢١ — (٨) نوح : ١٤ ، ١٣ — (٩) يونس : ٧ ، ١١

يكون راهباً لمولاه لثبوت يد المولى عليه ، وعجز العبد عن مقاومته ، وترك الانقياد له .
والخوف على وجوه :

احدها : ما يحدث عن معرفة العبد بذلة نفسه ، وهو أنها وقصورها وعجزها عن الامتناع عن الله تعالى ، إن أراده بسوء . وهذا نظير خوف الولد والديه ، وخوف الناس سلطانهم ، وان كان عادلا محسناً ، وخوف المماليك ملاكهم .

والثاني : ما يحدث من المحبة ، وهو أن يكون العبد في غاية الأوقاف وجلا من أن يكله الله إلى نفسه ويمنعه مواد التوفيق ، ويقطع دونه الأسباب . وهذا خلق كل مملوك أحسن إليه سيده يعرف قدر إحسانه واجبه عليه ، وانه لا يزال مشفقاً على منزلته عنده ، خائفاً من السقوط عنها والفقد لها .

والثالث : ما يحدث عن الوعيد ، وهذا دون هذه الأنواع وتألفها بالأنفس الخسيسة التي لا يأتيها ولا قوي فعلها مريض . ومن كان من هذا النوع فإنه قد يحدث عند الهم بالمعصية ، فاما أن يردع عن مواقعها فيكون قد وقع . واما أن لا يقطع به إرتداع فيصير سبباً ليغلظ المعصية ، فان مواقعتها على ذكر من الوعيد ، أغلظ من مواقعتها على غفلة وسهو عنه ، وقد يحدث بعد المعصية ، فاما أن يحدث يوماً عاجلا أو آجلا ، فيكون قد أفاد خيراً ، وأما أن يتبعه سهو ونسيان ، فيعود الخائف بعده كما كان .

وقد نبه الكتاب على هذه الأنواع كلها . **فأما الاول** فقوله عز وجل : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ [1] أي تخافون لله عظمة . ولا فرق بين أن يقول السيد لمملوكه : ما لك لا تخاف سلطاني ومملكتي ، وبين أن يقول له : ما لا تعرف نفسك قدرها ، ولا ينزلها منزلة مثلها . فبين أن الكلامين يراد بهما تقدير حال العبد عند نفسه لئلا يأمن من سطوة سيده ، ويدعوه ذلك إلى مفارقة طاعته .

وأما ما هو أبين من هذا فقوله عز وجل : وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفوراً ، أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلا . أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا علينا به تبيعاً ﴾ [2] .

---

(١) نوح : ١٣

(٢) الاسراء : ٦٨

فعرفهم أنه لا ينبغي لهم في حال من الأحوال أن يفارقوا طاعته أو يقصروا فيه مستبشرين منه أمر لما يرونه من نعمه السابغة عليهم مقدرين أنه راض منهم بالتستر من الطاعة التي يوفونه من أنفسهم، فإنه لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون. بل سبيلهم في الأحوال كلها أن يكونوا مشفقين من سخطته ومؤاخذته، محضرين بقلوبهم انه ان أراد بهم بلاء سوى دونه ما كان لم يجدوا من يدفعه عنهم ولا من يمنعه بما يهلكهم منهم.

واما الثاني: فإن الله عز وجل أثنى على الذين يدعونه فيقولون: ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ [1] وسماهم راسخين في العلم. ومعلوم أن أحداً لا يدعو فيقول: رب لا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، إلا وهو خائف على الهدى (الذي) أكرمه الله تعالى به، من أن يسلبه إياه. كما أن أحداً لا يدعو: رب لا تسلبني سمعي وبصري بعدما جعلتها لي، وهو خائف عليها، وجل من ذهابها.

فلما أثنى الله تعالى على الداعين إياه بما ذكرنا، كان ذلك الثناء في الحقيقة مما استحقوا بمعرفتهم قدر النعمة عليهم في هداية الله تعالى إياهم، وحبهم بها، لان دعاءهم عنها بشأنها ولاجلها كان وقال عز وجل حكاية عن أهل الجنة أنهم يقولون: إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ [2].

وجاء في التفسير: أنهم كانوا مشفقين من أن يسلبوا الايمان ثم يوردوا يوم القيامة موارد الأشقياء، وكانوا يدعون الله تعالى بأن لا يفعل بهم ذلك، وهذا عين ما ذكرت، والقول في عامة نعم الله تعالى كالقول في الاسلام، وإن كان الاسلام أعلاها وأعظمها.

وجاء عن النبي ﷺ أنه كان يدعو: «رب لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» [3] وهذا أيضاً للاشفاق من أنه إذا سلب التوفيق لم يملك نفسه ولا يأمن أن يضيع الطاعات ويتبع الشهوات فينبغي لكل مسلم أن يكون هذا الخوف من همه وبالله التوفيق.

---

(١) آل عمران: ٨ (٢) الطور: ٢٦ - ٢٨

(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة، وانما ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ ١، ص ٤١٢ حديث مشابه وهو: «فانك ان تكلني الى نفسي تقربني من الشر».

واما الثالث : فما أكثر ما في القرآن من ذكره والبعث عليه . قال الله عز وجل في غير موضع : يا ايها الناس اتقوا ربكم [1] وقال ﴿ وإياي فاتقون ﴾ [2] . وقال : واتقوني يا أولي الألباب [3] وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ، وقودها الناس والحجارة ﴾ [4] .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المجتمعة المعاني ومرجعها إلى الأمر بالتقوى . وهو أن يقي المخاطبون أنفسهم نار جهنم بفعل ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه . ومعنى اتقوني : اتقوا عذابي ومؤاخذتي ، والكلام لا يحتمل غيره والله أعلم .

ولعل الاخافة بالوعيد إنما هي لأنه ليس كل مخاطب يكمل لأن يلتقي ما يعرفه من ذلة نفسه وعظمة الله تعالى عن التحويل على ما فيه رضى الله تعالى بالوعيد ، فكان الوعيد بينها لأهل الغفلة ، ودلالة على ما في العصيان من الشقوة . وقد جاء في هذا المعنى أخبار كثيرة مرجعها إلى ما ذكرت والله أعلم .

فصل

وقد يجد الناس في أنفسهم الخوف من أشياء كثيرة مثل خوف الوالد من موت ولده، وذهاب ماله والغرق أو الحرق أو الهدم ، أو ذهاب السمع أو البصر أو الوقوع بيد سلطان جائر أو ابتلاء بسبع أو عدو ومن كان وما يشبه ما ذكرنا من أصناف المكاره ، إلا أن هذا ينقسم إلى محمود ومذموم :

فالمحمود أن يكون الخوف من هذه الأمور مما يمكن أن يكون تحتها من سخط الله جل ثناؤه ، فانها قد تكون عقوبات ومؤاخذات ممن خافها وامتنع لأجلها من المعاصي خيفة النار ، وكذلك ان خشي أن يكون أخذ الله تعالى منه ما أعطاه ايلاء واختباراً حق ان صبروا واحتسب اثابة ، وان جزع واضطرب لم يسلم لقضائه ، زاده مثلها ، فخاف ان ذلك ان كان لم يملك نفسه ، وكان منه بعض من لا يحبه الله تعالى جده . ومن

---

(١) النساء : ١
(٢) البقرة : ٤١
(٣) البقرة : ١٩٧
(٤) التحريم : ٦

هذا الوجه كان إشفاقه وكراهيته لهذه الأمور . فهذا أيضاً محمود ، وهذا خوف ينشأ من المحبة والتعظيم جميعاً.

وأما المذموم فهو أن يكون خوفه بعض هذه الأمور لحرصه على ماله منها من المنافع الدنيوية ، وشدة ركونه إليها في مثله إلى التكثر بماله منها ، والتوصل بها إلى ما يريد ويهوي ، كان في ذلك رضى الله أو سخطه ، وإنما كان هذا مذموماً للغرض الذي كان ينشأ هذا الخوف، ولأن جميع نعم الله عند العبدمن مال وولد وما يشتهيها إنما هيعوادي والركون الى العوادي ليس من فعل العقلاء والمخلصين .

فصل

فأما شرائع الخوف فمنها أن يتهيب العبد بآيات الله التي يهب خلقه لخسوف الشمس والقمر والزلازل والرياح والعواصف والرعد والبرق والظلمة في غير وقتها ، وانقطاع المطر في وقته ونحو ذلك .

فإن الله عز وجل وضع في قلوب عباده الانزعاج لهذهالحوادث، كما وضع فيهاالسكون والطمأنينة لما يخالفها ، فلما كان ضياء الشمس والقمر ، وهدوء الارض وسكون الرياح المؤذية وخلق السحاب من الرعد والبرق وصفاء الهواء ونزول المطر في وقته نعمة . وروحاً من الله تعالى ورحمة وجب أن يكون ما بخلافها تهيباً وتخويفاً ومؤاخذة .

قال الله عز وجل : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾[1] فمن غفل عمن يبدو له من ذلك ولم يترك لأجله قبيحاً كان فاعله ازداد جرمه وتغلظ ذنبه واستحق من العقاب ما لم يكن مستحقاً قبله .

وقال النبي ﷺ : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفا لموت واحد ولا لحياته،فإذا رأيتم ذلكفافزعوا إلى ذكر الله تعالى»[2] وفي روايةأخرى (إلى الصلاة).

---

(١) الاسراء : ٥٩

(٢) ورد في سنن ابن ماجة « الاقامة » باب ١٥٢ حديث رقم ١٢٦١ ، ١٢٦٣ ، وفي صحيح البخاري « بدء الخلق » باب ٤ ، وفي باب الكسوف - باب ١ ١٣٠ .

وفي حديث آخر : « ولكن الله إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له »[1] فقد يحتمل أن يكون معنى هذا أن الله تعالى إذا ظهرت قدرته على شيء حدث فيه ما يريد ، ولم يكن منه إمتناع عليه .

وكذلك إذا تجلى لكم بأن خالف بكم ما عودكم وسلب الشمس ضياءها في نهاركم ، أو القمر نوره في ليلكم ، فأحسنوا له بأن تصلوا وتسبحوا وتقدسوا وتستغفروا ولا يمنعكم عن ذلك أن تقولوا : عن قريب ستجلوا إعتماداً على عادة الفتموها ، فإنه إذا تجلى كان ذلك التجلي إبتداء نعمة منه ينعمها عليه ، وليس يجوز أن يكون لتحديد النعمة سبباً للاخلال بشكر ما سلف فيها والله أعلم .

ومنها التخشع عند قراءة القرآن وسماعه وذكر الجنة والنار كما قال عز وجل: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾.

وقال جل ثناؤه : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾[2] .

وقال جل ثناؤه : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾ (٣) ، أي لو كان من حقه أن لا يستقر بل يتصدع من خشية الله فكتب لا تراه ان رأيته إلا متصدعاً ، فكيف بقلب المؤمن الذي هو ألين من الجبل انه بالخوف والخشية والتهيب والرهبة أولى وأحق .

ويحتمل أن يكون المعنى . ان قلب الكافر الذي إنما هو كمضغة لحم ليس بلين لقبول مواعظ القرآن ولا لنبين اعجازه وما فيه من صدوف حجج الله على عباده ، أي فقد كان بان يخشع أولى من الضجر لولا أن الشقي لا ينقلب سعيداً ، والخبيث لا يتبدل طيباً ، وما ذكرنا في هذا الفصل فلا يكاد يخفي وجهه ، لأن الرهبة من الله تعالى وإن كان حقها أن لا يلزم المؤمن دائماً ، فإنها عند تجدد العهد بسماع الوحي ، والوعد والوعيد ، أحق وأخلق .

ولهذا كان النبي ﷺ يبكي إذا قرأ بالليل في صلاته حتى يكون لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء ، وكان إذا مر بآية رحمة سأل الله رحمته ، وإذا مر بآية عذاب إستعاذ بالله

---

(١) ورد في سنن ابن ماجه « الاقامة » باب ١٥٢ ، حديث رقم ١٢٦٣ .

(٢) الزمر : ٢٣ (٣) الحشر : ٢١

من عذابه ، فكذلك ينبغي للمؤمن سواه أن يكونوا هم أولى بذلك منه إذا كان الله تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانوا من أمرهم على خطر – وبالله التوفيق – لما يرضيه والعياذ مما يسخطه انه أولى للامرين ومالكهما برحمته .

ومنها إساءة الظن من كل أحد بنفسه حتى لا يظن في حال قط إلا أنه مقصر في حق الله تعالى جل جلاله وغير موف حق العبودية كما يلزمه ، وإن كان مؤدياً للفرائض غير مخل بها أمرها وتهتكاً لا تبدو وطاعة ولا مواقع معصية ، وذلك أن يعتقد أن ما كلفه الله عز وجل إذا كان لا يستغرب وسعه ولا يستنفد طرفه .

وكان الله عز وجل خلقه لعبده ، فهو إذا قد أبقى عليه كثيراً من حقه ، ثم انه إذا كان أمره أن يعبده بما يثبه له وفضله على شرط الاخلاص ، فقال : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ (١) وكان لا يصلي إلا وما في قلبه من أشغال الدنيا أكثر من شغل الصلاة ، أو لا يخلو من اختلاطها به ، ولعله مع ذلك يرابي ، ويتصنع ولا يزكي إلا من جزاء الدفع ، مماطلا ثم متساهلا بنفسه فيما يعطي وفيمن يعطي .

ولا يصوم إلا متبرماً بالصيام مستطيلا للنهار ، مستعجلا للمساء ، ومعرضاً للنوم ، لئلا يشعر بالصوم ، أو مستكثراً من الطعام لئلا يبين عليه أثر الصيام ، أو حافظاً للامساك عن الطعام والشراب ، ما لو وقع في أعراض الناس وغير ذلك مما لا يجوز ولا يحل .

ولا يحج إلا مدافعاً بالفرض مستبيناً ثم مكداً للطهر محملا إياه ما لا يطيقه ولا يكون في أوله وآخره إلا غافلا عما شرع الحج له حتى يدعوه ذلك إلى أن يكون بعده كما كان قبله أو شراً منه .

فكيف يجوز له مع هذا كله ومع ما تركناه من أمثاله ، فلم يمكنه أن يرى أنه قد وفى حقوق الله تعالى فيؤديه ذلك للامن وسكون الحساس فالاولى به إذا ، ان أهيي له داعياً إليه في العفو والغفران . فإن ذلك أشبه بالعبودية والاستكانه والله أعلم .

ومنها أن التخوف لا يحق إلا من الله عز وجل لأنه ملك الملك وولي النفع والضر والأخذ والترك والنواصي كلها بيده ، لا يملك أحد من دونه ضراً ولا نفعاً . وقد يقصد الواحد من عباده أن يسيء إلى مثله ، فيصرف قلبه عنه ، إما إلى الاساءة وإما إلى الحرمان .

---

(١) البينة : ٥

قال الله عز وجل حاكياً عن هود صلوات الله عليه أنه قال لقومه :﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وإياي فارهبون ﴾ (٢) وقال : ﴿ وإياي فاتقون ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ (٤) فقيل تفسيره هو أهل التقوى ، هو أهل ان يتقى فلا يعفي وهو أهل لن يغفر لمن اتقى أي لا أحد يستحق أن يتقى غيره .

وقال جل ثناؤه ﴿ فلا تخشوا الناس واخشوني ﴾ (٥) وقال ﴿ فلا تخافوهم – يعني الشيطان – وخافوني إن كنتم مؤمنين ﴾ (٦) وذم قوم يخشون غيره فقال ﴿ فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾ (٧) فذم هؤلاء كما ذم الذين يتخذون أنداداً من دونه فيحبونهم كحب الله .

فان ما ذكرنا أن الخوف من الله تعالى جده وحده ، فمن خاف غيره فانما صرف إليه حقاً من حقوق ربه ، فاما من أخلص للخوف له ، فإنه جل جلاله مدحه وأثنى عليه ووعده إلا من يوم الفزع ، فقال : ﴿ أن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ (٨) .

وقال : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾(٩) .

وقال : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى ﴾ (١٠) .

وقال : ﴿ ومن يتق الله يجعل الله له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ (١١) .

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : « لن يلج النار حتى يكتب من خشية الله حتى يعود اللبن إلى الضرع » (١٢) .

---

(١) هود : ٥٦ (٢) البقرة : ٤٠ (٣) البقرة : ٤١
(٤) المدثر : ٥٦ (٥) المائدة : ٤٤ (٦) آل عمران : ١٧٥
(٧) النساء : ٧٧ (٨) الملك : ١٢ (٩) النور : ٥٢
(١٠) النازعات : ٤٠ - ٤١ (١١) الطلاق : ٢ ، ٤
(١٢) لم يرد إلا في مسند الامام احمد بن حنبل ، جـ ٤ ، ص ١٣٦ .

وأما ما يخص قولنا أن الخوف من الله تعالى إيمان فالدلالة عليه قوله : ﴿ وخافوني إن كنتم مؤمنين ﴾ (١) . فلما كانت طاعة الله ورسوله إيماناً كان خوف الله إيماناً . وقوله جل جلاله : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ﴾ (٢) فإنه تعالى طالب الخشوع من قد آمن واستطابه فيه لاجل ما قدم من الايمان . فدل ذلك على أنه طاعة من الطاعات التي يحرك عليها الايمان ، فوجب أن يكون إيماناً كأمثاله . ويقدر بهذا أن ضد الخوف الأمن، والأمن من الله تعالى من غير إيمان منه كفر ، لأن ذلك لا يقع من صاحبه إلا على أحد أوجه :

اما أن يقدر به عجزاً عن مؤاخذته ويظن به اغفالا وتصنعاً لأمره. أو يرى أنه راض عنه غير مفكر ما يفعله أو يتركه ، إذ كان لا يفعل إلا ما أمر به ولا يتركه إلا ما نهاه عنه ، أو يحسب أن ما يفعله يخفى عليه ، فلا يعلمه . وكل هذه الأوجه ترجع إلى إضافة النقص إلى الله تعالى وإجازته عليه وذلك كفر .

ولعل قائلا يقول في هذا الموضع : ما في ظن العبد أنه إذا أقام الطاعات وتجنب المعاصي ، فلا ينبغي أن يكون عليه خوف ما ينبغي أن يلام عليه .

فيقال له : موضع الخلاص في هذا أن الله عز وجل على العبد سلطاناً من غير وجه الأمر والنهي ، وهو انه يملك أن يسلبه ويعرضه للمصائب والمكاره من غير ذنب يكون منه كما يفعل ذلك بغيره واحد من رسله صلوات الله عليهم .

وقال نبينا ﷺ : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل »(٣) . فإذا اعتقد العبد أنه إذا أدى الطاعة في أمره ونهيه فلا ينبغي أن يخافه، فإذا اعتقد أن لا سلطان له عليه للامر قبل التكليف ، وهذا كفر . ثبت أن الأمر من الله تعالى بلا نص إيمان يكون منه جل ثناؤه وكفر ، فوجب أن يكون ضده وهو الخوف إيماناً وبالله التوفيق .

---

(١) آل عمران : ١٧٥ (٢) الحديد : ١٦

(٣) ورد في سنن ابن ماجة « الفتن » باب ٢٣ ، رقم الحديث ٤٠٢٣ ، وفي سنن الترمذى « الزهد » باب ٥٧ .

الثاني عشر من شعب الايمان

وهو باب في الرجاء من الله جل جلاله

وهو على وجوه :

احدها : رجاء الظفر بالمطلوب والوصول إل المحبوب .

والثاني : رجاء دوامه بعدما قد حصل . **والثالث** : رجاء دفـــع المكروه وصرفه لئلا يقع . **والرابع** : رجاء الدفع والاماطة لما قد وقع .

وكل ذالك حسن جميل على التفضيل الذي بينا ذكره للدعاء ، وإذا استحكم الرجـــاء حدث عنه من التخشع والتذلل نحو ما يحدث عن الخوف إذا استحكم لأن الخوف والرجاء متناسبان إذ الخائف في حال خوفه يرجو اخلاف ما يخافه ويدعو الله به ويسله صرفه ، فلا خائف إلا وهو راجي ، ولا راجي إلا وهو خائف ، ولذلك كانت طريقتهما في الدعاء والاستكانة واحدة فالراجي بقوة رجائه وشدة رغبته فيما يرجو لا يبقى شيئاً أو يرى أنه يقرب مراده إلا وينتهي إليه ، والتذلل لمن وقعت الحاجة أولى سبب لتقريب المراد ، لان من إليه حاجة إذا كان كريماً - أي لصاحبها - يتذلل لله حقاً ، وأوجب له به ثواباً ، وقد علم أنه لا ثواب أحسن موقعاً عنده من نيله ما يريد ، وهو يجيبه ولا يخيب رجاءه .

والدعاء والجملة من جملة التخشع والتذلل ، لأن كل من سأل ودعا فقد أظهر الحاجـة وباح بها واعترف بالذلة والفقر والفاقه لمن يدعوه ويسأله ، فكان ذلك في العبـــد نظير العبادات التي يتقرب بها إلى الله عز اسمه ، ولذلك قال الله عز وجل : ﴿ أدعوني أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ (١) فأبان الدعاء عباده ، والخائف فيما وصفنا كالراجي لأنه إذا خاف خشع وذل لمن يخافه ، وتضرع اليه في طلب التجاوز عنه .

---

(١) غافر : ٦٠

فإذا وقع ذلك من العبد لله جل ثناؤه، كان ذلك في الاعتراف بالحاجة إليه والذلة له، نظر عباداته التي يتقرب بها إليه، ولأجل تناسب الأمرين جمع الله تعالى بينهما في غير آية من كتابه فقال: ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً أن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ (١) فالخوف للاشفاق، والطمع للرجاء. وقال في قوم مدحهم وأثنى عليهم: ﴿ يرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾. وقال: ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ (٢).

فالرغبة والرجاء والرهبة والخوف، وإنما كان الرجاء من شعب الايمان لأنه من امارات التصديق، وامارات التصديق كلها إيمان فكذلك الرجاء. وبين ما قلنا ان من لا يصدق بأن له رباً أمره بهذه وهو على ما يشاء قدير، لا يرجوه، فإن من الموجود بيننا ان كل عبد فإنما يأمل الخير من قبل مالكه ولا يأمله حتى يعلم مالكه أنه قادر على إبطاله، فدل ذلك على أن تعليق العبد أمله بالله تعالى تصديق منه به وبملكه وقدرته موجودة. فوجب أن يكون ذلك إيماناً كسائر ما تحرك عليه التصديق.

وقد ضرب بعض العلماء الآيات: ان التصديق قد يكون بالفعل كما يكون بالقول مثلا. فقال: لو أن رجلا قال لرجل في يوم تسفر السماء فيه مصحية والشمس طالعة. انا نظر الساعة فقال الآخر: صدقت فسميناه مصدقاً. ولو أنه بعد قوله قام يجمع ثيابه ويكنس سطحه ويفتح مجاري الماء لما عد الصلاه هذه الأفعال دون قوله صدقت. بل أجروه مجراه وجعلوه تصديق مثله. فان هذا على أن كل ما كان من اجازات التصديق بالله تعالى فهو إيمان كالاقرار والله أعلم.

فان قيل: فإن ضد الرجاء اليأس، أتقولون أن اليأس كفر كما قلتم أن الرجاء إيمان.

قيل: الرجاء يوقع الخير من الله تعالى للعلم بانه بيده لا مالك له غيره ولا مانع لما أعطاه لا معطي لما منع، وضده صرف الأهل عن الله تعالى.

أما التكذيب به أو بانه الرازق والمعطي والمانع والمدبر والمقدم والمؤخر، والرجاء على الوجه الذي ذكرت ايمان، واليأس على الوجه الذي وصفت كفر، قال الله عز وجل حكاية عن يعقوب ﷺ: ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ (٣).

---

(١) الاعراف: ٥٦ (٢) الانبياء: ٩٠ (٣) يوسف: ٨٧

وأما إذا كان الياس على وجه الاستبعاد للمأمون ، وترجح أنه لا يكون ، على أنه يكون في النفس فذلك خطأ وضلال . وقال الله عز وجل : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ (١) .

ويدخل في الرجل يسرق على نفسه ، وينهمك في المعاصي ويغرق في الذنوب ثم لاينزع عنها ولا يتوب ما يطأ من أن تنفعه التوبة مع عظم ذنوبه وطول أيامها فهـــذا مثل جهل وخطأ ، لأنه لو لم يكن في النزوع إلا قلة الذنوب لكان ينبغي له أن يختار على التمادي والاصرار فكيف وفيه تمحيص ما مغني وتكفيير ؟

وفي هذا يدل قوله عز وجل : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ (٢).

ويدخل فيها الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها . قال : ﴿ أنى يحي هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال ، كم لبثت ، قال : لبثت يوماً أو بعـض يوم قال : بل لبثت مائة عام . فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظـــر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً ، فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ (٣) ، أي لا تستبعدن مع علمك بقدرته أصـــلا . وبالله التوفيق .

والقول في الخوف نظير القول في الرجاء : **فلو سأل سائل فقال :**

إذا كان الخوف من الله جل ثناؤه إيماناً ، أتقولون أن الامن منه كفر ؟ **قيل له :** الذي نشأ عن المعرفة بالله جل ثناؤه إيمان ، والأمن الذي ينشأ عن الجهل به كفر ، وأما مـــا يشبه الامن من الانهماك إلى المعاصي ، وترك اخطار العقبى بالقلب من غير جهل بالله تعالى، فإنه غفله وضلال وليس بكفر . وهذا يقع من العبد على وجهين :

احدهما : أن يرى نفسه قد ركب من المعاصي رأسه ، ولا يرى من الله جـــل جلاله تغييراً عاجلا فيغفل عن المؤاخذة وينساها أصلا ، ولا يرى من الله جل جلاله كالماشين ، إذا استمرت بهم أيام الحر وتطاولت عليهم بسوء البرد، وغفلوا عنه فلم يذكروه ولم يخطر بقلوبهم انه آتيهم ، فيستعدوا إلى أن يهجم عليهم بغته .

---

(١) الحجر : ٥٦ (٢) البقرة : ١٩٥ (٣) البقرة : ٢٥٩

والاخر : ان يركن إلى حسنات يعلمها لنفسها خلال السيئات ، فيقول في نفسه لئن كنت أسيء فلقد أحسن قبل بتلك ، فإن هذا الحكم وهذا التعديل يكون أعظم ذنوبه إذ الحكم لله جل ثناؤه ولا للعبد ، والله عز وجل لم يأمره إلا بالاحسان ، ولم يأذن له ، فليس إذا أحسن في شيء أن يسيء في غيره ، ثم يزيد على ذلك أن يحكم لنفسه ويعدل إساءته بإحسانه من غير علم منة ، بقدر حسنة ولا بقدر سيئة ، فإنما علم ذلك عند الله عز وجل دون غيره وبالله التوفيق .

وقال بعض أهل العلم : الرجاء واسطة بين المعرفة والطلب فان من لا معرفة لهبالمرتجى لا خيراً له فيه على الطلب لمعرفة تبعث على الرجاء ، والرجاء على الطلب ، والخوف واسطة بين المعرفة والهرب ، والمرتجى هو الخير أو ما يظن به أنه خير ، والمخوف هو الشيء ، أو ما يظن به أنه شر .

وكل ما ذكرته في باب الخوف من أنه لا ينبغي أن يكون الرجاء إلا لله جل جلاله إذا كان المنفرد بالملك والدين ، ولا يملك أحد من دونه نفعاً ولا ضراً ، فمن رجا ممن لا يملك ما لا يملك فهو من الجاهلين ، وإذا علق رجاءه به جل ثناؤه فينبغي أن يسأله ما يحتاج إليه صغيراً و كبيراً ، لأن الكل بيده لا قاضي للحاجات غيره ، وسؤاله إنما يكون بالدعاء على ما سنبينه .

قال الله عز وجل : ﴿ أدعوني أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ (١) ولم يزل الدعاء دأب الأنبياء الذين خلفهم أئمة وأمر أن يقتدي بهم فهداهم ذكر الله عز وجل : ان أبانا آدم صلوات الله عليه لما ابتلي بالخطيئة ، فرغ إلى الدعاء ، وامنا عليهما السلام معه كذلك فقالا : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (٢) .

وان نوحاً عليه السلام لما طال عليه الأذى من قومه لجأ إلى الدعاء فقال : ﴿ ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ (٣) ولعل بدله كان قوله : ﴿ إني مغلوب فانتصر ﴾ (٤) .

---

(١) غافر : ٦٠ (٢) الاعراف : ٢٣
(٣) الأنبياء : ٢١ (٤) القمر : ١٠

وقوله : ﴿ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ (١) أو غير ذلك مما دعـــاه ولم يحكه عنه .

وان أيوب ﷺ لما أبرح عليه البلاء دعاه فقال: ﴿إني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾ (٢) ﴿إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾(٣) فاستجاب له ربه ، فكشـف الضر عنه وأتاه أهله ومثلهم معهم .

وان ذا النون نادى في الظلمات : ﴿ أن لا إله إلا أنت ، سبحانك اني كنـــت من الظالمين ﴾(٤) فاستجاب له ونجاه من الغم .

وان زكريا ﷺ دعاه لما تمنى أن يكون له ابن يرثه فقال: ﴿ رب لا تذرني فردا ﴾(٥) ﴿ فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيـــاً ﴾ (٦) فاستجاب له بيحيى .

ثم ان عز وجل ابان أنه جعل إجابة دعوات المذكورين صلوات الله عليهم أجمعين ثواباً لها بأعمالهم الصالحة ، فقال : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهبـاً وكانوا لنا خاشعين ﴾ (٧) متذللين بالطاعة خائفين حذرين ، فجعلنا إجابتهـم إذا دعونا ثواباً لهم بطاعتهم ، إذ أمرنا وتعجيل ما سألونا جزاء لمسارعتهم إلا ما كلفنا . وفي ذلـك تحريك على الطاعة وزجر عن المعصية وحث على البدار إلى فعل المأمو ، ومجانبة التفريط والتقصير . والله أعلم .

---

(١) نوح : ٢٦ (٢) ص : ٤١ (٣) الانبياء : ٤٣
(٤) الانبياء : ٨٧ (٥) الانبياء : ٨٩
(٦) مريم : ٥ (٧) الأنبياء : ٩٠

ذكر فصول في الدعاء يحتاج إلى معرفتها

الدعاء : قول القائل يا الله ، يا رحمن يا رحيم ، وما أشبه ذلك وهو أيضاً نداء ، قال الله عز وجل : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، كهيعص ، ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ (١) . وقال ﴿ وزكريا إذ نادى ربه ، رب لا تذرني فرداً ﴾ (٢) وقال في آية أخرى ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال : رب ﴾ (٣) ومعنى رب ، يا رب . فثبت أن النداء دعاء .

ثم ان له أركاناً وآداباً ، **فأما اركانه فمنها** : أن يكون المرغوب فيه مما يبلغ فكر السائل إن سأله .

ومنها : أن لا يكون عليه في سؤال ما يسل حرج .

ومنها : أن يكون في السؤال غرض صحيح .

ومنها ـ أن يكون حسن الظن بالله جل ثناؤه عند الدعاء فتكون الاجابة أغلب في قلبه من الرد .

ومنها : أن يدعو الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى .

ومنها : أن لا يسل ما يسأل إلا بجد وحقيقة ، ولا يأخذ دعاء مؤلفاً فيسرده سرداً أو عن حقائقه غافل .

ومنها : أن لا يشغله الدعاء عن فريضة الله تعالى حاضرة فيفوتها .

ومنها : أن يكون دعاؤه سراً لا بالحقيقة ، لا اختباراً بربه جل ثناؤه .

ومنها : أن يصلح لسانه ، إذا دعا، ولا يخاطب ربه جل ثناؤه بما لو خاطب به كفؤه وقريبه ينسبه إلى قلة الحياء وسوء الأدب أوركاكة العقل .

ومنها : أن لا يدعو ضجراً مستعجلا يضمر ، إنه إذا في الوقت الذي يريده . والا

---

(١) مريم : ١ ـ ٣ (٢) الأنبياء : ٨٩ (٣) آل عمران : ٣٨

يدعو متعمداً خاشعاً يضمر أنه لا يزال يدعو أو يتضرع إلى أن يجاب ، وكلما زادت الاجابة عنه تراخياً :اد الدعاء تتابعاً وتراكناً .

ومنها : أن حاجته إذا عظمت لم يسألها الله تعالى مستعظماً إياها في ذات الله ، بل يسأله الصغيرة والكبيرة سؤالاً واحد ، ويرى منه الله تعالى في إجابته إليها عظيمة ،فتلك فيما تبلغه معرفتي أحد عشر .

فاما آدابه : فمنها : أن يقدم التوبة أمام الدعاء . ومنها : الجد في الطلب والالحاح .

ومنها : المحافظة على الدعاء في الرخاء دون تخصيص حال الشدة والبلاء . ومنها : ان يعزم إذا سأل . ومنها : أن يدعو أملا فاته .

ومنها : أن يقتصر على جوامع الدعاء ما لم تعرض له حاجة بعينيها فينص عليها .

ومنها : افتتاح الدعاء وختمة بالصلاة على رسول الله ﷺ .

ومنها : أن يدعو وهو طاهر . ومنها : أن يدعو مستقبلا القبلة .

ومنها : أن يدعو دبر الصلاة .

ومنها : أن يرفع اليدين حتى يحاري بها النكبين إذا دعا .

ومنها : ان يخفض صوته بالدعاء .

ومنها : أن يمسح بيديه وجهه إذا فرغ من الدعاء .

ومنها : أن يحمد الله إذا عرف الاجابة .

ومنها : أن يخلى يوماً وليلة من الدعاء ويتحرى للدعاء الأوقات والأحوال والمواطن التي ترجى فيها الإجابة .

فاما الاوقات : فمنها : ما بين الظهر والعصر من يوم الأربعاء .

ومنها : ما بين زوال الشمس من يوم الجمعة إلى أن تغرب الشمس .

ومنها : الدعاء في الاسحار .

ومنها عند الأفياء .

ومنها : الدعاء يوم عرفة إلى أن تغرب الشمس .

واما الاحوال : فمنها حال النداء للصلاة . ومنها : حين فطر الصائم .

ومنها : عند نزول الغيث . ومنها : عند التقاء الصفين.

ومنها: عند اجتماع المسلمين على الدعاء. ومنها: إدبار المكتوبات. ومنها: عند القيام من المجلس.

وأما المواطن: فالموقفان والحرمان وعند البيت والملتزم خاصة وعلى الصفا والمروة.

فاما الفصل الاول

فتفسيره أنه ليس لأحد أن يتشبه بإبراهيم صلوات الله عليه وسلم، فيدعو الله جل ثناؤه ان يريه كيف يحيي الموتى. ولا أن يتشبه بموسى صلوات الله عليه فيقول: ﴿رب أرني أنظر إليك﴾ (١) ولا أن يتشبه بعيسى صلوات الله عليه فيقول: ﴿ربنا أنزل علينا مائدة من السماء﴾ (٢).

ولا لاحد أن يسأل الله جل ثناؤه إنزال ملك عليه فيسله عن خبر من أخبار السماء، واحياء أبويه واخياء ولده، لأن بعض العادات إنما تكون من أمر الله تعالى، التأييد من يدعو إلى ذنبه لشهوات العبادات ومنام إلا أن يكون السائل نبياً، فيجمع إجابته أثناء نبوته وتأييده بما يصدق دعوته، ولكنه ان دعا كما دعا نوح ﷺ فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾ (٣) جاز لأن الله عز وجل إنما فرض الجهاد ليقاتل المشركين. فاما أن يسلموا واما أن يستأصلوا، فمن دعا بهذا الدعاء فإنما يسأل تيسير ما أمر الجهاد لأجله، وليس ذلك من شهوات النفوس وأمانيها، وإنما يبعث عليه نقص من الله تعالى، فكان دعا النبي ﷺ وغير النبي واحد والله أعلم.

وليس لأحد أن يدعو فيقول: اللهم اجعل لي الصفا ذهباً، أو احبس لي الشمس، أو برد لي النار، لأن هذه أشياء خص الله لكل شيء منها نبياً، ليظهر بذلك محله وقدره عند عباده. فكان تحويل الصفا ذهباً مما ورد الخبر، بأن جبريل ﷺ نزل على نبينا ﷺ يخبره عن الله تعالى في ذلك. فقال: « بل أكون عبداً نبياً » (٤).

وحبس ليوشع بن نون صلى الله عليه الشمس، وتبريد النار لابراهيم الخليل صلوات الله عليه. فمن سأل الله تعالى لنفسه شيئاً من (هذا) فإنما يسأل الله أن يسوي بينهم وبينه ويلحقه فيما أهلهم له من ذلك بهم، فلا فرق بينه وبين من يقول: رب اسجد لي ملائكتك،

---

(١) الاعراف: ١٤٣ (٢) المائدة: ١١٤ (٣) نوح: ٢٦

(٤) ورد بهذا المعنى في سنن ابن ماجة « المناسك » باب ١٠٤، رقم ٣١١٣.

كما أسجدتهم لك ، أو رب كلمني كما كلمت موسى ، او أسر بي هذه الليلة إلى المسجد الأقصى كما أسريت بمحمد ﷺ .

فإذا كانت هذه الدعوات مما لا يجوز الاجتراء على الله بها ، فالأولى أمثالها والله أعلم .

وقد يجوز أن تحدث للعبد حاجة وضرورة فيسأل الله عز وجل كشفها عنه سؤالاً مطلقاً ، إلا أن الله عز وجل عند الإجابة ينقص له عادة أو يفعل ذلك به من غير مسكنة جزاء له لتوكله وقوة إيمانه ، مثل أن يكون في بادية لم يدخلها إلا في ثواب الله عز وجل على وجه ما دون له فيه ، فتصيبه مخمصة شديدة ، وليس معه ولا قربه أحد . فيقول : اللهم ادفع عني الجوع بما شئت فيحدث الله مكانه طعاماً فيأكله .

وإن أصابه برد شديد خاف على نفسه منه ولم يكن له ما يتدثر به ، فيقول : اللهم اصرف عني البرد بما شئت ، فيحدث له كسوة ليلبسها . أو يشبع الأول بلا طعام ، ويدفىء الثاني بلا كسوة .

ومثل هذا أن يسأل الله تعالى أعمى لا قائد له ، ولا أحد يسعى في حوائجه أن يرحمه ويكفيه بما شاء في وجوه كفاياته فيرد البصر عليه مكانه . لأن هذه ضرورات واقعة لا كاشف عنها إلا الله جل ثناؤه . فمن رغب عن هذه المسألة مع حدوث الضرورة فلم يوف العبودة حقها .

وإذا صح السؤال من العبد ووقع موقع الجوار ، فكثر ما أجاب الله به دعوته ، فهو داخل في حد الحكمة ، وليس يثني منه تخارج عنه والله أعلم .

وأما الفصل الثاني :

فهو ان ليس لأحد أن يسأل الله سبحانه وتعالى خمراً يشربها ، وامرأة يزني بها أو الظفر على غير حرج ليقطع عليها ونحو ذلك . قال الله تعالى لو أجاب دعاءه ، ويسر له ما يسأله لكان قد أباحه ذلك ، وأطلقه له ولم يكن عليه في فعل شيء من ذلك ما تم ، ولما كان بوقع التحليل من الله تعالى لذلك محالاً صح ان دعاءه ومسألة تيسيره وتسهيله محال غير جائز والله أعلم .

وجاء عن النبي ﷺ انه قال : (ما من مسلم يدعو الله ليس بشيء فيها قطيعة رحم ولا إثم

الا أعطاه الله إحدى خصال ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وأما أن يدخرهـــا له في الآخرة ، وأما أن يدفع عنه مثلها) (١) . فصح ان الدعاء بما فيه غير جائز ، إذ كان جزاؤه على الله تعالى ، وتوقع إجابته والله أعلم .

ويدخل في هذا الباب أن يدعو أحد بالشر على من لا يستحقه أو على بهيمة ، يروى عن رسول الله ﷺ انه سمع رجلا في سفره يلعن بعيره ، فقـــال : (من هذا اللاعن بعيره ؟ فقال : أنا يا رسول الله . فقال انزل عنه ، فانه لا يصحبنا ملعون)(٢) فعاجله بالإنزال عنه وهو في الحاجة اليه قائمة ، عقوبة له بلعنه .

ومعنى لا يصحبنا ملعون مدعو عليه باللعن ، لأن الذي أدركته اللعنة . ثم قال ﷺ (لا تدعوا على أنفسكم ولا على أولادكم ولا على أموالكم ، لا تواقعوا من الله عز وجل ساعة عطاء فيستجاب لكم) (٣) ومعنى هذا النهي عن أن يدعو الرجل على نفسه أو على مـــاله بالهلاك ، فيعطى ما سأل عقوبة له على دعائه لا إكراماً بالإجـــابة والنهي عن أن يلعن البهيمة فتهلك أو يبيد غيرها ، أو أن تقع بيد الأعداء فيقاتلوه عليها ، وكل ذلك عقوبة له بدعائه لا إكرام له بالإجابة والله أعلم.

واما الفصل الثالث :

فتفسيره أن يدعو الله تعالى مريض بالعافية ، فينبغي أن يكون غرضـــه في ذلك أن يبرأ ، فيصل ويصوم . أو يدعوه فقير فيسأله مالا ينبغي أن يكون ذلك ليسقط مؤونته عن المسلمين ويبرأ فيتصدق ويواسي . أو يدعوه فرد فيسأله ولداً . فينبغي أن يكون ذلك ليخرج من صلبه من يوحّد الله تعالى ويعبده ويعمل بشريعته . أو يسأله سائل عمراً طويلاً فينبغي أن يرغب في ذلك لتكثر طاعاته وحسناته .

فأما طلب المال للتفاخر والتكاثر والإستعانة على قضي الشهوات ، وطلب البرو التمكن به مما منع المريض عنه من الأمور التي تبعث عليها الاهواء ، وكان ذلك غير جائز ، والدعاء به جرأة على الرب عز وجل.

---

(١) لم يرد هذا الحديث إلا في مسند الإمام احمد بن حنبل ج ٣ ، ص ١٨ .

(٢) لم يرد هذا الحديث إلا في صحيح مسلم «كتاب الزهد» رقم ٧٤ .

(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

واما الفصل الرابع :

فإن أصل الدعاء هو ان الرجاء يبعث عليه إذا الدعاء طلب ، ولا طلب إلابعدالرجاء فإذا كان الأغلب على قلبه والداعي انه لا يجاب لم يكن رجاؤه صدقاً فلم يخلص الدعاء ولم يتحقق منه الطلب الا بعد الرجاء. فإذا كان الاغلب على قلبه الداعي انه لا يجاب لم يكن رجاؤه صدقاً فلم يخلص الدعاء ولم يتحقق منه الطلب كما لا يتحقق البـــاعث عليه ، والداعي إنما يجاب تصديقاً لرجائه ، فإذا لم يصدق رجاءه ولم يستوجب أن يجاب والله أعلم .

وقد جاء عن النبي ﷺ انه قال : (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة) [١] والأشبه أن يكون معناه وأنتم لا تظنون الرد ، ولا يكون هو الغالب على قلوبكم لأنه أراد: ادعوه معتقدين ان الإجابة إلى غير ما يسألون واقعة لأن الرد ممكن ، والنبي ﷺ لا يأمر أن يعتقد الشيء على خلاف ما هو عليه .

واما الفصل الخامس :

وهو أن يدعوا الله بأسمائه الحسني ولا يدعوه بما لا يخلص بنا وإن كان في نفسه حقاً. قال الله عز وجل : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ [٢] قيل في تفسيره: الله، والرحمن والرحيم ، وهي قراءة في أول آية في القرآن ، وجاء عن النبي ﷺ انه كان إذا اجتهد في الدعاء قال : (يا حي يا قيوم) . وعنه ﷺ : (يا ذا الجلال والإكرام) .

وروي عنه ﷺ انه كان إذا رجع من سفر فابصر المدينة قال : (اللهم رب السموات وما أقللن ، والشياطين وما أضللن ، والرياح وما ذرين ، انا نسألك من خير هـــذه البلدة وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها) [٣] .

وكان ينبغي أن يدعي وإن قال : رب السموات ورب العرش . أو قال : ملك يوم الدين . أو قال : له الأولين والآخرين — أو قال : ربنا ورب آبائنا الأولين أو قال : رب محمد وابراهيم ، فانه كان من أعظم دعاء بني إسرائيل ، إله إبراهيم واسحق ويعقوب وكل ذلك حسن .

---

(١) ورد في سنن الترمذي « دعوات » باب ٦٥ ، وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ ٢ ، ص ١٧٧
(٢) الاعراف : ١٨٠
(٣) لم يرد هذا الحديث الا في سنن الترمذي « دعوات » باب ٩٠

ولا يقال في الدعاء ولا الثناء المميت حتى يقال معه المحيي ، ولا الضار حتى يقال معه المقدم . لأن المعنى أن يعترف له بالقدرة على الشيء وخلافه ليسل خيرها ويستعاذ من شرها ، والإقتصار على المستعاذ منه في النداء والثناء ليس بتمجيد ولا تحميد والدعاء به ليس بدعاء .

ولا ينبغي أن يقال : يا خالق القردة والخنازير ، ويا خالق الحيات والعقارب لأن هذه كلها ضارة مؤذية ، فمن قال من ذكرنا فكأنما يقول : ياضار أومسلط الضرار ، وليس ذلك لأن الدعاء بدعاء تعبد وتذلل وليس الاعراض عن دعاء الله بما توجبه نعمه العارضة منه على عباده له من الأسماء والتجريد لذكر ما خلق فتنة للناس من التعيذ في شيء فلذلك لا ينبغي ان يعيذ به في الدعاء . وبالله التوفيق .

واما الفصل السادس : فإنه يروى عن النبي ﷺ انه قال : (إذا سألتم الله فاعظموا الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه اعطاؤه) [1] وليس معنى هذا انه لا ينبغي لأحد أن يسل الله تعالى إلا شيئاً عظيما ، وإنما هو على ان من عظمت حاجته فلا يمنعه عظمها عنده من أن يسلها الله جل ثناؤه فإنها وإن تعاظمت فلا يتعاظم الله ولا يكبر عليه شيء . والعظيم والصغير من حاجات العباد في اتساع قدرته لقضائها .

وأما عوارض الحاجات فان صغيرها و كبيرها متفقان في ان سبيلهما أن يرفعا إلى الله جل ثناؤه ويتوقع نجاحها من عنده . قال رسول الله ﷺ (اسألوا الله حوائجكم كلها حتى شسع نعالكم إذا انقطع وحق الملح) [2] .

واما الفصل السابع : فان الدعاء سؤال في عمد إلى سؤال غيره ، فسرد يسرد أو هو لا يحيط بمعناه ، وإن أحاط به كان مصروف الهم عنه إلى لفظه ، وكان اختياره ذلك الدعاء على غيره لأجل الذي نظمه وإعجابه به لم يكن داعيا ولا سائلا وإنما يكون كالقاضي دعا غيره .

والمنشد شعر غيره الا أن تكون استعانته بدعاء غيره لأن يجب أن يكون ما يسأل

---

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

(٢) لم يرد الا في سنن الترمذي « دعوات » باب رقم ١١٧

الله تعالى بالفاظ حسنة ، والثناء عليه أمام المسألة بليغـــاً لا يقصد فيه فئة ولا يهتدي مع ذلك إلى تأليف ونظم، ويجد لغيره في مثل ما أنعمه من السؤال دعاء مستحسناً أو يكون عن تسبب الدعاء اليه ممن يقتدي به ويترك بكلامه ، فيستعين به لهذا المعنى ويحضر عند السرد قلبه وتوفيه من إخلاص الطلب حقه ، فيكون عند ذلك والمنشيء للدعاء من عنده سواء بل أفضل من بعض الوجوه والله أعلم .

وأما الفصل الثامن : هو ان لا يشغله الدعاء عن فريضة الله حاضرة ، فلأنه إذااشتغل بالدعاء عن فريضة حاضرة صار عاصياً فلم يستحق أن يعطيه الله من إذا سأله يمنع مراده ، ولأن الدعاء بعد أن يكون تصاحبه الإجابة ، والله أعلم.

وأما الفصل التاسع هو أن يكون الدعاء لا على وجه الاختبـار ، فلان الرب يختبر العبد فيجزيه بما يظهر عنه ، وليس العبد أن يختبر الرب ، لأن الطاعة له لازمة اساء أو أحسن اليه ، ولأن الإختبار ليس باستنجاح ، وإنما الدعاء طلب واستنجاح فما خلا عنهما فليس بدعاء والله أعلم .

وأما الفصل العاشر : وهو التحفظ من الخطأ في الدعاء ، فلأن تعظيم الله تعالىواجب على العبد بكل حال ، وهو في حال مسألته والرغبة أوجب والزم ، فلذلك ينبغي للعبد إذا دعا أن لا يخرج في دعائه إلى ما هو في العبادات فجة وركاكه .

كما يروى عن بعض السلف كانوا يدعون به للتقوية على غشيان النساء ، لكنه إذا أراد ذلك . قال : اللهم متعني باعضائي وجوارحي .

وإن كان يشتهي الطعام ولا يقدر على أن يصيب منه صاحبه فلا يقـول . اللهم قوّني فأصيب من الطعام حاجتي ، وليقل . اللهم أجزل من رزقك فارزقني وزدني به قوة ازد ذلك طاعة وعبادة .

ان نفرت عليه امرأته فلم تحضر فراشه ، فلا يقولن : اللهم الهمها أن تحضر فراشي ، ولا : اللهم اسكنها ونحو ذلك . وليقل . اللهم اصلحها لي ، كما قال الله عز وجلفيزكريا صلوات الله عليه . ﴿ وأصلحنا له زوجة ﴾ [1] أي جعلناها تلد بعد ان كانت عـاقراً ، واسم الاصلاح يأتي على ذلك وغيره مما ذكرت .

---

(١) الأنبياء : ٩٠

وقد جرت عادة المسلمين بأن يدعوا الله تعالى باصلاح واليهم لأنهم رأوا اسم الصلاح منتظما عامة ما فيه النفع له ولهم . فأمر المرأة أقل من ذلك .

وأما الفصل الحادي عشر : وهو أن لا يدعو ضجراً مستعجلا ، فان ذلك فعل من له حق عند آخر يقتضيه .

وليس لأحد من الله حق حاصل عنده ، متأخر عنه ، فيستعجل به ويضجر من تأخره ، والأمر في إجابة الدعاء إلى الله تعالى أن يفضل على عبده ، فهو المحمود عليه ، وإن لم يفعل فلا عتب ولا اعتراض عليه ولأن الدعاء عبادة واستكانة والضجر والإستعجال به إقصاء بها فدل ذلك على انهما من الحوائل بينهما وبين الإجابة كما يرجى أن يكون خلافهما من مقربات الإجابة والله أعلم فهذه الأركان .

واما الاداب فالفصل الأول منها : تقديم التوبة أمام الدعاء ، لما روى عن النبي ﷺ (إن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء عليهم السلام ، أخبر قومك انه لا يغرب علي شيء ، فلا يدعوني أحد منهم وهو مقيم على ذنبه ، فإنه لا يزداد مني إلا بعداً ، ولا أزداد عليه إلا غضباً ، ولكن ليتب ثم ليدعي) .

وليس معنى هذا الحديث عندي . ان المذنب لا تجاب دعوته بحال ، فإنه لو كان هكذا لاشبه أن لا يجاب إذا قال : اللهم بغض إلي معاصيك ووفقني لما تحب وترضى ، أو قال : اللهم تب علي ومعلوم ان له أن يقول هذا ، ويأمل الإجابة .

فوجه الحديث إذا – والله أعلم – أن لا يدعني أحد باسمائي الحسنى ولا يتقرب إلي بالثناء على اتمام حاجة يستقضيها وهو مقيم على ذنبه ، فإني وإن قضيت حاجته ، فلا أعد دعاءه عبادة ، لأنه إنما أدخلته فيه حاجته لا تعظيمه إياي ، وحبه إلي ، إذ لو كان كذلك لم يعصني ولم يرتكب ما يهينه عنه ، ولا يزداد مني إلا بعداً ، لاني أرد عليه ثناءه ولا أقبله منه ، ولا أزداد عليه غضباً لأني ابتليته بالحاجة التي لا يحملها دعائي فلم ير في حق جلالي وعظمتي ان يتقدس بالتوبة أمام دعائي ، لكنه لزم خطيئته ، ولم يفارق فيها عاداته .

ولئن كان هذا الوعيد مع الإجابة فكأنه يقول : لا أزداد عليه إلا غضباً لأنه عرف الحاجة ، فلم يتذلل بالتوبة ، ثم رأى الإجابة فلم يشكر بالتوبة ، فتغلظت ذنوبه السالفة بذلك ، واستحق لها زيادة الغضب من الله تعالى .

وفي هذا الحديث معنى آخر : وهو ان إجابة الدعاء للمصر على الذنب يكون تعريضاً عاجلا له من الثناء على الله ، فيخرج دعاؤه كذلك من جملة العبادات التي يثاب عليها في الآخرة ، وينزل ذلك منزلة رد بنائه عليه التي يتداعى فان دعاءه يكتب له عبادة حسنة ، وأقل جزاء : الحسنة عشر أمثالها ، يتعجل منها الإجابة ثم يكون ما وراءها مدخراً له إلى يوم القيامة .

واما الفصل الثاني : فقد جاء عنه فيه عن النبي ﷺ انه قال :

(إن الله يحب الصالحين في الدعاء) [1] وانه ﷺ قال : (إن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل أو ساهي) [2] وإنه ﷺ قال (إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه لكي يسمع تضرعه) [3] أي يجيب دعاءه ، ويثيبه بتضرعه .

وفي هذا بيان التضرع من آداب الدعاء والله أعلم .

واما الفصل الثالث : فقد جاء فيه عن النبي ﷺ انه قال : (من سره أن يستجاب له عند الشدائد والكرب ، فليكثر الدعاء في الرخاء) [4] .

ويحتمل أن يكون الدعاء في الرخاء بدل الثناء والشكر والاعتراف بالمنن ومسألة التثبت والتوفيق والمعونة والتأييد والإستغفار لغواهم ، والتقصير فان العبد وإن جهد لم يوف ما عليه من حق الله تعالى بتمامه .

وأما الفصل الرابع : فقد جاء فيه عن النبي : (إذا دعا أحدكم فليعزم في الدعاء . فان الله لا يشكره له) [5] وجاء أنه قال : (فليعزم في الدعاء ولا يقبل اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم اعطني إن شئت ، وليسل مسألته عزماً ، فإن الله يشكره) .

ومعنى هذا : إن من سأل آدمياً مثله فإنما يقول : إن رأيت وإن أملت وليتك ، فقلت لا تقدر في المسؤول كراهيه ، ويخش ان عزم عليه أن يحمله الحياء ، أو معنى سؤاله على إجابة ، وهذا لا يليق بالباري عز وجل ، لأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

---

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .
(٢) لم يرد إلا في سنن الترمذي « دعوات » باب ٦٤ .
(٣) ورد بهذا المعنى في سنن ابن ماجه « الفتن » باب ٢٣ (ان الله ان أحب قوماً ابتلاهم)
(٤) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .
(٥) ورد في صحيح البخارى « التوحيد » باب ٣١ .

وإذا كان كذلك ، وكان الدعاء سؤالاً وطلباً وجب تجريد الطلب لأنه أخشع من خلافه فإن الطلب إذا كان تدللا ، فكل ما كان منه أخلص وأبين كان التذلل فيه أشد والله أعلم .

واما الفصل الخامس :فقد جاء فيه عن النبي ﷺ انه كان إذا سأل سأل ثلاثاً ، وإذا دعا دعا ثلاثا . وقد يجوز أن يدخل في هذا الباب الالحاح ، ولكن لأن الدعاء أوله وآخره على الله عز وجل وذكر له بمدائحه ، وهو جل ثناؤه قال : ﴿ اذكروا الله ذكراً ﴾ [١] وأقل الكثير ثلاث والله أعلم .

واما الفصل السادس : وهو أن لا يستشعر البأس إذا دعا فلم يظهر الإجابة ولكنه يدعو ما دامت الحاجة قائمة ولا يقطع الرجاء . فإن هذا يروى عن النبي ﷺ انه قال : (يستجاب لاحدكم ما يعجل يقول : دعوت فلم يستجب لي فيخسر عند ذلك الدعاء) [٢] وهـذا لأنه قد جاء في حديث آخر : (إن الله تعالى إذا أحب عبداً أخر إجابته ليسمع صوته ، وإذا أبغض عبداً عجل إجابته أو ألقى البأس في صدره) (٣) .

فلا ينبغي للعبد أن يقطع الدعاء إذا لم ير له اجابة عاجلة ، بل يحسن الظن بالله تعالى ويرجو أن يكون تأخيره إجابة دعائه لانه ممن يحبه ، فأراد أن يسمع تضرعه ، فإن لم يقدر على هذا ولم تطاوعه نفسه عليه ، واستشعر بأساً فامسك عن الدعـــاء خيف أن يكون ممن كره الله صوته عن الدعاء بالاقناط .

واما الفصل السابع : وهو الاقتصاد في الدعاء على الجوامع ، فلانـه يروى عن النبي ﷺ ، انه قال : (أحب الدعاء إلى الله وأعجبه اليه الجوامع) (٤) والله أعلم – مثل أن يقول : ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . وأن يقول : اللهم إني أسألك خيراً من خير ما سألك به محمد عبدك ونبيك ، ومثل أن يقول . (اللهم إني أسألك الجنة وما قرب اليها من قول أو عمل . وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول أو عمل . وما أشبه هذا .

---

(١) الأحزاب : ٤١ .
(٢) ورد في صحيح البخاري « دعوات » باب ٢٢ ، وفي سنن ابن ماجه « الدعاء » ٧ رقم ٣٨٥٣ .
(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .
(٤) ورد بهذا المعنى في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٦ - ص ١٤٧ ، ص ١٤٨ ، ص ١٨٩ .

لانه إذا دعا بالجوامع فقد سأل الله تعالى من كل خير ، وإذا اقتصر على حسنة بعينها، فقد قصر في النظر لنفسه ، فلا ينبغي له أن يعدل عن الجوامع إلا ان تعرض له حاجة بعينها . فينبغي في المسألة عليها مثل ان يمرض له من يعز عليه او يغيب او يصل اليه قال او يخاف احداً ، فيدعو الدعاء الجامع ويضم اليه الفرد الذي وجب الحال إلى مسألته والله اعلم .

واما **الفصل الثامن** :فهو الصلاة على رسول الله ﷺ ، روى عنه ﷺ انه قال : (إذا دعا احدكم فليحمد الله ثم ليصلي على نبيه ثم ليسل) (١) وقال . (كل امر ذي بال لايبدأ فيه بحمد الله اقطع) (٢) والدعاء امر ذو بال وقد يجوز ان يكون المعنى في حمد الله مدحه والثناء عليه وهذا شيء لا يخلو الدعاء منه.

وقد يجوز أن يكون المعنى شكره على سوالف نعمه ، رجاء أن يجعل الله ذلك الشكر سبباً للمزيد ، وأن تكون إجابة الدعاء مما تزيد ، وإذا صلى على النبي ﷺ في أول الدعاء صلى الله عليه في آخر الدعاء ، كما انه يثني على الله تعالى ويذكره بمدائحه في طرفي الدعاء جميعاً ، وذلك ارجاء أن لا يميز الله تعالى دعاءه فيجب ويرد بعضه ، وقد يكون لأن الدعاء وأركانه وآدابه إنما أخذ عن النبي ﷺ ، وعلى لسانه علمنا الله تعالى ما علم .

فيقضي ختمه عند الدعاء فرحا بما علمناه منه واعتداداً بالنعمة وجزيل الحظ فيه بان يدعوا له قبل الدعاء الذي يكون في نفوسنا وبعده لما تدعوا له في صلاتنا بعد ذكر الله تعالى لهذا المعنى والله أعلم .

واما **الفصل التاسع** : هو الدعاء في حال الطهارة ، فإنه يروى أن النبي ﷺ « توضأ حين دعا لأهل المدينه ، وأمر عائشة أن تتوضأ ثم تدعو وهذا لأن الدعاء ذكر يراد به العبادة فهو كقراءةالقرآن والأذان والخطبة ،وكل منها تستحب له الطهارة ،فاستحب للدعاء .

واما **الفصل العاشر** : وهو استقبال القبلة ، فإنه يروى عن النبي ﷺ أنه استقبل القبلة حين دعا لأهل المدينة وحين دعا يوم بدر وهذا لأن استقبال القبلة في كل مجلس مستحب ، لان النبي ﷺ قال : « أشرف المجالس ما استقبل به القبلة » (٣) فهو باب

---

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٢) ورد في سنن ابن ماجة « النكاح » باب ١٩ ، رقم ١٨٩٤ .

(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

يستحب الدعاء أحق ، ولأن الدعاء ذكر يراد به العادة ، فهو كالأذان وقراءة القرآن والله أعلم .

واما الفصل الحادي عشر : فهو الصلاة أمام الدعاء ، ولأن النبي ﷺ ، كذلك فعل حين دعا لأمته بقباء ، وقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ (١) فقيل معناه : فاجهد نفسك بالدعاء ، وإليه فارغب وسله ما عنده من الخير ، فإنه لا يمكنه ولا يمن به غيره . وفي هذا بيان . ان الدعاء ينبغي أن يكون بعد الصلاة والله أعلم .

واما الفصل الثاني عشر : وهو رفع اليدين بالدعاء لما يروى عن النبي ﷺ : « ان الله يستحيي من العبد أن يرفع إليه يديه فيردهما خائبتين » (٢) ومعنى يستحي لا يفعل ، لأن في العادات ان من استحيا من شي، تركه . ومعنى لا يفعل : أي لا ينبغي أن يكون الظن به أن لا يفعل لأن ذلك هو الأحسن ، وحسن الظن بالله في الجملة أولى ، ولأنه يؤثر عنه جل جلاله أنه قال : « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني » (٣) .

فالذي يليق بهذه المقدمة أن يكون الظن الداعي بالله جل جلاله حين دعائه إياه أنه داخل في هذا الوعد ، وان كان ذلك خيراً يحتمل إطلاقه من الخصوص ، والتقييد بالشروط ما يحتمله الأمر والنهي والله أعلم .

وغاية رفع اليدين أن يحاذي بهما المنكبين ، لما يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « الدعاء هكذا ، ورفع يديه حذو منكبيه ، وجعل ظهورهما مما يلي السماء ، والابتهال هكذا ، ورفع يديه إلى السماء مداً . والاخلاص هكذا ، ورفع إصبعه التي تلي الابهام من اليد اليمنى ليشير بها » (٤) والابتهال أشد الدعاء فكذلك تمد اليدان به نحو السماء .

وروي أن النبي ﷺ كان إذا أصابته شدة رفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه ، وهذا – والله أعلم – على أن الداعي يمد يديه أشد ما يقدر عليه رفعا لهما نحو السماء ، كالحريص على شيء يراد إلقاؤه اليه ، لتكون يده أقرب إليه . فإن أصل

---

(١) الانشراح : ٧ – ٨ .
(٢) ورد بهذا المعنى في سنن ابن ماجة « الدعاء » باب ١٣ ، حديث رقم ٣٨٦٥ .
(٣) ورد في صحيح البخاري « التوحيد » باب ١٥ ، ٣٥ ، وفي صحيح مسلم « الذكر » باب ٢ .
(٤) ورد بهذا المعنى في سنن ابن ماجة « الاقامة » باب ١٥ ، أكثر من حديث .

ورفع اليدين هكذا ، وهو أن يكون الداعي كالمتكفف المتعرض ، وان يملأ كفيه مما يسل ، وكذلك إذا جد به الأمر مدهما لما ذكرت .

واما الفصل الثالث عشر : وهو خفض الصوت بالدعاء ، فإن الله عز وجل قال : ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر في القول﴾ (١) ومعنى ذلك أنه أخشع وأخضع ، وذلك بحال الداعي أليق وأشبه .

واما الفصل الرابع عشر : وهو مسح الوجه باليدين بعد الدعاء ، فلما يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « ما يمنع أحدكم إذا عرف الإجابة في نفسه ، فشفي من مرض أو قدم من سفر أن يقول الحمد لله الذي بعزته وجلاله تتم الصالحات ، وإذا أبطأ عليه شيء من ذلك أن يقول : الحمد لله على كل حال (٢) وهذا أيضاً على حسن الظن بالله جل جلاله وانه لم يؤخر الإجابة إلا لحين علمه لعبده ، وأراد به ولم يستشعر به ، ولا بأساً يمنعه عن الدعاء في المستقبل ، وقال : اللهم لك الخلق والأمر . تفعل ما تريد وأنت على كل شيء قدير .

واما الفصل الخامس عشر : وهو أن لا يخلي يوماً وليلة من الدعاء لما يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « لكل مسلم ومسلمة في كل يوم وليلة دعوة مستجابة » (٣) .

وأيضاً فقد جاء عن النبي ﷺ : « من لم يدع غضب الله عليه » (٤) وقال عز وجل بعد قوله : ﴿أدعوني أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ (٥) .

فإذا كان هذا هكذا ، فما ينبغي لأحد أن يخلى يوماً وليلة من الدعاء لأن الزمان يوم وليله وما وراءهما تكرار فإذا كان ترك الدعاء أصلا موجب الغضب ، فأدنى ما في تركه يوم وليلة والله أعلم .

واما الفصل السادس عشر : فهو تحري الأوقات والأحوال والمواطن أرجى من بعض والدعاء طلب واستنجاح ، فينبغي أن يتحرى له ما يقرب منه النجاح والاجابة . فالأوقات التي تقدم ذكرها خمسة :

---

(١) الأعراف : ٢٠٥

(٢) لم يرد الا في سنن ابن ماجة « الادب » باب ٥٥ ، رقم ٣٨٠٣

(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٤) ورد في سنن ابن ماجة « دعاء » رقم ٣٨٢٧ .

(٥) غافر : ٦٠ .

أولها : بين الظهر والعصر من يوم الأربعاء ، قال جابر بن عبد الله دعا رسول الله ﷺ في مسجد ثلثا يوم الاثنين ويوم الثلاثاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين ، فعرفت البشر في وجهه ، قال جابر فلم يزل في أمرهم غليظ الا توخيت تلك الساعة ، فأدعو فيها فأعرف الاجابة .

وقد يحتمل ما جاء في هذا الحديث أن وجهه ما جاء في خبر يرويه عن النبي ﷺ أنه قال : « أتاني جبريل فقال ان الله يأمرك أن تقضي باليمين مع الشاهد » [1] وقال : يوم الأربعاء يوم نحس مستمر » [2] ومعلوم أنه لم يرد لذلك أنه نحس على المصلحين بل أراد به نحس على الفجار المفسدين .

كما كانت الأيام النحسات المذكورة في القرآني نحس على الكافرين من قوم عاد لا على نبيهم ، والمؤمنين منهم . وإذا كذلك ان تمهل الظالم من يوم الأربعاء إلى نزول الشمس ، فإذا أدبر النهار ولم تحدث رجفة استجيب دعاء المظلوم عليه ، فكان اليوم نحساً على الظالم . ودعاء النبي ﷺ إنما كان على الكفار قول جائز لم يترك أمر غائظ فيه إشارة إلى ما ذكرت والله أعلم .

والثاني : ما بين زوال الشمس من يوم الجمعة إلى أن تغرب الشمس ، فان النبي ﷺ قال : « في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه » [3] ثم روى عنه : « أن تلك الساعة قبل غروب الشمس أغفل ما يكون الناس » [4] .

وروي عنه ﷺ أنه أخبر : « ان الساعة ما بين أن يجلس الى أن يقضي الصلاة » [5] وهذا اما أن يكون إذا جلس الامام قبل أن يفتتح الخطبة واما بين خطبته ، واما بين الخطبة والصلاة ، وأما في الصلاة بعد التشهيد.

وروي عنه ﷺ أنه كان في صلاة العصر من يوم الجمعة ، فلما صلى ركعتين جاء كلب ليمر بين يديه ، فدعا عليه رجل من القوم فوقع ميتاً ، فصلى رسول الله ﷺ الركعتين الأخريين ، فلما قضى صلاته قال : « من الداعي على هذا الكلب ؟ . قال سعد بن مالك :

---

(١) ورد في سنن ابن ماجه « الاحكام » باب ٣١ ، رقم ١٣٦٨ - ٢٣٧٠ .
(٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة، وانما وردت أحاديث تشيد الى ان يوم الاربعاء هو يوم بلاء .
(٣) ورد في صحيح البخاري « الجمعة » باب ٣٧ ، وفي سنن ابن ماجه « اقامة » ٩٩ - ١١٣٨ .
(٤و٥) ورد في سن ابن ماجة « اقامة » ٩٩ ، رقم ١١٣٩ .

أنا يا رسول الله . قال : بأي شيء دعوت ؟ قال : قلت : سبحانك لا إله إلا أنت بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والاكرام ، اهلك هذا الكلب . فقال : « والذي بعثني بالحق ، لقد دعوت في ساعةلو دعوت فيها على ما بين السماء والأرض لاستجيب لك »(١).

وقال بعض العلماء : هذه الأخبار في يوم الجمعة غير متنافية ، لأنه أخبر أن فيها ساعة ، ثم أجاز أن تكون كل ساعة من الساعات المذكورة تلك الساعة ، كما أخبر ليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان ، ثم أجاز أن يكون كل وتر من أوتارها تلك الليلة والله أعلم .

والثالث : الاسحار ، روي أن النبي ﷺ سئل لما أخر يعقوب بنيه إلى السحر فقال ﷺ : « لا دعاء السحر مستجاب »(٢) ، وقد أثنى الله عز وجل على المتهجدين بالاسحار فقال : ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ (٣) . وقال : ﴿ والمستغفرين بالاسحار ﴾ (٤) قبلت بذلك فضيلة هذا الوقت .

والرابع في الافياء روي عن النبي ﷺ أنه قال : « تحروا بالدعاء في الأفياء » (٥) فقيل معناه أن يتحول الظلال عن الزوال من جانب إلى جانب . وقيل معناه : إذا فات الافياء وذلك قبل غروب الشمس بيسير .

والخامس . يوم عرفة . وري عن النبي ﷺ قال : أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير » (٦) .

وقد يجوز أن تكون تسمية النبي ﷺ هذا الذكر ، وإن لم يكن نداً ولا سؤالاً ، لأن الغرض منه ذلك اليوم ، وفي ذلك الوقت خير يعود من الله عز وجل على الذاكر ، فكان بالحقيقة سائلا ، وان كان لا يأتي بلفظ السؤال كالذي يطوف على بعض الأبواب والأسواق ، ليدعو الناس يكون سائلا ، وإن حذف لفظ السؤال ، وعلى ان الذاكر قد يثني على الله عز وجل بمحامده ، ويظهر حاجته فلا يبوح بها ، علماً بأن الله تعالى يعلمها مني ويشتغل

---

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .
(٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .
(٣) الذاريات : ١٨ (٤) آل عمران : ١٧
(٥) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .
(٦) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

بالذكر مكان التكلم بحاجته إعتماداً على ما بلغ الرسول عن ربه عز وجل . (من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » (١) وبالله التوفيق .

وأما الأحوال التي سبق ذكرها فسبع أولها : حال النداء للصلاة ، وبين الاذان والاقامة ، وعند الاقامة لما يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا نودي للصلاة فتحت أبواب السماء ، وأبواب الجنان واستجيب الدعاء » (٢) ومعنى هذا — والله أعلم — أن الله يستجيب الذين يسمعون النداء للصلاة فيأتونها ويقيمونها كما أمروا به إذا دعوه وسألوه ، لتكون إجابته — جل ثناؤه — إياهم إليَّ ما سألوه ثواباً عاجلا بمسارعتهم إلى ماأمرهم به.

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : « الدعاء بين الاذان والاقامة لا يرد» (٣) وعنه ﷺ : « انه إذا أقيمت الصلاة لم ترد دعوه »(٤) وعنه ﷺ : « تفتح أبواب السماء عند الاقامة، ويستجاب الدعاء » (٥) .

والثانية فطر الصائم . يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « للصائم عند فطره دعوة لا ترد ، (٦) .

والثالثة . نزول الغيث . جاء عن النبي ﷺ . (إن ابواب السماء تفتح عنده) (٧) وقال الله عز وجل: ﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ﴾(٨) فبان بهذه الآية ان حال نزول الغيث حال رحمته ، والاسترحام في حال الرحمة ارجاء فيه حال لا يعرف حقبها .

والرابعة : التقاء الصفين . وفي هذه أيضاً جاء النبي ﷺ : « أن أبواب السماء تفتح عندها ، وأحد ما تفتح السماء أن يكون مثلاً لاجابة الدعاء » . أي انه لا يحجب ، ومعنى لا تحجب تجاب ولا ترد .

والخامسة : اجتماع المسلمين على الدعاء . فانه يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « لا

---

(١) ورد في سنن الترمذى « ثواب القرآن » ٣٥ ، وفي سنن الدارمي « فضائل القرآن » ٦ .
(٢) ورد في صحيح مسلم « الصلاة » ص ١٨ ، ١٩ .
(٣) ورد في سنن أبي داود « الصلاة » باب ٣٥ .
(٤) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .
(٥) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .
(٦) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .
(٧) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .
(٨) الشورى : ٢٨

يجتمع أربعون رجلا من المسلمين يدعون في أمر واحد الا استجاب لهـم حتى لو دعوا على جبل لزلزلوه »[1] وقد يحتمل أن يكون هذا ، لان الاربعين عددمن يلزمهم الجمعة وتنعقد بهم ، وعدد المسلمين الذين لما بلغوه أظهروا الاسلام ، فيرجأ إذا بلغ عدد الدعاة هذا ان يلحقهم الله تعالى بجماعة المسلمين الذين لو أمكن أن يجتمعوا على دعاء فاجتمعوا عليهـم لاستجاب لهم وبالله التوفيق .

والسادسة : ادبار المكتوبات . يروى أن النبي ﷺ سئل . أي الدعاء أسمع ؟ قال : « شطر الليل الاخر ، وادبار المكتوبات »[2] . وهذا قد يلتحق بقول الله عز وجـل . ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ (٣) وقد تقدم الكلام فيه . وقد يحتمل أن يكون المعنى في ادبار المكتوبات ان القوم لما أوفوا ما عليهم منها طالبين بـه رضوان الله تعالى . وقد يرجي أنهم دفعوا في تلك الحال حاجة أجيبوا ، لأن الاجابة في حـال كأن منهم فيها ما يوجب الرضى عنهم أرجيء منها في حال سواها والله أعلم .

والسابعة : القيام في المجلس . وهذه الحال إنما يدعي فيها الكفارة المجلس دونغيرها. وروي عن رسول الله ﷺ أنـه قال : « كفارة المجلس أن يقول : إذا أردت أن تقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارت إسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك » (٤) وقـل سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك وأتوب إليك ، لأن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول بعـد نزول سورة الفتح : فلقصيري عليه ، وذلك لأن نفسه نعيت إليه بها ، فينبغي لكل من ظـن انه لا يعيش مثل ما قد عاش أو قام من مجلس يظن أن لا يعود إليه أن يستعمل الذكر والله أعلم .

واما المواطن فسبعة : الموقفان والجمرتان وعند البيت وعلى الصفـا ، وعلى المروة . جـاء عن النبي ﷺ أنه قال : « لا ترفع الأيدي إلا في سبـع مواطن فذكرها » (٥) . والمعنى . لا ترفع الايدي بالدعاء الا في هذه المواطن ، لأنها ترفـع فيها بالدعاء لفضلها ، ولما يرجى من الاجابة عندها .

---

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .
(٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .
(٣) الانشراح : ٧ - ٨
(٤) لم يرد الا في مسند امام احمد بن حنبل ج ٢ ، ص ٣٦٩ .
(٥) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

فصـــــل

وكل ما ذكرت من الأوقات والاحوال والمواطن فانها أسباب تقوي الرجاء بالله جـل ثناؤه ، وفي إجابة الدعاء ، لان الدعاء لا يقبل إلا عندها ، فمن عرضت له حاجـــة في غيرها ، فلا ينبغي له أن يمتنع من الدعاء خيفة الرد ، بل يدعو قوي الرجاء ، حسن الظن بالله تعالى ، فإنه يستجب دعاءه بجودة وكرمه .

فصـــــل

ان قال قائل : إذا كان الله تعالى قد قدر التقادير ودبر الامور وميز السعـــداء من الأشقياء ، وأجرى العلم بمن هو صائر إلى الجنة أو صائر إلى النار ، فما فائدة الاجتهاد في العبادات . ما نقول له ؟ فإن قال: العبادات مأمور بها وإنما على العبد الطاعة والتدبير إلى الله تعالى . قيل له: فإن إحدى العبادات الدعاء وهو مأمور به ، وسئل العبادات يسمعوا ويطيعوا ويدعو الله تعالى في الشدة والرخاء والتدبير إلى الله تعالى .

وان قال : إنما ينبغي الاجتهاد في العبادات لأنه قد أبان أن المطيع يدخل الجـــنة والعاصي يدخل النار ، فكل يجتهد برجاء أن يدخل الجنة قيل، وقد أمر بالدعاء، وقال حكاية عن نبي من أنبيائه عليهم السلام أنه قال : ﴿ لا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ (١) وقال : ﴿ ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ (٢) .

وجاء عن النبي ﷺ : « من لم يدع غضب الله عليه » (٣) . فينبغي للعبـد أن يدعو أو يرجو إنجاح حاجاته من الله تعالى ، فإنه إن لم يفعل كان امــا قانطاً واما مستكبرا ، وكل واحد من الأمرين موجب للغضب .

ويقال له : أليس العبد وان اجتهد فقد كان ممكناً انه يجتهد أن يدخله الجنـة بفضله فما معنى الاجتهاد ؟.

فان قال : يجوز أن يكون عند الله تعالى انه ان اجتهد ثبته بالقول الثابت في الحيـاة

---

(١) يوسف : ٨٧ (٢) غافر : ٦٠

(٣) ورد في سنن ابن ماجة « الدعاء » باب ١ ، رقم ٣٨٢٧ .

والدنيا وفي الآخرة فأدخله الجنة ، وان ساهل نفسه واتبع الشهوات سلبه الايمان وأدخله النـــار .

قيل : وقد يجوز أن يكون عند الله تعالى ان العبد ان سأله خيراً من خير الدنيـــا والآخرة أتاه إياه ، وإن لم يسأله لم يؤته ، وانه ان استعاذ به من النـــار أعاذه ، وان لم يستعذ به منها لم يعذه . فينبغي لهذا أن يدعوه .

ويقال له : أليس الله تبارك وتعالى ، قد قدر الأعمال والاجال والصحة والسقم فما فائدة التداوي من الأمراض ؟.

فان قال : قد أمر رسول الله ﷺ بالتداوي . قيل له : قد أمر الله بالدعاء ، وانه قال يجوز أن يكون عند الله تعالى في بعض المرضى انه ان تداوى سلم فعاش ، وان أهمل أمره أفسده المرض فهلك .

قيل : ويجوز أن يكون عند الله انبعض المرضىإن دعاه وسأله العافية أو دعاوسأل له عزة عافاه . وإن لم يدع لنفسه ولا دعا غيره أهلكه ، فليحسن الدعاء بمثل ما أحسن له الدواء وبالله التوفيق .

فصـــل

ان سأل سائل : عن قول الله عز وجل : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ (١) وقال : قـد يدعى فلا يستجيب ، فما وجه هذا ؟

قيل : أمره جل جلاله بالدعاء للاجابة كالأمر بالتداوي للعافية ، وخلقـه الدواء الاماطة الداء ثم قد يتداوى فلا تكون العافية ، وقد يتداوى من الداء بدوائه فلا يزول ، ولا سؤال يؤخذ هناك فكذلك هاهنا .

ونقول : معنى قوله جل ثناؤه أدعوني أستجب لكم ، أي بحسب نظري لكم ورحمتي لكم ، لا بحسب أهوائكم وأمانيكم ، صحت أو فسدت وخفت أو بطلت لأن هذه الآيـة غير مفردة في القرآن عن أخرى فيها بيناً بها ، وهو قوله عز وجل : ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ﴾ (٢) وقوله : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير ،

(١) غافر : ٦٠ (٢) المؤمنون : ٧١

وكان الإنسان عجولا ﴾(١) وذلك والله أعلم - على معنى انه ربما دعا بما هو شر لـه ولا يدري ، فيحسبه خيرا له .

فدلت الآيتان جميعاً على أن الله تعالى إنما يستجيب الدعاء بالمستجمع شرائطه إذا علم الداعي فيما سأل خيراً . فأما إذا علم أن له فساداً أو شراً فإنه لا يستجيب لـــه دعاءه إكراماً وثواباً له بدعائه . ولكنه إذا كان عليه ساخطاً فقـد يفعل ذلك بـه عقوبة له والله أعلم .

وقيل : ليس بشيء من دعاء المؤمنين إذا استجمع شرائطه غير مستجاب لأنهامنزلتان الاجابة أو الرد . فإذا لم يكن رد فليس إلا الاجابة . والرد أن لا يعطي بدعائه شيئـاً فتكون منزلته بعد ما دعا كمنزلته قبل أن يدعو ، أو ما عدا هذا فليس برد وإنما هـو إجابة . الا ان الاجابة تختلف كما قال النبي ﷺ : « ما من مسلم يدعو الله بدعوةليست فيها قطيعة رحم ، ولا اثم ، إلا أعطاه احدى خصال ثلاث : اما يقبل دعوته ، واما ان يدخرها له في الآخرة ، واما أن يدفع عنه مثلها ، قال يا رسول الله . إذاً نكبر . قالو الله تعالى أكثر أتي الله أكثر خيراً وفضلا لا يعجزه اعطاؤكم وإن كثر سؤالكم) (٢) . فبـأن بهذا الحديث ان الاجابة تنقسم ستة أقسام احدها عطاء السائل عما سأل ، ثم قد يكون ذلك قريباً ، وقد يكون بعيداً .

والاخر : تعويضه منه مثله أما خيراً بعطائه ، أما شراً يصرف عنه وهذا أعظم ما تكون معنى للاجابة ، وإذا كان الله جده أوجب على عبده غير حق ثم رضي منه بالبدل والفدية ويجعله بها مؤديا حقه ، فكيف لا يجيب العبد ما يعوضه الله تعالى من دعائه ومسألته إجابة له وتصريفاً لأمله . بل يرى ان ذلك رد وتحبيب .

والثالث . أن يعوضه في الآخرة . ومعنى ذلك أن يغفر له ، فكان ما سأل في الدنيا ديناً أو ذنوباً في الآخرة ، فيعود هذا إلى صرف بلية بقدر ما سأل بدعائه لأنه لابلية أعظم من النار ، فإذا أشرق عليها ، ثم صرف عنها كان سروره بذلك أشد من سروره في الدنيا بما سأله لو كان أعطاه .

وفي هذا أيضاً إجابة دعائه لأنه لا يخلو من أن أعطى به شيئاً كان لا يعطاه ولا دعاؤه

---

(١) الاسراء : ١١

(٢) لم يرد إلا في مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ ٣ ، ص ١٨ .

وليس هذا من الرد بمستحيل . فأما قول الله عز . ﴿ بل أياه تدعون ﴾ [1] فيكشف مـا تدعون اليه إن شاء ، وهذا للكفار كقوله . ﴿ وتنسون ما تشركون ﴾ [2] وهو كقوله عز وجل ﴿ فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلمـا نجاهم إلى البر إذا هم يشركـون ﴾ [3]

...ن انه قد يحرمهم ويرد دعاءهم بكفرهم ، قد يجبهم عين ما يسألون تأكيـداً للحجة ...يهم . ...أما المؤمنون فان دعاءهم لا يرد إذا استجمع شروطه ، ولكنه يجاب، ثم الإجابة على ما وصفت وبالله التوفيق .

فصـــل

فأ... الفرق بين دعاء الرجل لغيره بالخير وبين الشفاعة له ، فهو ان الدعاء إنما يكون قبل ظهور حال المدعو أو لعله حسن الحال عند الله تعالى ، وما يراد له حاصل بلا دعـاء أحد ، فيكون الدعاء لمن يدعو له محافظة على حق الإسلام الجامع بينهما ، أو حق المدعو له قبله ولم يكن شفاعة .

أما الشفاعة فإنها تكون بعد أن يظهر سوء حال المشفوع له ، معناها استهاب العقوبة أو استحاط المتمة ، فلا تحل إلا لمن كان حسن الحال عند تعالى ، ومن لم يعلم ذلك لنفسه ، فمن المحال أن يشفع لغيره ، ولعله محتاج إلى من يشفع له . فلهذا لم تكن الشفاعة مطلقة لكل أحد كالدعاء ، ويبين افتراقهما انه ما من أحد إلا ويدعو لنفسه كما يـــدعو لغيره . لا تكون إلا من عن المذنب للمذنب ، فدل ذلك على تباينها والله اعلم .

نجز الجزء الأول من كتاب الحليمي وبالله التوفيق . يتلوه في الجزء الثاني إن شاء الله تعالى الثالث عشر من شعب الإيمان ، وهو باب في التوكل على الله جل ثناؤه ..

على يد العبد الفقير إلى الله تعالى الراجي عفوه وامتنانه أحمد بن محمد الشافعي البتنوي الكناني نسباً غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين آمين ...

(١ و ٢) الأنعام : ٤١

(٣) العنكبوت : ٦٥

محتويات الجزء الأول من كتاب المنهاج في شعب الايمان